عبد الرحمن منيف



مُدن الملح
بادية الظلمات

V

علي مولا



عبد الرحمن منيف

من مؤلفاته:

ارض السواد (3 اجزاء)

الأشجار واغتيال مرزوق

سباق المسافات الطويلة

عالم بلا خرائط
(بالاشتراك مع جبرا إبراهيم جبرا)

شرق المتوسط

قصة حب مجوسية

ام النذور

سيرة مدينة
(عمان في الأربعينات)

النهايات

لوعة الغياب

الكاتب والمنفى

العراق: هوامش من التاريخ والمقاومة

بين الثقافة والسياسة

عروة الزمان الباهي

التصميم:
مروان قصاب باشي

الإخراج:
أنيا مورينغ

صورة الكاتب:
رسم لمروان قصاب باشي

مثلما تبدّد الجزء الأكبر من ثروة النفط، تبدّد الجزء الأكبر من الزمن الذهبي الذي كان بمقدوره أن يجعلنا على صلة بالعصر، وعلينا الآن أن نواجه رهانات ما تبقى من عصر النفط، وما بقي من الزمن الذي كان ذهبياً وواعداً.

ولأن البادية بالغة السعة، والظلمات تزداد وتتكاثف، فإن العقل وحده هو الذي يبني أوطاناً قوية، ويترك إمكانية لأجيال المستقبل أن تواصل العيش، وأن تتدارك ما قصّرت عنه الأجيال التي سبقتها، وإلا... فإن الفناء المادي ما ينتظر أوطاناً وشعوباً، واللعنات ستكون النشيد الأخير قبل أن يعم الصمت، وتمتلئ الصحراء بالوحشة مرة أخرى!

عبد الرّحمن مُنيف

مُدن المِلح

بـادية الظلمات

V

المركز
الثقافي
العربي

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

عبد الرحمن منيف

مُدُن المِلح

بادية الظلمات

الطبعة الحادية عشرة، 2005

الناشران

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج
الكارلتون، ص.ب: 5460 ـ 11
تلفاكس: 807900/ 807901
التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع:
عمّان، ص. ب: 9157، هاتف:
5605432، فاكس: 5685501

المركز الثقافي العربي
للنشر والتوزيع

المملكة المغربية.
الدار البيضاء: 42 الشارع الملكي
(الأحباس) ص. ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 ـ فاكس: 305726
لبنان
بيروت: شارع جاندارك ـ بناية
المقدسي. ص. ب: 5158/ 113
هاتف/ فاكس: 343701/ 352826
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

ذاكرة الأمس البعيد

الذاكرة. . . لعنة الإنسان المشتهاة ولعبته الخطرة، إذ بمقدار ما تتيح له سفراً دائماً نحو الحرية، فإنها تصبح سجنه. وفي هذا السفر الدائم يعيد تشكيل العالم والرغبات والأوهام.

وإذا كانت في حياة كل إنسان لحظات ومواقف تأبى أن تغادر الذاكرة، فليس لأنها الأهم، أو لأنها أعطت لحياته مساراً ومعنى، إذ ربما لم تقع بنفس الدقة أو بالتفاصيل التي يتخيلها أو يفترضها، وإنما لفرط ما استعادها في ذاكرته، بشكل معين، ربما الذي يتمناه، يوماً بعد آخر، فقد أصبحت وحدها الحقيقة، أو وهم الحقيقة.

فنر وهو يتذكر عين فضة، وأيامه في موران، ثم عندما أصبح نائباً لأبيه في العوالي، فإنه يتذكر لحظات ومواقف وتغيب أخرى، لكن تظل صورة هاملتون هي الأقوى.

فبعد أن رتب وهاملتون عدداً من الأمور في العوالي، وحلا الكثير من القضايا المتراكمة، وكانت عادتهما أن يسهرا ويطيلا السهر، يتذكر فنر أن هاملتون قال له في إحدى الليالي كلاماً لم يألفه.

قال له:

- إنك، يا سمو الأمير، بحاجة إلى كمية كبيرة من البحر، نعم كمية كبيرة، لكي توازن هذا الكم الهائل الذي لديك من الصحراء!

والأمير الذي أعجب بالتعبير، لم يجد له دلالة عملية، أو معنى محدداً.

ابتسم، هز رأسه، ولم يعلق.

هاملتون، مثل عادته، حتى عندما كان طالباً في الجامعة، «إذا أردت

أن تستقطب انتباه الآخرين يجب أن تتكلم أما بطريقة مختلفة أو شيئاً مختلفاً». لا يتذكر هل قرأ هذه العبارة، هل سمعها، أم هو الذي صاغها؟ المهم أنها ظلت ملازمة له منذ وقت طويل، وإن أخذت أشكالاً متطورة وذكية تبعاً لتقدمه في العمر، واتساع ثقافته وتجاربه.

الآن، وهو يقول هذه العبارة للأمير، وكانا جالسين على شرفة قصر الهازعي بالطريفة، وجانب من البحر يرى من هناك، يريد أن يكون هذا الدرس أول الدروس وأكثرها أهمية.

ـ . . . والبحر، يا صاحب السمو، ليس المياه والزرقة والأمواج، إنه فلسفة كاملة، تبدأ بالخوف ثم التأمل وأخيراً بالتواصل. والتواصل يشكل قاعدة المثلث، لأن الصحراء تشترك مع البحر في الصفتين الأخريين، إذ بمقدار ما تثير الصحراء الخوف في حالات معينة، فإنها، بعد أن يزول الخوف، تحمل الإنسان على التفكير والتأمل، وتوحي له بالكثير، لكنها، مع ذلك، تضع بينه وبين الآخرين سداً. وهي بمقدار ما يمكن أن تكون حماية ضد الغزاة والطامعين، فإنها أيضاً سجن للقاطنين فيها، فهي تعزلهم عن الآخرين، وتجعلهم يولدون ويعيشون ثم يموتون وحيدين وبعيدين. . . إلا في حالات قليلة ونادرة، حين يتوافر الرجال الشجعان، والظروف المواتية. عندها يمكن أن تكسر قضبان هذا السجن، وينطلق السجناء إلى الخارج، حاملين صفاءهم وتأملاتهم وإرادتهم المديدة الصلبة، وقد ازدادت قوتهم حين امتحنوا بقطع هذه الصحراء. . .

فنر يرى هاملتون لأول مرة بهذه الصورة، لقد أغلق عينيه نصف إغلاقه، وكأنه يستعيد درساً، لفرط ما كرره، أصبح يردده بهذه الطريقة العميقة المؤثرة. ورغم أنه فهم المعنى العام للكلام الذي أداه هاملتون كما يؤدي المؤمن الصلاة، أو كما يرفع المتوسل دعاءه إلى قوة مجهولة، لكي تساعده، فقد احتار. لم يكن هاملتون هكذا من قبل، وما يقوله الآن يتجاوز تلك الثرثرات التي يروق للبعض أن يرددها لإشعار الآخرين بسعة المعرفة.

قال فنر:

ـ لا أريد أن أسأل الآن، يمكن أن تتكلم، مستر هاملتون، كل ما تريد، لكن لدي الكثير من الأسئلة فيما بعد.

ـ يمكن أن أقول أشياء عديدة، يعرفها غيري، لكن أحس، خلافاً للكثيرين، إنه إذا تم الوصول إلى معادلة جديدة، هي الصحراء والدين والبحر، فعندئذٍ يمكن أن يترتب على هذه المعادلة شيء جديد!

ابتسم. نظر إلى السماء، التفت قليلاً، نظر إلى البحر، تنحنح ثم تابع:

ـ لا أريد أن أفسد الفطرة التي يتمتع بها سكان هذه الصحراء، وربما كان جلالة السلطان نموذجاً لها، وحتى لو أردت قد لا أستطيع. وأعرف أن لديك من روح الصحراء فيضاً يزيد عما تحتاجه، أو عما هو مطلوب في مثل العالم الذي نعيش فيه اليوم، كل ما افترض أنه ضروري، لكي تولد المعادلة الجديدة، أن يكون في قمة الهرم بحارة شجعان كسروا قضبان سجن الصحراء وانطلقوا، عبر البحر، وليس عبر صحاري أخرى، لكي يمثلوا نموذجاً، يحتاجه هذا العصر.

هز رأسه كمن يفيق من النوم، أو كمن يختبر نفسه بعد صدمة قوية، وبعد قليل:

ـ لا أخفي عليك، يا صاحب السمو، إنني مشوش، إذ بمقدار ما تبدو لي الصورة واضحة، وكأنها جوهرة في الظلمة، إلا أنها زلقة مثل سمكة، أو خادعة مثل نقطة نوز تسقط من مكان عالٍ. أحس الأشياء بغزارتها الأولى وتدفقها، لكن لا أقوى على مسكها، وهذا ما يعطي حديثي نسقاً مضطرباً وغامضاً.

ضحك فنر، وكان ضحكه أقرب إلى القهقهة، لأن حالة الانفعال التي سيطرت، فجأة، على هاملتون، جعلته مضطرباً حنقاً. تابع دون أن يأبه لهذه المقاطعة:

ـ اعترف أن الدوافع الحقيقية لوجودي هنا لم تعد واضحة حتى بالنسبة لي. ربما كنت أعرف، من قبل، لماذا جئت أكثر مما أعرف الآن. صحيح أنني قدمت بعض الخدمات، وأديت بعض المهمات التي كُلّفت بها، كما

أتيحت لي الفرصة لأن أطلع وأعرف أكثر من قبل، ويمكن أن أكتب كتاباً أو أكثر عن الآثار، لكن، مع ذلك، أشعر أنني افتقدت التركيز اللازم، أو بالأحرى أصبحت أكثر حيرة وأكثر قلقاً. أو بكلمة دقيقة أصبحت أقل يقيناً.

وتذكر كلمات عمته، ماركو. منذ سنوات طويلة قالت كلمات لا يزال رنينها يعاوده بين فترة وأخرى. كان هو وكان أبوه، وكانوا يتناقشون فيما إذا من الأفضل بالنسبة له البقاء في لندن أو السفر إلى الهند، وكان هو متردداً وحائراً. قالت عمته:

ـ مشكلة هاملتون، وابتسمت، إنه نصفان: نصفه شاعر ونصفه مفكر...

وابتسمت أكثر من قبل وهي تضيف:

ـ ولا أعرف أي نصفيه الشاعر وأي نصفيه المفكر، ولا أعرف أي النصفين سوف يتغلب في النهاية.

ابتسم أبوه وقال بسخرية لاذعة:

ـ ولا أحد يعرف ما إذا كان مقسوماً عمودياً أم أفقياً!

استعاد هاملتون مع عمته ذلك الحديث بعد سنوات طويلة، ابتسمت، وأضافت العمة في المرة الثانية:

ـ وربما الأصح أن استبدل كلمة شاعر بكلمة مغامر.

تذكر هاملتون هذه القصة وهو يتدفق، اضطرب، قال لفنر:

ـ من حسن حظي أني لم ألتحق بسلك التدريس، لأن هذا السلك يوحي للمدرس أنه ينقل اليقين للآخرين، والآخرون ينتظرون من المدرس هذا اليقين، دون أن يكلفوا أنفسهم امتحان القناعات بشكل جدي، ودون رغبة بتبادل الأدوار.

وبعد قليل وهو ينهض لكي ينهي الحديث ويريّض جسده:

ـ يمكن أن نتحدث حول هذا الموضوع في وقت لآخر!

لقد جرى هذا الحديث في بداية إقامتهما في العوالي، وكان هاملتون

في أوج حماسه واضطرابه معاً. إذ ربما افترض، خلال فترة سابقة، أنه يستطيع أن يؤدي دوراً بين طرفين بحاجة إلى بعضهما، وبحاجة إليه، وهذا الدور إذا تعدى ساعي البريد، أو المشورة التي قد يؤخذ بها أو تهمل، فإنه لا يرقي إلى درجة يمكن أن يجسد فلسفة طالما راودته بغموض، أو حلم بها في ليالي الصحراء الناعمة المديدة.

الآن، يقف في مواجهة التحدي الذي طالما انتظره. صحيح أنه كان في فترات سابقة يعرف ما يجب أن يعمله، وكان متأكداً وراغباً، لكن مثل أشياء كثيرة في هذه الحياة، لا يقدّر الإنسان مدى إمكانياته في ممارستها إلا حين يمارسها بالفعل.

المشاكل الكبيرة والصغيرة لها الأهمية نفسها، في هذه الفترة الدقيقة: فتح شارع، أو تأمين المواد التموينية لإحدى المناطق، أو مواجهة نتائج سيل من السيول، تأخذ من وقت الأمير فنر، وبالتالي من وقته، المقدار نفسه الذي تأخذه مسألة غضب ابن مشعان، وسفره العاصف إلى مناطق الشمال ليلتحق بقواته، ونفس مقدار الوقت أيضاً الذي تأخذه مسألة ترتيب العلاقة بشكل كامل ونهائي مع بريطانيا العظمى أو إحدى الدول المجاورة.

قال هاملتون لنفسه، بعد أن داهمت السيول مناطق عديدة في العوالي وخربت وأتلفت الكثير: «لا بد أن تترك الفلسفة إلى الفلاسفة، يا هاملتون، أو أن تتركها إلى الوقت المناسب». والتفت إلى مواجهة السيول وآثارها. وبالإضافة إليها هناك آلاف الطلبات الصغيرة التي تبدأ بالمتسولين وتنظيف الشوارع، وليس هناك حدود لما يمكن أن تصله.

هذا الوضع لم يختره أحد، وإنما فرض نفسه، لأنه الشيء الوحيد الذي يكوّن الحياة والعلاقات، وبالتالي يحدد النتائج التي يمكن الوصول إليها الآن أو في المستقبل.

وإذا كان هاملتون يجد وقتاً فارغاً، بعد أن تنتهي الأعباء اليومية، وتنتهي هنا بمعنى أنه لم يعد من الممكن معالجة أكثر مما تمت معالجته ذلك اليوم، فإنه يكون متعباً ومنطفئاً، ولا يستطيع أن يستعيد نفسه إلا برشفات من الويسكي.

لقد اكتسب هذه العادة، مع عادات أخرى، من الهند، أثناء خدمته هناك. ورغم أن الكثيرين من الذين زاروا موران، أو عرفوا عاداتها، حذّروه من الشرب، إلا أنه لم يتوقف. كل ما فعله أنه غيّر الطريقة، فبدلاً من أن يشرب الويسكي مع الصودا، وبدل الكأس الكريستال التي كان يحرص عليها كثيراً، أصبح يشرب الويسكي جافاً ومن فم الزجاجة، بعض الأحيان. قال للسلطان، منذ الأيام الأولى لإقامته:

ـ . . . وأحب، يا صاحب الجلالة، أن أبلغك، حتى لا يأتي من ينقل إليك في المستقبل، أني أتناول مقداراً من الكحول، وأنا أفعل ذلك بناء لطلب الطبيب.

ولما التبست الكلمة على السلطان، وتساءل عن هذه «الكحول»، أوضح له أن الكحول هي الخمر. التفت السلطان في أكثر من اتجاه، ليتأكد أن أحداً لم يسمع، وأجاب:

ـ وإذا كانت هذي وصية الطبيب ما أحد يقدر يخالفها، يا الصاحب!

وبعد قليل ويهمس:

ـ بس يلزم تعرف، الله يسلمك، جماعتنا عقولهم مثل العصافير، إذا شافوا أو عرفوا ما نخلص من حلوقهم. والأحسن أنهم ما يشوفون ولا يعرفون!

والسلطان الذي تحسب وخاف ما لبث أن تأكد واطمأن، فهاملتون أشد حرصاً أن لا يعرف أحد، خاصة وأنه يشرب مقداراً محدوداً، ولكي «يفتّح خلايا الذهن وينشط الدورة الدموية» كما قال مرة، حين سأله السلطان. أكثر من ذلك حرص أن يحمل معه مقادير وافرة من الأدوية المعروفة، للأوجاع الطارئة أو للجروح. وما يكاد يواجه حالة أو وضعاً يستدعي التدخل أو تقديم المساعدة حتى يفعل. فالصيدلية التي يحملها معه في أسفاره، وكانت تكبر وتتسع فترة بعد أخرى، كان ضمنها «دواء الحصر» كما سماه السلطان ذات مرة، حين رأى عدداً من صناديق الويسكي تحمل إلى سيارة هاملتون!

أن يشرب إذن كأساً قبل الغداء، واثنين قبل العشاء، يجعله أكثر نشاطاً

وحيوية، ويستغرب كيف أن «دواء الحصر» كما أصبح هو يسميه أيضاً، يولد فيه هذا القدر من الانطلاق والذكاء ورغبة الحديث، إضافة إلى نسيان التعب أو الهموم.

حتى في المرات التي سافر إلى لندن، أو إلى أماكن أخرى، وانتفت الرقابة، وجد أنه يفضل تناول الويسكي دون إضافة الصودا أو الثلج. ولكي يبرر، حين سئل، قال:

ـ لقد صُنع كذلك ويجب أن يشرب بهذه الطريقة، لأن الإضافات، أياً كانت، تموهه، تغير طعمه الحقيقي، ومن يتعود على الطعم الحقيقي لا يستسيغ أية إضافات أخرى!

لقد عرض على فنر، في إحدى السفرات، أن يشرب، فلما تردد، لم يلحّ عليه، وانتهى الأمر بأن يشرب هو دون حرج، ويعرف الآخرون ولا يستنكرون!

في بعض الأمسيات، ورغم التعب والهموم، كان يعود إلى بعض الأحاديث التي ترتفع فوق اليومي والعادي. ذات ليلة، ورغم التعب، عاد مرة أخرى إلى البحر:

ـ . . . وكما ذكرت في مرة سابقة، البحر يولّد عقلية ونوعاً من السلوك والتصرفات مختلفاً عن مناطق الداخل وعن الصحراء. حتى المناطق الداخلية فإن سكان السهول يختلفون عن سكان الجبال، لأن الطبيعة تفرض قوانينها وتضطر الناس لأن يتكيفوا معها. . . ومن هنا كنت ألفت النظر باستمرار أن الصحراء لها أيضاً قوانينها، وربما تكون هذه القوانين أكثر صرامة وقسوة من أماكن أخرى، وهذا ناتج عن قسوة الصحراء ذاتها. أما البحر، وكذلك المدن البحرية، فإن رغبة الاكتشاف والاتصال مع الآخرين، أو استقبال الآخرين، تولّد بالضرورة عقلاً مختلفاً، تجعل الناس أكثر استعداداً لإقامة العلاقات، للسفر، لاكتساب معارف جديدة.

قال يونس شاهين، الذي لم يحضر المناقشة السابقة، وكان حاضراً هذه المرة:

ـ أتذكر يا مستر هاملتون، أني قرأت في بعض الكتب، أن بريطانيا ذاتها، والتي هي جزيرة يحيطها البحر من كل الجوانب، كانت خلال فترة طويلة معزولة عن العالم، وتشبه الكثير من الصحاري، لانقطاعها وعدم تواصلها مع الدول الأخرى.

قال فنر:

ـ جماعتنا، بموران، إذا الواحد منهم ما سافر مرة سافر مرتين. وما أن يفكوا أحمال السفر حتى يحزموا من جديد، وتلقاهم بكل مكان.

ابتسم هاملتون، هز رأسه عدة مرات، وكان لديه الكثير ليقوله:

ـ هذا بالضبط ما قصدت إليه يا طويل العمر: الإنسان إذا سافر، إذا اطلع واحتك بالآخرين، يمكن أن يكتسب معارف جديدة. والبحر بطبيعته وسيلة الاتصال الفعلية، وبريطانيا، حين كانت معزولة في تلك الجزيرة لم تستطع أن تفعل شيئاً، أما عندما ركب أبناؤها الشجعان سفنهم وانطلقوا، فقد تغيرت الأمور جميعها، أصبحوا يحكمون العالم كله، العالم القديم والعالم الجديد. ومن هنا اعتبر أن موران يجب أن تلتفت إلى البحر، أن تنتظر منه وأن تنظر إليه باستمرار...

كاد هاملتون يجري مقارنة بين فنر وخزعل، ليدلل على صحة وجهة نظره، لكنه تردد، فقال كلاماً عاماً:

ـ وحتى أبناء موران، يا طويل العمر، فإن الفرق كبير بين الذين سافروا واحتكوا واطلعوا وبين الذين لم يغادروا أماكنهم.

قال يونس:

ـ السفر، يا مستر هاملتون، يمكن أن يزيد المعارف، لكن الأهم من السفر هو الاستعداد الشخصي...

وابتسم وهو يتطلع إلى الأمير فنر:

ـ وأرجو ألا يفهم من كلامي التملق، لكن من المعروف والثابت أن أبناء الصحراء يتمتعون بذكاء فطري، ولديهم الاستعداد الذي لا تجد ما يشابهه في الكثير من المدن، حتى البحرية، ولا شك أن للصحراء دوراً في هذا المستوى من الذكاء!

ومرة أخرى بدا هاملتون غير قادر على أن يوصل فكرته، كما يريد. قال في محاولة لأن يلتف عليها:

ـ هذا جوهر الموضوع الذي أردت أن ألفت النظر إليه: إذا استطعنا أن نستخدم الذكاء الذي ولدته الصحراء في الاتصال مع العالم، في بلورة صيغة، فيمكن لهذه الصحراء أن تلعب، مرة ثانية، دوراً خطيراً للغاية.

ويونس شاهين الذي جاء إلى موران، وأصبح من رجال خريبط الأساسيين، يعتبر أن الصحراء، ولا شيء غير الصحراء، هي التي ستعيد العرب إلى أمجادهم وأصالتهم، وبالتالي تجعلهم قادرين على أن يلعبوا دوراً تاريخياً. كما يعتبر أن الصراع المسيحي الإسلامي لم ينته، وأن الحروب الصليبية لا تزال مستمرة، ولذلك فإنه بمقدار ما يكره الافرنسيين ويخافهم، لا يطمئن للإنكليز. صحيح أنه يتعاون معهم، لكن يعتبر ذلك ضرورة أكثر مما هو قناعة.

في الأيام التالية، ومن وحي هذه المناقشة، ولأنه يعتبر نفسه مسؤولاً عن الجريدة، وبالتالي عن الفكر الذي يجب أن يسود السلطنة كلها، كتب يونس شاهين مجموعة من المقالات، وكلها إشادة بالصحراء وبالقادة الذين أنجبتهم، وتوقف طويلاً عند شعر الصحراء، وأورد أمثلة طويلة منه.

فنر الذي ابتسم أكثر من مرة، وهو يقرأ مقالات يونس شاهين، وقد وقعها «بفتى الصحراء»، لم يفته أن يونس هو الذي كتبها، وكتبها من وحي تلك المناقشة. أما هاملتون فقد اعتبر أن مناقشة من هذا النوع مفيدة «لأن المهم أن نحرك هذه البحيرة الراكدة» كما قال لنفسه.

ولأن المشاكل من الكثرة والأهمية بحيث لا تحتمل التأجيل، فقد جعلت أغلب الأشياء تقال مرة، ولا يعاد إليها إلا بالصدفة، أو إذا جدّ بما يذكّر بها.

«**قيل**: كان في الزمن الأول ملك يشرب وأهل ناحيته من ماء السماء، فقال له منجموه: أنّا نجد في علمنا أنه من شرب من ماء هذه السنة المقبلة تغير عقله وخولط، فإن رأى الملك أن يأمر بادخار الماء لنفسه وخاصته فليفعل، ولا يشربوا من ماء هذه السنة المقبلة. فأمر بالمصانع فاتخذت وادُّخر فيها من الماء ما يكفيه ويكفي خاصته. فلما جاء المطر وشرب الناس منه تغيرت عقولهم، واختلطوا. وشرب الملك من الماء الأول هو وخاصته فلم يصبهم ما أصاب العوام.

«فلما رأتهم العامة في خلاف حالهم، قال بعضهم لبعض: إن ملكنا قد خولط وتغيرت عقله وعقول أصحابه. وما الرأي إلا خلعه والاستبدال به ملكاً منا: عاقلاً لم يتغير عقله. فبلغ ذلك الملك، فقال لوزيره وكتّابه ومنجميه: قد ترون ما أجمع هؤلاء عليه، فما الرأي؟ قالوا: الرأي أن نشرب من مائهم حتى نصير في مثل حالهم، فلا ينكروا منك ولا منا ما أنكروه. ففعل وخولط، فصار مثلهم وأصحابه، فلما رأت ذلك العامة قالت: قد برأ الملك وصلح أمره».

لقد استعاد السلطان خريبط هذه القصة أمام فنر عدة مرات، كان يعتبرها مليئة بالذكاء والفطنة، وكان يريده ألا ينساها، إذ غالباً ما يضيف، وهو يغمض عينيه قليلاً، فلا تبينان إلا كخيطين سوداوين كثيفين ويخرج صوته حكيماً:

ـ لأنه إذا جنّ قومك عقلك ما يفيدك.

وقد أضاف مرة أو مرتين، أيضاً:

ـ واللي يرافق القوم أربعين يوم يصير منهم!

حاول فنر، بجهد، أن يكتشف الحكمة في هذه القصة، فلم يجدها. إنها تختلف عن القصص الكثيرة التي سمعها في عين فضة، وتختلف عن الأمثال التي كانت تتردد هناك. وإذ بدت قصص أخرى، كانت تروق لأبيه، وكثيراً ما طلب من عبد الله البخيت أن يرددها على مسامعه، مرة بعد أخرى، مفهومة، أو ربما مقبولة، فإن عدداً آخر من الأسماء والكتب، وكان يحرص عليها السلطان، لم تكن كذلك، وظلت هكذا حتى وقت متأخر.

قال فنر لعنان بسيوني ذات مرة:

ـ وبروحتك لمصر أريدك، الله يسلمك، تجيب لي ما كتبه القالي والشاوي، ومعهم النجار والإسكافي!

وعنان الذي فوجئ بالطلب، دارت عيناه مثل قط، ولا يفعل ذلك إلا «إذا شغّل الماكنة الاحتياط» كما يقول بمرح، فيما لو واجهته أسئلة غير متوقعة أو حرجة، إذ يعطي لنفسه مهلة إضافية ليتذكر أو يفكر بما وراء السؤال، قبل أن يتورط بالإجابة، رد بمرح وأريحية:

ـ نجيبهم يا صاحب السمو، ونجيب الشوباصي، حتى يقسم بينهم بالعدل والقسطاس!

قال فنر بسخرية:

ـ ما نخلص من القالي إلا ويسأله: والإسكافي شنهو اللي قاله عن سالفة عمر وسلمان الفارسي» وابن البخيت: حاضر، يبدأ وكأنه يقرأ بكتاب:

«لما خطب سلمان الفارسي إلى عمر بن الخطاب ابنته فلم يستخبر رده، فأنغم له وشق ذلك عليه وعلى ابنه عبد الله، فشكا ذلك عبد الله إلى عمرو ابن العاص، فقال له: أفتحب أن أصرف سلمان عنكم؟ فقال له: هو سلمان وحاله في الإسلام حاله. قال: احتال له حتى يكون هو التارك لهذا الأمر والكاره له، قال: وددنا أنك فعلت ذلك. فمرّ عمرو بن العاص بسلمان في طريق، فضرب بيده على منكبه وقال: هنيئاً لك يا أبا عبد الله، قال له: وما ذاك؟ قال: هذا عمر يريد أن يتواضع بك فيزوجك، فقال:

وإنما يريد أن يزوجني ليتواضع بي؟ قال نعم، قال: لا جرم، والله لا أخطب إليه أبداً!».

قال عنان بسيوني بأبوة

ـ هذان من شيوخ العرب وأكثرهم حكمة، يا صاحب السمو، فإذا تأملت فيما قالاه وما كتباه لا بد أن تعجب.

ضحك فنر وسأله:

ـ وقصة القرد؟

ـ ما هي قصة القرد»

ـ «قيل كان رجل يسخر بالناس ويدعى أنه يرقى الضرس إذا خرب على صاحبه، فكان كلما أتاه من يشتكي من ضرسه قال له إذا رقاه: إياك أن تذكر القرد إذا صرت إلى فراشك، فإنك إذا ذكرته بطلت الرقية. وكان أحدهم إذا صار إلى فراشه أول ما يخطر على باله القرد، فيبيت على حاله من وجعه، فيغدو إلى من رقاه، فيقول له: كيف بتّ؟ فيقول بت وجِعاً. فيقول: لعلك ذكرت القرد؟ فيقول: نعم. فيقول: من ثَمّ لم تبرأ».

قال عنان:

وسمعته يحدث السلطان بهذه القصة: «وحكي أن المنصور جلس في إحدى قباب مدينته، فرأى رجلاً ملهوفاً مهموماً يجول في الطرقات، فأرسل من أتاه به فسأله عن حاله، فأخبره الرجل أنه خرج في تجارة فأفاد منها مالاً، وأنه رجع بالمال إلى منزله فدفعه إلى أهله، فذكرت امرأته أن المال سرق من بيتها، ولم ير أثر ثقب أو تسلق. فقال له المنصور: مذ كم تزوجتها؟ قال: منذ سنة. قال: أفبكر تزوجتها؟ قال: لا. قال: فلها ولد من سواك؟ قال: لا. قال: فشابة هي أم مسنة؟ قال: بل هي حدثة. فدعا له المنصور بقارورة طيب كان يتخذ له حاد الرائحة غريب النوع، فدفعها إليه وقال له: تطيب من هذا الطيب، فإنه يذهب همومك (يقويك).

فلما خرج من عند المنصور، قال المنصور لأربعة من ثقاته: ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحد منكم، فمن مر به أحد فشم منه رائحة هذا الطيب، وأشمهم منه، فليأتِني به. وخرج الرجل بالطيب فدفعه

إلى امرأته وقال لها: وهبه لي أمير المؤمنين، فلما شمته بعثت به إلى رجل كانت تحبه، وقد كانت دفعت المال إليه، فقالت له: تطيب من هذا الطيب فإن أمير المؤمنين وهبه لزوجي. فتطيب منه الرجل ومر مجتازاً ببعض أبواب المدينة، فشم الموكل بالباب رائحة الطيب منه، فأخذه وأتى به إلى المنصور. فقال له المنصور: من أين استنفذت هذا الطيب، فإن رائحته غريبة معجبة! فلجلج الرجل واختلط كلامه. فدعا المنصور بصاحب شرطته فقال له: خذ هذا الرجل إليك، فإن أحضر كذا وكذا من الدنانير فخله يذهب حيث شاء، وإن امتنع فاضربه ألف سوط من غير مؤامرة. فلما خرجا من عنده دعا صاحب شرطته وقال له: هول عليه وجرده، ولا تقدم بضربٍ حتى تؤامرني.

فخرج به صاحب الشرطة، فلما جرده وسحبه، أذعن برد الدنانير كهيئتها، فأعلم المنصور ذلك، فدعا بصاحب الدنانير وقال له: أرأيتك إن رددت عليك الدنانير بأعيانها تحكمني في امرأتك؟ قال: نعم. قال: فهذه دنانيرك، وطلق المرأة، وخبره خبرها».

هز فنر رأسه وقال:

ـ هذه قصة تدل على الذكاء وبعد النظر.

طال عنان بسيوني بثقة ومرح:

ـ وقرأت قصة أخرى في لطف التدبير للإسكافي، وأريدك أن تسمعها يا طويل العمر، لعلها تفيدك.

قال فنر، هات، رد عليه عنان:

ـ «حدث أبو عبد الرحمن عن شعبة عن قتادة عن جابر بن زيد عن الربيع ابن زياد الحارثي، قال: ما أظن أحداً خدع عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، غيري، وأعوذ بالله أن أقول أنها خدعة، ولكنها توفيق من الله عز وجلّ: كنت عامل أبي موسى على البحرين، فكتب عمر إلى أبي موسى: أنّ وافني بعمالك إذا صدرت عن الموسم. قال: فقدمنا مع أبي موسى، فلما كنا بصرار سبقت أصحابي إلى المدينة، فلقيت يرفا، حاجب عمر رضي الله عنه، فقلت له: يا يرفا، سائل ومسترشد، فأرشدني أرشدك الله،

فقال: سل عما بدا لك. فقلت: على أي حال يحب أن يرى أمير المؤمنين عامله؟ قال: يحب أن يراه أشعث أغبر دميم الثياب عافي الشعر. قلت: أي الطعام أحب إليه؟ قال: ما جَشُب وغلظ.

قال: فانطلقت إلى منزلي فتجوعت يوماً وليلة، ولبست أطماري، ووافيت أصحابي بباب أمير المؤمنين عمر ويسحبون حللهم. قال: فدعي أبو موسى فدخل، ثم دعي بنا فدخلنا، فاصطففنا بين يديه. وصعّد فينا البصر وخفضه، فوقفت عينه عليّ. فقال: هكذا. وأشار إليّ أن أقبل، فدنوت. فقال: من أنت؟ قلت: الربيع بن زياد بن أنس بن الريان الحارثي. فقال بيده هكذا، أي تنحّ، فتنحيت. فصعد فينا البصر وخفضه، فوقعت عينه عليّ، فقال بيده أن أقبل، فدنوت، فقال لي: ما تلي من عملنا؟ قلت: البحرين فقال: يا أبو موسى، كيف هذا؟ قال كالخبر. ثم قال بيده (أن تنح فتنحيت، ثم صعد فينا البصر وخفضه، ثم قال بيده) أن أقبل، فدنوت، فقال: كم ترتزق؟ قلت: خمسة دراهم في كل يوم. قال: مع عطائك؟ قلت: نعم. قال: كثير، مذ كر وليتها؟ ثم قال بيده فتنحيت. ثم صعد فينا البصر وخفضه، ثم قال بيده أن أدن فدنوت، فقال: كم أنت لك؟ قلت: أنا في ثلاثة وأربعين، يعني سنة، قال ذلك حين استحكمت سنك. ثم قال بيده، فتنحيت. ثم صعد فينا البصر وخفضه، ثم قال: اجلسوا، فجلسنا. ودعا بطعامه، فأُتي بجفنة فيها ثريد قلّة[1] ولحوم ابل، قال: فأما أصحابي فعهدهم بالطعام اللين حديث، وأما أنا فكنت جائعاً. قال: فأقبلت آكل وهو يلاحظني، ثم أُسقطت بكلمة تمنيت أن تنشق بي الأرض فأدخل فيها، فقلت لأمير المؤمنين: لو كان طعامك الذي تأكل الين من هذا. فرفع رأسه، قال هيه، قلت ماذا؟ فأدركتها، فقلت: لو كنت تعمد إلى قوتك من الخبز فيخبز لك في الساعة التي تريد أكله فيها أتيت له ليناً، ولو نظرت إلى قوتك من اللحم فطبخ لك في الساعة التي تريد أكله فيها، أتيت به غضباً. قال: أوَ هناك فرق؟ قلت: نعم، قال: أنا والله لو

---

(١) الثريد: الخبز المبلل بالمرق.

شئنا أن نملأ هذه الرحاب التي ترى من صلائق[١] وناب[٢] وكراكر[٣] وأسنمة[٤] وسبائك، يعني خبز الرقاق، فعلنا، ولكن سمعنا الله يقول: إذ هبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها، فاليوم تجزون عذاب الهون» ثم التفت إلى أبي موسى فقال: يا أبا موسى، إذا انصرفت إن شاء الله صالحاً فأعزل هؤلاء جميعاً وأترك هذا على عمله».

كانت تلك طريقة السلطان خريبط في تعليم أبنائه، وقد أوعز «للمعلمين» أن يفعلوا مثلما يفعل، فاحتال المعلمون، كل بطريقته، في إيصال «العلوم»، واختلف الأبناء في استيعاب هذه العلوم!

وإذا كان فنر يتذكر أن أفكاراً أو كلمات أثّرت عليه، فتلك التي سمعها في طفولته. يتذكرها بوضوح، يستعيدها بلذة، وتتألق في لياليه، أكثر من القصص التي تتردد في مجلس أبيه. لا يزال يتذكر أمثال جدته وأحاديثها، أما أحاديث مجول المهنا في عين فضة، فلا يمكن أن تنسى أبداً، وكذلك أشعار مزبان الحمد، وصوت سعد الجريان.

كان سعد الجريان إذا غنى لا يبقي أحداً في عين فضة إلا ويحمله على الركض لكي يسمع صوته؛ ويبالغ الذين يحبونه فيقولون أن صوته لا يطرب البشر وحدهم، بل ويجعل الحيوانات الهائجة تهدأ وتستجيب، وكثيراً ما سمعت الطيور، حتى في الليل المتأخر، تشاركه التغريد. وأكد هؤلاء أن شلعة من الغزلان كانت تمر بالقرب من عين فضة، في إحدى الليالي، وحين سمعت سعد يغني توقفت، ثم اقتربت، وقبل أن تنتهي الليلة أصبحت لا تخاف ولا تجفل من البشر. ويبالغ بعض هؤلاء فيقول إنها أصبحت أليفة بعد تلك الليلة، وأخذت تجيء بعد غروب كل يوم، ولا تردد في أن تتناول الطعام من أيدي المسنين، إلى أن تحولت إلى مخلوقات

---

(١) الصلائق: مفردها الصليقة، وهي اللحم المشوي الناضج.

(٢) الصناب: ادام يتخذ من الخردل والزيت.

(٣) الكراكر: مفردها الكركرة، وهي الصدر من كل ذي خف، وزور البعير الذي إذا برك أصاب الأرض، وهي من أطايب ما يؤكل في الأبل.

(٤) الأسنمة، جمع سنام.

وديعة لا تريد مغادرة عين فضة، وهذا ما دعا فهيد الجريان، ابن عم سعد، وأبرز الذين يرددون الغناء معه، أن يتحول إلى راعٍ ويسرح بالغزلان، وقيل أنه أصبح يركض مثلها، وبعض الأحيان يسابقها ويسبقها، مما جعل شباب القرية يسمونه: فهيد الغزال الجريان!

هكذا يتذكر فنر أيامه في عين فضة. أما حين كبر وانتقل، وبعد أن حملته تلك السفرات إلى الأماكن البعيدة، وسمع ورأى الكثير، ثم بعد ذلك، لما أصبح حاكماً في العوالي، وقامت بينه وبين هاملتون تلك العلاقة، فإن شيئاً، أشبه بالزلزال، غيّر حياته كلها، وسيطر عليه تماماً: كان ذلك نتيجة «الوصايا» الي جاء بها هاملتون في إحدى سفراته.

فلأوّل مرة، منذ سنوات طويلة، يرجع هاملتون مشتعلاً ومليئاً بالتفاؤل والأفكار والأحلام: رجع يحمل تأكيدات بريطانيا العظمى أنها مع السلطان «إذا كان السلطان مع نفسه»، وبالتالي استعدادها لتسوية كافة مشاكل الحدود، إذا استطاع السلطان أن يضبط القوى التابعة له؛ وإثباتاً لحسن النية وتعبيراً عن المودة: منحة مالية، فوق المعونة المقررة.

ورجع هاملتون أيضاً بشهادة تقدير من الجمعية الجغرافية، مع وسام رفيع، على كشوفه الصحراوية السابقة، مع تمن من الجمعية لو يستطيع اجتياز الصحراء من الشمال إلى الجنوب، وتسجيل ملاحظاته ومشاهداته، ودعوة لإلقاء سلسلة من المحاضرات خلال الصيف القادم، أو في أي وقت آخر يحدده ويكون أكثر ملاءمة له، وهذه المحاضرات لن تقتصر على بريطانيا، إذ من الضروري أيضاً أن تنتقل إلى كندا واستراليا. أما إذا تم الوصول إلى كشوف جديدة فسوف يكون ذلك مدعاة للاعتزاز والفخر، لأنه سيكون أول بريطاني يقطع الصحراء من الشمال إلى الجنوب.

بالنسبة لفنر كان هاملتون يحمل هديتين: رسالة من مس ماركو، وجواهر انتقاها من الكتاب الذي لا بد لكل حاكم أن يلم بها إلماماً دقيقاً، جواهر «الأمير» وقد سماها «الوصايا».

هذه الإنجازات جعلت هاملتون إنساناً جديداً، ومثلما سافر عن طريق البحر والطائرة، عاد أيضاً عن طريق الطائرة والبحر. لم يتوقف في القاهرة

سوى أيام قليلة، وبناء لرغبة عنان بسيوني، الذي كان مشتاقاً لزيارة الأهل والأصدقاء، ورغم الأفكار الكثيرة التي راودته أثناء السفر، خاصة فيما يتعلق ببناء الدولة الجديدة، ويمكن أن يبدأ تجربته في العوالي، إلا أنه كان متردداً بين أن يسلم جواهر «الأمير» لفنر دفعة واحدة، وبين أن يلقنها له مادة فمادة، موقفاً فآخر. لكنه في جو الانفعال، وهو يتحدث مع الأمير، في الليل المتأخر، وكانا على شرفة قصر الهازعي، وبعد أن شرب كأساً من الويسكي بدد التعب والتردد، قال وهو يستخرج الأوراق من حقيبة صغيرة، لم تكن بعيدة عنه:

ـ قد تبدو، يا صاحب السمو، الأوراق التي سأقدمها لك الآن قليلة العدد، وقد يبدو قسم منها غير مفهوم، ربما نتيجة الترجمة، مع أني استعنت باثنين ساعداني في هذه المهمة، أو ربما لا تتطابق مع أوضاع هذه المنطقة أو هذه المرحلة...

كاد يتوقف، فقد أحس أن هذه البداية، وبالطريقة المتواضعة التي يعرض بها سلعته، قد تقلل من أهمية الهدية. تنحنح فجلا صوته:

ـ هذا الكتاب الذي ترجمت الأقسام الأساسية منه، يا صاحب السمو، كان فقط في خزائن الملوك، وكان الملك الأب، حين يبلغ ابنه مبلغ الرجال، ويتوسم فيه القدرة على متابعة الطريقة وحماية التاج، يقدمه إليه بالكثير من الاحترام والأبهة، لأن فيه نصائح وتجارب صنعها عقل فذ، وبالتالي أصبحت قوانين لأجيال متعاقبة من الملوك والحكام...

ابتسم، وكانت ابتسامة أقرب إلى الضحك الساخر، واسترسل:

ـ بعض الناس يحبون أن يلخصوا البحر بقطرة ماء، والصحراء بحبة رمل، ولذلك يقعون في خطأ فادح، وغالباً لا يشعرون بهذا الخطأ إلا في وقت متأخر، وهكذا لخص بعض المؤرخين المثاليين كتاب الأمير بكلمة لا تعبر عنه، قالوا: «الغاية تبرر الواسطة»، إن هذه لا تعني شيئاً إزاء البحر والصحراء.

استراح قليلاً، عبّ قطرات من الويسكي، ولا تزال الأوراق بيده

اليسرى، وكأنه يؤخر تقديمها، فلما أحس أن كلماته تسربت إلى فنر غيّر نبرة الصوت:

ـ الوصايا التي عبر عنها «الأمير» ليست لليوم والغد، إنها للحياة كلها، وقد تنقضي الحياة أيضاً دون أن تطبق جميعها، ومع ذلك، ومثلما يتعلم الطبيب أعراض الأمراض وكيفية علاجها، فيجب على الحاكم أن يتعلم ما جاء في هذا الكتاب، لكي يستطيع أن يواجه المصاعب والمشاكل والأزمات. . .

ولكي يتغلب عليها أيضاً قال فنر بدعابة، وقد شاقه حب الاستطلاع:

ـ عطني، طال عمرك، وما يكون لك فكر، ولك عليّ أن أحفظه!

اقترب منه هاملتون، حتى كاد يلامسه، وقال بهمس:

ـ إن قراءته أو حفظه لا تعني شيئاً كثيراً، أو بالأحرى، لا تعني الشيء الأهم.

تراجع فنر قليلاً وهو ينظر إليه لكي يكتشف ما إذا كان جاداً أو مازحاً، تابع هاملتون بانفعال:

ـ المهم، يا سمو الأمير: أن يُفهم بعمق، أن يستوعب، وأيضاً أن يضاف إليه مقدار هام من البداوة، لكي يلائم هذا المكان وهذه المرحلة، لأنه بدون البداوة كمن يزرع ثماراً استوائية في القطب!

بدا الأمر لفنر مثيراً وطريفاً في آن واحد، تساءل:

ـ وهذا صاحبكم، اللي سوى هذي العلوم كلها، حي أو ميت؟

تطلع إليه هاملتون وابتسم، إذ لمح في كلامه ما يشبه السخرية، تابع فنر:

ـ يعني إذا كان موجوداً، نقول له تعال يا ابن الحلال، تعال عندنا بزيارة، مثل ما يجي الطبيب إذا البني آدم احتاجه.

ـ لقد مات هذا الرجل، يا صاحب السمو، منذ مئات السنين، لكن تعليماته لا تموت، تتجدد مع كل نظام، وتلبس دائماً الأزياء المحلية والشعبية في البلد الذي تطبق فيه!

تخوف فنر قليلاً، تساءل بنبرة حذرة:

- خاف يكون واحد من الأنبياء، وخاف تريدني أصير نصراني؟

قهقة هاملتون، وبعد أن هدأ:

- لا أريد أن أشرح أكثر من ذلك، إليك هذه الأوراق، اقرأها بإمعان، وسوف تتحدث عن ذلك طويلاً في المستقبل.

أخذ فنر الأوراق، قلبها، لم يقرأ إلا كلمة هنا وكلمة هناك، قاطعه هاملتون:

- تتذكر، يا صاحب السمو، أحاديثنا قبل شهور حول الصيغة أو المعادلة التي يجب الوصول إليها من أجل بدء مرحلة جديدة؟ لقد ذكرت لك أنه إذا أمكن دمج الصحراء والبحر والدين في معادلة فعندئذٍ يمكن الحديث أن دولة جديدة ولدت في هذا الشرق، ويمكن أن يكون لها مستقبل هام.

وفنر الذي كان أكثر رغبة لمعرفة تفاصيل السفرة والنتائج التي تم الوصول إليها، تذكر بعض المناقشات المضطربة التي جرت بينه وبين هاملتون، قال في محاولة لأنِ يعطي الأمور مساراً متواضعاً:

- حنا، طال عمرك، إذا حلينا مشاكلنا ودبرنا أمورنا، ترانا بألف خير، وما نريد أكثر من كذا.

قال هاملتون بثقة:

- كل ما أريده منك، يا صاحب السمو، أن تقرأ، بعناية، الأفكار الأساسية التي اخترتها لك. لا أريد أن تطبّق بالكامل، بحرفيتها، المهم أن تستوعب، وأن تتحول إلى صيغة تلائم هذه البلاد وهذه المرحلة.

تطلع فنر مرة أخرى، في ظلمة المساء إلى الأوراق، لم يميز الحروف، ولم يقرأ شيئاً، قال وهو يكورها على شكل اسطوانة:

- وعد، يا مستر هاملتون، أن أحفظها، أكثر من أن أقرأها، وبعدها نشوف...

وابتسم قليلاً ثم سأل:

ـ والسفرة... إنشاء الله كانت زينة؟ والنتائج، إنشاء الله، كانت مثل ما تريد؟

ـ وأكثر من ذلك، يا طويل العمر.

وفي اليوم التالي، سافر هاملتون بالسيارة إلى موران، لكي يحمل إلى السلطان النتائج التي توصل إليها. وعنان بسيوني الذي كان رفيقاً في السفر، وقد عاد معه، كان أميل إلى الصمت، إذ لم يشارك إلا بعبارات عامة، وأكدّ أن النتائج كانت مرضية، ولم يضف أكثر من ذلك.

كانت، أولاً، رسالة مس ماركو، ودية وقصيرة:

«سمو الأمير

كنت أتوقع، بل وأتمنى، أن أراك هنا مرة أخرى، فالشوق الذي أحسه نحوكم يجعلني، في أحيان كثيرة، أفكر أن الأصدقاء يجب أن يلتقوا، وأن يتبادلوا الأفكار والتجارب. صحيح أنه ليس لدي تجارب يمكن أن تفيدكم، أو تساعدكم على أداء مهماتكم المباشرة، لكن، مع ذلك، فإن تبادل القصص، وحتى التجارب الشخصية، يمكن أن تساعد في رؤية أفضل، خاصة وأن هاملتون ذكر لي الكثير عن المهمات اليومية التي تواجهونها.

عزيزي سمو الأمير

لو كنت أصغر سناً، وبالتالي لو كنت أكثر قوة ونشاطاً، لما ترددت في أن أعرض عليكم خدماتي، فأنا متأكدة أن بلادكم بحاجة إلى الكثير من الجهد والعمل، وفي كل المجالات، ومع ذلك، فإني لم أتردد، رغم الشيخوخة، في أن أضع نفسي تحت تصرفكم، فيما لو كانت خدماتي الطبية مفيدة لبلادكم. طبيعي لن أستطيع أن أفعل أو أن أبدأ كما كان الأمر في سيلان، لكن مع ذلك فقد أكون مفيدة في مستوى معين ولمرحلة محدودة، أترك لكم التقدير وتقبل تحياتي وتقديري، سمو الأمير».

أما الصفحات المختارة التي قدّمها هاملتون فكانت كما يلي:

«مختارات من كتاب الأمير:

«على كل من يضع يده على الممتلكات ويود الاحتفاظ بها، أن يجعل

نصب عينيه دائماً أمرين في منتهى الأهمية: أولهما: إبادة الأسرة الحاكمة السابقة، وثانيهما عدم أحداث تبدل جوهري في قوانين هذه الممتلكات وضرائبها، وبهذه الطريقة يمكن للبلدين أن يتحدا في وقت قصير، وأن يؤلفا دولة واحدة».

«وفي سبيل الحفاظ على الممتلكات الجديدة فإن خير الوسائل وأكثرها طمأنينة هو أن يقرر الحاكم الجديد إقامة مقره في الممتلكات الجديدة، وهذا القرار يجعل الامتلاك أكثر سلامة وأطول أمداً».

«إن علينا إما أن نعطف على الناس، أو أن نقضي عليهم، إذ ان في وسعهم الثأر للإساءات الصغيرة، أما الإساءات الخطيرة والبالغة فإنهم أعجز من أن يثأروا لها. ولذا إذا أردنا الإساءة لإنسان فيجب أن تكون الإساءة إلى درجة بالغة لا نضطر بعدها إلى التخوف من انتقامه».

«القاعدة العامة تنص على أن الأجنبي القوي، عندما يدخل إمارة، فإن الضعفاء من أهلها يصبحون فوراً من أنصاره».

«وعلى حاكم المقاطعة أن يقيم نفسه زعيماً لجيرانه الضعفاء، وحامياً لهم، وأن يحاول إضعاف الأقوياء منهم».

«للأمير في الدول التي يحكمها الأمراء وموظفوهم سلطة أكبر وأوسع، إذ ليس في الدولة من يعتبر في منصب الرفعة سواه، وإذ كانت الطاعة مفروضة لغيره، فلأنهم من وزرائه وموظفيه، وليست لهم أية اعتبارات خاصة، كما لا يحمل الناس لهم أية عاطفة معينة».

«بالنسبة إلى الممالك الجديدة، حيث يوجد أمير جديد تتوقف سهولة السيطرة أو صعوبتها على ما يتمتع به المسيطر من مقدرة فائقة أو ضئيلة»، .

«. . . أثبتت الأيام أن الأنبياء المسلحين قد احتلوا وانتصروا، بينما فشل الأنبياء غير المسلحين».

«تختلف طبيعة الشعوب، وقد يكون من السهل إقناعها بأمر من الأمور، ولكن من العسير إبقاءها على هذا الاقتناع، ولهذا أصبح من الضروري فرض الأمور عليها، حتى إذا توقفت عن الاقتناع أرغمت عليه بالقوة».

«إن على المحتل، عند احتلاله لدولة من الدول، أن يتخذ التدابير اللازمة لارتكاب فظائعه فوراً ومرة واحدة، وأن لا يعود إليها من يوم إلى آخر، وهكذا يتمكن عن طريق عدم القيام بتبدلات جديدة من خلق الطمأنينة عند شعبه، واكتسابه إلى جانبه بواسطة المشاريع النافعة له».

«أما المنافع فيجب أن تمنح قطرة فقطرة، حتى يشعر الشعب بمذاقها ويلتذ بها».

«إن الأمير الذي يعجز عن إدراك ما يقع في دولته من مشاكل عند وقوعها إنسان تعوزه الحكمة الصادقة».

«على الأمير أن لا يستهدف شيئاً غير الحرب وتنظيمها وطرقها، وأن لا يفكر أو يدرس شيئاً سواها، إذ أن الحرب هي الفن الوحيد الذي يحتاج إليه كل من يتولى القيادة».

«وكثيراً ما يرى الإنسان أن الأمير الذي يفكر بالترف والرخاء، أكثر من تفكيره بالسلاح، كثيراً ما يفقد إمارته، ولا ريب في أن ازدراء فن الحرب هو السبب الرئيسي في ضياع الدول وفقدها».

«وعلى الأمير أن يقرأ التاريخ، وأن يدرس أعمال الرجال البارزين، فيرى في أسلوبهم في الحروب، ويتفحص في أسباب انتصاراتهم وهزائمهم، ليقلدهم في هذه الانتصارات، ويتجنب الوقوع في الأخطاء التي أدت إلى هزائمهم، وأن يفعل كما فعل غيره من الرجال في الماضي، من تقليد لشخص انهال عليه المديح والتمجيد، وترك أعماله ومآثره مكشوفة للجميع».

«وعلى الأمير إذا كان يعجز عن ممارسة فضيلة الكرم دون المجازفة باشتهاره، أن لا يعترض إذا كان حكيماً عاقلاً على تسميته بالبخيل. وسيرى الناس، مع مضي الزمن، أنه أكثر سخاء مما كانوا يظنون، وذلك عندما يرون أنه على طريق تقتيره أصبح يكتفي بدخله، ويؤمن وسائل الدفاع اللازمة ضد كل من يفكر بإشهار الحرب عليه، ويقوم بمشاريع كثيرة دون أن يرهق شعبه، ويكون بذلك كريماً حقاً مع جميع أولئك الذين لا يأخذ منهم أموالهم، وهم كثر للغاية، وشحيحاً مع أولئك الذين لا يهبهم

المال، وهم قلة ضئيلة، وقد رأينا في عصرنا الأعمال العظيمة يحققها أولئك الذين يوصمون بالبخل، أما الآخرون فمصيرهم إلى الدمار».

«إن الأمير أما أن ينفق ثروته الشخصية أو ثروة رعاياه، أو ثروات الآخرين. وعليه في رأي أن يوفر ثروته. أما بالنسبة إلى الثروات الباقية فعليه ألا يهمل، ان يكون جواداً معطاءً».

«إذ ان إنفاقك أموال الآخرين لا يقلل من شهرتك، بل يرفع من قدرها، بينما إنفاقك لأموالك يلحق بك الضرر. وليس هناك ما هو أشد ضرراً على نفسه من الجود والكرم، إذ باستعمالك له تفقد قدرتك على استخدامه، وتصبح إما فقيراً وإما حقيراً، أو إذا رغبت النجاة من الفقر تضحى نهاباً سلاباً، يكرهك رعاياك. وعلى الأمير أن يتجنب قبل كل شيء أن يوصم بالحقارة، أو يتعرض للكراهية، ولا شك أن الكرم سيقوده إلى إحدى هاتين النتيجتين».

«ولذا على الأمير أن لا يكترث بوصمه بتهمة القسمة، إذا كان في ذلك ما يؤدي إلى وحدة رعاياه وولائهم».

«إن من الواجب أن يخافك الناس وأن يحبوك، ولكن لما كان من العسير أن تجمع بين الأمرين، فإن من الأفضل أن يخافوك على أن يحبوك».

«وعلى الأمير أن يفرض الخوف منه بطريقة يتجنب بواسطتها الكراهية إذا لم يضمن الحب».

«إن الناس يحبون تبعاً لأهوائهم وإرادتهم، ولكنهم يخافون وفقاً لأهواء الأمير وإرادته، والأمير العاقل هو الذي يعتمد على ما يقع تحت سلطانه لا تحت سلطان الآخرين، وعليه فقط أن يتجنب الكراهية لشخصه».

«وعلى الأمير الذي يجد نفسه مرغماً على تعلم طريقة عمل الحيوان، أي اللجوء إلى القوة، أن يقلد الثعلب والأسد معاً، إذ ان الأسد لا يستطيع حماية نفسه من الإشراك، والثعلب لا يتمكن من الدفاع عن نفسه أمام الذئاب. ولذا يتحتم عليه أن يكون ثعلباً يميز الفخاخ وأسداً ليرهب الذئاب».

«وعلى الحاكم الذكي المتبصر أن لا يحافظ على وعده عندما يرى أن هذه المحافظة تؤدي إلى الإضرار بمصالحه، وأن الأسباب التي دعته لإعطاء ذلك الوعد لم تعد قائمة».

«كم من المرات تنكر الأمراء لمواثيق السلام، فنقضوا معاهداتهم، وكم من المرات أضحت عهودهم لا قيمة لها من جراء تنكرهم لها، وأن يبرهن على أن أولئك الذين تمكنوا من تقليد الثعلب تقليداً طيباً قد نجحوا أكثر من غيرهم. ولكن الضرورة تحتم على الأمير الذي يتصف بهذه الصفة أن يجيد إخفاءها عن الناس، وأن يكون مداهناً كبيراً، ومرائياً عظيماً. ومن طبيعة الناس أن يكونوا من البساطة والسهولة بحيث يطيعون الاحتياجات الراهنة، ولذا فإن من يتقن الخداع يجد دائماً أولئك الذين هم على استعداد لأن تنطلي عليهم خديعته».

«وليس من الضروري، تبعاً لذلك، بالنسبة للأمير، أن يتصف بجميع ما أوردته من صفات، ولكن من الضروري أن يتظاهر على الأقل بوجودها فيه».

«وعليه أن يجعل الناس يرون فيه، ويسمعون منه، الرحمة مجسدة، والوفاء للعهود، والنبل، والإنسانية، والتدين، ولعل هذه الصفة الأخيرة هي أكثرها لزوماً وضرورة لأن الناس عموماً يحكمون بعيونهم أكثر من أيديهم، ولأن في وسع كل إنسان أن يرى، بينما لا يشعر إلا القليلون. فجميع الناس يرون ما تعمل، وكيف تبدو لهم. أما القلة فيحسون حقيقتك، وستتردد هذه القلة في معارضة رأي المجموع، الذين يعتمدون على جلالة الدولة في الدفاع عنهم، وفي اعمال جميع الناس، ولا سيما الأمراء، وهي حقيقة لا استثناء فيها، تبرر الغاية الواسطة».

«إن على الأمير أن لا يخشى كثيراً من المؤامرات، إذا كان الشعب راضياً عنه، أما إذا كان مكروهاً، ويحس بعداء الشعب له، فإن عليه أن يخشى من كل إنسان ومن كل شيء».

«ومن واجب الأمراء أن يعهدوا بالمهام التي لا يحبها الشعب إلى الآخرين، وأن يقوم هو بإغداق المنح والعطف».

«عندما يحتل الأمير دولة جديدة يضيفها إلى دولته السابقة، فمن واجبه أن ينزع السلاح من أهل تلك الدولة، باستثناء أولئك الذين وقفوا إلى صفه عند احتلالها. وعليه أيضاً، عندما تحين له الفرصة، ويحين الوقت المناسب، أن يضعف هؤلاء الأنصار ويخضعهم، وأن يرتب أموره بحيث يضمن نقل سلاح الدولة الجديدة إلى أيدي جنوده الذين يعيشون على مقربة منه في دولته السابقة».

«ويغدو الأمراء، دون شك، عظاماً عندما يتغلبون على العقبات والمعارضة، ولذا إن الحظ عندما يود أن يعلي من شأن أمير جديد، هو في حاجة إلى الحصول على الشهرة البالغة أكثر من زميله الأمير الوراثي، يخلق له الأعداء، ويرغم على شن الحروب عليهم، ويمكنه بعد ذلك من التغلب عليهم ليرتقي إثر ذلك عالياً السلم الذي وضعه أعداؤه في طريقه. ويؤمن الكثيرون، تبعاً لذلك، إن على الأمير العاقل، إذا أتيحت له الفرصة أن يخلق بمكر عداوات له، حتى إذا قهر أعداءه، ضاعف من عظمته».

«وكثيراً ما رأى الأمراء، ولا سيما الحديثون منهم، ولاء ونفعاً أكثر في أولئك الرجال الذين كانوا يشكون فيهم في بداية عهدهم من أولئك الذين أولوهم الثقة».

«ويبقى الأمير، أيضاً، بالغ الاحترام، إذا برهن على أنه اما أن يكون صديقاً مخلصاً أو عدواً لدوداً، وهذا يعني أن يعلن بلا تحفظ، عطفه على إنسان، وعداءه لإنسان لآخر، ولا ريب في أن هذه السياسة أفضل من البقاء على الحياد».

«وعلى الأمير أن يظهر نفسه دائماً ميالاً إلى ذوي الكفاءة والجدارة، وأن يفضل المقتدرين ويكرم النابغين في كل فن، وعليه أن يشجع، بالإضافة إلى ذلك، مواطنيه على المضي في أعمالهم».

«وعليه في الفصول المناسبة من السنة أن يشغل الشعب بالأعياد ومختلف العروض المسرحية وغيرها».

«ليس اختيار وزراء الأمير بالمسألة القليلة الأهمية، فهم اما أن يكونوا لائقين، أولا يتفقون مع فطانة الأمير وحسن تبصره بالأمور. والانطباع

الأول الذي يتولد لدى الإنسان عن الأمير وعن تفكيره يكون من رؤية أولئك الذين يحيطون به. فعندما يكونون من الأكفاء والمخلصين، يتأكد الإنسان من حكمة الأمير، لأنه استطاع تمييز هذه الكفاءة والاحتفاظ بهذا الإخلاص، أما إذا كانوا على النقيض من ذلك، ففي وسع الإنسان دائماً أن يأخذ فكرة سيئة، إذ ان الخطيئة الأولى التي يقترفها تكون في إساءة اختياره».

«هناك ثلاثة أنواع من العقول، أولها يدرك الأمور دون عون ومساعدة؛ وثانيها يدركها بمساعدة الآخرين وإرشادهم؛ وثالثها لا يدركها لا بالمساعدة ولا بدونها. الأول ممتاز، والثاني جيد، أما الثالث فلا جدوى منه».

«وهناك طريقة تمكّن الأمير من معرفة وزيره واختباره، وهي طريقة لا تخطىء أبداً. فعندما يفكر الوزير بنفسه، أكثر من تفكيره بك، وعندما يستهدف في جميع أعماله مصالحه الخاصة ومنافعه، فإن مثل هذا الرجل لا يكون وزيراً نافعاً، ولن يكون في وسعك الاعتماد عليه، إذ ان من تعهد إليه مهام دولة الآخرين، يجب أن لا يفكر قط بنفسه وإنما بالأمير، وأن لا يكترث بأي شيء سوى ما يتعلق بالأمير؛ وعلى الأمير بدوره، لكي يحتفظ بولاء وزيره وإخلاصه، أن يفكر به، وأن يغدق عليه المال ومظاهر التكريم، مبدياً له العطف، ومانحاً إياه مظاهر الشرف، وعاهداً إليه بالمناصب ذات المسؤولية، بحيث تكون هذه الأموال ومظاهر التكريم المغدقة عليه كافية، لا تحمله على أن يطمع بثروات أو ألقاب جديدة، ويجب أن تكون المناصب التي يشغلها مهمة إلى درجة يخشى على ضياعها».

«والأمير العاقل من يختار لمجلسه حكماء الرجال، ويسمح لهؤلاء وحدهم بالحرية في الحديث إليه، ومجابهته بالحقائق، على أن تقتصر هذه الحرية على المواضيع التي يسألهم عنها ولا تتعداها. ولكن عليه أن يسألهم عن كل شيء، وأن يستمع إلى آرائهم في كل شيء، وأن يفكر بعد ذلك بطريقته الخاصة».

«وعليه أن يتصرف في هذه المجالس، ومع كل من مستشاريه، بحيث يجعله واثقاً من أنه كلما تكلم بصراحة وإخلاص، كلما كان الأمير راضياً عنه، وعليه بعد ذلك أن لا يستمع إلى أي إنسان، بل يدرس الموضوع بنفسه على ضوء آراء مستشاريه، ويتخذ قراراته التي لا يتراجع عنها».

«وعلى الأمير أن يقبل النصيحة دائماً، ولكن عندما يريد هو، لا عندما يريد الآخرون، بل عليه أن لا يشجع مطلقاً المحاولات لإسداء النصيحة إليه، إلا إذا طلبها».

«وعليه في الحقيقة أن يغضب إذا رأى أحد مستشاريه يتردد في قول الحقيقة».

العبارة الأخيرة استوقفت فنر، استوقفته تماماً. صحيح أن المشاعر التي اعترته خلال قراءة هذه الوصايا كانت متفاوتة أشد التفاوت، فقد تناوب عليه الخوف والإعجاب والتساؤل، بل وتوقف في لحظات معينة، كي يعيد القراءة من جديد، ولكي يتساءل مرة أخرى. ومثلما يحس الإنسان أنه في حلم، حلم أنه قادر على تنفيذ هذه الوصايا، وأنه يريدها، وأحس أيضاً بالخوف، لأنه يريد أن يبقى وحده الذي يعرفها، لأن الآخرين إذا عرفوها فلا بد أن يكشف، أن يصبح عارياً.

قال في لحظة حزم «عليّ أن أتعلم كثيراً، وعليّ أن أصمت كثيراً، وعليّ ألا أظهر ما يجب أن أفعله، أما تطبيق ما يقول هذا الرجل فإنه...» ولم يستطع أن يكاشف نفسه، فقد بدا مضطرباً، أو كأنه لا يعرف، وشعر أيضاً بالحيرة، ولام نفسه أنه يملك هذا المقدار من اللذة في تعذيب الآخرين، أو عدم احترامهم، وتمنى أيضاً لو أن الآخرين الذي يعنيهم غير موجودين، أو لو كانوا بشكل لآخر. ومرت في ذاكرته صور كثيرة. العم دحيم، وأبيه، وخاله عمير، وابن مشعان، واضطرب من جديد. قال في نفسه: «ربما من المفيد أن يعرف الإنسان أقل، لأن المعرفة تعب». وتمثلت له صورة خزعل: يضحك يصخب، يأكل مثل وحش، يحب النساء كما يحب الهواء، وينام في النهاية كما تنام الحية. وفكر في نفسه: كل شيء يزعجه، يجعله يفكر ويقلق ويحتار، إضافة إلى أنه لا يحب

الأكل إلا بما يجعله قادراً على البقاء، والنساء. . . زينة الوحيدة التي كانت تعني له شيئاً، أما بعد أن تركته وذهبت، فإنه يشعر أن المرأة تحمل مقداراً كبيراً من الأشياء التي لا يحبها، خاصة بعد مجيء موضي، وتلك القصص التي روتها له عن قصر الروض، وكيف أن المرأة أصبحت مجرد فرج، ولا يعني لها الكثير أن تنام مع عبد أو خادم أو مع السلطان!

وتمنى لو كان مكان خزعل، قال في نفسه: «بداية مشكلة الإنسان أن أقرب الناس إليه هم أول خصومه». قال بعد أيام ليونس شاهين:

ـ أريدك أن تكتب في الجريدة أن موران أكبر من موران، وأن لها مهمة تتجاوز حدودها الجغرافية، لا بد أن تكون لها رسالة، وأن تكون لها أهداف.

ويونس شاهين لم يكن ينتظر إيعازاً مثل هذا، فقد كتب الكثير عما فعلته هذه الصحراء، ومع كل حدث أو حديث مجموعة من أبيات الشعر، بدءاً من الجاهلية، وحتى فترة متأخرة في تاريخ العرب.

قال مرة أخرى، بعد سلسلة المقالات التي كتبها:

ـ . . . ويجب أن يكون لموران دور في المستقبل.

فكتب يونس شاهين مجموعة من المقالات، فهم فنر جزءاً منها، ولم يفهم الجزء الآخر. وحين ورد ذكر هذه المقالات، بعد شهور، قال هاملتون، وهو لا يخفي ابتسامة السخرية:

ـ هناك أشخاص لديهم مقدرة فائقة أن يتكلموا كثيراً لكي لا يقولوا شيئاً!

فنر الذي ظل في تلك الحالة من الحيرة قرر أن يطلب من أحمد محمود الجمال أن يكتب له تلك الوصايا بخطه الجميل، وأن يضعها في غرفة نومه، لعله من خلال القراءة اليومية يعرف ما يجب أن يفعله في المستقبل. ولم يتأخر الجمال، فقد كتب هذه الوصايا بخط النسخ، وزينها، ووضعها فنر في غرفته!

كيف يمكن لبضع صفحات أن تغير إنساناً بهذا المقدار؟ وكيف يمكن لشخص أو حدث أن يفتح عالماً بهذا الاتساع كان إلى الأمس القريب غائباً مجهولاً؟

إن شيئاً أقرب إلى الكشف أو الزلزال حدث في فكر وحياة فنر منذ أن أخذ يمعن النظر في تلك الأوراق المكتوبة بخط النسخ الجميل، والموضوعة داخل غلاف جلدي بلون أخضر كامد، والقريبة من السرير.

كل ليلة يقرأ ويسافر في أحلامه إلى ما لا نهاية. كان يبدأ لكن لا يعرف متى انتهى أو كيف. فالكلمات الصماء التي تمر تحت ناظريه، لا تلبث أن تتحول إلى كائنات حية لها أسماء وملامح، ولا تكف عن الحركة والصراخ والغضب، وبعض الأحيان تبتسم وتهمس. وكان مثلما يقبل الإنسان على رسالة جاءت من عزيز، فيقرأها أول الأمر ليعرف، ثم يقرأها ليتخيل، وفي مرات لاحقة يقرأها ليبدأ برسم الأشكال والملامح، ويستحضر الأصوات والروائح وطريقة التصرف ورد الفعل، فإن فنر وهو يقرأ «الوصايا»، كما سمى تلك الأوراق، كان شديد الحرص ألا يطلع عليها أحد، وكان يمتلئ بالأفكار والرغبات والصور.

لأول مرة يحس أن تلك الأفكار التي تصطرع في رأسه، وكثيراً ما سببّت له الحيرة، تنتظم في انساق وأشكال يمكن تميزها وفهمها. زيادة على ذلك، فإن أغلب المواقف اليومية، والعلاقات مع الآخرين، بما فيها العلاقات مع أقرب الناس إليه، دخلت الآن في مرحلة جديدة، على الأقل من قبله. الوعود التي يعطيها، طريقة التصرف أو التعامل، النظر إلى الأصدقاء والخصوم. وفي لحظات معينة كان يتمثل له هاملتون بالذات:

«ما دام يعرف بهذا المقدار، ويتعامل بهذه الطريقة، فإن كل ما يقوله أو يفعله يستدعي التأمل والتفكير».

الفترة التي قضاها هاملتون في موران كانت فترة اختبار وتأمل بالنسبة لفنر. ما كاد يعود حتى أخذت الأمور مساراً جديداً:

ـ . . . والفرق، يا صاحب السمو، بين البحر والصحراء، إن البحر له قوانينه الصارمة، وعلى الإنسان أن يفهم هذه القوانين وأن ينسجم معها، عليه أن يتأكد أولاً من مركبه، وأن يفهم حركة الرياح والتيارات، وأن يستعد لها ويستفيد منها، وعليه أخيراً أن يعتمد على البوصلة التي تعرّفه بالاتجاهات، وتقوده إلى الموانئ التي يريدها. . .

كان يريد أن يتابع، إلا أن ابتسامة فنر، والتي بدت له ماكرة، جعلته يتردد، تساءل بارتباك:

ـ هل تعتقد شيئاً آخر يا صاحب السمو؟

ـ لا. . . لكن أعتقد أن الكلام نفسه ينطبق على الصحراء أيضاً، قد تكون الأمور مختلفة لكن هناك أشياء مشتركة.

ابتسم فنر وهو يضيف، وقد تغيرت لهجته:

ـ وأنت عشت في الصحراء وتعرف: بدل المراكب الجمال، وبدل مشي النهار مشي الليل، وبدل البوصلة النجوم، وأبوك الله يرحمه!

تراجع هاملتون قليلاً، تطلع إلى فنر كما يتطلع أستاذ إلى تلميذه، وأضاف بكبرياء:

ـ إن هذه المقارنة تجعلنا نسير في الطريق الصحيح. . .

وبعد قليل، وبنبرة كبرياء:

ـ ذكرت لسموكم، وفي وقت سابق، إن الذي كتب «الأمير» كتبه من مئات السنين، ولأمكنة مختلفة، وذكرت لكم إن هذه الأفكار، لكي تصبح مفيدة وعملية، تحتاج إلى مقدار مهم من البداوة، تحتاج إلى معرفة المكان الذي تطبق فيه، والناس الذين تطبق عليهم.

تنفس بعمق وهمّ، وتابع:

ـ في كثير من الأحيان تكون لدى البشر قوانين متشابهة وظروف متشابهة، لكن نلاحظ أن طريقة تصرف البشر، والنتائج التي يتوصلون إليها، مختلفة إلى حد بعيد، وهذا، كما يبدو لي، ناشئ إما بسبب عدم فهم هذه القوانين، أو بسبب طريقتهم الخاطئة في تطبيقها، تماماً كما يفعل الخياط الجيد والخياط الرديء.

قال فنر وهو يبتسم:

ـ كان جدي، يا مستر هاملتون، يقول: ما خاب من أعطى الصنعة سيدها. . .

وبعد قليل:

ـ وكله توفيق من الله، يا الصاحب.

هاملتون الذي سُرّ في هذه الليلة أكثر مما سُرّ في ليالٍ كثيرة أثناء إقامته هنا، كان يفترض أن الفرصة التي طالما انتظرها، من أجل الوصول إلى صيغة جديدة لما يجب أن يكون، قد تهيأت، لذلك لم يتوقف طويلاً عندما قاله صاحب «الأمير»، إلاّ بمقدار ما يمكن أن تساعد تلك الأفكار في الوصول إلى نتائج محددة.

أولى النتائج التي كان يراد الوصول إليها: كيف يمكن تصفية ابن مشعان؟

قال له السلطان أثناء إقامته في موران:

ـ عليكم، أنت وفنر، تخلّصونا من ابن مشعان. . .

ابتسم السلطان، ثم تحولت ابتسامته إلى ضحك، وهو يتطلع بتحديد إلى عيني هاملتون، إلى أن قال:

ـ ابن مشعان موجود، وقوي، لأن ابن ماضي موجود، فإذا راح ابن ماضي، وإذا الجماعة اللي يساعدونه وقفّوا مساعداتهم، ترى ابن مشعان يدوّر الخلاص!

وقال السلطان وهو يهز رأسه بثقة:

ـ اتركوا الباقين علينا: ابن مياح أنا له: والله لأخلي ضراطه يسبق

عجاجه، وابن عمير له العجرمي، فإذا أبو مشعل قعد له ركبة ونص راح يطلعه من دينه!

العجرمي الذي كان يسمع، وبدا واثقاً وقوياً، ورفض أن يبتسم، حين ابتسم الآخرون، قال:

ـ الدين: الجماعة، يا طويل العمر، وصلى الله عليه وسلم قال: لا تجتمع أمتي على ضلال!

لم يتأخر فنر في استخدام كل القوى من أجل محاصرة ابن مشعان: بذل جهوداً كبيرة لكسب خصومه، حرض رجال ابن ماضي، وذكّرهم أن الوحشية التي رافقت الاستيلاء على العوالي كانت من ابن مشعان، ولقد ولدت هذه القسوة استياءه واستياء السلطان. كما كلف عدداً من رجال ابن مشعان بالذات لأن يكونوا عيوناً عليه. ومن جهة ثانية انصرف بهمة كبيرة لإزالة الأسباب التي يمكن أن تسوء الناس، إذ صرف مبالغ في فتح الطرق وإيصال الماء؛ صحيح أن الأمر احتاج إلى عدة شهور من التحضير والعمل، لكن بدأت تظهر نتائجه. أما العطايا التي قدمت في شكل هدايا، والزيارات إلى بعض المناطق، ثم المعونات من الطحين والسكر والقماش، فقد وزعت بسخاء في عدة أماكن، خاصة تلك التي تعرضت إلى السيول، فخلقت حالة من الارتياح.

قال هاملتون ذات ليلة، وكان يونس شاهين موجوداً:

ـ . . . وتعرفون، يا صاحب السمو، أن المحاربين إذا مرت فترة دون حرب، فإنهم يحاربون بعضهم، وفي النهاية يحاربون أنفسهم، ولذلك، فإن أفضل وسيلة للتخلص من ابن مشعان أن لا تبقى هناك أية حرب. . . عندها سوف ينتهي دون طلقة رصاص واحدة!

قال فنر، وكأنه يحدث نفسه:

ـ راح استدعي القنصل وأتفاهم معه. . .

ابتسم وتطلع إلى هاملتون ثم إلى يونس:

ـ ويلزم ندز فلوس لابن مشعان، قدر ما يحتاج وأكثر، ونقول له: الفلوس علينا، اصرف مثل ما تريد، بس اترك الناس. وحنا إذا قدرنا أن

نعلّم الناس إنهم لا يدفعون ضرائب إلا للحكومة، ترى هذا الشيء، إذا صار، فظني أن الأمور تنتهي!

ولم يتردد فنر في أن يجرب هذه الطريقة. بعث بسخاء، وبعث مع المال هدايا عديدة لابن مشعان، وطلب منه زيارة الطريفة، «وإذا كانت الظروف لا تساعد، فسوف نقوم بزيارتكم في فرصة قريبة» وابن مشعان الذي تساءل عن الأموال والهدايا، وعن تحيات السلطان، التي كانت ودية ومتلاحقة، قدّر أن الظروف أصبحت مواتية أكثر من قبل لأن يتصرف بثقة وأن يفرض شروطه، فلم يتردد في صرف الأموال، وأبلغ جنده أن يستعدوا للحرب والغنائم.

أما بخصوص زيارة الطريفة، أو استقبال الأمير فنر في مقره في شمال العوالي، فقد بعث برسالة قصيرة: «صاحب السمو الأمير. الظروف الجارية لا تساعدنا على مبارحة الشمال، وإنشاء الله نقدر نزوركم في وقت ثاني. أما أن تتوجهوا لطرفنا، في الوقت الحاضر، فإن الأوضاع لا تساعد، وإذا استقرت الأمور سوف نبلغكم بذلك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

لم تكد تمضي بضعة شهور، حتى توقفت الإمدادات تماماً. لم تتوقف بشكل رسمي، أو بموقف واضح أو معلن، وإنما أخذت شكل التأجيل والوعود، مع إشارات إلى الصعوبات وضرورة الانتظار. والجنود الذين تعودوا على استلام الرواتب، ولم يعودوا يطالبون بالحرب أو بالزحف، ضجوا بالشكوى والاحتجاج نتيجة انقطاع الرواتب والمؤن، وأصبحوا هماً بالنسبة لابن مشعان، وبالنسبة لبعضهم أيضاً، خاصة وأن الحنين إلى الأهل والديار قد أكل قلوبهم، وبدأ يشكل عبئاً لا يمكن مقاومته.

قال فنر لهاملتون، بعد أن بلغته الأخبار:

ـ . . . والبدوان نَفَسَهم ضيّق، فبعد وعد القنصل أنهم نفضوا يدهم من ابن ماضي، وبعدما عودناهم، هالحين جاءت الأخبار أن ابن مشعان راح يشيل بين يوم والثاني.

هاملتون الذي لم يتوقع أن يتم استسلام ابن مشعان بهذه السهولة،

وقدر أن يلجأ إلى الحرب، أو إلى افتعال المشاكل، وقد عبر عن مخاوفه لفنر، فرد عليه فنر وهو يبتسم:

ـ حنت البلُ لأهلها، يا مستر هاملتون، والجماعة مضت عليهم شهور وشهور، واليوم وباكر، ولأن ابن مشعان ما يعرف ويش يقول، تراهم فجموا عليه، وصاروا له مصيبة: «إذا تريد الحرب حنا مستعدين، أما إذا الحرب خلصت فكل واحد يدور أهله!».

وجاءت الأخبار أيضاً: «وبعث إليه ابن مياح يقول: وإذا مقامك بالعوالي صار صعب، فمن رأيي ترجع إلى الأهل والحمولة، لأن حسابنا مع خريبط ما يكون ولا ينحسم إلا بموران، وأنت أدرى مني بأهل العوالي، أهل العوالي مطبلين بالدنيا مزمرين بالآخرة، وأبد ما يتأمنون. أمس كانوا مع ابن ماضي، واليوم مع خريبط، وما ندري باكر مع من. جماعة يريدون ويدرون مصلحتهم، وهوا البحر غيّرهم، فالرأي أن ترجع وتحضر نفسك، ويلزم تطرش لنا مراسيل بين يوم والثاني، وحنا، هنا، شاغلين الدنيا والآخرة، وخريبط ما يقدر يتقرب، وابنه خزعل ترك الحويزة من شهور، وإنشاء الله ينصرنا على خريبط وعلى القوم الضالين».

أصبح مؤكداً إذن أن مشعان لن يبقى في العوالي، لكنه لا يريد أن ينسحب هكذا. بعث إلى فنر برسول، وثانٍ، يقول:

«الحرب تحتاج إلى المال والعتاد. انتظرنا وصول الإمدادات، لكن الإمدادات تأخرت، إذا لم ترسلوا المال اللازم مع الرسول، سوف ننسحب، وعليكم أن تتحملوا النتائج، وقد أعذر من أنذر».

استبقى فنر الرسول الثاني بضعة أيام إضافية، وبعث إليه من يبلغه، أن نائب السلطان، سمو الأمير فنر، يبذل كل جهده من أجل تأمين الأموال والإمدادات اللازمة، وهذه الأموال طلبت من موران، وينتظر وصولها بين شهر وآخر، ونأمل خيراً!

بعد عشرة أيام من الانتظار عاد الرسول لابن مشعان برسالة من الأمير فنر: «وصلت رسالتكم وأخذنا بها علماً. ما زلنا بانتظار جواب صاحب الجلالة السلطان، فإذا رأيتم أن تتركوا المناطق التابعة لكم، فهذا يرجع

تقديره لجنابكم وسوف نتحمل هذه المسؤولية عنكم، ونطلب إليكم مراجعة موران لتحصيل مخصصات الجند، وسوف نكتب إلى موران بذلك، وعلى الله التوكيل».

ابن مشعان في العوالي، رغم الخيول التي حصل عليها، والزوجات اللواتي أصبحن له، يحس أنه سمكة خرجت من مائها. فالجند في المرحلة الأخيرة غير الجند، والناس غير الناس، إضافة إلى الصعوبات التي بدأت تواجهه فيما يتعلق بالبقاء أو الانسحاب.

قال يونس شاهين في إحدى الافتتاحيات التي كتبها: «... ولا بد من الاعتراف في المرحلة الجديدة أن العوالي لا تستطيع أن تبقى في حالة حرب أو استعداد للحرب، بعد أن استسلم ابن ماضي، وأصبح أثراً بعد عين، ولذلك يجب أن تنصرف الدولة الآن إلى الإعمار وإلى الخدمات، خاصة وأن القادة العسكريين قد أعلنوا لصاحب الجلالة السلطان ولنائبه في العوالي، أن مهمتهم قد انتهت، وأنهم الآن يعودون إلى أهلهم وديارهم بعد أن أدوا المهمة وأكملوا الرسالة.

«أما كل دعوة للخروج عن طاعة الدولة، أو عدم الامتثال للقوانين والأنظمة السائدة، فإنها سوف تعرّض مرتكبها للعقوبات والمساءلة، ولذلك يجب أن ينسى السكان المرحلة السابقة، وأن ينصرفوا إلى الجد والعمل، وقل اعملوا فسيرى الله أعمالكم والرسول».

وانطلق فنر، أكثر من أية فترة سابقة، إلى زيارة المناطق، إلى دعوة الشيوخ، إلى تأمين المطالب والخدمات. كان يرافقه في هذه الزيارات عدد كبير من المرافقين، وكان يستمع ويسجل الكتبة، وكان يعد، دون مبالغة، أن تحاول الدولة تأمين ما تستطيع القيام به، ويطلب في الوقت نفسه من الناس أن يتعاونوا، أن ينتظروا، أن يتحملوا، لأن الظروف التي تمر بها البلاد من الصعوبة والدقة بحيث تتطلب تعاون الجميع.

حين تأكد أن ظروف ابن مشعان أصبحت صعبة في العوالي بعث يخبر أباه السلطان، فبعث إليه أبوه بالرسالة التالية:

«ولدنا فنر:

إذا سألت عنا فنحن، ولله الحمد، بخير وسلامة، لا ينقصنا إلا رؤيتكم والاطمئنان على أخباركم. بخصوص أخبار ابن مشعان كل شيء صار بالنسبة لنا معلوم، وما حصل حتى الآن الذي ذكرتوه مناسب، ولا يكون لكم فكر، فنحن، بمشيئة الله، ندبر الأمور بما هو ضروري ولا حاجة للقلق، ومع ذلك تحذروا وكونوا دوماً مستعدين.

ولدنا فنر، تبلغ الصاحب أنه يلزم يضغط على الجماعة في الطريفة وعلى لندن بضرورة زيادة المخصصات، لأن المصاريف زادت أكثر من التقديرات، ولأن السيول التي حصلت ضربت الكثير، وتبلغ الصاحب أن المشاريع اللي قال لنا عنها، حنا بأتم الاستعداد، بس يلزم أن الجماعة ما يتأخرون.

هذا ما لزم تبليغه، ومن عندنا الجميع بخير ويهدونكم السلام، ونسأل الله أن يديم عليكم الصحة والسلامة، والدكم، السلطان خريبط».

قال هاملتون لنفسه، بعد أن قرأ له فنر الرسالة «هؤلاء البدو لديهم خاصّية أنهم يفهمون ما لا يكتب، ما لا يقال بشكل مباشر، وفنر يفهم ما يريده أبوه دون كلمات، من عيون حامل الرسالة، ومن الطريقة التي تكتب بها الرسالة». وبدا له الأمر طريفاً ومثيراً للتساؤل أيضاً. إذ رغم السنوات العديدة التي قضاها فما يزال لا يعرف كيف يتكلمون أو كيف يفهمون.

قال ليونس شاهين:

ـ أراهن أن ابن مشعان لن يترك العوالي.

ـ البدو، يا مستر هاملتون، يختلفون كثيراً عن غيرهم، فهم يخافون الشتاء والغربة والحروب التي تفرض عليهم. وما دمنا الآن في فصل الشتاء فإن الحرب مؤجلة، وما دام ابن مشعان بعيداً عن عشيرته فلن يحارب هنا وإنما سيحارب هناك. ولذلك فإذا لم يكن مضطراً فلن يحارب.

هز هاملتون رأسه عدة مرات دلالة الفهم، لكن ظل قلقاً. وتأكد في نفس الوقت أن «الأمير» بدأ يلبس العباءة والعقال، وأن «وصاياه» اكتسبت الكثير من صفات البداوة وملامحها، وحتى لهجتها، فضحك بزهو، وقال لنفسه: «ليت ميكافلي حي ويرى».

أما بعد أن سقط الفرسان الثلاثة، الذين ملأوا الصحراء دوياً وخوفاً سنين عديدة، وقد كان لفنر دور هام في تأمين الأموال التي تحتاجها الحرب أولاً، وفي تأليب قوى كثيرة، في الداخل والخارج، ضد «العصاة»، بعد ذلك، فقد أصبح هاملتون على ثقة أن «الوصايا» لم تستوعب فقط، وإنما بدأت تثمر أيضاً. وذهب به الخيال أن فكر بإعادة كتابة «الأمير»، لكن ضمن متطلبات مجتمع مختلف وعصر آخر.

فموران الإمارة الصغيرة التي كانت متوارية منسية، وسط الصحراء، أصبحت الآن تفوق كثيراً ما أراده السلطان أو ما حلم به. صحيح أن زمن الحروب والفتوح قد انتهى، كما اقتنع الجميع أخيراً، وبدأ كلٌ يستجيب للواقع الجديد، لكن السلطان ترك بعض المسائل معلقة، لعلها تكون مفتاحاً أو طعماً للأيام القادمة، حين تتغير الظروف. وإلى أن تأتي تلك الظروف لا بد أن يهدأ، لكن دون أن ينام. وعليه أيضاً أن يتصل ويقيم العلاقات، لكن دون أن يتوقع تغيرات كبيرة، خاصة وأن هاملتون الذي وزع وقته وجهده بين العوالي وموران، بحيث يقضي الشتاء في العوالي والصيف في موران، وخلال الإجازات، أو بين الزيارتين، أو حين تسنح الظروف، لا بد أن يشبع هواياته للآثار والجغرافيا، أكد على السلطان مرات عديدة «أن الأهم في المرحلة الجديدة، يا صاحب الجلالة، أن نقيم بناء قوياً، من أن نحاول توسيع دائرة السلطنة، لأن القوة تبقى الأساس للتوسع حين يأتي وقته، ولا يمكن للتوسع أن يكون قوة إلا إذا كان ضمن ظروف دولية مناسبة».

ولكي لا يترك هاملتون مجالاً لأخطاء قد تقوّض كل ما شُيّد، فقد

اندفع بحماس لتأمين موارد إضافية لموران، فاستطاع أن يتوصل، بعد جهد، إلى توقيع اتفاق النفط أولاً، ثم أشار على السلطان بأن ينفتح على العالم، وأن يقيم علاقات مع الكثيرين. ولم يتأخر السلطان في الاستجابة، لكن ظل الانكليز، بالنسبة له، البوصلة التي تدله على الطريق. ولذلك فإن العلاقات التي قامت كانت استجابة، وبحدود ترضي الانكليز ويوافقون عليها.

جاء هاملتون ذات ليلة، وقد بدا فرحاً متألقاً، كما لم يكن هكذا، وهمس في أذن السلطان أنه يريد أن يختلي به ويحدثه بأمر هام. نظر إليه السلطان بارتياب. ظن لأول وهلة أن الرجل أخذ من دواء الحصر أكثر مما يفعل عادة، أو أن لديه خبراً جديداً هاماً، ولكي يتأكد من ظنونه سأله:

ـ هالحين يا الصاحب؟

ـ أي نعم، يا طويل العمر.

والسلطان الذي أحرج، للحظة، وبدا له أن من الأفضل أن يقوم مع هاملتون من أن يطلب إخلاء المجلس ويغضب الموجودين.

قال بتبسط يخاطب زواره:

ـ يلزم، يا جماعة الخير، نطرش برقية، فظلوا بمكانكم، وأنا دقايق وراجع لكم.

وفي غرفة مجاورة، ورغم أن هاملتون استعد وحضّر أسبابه لتقديم الاقتراح، إلا أنه بدا مرتبكاً. قال بعد أن تلفت أكثر من مرة:

ـ ولدي يا صاحب الجلالة اقتراح فكرت فيه طويلاً، واعتبر أنه ضروري وهذا وقته، لكي نخلص من إشكالات ومصاعب كثيرة...

والسلطان الذي ارتبك أيضاً وتلفت، سأل بنفاد صبر:

ـ سم... يا الصاحب!

ـ ويجب أن تعتبر الاقتراح حلاً لمشكلة، وليست له دوافع أخرى.

ـ سم، وبعدها الله كريم.

ـ من جملة الأسباب والعوامل التي تساعد على رسوخ الدولة

واستمرارها، وإنهاء أطماع الآخرين، وحتى إنهاء مطالباتهم، أن تزول الأسماء القديمة والصيغ القديمة، وتحل أخرى مكانها. إن استمرار وجود الحويزة والعوالي، إضافة إلى موران، ووجود مطالبين، سيبقي الأمور معلقة، وخاضعة لكثير من العوامل والتقلبات، ولذلك يجب أن تنتهي هذه الأسماء وتقوم مكانها تسمية جديدة.

أحس السلطان، غريزياً، أن ما يقوله هاملتون صحيح، لكن تخوف أن يكون وراء كلامه شيء آخر.

سأل بحذر:

ـ خاف تكون سامع شي، يا الصاحب، أو عندك علوم جديدة؟

ـ أبداً، يا صاحب الجلالة...

ـ وبعد قليل وهو يبتسم، ويغير لهجته:

ـ لكن من خلال معرفتي وقراءتي للتاريخ، وأثناء زياراتي للمواقع الأثرية، كما أن صحراء بلادكم، يا طويل العمر، تحرض ذاكرة الإنسان، وتدفع إليها، كل لحظة، بعشرات الشواهد والحقائق التاريخية، ولأني لا أتوقف عن التفكير وتقليب الأمور، فقد أصبحت على يقين أن من جملة الأسباب التي سوف تساعد على تثبيت الحكم الجديد، وتجعله غير قابل للمناقشة أو إعادة النظر، أن يكتسب اسماً جديداً وصفة جديدة.

اطمأن السلطان، ارتخت عضلاته، نظر إلى هاملتون، ابتسم، وقال بطريقة طفولية:

ـ أي يا الصاحب، سولف، وشنهو بعد؟

ـ ليس عندي الكثير لأقوله الآن، يا صاحب الجلالة، لكن يبدو لي أن هذا الأمر ضروري إلى أقصى حد، ويجب أن تحسموه في أقرب فرصة.

ـ وشنهو اللي تشور به علينا؟

ـ أرى، يا طويل العمر، أن يطلق على الدولة الجديدة اسم يشمل موران والعوالي والحويزة معاً، وأن تعلنوا أنكم سلطان هذه الدولة.

ـ وما دام حنّا الحاكمين، يا الصاحب، شنهو اللي يزيد أو ينقّص؟

ـ في الوقت الحاضر لا يزيد ولا ينقص شيء، يا صاحب الجلالة. . .

ـ لكن. . . أتاريك تعرف شي ما نعرفه يا الصاحب، ومن بد ولازم تقول شنهو اللي عرفته؟

ضحك هاملتون، والتفت، وبعد قليل وقد تغيرت لهجته تماماً:

ـ ربما الطريقة، أو الوقت الذي اخترته لأعرض على جلالتكم هذا الاقتراح غير مناسب، لكن بعد أن توصلت لهذه القناعة وفكرت طويلاً، لم أسمح لنفسي بتأجيل عرض الاقتراح إلى الغد!

وتحرك هاملتون بطريقة معينة ليشعر السلطان أن هذا ما عنده، أو ما ارتآه. وكانت النظرات تحمل معنى الاعتذار إذا كان قد حصل خطأ نتيجة هذا التصرف أو التقدير.

قال السلطان بمودة:

ـ اللي تقوله، يا الصاحب، صحيح، بس ما أدري ليش هالحين خطر ببالك؟

نكس هاملتون رأسه، وصمت. وحين طال صمته، قال السلطان وهو يضرب على ساقه بمداعبة:

ـ ما جاوبت على سؤالي، الله يسلمك؟

رد هاملتون بحزن:

ـ ربما وجدت نفسي مضطراً، يا صاحب الجلالة، لأقول ما قلته، خاصة وأن الكثيرين الآن لا يتكلمون إلا حول ما يريدون، وحول أدوارهم فيما حصل، ناسين ما يجب أن يُفعل من أجل مصلحة موران اليوم وغداً. وهذا ما يجعل الكلام بالنسبة لي صعباً، خاصة عندما يسكت الآخرون!

قال السلطان، وقد تأثر:

ـ اللي يسولفون، الله يسلمك، ولا أكثر منهم، بس كلام عن كلام يفرق، وحنا نسمع واجد، بس، والشهادة لله، نعرف اللي يتكلمون صدق، واللي يحركون لساناتهم وينافقون. . .

وبعد قليل:

ـ وحاشاك، يا الصاحب، تظن أن كلامك مثل كلام غيرك.

هز هاملتون رأسه عدة مرات، تنفس بعمق، ثم قال:

قد يكون من غير المناسب أن أذكر لجلالتكم أنني منذ أن أعطيتكم كلمتي، قبل سنوات، للبقاء هنا، إلى جانبكم، وأن أشور على جلالتكم، ليس لدي أي هم أو موضوع يفوق الاهتمام بهذه السلطنة: كيف يمكن أن تبقى، وأن تكون أقوى، وما يجب أن نعمل من أجل أن...

قاطعه السلطان بمودة:

ـ هذي ما ينراد لها يا الصاحب، وظني أنك ما تحتاج إلى شهادة.

وتغيرت اللهجة قليلاً:

ـ وما يلزم نقول بوجهك، الله يسلمك، شنهو اللي نقوله عليك، وأي منزلة تحتل بقلوبنا، وأنا شخصياً تحملت الكثير الكثير حتى أكدت. للجماعة، القراب والبعيدين، إنك بإخلاصك ومحبتك مثل أخواني وأولادي.

وضحك... ثم تابع:

ـ وعيب أن البني آدم يحكي ويقول، لكن يلزمك تعرف: ما يمر يوم إلا وأوصي أولادي، وكل الجماعة: الصاحب، يا جماعة الخير احرصوا عليه وما تخلوه إلا راضي.

وبعد قيل:

ـ فإذا ببالك شي، أو سمعت كلمة، أو أحد زعلك، يلزم نعرف.

ـ أبداً، معاذ الله، يا صاحب الجلالة.

ابتسم، نظر إلى السلطان، وكانت نظرته حزينة، وهمس:

ـ كل ما أريد أن أقوله يا صاحب الجلالة أنني أعتبر نفسي مواطناً في هذا البلد، ولأني أصبحت هكذا فيجب أن أخلص له، أن أعطيه أحسن ما عندي...

تنحنح حتى جلا صوته، وأخرج منه الحزن:

ـ هذا ما دعاني، يا طويل العمر، إلى تقديم الاقتراح الذي حدثتكم عنه.

قال السلطان بأريحية.

ـ حنا معاك يا الصاحب، وأنت بالنسبة لنا فوق ما تتصور، وهالحين قل وحنا موافقين، أو مثل ما يقول أهل مصر: فصّل وحنا نلبس.

ضحك هاملتون. كان مسروراً، وبدا كأنه أوصل الرسالة، ولا يريد أن يتابع، لكن السلطان، الآن، لا يريد أن يتركه. لقد راقه الموضوع، وبدا له هاماً أيضاً. وبعد فترة صمت طويلة، سأل:

ـ ما قلت لنا رأيك يا الصاحب؟

ـ رأي أن نناقش الأمر في وقت لاحق، يا طويل العمر. يمكن أن تفكروا في الاقتراح، ويمكن أن أفكر، والأيام طويلة.

ـ أبد. . . يلزم تقول.

ـ تأخرنا على الجماعة، يا طويل العمر، وخاف يزعلون!

ـ لا تخف، وأنت ما عليك.

تراجع هاملتون في مقعده. نظر إلى السلطان نظرة جادة، أقرب إلى الحزم، وقال وقد اكتسب صوته لهجة احتفالية:

ـ بعد أن فكرت طويلاً في الموضوع، يا طويل العمر، ولما كانت أسرتكم تنتهي إلى الجد الأكبر والذي كان باسم هديب، لذلك أرى أن تسمي السلطنة بالسلطنة الهديبية.

ومثلما تراجع هاملتون في مقعده تراجع السلطان، ونظر بتلك الطريقة البدوية، وللحظة، ظن هاملتون أن السلطان غاضب أو يختبر، أو ربما حائر، لكن فجأة تهلل، وسأل:

ـ وإذا سميناها السلطنة الهديبية، برأيك أن الناس ما تسبنا؟ ما تقول فلاني وتركاني؟

ـ أبداً، يا صاحب الجلالة، ومثلما تعرفون: إن الدول تسمى بأسماء الأشخاص، وحتى العملة يسمونها بأسماء الأشخاص؛ فعملة ماريا تريزا،

والليرة الرشادية، والحميدية، وحتى العباسيين وقبلهم الأمويين، كل هذه الدول منسوبة إلى الجد الأكبر، الجد الأول، ولا أظن أن من حق احد أن يحتج أو أن يعترض.

ـ هذا رأيك؟

ـ أي نعم... هذا رأي!

ـ ويقولون: السلطنة الهديبية؟

ـ ولِمَ لا؟

ـ قصدي ما هي كبيرة؟ وأنت تعرف أهل موران... وغيرهم وغيرهم، كلهم لساناتهم طويلة وعيونهم ضيقة.

ـ أبداً يا صاحب الجلالة، والمسألة، أولاً وأخيراً، مسألة عادة، ومثلما تسمي ابنك اسماً، ومهما بدا غريباً أو غير مألوف، فلا يلبث أن يتعود عليه الناس، ويصبح وحده الاسم الذي يعرف به، وأيضاً الاسم الوحيد المقبول.

ـ هذا رأيك؟

ـ أي نعم.

وضحك هاملتون، وأضاف:

ـ ومثل كل الأشياء الجديدة، لا يألفها الإنسان بسرعة أو بسهولة، لكن باستمرار استعمالها وتكرارها تُؤلف وتُقبل...

وبعد قليل:

ـ ومن رأيي، طال عمرك، أن تفكروا بالموضوع، وما يلزم أن تقرروا الآن، لكن، وكما ذكرت لكم، يجب أن يتم اختيار الاسم، وكلما كان أسرع كان أفضل.

ـ خلنا نفكر...

وبعد قليل وهو يضحك:

ـ ويلزم نبيّت خيرة، وعسى أن الله يوفقنا.

وهما ينهضان ليعودا إلى المجلس قال هاملتون برجاء وبصوت هامس:

ـ لي رجاء وحيد، يا صاحب الجلالة. . .

ـ سم. . . الله يسلمك.

ـ أياً كان القرار الذي تقررونه بخصوص التسمية، كل ما أرجوه أن لا يشار، بأي شكل، وأمام أي إنسان، أن لي علاقة بهذا الموضوع. الاقتراح اقتراحكم، وصادر عنكم وحدكم.

ضحك السلطان وهو يصلح ملابسه، وقال وهو يخطو:

ـ ما يكون لك فكر، يا الصاحب، هذا رأينا وهذا أمرنا، ولا أحد له علاقة!

ـ هذا ما أريده طال عمركم.

ـ اطمأن من هذي الناحية.

وضحك وهو يخطو مجتازاً الباب:

ـ وإنشاء الله ما يصير إلا الخير!

وخلال شهور لم تهدأ موران، إذ بعد احتجاب السلطان الطويل، بدأ من جديد يستقبل الكثيرين، كما واستدعى كبار العائلة والوجهاء، حتى ظُن أنه لن تمر فترة إلا وتبدأ حملة جديدة، ومما عزز هذا الاحتمال وصول القنصل البريطاني إلى موران، والخلوة الطويلة بينه وبين السلطان، ثم رحلة القنص والتي شارك فيها السلطان ذاته، إضافة إلى عدد محدود من رجاله. ورغم الاستفسار والتقصي، لم يعرف ما دار. ومما زاد في القلق وتشوش الأفكار المقال الذي كتبه يونس شاهين، ومما جاء فيه «. . . والدولة بعد أن اتسعت واعترفت بها الدول الأخرى، وبعد أن أقامت نظاماً لم تشهد مثله هذه الصحراء منذ وقت طويل، لا بد أن تكتسب وضعاً جديداً واسماً جديداً. وإننا ندعو صاحب الجلالة السلطان لأن يبادر وأن يقدم الصيغة الملائمة للمرحلة».

وفي الطريفة، وبطريقة احتفالية بالغة الأبهة والفخامة، وأثناء استقبال

القناصل، وبمناسبة ذكرى معركة الرحيبة، ألقى السلطان خطاباً أعلن فيه أن دولة جديدة قامت، ومنذ اليوم لم تعد هذه الدولة مجرد موران والحويزة والعوالي، وإنما هي الدولة الهديبية.

بدا الاسم غريباً مثيراً للعجب والتساؤلات. بل أكثر من ذلك بدا مثيراً للسخرية، خاصة في موران.

شمران العتيبي الذي لم يسمع بالاسم إلا بعد عدة أسابيع، رفض أن يصدقه، لكن حين أكدوا أن موران لم تعد موجودة، وأن اسمها منذ الآن المنطقة الوسطى في الدولة الهديبية، فقد رفع رأسه إلى أعلى وقال بسخرية:

ـ ما يخالف، خلهم يسمّون، وما هي إلا أسماء سمّوها هم وآباؤهم، لكن ظني أن اللي الله خلقه العبد ما يقدر يغيره، وهذي الأيام بينا وتشوفون!

وبعد قليل وهو يقهقه:

ـ هذول اللي يحكمون ما أدري شنهو اللي يصيبهم يا جماعة الخير، يكونون عاقلين مثلنا، يسولفون، ويضحكون، لكن طُبّ، . ما يروح يوم ويجي الثاني إلا ويصيرون غير ما عرفناهم وغير ما كانوا: روسهم تدور، أوداجهم تنتفخ، وما تعرف شلون تغيروا. نقول لهم: يا معودين، يا أولاد الحلال، احرصوا، ديروا بالكم، والغلط بهذي المسائل أبد ما يتصلح، مثل البنيّة بعد ليلة العرس، لكن أبد ما يسمعون ولا يفتهمون، ويصيرون مثل الكدش الحارنة.

وبدا على وجهه الحزن. هز رأسه عدة مرات وأضاف.

ـ لكن ما يخالف، الظاهر أن البني آدم ما يتعلم إلا من كيسه، وما دام خريبط هالحين كيسه مليان خله يدفع، ومثل ما قالوا: رزق المهابيل على المجانين، ولو كان عاقل ويفهم شنهو اللي صار بالناس اللي قبله، ويلزمه هالحين يكون عبره للّي بعده، وهذي موران أبد ما تنسى. تسكت، تصبر، تتحمل، لكن أبد ما تنسى!

عبد الله البخيت الذي تعوّد أن ينفث، فينظم، بين فترة وأخرى، أبياتاً

من الشعر، وأغلبها في العتاب والغزل وذم الزمان، وقد عرف عنه هذا بين أصدقائه ومعارفه، لما طلب منه العجرمي أن يقول كم بيت بهذه المناسبة، رد بسخرية:

ـ وأنت تعرف، يا شيخنا: الشعر والشعراء للغواية والشيطان، وهذي دولة للرحمان، فيلزم أن الواحد يكتب لها حجاب، حتى الله يحميها، وظني أن السلطان ذاته ما يقبل.

ابتسم العجرمي، ورد ساخراً:

ـ وغيرك، يا عبد الله، بيوم الحويزة، وبعدها العوالي، قالوا شعر!

ـ وهذول جاهزين، ولا بد حضّروا أرواحهم لهذا اليوم، طال عمرك.

ـ كنا نأمل ونريد منك.

ـ ومن هو ابن البخيت، يا شيخنا، أمام دولة هذا كبرها؟

ـ ولكن الخويا يقولون لك شعر زين.

ـ أنا شويعر، طال عمرك، اخط بالرمل، ودولة الهديبية ينراد لها شعر بكبرها!

ـ يعني بالمختصر المفيد شيطان الشعر ما جاك!

ـ لا بالله طال عمرك!

عثمان العليان كان مشغولاً بهم أكبر، فموران، من يوم ما عرفها، تتعامل بعدة أنواع من العملة، وكانت هذه الأنواع تسبب الكثير من المتاعب والإشكالات، وقد جاءت الفرصة الآن، وبعد أن تشاور مع هاملتون، لكي تنتهي هذه المتاعب، وذلك بأن تُسّك عملة جديدة وموحدة.

ما كاد مهيوب يقول له، همساً وسراً، أن السلطان في ذكرى احتفالات الرحيبة سيعلن عن قيام الدولة الجديدة، حتى قال بنفاد صبر:

ـ أي، وكانت هذي لأزمة من سنين وسنين. . .

وبعد قليل:

ـ ونخلص من فلوس المقادي، وتصير لنا عملة ترنّ وتسوى ثقلها ذهب!

أمي زهوة التي كانت تحس بالحركة حولها، ولا تعرف على وجه الدقة ماذا حصل، وكل من تسأله يدير يديه ويقلب شفته، أو يهز رأسه، دلالة أنه لا يعرف، إلى أن جاءها عبدها سرور، بعد أن استفسر وتأكد، قال لها:

ـ . . . ويقولون، يا عمتي، إنَ دولة طويل العمر صارتِ أكبر وأكبر، ويقولون إن الفارس حتى يجتازها من طرف إلى طرف ينراد له سنين وسنين!

ـ يا ولّ يا سرور، هذا كلام حاسدين.

ـ والله يا عمتي يحلفون ويتكفرون. . . وما أدري!

ـ وليش ما قلت لي من قبل حتى ننشد أبو منصور ونتأكد؟

ـ راحت عن بالي يا عمتي، لكن غيبته ما تطول.

ـ رح دوّر لنا العجمي وخله يجي ومعه دواته وقراطيسه ويكتب لنا حجاب، عسى أن الله يحمي أبو منصور ويفتح عليه ويردّ عنه كيد عداه.

وجاء المنجم وكتب الحجاب المطلوب، وتقاضى خمس ليرات مجيدية، ولما عاد السلطان، وحدثته أمي زهوة، استفسر منها متى كتب الحجاب، وأين وضع ثم ابتسم، وحدّثها أن سيارته كادت تنقلب في وادي الرخم. لكن الله سلّم. ولم يتأخر لكي يستدعي المنجم ويمنحه ذلولاً وثلاثين ليرة رشادية!

. . . . ومرة أخرى سافر فنر في جولة جديدة، حاملاً رسائل من أبيه للحصول على اعتراف الدول الأخرى ودعمها، ولم ينس السلطان أن يطلب منه، وقد قال ذلك وهو يبتسم، أن يمر على استانبول، وأن يزور عائلة رفيفان، لكي يخطب له ابنة بندر رفيفان، «لأنها مزيونة، وأبوها الله يرحمه، من جماعتنا، وأنا، من قبل، طرّشت واحد من الجماعة ومعه مكتوب وهدية، وما يلزم ترجع ويدك فارغة».

والسلطان، منذ وقت مبكر، لم يسقط من اهتمامه، الأصدقاء ـ الأعداء. صحيح إنه كانت تمر فترات، وبعض الأحيان طويلة، لكي يتذكر «صديقاً» من هؤلاء، لكن غالباً ما يرافق تذكره هدايا ودعوات، فإذا لم يقم بالزيارة بنفسه، يكلف أحد رجاله، وفي حالات قليلة واحداً من أبنائه، ويترافق ذلك مع الكثير من الضجة والاهتمام، بحيث لا يبقى أحد إلا ويعرف بذلك، ويؤدي أيضاً إلى أن ينسى ذلك الصديق النسيان الطويل السابق والإهمال المتعمد. وفي حالات معينة، ومقصودة، لم يتردد السلطان في أن يصاهر ويتزوج، ليفتح صفحة جديدة.

لقد قام السلطان بنفسه مرتين أو ثلاث مرات بزيارات من هذا النوع، وقد تحدثت عنها موران طويلاً. قام مرة بزيارة لمفلح الحريشي، بعد أن تقدم العمر بمفلح وأصيب بالفالج. وقد قضى في زيارته فترة غير قصيرة، رغم أن العلاقات بين الاثنين تخللها الكثير من الاختلاف، وبعض الأحيان حمل السلاح. لكن مفلح حين أدرك أنه هُزم، ولم يعد قادراً على الاستمرار أو المقاومة انزوى، وظل ينقل عن لسانه التعريض بالسلطان وبعلاقاته مع الانكليز. وخريبط الذي كانت تصله الأحاديث مع التعريض،

كان يهز رأسه ويبتسم ابتسامة ساخرة، وكان بعض الأحيان يردد:

ـ كان مفلح يريد رأسي، لكن التمني رأس مال المفاليس!

في هذه الزيارة التي تحدثت عنها موران، بدا لكل من حضر أن الرجلين لم يعرفا الاختلاف، وأن الصداقة التي تجمعهما أقوى من الأقوال التي كانت تتردد. أما عن الأموال التي سبقت الزيارة، ثم أعقبتها، فقد اختلف الكثيرون في تقديرها.

وقام خريط أيضاً بزيارة لبيت المرحوم شبل الغامدي، قام بها بعد الوفاة بثلاثة شهور. لم تكن للعزاء، إذا جاء من قبل من قام بهذا الواجب نيابة عنه، وإنما لتفقد الأولاد والتأكد أنهم لا يحتاجون إلى شيء، كما ذكر. وأبلغهم أيضاً أن لهم أباً غير أبيهم، ويمكن أن يعتمدوا عليه، وأن يدقوا بابه في أي وقت يشاؤون، وأشار إلى نفسه، ودق على صدره، وقد بدا حزيناً أقرب إلى الانفعال!

أما كيف كانت العلاقة بين السلطان وشبل الغامدي، فلا أحد في موران إلا ويعرف الكثير من تفاصيلها: كيف أنه قرر إعدام شبل، ثم عدل عن ذلك في اللحظة الأخيرة، فاستبدل القتل بالحبس، وبعد أن قضى شبل فترة طويلة في سجن القصر، وقيل إنه مرض وكاد ينتهي، أطلق سراحه. وقيل إن شبل زار السلطان وقبل أنفه وجبينه، واعتبر كل شيء، بعد ذلك، منتهياً، وقامت صداقة جيدة بين الاثنين، لكن لم تدم إلا شهوراً قليلة، مات بعدها شبل!

تذكر الذين سمعوا السلطان يطلب من فنر زيارة عائلة بندر الرفيفان هذه القصص، وتذكروا غيرها، خاصة حين أكد على ضرورة عودة العائلة إلى أهلها وبلدها.

وبندر الرفيفان الذي ترك موران قبل سنين طويلة، وأعلن أمام الكثيرين أنه لن يعود، مهما كانت الظروف، لأنه كان أحد الذين ساعدوا خريبط في الوصول إلى السلطة، ثم خدعه خريبط وخدع كثيرين غيره، بعد أن تمكّن وسيطر، وأعلن أيضاً أنه سيذهب إلى أبعد مكان، بحيث لا يريد أن يسمع شيئاً عن موران، فحمله خياله، ومكنته ساقاه من الوصول إلى أبعد مكان

في ديار الإسلام، إلى استانبول، وهناك قرر أن يبقى.

أما تاريخ بندر بعد موران فإنه من الغموض والتداخل، بحيث يرويه كل واحد على هواه. قيل إنه عاش سعيداً، بعد أن اصطحب معه زوجته التركية، وقد تزوجها قبل ذلك بعدة سنين، وأنجب منها ابنة وحيدة. عاش على ضفاف البسفور، بعد أن أخرج مقداراً من الذهب الذي يحمله، وكان راضياً. وقيل إن حياته بعد موران لم تعرف الراحة يوماً واحداً، فقد كان يتأكله الحنين إلى بلده وأهله، وكان لا يفعل شيئاً سوى الصلاة والدعاء، وبعض الأحيان ترديد أبيات من الشعر والبكاء. وقيل إن الحزن الذي استبد به عجّل بموته. وقال بعض الذين زاروه في غربته، انه أصيب بلوثة، ولم يعد يعرف أحداً، وان امرأته لم تكن تفعل شيئاً سوى إبعاد السكاكين والأدوات الحادة، والتي لم يتوقف يوماً عن شحذها وتحضيرها، لكي يقتل خريبط!

زيارة فنر إلى استانبول كانت في نهاية جولته، وكان يفترض ألا تزيد عن يوم أو اثنين، لكي يقوم بالواجب الذي كلفه به أبوه، ولن يتعدى المرور على عائلة رفيفان وتقديم الهدايا ثم الحديث في الموضوع: «الوالد يريد مصاهرتكم، يريد ابنة بندر الرفيفان» وبعد ذلك يترك لمجوُل العصيفير، الذي اصطحبه لهذه الغاية، ومرافقيه ليتابعوا الأمر، خاصة وأن رسالة بهذا المعنى سبق أن حملها رسول من خريبط.

لكن هذه الزيارة امتدت أسبوعاً كاملاً، وغيرت الكثير في شخصية وحياة فنر، أو بالأحرى قلبتها!

إذ ما كاد يقوم بهذه الزيارة، لكي يؤدي المهمة، حتى وجد نفسه، وربما من المرات النادرة في حياته، مرتبكاً وأقرب إلى الاضطراب، بعد أن جاءت الأم والابنة للسلام عليه!

وإذ كانت عادته، منذ أن كان صغيراً، ألا ينظر مباشرة إلى عيني محدثه، فقد اختلس النظر إلى الأم والابنة عدة مرات، وراقب، بعناية، طريقة تصرفهما، وكيف تتكلمان وكيف تنظران، واسترجع ما قيل من قبل، وأحب لكنة البنت وهي ترد على بعض الأسئلة. أما الأم التي كانت

متلهفة لسماع كلمات معينة، فقد انقضت الزيارة دون أن تسمعها، فشعرت بالقلق، وما يشبه خيبة الأمل، لكن ما جعلها تؤمل وتنتظر أن الأمير أبدى رغبة في أن يقوم بزيارة ثانية في مساء اليوم التالي!

في الزيارة الثانية، جاء فنر مع مستشاره الخاص، عنان بسيوني، وحارسه، نصار، فقط، وقد سبقته مجموعة كبيرة من الهدايا، ثم شراؤها على عجل من استانبول. وقد بدا الارتباك منذ بداية السهرة، كان حائراً إلى أقصى حد بين أن ينهي واجبه بسرعة، وبين أن يسمع النداء الذي بدأ يدق صدره ويلحّ عليه. فالفتاة خلال السهرة كانت أكثر جمالاً وأكثر بساطة. والأم تطلعت إلى فنر عدة مرات، وكأنها تختبره، أو ربما قدرت ما يدور في رأسه، وقد زاده ذلك خجلاً، مما أدى في لحظة تقديم القهوة إلى انزلاق كوب الماء وهو يتناوله، فضحكت الأم ضحكة رنانة، وقالت إن الناس في هذه البلاد يعتبرون ذلك فألاً حسناً، ويؤدي إلى السعادة والرزق الوفير، مما خفف حرج الفتاة، فاعتبر الأمر لذيذاً وطريفاً!

وإذا كان عنان بسيوني مفيداً وضرورياً في أوقات الصعوبة والحرج، فقد كان في هذه الليلة إنقاذاً حقيقياً، إذ بالإضافة إلى معرفته باللغة التركية، فإن الطريقة التي اتبعها في إدارة الحديث، ثم النكت التي رواها، خلقت ألفة ما لبثت أن سيطرت على الجو تماماً، عكس الزيارة الأولى، والتي كانت أقرب إلى المجاملة والصمت.

من الإشارات غير المباشرة، ومن الحديث مجدداً عن موران، كيف كانت وكيف هي الآن، بدا واضحاً أن الزواج لا يزال الموضوع الذي يدور حوله الجميع، ومع أن السهرة انقضت أيضاً ولم يتم التطرق إليه، فإن الدعوة التي وجهها الأمير للعائلة لتناول العشاء على مائدته، وإعلانه أنه قرر إرجاء السفر، ثم الابتسامة التي رافقت ذلك، بدا مؤكداً أن الأمر سيحسم في اليوم الثالث، وسوف يتم الاتفاق على كل شيء. وقدر عنان بسيوني أن الأمير يكون في حالة نفسية أفضل، ويشعر بالثقة أكثر حين يأتي الآخرون لزيارته، وليس حين يذهب هو لزيارة الآخرين!

حتى ساعة متأخرة لم ينم الأمير تلك الليلة، والتلميحات التي بدرت

منه، وهو يتحدث مع عنان، حول جمال الفتاة وتهذيبها، ثم تساؤلاته ما إذا كانت مناسبة أم لا، وتلك الزفرات التي يصعدّها، جعلت عنان يدرك أن في الأمر شيئاً لا يفهمه. فليس هذا الزواج الأول أو الأخير للسلطان، ولا يتطلب تمديد الإقامة والاتفاق على زيارة وراء أخرى، خاصة وأن المجموعة المكلفة بهذه المهمة وصلت قبل الأمير، وتنتظر الإشارة لكي تحمل العروس وتنطلق بها، كما في كتب الأحلام والمغامرات.

قال عنان، وهو يتثاءب، إعلاناً أن سلطان النوم قد غلبه:

ـ لننم يا طويل العمر، ولما يصبح الله بخير الصباح فإن لكل مشكلة حلها.

ـ نياله اللي يقدر ينام بعد هذي الليلة، يا عنان بك!

وبلهجة مصرية لا تخلو من استغراب ومرح:

ـ الله... الله ايه اللي جرى يا صاحب السمو؟

ولما صمت الأمير تابع عنان بجد:

ـ لأ.. أصبحت المسألة جد خالص!

وبانفعال أقرب إلى العصبية اعترف الأمير أن الفتاة دخلت إلى قلبه، وأنه يجدها المرأة الوحيدة التي تناسبه، ولا يعرف كيف يتصرف أو ماذا يفعل. هل يواصل المهمة التي كلفه بها أبوه؟ هل يجرؤ أن يخطبها لنفسه، خاصة بعد أن جاء رسول من قبل وذكر أن السلطان يريدها؟ وماذا تقول الفتاة وماذا يكون رد فعل أهلها؟ وهؤلاء الأبالسة الذين ينتظرون منذ أسابيع، والمستعدون للانطلاق في كل لحظة، ماذا سيقولون في موران، للسلطان، حين يرجعون؟

ومع أضواء الفجر الأولى، وقد استعاد عنان بسيوني يقظته، تبين له أن في الحياة أموراً كثيرة لا يمكن أن تفهم بسهولة، وأن القشرة التي تغلف سلوك الإنسان، تخفي، أغلب الأحيان، تحتها أموراً عديدة وبمنتهى الغرابة. فالأمير الذي رفض بإصرار، بلغ حد النزق، أن يسمع من أحد، حتى والده، حديثاً عن الزواج، بعد وفاة زوجته الأولى، والذي يغرق في الصمت، وبعض الأحيان يسخر من أخوته، خاصة خزعل، لأنهم لم

يجدوا شيئاً يفعلونه سوى الزواج مرة بعد أخرى، يكتشف الآن أن فنر لا يختلف عن الآخرين، وأن في دماء هذه العائلة شيئاً يستعصي على الفهم أو التفسير. استعاد صورة الفتاة، وتساءل ما إذا كانت تملك من المزايا ما جعله يهتز ويتغير بهذا المقدار.

قال للأمير، وهو يهز رأسه:

ـ لنترك الأمر للغد، وأن غداً لناظره قريب!

في اليوم التالي، وبطريقة حازمة تماماً، طلب عنان بسيوني من مجول العصيفير والمجموعة التي جاءت معه، أن يستعدوا للسفر خلال ساعات، وأبلغهم أنه تشاور في الأمر مع طويل العمر، وعليهم أن لا يقولوا شيئاً «لأن موران ستبلغ بالنتائج».

ولم يترك الأمر هكذا، أشرف بنفسه على سفر المجموعة، وأبلغ إدارة الفندق بدعوة العشاء، ولأن الأمير ظل نائماً أو مرابطاً في جناحه، ولم يشأ، أو لم يستطع، أن يكون مع الآخرين، فقد اختار ذلك الغروب في شهر حزيران، لكي يبلغه، وبشكل تقريري، أقرب إلى رواية قصة قديمة:

ـ . . . . ولقد أعطى خادمكم لنفسه الحق في أن يتخذ نيابة عنكم بعض القرارات، وأعتقد أن القرارات التي اتخذت لن يندم عليها أحد طوال حياته. . .

وحين تطلع إليه الأمير بعينين تختلط فيهما الحمرة بالصفرة، وبدا أنه متعب وضجر، وربما أقرب إلى الحزن، تابع بلهجة أبوية:

ـ لقد طلبت، يا صاحب السمو، من الجماعة أن يسافروا، وقد سافروا. . .

وتطلع إلى ساعته، وأضاف:

ـ وقد مضى على سفرهم أكثر من ثلاث ساعات!

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ وإذا سمحت لي، يا صاحب السمو، يمكن أن أسافر الآن، وسوف أكون قبلهم في موران، لكي أشرح لصاحب الجلالة السلطان الأمر بنفسي،

وسوف يكون أسعد إنسان، لأن الشيء الذي تعب من أجل الوصول إلى تحقيقه، قد تحقق: لقد وافق سمو الأمير على الزواج. . .

وبعد أن نظر إلى الأمير الذي كان فرحاً ومحرجاً معاً، قال وهو يقهقه:

ـ ولولا دعوة العشاء هذه الليلة لما رأيتني الآن هنا. . .

وحين تذكر فنر دعوة العشاء، وأصبح كله عينين تنظران وتتساءلان، قال عنان بسيوني بجد:

ـ المهمة الآن تقع على عاتق شخص واحد، تقع على عاتق صاحب السمو الأمير فنر بن خريبط، ولا بد أن يقرر وينتهي كل شيء الليلة!

وبعد قليل وهو يفرك يديه:

ـ وإذا أردتني أن أساعد في هذه المهمة، يا صاحب السمو، فأنا جاهز ومستعد تمام الاستعداد.

حتى بعد انقضاء سنين عديدة، وكيفما ورد ذكر استانبول، أو تركيا، وكان عنان بسيوني موجوداً مع فنر حين كان أميراً، ثم بعد أن أصبح سلطاناً، والتقت نظراتهما، فلا بد أن تمر على الشفاه ابتسامة، لأنها تقترن بالكثير من الذكريات، ولأن ذلك القرار الذي أُتخذ فجأة، وعلى مضض، لم يكن خطأ، ولم يخلف ندماً.

لا. . . يمكن أن يكون الأمر معكوساً تماماً. فلو لم يُتخذ ذلك القرار لسارت الأمور في مسارات أخرى. فالأمير الذي بدا حائراً، ثم مفتوناً، وأخيراً صار مغرماً، والذي أجّل سفره مرة بعد أخرى، لم يسمح لمستشاره أن يسافر لكي يحسم الأمر مع أبيه، بل وأحس في بعض اللحظات بالخطأ والندم، وفي لحظات أخرى بالقوة وضرورة أن يتخذ قراراً حاسماً، ثم يترك للآخرين أن يتخذوا نيابة عنه القرار الذي يعنيه وحده، يعتبر أن ذلك القرار بالذات هو الصحيح، ووحده الذي كان يجب أن يتخذ، بغض النظر عمن اتخذه، وبغض النظر عن التفاصيل الثانوية أو الصغيرة.

ليس ذلك فقط، فإن الأمور سارت ضمن منطقها الخاص أيضاً، فالسلطان الذي لم يقابل مجول العصيفير إلا بعد ثلاثة وعشرين يوماً، إذ

كان، أول الأمر، في البادية، ثم انشغل باستقبال وفود زائرة، جاءت للتهنئة بقيام الدولة الجديدة، ظن، وهو يستقبل مجول، أنه واحد من الذين جاءوا للسلام، وفي لحظة معينة تذكر، خاصة حين اقترب مجول ليبلغه أن عنان بسيوني طلب منه العودة. قال السلطان وهو يشد على يده:

ـ كل شيء صار معلوم يا مجول، وعسى يكون خير!

مجول العصيفير الذي أراد أن يشرح ويوضح، لم يجد الجو ملائماً، قال وهو يتراجع، وبعد أن عرف ما حصل:

ـ الله يقسم اللي به الخير، يا طويل العمر.

أما الأميرة الجديدة، الأميرة ثروت، والتي أصبحت جزءاً من حياة السلطنة الهديبية منذ اقترانها بالأمير فنر، وقد اعتبر الأمير، ثم أبوه السلطان، ذلك فألاً حسناً للسلطنة في عهدها الجديد، فكان لقاؤها بالأمير صدفة فرضت نفسها، ولم يخترها أحد، وحتى الأمير الذي لم يكن يفكر بالزواج، وجد نفسه أسيراً لحالة جديدة: حالة لذيذة وضرورية وكان يجب أن تقوم منذ وقت طويل.

لماذا حصل كل ذلك؟ أو كيف حدث بهذه السهولة وبهذا التوافق؟

النبع الأول الذي شرب منه الجد القديم، رفيفان، وطالما سمعت ثروت أباها يتحدث عنه، وظلت أمها تذكره، وتتذكر القصص التي حدثها عنها بندر، هذا النبع سرت مياهه في الخلايا البعيدة فروتها، وجعلتها تتفتح وتنهض. لكن هل كانت مياه ذلك النبع هي التي دفعتها لأن توافق، ولكي تكون، مرة أخرى، جزءاً من عالم شديد التغير، سريع الانفجار؟ هل هناك شيء، في كل إنسان، يخبو، لكن لا يموت، ويظل هذا الشيء يحركه ويدفعه من مكان إلى آخر، حتى يعود إلى منابعه؟

هناك قوى غامضة، وإلى حد كبير مجهولة، وقد تنقضي سنوات كثيرة قبل أن يكتشفها الإنسان أو يعرفها، وهذه القوى هي التي تحرك وتغير، وأخيراً تدفع إلى حيث يجب أن يكون البشر.

عنان بسيوني، وهو يستعرض الأمور، كيف كانت، والأشخاص،

كيف كانوا وكيف هم الآن يقول لنفسه بنوع من الحيرة: «الصدفة هي أخطر القوانين في التاريخ، إذ يمكن أن يترتب عليها تغيير المصائر والرجال والأنظمة. . . وحتى الحدود الجغرافية». يقول ذلك لأن الأمير فنر لم يتوقف عن التغير منذ السفرة الأخيرة. صحيح أن سفراته السابقة أثرت فيه، جعلته يتطور، ومختلفاً، لكن منذ أن جاءت هذه المرأة أصبح إنساناً آخر. يحدث نفسه بقناعة واستغراب معاً: «الإنسان، أي إنسان، يكتسب الكثير من التجارب والمعارف، والأسفار تجعله باستمرار غير ما كان قبلها، أما أن ينقلب بهذا المقدار، فلا شيء يقوى على ذلك إلا الله والمرأة». ويتذكر كيف كان الأمير فنر محباً للعزلة والانطواء، وسابحاً في عالم من الخيال، ويتذكر أيضاً كلمات الطبيب البلجيكي، الذي جاء إلى موران، قبل بضع سنوات، وقد قام بفحص الكثيرين من أفراد أسرة السلطان، وكان هو الذي يترجم للطبيب ويحاوره. قال الطبيب يصف حالة فنر «يعيش في أحلام اليقظة، ولا بد أن يحتك بالآخرين، لكي يخلص من الحزن والإمساك وكوابيس الليل» وأضاف وهو يغمز بعينه: «وإذا تزوج مبكراً أفضل، لأنه إذا ظل هكذا يجهد نفسه. . .».

صحيح أن ذلك جزء من تاريخ بعيد، لكن آثار ذلك التاريخ ظلت باقية، وظل الأمير ميالاً إلى العزلة، وتعاوده، بين فترة وأخرى، أمراض غامضة، لا يعرف الأطباء كنهها أو أسبابها. أما الأدوية التي كانت توصف لعلاجه فكانت تؤذيه أكثر مما تفيده.

في السنوات الأخيرة، وقد تغير فنر كثيراً، وظهر للذين يعرفونه أنه غادر الحزن والعزلة، فما لبث أن عاودته بعض الأمراض اثر وفاة زوجته. ومع أنه يصرف وقتاً طويلاً في إدارة شؤون الحكم، واكتسب الكثير من التجارب والمعارف، إلا أنه ظل رجلاً صعباً.

ورغم أن عنان بسيوني يعتبر الزواج سبباً للاستقرار والهدوء النفسي بالنسبة للكثيرين، فقد كان على يقين أن الزواج لا يتعدى المتعة العابرة بالنسبة للسلطان وأولاده وأقاربه، بل وكاد يعتبر ذلك قاعدة في موران كلها، ولهذا لم يتصور أن زواج الأمير حدث خارق. صحيح أنه بدا له

هاماً، واستثنائياً لأغلب الذين عرفوا الأمير فنر، خاصة من أخوته وأقاربه، الذين حاولوا إقناعه بالزواج من قبل، وكيف اتخذ ذلك الموقف الرافض، الأقرب إلى النزق، إلا أن الأمر ما لبث أن أصبح مألوفاً، ثم عادياً، ولم يعد أحد يأتي على ذكره، ما دام رد فعل الأمير هكذا!

بعض مسني العائلة من الرجال، الذين يسمعون الكثير، ولا يتكلمون إلا نادراً، والذين يرقبون بعناية كل تصرف وكل حركة، وبعد أن سمعوا ورأوا كيف تغير السلطان بعد وفاة ابنه منصور، وبعد أن نقل الخدم والنسوة كيف يتعامل مع خزعل، وتذكر عدد منهم كيف أن خريبط ألحّ على ضرورة تدخلهم من أجل إقناع فنر بالزواج من جديد، وأكد لهم أن فنر يعني له الكثير لكي تستمر الدولة والأسرة، وبالتالي قدرتها على مواجهة الخصوم والمنافسين والأحداث، فقد قال بعض هؤلاء أن خريبط لن يتردد في أن يجعل فنر سلطاناً بعده. المسألة مسألة وقت، ولكن ذلك لا بد أن يحصل. أما من كانوا أصغر سناً من هؤلاء، والذين يعرفون خزعل وفنر، فإنهم أكثر جرأة على أن يقولوا بصوت عالٍ:

ـ اللي يقدر يدبر الأمور بعد السلطان هو فنر، وإذا جاء خزعل الله يستر!

النسوة، في الجناح الغربي من قصر الروض، ورغم أن فنر بعيد أغلب الوقت، لم يكنّ يخفين قناعاتهن أن السلطان بعد السلطان هو فنر. وأمي زهوة التي كانت شديدة الغضب والنزق في الفترة الأخيرة، كانت تسأل عن فنر بمقدار ما تسأل عن السلطان، وحين كان يرد عليها أن فنر في العوالي، وقد تطول غيبته هناك، كانت تصرخ:

ـ الله من الظلاّم، يريدونه بعيد حتى ما أحد يتذكره، لكن الله بالعين ما نشاف بالعقل انعرف، وهذا فنر قدر ما يريدونه بعيد قريب، وبس يجي طويل العمر أسولفه وأقول له، ويشوفون!

موضي التي اختلفت مع زوجة فنر الأولى، وآثرت أن تبتعد، غضبت أكثر لأن فنر انتهى أو كاد بعد موتها. حاولت أن تصالحه، أن تقترب. زارته وبكت لموتها، واعتبرت أن كل شيء يمكن أن يبدأ من جديد، لكن

لما وجدته غارقاً في الحزن، لا يريد أن يكلم أحداً، أو أن يسمع من أحد، فقد عادت مرة أخرى إلى موران، دون أن تودعه، ودون أن يحس بها إلا من كان قريباً منها.

الآن، بعد أن تزوج من جديد، فقد حملت هدايا كثيرة وجاءت. كانت فرحة مثل طفلة، وكانت لا تقوى على إخفاء ندمها لما بدر منها سابقاً. أما العلاقة التي قامت بينها وبين ثروت، فكأن الاثنتين تعرفان بعضهما منذ وقت طويل، أو كأنما عاشتا معاً من قبل. وفنر الذي تمزق بين الحزن والعناد، وكان سفر موضي عاملاً إضافياً في الكآبة، وربما المرض الذي عانى منه، فإنه الآن، وقد رأى موضي تعود، واكتشف أنه يحبها أكثر مما كان يفترض أو يتصور، ورأى أيضاً أثر السنين التي مرت، فقد أحس بقسوته وخطئه، ولام نفسه انه كان عنيداً هكذا.

خالته مزنة التي جاءت لتهنئته بالزواج، ولكي تبذل جهداً جديداً من أجل إطلاق سراح خاله عمير، وكانت قد رأته قبل شهور وتراه الآن، فقد قالت:

ـ فنر هالحين مثل يوم ما كان عندنا، لأنه تصالح مع موضي.

وتتذكر أن فنر حين كانت تغضب منه موضي يمرض، ولا يقوى على الأكل أو النوم.

الآن، وقد عادت موضي، وبدت فرحة، راضية، ومنذ أن التقت نظراتها بنظرات ثروت، وعبّرت عن التعاطف ثم المحبة، وكان فنر قلقاً لاحتمال ألا تنسجم المرأتان، كما حصل مع زوجته السابقة، فلم يستطع أن يخفي انفعاله لهذا الود وذلك الانسجام.

همس في أذن ثروت في الليل المتأخر:

ـ . . . موضي بالنسبة لي أكثر من أخت، كانت أختي وأمي.

قطمة، خادمة موضي التي لا تفارقها لحظة واحدة، قالت لإحدى صديقاتها، وقد لحظت التغير الذي حصل:

ـ ستي ولدت من جديد، ولا تريد أن تعطي فرحتها لأحد بعد أن تزوج سيدي من ثروت.

وموضي التي كانت على ثقة أن مثل هذا الزواج وحده يمكن أن يكون معقولاً ومرضياً، فقد كانت مثل أية أم حين تنظر إلى الفتاة التي ستكون زوجة لابنها، إذ تبحث في شكلها وصفاتها عما يلائمها هي بالدرجة الأولى، قبل أن تعرف ما يلائم ابنها، لكنها، مع ذلك، لا تريد أن تعترف بهذا حتى لنفسها.

وثروت التي دخلت قصر الروض مذعورة، وكانت تجفل من أي صوت، وتخاف النظرات والهمسات، بل وندمت في لحظات معينة أنها وافقت وتزوجت الأمير فنر، وأصرت على أن تبقى أمها إلى جانبها، وأن لا تفارقها إلاّ حين تذهب لتنام، ما لبثت أن شعرت بالاطمئنان والراحة وهي تصل إلى العوالي، وتبتعد تماماً نظرات نساء قصر الروض وابتسامات الصبية والخدم.

قالت لها أمها، فريزة خانم، وهما تجلسان على شرفة قصر الهازعي، مقابل البحر:

ـ . . . قد يكون الطقس في هذه البلاد قاسياً، لكن القسوة خارج القصر، وعليك ألا تفكري بالخارج، المهم الداخل، وداخل قلب فنر بشكل خاص.

تنهدت وبان عليها الحزن وهي تتذكر:

ـ ورجال موران بمقدار ما يبدون قساة، ولا يعرفون الضحك، أو كيف يفرحون، إلا أنهم، في لحظات كثيرة، يصبحون كالأطفال، ويريدون من المرأة أن تكون كل شيء بالنسبة لهم: أن تكون أماً وأختاً وعشيقة، ويجب على المرأة أن تفعل ذلك، وأن تكون كل ذلك، شرط ألا يحس أحد، حتى زوجها، وأن تفعله في الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة!

ابتسمت وتلمظت، ثم تابعت وقد تغيرت نبرة صوتها:

ـ لم أتصور أنني سأكون قادرة على العيش مع أبيك خلال الشهور الأولى، كان دائم التجهم، شديد الحزن، وأغلب الأحيان، صامتاً، ولقد فكرت أن أتركه وأعود إلى بيت أبي، لكن مع كل يوم يمر، ومن خلال الابتسامة والمداعبة، ومن خلال تقديم الخدمات الصغيرة، ومشاركته في

أحزانه وأفكاره، ثم الاستماع إليه وهو يفضي إليّ بهموم قلبه، تغير. نعم تغير، أصبح إنساناً آخر.

ابتسمت بحزن وتابعت كأنها تحدث نفسها:

ـ . . . وفي استانبول، وخلال فترة شهور طويلة، أصبح مرة أخرى إنساناً صعباً إلى أقصى حد، لكن بمرور الأيام تغير. . . وحتى أصدقاؤه في موران الذي زاروه في استانبول، أكدوا له أنه يبدو الآن أصغر من عمره، وأكثر نشاطاً وفتوة مما كان عليه في موران.

هزت رأسها بحزن، وبعد قليل:

ـ أما حين سمعوا ضحكاته الصاخبة، ورأوا طريقته في الحياة والتصرف، فقالوا له: التركيات غير بنات موران. ولم يتردد بعضهم في ممازحته والطلب منه أن أدبر لهم زيجات مثل زواجه!

غيرت فريزة خانم جلستها، أعطت البحر كتفها والتفتت إلى ثروت تنظر إليها بتحديد، وهي تتابع:

ـ والمرأة الذكية تستطيع أن تفعل كل شيء. المهم أن تعرف ماذا يجب أن تفعل ومتى. وهذا يتطلب، بالدرجة الأولى، أن تعرف زوجها: ما يحب وما يكره، كيف يفكر وماذا يريد. إذا عرفت ذلك وصلت إلى قلبه أسرع من البرق.

اسدارت مرة أخرى نحو البحر، وعادت إلى لهجة الذكرى:

ـ لم يعرف أنني أعزف على العود وأغني إلا في وقت متأخر، لو عرف ذلك في البداية لظن الظنون، وربما لم نستمر. إن الشك بالنسبة لهم يعذبهم، وقد يقتلهم، لأنهم شديدو الغيرة، ولا يثقون بسهولة، لكنهم إذا وثقوا فإنهم يعطون كل شيء، ولا يترددون في أن يفعلوا كل ما تطلبه منهم.

ضحكت بصوت عالٍ والتفتت إلى أكثر من جهة قبل أن تتابع:

ـ في وقت لاحق، خاصة في استانبول، أصبح يردد معي بعض الأغاني التركية. كان يضرب على صينية الشاي، لكي يلتقط النغم

ويشاركني الغناء. وفي أحيان كثيرة، وربما تتذكرين ذلك، كان يحمل إليّ العود لكي أعزف ألحاناً لأشعار يحفظها!

هل هو نفس الرجل؟ هل تغير بهذا القدر؟ وأنا. . . كم تغيرت أيضاً؟

تابعت دون أن تنتظر جواباً:

ـ بالتأكيد تغيرنا نحن الاثنين. أصبحت له وحده، وجعلته يصبح لي وحدي، والحياة تغيرت أيضاً.

ردت ثروت بضيق:

ـ ولكن فنر أمير، يا أمي، وأنت تعرفين أمراء هذه البلاد!

ـ إنه رجل قبل أن يكون أميراً!

وابتسمت الأم بثقة وخرج صوتها عميقاً واثقاً:

ـ عند عتبات غرف النوم يترك الرجال ألقابهم وسيوفهم ونياشينهم، أما حين ينزعون سراويلهم فإنهم يتخلون عن قسوتهم وتحفظهم وخوفهم، ويصبحون أكثر استعداداً للفهم والاستجابة، شرط أن نقول لهم الشيء المناسب، وعلى دفعات تتناسب مع اهتزازات السرير!

احمّر وجه ثروت وشعرت بالحرج، لكنها لم تخف ابتسامة عبرت وجهها، مع التماعة في العينين، وكأنها تتذكر ذلك تماماً، وشاركتها أمها الابتسام!

خلال فترة طويلة لم تفعل ثروت سوى أشياء قليلة: تتطلع إلى فنر بإمعان، تراقبه، تسمع باهتمام كل كلمة يقولها. كانت تريد أن تعرف كيف يفكر وماذا يريد. في بعض الأحيان، حين يراها تنظر إليه، أو يحس بمراقبتها، تبتسم تعبيراً عن الإعجاب والغرام، فإذا سألها لماذا تتطلع إليه هكذا كانت لا تتردد في أن تحرك رأسها، أو تغمز بعينها، لكن بطريقة لا يمكن أن يخطئ فهمها، أو دلالتها. وحين يكون الوقت ملائماً، لا تكتفي بهزة الرأس أو غمزة العين، كانت تجيبه بجسدها كله!

ويوماً بعد يوم: ما يحبه فنر تحبه. ما يريده يمثل أقصى أمانيها. تعودت ساعات نومه وساعات اليقظة. ليس لها طلبات خاصة، وتعجب

بكل ما يفعله أو يقوله. كانت تبدي دهشة، تصل حدود الخفة، حين يقدم لها هدية. ومثلما تعودت، ومنذ أيام الصغر، أن تقبّل أمها لأية هدية تقدمها إليها، أخذت تقبله. صحيح أنه كان يبدي تحفظاً ظاهراً أول الأمر، ثم أصبح التحفظ خفراً، وانتهى إلى أن ينتظر القبلة إذا قدم إليها الهدية فانشغلت بها عن تقبيله. كان يقول بدعابة:

ـ ولا كلمة شكر؟

وتهجم عليه، تتعلق برقبته، تقبله على خديه، على شفتيه، فيحس أنها منحته أكثر مما قدم إليها.

أما الأشياء التي يفضلها، أما الأشخاص الذي يحبهم، فقد أصبحوا جزءاً من حياتها واهتمامها. لا تعرف النوم قبل أن يعود. وكثيراً ما وجدها، وهي بكامل زينتها، نائمة، أو بالأحرى غافية على المقعد المقابل للحديقة التي يحبها. وكان هناك يفضل أن يتناول معها القهوة كل صباح.

لقد علمه هاملتون، أو بالأحرى أوحى له، وبطريقة غير مباشرة، أن جزءاً من محبة الشعوب لملوكها وأمرائها، هو إحساس هذه الشعوب أن أمراءها مختلفون، وأنهم متفوقون. وها هي ثروت تؤكد له ذلك.

قال له هاملتون ذات ليلة:

ـ يجب أن يكون الملوك والأمراء مثل الشمس: بعيدين وقريبين، في آن واحد. يجب أن يملأوا كل مكان، وأن يكونوا موجودين بكثافة، ودائماً فوق الآخرين، ولكنهم أيضاً عصيّون على كل شيء، ويمكن أن يفعلوا ما لا يتوقعه الآخرون.

فنر الذي تعود منذ وقت مبكر عادات خاصة، وربما فرضتها العزلة، أو الخوف من الآخرين، أصبحت هذه العادات جزءاً من حياته وسلوكه، وأصبح يختلف أيضاً عن الكثيرين. فإن يشرب أبوه القهوة مع جماعة كبيرة، ومنذ الصباح الباكر، لا يعني أن يصبح مثل أبيه، أو أن تصبح هذه الطريقة عادة يجب أن تتبع. فهو يفضل أن يشرب القهوة بملابس النوم، وحده، أو مع من يريد، ولا يريد أن يصبح واحداً من القطيع، كما قال هاملتون مرة، حين نهض أحد المدعوين الغاضبين عن المائدة، وجعل

الآخرين ينهضون، تعبيراً عن الغضب، ولكي يشعر السلطان، أنه قادر وقوي مثله، قال هاملتون بدعابة:

ـ الإنسان يأكل قدر ما يحتاج وقدر ما يريد، لا حسب رأي الشيخ أو حسب الإمساك الذي في معدته!

وأضاف بعد قليل وهو يقهقه.

ـ أما القطيع فإنه يأكل حسب رغبة الراعي وحسب شراسة كلبه!

هذه الكلمات التي قالها هاملتون عرضاً انغرزت في عقل فنر ووجدانه، ولذلك، وبكثير من الإصرار والتحدي، أصبح يتصرف حسب ما يراه معقولاً ويناسبه أكثر.

صحيح أنه يمتثل لعادات أبيه حين يكون معه، ويفعل ما يجب أن يُفعل، لكن إذا كان وحده، أو في مكان يمتلك حرية التصرف، خاصة إذا كان في العرين، كما كتب أحد الصحفيين واصفاً الأمير في العوالي، فإنه لا يفعل إلا ما يعتبره ضرورياً وملائماً. كان يكره تصرفات خزعل، وطريقته في التعامل مع الآخرين. فخزعل لا يفعل سوى تكرار ما فعله أبوه: الحركات، الكلمات، وبعض الأحيان لا يتردد في أن يقوم بأعمال سوقية، كأن يمازح أو يشتم. كان فنر يعتبر ذلك لا يليق بالأمراء. فإذا كان أبوه قد تعود مداعبة بعض الأشخاص الذين عرفهم منذ وقت مبكر، وإذا تمخط أو بصق، فلا يعني ذلك أن يفعل الآخرون مثله، لأن حياة السلطان، وأيامه، تختلف عن الحياة التي يعيشونها الآن، ولا يتطلب تكرار ما انتهى.

لقد بدر مثل هذا الاختلاف أكثر من مرة، لكن لم يصل إلى حد الخلاف.

كان فنر، أغلب الأحيان، ينظر إلى مثل هذه التصرفات بسخرية ويمضي. أما إذا أراد أحد أن يوقفه، أن يناقشه، فكان يرد بحدة:

ـ الواحد يدوّر على راحته. . .

وتتغير نبرة الصوت، تصبح أقرب إلى الغضب:

ـ ومثل ما قالوا من قبل: نم على الجنب اللي يريحك، ولا تنم مثل ما يريد الناس!

فإذا كان الحديث يجري عن طريقته في الأكل، فإنه ينبر:

ـ وأنا، إذا قطعت اللحم بالسكين، أضر أحد؟

وحين يكون الجواب المؤكد بالنفي يتابع بزهو:

ـ كل اللي يعجبك، وبالطريقة التي تعجبك، وألبس ما يعجب الناس، وسولف معهم بالكلام اللي يعجبهم!

فإذا ذكّروه بالبادية والعادات، كان يرد بسخرية:

ـ إذا كنت بالبادية، مع البدوان أسابقهم وأسبقهم، وأنتم تعرفون!

وهذه الصفة بالذات هي التي أعجبت فريزة خانم، ولفتت نظرها، منذ اللقاء الأول. وإذا كانت فريزة خانم، أول الأمر، بدت خائفة أو متحفظة، حين قال لها عنان بسيوني أن الأمير يطلب يد كريمتها، فقد أصبحت مختلفة حين استعادت الصورة والتصرفات. فقد ظهر لها الأمير زوجاً مناسباً، ولا يمكن أن يرفض، بل أكثر من ذلك بدا لها محبوباً. فبندر الرفيفان، رغم السنوات، ورغم أنه سمح لها بالتدخين، أو بالأحرى لم يمانع أن تدخن أمامه، فلم يكلف نفسه مرة واحدة، عناء أن يشعل لها سيجارتها. كانت تشعل له سيجارته. كانت تهيى له أركيلته، لكنه لم يتنازل، أو لم يفكر، بأن يشعل لها سيجارتها مرة واحد. فنر، لم يتردد في أن يفعل ذلك، بل ولم يتردد في أن يحمل لها طبق الفاكهة، ويعرض عليها، مرة، بعد أخرى، أن تختار.

قالت لعنان بطريقة لا تخلو من مكر:

ـ ولكنهم قالوا لنا أن العريس شخص آخر.

رد عنان بحزم:

ـ الذين قالوا أخطأوا، فصاحب السمو الأمير فنر، يسعده أن يطلب يد كريمتكم!

والأيام الثلاثة التي طلبتها فريزة خانم كمهلة، لتعطي بعدها كلمتها،

والتي انتظرها الأمير فنر، كانت أياماً صعبة وقاسية. بل ووصل الأمر به إلى حد الندم ولوم النفس، لأنه سمح لنفسه، أو سمح للآخرين، أن يتصرفوا بهذه الخفة. لكن عنان بسيوني الذي استعمل ذكاءه وخفة دمه، وحزمه أيضاً، لكي يصل إلى نتائج إيجابية، لم يترك الأمور هكذا. ففي صباح اليوم التالي استأذن الأمير، لأنه مضطر للغياب لعدة ساعات، لكي يزور قريباً فقيراً في قرية غير بعيدة عن استانبول، وأن الواجب يقتضيه أن يترك له بعض الدراهم. والأمير الذي وافق على أن يقوم عنان بهذه الزيارة، طلب منه ألا يتأخر!

بعد سنين عديدة، كانت فريزة خانم تشعر باللذة، حين تتذكر تلك الساعة، عند الضحى، وهي تجلس مقابل عنان بسيوني. كانت مترددة، قلقة، وأميل إلى إرجاء الجواب، فبعد أن حدثها بندر رفيفان مرات ومرات عن خريبط، امتلأت بالخوف والإعجاب معاً. وفي لحظات معينة تصورت بندر سلطاناً أو ملكاً، وأنها إلى جانبه الملكة، وكل العيون تتطلع إليها، تتابعها بإعجاب. أما وإن كل ذلك قد انتهى، فإن الباب الخلفي يُدقّ الآن، ويأتي خريبط، أو من يمثله، لكي يتقرب منها، ولذلك فإن ما عجزت عن تحقيقه أو الوصول إليه، يتاح لها الآن، ولكن من خلال ابنتها، فيجب أن تستغله، أن تقبض عليه بيديها وأسنانها. لقد عاشت الفترة الماضية، منذ وصول مندوب خريبط وهداياه، وحتى الآن، وهي تهيئ نفسها، لأن تكون أم الملكة، فهل تبدد حلمها وتتراجع لتقبل أن تكون ابنتها مجرد امرأة ضمن هذا العدد الهائل من النساء المنتظرات، ولا تعرف ماذا سيحصل كل واحد من الأخوة المتنافسين من ميراث أبيهم؟

قالت لعنان بسيوني، وخرجت كلماتها متلجلجة:

ـ ما فهمناه أن السلطان نفسه يريد ثروت!

رد عنان بمكر:

ـ صحيح أن السلطان يريد ابنتكم، ولكن لابنه فنر، يا فريزة هانم...

وتابع وهو يبتسم ويحرك رأسه ويديه:

ـ وأنت تعرفين، يا فريزة خانم، أن ابن السلطان سلطان بعد أبيه!

ـ ولكن أولاده كثيرون.

ـ السلطان لا يعتمد إلا على سمو الأمير فنر، وهو الآن نائبه وحاكم العوالي، وهو أحب أولاده إليه، ويعتمد عليه في الصغيرة والكبيرة!

وحين صمتت وقلبت شفتها، بدرت منه حركة وكأنه أدى كامل مهمته، وليس عليه إلا الانسحاب، إيذاناً بأن كل شيء قد انتهى. تطلعت إليه بطريقة تريده أن يبقى، أن يواصل الحديث. أدرك. قال بنبرة جديدة:

ـ لا أريد أن أذكر ما حصل خلال الشهور الأخيرة: لم تبق امرأة، في السلطنة كلها، وفي بلدان أخرى غيرها، إلا وتمنت أن تكون زوجة لسمو الأمير فنر، وسموه، حتى أيام قريبة، لم يكن يفكر في الزواج، ولم يخطر بباله، لكن في هذه الحياة كل شيء قسمة، كل شيء صدفة، وعلى الإنسان الذكي ألا يفوّت الفرصة.

وبعد أن استفسرت فريزة خانم عن ترتيب الأمير بين أخوته، وعن المهمات التي يشغلها، وعن الأسباب التي دعت الأمير إلى اختيار ابنتها لتكون زوجة له، وعنان بسيوني يفيض في الحديث والإشادة، ولم يتردد، في لحظة معينة، حين تأكد من اقتناعها، بأن يهمس، وكأنه يفضي إليها بسر:

ـ لو كنت مكانك، يا فريزة هانم، لما ترددت لحظة واحدة، لأن المرأة التي ستكون زوجة سموه ستكون أسعد امرأة في العالم!

حين تذكر فريزة خانم الجلسة، والحوار الذي جرى خلالها، تقول لنفسها، ولا تتردد في أن تقوله لثروت: الفضل كله لعنان بك، نصيحته كانت من قلبه، والله، سبحانه وتعالى، أعطاه على نيته، لأن كل من يوفق رأسين على مخدة له عز الدنيا وجنة الآخرة».

وفريزة خانم التي خافت من القرار الذي اتخذته، وظلت أياماً لا تنام، وكادت تتراجع بعد أن أحست بهول النقلة وبعد المسافة، لما تأكدت أنها ستترك استانبول إلى مكان بعيد ومجهول، حزمت أمرها وأعطت كلمتها في لحظة يأس، مع دمعة سبقت الابتسامة!

وهي تصل إلى موران لم تزايلها مشاعر الضيق والخوف. أكثر من

ذلك، بدت لها موران بلدة موحشة، أقرب ما تكون إلى تلك الأحياء البعيدة والفقيرة عن وسط استانبول، حيث لا يرى الإنسان سوى تلك الوجوه المتحفزة الخطرة، والمليئة بالنوايا الشريرة. ومع ذلك قررت الاستمرار والمقاومة.

قابلت نظرات الاستطلاع من نساء القصر بالابتسام، ولا يعرف ما إذا كانت ابتسامتها تشفياً أو دلاً، وهي تصطحب معها أكثر بنت بياضاً، وربما جمالاً، إلى موران، أم أن الابتسامة كانت درعاً تحصنت وراءه لكي تتقي النظرات المكتشفة وغير الودية التي ترمقها بها النسوة.

قالت لثروت في الأيام الأولى، وقد لمست ضيقها وخوفها:

ـ سوف يتعودن على وجودك يوماً بعد يوم.

وبعد قليل، وكأنها تحرض نفسها:

ـ حين تبتسمين للآخرين تنتزعين منهم أقوى أسلحة المقاومة، كما تنتزع السنارة الصغيرة السمكة الكبيرة. أما الرقة مع الرجل فإنها أقصر الطرق إلى القلب.

وابتسمت وهزت رأسها، وكأنها تتذكر:

ـ لا تنسي ذلك أبداً، ولذلك يجب أن لا تخافي وأن لا تتضايقي.

قال قطمة لموضي:

ـ . . . وهذي البنيّة غير عن النساء ياستي: تضحك من قلبها وتحب سيدي.

وبعد قليل وهي تبتسم:

ـ وحبتك يا ستي!

قال نصار حارس الأمير الذي لا يفارقه:

ـ كان يلزم تجينا هالكرجية من أيام وأيام. . .

وضحك ثم أضاف:

ـ من قبل، كانت كلمة صبحكم الله بالخير، أو مساكم الله بالخير، ما

تطلع منه. هالحين: شلونك يا نصار؟ وعساك زين يا نصار؟ وما تريد شي يا نصار؟ والخوايا شلونهم وما يريدون شيء؟

وقهقه وقال لنفسه:

ـ اللهم أتمم علينا بخير؟

رد بخيت الذي يصب القهوة للأمير:

ـ القول اللي تقوله يا أبو عزّيز. كان من قبل يهز الفنجان، وإذا تكلم قال: بس، هالحين صار رجال ثاني، غير شكل.

هز رأسه عدة مرات وخرج صوته همساً:

ـ فكفكته بنت الأوادم، وحتى لسانه العظم حلّته، وإذا ظلت عاتّته، تراها، الله العليم، ما راح تخلي منه إلا الجلد والعظم!

ـ لا تخف يا رجال، هذولا الكرجيات يعرفن وين الداء وكيف يداون!

وفريزة خانم عينان لا تتعبان: تراقب بدقة، تنظر إلى كل شيء بعناية، وما لا تستطيع أن تراه بعينها تلتقطه بأذنيها. وتحملها الذكرى بعيداً، تقول لثروت بحزن:

ـ . . . وكنت أعرف وقع خطاه في الظلمة وهو عائد من المقهى، وكنت أميز، من نظرة، ما إذا كان سمع شيئاً يفرحه أو يحزنه، وكنت أقدر أي الأكلات يشتهيها فأعدها دون أن أشعره، وكان يفرح بذلك ويزداد حبه لي.

وثروت، بمرور الأيام، لم تعد بحاجة إلى كل هذه النصائح، قالت ذات مرة لأمها، وهي تضحك:

ـ لا تخافي، ولم أعد صغيرة!

ولم تتوقف فريزة خانم عن إبداء الملاحظات، مؤكدة على ضرورة الانتباه والحرص. وثروت التي تسمع تبتسم، مع قناعتها أنها تجاوزت كثيراً الكلمات والنصائح التي تقال!

لم تتوقف رياح الصحراء عن الهبوب يوماً واحداً. كانت تهب قوية مرة، وهادئة رضية مرة أخرى، لكنها دائماً، وهي تهب، تدفع أمامها أشياء جديدة.

فالرياح التي هبت على السلطان في عين دامة أثناء عودته من الطريفة، وقد خيم في الناحية الشرقية، بناء لرغبة العجرمي، وليكون أيضاً بعيداً عن القلعة التي يطل منها خصمه الذي لا ينساه، عمير، جعلته ضيق الصدر عصبياً. وإذا كان قد احتمل اليوم الأول، والليلة الأولى، فقد طلب ظهر اليوم التالي أن يُشدّ الرحال. قال للعجرمي بمداعبة لا تخلو من غمز:

ـ عين دامة، يا أبو مشعل، ما تحملنا حنا الثلاثة، أنا وأنت وثالثهم...

وأشار إلى القلعة وهو يضحك، وبعد أن هدأ:

ـ والقضية الثانية: جانا طارش أن القناصل يريدون يقابلونّا بموران، ولا بد يكون عندهم سالفة، ويلزم نشوفهم.

العجرمي الذي حاول إقناع السلطان بفوائد مياه عين دامة، وتأثيرها المؤكد، كان حريصاً أكثر أن يقتنع ببقائه. قال له بانفعال:

ـ الأشياء الزينة، يا أبو منصور، والمجربة، مثل ما يريدها الإنسان لنفسه يريدها للي يحبهم!

ـ وكلّ الله، يا أبو مشعل، المهم، هالحين، تشد حيلك، وترجع لنا معافى وسالم.

وبعد قليل وبتعريض واضح:

ـ وحنا، الله يسلمك، يجي دورنا ونلحق عليها!

فنر الذي رافق أباه إلى عين دامة، وكان يتحين الفرص لكي يبحث معه أمر خاله عمير، وقد أرسل مبكراً لهذه الغاية عدداً من رجاله، لكي يقابلوا عمير في القلعة، لعلهم يقنعوه، فيعلن ندمه وتوبته، ويكون وجود السلطان مناسبة لإنهاء هذه المشكلة، فقد أبلغه الذين أرسلهم أن عمير نسي خريبط أو كاد، ولم تعد شتيمة فنر تترك لسانه. وأشار بعضهم، بحياء، وبكلمات غير مباشرة، إلى ما يردده، الأمر الذي أوغر صدر فنر، وصرفه عن بحث الموضوع. أما حين سأله أبوه عن «جماعة» القلعة، وقد سأل بسخرية، فكان رده سريعاً وجاهزاً:

ـ بعده ما تأدب، طال عمرك، لسانه طويل والشتيمة تونّسه.

ـ إذن خله متونس إلى أن ينقض!

عبد الله البخيت حين حاول العجرمي أن يمسك به ويجبره على البقاء، فقد همس بأذنه:

ـ الأحسن يا شيخنا امشي، لأني الوحيد اللي قلت لأهل موران أن شيخنا ظهره قوي، وما يشكي إلاّ من صوابعه. ناظروا بوجوه بعض وقالوا: عبد الله ما يحكي إلا الصدق، وغيره يكذب!

وبعد قليل:

ـ وإذا تركناهم، أنا وأنت، يا أبو مشعل، تراهم يسلقونّا، وما يخلون ستر مغطى، وبعدها يصدقون كل اللي ينقال لهم، الأخير أكون هناك، والقمّ لكل لئيم، وكل صاحب لسان طويل، حجر!

وابتسم ثم قال وهو يترنم، لكي يقطع على العجرمي أية محاولة للضغط:

ـ وإذا ما أتيت الأمر من غير بابه ضللت وان تدخل من الباب تهتدِ

العجرمي الذي اضطرب، لأن الناس تتناوله بهذه الطريقة، سأل بحنق:

ـ وشنهو اللي يقولونه يا عبد الله؟

ـ وأنت تعرف أهل موران، طال عمرك، إذا ما لقوا أحد يسولفون عليه يسولفون على أرواحهم!

- الخنازير... أولاد الحرام.

ولكي لا يترك ابن البخيت مجالاً، قال وهو يرفع اصبعه مهدداً:

- بس أبد لا تدير بال، يا أبو مشعل، أنا وراهم واشعل موتاهم، وهم يخافونّا خوفه حية...

وتابع بعد أن جر نفساً عميقاً:

- الق العصا تتلقف كل ما صنعوا   ولا تخف ما حبال القوم حيات

قال العجرمي بهدوء وحزن:

- زين... زين ارجع ونشوف...

ثم بلهجة مهددة:

- بس أريد منك، يا عبد الله، تعلمني، لما أرجع، من هو اللي يقول وشنهو اللي يقوله!

- سوالف ليل يا أبو مشعل، وما تنشال من أرضها.

- لا... أريدك تعلمني.

- بسيطة، يا شيخنا، المهم، هالحين، تشفى صوابعك وتتعافى، وبرجعتك، بالخير والسلامة، لكل حادث حديث!

ولم تتوقف الرياح عن موران أيضاً:

شمران العتيبي في سوق الحلال يستقبل الرياح وأصحاب الرعايا والأخبار، فإذا كانت الريح غربية قوية يصدّ قليلاً، ويطلب من الذين حوله أن يعطوا ظهورهم لها، وأن يتابعوا ما يروونه من الأخبار، حتى إذا عرف ما حصل، وتذكر ما رأى وما سمع، تنحنح وخرج صوته صافياً قوياً:

-... وموران هي موران، الله خلقها بهذا المكان، وخلق ناسها، وما أحد يغير اللي الله خلقه.

ويتنفس بحزن، ويتطلع في الوجوه:

- الأسماء ما يخالف، هذي ما هي بينا وبينهم، يريدون يسمّون موران المنطقة الوسطى، أو المنطقة الشرقية أو الغربية، هذي يمهم، ما يخالف، بس شلون يقدرون يحوّلون أحساب الناس وأنسابهم؟ وليش يدورون على

كل عظريط أو خصي أو ابن حرام ويحكمونه بروس العباد؟ وتترقبه العيون، تتابعه، فيحتد:

ـ العجرمي. . . إذا أحد سأله عن اسم أبوه يصفن، وإذا سأله نوبة ثانية يقول: خلني أتفطن؛ راح يوم وجا التاني صار مفتي السلطنة. . . تركوا كل الناس، اللي يفهمون والأوادم، وقالوا له: أنت اللي تفتي وأنت اللي تشور!

ابتسم بحزن وأسف، ثم تابع بتحذير:

ـ يلزم تاخذون بالكم يا جماعة الخير: اليوم لقيت جماعة من القصر وقالوا لي: من هالحين وصاعد، كل واحد ينسأل أنت منين وما يقول هديبي يدفع جزا، فولفوا أرواحكم وفكوا أكياسكم إذا ردتم تحافظون على أصلكم!

قال أحد الذين يتابعون:

ـ يا أبو نمر: اللي ينسى أصله ما له أصل!

ـ يا ابن الحلال، حنا مع اللي يقول: كلنا عربان، كلنا مسلمين؛ أما اللي يقول: كل الناس ما لهم أصل، ويلزمهم يكونون لي تبع، لا بالله، البني آدم ما هو مقطوع من شجرة، كل واحد له أب وأجداد، وكل واحد يصل إلى عدنان أو قحطان، فيلزم يعرفوا الناس ويلزموا حدودهم، وإلا انقلبت عليهم.

قال آخر:

ـ أي، يا أبو نمر. . . شنهي سالفة الشيخ العجرمي؟

ـ العجرمي؟ أبو مشعل؟

ويضحك ويهز رأسه ثم يتابع:

ـ هذا العظريط: شيخ الدنيا والدين، بدل ما يصلي ويصوم، ويلقى زاوية يلبد فيها ويتعبد، تعرفون وينه هالحين؟

وحين تتطلع إليه العيون بتساؤل، يجيب:

ـ أبو مشعل هالحين بعين دامة. وصفوا له ميّتها، قالوا له: تنعظ الذكر

وتقوّى الظهر، فقال: لا غنى عنها ومالي غيرها، ولا بد هالحين العجمي يمسّده ويوسّده، وطويل العمر ينتظر فتاويه!

وفي سوق التجار، الذي اضطرب واهتز، نتيجة الأخبار عن احتمال سقوط العملات كلها، وأن ابن العليان جمع من السوق الذهب والفضة، ويريد أن يستبدلها بالنحاس والورق، فقد قال عثمان الأصقى، تاجر الرز، الذي لم يعد يبيع ويشتري كما كان يفعل أثناء حملات السلطان:

ـ الله لا يعلّيك يا ابن العلّيان، تريد تخرب بيوتنا بعد ما خربت الهند والسند؟

ولأن أحداً لا يجيب، ولا يشترك معه في هواجسه وأفكاره، فإنه يتابع:

ـ الحق ما هو عليه، على خريبط، وكأن موران ما بها تجار، راح دوّر هنا وهنا إلى أن لقاه، قال له تعال: خرّب اللي بعده ما خرب بهذي الديرة!

ويرفع يديه إلى السماء ويصرخ بحسرة:

ـ الله لا يوفق اللي يضر الناس، الله يهدم ملكه ويهد حيله ويجعله أثر بعد عين!

خريبط الذي يسمع بعض ما يدور في سوق الحلال وسوق التجار، والذي كان يصل هذه الأسواق في أوقات سابقة، فيبدد الإشاعات، ويشرح ويوضح، فقد غاب تماماً وراء الأسوار في قصره، لا يريد أن يسمع إلا ما يطيب له أن يسمعه، ولا يستقبل إلا من يجب أن يراهم ويلتقي بهم.

ومثلما توارى السلطان وراء أسوار القصر، فإن الكثيرين، ممن كانت لهم أدوار في المرحلة السابقة، تراجعوا أو تواروا أيضاً، وإن تنوعت الأسباب واختلفت.

فالجفاء الذي بدر من السلطان تجاه بعض القادة، اضطرهم إلى الانسحاب. والكلمات التي كانت تحمل السخرية والتعريض، وقد قالها عدد من رجال السلطان وبوجوده، ولم يعترض، بل وشارك في الابتسام،

حملت عدداً من الشيوخ على أن يغادروا بسرعة، وبعضهم لم يكلف نفسه وداع السلطان. وقيل إن مهيوب اجتمع بمجموعة من الذين كان لهم دور بارز في المعارك الأخيرة، وقد سلمهم هدايا السلطان، وطلب منهم المغادرة والعودة إلى الأماكن التي جاءوا منها، وانتظار استدعائهم في فترة لاحقة.

أما البدو الذي جيء بهم من أماكن عديدة، ونظموا في مجموعات، حسب القبائل، وقد وعدوا بالكثير حين جُندوا، وكذلك الفلاحون والمزارعون الذين طلب منهم النزول من الجبال، أو جُلبوا من الواحات والقرى، لكي يحاربوا، مِع وعود لا تنفك تتزايد أنهم سينالون أضعاف ما كانوا يحصلون عليه من أعمالهم، وبعد أن حاربوا وحققوا النصر للسلطان، فقد اضطروا للانتظار أسابيع، صارت شهوراً، عند أسوار قصر الروض، لعلهم يحصلون على ما وُعدوا به، أو بعضه، إلى أن صرف أخيراً لكل شيخ راتب ثلاثة شهور عن كل «رأس»، وأعطى كل نفر ثوباً وحذياناً. ، وفي وداع كل مجموعة، وعلى مدى أسابيع، كان يقف مهيوب خطيباً، لكي ينقل إلى العائدين تحيات طويل العمر، وينهي خطابه بأن يقول:

ـ وطويل العمر يقول: يكثّر خيركم، والله يعطيكم العافية، وترجعون لأهلكم بالسلامة، ولا تنسوا، يا أولاد الحلال، الدعاء للسلطان بطول العمر والتوفيق.

ورحل أو توارى أيضاً كثيرون غير هؤلاء. فالدعاة الذين كانوا ينتشرون في كل مكان، وقد اجتمعوا حين انتهت الحملة الأخيرة في موران، فما لبث عددهم أن تناقص أسبوعاً اثر آخر، بعد أن توقفت المخصصات، وتعذر عليهم الوصول إلى نتائج، لأن العجرمي تظاهر، خلال الفترة الأخيرة، أنه لم يعد يسمع، ثم سافر مع السلطان إلى العوالي. وما عاد السلطان ولم يعد، وقيل ان غيابه سيطول، فقد آثر هؤلاء أن ينتشروا في الأرض، بحثاً عن الرزق.

وكذلك الخياطون وصانعو السيوف، وأصحاب حرف أخرى لها علاقة بالحرب. أما الحطابون وأصحاب الرعايا، والذين كانوا يرافقون الجند، أو

يخيمون حول المعسكرات، من أجل تقديم الخدمات أو لتأمين الذبائح، فقد رجعوا إلى قراهم أو بواديهم، بعد أن رفعت المعسكرات وتفرق من كان فيها. كذلك الباعة الجوالون، والذين يجمعون البقايا، أو يبادلون على ما يفيض لدى الجنود... لقد عاد كل هؤلاء، وغيرهم أيضاً، إلى المدن أو إلى البوادي، لكي يبدأوا عملاً يؤمن لهم معيشة أولادهم.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فالكثيرون الذين كانت لهم أعمال أو صلات، وكان يبحث عنهم باهتمام وإلحاح رجال السلطان، ما كادت الحملات تنتهي حتى نسوا تماماً، وزاد في تجاهلهم ونسيانهم أن عدداً ممن كانت لهم بهم صلة تركوا خدمة السلطان، أو نقلوا إلى أماكن أخرى، أو لم يعودوا حريصين على مثل هذه العلاقات.

باختصار: لم يبق شيء في مكانه، فالرياح التي هبت خلال هذه الفترة كانت قوية إلى درجة غيرت مواقع الكثيرين، أو اضطرت الكثيرين إلى تغيير مواقعهم، لعلهم يكونون أقدر على التكيف مع وضع لم تعد الحرب هماً من همومه.

وهذه الرياح لم تقتصر على مدينة أو منطقة، فقد طالت المدن الكبيرة والبلدات والدساكر، ووصلت أيضاً إلى أعماق البادية وإلى أعالي الجبال، بحيث لم يبق أحد إلا ووصلته أو تأثر بها. لكن أكثر من تأثر الفقراء، والذين تركوا أعمالهم السابقة، فاضطر أغلب هؤلاء إلى الانتقال من مكان إلى آخر بحثاً عن الرزق.

والسلطان الذي لم يكن يترك لأحد أن يتصرف أو يقرر في الفترات السابقة، فقد أصبح إنساناً آخر في المرحلة الجديدة.

كان في السابق، وأينما ذهب، يحمل معه ديوانه، ولم يكن الديوان سوى الأوراق في صناديق، وهي عبارة عن الرسائل والسجلات، إضافة إلى الأموال والأشياء الثمينة. كانت هذه الصناديق تزيد سفرة بعد أخرى، وتحملها جمال مخصصة لها، وقد اكتسبت هذه الجمال، مع الأيام، صفات الصناديق التي تحملها. فإذا كان يراد التأكد، مثلاً، إن حامية عين دامة استلمت رواتبها، كان ابن هجرس يصيح منادياً مسؤول الركائب،

فيسأله عن أحمال عين دامة، وهذه الأحمال تعرف من الجمل الذي يحملها، وقد أصبح يحمل اسم المكان ذاته. وفي صناديق عين دامة: أسماء المحابيس، وأسماء الخصوم والحلفاء، وعدد الجمال والأغنام في المنطقة، ومتى دفعت الضرائب آخر مرة، إلى غير ذلك من التفاصيل. أما المراسلات المتعلقة بابن ماضي أو بالانكليز، فإنها كانت من الكثرة والتنوع، ومحمولة على عدد من الجمال، الأمر الذي تطلب من ابن هجرس لأن يعطي هذه المراسلات أسماء فرعية. ورغم أنه كان يعتمد، في الكثير من الأمور، على ذاكرته، إلا أنه اضطر في وقت لاحق لأن يخصص دفتراً لذلك، ولأن يسم الجمال بوسم لا يعرفه سوى ثلاثة: هو ورئيس ركائب الديوان والمكلف المباشر عن الجمل.

هذا الديوان المثير للسخرية، والذي أصبح موضع تندر الكثيرين، خاصة ابن البخيت، كان السلطان يحرص عليه أشد الحرص. ورغم الاختلاف في تفسير حرص السلطان، إذ عزي إلى المال المحمول، فترة، وعزي إلى أهمية المراسلات التي تلقاها السلطان، أو إلى حاجته لمراجعتها بين مدة وأخرى، فإن لدى عدد من خدم السلطان قناعة أكيدة أن هذه الأهمية نابعة بالدرجة الأولى، وربما الوحيدة، من مجموعة الحجب الموجودة في صندوق «الأمانة»، والذي يُحمل على أحد الجمال المكلف به اثنان، والذي يسمى «الأمين».

كان صندوق الأمانة الوحيد الذي يوضع في خيمة السلطان، وكان مفتاحه معه دائماً. وجويبر الذي ظل واحداً من أقرب العبيد للسلطان، ولم يكن يفارق خيمته، حتى مع أقرب الخلصاء، إلا إذا طلب منه السلطان بالذات، ذكر جويبر الذي التحق بابن ماضي، بعد أن أهانه خزعل وضربه، أن في هذا الصندوق مجموعة من الأشياء التي يحرص السلطان على أن يحملها: حجب متعددة الاستعمالات والفوائد عددها سبعة: ثلاثة بأنياب لذئاب مسنّة مأخوذة من الجهة اليسرى؛ كمية من الأحجار الكريمة، استطاع أن يميز من بينها ثلاثة أنواع من الزمرد: حجر زمرد ذبابي، لونه أخضر صادق الخضرة، وهو يسمى كذلك، كما قال فطين الذي يصب

يصب القهوة لابن ماضي، والذي كان يسمع القصة: لأنه شبيه بلون ذبابة خضراء. وحجر زمرد ريحاني، لونه بلون الريحان الأخضر النضير، وحجر زمرد شفاف ينفذ منه البصر.

وذكر أحد الذين سمعوا جويبر يروي عن الزمرد، أن رجلاً عجوزاً لا يكاد يرى، قال وهو يرفع رأسه إلى أعلى وكأنه يتذكر: «والزمرد يدفع العين، ويخلي البني آدم ما يخاف، ويقاوم السم، ويفرح القلب ويقوي البصر...». وكاد يضيف أشياء أخرى لولا أن ابن ماضي قاطعه وهو يضحك «ونسيت تقول: ويحيي الموتى».

وذكر جويبر أيضاً أن في ذلك الصندوق: سبعة كعوب أرانب، وحافر بغلة سوداء، وخصيتا ثور مجففة ومسحوقة، ومجموعة من الخطاطيف، وقد جُعلت كلها في إناء أزرق؛ وفي ثلاث زجاجات صغيرة دم ضبع؛ وفي الصندوق جلد ذئب وعليه قلب طير. وقد عرف جويبر ذلك من السلطان الذي قال له: «في هذا الصندوق ذخر الدنيا والآخرة» وأمره أن لا يقترب منه أحد، وأن يوضع دائماً على يمين الخيمة، وأن يُسمى بالله قبل النظر إليه، وأن يلمسه الإنسان بيده اليمين، إذا اقترب منه، أو حمله، أو فتحه. ولكي لا يخاف جويبر ذكر له السلطان عن بعض ما فيه!

كل هذا الحرص الذي كان يبديه السلطان تخلى عنه في المرحلة الجديدة. وما عدا «الأمانة» فقد ترك الصناديق الأخرى في عهدة عرفان الهجرس، الذي سُمّي في هذه المرحلة برئيس الديوان، وقد اختار عرفان لنفسه مكاناً إلى يمين ديوان السلطان، ووضعت الصناديق كلها هناك. كان حرص عرفان على معرفة زوار السلطان، والغاية من الزيارة، أكثر من حرصه على الصناديق. وانتقل هذا الاهتمام إلى الذين يعملون معه أيضاً، بحيث صدف كثيراً أن تُرك المكان خالياً ومشرع الأبواب!

وكلف السلطان أيضاً عدداً من الذين حوله بتصريف الأمور، فإذا كانت هوايته في فترة سابقة أن تُقرأ عليه رسائل أمراء المناطق، وإملاء الإجابة، فقد كلف عبد المحسن الساعدي بأمور الأوراق، وطلب منه أن لا يعرض عليه، وأن لا يسأله إلا حول الأمور الكبيرة. وعبد المحسن

الذي لم يكن يميز بين الأمور الكبيرة والصغيرة، اضطر أن يعتبر الأمور كبيرة أم صغيرة حسب مزاج السلطان، وبمدى إمكانية أن تعرض عليه، إضافة إلى الوشايات والأخبار الخاصة!

وأنور عبد الغفار الذي اختاره فنر، ليكون «البريد»، كما سماه، والذي يحمل الرسائل بين العوالي وموران شهرياً، كان يحظى، في الفترة الأولى، بساعة من وقت السلطان، لكي يعرض عليه ما جدّ خلال شهر في العوالي، وليأخذ رأيه فيما يجب أن يعمل؛ لقد انتهى الأمر «بالبريد» بأن يرجع إلى العوالي، مع كلمة، غير مباشرة، نُقلت على لسان السلطان: «تصرّف، وأبلغنا النتائج».

وإذا كان خزعل قد اقترب كثيراً، في هذه الفترة، من موران، فقد كان شديد الدقة والحذر، لا يريد أن يرتكب خطأ يمكن أن يؤدي إلى عكس ما يطمح إليه، ولذلك بدا محباً، متواضعاً، لا يترك أحداً من العائلة إلا ويتفقده ويسأل عنه. وهذا السلوك إذ أرضى الموظفين والخدم والمسنين في العائلة، فإنه أيقظ المخاوف لدى زوجات السلطان، ولدى الأبناء الكبار. أما الحروب العلنية أو غير المكشوفة، التي كانت تجري في أوقات سابقة، خاصة أثناء غياب السلطان، وكانت تتخذ عشرات الأشكال، وتتذرع بأوهى الأسباب، فقد بدأت تبرز مرة أخرى، وإن أخذت أشكالاً جديدة أو مختلفة.

راكان الذي كبر، وأصبحت له قوة وفرض وجوده لأنه ابن فضة، وأكبر الأخوة الموجودين في موران، ولأنه أيضاً في قصر الروض، توصل، أو جاء من أوحى إليه، أو أقنعه، أن جوهر الصراع في هذه المرحلة، يتلخص بنقطة أساسية: من الأقرب إلى السلطان ومن يحميه؟ ليس هذا فقط، يجب أن تكون الحماية حاجة حقيقية وليست مجرد مظهر!

وتكررت القصة ذاتها: اثنان، لكن هذه المرة، من أقارب ابن مياح، قبض عليهما، وهما يرتبان محاولة لاغتيال السلطان، عن طريق عدد من الخدم والعبيد.

رتبت القصة بكثير من الدقة، مع تفاصيل وافية: المكان، الهدف،

الأدوات، الطريقة، بحيث عندما عرضت على السلطان، وقد عرضها راكان وأمه معاً، وجيء بعدد من الشهود، ثم جيء بعائد العريني وذياب العقلة، المكلفين بهذه المهمة، واعترفا للسلطان، وقيل انه طُلب منهما ذلك مقابل أموال كبيرة، ووعد أن يطلق سراحهما بعد فترة، عند ذاك أصبحت القضية بالنسبة للسلطان لا تحتمل الشك أو التردد.

أما ما تلا ذلك من إعدام الاثنين، إضافة إلى خمسة من العبيد والخدم، وهناك اعتقاد أن لاثنين من هؤلاء علاقة بخزعل، وقيل إنهما عيونه في قصر الروض، وإعدام صويلح التركي الذي رتب العملية كلها، وكان قد وعد بمائة ليرة ذهبية وبأن يزوج بمريم التكرونية لقاء هذه الخدمة، ولقد تم إعدامه للتخلص من أي أثر. . . فإن أهم نتيجة تم الوصول إليها هي تسمية راكان رئيساً لحرس القصر، وبالتالي الشخص الوحيد المسؤول عن حماية السلطان، بما في ذلك الإشراف على شؤون القصر والديوان، والتأكد من صفة الزوار وأسباب الزيارة، إلى غير ذلك من ترتيب الشؤون الأمنية والاتصالات.

هذه المعركة التي اعتبرها خزعل موجهة إليه، وهزيمة له، تظاهر أنها لا تعنيه، بل أكثر من ذلك أشاع أن العبدين كانا يتجسسان عليه، وأنه نبه سلمان الأعرج إلى ذلك، وطلب منه أن يبلغ السلطان أو مهيوب، ولا يدري فيما إذا قام سلمان بذلك، لأن سلمان مات قبل ثلاثة أسابيع، في أحد حمامات القصر!

فقد صدف أن ثلاثة من الخصيان، إضافة إلى سلمان الأعرج، ماتوا مختنقين، في حمام القصر، ولا أحد يستطيع أن يؤكد أو ينفي، ما إذا كان ذلك الموت نتيجة الاختناق فعلاً، أم نتيجة إغلاق أبواب الحمام وضياع المفاتيح!

إن التفاصيل في مثل هذه الأمور تؤدي إلى متاهة حقيقية، ولذلك لم تمض أيام حتى نُسيت! واستمرت الأمور في القصر كما كانت من قبل، على الأقل بالنسبة لخزعل. أما راكان، الذي أخذ يعزز وضعه بوقت مبكر، فلم تزد تسميته رئيساً لحرس القصر، إلا إعطاء الأشياء أسماءها

الحقيقية، والاعتراف له بالسلطة، التي من خلالها، يستطيع أن يفرض على الآخرين ما يشاء.

ولئلا يعتبر من تسول له نفسه أن السلطان أصبح متقدماً في العمر، أو ربما عاجزاً، ولكن يبقى موجوداً بقوة وكثافة، كان يروق له أن يخرج بجولة في السيارة بين فترة وأخرى. وهذه الجولة تمتعه إلى أقصى حد. كان يخطط أين يجب أن يذهب، من يجب أن يرى، ماذا عليه أن يقول، وكيف يجب أن يتصرف. كانت هذه الأمور تشغله إلى أقصى حد: يتخيلها، يضع لها أكثر من احتمال، يفترض ماذا سيقول الآخرون وماذا سيكون جوابه، ويتصور رد الفعل وكيفية الاستقبال!

ولأنه يسمع ما يقال، أو على الأقل بعض ما يقال، وكان أكثر ما يزعجه أن يتحدثوا عن تقدمه في العمر، فقد قرر أن يرد عليهم بالطريقة المناسبة.

فإذا كان مظهره خلال الفترات السابقة يثير الاحترام، وكان يعتز بقامته المديدة، وقوته الخارقة، ويترك للآخرين أن يتحدثوا عن هذه المزايا التي لا تخفى على أحد، وكان يروق له أن يسمع من عيونه كيف يتحدث الناس عن طوله الفارع، وعن عدد نسائه، ويختلفون على عدد البنين، فقد كان لا يتوقف عن إرسال الرسائل التي تبرهن على استمرار هذه القوة، من خلال الزيجات التي يعقدها، ومن خلال المحظيات والعبدات اللواتي يزداد عددهن في قصره، وكدليل على هذه القوة، أيضاً، تلك الأفواج الجديدة من البنين والبنات.

سأل هاملتون ذات ليلة الأمير فنر، وكان السؤال بين الجد والمزاح، عن عدد أخوته الذكور، ومن أي الأمهات، وفنر الذي فوجئ بالسؤال، ودارت عيناه دورة سريعة، وكأنه يتذكر، أو يريد أن يكتشف ما يرمي إليه هاملتون رد بمرح:

ـ قبل ما أصل العوالي كانوا عشرين!

ابتسم، وبعد قليل:

ـ أما بغيتي كم واحد جاء فعلمي علمك يا مستر هاملتون!

اعترض هاملتون بمرح:

ـ منذ وقت طويل اتفقنا، يا طويل العمر، أن هاملتون انتهى، فأنا الآن عبد الصمد.

ـ عفواً، أستاذ عبد الصمد!

ابتسم هاملتون ثم حرك رأسه وتغيرت تعابير وجهه، وتساءل بخبث:

ـ هل أستطيع أن أسأل الأمير ما إذا كانت لديه الرغبة أو النية لأن يكون له أولاد مثل صاحب الجلالة السلطان؟

وحين بدا فنر محرجاً أو غير واثق، تبدلت سحنة هاملتون تماماً، قال وخرج صوته عميقاً:

ـ طبيعي لا يحق لي أن أتدخل في مثل هذه الأمور، ويمكن للإنسان أن يقرر بنفسه، لكن، مع ذلك، أعطي لنفسي الحق في أن ألفت النظر إلى ملاحظتين، الأولى: أن العائلة الكبيرة، خاصة إذا كانت من صلب واحد، يمكن أن تكون قوة، ويخشاها الآخرون. وأكثر العائلات، في فترات معينة، كانت تفاخر وتعتز بعدد أفرادها، وهذا التقليد لا يقتصر على هذه البلاد، لقد كان سائداً في أوروبا أيضاً، وكان نموذجاً لعصر بكامله، لكن طبيعة الحياة هناك والتطورات التي حصلت، فرضت صيغة جديدة: العائلة الصغيرة. ربما يكون الدافع اقتصادياً بالدرجة الأولى، لكن هذا ما حصل.

أما الملاحظة الثانية، يا صاحب السمو، فهي أن هذه القوة التي تتمثل بعدد الأفراد، فإنها تبلغ ذروتها في فترة ثم تبدأ تتراجع، لكي تصبح في فترة لاحقة مصدر ضعف. تكون قوية ومؤثرة بوجود رب الأسرة، وبمدى قدرته على التحكم وعلى الاستفادة من هذه القوة. أما في حال غيابه أو ضعفه، فإن ما يتولد نتيجة الصراع والنزاع والتنافس يمكن أن يؤدي إلى العكس.

هذه الفكرة التي طرحها هاملتون كانت تدور في ذهن فنر. صحيح أنها غائمة متداخلة، أو لم تكن بهذا الوضوح. وكانت أيضاً تعليقاً على ما نقله «البريد» أنور عبد الغفار أثناء زيارته الأخيرة لموران، وكيف أن الكثيرين

يتحدثون عما جرى في القصر، وكيف أن راكان أصبح الشخص القوي، وأن عدداً من رجال خزعل قد أعدموا.

وكان يريد من طرح الفكرة أيضاً أن يهيّئ فنر نفسياً إلى ما يجب أن يفكر فيه ويقرره في يوم من الأيام.

قال كأنه يحدث نفسه:

ـ ومع ذلك فإن العادات والتقاليد في الشرق تختلف عن أوروبا، عن أماكن أخرى، ولذلك ما حصل في تلك الأماكن لا يعني أنه سيحصل هنا.

تساءل فنر بمكر لا يخفى:

ـ صحيح أن التقاليد تختلف، لكن الديانة المسيحية، كما أعرف، يا مستر هاملتون، تحرم تعدد الزوجات أليس كذلك؟

ابتسم هاملتون وأجاب:

ـ يمكن للمستر هاملتون، المسيحي السابق، أن يجيبك، لكن أرجو ألا تنسى، مرة أخرى، أنني عبد الصمد.

وقهقه، ثم بعد قليل:

ـ نعم، لا تجيز المسيحية تعدد الزوجات. . .

تنفس بعمق، ثم أضاف بمكر:

ـ وتمنع الطلاق أيضاً.

رد فنر بمرح:

ـ وحدة بوحدة، يا أستاذ عبد الصمد، وبالتالي الزواج الواحد اما أن يكون نعيماً مطلقاً، أو جحيماً مطلقاً، والإنسان وحظه!

قال خزعل، وهو يستأذن أباه في السفر إلى الحويزة، ليزورها ويتفقد أحوالها:

ـ . . . وتعرف البدوان، يا طويل العمر، إذا الواحد ما مرّ وسأل ياخذون على خاطرهم، فقلت لنفسي ما دمت أنت مشغول أمرّ بهم واسأل عنهم وأبلغهم سلامك.

رد السلطان بمرح:

- الشباب ما يتعبون، ولما كنا بعمركم، يا وليدي، ما بتنا بمكان ليلتين، فعلى خيرة الله، ولا تنس تسلم على الكبير والصغيّر، وإنشاء الله بس تخلص شغيلاتنا من بدّ ولازم نزور كل المناطق، ونسأل ونتفقد الجميع.

وقال خزعل لزيد الهريدي:

- ويلزمك تتذكر كل اللي صار بهدي الأيام، ويلزمك تذكرني.

واستمرت الرياح تهب. مرة تكون قوية، وأخرى خفيفة، لكن يوماً لا يشبه الآخر في السلطنة!

في مواجهة الرياح الشرقية التي تهب من جهة الصحراء، كانت رياح البحر تهب من الجهة الأخرى. وعند سفوح جبال الصد، العالية الممتدة، وفي الأودية العميقة، كانت رياح الصحراء ورياح البحر، والتي لا تتوقف عن الهبوب معظم أيام السنة، تلتقي. وهناك، وهي تتواجه لأول مرة، تتصارع، تلتحم، تتقدم وتتراجع. كانت تفعل ذلك دون توقف، غير آبهة بالحواجز والعلامات التي وضعها البشر، كما لا تعترف بالرغبات أو الأمزجة، حتى إذا تغلبت ريح على ريح، فوصلت رياح الصحراء إلى العوالي، أو واصلت رياح البحر طريقها إلى ما وراء جبال الصد، فإن أمزجة الناس الذين تصلهم، وتصرفاتهم، وحتى أخلاقهم، تكتسب صفات جديدة، تظهر واضحة في التعامل والنظرة، وتبقى كذلك إلى أن تأتي الرياح الأخرى فتغيرها!

ثروت الرفيفان، التي بدت خائفة، ثم عصبية، في موران، لم تلبث أن شعرت بالثقة، والقوة وهي تصل إلى العوالي، وتواجه البحر. لقد ذكّرتها الطريفة، ببحرها الأزرق الممتد، باستانبول والبسفور، فشعرت بالرضى والامتلاء، لكن مع هبات رياح الربيع ثم الصيف، وتغير النوء، اختلفت: وجدت نفسها، من جديد، وفي الطريفة هذه المرة، محاصرة، ضيقة النفس.

قالت لها أمها، فريزة خانم:

ـ المسألة ليست لها علاقة بالحرارة أو الريح، وإنما لها علاقة بشيء آخر!

وثروت التي فهمت ما تعني أمها، لا تريد أن تعترف. ردت بنزق:

ـ المسألة أكثر. . . ماما!

فتحت فريزة عينيها بخوف متسائل، تابعت ثروت:

ـ يريد أن يسافر ويتركني.

قالت فريزة وهي تضحك:

ـ الرجال يسافرون، يا بنيّتي. دائماً يسافرون، وقد يغيبون شهوراً طويلة. . .

هزت رأسها ثم بعد قليل وقد تذكرت صوراً معينة:

ـ كان بحارة استانبول، في بعض الأحيان، يغيبون عن زوجاتهم شهوراً طويلة، أو ربما سنوات، وكانت المرأة الحامل تلد وتربي، حتى إذا عاد الزوج رأى في بيته رجلاً آخر، وبدل أن يخاصمه يؤاخيه. هكذا النساء في كل مكان!

بعد أن نطقت بهذه الكلمات الحكيمة، ولا تعرف كيف خطرت لها، سألت ابنتها:

ـ وأين سيسافر، ومتى سيذهب ومتى سيعود؟

ردت ثروت من بين دموع ملأت عينيها فجأة، وكانت هذه الدموع نتيجة الضيق والألم والغثيان:

ـ لا أعرف. . . ماما. . .

وبعد قليل:

ـ حين طلبت منه أن يأخذني معه ضحك، وقال إن ذلك مستحيل. فلم أسأله ولا أعرف كم سيغيب!

قالت فريزة بقسوة:

ـ نعم يجب أن يسافر الرجال دون زوجاتهم. . . بعض الأحيان.

وبعد قليل وهي تبتسم بسخرية:

ـ إن ذلك مفيد للرجال والنساء معاً: الرجال يكتشفون أن الأسرّة التي كانوا ينامون عليها أكثر دفئاً وفيها وحدها يشعرون بالأمن، لأن الأسرّة الأخرى إذا امتلأت، فمثل امتلاء اليد بالماء، فهذا الماء يهرب باستمرار

ولا يروي. والنساء، لأن الأشياء الصغيرة التي تعنيهن وحدهن، ويجب ألا يشغلن الرجال بها، يمكن أن ينتهين منها ما بين سفر الرجال وعودتهم!

ردت ثروت بألم:

ـ وكيف يتركني وأنا في هذا الوضع؟

ـ لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلك، يا صغيرتي. أنت وحدك التي تستطيعين: أن تعطيه ولداً حين يعود. وهذا الولد يمكن أن يربطه، أن يجعله يفكر ويتحمل، وأن يتغير أيضاً!

قالت ثروت وهي تحاول أن تمنع نفسها من التقيؤ:

ـ ولكن كيف أستطيع تحمل كل ذلك وحدي؟

ـ الأفضل، يا صغيرتي، أن تتحمليه وحدك، لأن المرأة خلقت من أجل هذا، أما إذا أرادت من الرجل أكثر، أو حاول هو أكثر، فإنه يتظاهر، وهذا التظاهر لا بد أن تدفعي ثمنه في وقت لاحق، ولذلك لا أريد أن تكوني بلهاء إلى هذه الدرجة.

تنفست فريزة بما يشبه التنهد وقالت كأنها تحدث نفسها:

ـ ولقد ذكروا لي أن النساء في هذه البلاد لا يبلّغن الرجال بالحمل، لا أعرف لماذا، وحين لا يستطعن إخفاء ذلك يشعرن بإحدى الحالتين: إما بالفخر أو بالخجل. أما إذا حانت ساعة الوضع، فإن المرأة تصبح تماماً مثل الكثير من الحيوانات: تريد أن تحل مشكلتها بنفسها، ولذلك لا تكون بحاجة إلى مساعدة أحد، أو حتى إلى معرفة أحد، إنها تذهب بعيداً عن العيون لكي تنهي هذه المشكلة!

وضحكت ثم أضافت:

ـ أما إذا عادت وعلى يديها ولد، فإنها تكون فخورة، قوية، وينظر إليها زوجها بكثير من الإكبار والمحبة. صحيح أنه ينظر بسرعة إلى الولد، لكي يكتشف شبهاً من نوع ما بينه وبين هذا المخلوق الذي لا يعرف من أين جاء أو كيف، لكنه أيضاً يشعر نحوه بالمحبة، ويشعر نحو زوجته بالامتنان.

استراحت فريزة وربما مرت في ذاكرتها صور كثيرة، ثم بعد صمت:

ـ الأفضل أن يسافر. . .

وضحكت بسخرية، وقالت:

ـ إذا قرر الرجل السفر يجب أن يسافر، والأفضل أن توافق المرأة. أما إذا اعترضت، وسافر، فإنها تخسر نفسها، وإذا لم يسافر، بناء على رغبتها، فلا بد أن يخسر نفسه. وفي الحالتين فإن هناك خسارة يجب ألا تقع. . .

وهزت في وجهها يدها كلها وهي تضيف:

ـ هذا عن الرجل العادي، أما إذا كان أميراً أو ملكاً، خاصة من هذه البلاد، فإن الخاسر الوحيد هو المرأة، فاحذري تماماً، ويجب ألا تكون حمقاء إلى الدرجة التي تخسرين فيها كل شيء!

هذه القصة حصلت في وقت مبكر ونُسيت، وربما كانت بسبب الضيق وعدم المعرفة، أكثر مما كانت للاختبار، لأن مثلها لم يتكرر، ولأن فنر لم يتوقف عن السفر، سواء داخل السلطنة أم خارجها. وإذا كانت ثروت قد أحست، في لحظات معينة، أنها وحيدة، أو غير مفهومة، فإنها بمرور الوقت تعلمت أشياء كثيرة، وأصبحت امرأة مختلفة، وساعدت أيضاً في أن يكون فنر إنساناً آخر.

صحيح أن ذلك كلفها جهداً كبيراً، لكن تلك الروح التي ورثتها عن أمها جعلتها تصمم، ثم مكنتها من الوصول بعد ذلك.

قالت لها أمها، ذات يوم، وقد رأتها تضرب الطفل بقسوة، لأنه يبكي ولا تعرف سبب بكائه:

ـ حين تضرب الأم أولادها، أو حين تصرخ في وجوههم، دون مبرر كاف، فلا بد أن يكون السبب في الأم قبل أن يكون في الأولاد. . . نعم في الأم وفي الفراش بالذات!

وضحكت فريزة لأنها تذكرت أمراً، وبعد قليل:

ـ قالت لي امرأة مسنة، كانت من قريبات جدتي، وقد حصل ذلك قبل

سنوات طويلة: على المرأة التي تحس أن زوجها لم يعد يحبها، أن لا تبحث في ثياب الزوج عن رائحة امرأة أخرى، أو أثر من آثارها، عليها أن تبحث في مكان أقرب. . .

والتفت فريزة خانم، لكي تتأكد أن لا أحد يسمعها، وهمست:

ـ نعم، عليها أن تبحث في مكان أقرب بكثير: في سريرها، في ثيابها، أو ربما عليها أن تبحث في سراويلها، لأن عدم إقبال الرجل لا يعني دائماً أن امرأة أخرى دخلت حياته، وإنما لأنها هي لم تعد امرأة بالمقدار الكافي، أو لم يعد زوجها يرى فيها المرأة التي يشتهي!

وضحكت وقد تغيرت نبرة صوتها:

ـ وكانت تلك العجوز تقول، وهي تهرش رأسها: «أخطر شيء في هذه الحياة، بعد الله والمال، هو السروال: إذا كانت دكته قاسية أتعب، وإذا ارتخت دكته أشقى وأتعب». ولم تكن تقصد سروال المرأة وحدها، إنما وسروال الرجل أيضاً.

ابتسمت فريزة خانم وهزت رأسها عدة مرات. مرت في ذاكرتها صور لا حصر لها. كانت ثروت لا تزال متجهمة، وتعتبر أن جزءاً من الحديث، رغم أهميته، زائد. قالت الأم وهي تنظر إلى عيني ابنتها تماماً:

ـ وقدرة المرأة غير قدرة الرجل. المرأة، في يوم، يمكن أن تتعلم ما لا يستطيعه الرجل في سنين، لأن المرأة تدفع ثمن كل ما تتعلمه، أما الرجل فإنه يؤجل الدفع، وقد يوافق على أن يدفع عنه الآخرون. وفي حالات كثيرة فإن ما يتعلمه صدى لأوهام أو لأحلام غيره. ان ذلك لا يحصل مع المرأة، فهي وحدها التي تقرر حين ترغب وتريد، ومستعدة لأن تدفع ثمن القرار الذي تتخذه.

وعادت فريزة خانم من رحلتها، فتغير صوتها، أصبحت امرأة أخرى:

ـ والنوم غير المريح، يا ثروت، يؤدي إلى النرفزة وأمراض المعدة. . .

وقعد قليل، وبرجاء:

ـ وقرب الولد من أبيه، خاصة في مثل هذا العمر، لا يؤدي إلى محبته

أو زيادة تعلقه به، ربما العكس هو الصحيح. فالأب يريد أن ينام، ويريد أن تكون إلى جانبه امرأة لا مرضعة، فلذلك اتركي الطفل الصغير واهتمي بالطفل الكبير!

وثروت التي كانت غاضبة، وكانت تستمع لأمها مضطرة، اكتشفت، فجأة، أن أمها تقول شيئاً مهماً. بل أكثر من ذلك اكتشفت أنها لا تعرف أموراً كثيرة في هذه الحياة. لقد اعتقدت أن الليلة الأولى، إذا اجتازتها كما ترغب، فإن كل الليالي بعدها أسهل منها؛ وبعد أن اجتازت تلك الليلة، وليالي أخرى غيرها، وبدت متأكدة وواثقة، اعتبرت أن مجيء الطفل يجعلها في مصاف جميع الأمهات، ولن تكون أم، حتى أمها، أكثر معرفة منها! الآن تكتشف، أن العمر وحده هو ما يجعل الإنسان أكثر إدراكاً، ولذلك، فإن تلك العجوز، أو أمها، أو أي عجوز أخرى، تعرف ما لا تعرفه هي.

أخرجتها أمها من الأفكار:

- الأطفال لا يبكون دون سبب.

ردت ثروت بحدة:

- ولكن أكل ونظيف، ولا يحتاج إلى شيء.

ضحكت فريزة وقالت تحدّث نفسها:

- إذا لم يبك الأطفال من الجوع والألم، فلا بد أن تكون عندهم أسبابهم...

وبعد قليل، وبسخرية:

- ربما يريدون أن يصبحوا ملوكاً أو أنبياء بسرعة، ويحسون أن الزمن يسير على غير ما يشتهون أو يحلمون، ولذلك يحتجون بالبكاء!

ردت ثروت بغيظ:

- ماما... لا تسخري مني.

قالت فريزة بصوت بطيء وواثق:

ـ حبيبتي. . . أرى أن تهتمي بالطفل الكبير، وأن تتركي الصغير إليّ، لأنك لا تستطيعين أن تعتني بالاثنين معاً.

قالت ثروت وهي تدير وجهها بعيداً عن عيني أمها:

ـ ماما. . . الخدم، كما قال لي كل الذين سألتهم، يفسدون الأطفال، وأنا أريد أن أربي ابني كما أشاء.

قالت فريزة خانم، وخرج صوتها من صدرها، وكان حاداً:

ـ أنا التي أريد أن أربيه، وأنا لست خادمة، ولست صغيرة!

ولم تتأخر ثروت في فهم هذه اللهجة، خاصة وقد اختبرتها منذ أن كانت صغيرة. إضافة إلى أن قصة تلك العجوز والسراويل التي تحدثت عنها، أعجبتها، أو بالأحرى وجدت أن لها معنى يفوق ما افترضته. ولذلك تركت لأمها أن تهتم بالطفل، وانصرفت هي للطفل الآخر!

كتب هاملتون في مذكراته «. . . والغريب في أمر الشرقيين أنهم مفتونون بالحديث عن الجنس إلى أقصى حد، وربما أكثر من ممارسته. لا أريد أن أزعم أنهم لا يمارسون بالمقدار الكافي، أو أن الحرمان الطويل يجعلهم هكذا، إن في الأمر ما يستعصي على التفسير البسيط. إنهم، بعض الأحيان، يقضون الساعات الطويلة، وربما سهرات بكاملها، وهم يتحدثون في هذا الموضوع بالذات. لا فرق بين غني وفقير، بين شاب ومسن. بل أكثر من ذلك: إن الرجال الذين يعرفون كيف يتحدثون في هذا الموضوع يتمتعون بمنزلة تفوق غيرهم، ورغم أنهم يكررون القصص ذاتها، دون أية إضافات أو تفاصيل جديدة فإن الآخرين يستمعون بشغف، وكأنهم يسمعون هذه القصص للمرة الأولى. تظهر الشهوة في عيونهم، في حركاتهم. وتصدر عنهم، دون شعور، أو دون قدرة على التحكم، أصوات أو تصرفات تثير الدهشة والاستغراب.

بل أكثر من ذلك، يمكن للإنسان أن يستنتج دون عناء، أن في الشرقيين ميلاً واضحاً ليس إلى الجنس وحده، وإنما، بنفس المقدار، إلى الظلال والطقوس التي تحيط به وترافقه. وفي حالات عديدة تكون الظلال والطقوس أكثر أهمية. هل لذلك علاقة بمفهوم الخصب، أو بالآلهة الأنثى

التي سادت خلال فترة من التاريخ؟ وهل يجوز أن العطور والبخور وتلك الأغاني والأشعار التي يرددونها، تعطي للأمر هذه الأهمية؟

قد أكون مخطئاً أو متسرعاً في استنتاج أحكام دقيقة أو كلية، لكن ما بدا لي، حتى الآن، لافت للنظر ويثير التساؤل والحيرة.

السلطان، مثلاً، لا يتردد في أن يقضي الساعات الطوال لكي يسمع قصة، ربما تكون ملفقة، أو مليئة بالأوصاف والخيالات، رغم أن ما عنده من النساء، من حيث العدد أو الجمال أو التنوع. يفوق ما يسمعه بعشرات المرات. هل لذلك علاقة بالشعر؟ هل لذلك علاقة أن تراث هذا الشعب يعتمد بالدرجة الأولى والأساسية على الاذن، قبل أن ترى العين أو تختبر الحواس الأخرى؟

إن في الأمر ما يتطلب التفكير والتأمل.

صحيح أن في أدبنا وتراثنا، منذ أيام روما، وحتى الآن، الكثير حول الجنس، لكن الفرد العادي في بلادنا، في أوروبا عموماً، لا يشغل نفسه ولا ينشغل بالجنس إلى هذا الحد أو بهذه الطريقة. وحتى ما يقال عن السلاف، وذلك الوله بالجنس، فإنهم يمارسونه، وبكل حواسهم، أكثر مما يتحدثون عنه.

إذا قيّض لي فائض من الوقت فلا بد أن أبحث هذا الموضوع، من خلال أسئلة مباشرة ومحددة، وصريحة أيضاً، لمن أثق بهم، ولمن يثقون بي، وأعدهم أن أخفي أي إشارة أو دليل، فقط أريدهم أن يحدثوني بصدق في هذا الموضوع بالذات».

وفي وقت سابق كتب هاملتون في يومياته ما يلي: «... زواج فنر أمر جيد. عندما لا تكون المرأة موجودة، يصرف الرجل وقتاً مضاعفاً في التفكير فيها واستحضارها، ثم إغرائها لإقناعها، وأخيراً إذا وصل إلى نتيجة، فهي مؤقتة، وتضاعف همومه في النهار، ولذلك يصبح صعباً.

لا أريد أن أضع معادلات أو قواعد، لكن ما لاحظته أن فنر أصبح الآن، وبعد أن تزوج، أكثر ليونة وأكثر استعداداً للفهم. كان ليناً من قبل، وكان فهيماً، لكنه كان أيضاً مثل الآلة التي تحتاج إلى التزييت والدوران.

إنه الآن شخص آخر: أقل تجهماً، محب للحديث، وإنتاجه أفضل بكثير من قبل. ربما كان جزء من طاقته يذهب هدراً نتيجة الحزن أو لانشغاله بأفكار وخيالات.

قيل لي: إن الشرقيين يتهيبون الزواج في البداية. إنهم يترددون، وتتملكهم الحيرة، وقد يؤجلون الزواج مرة بعد أخرى، في محاولة للهرب، لكن بعدما يكتشفون كم كان سهلاً وجميلاً ومثيراً، فإنهم يستمرئون الزواج الثاني، ثم أي زواج لاحق، وقد لاحظت أن الذين يتزوجون مرتين من السهل عليهم أن يتزوجوا مرات أخرى، ودائماً لديهم الأسباب الكافية، على الأقل لإقناع أنفسهم!

أصبحت مقتنعاً الآن أن زواجه كان ضرورياً، وأقدّر أن الزواج، بصورة عامة، ضرورة، لكن لا أعرف إلى أي مدى يمكن أن يكون مثل الآخرين أو مختلفاً عنهم. خاصة وأن لدى العائلة تراثاً في هذا المجال ما يجعل الزواج بواحدة ضرباً من المستحيل، عليّ أن أراقب لأعرف المزيد».

. . . والعوالي التي ظلت تستقبل السفن والغرباء والأخبار، وامتلأت ذاكرتها بكلمات الحكام، ما قاله الأتراك، ثم من بعدهم ابن ماضي، وأخيراً ما قاله خريبط، مع وعوده وسيوفه، ورأت الملوك والقادة يأتون ويذهبون، ومع كل ملك وقائد: الموت والحصار والجوع، فقد كانت متأكدة أن الذين يحكمون، خاصة من يأتون حديثاً، لا يعنون دائماً ما يقولون. أما الوعود التي يطلقونها فهي لكسب الوقت وإلهاء الناس، أكثر مما هي جدية أو للتنفيذ، كالآباء تماماً في معاملة الأبناء الصغار: لا يرفضون لهم طلباً، خاصة أمام الضيوف والغرباء، أو في أوقات المرح والتفاخر، لكنهم، مع ذلك، لا يحققون إلا ما يريدون. وحتى هذا الذي يحققونه لا بد أن يقدم على دفعات، وبكثير من الاحتفال والمهابة، ويطالبون، مقابل ذلك: بالشكر والاعتراف، وأيضاً بالصمت.

الناس في العوالي الذين تعودوا أن يكون الحكام هكذا، ولكي يواجهوا أكاذيبهم، ويحتملوا الحياة التي تزيد صعوبة حاكماً بعد آخر، فقد لجأوا إلى الحيلة يخدعون بها أنفسهم ويخدعون غيرهم. فإذا لم تكف نكات النهار وتورياته، والتي تنطلق من كل مكان، ولا يُعرف من أطلقها، لكنها تتطاير في الهواء كما تتطاير الفراشات، لتنتقل من أقصى مكان إلى أقصى مكان يقابله، وقد تتجاوز العوالي إلى موران، وخلال الرحلة السريعة تتشذب هذه النكات وتتكامل، وقد تكتسب نكهة المكان الذي تمر فيه. . . إذا لم تكف نكات النهار، فإن الليل كفيل بأن يلغي الحكام والعيون والخوف، ولذلك فمع القصص التي تروى، والأخبار التي تنتقل، تصبح النكات أكثر وضوحاً وحدة، ثم تأتي الأغاني لتغسل الأحزان

والهموم، وتفتح في القلوب كوى صغيرة: «النؤمل أن يكون الغد أفضل من اليوم. ولنتوقع أن تكون أيام الأولاد أحسن من أيام الآباء، ولنتأكد أن الحكام يشبهون السيول: يأتون بقوة، لكن يذهبون بسرعة. البحر ينتظر ليبتلع كل السيول، والبحر يبقى، وتبقى العوالي، ويبقى الناس».

كانت الأغاني سلوة حقيقية في العوالي. وكانت العوالي في الليل غيرها في النهار. فإذا قال المسنون في النهار: «علينا أن ننتظر، ولا بد أن يُعطي الذين جاءوا بالأمس فسحة، لكي يزول خوفهم، وبعدها نتبين ما إذا كانوا يعنون الكلمات التي يقولونها، وهل هم أحسن أو أسوأ من الذين سبقوهم» فإن الأصغر سناً يصمتون في النهار، احتراماً للكبار، أما في الليل فإنهم لا يوفرون أحداً أو شيئاً.

لقد انقضى وقت يعتبرونه كافياً منذ أن وصل خريبط إلى العوالي، وخلال هذا الوقت توقفت الحرب، لكن لم تنته. وتراجع الموت لكن ليبدأ العذاب والانتظار. فالوعود التي أعطيت تراجعت ثم نسيت، والجنود الخائفون الذين كانوا يشهرون أسلحتهم، كرد فعل، لأي تصرف، والذين كانوا شديدي التجهم والحنق، ذهبوا، وجاء بدلاً عنهم آخرون: أكثر نعومة لكن أكثر دهاء. صحيح أنهم لا يرفعون السلاح، لكنهم يربطون اللقمة بمدى الولاء. وهؤلاء جاءوا ليبقوا، وكان على رأسهم فنر.

وفنر بمقدار ما يبدو ودوداً، يستمع بانتباه، ويسأل، فقد كان يتحصن بالصمت والغموض. فإذا تكلم، فإنه يتكلم همساً، ولعدد محدود، أن موران لا تستجيب، رغم أنه يريد تلبية كل طلب، وإجابة كل سؤال. فإذا زاد الإلحاح وتعاظمت الشكوى يذهب إلى الجامع الكبير في الطريفة ليصلي ويطيل الدعاء، ويهمس في آذان الذين حوله أن يعطوه وقتاً لكي يقنع موران.

والعوالي التي تعتز بالغناء، وتعتبره سلوتها وطريقتها في الفرح، تعتز بمغنيها وتعتبرهم رسلها. وعمر زيدان، كبير مغني العوالي، كاد أن يصل إلى مصر والشام، لكي يغني هناك، لكن الحرب وما ولدته من ضجة ومصاعب وانقطاع المواصلات اضطرته إلى تأجيل رحلته سنة بعد أخرى،

وإذا افترض أن صوته يذيبه البحر، وتقف في وجهه جبال الصد العالية، وتمنعه من الوصول، فقد تأمل خيراً وانتظر كثيراً بعدما انتصر خريبط، خاصة وأن الناس لم يعودوا قادرين على الاحتمال.

بوصول خريبط، أصبح عمر زيدان متأكداً أن جبال الصد التي كانت حاجزاً ومانعاً، لن تلبث أن تصبح بوقاً أو مئذنة. وهناك يمكن أن يقف على ذراها لكي تسمع موران غناءه، ومنها إلى مصر والشام. لذلك لم يتردد ولم يتأخر في الاستجابة إلى الدعوة التي وجهت إليه لكي يغني في قصر الروض.

أما بعد أن ذهب وعاد فقد امتلأ غماً أمرضه. وأكد عدد من الذين رافقوه، أنه بكى حين قيل إليه أن يذهب إلى المقابر، كما طلب أحد مرافقي السلطان، لكي يغني هناك للموتى. وقيل أيضاً انه رفض الغناء، بعد أن عاد، لعدة شهور. أما المحاولات التي بذلت معه في وقت لاحق أن يغني في موران، وفي احتفالات السلطان، فقد فشلت، وحين ألحّ عليه يونس شاهين، وأكد له أن ذلك سيساعد العوالي كلها ويفرج عن الناس، فقد وافق على أن يرأس فرقته نائبه رضا الجاوي.

قال لرضا بسخرية مرة:

ـ ظني أن موران ينراد لها ألف سنة حتى تقدر تسمع السيكا والمنصوري، فلا تقرب، الله يسلمك، الثقيل، يلزمك تغني من الخفيف وما دونه!

رد رضا الجاوي:

ـ الغناء يا أبو ناصر إذا ما كان من القلب ما يصل، وحنا رايحين وقلوبنا هنا، ولذلك حتى الخفيف يجوز ما نقدر عيه!

بعد أن سافرت الفرقة قال عمر زيدان، لبعض الأقربين، وكان يتذكر:

ـ قبل سنوات طويلة، التقيت بمغني تركي، جاء على سفينة، وكان بينا ابن حلال يترجم ويفسر، ومنه صوت ومني صوت. . . وإلى الصبح. وكل ليلة، ما دامت الباخرة في الطريفة، نغني. كنا أول ليلة نغني وحدنا، بآخر

ليلة ما ظل أحد إلا وغنى، والناس إلى الصباح، ويمكن بعضكم كان. . . ويذكر.

وهز رأسه بحزن ثم أضاف:

ـ وبعدما صار بيني وبينه خبز وملح، قال لي: اركب معي، فإذا وصلنا استانبول تشوف العجب. قلت له: لا بالله، ما أترك ديرتي، وإذا تركتها لأولاد العم، لمصر والشام، وهذا حدي. حاول. ألحّ، قال: جرب. وابد. قال: بالبحر نؤلف أنا وأنت غناء بالعربي والتركي، فإذا وصلنا استانبول وغنينا نصير فوق الريح، قلت له: لك البحر واللي ورا البحر، وأنا هنا، وإذا جابك الزمان لهذه الديرة، نوبة ثانية، فلا تنسى: لك أخ وما ينساك.

خيم الصمت ثقيلاً، ولما أحس أنه لا يطيق هذا الصمت كله، صفق بيديه بتلك الطريقة التي يعرفها مريدوه، ليستحضر النغم، وقال:

ـ أتذكر أني حضّرت لموران هذي الأبيات:

عيني لغير جمالكم لا تنظر وسواكم في خاطري لا يخطر
صبّرت قلبي عليكم فأجابني: لا صبر لي، لا صبر لي، لا أصبر
لا صبر لي حتى أراكم بناظري وعلى محبتكم أموت وأحشر

بعدما انتهى من الغناء قهقه. هز رأسه مرات أسفاً، ثم أضاف وجاء صوته حاداً:

ـ قال لي ذلك التركي لا تغن أبداً إلا لمن تحبهم، لمن تعرفهم، أما من يغني للملوك فإنه يبقى أسير قصورهم.

وبعد قليل:

ـ توهمت أني أعرف خريبط وأني أحبه، هكذا أوحى لي الناس، وطلبوا مني أن أستميل قلبه، لكي يخفف عذابهم. ذهبت دون وقفة في دارم أو عين دارة، ولم أتوقف في عين بنات أو في رحاب خزمة، كنت أريد أن أصله. . . لكن. . .

وصفق بيديه مرة ثانية وأنشد:

ـ وضيعني قومي لأني لسانهم إذا أفحم الأقوام عند التكلم

وطـالـبـنـي دهـري لأنـي زنـتـه وأنـــي فــيـــه غـــرة أدهـــم

لكن هيت لك، هيت لك، هيت!

قال جمعة عبد الباري الذي لا يفارق عمر زيدان:

ـ مولانا أضاعوني وأي فتى أضاعوا. . .

رد عمر:

ـ أنا وأنت، يا جمعة، وكل أهل العوالي، وحتى الناس غيرنا، لازم نكون ذياب أو أشد، حتى نعيش.

قال جمعة بغضب:

ـ حاشاك مولانا. . .

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ ألف ذيب ولا غزال واحد مثلك، مولانا!

رد عمر، وكأن إنساناً آخر في داخله يتكلم:

ـ حتى الغناء ما عدنا نقدر عليه يا جمعة، كان سلوتنا، وهالحين، مثل ما تشوف عينك: «حرام وحلال، يصير وما يصير»؛ فإذا سكتنا أكثر، يا جمعة، متنا، راحت علينا، وحتى. . .

قاطعه جمعة:

ـ يا مولانا. . .

كان جمعة عبد الباري يبدأ كل كلام يقوله بهذه الجملة، وقد أصبحت لازمة تثير الضحك، أو تنبه لما يمكن أن يقول، وغالباً ما يكون مثيراً وحاداً. تابع:

ـ يا مولانا، أنت سبب بلانا. . .

وابتسم، ثم بعد قليل:

ـ كل الناس بنظرك خير وبركة. كل الناس يفهمون ويقدرون، ونطيعك. وبعدما نركض ونتعب، وبعدما نتحمل اللي ما يتحمله الحمير، ويطردنا اللي تعرفهم مثل ما يطردون الكلاب، تقول لنا: أنا غلطان، سامحوني، ونسامحك. ونظن أنك تعلمت. لكن المرة الثانية: نفس

الأخطاء ونفس المشاكل، وتعالوا يا ناس: اصبروا وتحملوا، واستروا ما شفتم منا. . .

قال عمر وهو يضحك:

ـ الحق اللي تقوله يا جمعة.

ـ مولانا. . . هذا الكلام ما ينصرف، وما يفيد، لأن الخازوق وصل لليافوخ!

ـ والحل يا جمعة؟

ـ الحل، مولانا، تسافر فرقتنا لمصر، لأن موران ما تسمع إلا من بعيد.

وظلت العوالي موزعة مشتتة، عين على البحر، وما يحمله من أخبار، وما يقذفه من بشر، وعين إلى جبال الصد، وما يأتي من ورائها.

قال رضا الجاوي بعد أن عاد من رحلة موران:

ـ . . . ولا يحتملون السرعة أو أنغام الطرب. صحيح أنهم يفهمون الكلام، لكنهم لا يتذوقون النغم، خاصة الرجال الكبار في السن. وحتى السلطان الذي بدا فرحاً ويريد المزيد، كان لا يطرب قبل أن يعرف الكلمات، وكان يستعين بواحد إبليس، يقال له ابن البخيت، وهذا يعرف الأنغام والكلمات، وقد طلب منا أن نغني السيكا والمنصوري، وحتى البيات، وفي بعض الحالات كان يغني معنا.

تراجع عمر زيدان قليلاً بظهره إلى الوراء، زم ما بين حاجبيه، وسأل:

ـ ابن البخيت؟

ـ اي نعم. وإذ تتذكر المرة الأخيرة التي جاء فيها السلطان إلى الطريفة، كان دائماً معه: أسمر، طويل، ضعيف مثل قصبة، ودائماً ينظر إلى الوجوه وكأنه مضيع أحد.

ـ وعينه اليسرى كريمة؟

ـ عيونه مثل عيون الصقر، يا شيخ.

ـ ومن حاشية اليمين أم من حاشية اليسار؟

ـ كان مع السلطان، ولا أدري عن الحواشي!

ـ ويفهم في الغناء؟

ـ اي نعم، مولانا!

هكذا أجاب رضا الجاوي، وهو ينظر إلى جمعة، ويبتسم:

سأل عمر زيدان بجدية:

ـ وهو من موران؟

هز رضا رأيه إيجاباً وهو يصفق بيديه، وعلى طريقة معلمه، ويغني:

ـ تصورت من ألقى فلما رأيته ذهلت فلم أملك لساناً ولا طرفاً
وأطرقت إجلالاً له ومهابة وحاولت إخفاء الذي بي فلم يخف
وكنت معداً للعتاب صحائفاً فلما اجتمعنا ما وجدت ولا حرفا

قال عمر زيدان، وكأنه يحدّث نفسه:

ـ إذن موران فيها خير، ما دام فيها واحد مثل اللي تسولف لي عنه!

قال رضا الجاوي بمرح:

ـ لكنه ابن حرام يا مولانا، عين على الشيطان وعين على الرحمان، ما تصل إلى حد إلا يتلفت مثل الذيب، أكثر من السلطان ومن شيخ الإسلام، وكان يدخل علينا ويغشانا مثل الموت أو مثل السيل، فإذا غنينا:

قد صفا وقتنا وطبنا وهمنا في هوى زينب وسعدى ولبنى
فاسقني الراح يا نديمي ودعني بين أهل الهوى أموت وأفنى

يصرخ:

يا مصطفى من قبل نشأة آدم والكون لم تفتح له الأغلاق
ايروم مخلوق ثناءك بعدما أثنى على أخلاقك الخلاق

وكنا لا نعرف هل هو من الانس أم من الجان: عيناه تحلّق مثل طيور الحمام، وعقله بيننا وبين السلطان. حاولنا معه، حاورناه، كان فهيماً لبيباً. وكان شيطاناً رجيماً. قال لنا، في إحدى الليالي، بعد حفلة كبيرة: «احذروا يا أهل العوالي، العين حمرا، وموران ما تحمل». وغاب أياماً، ثم بعد ذلك قال لنا: ارحلوا.

سأل عمر زيدان بقلق:

ـ ولم تروه بعد تلك الليلة!

ـ مرة... وفي النهار، لكنه في النهار غيره في الليل، مع السلطان غيره معنا، ولا تعرف هل هو مع نفسه أم مع غيره. عجيب هذا الإنسان!

ومن جديد سأل عمر بقلق:

ـ ووحده أم معه أحد؟

ـ تراه واحد وتراه مائة. أما إذا تكلم أو إذا ترنم فإنه يحلق، حتى إذا عاد لم يبق أحد إلا وتحرك، حتى السلطان.

قال عمر زيدان، وخرج صوته من صدره عميقاً:

ـ موران مثل العوالي، إذا كانت هالحين تغطيها غيمة، فمع أول ريح تنكشف، وما أحد يدري بعدها شنهو اللي يصير!

قال جمعة:

ـ أتاريهم مثلنا، يا مولانا يخافون؟

ـ الفرق باع أو ذراع، لكنهم يصلون، وإذا ما هو اليوم اللي عقبه...

هكذا قال رضا بمرح، وتابع:

ـ ونساهم، يا مولانا، غير رجالهم، صحيح، والشهادة لله، ما قرّبن، لكن البني آدم يسمع وصوصتهن، ويسمع ضحكهن، إذا صفا الجو، والوصوصة والضحكة تشلع القلب. وبتوالي الليل كنا نشوف الأطياف مثل خطوات العافية. والأصوات تلمع ويقولن: سمعنا وطربنا.

قال جمعة عبد الباري:

ـ إذن الدنيا بخير يا مولانا؟

رد عمر زيدان بأسى:

ـ عجيب أمر الناس: الخوف قاطع قلوبهم، كلهم يعشقون ويغنون، بس بالسر، ما أحد يأمن لغيره، وكل واحد يخاف من الثاني، لكن يجي يوم وتشوفون.

سأل جمعة:

ـ وبرأيك، مولانا، أن هذا اليوم قريب أو بعيد؟

ـ قريب وبعيد، مولانا. . .

وقهقه عمر ثم أضاف:

ـ إذا راده الناس يقرب، وإذا نسيوه يجوز نموت وما نحصّله، لكن لا بد ويصير، إذا ما هو على أيامنا على أيام أولادنا.

قال رضا الجاوي:

ـ والغريب، يا عمي عمر، أن الناس، هناك، في الليل، غيرهم في النهار، بين بعضهم غيرهم مع الأغراب، وما هو بس كذا، يتغيرون بالساعة. هذا اللي كان يسولف ويمزح، واللي كان يدندن ويغني، إذا مرّ منادي الصلاة انرعص، وكأن عقرب لدغه، وحتى هذا اللي محني لحيته، اللي يقولون له العجرمي، مثل الشيطان الرجيم، وما تعرف من هو اللي يخاف من الثاني!

قال عمر زيدان، كأنه يحدث نفسه:

ـ . . . والعوالي، من قبل، كانت كذا، لكن البحر ورياحه، والمراكب واللي جوا عليها، وتغير كل شيء، لكن الله يستر.

وبعد قليل وبحزن:

ـ وهالحين ما أحد يدري: ياخذون منا أو يصلونا هم وخوفهم، ويخلونا نصمت مثل المقابر. . .

وينتفض ويضيف:

ـ ولكن حنا بروسنا، مواويل بعدما غنيناها، وما أحد يقدر يمنعنا. . .

وصفق بيديه وأنشد:

باحت بسري في الهوى ادمعي ودلت الواشي على موضعي
يا معشر العشاق إن كنتمُ مثلي وفي حالي فموتوا معي

نزاعات قصر الروض ومشاكله لا تتوقف ولا تنتهي. قد تتراجع، بعض الأحيان، أو قد لا تظهر، خاصة أثناء وجود السلطان، أو ربما تأخذ مظاهر خادعة، إذ يفيض الود، وتكثر الدعوات، وتبادل الزيارات ـ وصدف أن وقعت خلال ذلك زيجات مفاجئة ـ لكن ما يكاد يسافر السلطان، أو يتغير الجو، حتى تدب المشاحنات من جديد، وقد تؤدي إلى النزاع فالحرب المكشوفة.

قالت وريدة قابلة القصر تحذّر امرأة جديدة من نساء السلطان:

ـ إذا تغيرت الريح، وكان الحمل بين سعد بلع وسعد الخبايا، فلا تنتظر الحامل إلا بنيّة.

وبعد قليل، وبتأكيد:

ـ فإذا جابت بنيّة يصير وضعها مخوطر، ويجوز تروح عليها!

اقتربت منها وهمست:

ـ فإذا رادت وليد، يلزمها تنام، قبل ما يجيها، ثلاثة أيام على جنبها اليمين، وما تناظر كريمة عين، أو مفروقة سن، وبتلك الليلة ما يلزم تتفلقح مثل البقرة، إنما ترمح مثل الغزالة، وبعد ما يسمّي تحرف به نحو القبلة وتنوي، فإذا وطاها تاخذه وتجيبه الهون الهون، وبثاني يوم إذا شافت القمر تقول: أريد ضدك، وإذا شافت الهلال تقول: وفيت حقك، وهذا الله شهيد.

إما لماذا امتلأت وريدة بهذه القناعة، فلأنها، كما تقول، سمعت منجماً عاش في القصر، ومات فيه، وكان السلطان يحبه ويصطحبه أينما ذهب، يهمس للسلطان: «هذا القصر الجن رابطه وحاميه، وما أحد يقرب

منه أو يقدر عليه، وإذا خرب فوراء خرابه مريّة أو بنيّة ومن داخله» وهذا ما يفسر تطير السلطان من المواليد الإناث!

كانت وريدة تقول ذلك، محذّرة، ولا تشير إلى أنها إذا بشّرت السلطان بغلام فلها فوق المعاش ثلاث أعطيات: كسوة، وحشوة وقريشات. الكسوة عادة: ثوب للشتاء، إذا كان الفصل شتاء، وغطاء للرأس، وخف هي التي تحدد لونه. أما الحشوة فهي عبارة عن ذبيحتين أو ثلاث ذبائح، حسب أم المولود. والقريشات: خمسة مجيديات، أو ليرة ذهب، عصملية، وفي وقت لاحق وريقة أم الميّة. أما إذا كان المولود بنتاً فإنها، أغلب الأحيان، تتوارى، وإذا سئلت لا تجيب.

لهذا لم تكن وريدة تخفي محبتها للذكور. أما إذا اضطرب قصر الروض ودبت فيه المشاحنات، فكانت تتطلع إلى نجمة الصبح وتقول بصوت عالٍ:

ـ يا ملك الجان، بحق نبي الله سليمان، تربط العمدان، وتقوّي الحيطان. . .

وتجر نفساً عميقاً ويتغير صوتها:

ـ وكل مريّة تفري على غيرها فرية ترد عدوانها لنحرها وتجيب أجلها، أو تقطع نسلها!

المصالحات التي رعتها أمي زهوة، بين نساء السلطان الأقدم والأقوى، ساهمت في خلق فترة من الهدوء بين الكثيرين، وبدت فضة امرأة مسالمة أقرب إلى الانطواء والحزن، بحيث ان الذين عادوها من قبل لاموا أنفسهم، واكتشفوا خطأهم وقسوتهم! خدم القصر فسروا تغير فضة إلى اليأس والتعب خاصة إن النساء الجديدات، أو أكثرهن، سكن خارج القصر، وقال آخرون إن تغير فضة بسبب صعوبة حركتها نتيجة السمنة.

لكن فجأة، وكما تهب العاصفة، ويداهم السيل، وبعد أن أصبح راكان مسؤولاً عن أمن القصر وحماية السلطان، أخذ كل شيء يتغير: «قصر الروض لراكان وأخوته»، هكذا قال مجلي، أحد حرس راكان، مبرراً الإجراءات الجديدة. أما ابن العريفان، والذي لا يعرف كيف يواجه

الأعباء والمشاكل فقد قال: «فضة تريد القصر لها ولأولادها» ولأن السلطان انشغل بزيجات سريعة متتالية، ثم أصبح يقضي فترات طويلة في البادية، للقنص أو لرد الزيارات أو لمصالحة بعض الشيوخ الذين غادروا موران غاضبين، فقد جاء من أكّد أن الأسباب الحقيقية لغيبات السلطان الطوعية عن موران، وعن قصر الروض، بالتحديد، نتيجة لنبوءة قالها له أحد المنجمين المشهورين في العوالي، إذ أبلغه، ولم يكن معه سوى مهيوب وابن البخيت: «النجاة في الفلاة، ويلزمك، طال عمرك، ما تصل موران الشهور الحرم جميعها، وما دام نجم الثريا في منازل الغياب».

ومثلما كانت فضة قبل سنين، عادت، أما راكان فلم يكن بحاجة إلى من يحرضه أو يوغر صدره. فالإهانة التي تلقاها من العنود ظلت تنام وتقوم معه. الآن وقد تهيأت الفرصة لا بد أن ينتقم.

خلال يومين لم يبق في جناح العنود، فقد استغل سفرها، أي معالم تدل على استقلاله؛ هدم الحواجز والجدران التي تفصل جناحها عن الجناح الذي يحتله وأمه، وأجرى تغييرات بحيث حوّل الجناحين إلى واحد. أما الأثاث فقد أوعز إلى الخدم والعبيد أن يأخذوه أو يحرقوه، لأنه لا يريد أن يراه مرة أخرى!

فعل ذلك بصمت أول الأمر، ثم حين تحسب من لوم أبيه إذا عاد، لجأ إلى القبض على عدد من خدم العنود وعبيدها، وأمر بجلدهم في ساحة القصر، لأنهم لم يبلغوا عن الخمور التي وجدت في الجناح، بعدما اعترف الخدم «إن ضافي، أخ العنود، وكان في العادة ينزل ضيفاً على أخته، إذا جاء إلى موران، تعود أن يجلب الخمر إلى القصر، وكان يشربه. راكان لم يتجاوز ما فعله أبوه في حادثة مماثلة حين طرد أحد أبناء عمه، لأن ثلاثة شهدوا أنه تناول الخمر في القصر، وقال السلطان آنذاك، وأمام عدد من رجاله «... ولو شافته عيني شربان لسويته عبرة» ولذلك اكتفى بطرده ومنعه من دخول القصر بعد ذلك.

لم تكن العنود وحدها التي تعرضت لمثل هذا الإجراء، فاثنتان من أقدم زوجات السلطان، وثلاث من محظياته، إضافة إلى عدد من الجواري

والخدم تعرضن أيضاً إلى النقل والمضايقة. فالقسم الشرقي من القصر، والذي جرى توسيعه عدة مرات، وألحقت به أجنحة جديدة، وكان قد بني بعد حادثة التسمم المشهورة، وأصبح سكناً للسلطان ومكاناً للعمل، تقرر توسيعه من جديد، بحيث اقتضى الأمر هدم الأسوار التي تفصله عن أجنحة أخرى.

لقد تم ذلك «لاعتبارات متعلقة بالأمن» كما قال راكان، حين سئل، «ولأنه من الواجب أن يكون للسلطان قصر يليق به».

بدأت عمليات الهدم دون أن يطلب راكان من أحد مغادرة سكنه، ولأن الحياة في مثل هذه الظروف أصبحت مستحيلة لهؤلاء الساكنين، فلم يوافق على أن تغادر أي منهن إلا بعد أن تكتب طلباً أو تبصم على ورقة أعدت لذلك، لكي يؤمن لها سكناً آخر، وليثبت لكل إنسان، مستقبلاً، أن تغيير السكن تم بناء لطلب، وامتثالاً لرغبة!

أمي زهوة التي تسكن في الجنوب الغربي من القصر، وقد ظلت معتكفة لمدة شهرين، بسبب الكوابيس التي لاحقتها خلال ثلاث ليالٍ متواصلة، وقد تشاءمت منها كثيراً، لم تدر بما يدور. أما تهاني التي سمعت وعرفت، فقد قالت بسخرية:

ـ إذا كان هذي سواياتهم والسلطان على مرمى عصا، فشلون إذا غاب؟

وبعد قليل وبهزء:

ـ وشدوا روسكم يا قرعان!

وقررت تهاني أن تؤخر إبلاغ الشيخة، لأنها كانت في طور النقاهة، وخشيت أن تؤثر عليها مثل هذه الأخبار.

ابن العريفان الذي كان أقوى شخص في القصر أثناء غياب السلطان، رغم مظاهر البساطة والتواضع، امتلأ غيظاً نتيجة تصرفات راكان، خاصة بعد أن بدأت الاحتجاجات تنهال عليه من كل جانب، ولا يستطيع أن يمنع الأذى، أو يغيّر من إجراءات الهدم والنقل. وحين عبّر عن استيائه لراكان تلقى جواباً مختصراً وقاسياً:

ـ حياة طويل العمر قبل كل شيء وفوق كل اعتبار. . .

وبعد قليل وباستهانة:

ـ واللي ما يعجبه يرحل، وأرض الله وسيعة.

ولما حاول ابن العريفان أن يلفت نظره إلى احتمال غضب السلطان نتيجة هذه الإجراءات أجابه:

ـ أنا المسؤول ولا أسمح لأحد أن يتدخل.

قال ابن العريفان لسكينة، إحدى زوجات السلطان التي جاءت محتجة:

ـ . . . ورأي تطولين بالك، لأن راكان وأم راكان ما عندهم لحية مشّطة، وشايفهم ما هم مصلين على النبي، فاما تصبرين على الهدم فوق راسك أو ترحلين. . .

وبعد قليل وبحزن:

ـ وإذا رجع طويل العمر تسولفينه واسولفه باللي جرى وباللي صار، وعسى أن تنتهي على خير.

ابن العليان الذي لم يكن يرافق السلطان في رحلاته، لأن لديه الكثير ليفعله في موران، وقد شعر، خلال فترة، بالراحة، نتيجة غياب السلطان، وبراحة أكبر لغياب خزعل، فقد أصبح راكان هماً جديداً بالنسبة له.

إذ بعد أن فرض راكان نفوذه وسيطرته على القصر، ونتيجة الطلبات المتزايدة من أجل ترميم القصر ومصاريفه، إضافة إلى تشكيل الحرس الخاص، ولأن ابن العليان يستجيب مرة، ويتظاهر بالغباء والنسيان في مرات أخرى، إضافة إلى الادعاء بعدم وجود المال المطلوب، فقد لجأ راكان إلى أساليب جديدة لتحصيل الأموال التي يريدها: أخذ يوفد رجاله إلى أمراء المناطق لجلب المال، ثم لجأ إلى الاستيلاء على كل شيء يمكن أن يباع، وباعه. هذا عدا عن تهديد ابن العليان، وتأليب سكان القصر عليه.

والسلطان الذي كان يبعث، بين فترة وأخرى، رسله إلى موران،

ويبلّغ أنه لن يتأخر في العودة، إلا أن الأسابيع، تتلوها الشهور، تنقضي، ولا يزال ينتقل من مكان إلى آخر في البادية. فإذا عنّ له أن يستريح، فإنه يذهب إلى الحويزة، أو إلى العوالي، وغالباً دون المرور بموران، أما الديوان الذي لم يكن يفارقه في رحلاته كلها، فلم يعد بحاجة إلا إلى القليل منه.

قال عثمان لطالع العريفان، الذي جاء يطالب بمخصصات القصر:

ـ طلعت روحنا يا طالع من قولة هات، وطويل العمر يظن أنه عندنا مكينة تطلّع ذهب...

وزفر مثل جريح، وأضاف:

ـ وهالحين إما تروح لطويل العمر، وتقول له اللي صار واللي جرى، أو أروح بنفسي.

وبعد قليل:

ـ الله يذكره بالخير خزعل، قلنا إنه ما يشبع من الفلوس، هالحين راكان وأمه، وباقي الويلاد ما يعرفون إلا قوله هات، وما تدري اللي يسوونه بالفلوس.

قال طالع بحزن:

ـ تروح بنفسك يا أبو عزيّز، تصل طويل العمر، وتقول له: وما هو بس الفلوس، القصر بليّاك ما ينداس، ويلزم ترجع من كل بد ولازم، وإلا...

وتلفت أكثر من مرة وأضاف بهمس:

ـ يا أبو عزيّز، أنت ما تدري وما يصلك إلا اللي له علاقة بالفلوس، أنا شعري شاب وقلبي ذاب من السوالف الثانية: كل يوم، كل مطلع شمس، سالفة جديدة، وتعال يا ابن الحلال: حل المشاكل، هدّي الأمور، طيّب الخواطر...

وبعد قليل:

ـ والله لولا الخجل والحرام ما أبقى بالقصر يوم واحد!

قال ابن العليان وهو يضحك بسخرية:

ـ لو كان ابن البخيت بهذي الديرة كان فرّج علينا، يجوز ما يقدر يحل المشاكل، لكن يقول كلمتين تشفي الغل وتبل القلب، لكن وينك، هالحين يا أبو بادي؟

ـ والله لا ابن البخيت ولا مية مثله، يا أبو عزيّز، لأن الهم زاد عن الحد وفاض!

. . . المرح الذي كان يميز بعض تصرفات السلطان وتعليقاته، حين يكون في جو أليف، أو بين المختارين من جماعته، وكان يطلق عليهم: الربع، هذا المرح غادره تماماً في المرحلة الأخيرة، وحل مكانه همّ أقرب إلى الحزن، وكان يتبدى واضحاً لكل من يراه. أما الصمت الذي كان يتحصن وراءه في حالات خاصة، أو على التحديد حين يريد الإقدام على عمل خطير، وكان يخشى أن تفضحه كلماته، أو طريقته في الكلام، فقد أصبح في هذه المرحلة الصفة البارزة أو الوحيدة في علاقاته مع الجميع، مما أدى إلى خشية المحيطين به، ثم تخوفهم أنه يعد لعمل كبير، ولا يريد لأحد أن يعرف. وقد صدف أكثر من مرة، حين صفّى بعض خصومه، أو أصدر أحكام الإعدام على من اعتبرهم مخطئين، أن اعتصم بالصمت، وخيّمت عليه الجهامة الممزوجة بالحذر أو التخفي.

ترافق ذلك مع تغير واضح في الهيئة ثم في السلوك والتصرفات. إذ بالإضافة إلى عدم رغبته في سماع أي حديث له علاقة بالمطالب والشكاوي، كان بادي الضيق، سريع الانفعال، وفي فترة لاحقة لم يعد راغباً بلقاء أحد. وأخيراً، وبشكل سريع، قرر مغادرة موران، ولم يصطحب معه إلا عدداً محدوداً من رجاله. ظهرت الحيرة على وجوه المسافرين، أو الذين عرفوا بالسفر في آخر لحظة، لأنهم لا يعرفون مستلزمات رحلة من هذا النوع، وما تتطلبه من تجهيزات تتناسب مع المكان الذي يقصده، أو المدة التي ستستغرقها الرحلة. وإذا كان البعض قد عزا التغير والاختلاف إلى هموم القصر، خاصة نكد النساء، فإن آخرين كانوا متأكدين أن الأمر أخطر من ذلك، خاصة وأن السلطان اصطحب

اثنتين من نسائه الجديدات، إضافة إلى عدد من محظياته وجواريه. وكان المحيطون به على يقين أن حصيلته من النساء أثناء العودة ستكون ضعف العدد الذي رافقه، أو ربما أكثر.

وإذا ظلت هناك مزايا يفاخر بها السلطان، وغالباً دون كلمات، وبشكل غير مباشر، فإن من جملتها: قوته الخارقة، وقامته المديدة، إضافة إلى ما يتمتع به من طاقة على التحمل، وكان يترك للآخرين أن يتحدثوا عن هذه المزايا في مجالسهم، شرط ألا يكون موجوداً، وظل هو يبعث بالرسائل التي تبرهن على استمرار هذه القوة، من خلال الزيجات المتلاحقة التي يعقدها، ومن كثرة المحظيات والجواري اللواتي يزداد عددهن في قصوره وأماكن وجوده. كما لم يكن يتردد في التعبير عن هذه القوة أيضاً، وخاصة من خلال الأفواج الجديدة من البنين والبنات.

في الفترة الأخيرة لاحظ مرافقوه تخوفه الواضح من النساء. إذ أصبح يأكل منفرداً، أو مع عدد محدود من رجاله، وأصبح العويدي، طباخه الخاص، لا يفارقه، وهو وحده موضع ثقته أكثر من أي شخص آخر. وقد تذكر الكثيرون حادثة التسمم التي وقعت في القصر قبل عدة سنين: فراودتهم الشكوك أن حادثة من نفس النوع، أو على الأقل، إشارة، نتيجة معلومات أو وشاية، وصلت إلى السلطان، وجعلته حذراً متحفظاً هكذا. ولقد لفت نظر القريبين في السنة الأخيرة أن المواليد أقل من أية سنة سابقة، مما أثار التساؤلات، وبعض الأحيان التعليقات الساخرة، فأغلب النسوة اللواتي وصلن إلى القصر، بعد معارك العوالي، لم ينجبن. رغم صباهنّ وقوة أجسادهن، واختلف الذين راقبوا هذه الظاهرة في تفسيرها، أو استنتاج دلالات منها.

قال ابن العليان في إحدى الليالي، حين جرى الحديث عن أولاد طويل العمر:

ـ . . . والغريب، يا جماعة الخير، أن أكثر أولاده من أول نسوانه، والظاهر أن الرجّال مثل المرية، يبلغ سن ويقف!

سأل ابن البخيت بمكر:

ـ وشنهو اللي تقوله عن الأولاد اللي جوا بالسنين الأخيرة؟

ـ كل شيء يظل به توالي، يا عبد الله، ظرف السمن بعدما تتعب وأنت تعصره، اتركه بالشمس ساعة وشف شنهو اللي يطلع منه... وما هو بس هذا: عين الماء، الغدير، كل شيء، والبني آدم كذا.

ـ وشيخنا العجرمي، كم عمره يا عم؟

ـ ليش تسألني؟ تريد توقع بيني وبينه؟

ـ لا... أريد أقول أنه بهذا العمر، وما تمر سنة إلا وعنده فلو جديد!

ـ الله منك يا عبد الله: كل سالفة ويلزم تقول: تصير وما تصير، قاعد للناس سكينة خاصرة، ولا كأن شيء عاجبك أو مالي عينك!

قهقه ابن البخيت، وبعد أن هدأ:

ـ كل الناس خير وبركة، يا عم، بس اللي أعرفه أن سن اليأس عند النسا؛ أما الرجال فتظل ظهورهم قوية حتى ولو وصلوا للمية، خاصة إذا كانت الأفراس حايلة وطالبة!

ـ يا ابن الحلال... عمري بعمر طويل العمر، وما أريد أسأل أحد، أشوف نفسي!

ـ لكن عنده النشامى والأجاويد: شيخ الصاغة ومعتمدي، وغيرهم وغيرهم، وهذول ما لهم شغلة إلا يسنعونه زين: بالأكل، بالعطر، بالدهون، وأنت يا عم همك غير همه!

لقد جرى هذا الحديث، أو ما يشابهه في وقت مبكر: أما بعد أن بدا هذا التغير على السلطان، ثم سفره المفاجئ، ولا أحد يدري إلى أين، أو إلى متى سيبقى، فقد ساورت الظنون والشكوك الكثيرين، أو بالأحرى لم يبق أحد في قصر الروض أولاً، ثم بعد ذلك في موران، ألا تساءل وتوقع.

ابن البخيت الذي استأذن السلطان قبل يومين من السفر، لكي يقوم بواجب العزاء لعائلة صديق توفي، لما سأل عنه السلطان، وأبلغ بسفره، هز رأسه، وكأنه تذكر، أو أن الأمر لا يعني له شيئاً. وحين استفسر طالع

العريفان ما إذا كانت رغبة جلالته أن يلتحق به عبد الله البخيت، اكتفى بأن هز رأسه علامة النفي.

وحين ظل طالع يدور حول السلطان، منتظراً اللحظة المناسبة، لكي يسأله ويتلقى توجيهاته خلال فترة غيابه، فقد قال له السلطان بحدة بالغة، أقرب إلى الغضب:

ـ امسك الأرض، يا طالع، لأن عيونّا زاغت من دبّك!

وفي اللحظة الأخيرة قبل أن ينطلق موكب السلطان، سأل طالع، وخرجت الكلمات مسكينة:

ـ تؤمرني بشي، طال عمرك، بغيبتك؟

تلقى جواباً لن ينساه بعد سنين طويلة:

ـ النملة إذا دبت وما عرفت بها لا تلوم إلا نفسك، وبس ارجع نتحاسب!

قال طالع العريفان لناهي الذي كان خارج القصر أثناء سفر السلطان:

ـ طويل العمر ما يعجب، يا ناهي، متسودن، ونفسه حامضة، ولو حكيت كلمة واحدة، ما عنده مانع يطقني، ويلعن أجداد أجدادي.

استغرب ناهي، حاول أن يستفسر:

ـ شلون يا أبو جازي؟ شنهو اللي شفته وشنهو اللي صار؟

تنفس ابن العريفان بعمق وبحزن، ثم أجاب:

ـ البني آدم ما يتعلم إلا من كيسه يا ناهي. قبل سنين قلت لي: خلنا نمشي، وأنا عاتّ بك وأقول لك أحسن من هذا المكان ما نلقى. اليوم تأكدت بنفسي أني متوهم وكان يلزمنا نهجّ من قبل، ونترك أهل موسى يندبون موسى!

ـ ظني أن هالحين ما تفيد الندامة، يا أبو جازي...

وبعد قليل وبمرارة:

ـ باكر، إذا رجع لحليب أمه، وجرب غيرنا، يتذكرنا يا أبو جازي.

رد ابن العريفان بحزن:

ـ إلى هذا الحد طاح حظنا بهذي الدنيا يا ناهي وما عاد خير إلا إذا لقي أخيس منا؟

ـ من قبل قالوا، الله يسلمك: لا تحط يدك بالنار، ولا تصيح: يا الغريب الفرج!

قال ابن العريفان بيأس:

ـ لا صافي يظل، ولا خابط يظل مخبوط، واللي تدردبه السما تتلقاه القاع وهذا هو.

عرفان الهجرس الذي بدا حائراً خلال فترة التحضير للسفر، لا يعرف ماذا يأخذ وماذا يترك، ولا يجرؤ أيضاً على سؤال السلطان، استمر يصدر التعليمات ثم يوقفها، ويعود لإصدار تعليمات جديدة. يأمر، مثلاً، باستبدال الركائب بالسيارات، ويحمل جزءاً من الديوان، ثم يطلب إنزال الأحمال مرة أخرى، والوقت يمضي بين تعليمات وأخرى نقيضها، إلى أن تقدم، في لحظة عصبية، من السلطان، وسأله همساً:

ـ شنهو اللي يلزمكم، طال عمركم، من الديوان، حتى نشيله؟

تساءل السلطان كأنه يخاطب نفسه:

ـ شنهو اللي يلزمنا من الديوان؟

وهز رأسه عدة مرات، ثم أضاف:

ـ إلى الحين وما تعرف شنهو اللي يلزمنا واللي ما يلزمنا يا ابن الهجرس؟ متى تتعلمون وتصيرون؟

وبعد قليل وباستدراك:

ـ لا... خَلِ كل شيء بمكانه، بس أقفل وحزّم، وتبلغهم ما أحد يقرب شي إلى أن نرجع.

ثم استدرك مرة أخرى:

ـ ولا تنس الصندوق، يا عرفان، خله بالسيارة اللي اركبها.

مهيوب طول الوقت لم يهدأ لحظة واحدة من أجل اختيار مجموعة خاصة من الحرس، كما لم يجب أي إنسان عن وجهة سفر السلطان، رغم

أن الكثيرين سألوه، إذ كان يكتفي بالصمت أو بنظرة تجاهل. حتى السيارات الخمس التي طلب إليها التحرك قبل ساعة، أعطيت لسائقيها تعليمات مبدئية: «تذهبون إلى المليحة، وهناك تتبلغون بالوجهة النهائية للسفر».

وأغلب نساء السلطان لم يعرفن بسفره إلا بعد السفر، أو في اللحظات الأخيرة؛ ولذلك، وخلافاً لرحلات سابقة، لم يختلفن ولم يتراهن. أكثر من ذلك شعرن، جميعاً، وإن كان بنسب متفاوتة، بخيبة الأمل، وأنهن لم يعدن شيئاً بالنسبة له.

لما عاد عبد الله البخيت من سفرة العزاء، بعد عدة أيام، وعرف بسفر السلطان، قال لعثمان العليان، والذي أبلغ ابنته أن تبعث وراءه حالما يعود عبد الله:

ـ مثل اللي راح للمسجد ولقاه صاكّ بابه، قال لربنا: جت منك، وما هي مني!

وقهقه، وبعد قليل:

ـ خلنا نستريح، خلنا نشوف أهلنا ونشوف الناس...

وكاد يتابع بنفس المرح، لكنه تنبه فجأة، فسأل بخوف:

ـ وما قال: تحملّوه وراي وتذروه مثل الجدي؟

ـ ربك سترك، هذي المرة، يا عبد الله. ولا بد أنك مسوّي بدنياتك خير يوم من الأيام، لأن الله رحمك، ونسّاه!

رد عبد الله البخيت بمرح:

ـ الله يدري بالقلوب، يا عم. وعمل الخير ما هو بس باللي يعطي الفلوس ويزكّي، باللي يقول الكلمة الزينة، أو يمنع الأذية، ويرفع الظلم عن المساكين. وحتى إذا نسّى الواحد السلطان عن الناس، فنسيانه لهم رحمة، لأنه إذا تفطن الله وأكبر!

قال ابن العليان بنزق:

ـ اتركنا من هذي السوالف هالحين، وأريد أسألك...

ـ سم يا عم.

ـ أبو منصور... شنهو اللي بلاه بهذي الأيام؟ ما رحت للطريفة ورديت إلا وشفته غير بني آدم، غير اللي أعرفه. صار شي بغيبتي؟ أحد خربه؟ أريدك تسولف لي كل اللي تعرفه، يا عبد الله.

رد ابن البخيت بمرح:

ـ هالدنيا أبد ما ينحزر عليها يا أبو عزّيز... وما لها أمان.

وضحك بسخرية ثم جاء صوته رخواً وبعيداً:

ـ وأنا، غافل وعلى نيتي، كل ظني أن الوسادة أقوى شي بهذي الدنيا، أثاري غيرها ما هو أقل منها...

وبعد قليل وقد تغيرت النبرة:

ـ وكنت أحسب وأخاف من توالي الليل، ودايماً أقول لروحي: إذا تغير، إذا حب أو بغض فالحريمات هن السبب، وأنت تعرف، الله يسلمك، سوالف الوسايد أبد ما تنسي، لكن، ومثل ما يقولون: اللي يخاف من العفريت يطلع له!

قال عثمان العليان بنزق:

ـ موّتني يا ابن الحلال، علمني بليّا طولة سيرة.

فهقه ابن البخيت لأنه استطاع أن يغيظ عثمان، وتابع بنفس السخرية:

ـ وشلون تريدني أجاوب وأقول؟

وحين لاحظ أن ابن العليان لم يعد يحتمل، غيّر جلسته فتغيرت نبرة صوته:

ـ أما مسألة أنه تغير فهذي واضحة، مثل عين الشمس، يا ينراد لها، أما شنهو اللي غيّره، فأنا اهجس وماني متأكد...

ـ هات اللي عندك، وبعدها نشوف.

ـ من شهرين أو ثلاثة شهور، يا أبو عزّيز، وبالمليحة، وبعد ما قضّى هو ومشرف البكيري، وحدهم، من رأسه لراسه، الليل بطوله، وثاني يوم من الصبح للظهر، طويل العمر اتخربط، تغير وصار غير شكل!

وهز رأسه وهو يتذكر:

ـ وما أدري، إذا كنت شفته، أو تعرفه، لمشرف؟

ـ لا بالله، يا ابن أخي، لا شفته ولا سمعت به.

ـ هذا، يا عم، أهل العوالي كلهم كوم وهو، وحده، كوم.

ـ شلون يا ابن الحلال، هات، سولف.

ـ إذا ناظرته تظنه مهبول وما تشريه بنواة، لكن ألعن من ابليس، وما هو تارك أحداً من شره.

وضحك ثم تابع:

ـ طويل، متين، لكن ريحته تقطع النفس، وما هو بس كذا، مكحّل، حتى إنك تحسب عيونه عيون حرامية أو بقرة وحشية، وهذي العيون مالية وجهه كله، وتحتها لحية محنّاة، وما تعرف حمرا أو زرقا، ويا كبرها يا أبو عزيز، كأنها جزة خروف. ومطمّس راسه بخريقات ملونة وشادّها شدة سياف، ومبخّر ومعطّر، وخاتمه... فُصّه عشرين قيراط...

هز رأسه استغراباً وعجباً، وبعد قليل:

ـ أما شنهو اللي دار بينهم، شنهو اللي قاله لطويل العمر، فعلمي علمك. ومن يومها السلطان كان به عقل وطار. ركبه الوسواس، وعاف الأكل وما يقدر ينام، وعيونه، يا أبو عزيز مشلوحة، من ذاك اليوم، تناظر بخوف، وما تأمن لأحد.

وزفر بحرقة ثم أضاف نبرة جديدة:

ـ ويومين وسافر مشرف، رجع للعوالي، وأنا، طال عمرك، ما خليت طريقة أو حيلة، أريد أعرف شنهو اللي جرى، لكن أبد. قلت لطويل العمر: جماعتنا من قبل قالوا: حط بينك وبين النار منجم؛ وإن المنجمين يتبعهم الغاوون؛ وأن من كان دليله المنجمين مأواه العذاب والخراب. يسمعني، يبتسم، يهز رأسه، ويسكت. وإذا تكلم قال: «مشرف البكيري، يا عبد الله، ما هو منجم، هذا الله كاشف له، وهذا يقرا الممحي، وأنا تأكدت» أما شنهو اللي قاله، وشلون تأكد طويل العمر، فهذا علمه عند علام الغيوب!

ـ ومنين جانا هذا البلية؟ من هو اللي وصّله، من هو اللي اقنع به طويل العمر؟

ـ دورت وتقصيت، يا أبو عزيز، سألت جماعة كثيرين من العوالي، قالوا لي: هذا يعيش بجبل عالي، وانه قال للناس قبل سنين من هزيمة ابن ماضي، وقبل ما تقع بينه وبين طويل العمر، إن ابن ماضي يمشي بفلان وقت وبفلان تاريخ. وحدد السنة والشهر، ويقولون إنه حدد اليوم. كل هذا صار قبل ما تثور بالعوالي أول فشكة. وقالوا إن ابن ماضي استدعاه وسأله، فجاوب نفس الجواب. حاول معه، هدده، حبسه، رد عليه: أنا أقرأ المكتوب وما أقدر أرد القدر. عرض عليه فلوس، ووعده بعشرة روس خيل، وقال له: يا ابن الحلال: إذا تقدر تغير أو تبدل. جاوب: فات الأوان!

وقلب شفتيه وحرك يديه، وقد رأى تأثير كلماته على ابن العليان، فقال وهو يضحك:

ـ هذا اللي سمعته يا أبو عزيز، وما يندري صدقه من كذبه!

ـ وأنت شفته يا عبد الله؟ سولفت معه؟

ـ شفته، الله يسلّمك، أما أني أقول لك سولفت معه فاكذب إذا قلت أي، لأن الرجّال عيونه مثل المغارات، ما تقدر تناظره، وسبحته ألف حبة، وغرقان فيها: يتمتم، يهذي، يغيب، ولا يفرق عن المهبول، وإذا سألته ينتفض وكأنك فزرته من النوم.

ـ وبعد يا عبد الله؟

ـ سوالفه كثيرة يا أبو عزيز: يقولون إذا وقع بالساعة يعرف اللي صار واللي بعده ما صار. وشفت واحد من جماعته، وهو اللي دزه بعد رجعته للعوالي بشهر، ومعه حرز لطويل العمر، وهذا قال لي: «شيخنا متصل بالأولياء، وتجيه وفود من الهند والسند، ويعرف القتيل والقاتل من سفر أربعين يوم. ويلقى المسروقات ولو كانت مدفونة ببطن القاع». وقال وقال، بس ما أذكر كل اللي قاله يا أبو عزيز!

ـ ومن هو الي وصله لطويل العمر؟

ـ سمعت أن فضة، أم راكان، هي التي شارت عليه، لأن جماعة زاروها وسولفوا لها عنه، وقالوا: يا ما نساء حبلن على يده، ويا ما سرقات لقاها!

ـ متأكد يا عبد الله؟

ـ لا بالله يا أبو عزيز، لأنها هرجة ليل وسوالف حريم، وما يندرى!

ـ وبعد يا عبد الله؟

ـ خلنا ننتظر ونشوف، يا عم.

نساء قصر الروض أحسسن في وقت مبكر، وقبل الرجال، أن السلطان لم يعد مثل قبل، وأن في الأمر شيئاً لا يفهمنه، ولا يقدرن على تفسيره، لكن، مع ذلك، امتلأن بمشاعر الخوف والحذر. واتجهت أنظارهن إلى الجناح الأوسط، وإلى أمي زهوة، واتجهت أنظار أقدم النساء إلى الجديدات، سواء كن في الجناح الشرقي، أم كن خارج القصر كله. لم يكتفين بما يصل إليهن من معلومات، فقد أرسلن الخدم والأطفال، وأرسلن بطلب بعض الزهور أو بعض العطور، أو بادرن بإرسالها، تعبيراً عن المودة وحسن النية، لتكون رسلهم في معرفة الأشياء الجديدة، لكن لم تصل المعلومات التي تطمئن إليها قلوبهن. كن على يقين لا يتزعزع أن التغير الذي حل بالسلطان نتيجة امرأة، أو نتيجة عدة نساء. وكان هذا اليقين بسبب حالات سابقة. حتى عندما ماتت لولوة من حالة التسمم، وقيل إن السلطان كان مقصوداً، أو على أقل تقدير وطفة، فقد وجدت كل واحدة وسيلة أو صيغة لتظهر براءتها أولاً، ولكي تحاول أن تستعيد السلطان بعد ذلك. أما الآن، وبسبب الجفوة والبعد، إضافة إلى الغموض الذي رافق سلوك السلطان، فإن الحيرة، الأقرب إلى الخوف، جعلت كل امرأة تشعر بالإهانة. بل وأكثر من ذلك، أصبحت كل امرأة تعتبر الأخرى، أياً كانت، عدواً.

أمي زهوة التي اختفت شهوراً، لا أحد يراها، أو يعرف عنها شيئاً مؤكداً، ظهرت من جديد. لكنها، وهي تظهر، بدت بحالة صحية ونفسية أقوى بكثير من قبل، كانت أكثر مرحاً وكبرياء وسخرية. حتى تهاني التي

تغيرت خلال الشهور السابقة، فأصبحت أكثر استعداداً ورغبة لإقامة علاقات طبيعية مع الأخريات، وفي أن تزورهن، ما لبثت أن تحولت مرة أخرى، بل وبلغ الأمر أن رفضت السلام، أو رد التحية، حين وجدت في بعض المجالس، ولنساء تعرفهن، وسبق لها أن كانت لها علاقات معهن!

نعوّم، مسؤولة الحمام الكبير، أو نعّيمة، كما تسميها أمي زهوة، حين تجاهلتها تهاني، ورفضت أن تمد يدها للسلام، قالت:

ـ وي. . . وي، العنزة الجربة ما تشرب إلا من راس النبع. . .

وأضافت بعد قليل وبغيظ:

ـ ما يخالف. . . ونشوف، إذا ما خليت صنّتها، تذبح الخنزير وتذبحها، ما أكون نعوم.

أما وريدة التي كانت على علاقة وثيقة بأمي زهوة، ولا تطيق، بنفس الوقت، تهاني، كما لا تعرف كيف تتعامل معها، وكانت وريدة تبلغ الشيخة بكثير من المعلومات الخاصة عن نساء السلطان، وتهاني تحاول أن تكون الوسيلة المباشرة، أو ربما الوحيدة لهذه المعلومات، ولم تستطع المرأتان أن تتوصلا إلى صيغة، فقد قالت وريدة تعليقاً على ما سمعته من النسوة عن تغير تهاني:

ـ المريّة إذا ما خلّفت ورضّعت، وإذا مرّ العمر وما شافت بين رجليها شي يلعب ويتحرك تبغض كل الناس، وتصير غضب وما تنحمل.

شمران العتيبي الذي تصله الأخبار إلى سوق الحلال، وتصل غامضة، متداخلة، وقد عرف أن السلطان «تسودن» وهرب من موران، وهمس في أذنه اثنان من خدم القصر، إن ذلك كان نتيجة كيد النساء، فقد تساءل عن العجرمي. وحين قيل له انه في عين دامة، وهناك يعالجونه ويعطونه المقويات، وقيل إنه عاد شاباً وقوياً، فقد قال كلمة تناقلها الكثيرون وضحكوا. قال في سوق الحلال:

ـ إذا عين دامة رجّعته، شاب ما يرجع، ولا تصدقون أخباره، ومثل ما قالوا: حزموني ولزموني وعلى العودة مالي نيّة.

أما حين بلغه أن في العوالي ساحراً تفوق كثيراً على العجرمي، وقد

زار السلطان، وقرأ له طالعه، وقيل إنه أبلغه بأمور كثيرة، ثم طلب منه المغادرة، وأن لا يبقى في موران، فقد قال:

- من يوم موسى وكل أنبياء بني إسرائيل: ما يرد السحر إلا السحر، وما يقدر على الساحر إلا ساحر أقوى منه، وما لنا هالحين إلا العجرمي، فإذا ما جاء هو وحيّاته من عين دامة، ترى أبو منصور مخوطر، وما ينعرف شنهو اللي يصير!

وفي سوق التجار، وفي الحارات والأزقة، وبين الحرس والخدم، ظلت القصص تتزايد وتتناقض حول سفرة السلطان: أتطول أم تقصر؟ وهل حدث شيء لا يعرفونه؟ وهل أن السحر الذي تهمس به الألسن هو ما دفع السلطان إلى السفر أم أن هناك أشياء أخرى؟

قال ناهي الفرحان لطالع:

- ترى يا أبو جازي سفرة طويل العمر، هذي المرة، ما تعجب، والناس يسولفون!

- الناس، يا ناهي، ما عندها غير السوالف.

- لكنهم، هذي المرة، غير شكل.

- أنت بس راقب: إذا ابن البخيت والعجرمي بخير، الدنيا بخير، ولا تسمع غير سوالف، لأن الواحد منهم، بيرَ، ويعرف كل شيء، وغير هذا لا تصدق.

- إذا على هذول تبني آمالك فالعجرمي بعده بعين دامة، وابن البخيت كل يوم يفتر بالسوق، ولسانه ما يفوت حلقه: سوالف وأخبار، وما يهدا ولا يترك أحد من شره، وبعدها ما يندري: قمحة أم شعيرة؟

- خلنا نشوف يا ابن الحلال، وعسى ولعل، ومثل ما قالوا: اللهم حسن الختام.

... وطالت غيبة السلطان؛ ومن جديد اضطرب قصر الروض. راكان الذي شعر بالثقة والقوة، خلال الفترة الأولى، وتصور أنه سيد القصر، ويستطيع أن يفرض ما يريد، اكتشف، بمرور الوقت، أن الأمور أخذت تفلت منه أو تتحداه. إذ بالإضافة إلى معارضة عدد من الأخوة، وجميع نساء السلطان، فقد قلّ المال بين يديه فاضطربت الخطط، وأصبحت الوعود والآمال التي منّى بها الكثيرين، لاسترضائهم أو لكسبهم، مثاراً للسخرية والتعليقات. أما الصمت أو التجاهل الذي ظهر واضحاً على الكثيرين من الخدم والحرس والموظفين، فقد ساهم في زيادة توقعات ومخاوف غيرهم، فبدا وكأن يداً خفية تدبر كل شيء. صحيح أن الأمور لم تأخذ هذا الشكل الحاد أو العلني منذ البداية، لكن غياب الأخوة الكبار، ثم عدم امتثالهم لما يريد راكان، وقد ترافق ذلك مع تعليقات الاستهزاء الأقرب إلى الإهانة، شجع الصغار والكبار ودفعهم لإظهار عواطفهم، ثم المساهمة في خلق جو مشحون بالقلق والخوف والانتظار.

بدأت المواجهة بتحريض العبيد والخصيان، وهؤلاء لا يحتاجون إلى الكثير لكي يجندوا أنفسهم، ثم لكي يبالغوا فيما طلب منهم، وأخيراً ليفعلوا ما يرونه ضرورياً ومناسباً. ترافق ذلك مع التعديات والتحرش والتحدي، ثم إفساد جميع الترتيبات والصيغ التي أرادها راكان للقصر في المرحلة الجديدة.

ونساء السلطان، ثم الخدم والمربيات والمرضعات، والمئات غيرهن المقيمات في القصر، لم ينتظرن الإذن، أو كلمات التحريض لكي يشتركن في المعركة، إذ كانت معاركهن قد بدأت منذ وقت مبكر، أو على التحديد

منذ الأيام الأولى لسفر السلطان، وإن أخذت شكل الإشاعات والقصص، ثم المؤامرات الصغيرة، بحيث تحول القصر خلال فترة قصيرة إلى خليّة من الدوي والاضطراب لم يعرف لها مثيلاً في أي وقت سابق. وكانت معظم الإشاعات والأخبار تتناول فضة وراكان، فإذا قلّت الأسباب لخصومات جديدة، أو لم تعد كافية لإشعال القصر، فلا بد من إيقاظ الخصومات القديمة، والتذكير بالإساءات من أجل التحريض والزج بكل الخصوم.

وأخيراً جاءت تحديات موظفي القصر ورجال السلطان.

فبعد أسابيع من الهدوء المريب، والتحضيرات الخفية، إضافة إلى اتخاذ عدد من الخطوات لمواجهة أي رد فعل، امتلأ قصر الروض بالفوضى.

أصبح لكل أخ من الأخوة، وحسب الأمهات، حرسه الخاص، بعد أن تم الاستيلاء على أعداد متزايدة من خيول السلطان، سواء بالحيلة والمكر، أو بالقوة؛ وبعد أن تم أيضاً فتح مخازن السلاح، ووضع اليد على كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة.

أما مباريات الرماية والفروسية، والتي تعوّد عليها القصر منذ وقت مبكر، وكانت للرياضة أو للتفاخر، وقد تصل إلى المراهنات في بعض الحالات، فقد أصبحت في المرحلة الجديدة استعراضاً للقوة، ثم تأكيداً للأهمية والاستقلال، إلى أن تحولت إلى المشاحنات والتحدي، ولم تبق إلا الخطوة الأخيرة لتصل إلى المجابهة.

موران لم تتوقف عن التساؤل بفضول، ثم بخوف، عن غياب السلطان. كانت تفسيراتها تتغير حول أسباب هذا الغياب، نتيجة التقدير، أو الأخبار التي تصلها، وتبعاً للرياح التي تهب من هنا وهناك حاملة معها المسافرين من الأماكن البعيدة، وما يرافقهم من القصص الغريبة التي سمعوها في محطات الطريق. كانت هذه القصص تشغل موران، فتقلق وتتحسب، لكن لا تلبث أخبار قصر الروض أن تطغى على كل ما عداها. حتى المسافرون الذين غابوا فترات طويلة، ونظروا إلى قصص موران

باستخفاف رافقه الاستغراب أن الناس انشغلوا بهذه الأمور الصغيرة، ما لبثوا هم أن تغيروا أيضاً، إذ أخذوا يسمعون باهتمام، ويتساءلون، ثم بدأوا يشاركون، مع ما يرافق ذلك من الأخطاء والتحريفات في رواية القصص، أو في تسمية «أبطالها» أو من هم وراءها.

أما السلطان فقد تعود أن يبعث برسول أو اثنين كل أسبوع إلى موران، لكي ينقل الأوامر والرغبات، أو ليطلب موافاته ببعض الحاجات، وبالأخبار والرسائل التي تصل، أو ليطلب التحاق عدد من «الربع»، وغالباً ما تكون التسمية دقيقة، والطلب محدداً بالاسم، بحيث ان الرسول يقابل، أول الأمر، ابن العليان، ثم طالع العريفان، ويقابل من يسميهم له السلطان، وفيما بقي من وقت قد يقابل أيضاً عدداً من الأمراء، أو بعض نساء السلطان، لكن دون أن تعني المقابلات الأخيرة شيئاً، ودائماً بناء لطلبهم وإلحاحهم.

ما لفت نظر الكثيرين، في هذه الفترة، أن الرسل يرفضون حمل أية رسائل بعودتهم، عدا المكلفين بها، مما اضطر أغلب الذين يريدون موافاة السلطان بالرسائل والأخبار إلى البحث عن أشخاص أو وسائل تمكنهم من ذلك. وقد أدى الأمر إلى أن يتكاثر الرسل والرسائل لدرجة أثارت السلطان وجعلته شديد الحنق. فالرسل الذين يُهيأون جيداً في قصر الروض ويشحنون بالعواطف والأخبار، لا يلبثون أن ينسوا أو يترددوا حالما يصلون إلى حيث يكون السلطان، أو حين يسألهم. أما الرسائل المكتوبة التي ترسل معهم فقد كانت تثير السخرية والضحك، إذ لا تتعدى بضعة أبيات من الشعر، أو توسلات ورجاء أن يعود، وبسرعة. المرات القليلة التي كانت الرسائل أوضح، وغالباً ما تتعلق بشكوى ضد راكان، فقد سمع الكثيرون السلطان يقول بغضب:

ـ إذا الرجّال وقع بين الحريمات والعجيان أكلوه مثل ما العقارب تاكل كبارها، وإذا خلصنا من العجيان، وقلنا لهم انّشبوا واسكتوا، فأمهاتهم يأكلن القلب مثل ما أنثى العنكبوت تأكل الذكر، وتعال اخلص.

ويفتل يده بغيظ وسخرية ويقول بلهجة جديدة:

ـ وأحسن شي أن الواحد يبعد، لأنه إذا أبعد بلشوا بأرواحهم!

لم يكن من الصعب أن تبقى الأمور في القصر تراوح هكذا، فهي، بالنتيجة، خصومات وخلافات تعوّد عليها منذ وقت طويل، وكانت تهب وتتزايد، أو تتراجع، تبعاً لقرب السلطان ومزاجه، وتبعاً لاعتبارات متعلقة بموران المدينة والناس.

لكن حين جرح مجلّي، أحد عبيد السلطان المقربين، أثناء مسابقة رماية، واقترح الدكتور رأفت شيخ الصاغة، ضرورة نقله إلى موران، وبعد أن قضى في المستشفى أسبوعين، وبدا أنه تماثل للشفاء، وبدل أن يلتحق بالسلطان، فقد بقي في قصر الروض.

ومنذ ذلك الوقت أخذت الأمور مجرى جديداً.

أما التاريخ الذي طلب فيه السلطان أن ترسل إليه فرسة الكحلة، وكان قد استولى عليها راكان، هل كان أثناء وجود مجلّي في المستشفى أم بعد أن خرج منه، فإن الأمور غير واضحة بدقة، لكن ما حصل أن الفرس لم تُرسل، رغم أن الرسول بقي في انتظارها ثلاثة أيام، وكان يبلّغ كل يوم أنها ستصل. وحين عاد الرسول، ولم تعد الكحلة، فقد استاء السلطان. وبعث برسول آخر يطلبها، ولم ترسل أيضاً. أما الرسول الثالث فقد أبلغ أن الكحلة نفقت.

شمران العتيبي الذي يعتبر أن خيول موران كلها خيوله الخاصة، ولا يسمح بأن تُمسّ أو تساء معاملتها، وحين عرف أن الكحلة قضت أثناء رهان بين راكان وأخيه مقرن، وكان اثنان من العبيد يتباريان على فرسين، أيهما يستطيع أن يطلق ويصيب هدفاً من تحت فرس الآخر، وكانت الكحلة هي ضحية هذا الرهان، فقد ظل شمران مرابطاً ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ في سوق الحلال، وكان خلال هذه المدة صامتاً، حزيناً، غاضباً، ولا يفعل شيئاً سوى إيقاد نار كبيرة، تعبيراً عن الحزن والغضب لغياب الكحلة. أولاً لأنه الذي باعها للسلطان، وثانياً لأن فرساً مثل الكحلة لا يمكن أن تذهب هدراً هكذا.

أما بعد أن انتهت الأيام والليالي الثلاثة، فقد دوى صوته في سوق الحلال:

ـ خيلنا وحريمنا صارن للعب. . .

يتلفت إلى الذين حوله بلوعة، ثم يتابع:

ـ وتعرفون، يا جماعة الخير، إذا الواحد لعب بالنعمة، بما حرمه الله، تراها الدنيا بآخرها، مصبحة مسيّة:

ويضرب على ساقه بقوة:

ـ آه ثم آه، على اللي يرجّع الكحلة ويأخذ ولد من أولادي. آه ثم آه على اللي يراويني لمعة عينها ويأخذ نور عيني. وآخ ثم آخ على من يقدر يعيش بهذي الأيام الكشرة!

وحين يخيم الصمت، وتمتلئ القلوب بالحزن، نتيجة حزنه، يهدر صوته متسائلاً:

ـ الدنيا صارت لعب كعاب؟ الأولاد صاروا يحكمون ويرسمون؟ وحنا، حنا رجال موران، صرنا سوالف وأخبار؟

وفي فترة مقاربة، يوم وصول مجلي أو بعد وصوله ببضعة أيام، وبالتأكيد قبل مقتل الكحلة، ربما بأسبوعين كاملين، غابت الشيخة فجأة. وغابت تهاني. وإذا كانت العادة أن لا يعرف أحد بدقة مكان الشيخة، فمن المؤكد أن لا أحد يعرف كيف تفكر أو ماذا تدبر وماذا تريد ونساء السلطان اللواتي تعودن أن يعرفن، بوسائلهن الخاصة، شيئاً من أخبارها، عن طريق رشوة الخدم، أو بإظهار فيض من العواطف المفاجئة، على شكل أطباق من الحلوى ترسل إلى جناحها، أو كميات من التمر الجيد أو الصابون الذي تفضله، بهدف التأكد من وجودها، أو معرفة ما يدور حولها، فهذه المرة لم يستطع أحد أن يصل إلى قناعة أو نتيجة يطمئن إليها. لأن كل من سئل لم يجب إجابة واضحة، ثم اختلطت الإجابات بالرغبات والتوقعات، ومما زاد في تعقيد الأمور أكثر أن حسيبة البصرية، التي كانت تصنع الشاي للشيخة، كانت تجيب كل من يسألها أن «الشيخة شربت الشاي من يدي

هذا الصباح». وإذا أرادت أن تمكر أكثر تستأذن لأنها بعد قليل ستهيئ الشاي، «فهذا هو الوقت الذي تفضله الشيخة للشاي».

إن غياب أمي زهوة، أو توهم غيابها، له علاقة مؤكدة بالتغير الذي حصل. ومما عزّز هذه القناعة ما قيل عن استدعائها لراكان حين طلب من سكينة أن تخلي الجناح التي تسكنه، فكان الجواب الذي قاله لسرور لما طلب منه الحضور:

ـ . . . وتسلم عليها وتقول: هالحين يصل، وإذا ما هو على رجليه، على رأسه!

وضرب ثلاث مرات على رأسه، دلالة الامتثال والسخرية. والشيخة التي انتظرت وانتظرت، وحين بعثت بسرور مرة أخرى، قيل له ان راكان ذهب إلى البادية، ولن يعود قبل ثلاثة أو أربعة أيام، وأُبلغ سرور أيضاً، وبطريقة لا تخلو من تحدٍ، أن من الأفضل أن ترفع الشيخة يدها، وأن لا تتدخل، إذ ان ضرورات الأمن والسلامة فوق كل اعتبار!

الشيخة التي أبلغت بكل هذه التفاصيل، صمتت، لكن تولت تهاني الكلام نيابة عنها.

قالت تهاني لموزة:

ـ وتقولين لعمتك: هذا قصر أبو منصور، وأبو منصور بعده حيّ، وبعد قوي.

قالت الكلمة الأخيرة بطريقة خاصة تماماً، ويمكن أن تفهم منها عدة معاني معاً. وأكد عدد من الخدم أن الشيخة لازمت جناحها لم تتركه، ثم بعد ذلك غاب أثرها، فلا يعرف ما إذا كانت لا تزال موجودة أم غادرت، وإن دلت الوقائع، أو معظمها، على سفرها. وبعد أيام أصبح التساؤل هل أن هذا الغياب في موران ذاتها، أم غادرت إلى حيث تعودت أن تذهب خلال فصل الشتاء؟ وجاء من قال إنها واصلت رحلتها إلى حيث يقيم السلطان.

وعبد الله البخيت أيضاً ليس بعيداً عما جرى. إذ بعد أن أكد عدد من الذين يعرفون أن السلطان طلب منه البقاء في موران، وأن هذا الطلب

نتيجة الضرورة القصوى، ليكون عينه وأذنه، ولئلا يحصل مثلما حصل في مرة سابقة، خاصة أثناء حملة العوالي، فقد أكد آخرون أن البخيت سيسافر ويلتحق بالسلطان بين يوم وآخر. وأكد غير هؤلاء أن بقاء ابن البخيت في موران دليل لا يقبل الشك أن عودة السلطان متوقعة اليوم أو غداً، وهذا ما جعل عبد الله يبقى، لأن أياً من الاثنين لا يقوى على فراق الآخر!

عثمان العليان لديه من المشاكل والهموم ما يجعله بعيداً، أو غير مستعد لأن يخوض مع الآخرين في موضوعات القصر، والخلافات التي تنشب فيه، رغم قناعة الكثيرين أنه الوحيد الذي يقرر كل شيء، وأن رأيه وحده الذي يمكن أن يفرض، دون قدرة على المناقشة أو الاعتراض. وهذه القناعة نتيجة علاقاته الخاصة مع السلطان، أولاً، ولأنه الذي يملك «الدهن»، كما كان يقول ابن البخيت مازحاً، إشارة إلى أنه يملك المال.

وإذا كانت عادة ابن العليان أن يبدو مرحاً محباً للحديث، ولا يخلو من سخرية، فإنه يصبح إنساناً آخر حين يطلب منه المال. فجأة تتغير ملامحه وتصرفاته. وفجأة يختفي الإنسان الذي كانه، ليولد آخر مكانه، وهذا الجديد لا يعرف الابتسامة، ولا يعرف الصداقة، إلا بمقدار «الشرع»، وهو يحب هذه الكلمة، ويعتبرها سيفاً بينه وبين الآخرين، عدا السلطان. لا يتعب من المساومة، وفي عصر أية مطالبة، فإذا اقتنع، أو رأى ضرورة، فإنه لا يتردد في الأمر بالصرف، عكس غيره من المحاسبين.

قيل ان راكان اصطدم، أول ما اصطدم، بعثمان العليان. كان السلطان يطلب، أو يبعث بورقة صغيرة عليها خاتمه، وعثمان العليان يمهرها بتوقيعه، مع كلمة صغيرة: «تصرف». جرب راكان الوسيلتين معاً: أن يطلب من عثمان العليان، وأن يبعث إليه بالأوراق، ولم يتأخر عثمان لكي يضع حداً: فحين طلب منه صرف مبالغ من أجل إنشاء الحرس وشراء الأسلحة، كان رده مختصراً: «قدّم لنا القوائم، وبعدها نشوف شنهو اللي الله يقدرنا عليه»! ولما بعث إليه بأوراق عليها خاتم القصر وتوقيعه، قال ساخراً لعبد الله البخيت:

ـ سبحان الله، يا عبد الله: أولاد الملوك يصيرون ملوك قبل آبائهم؛ مستعجلين والأرض ما تحملهم!

وحين ظهر التساؤل، وعدم الفهم، على وجه ابن البخيت، أضاف موضحاً بسخرية:

ـ ابن فضة صار وتصور! يظن أن ختم القصر، وتوقيعه، اللي طوله طول حية، مثل عصاة موسى، يسوي كل شيء، لكن يخسا.

ابتسم ابن البخيت، وقال:

ـ عجيان، الله يسلمك، ويلزم تأخذهم على قدر عقولهم!

ـ العجي تضحك بوجهه، تربرب على كتفه، تقول له: عفارم، أما أن يقول: اصرفوا لأمر فلان، فهذا حدنا وياه، تقول له: دوك التعريفة، أشربيها قصب المصّ، وما عليك بغيرها.

ـ لا تروح بعيد يا أبو عزيز، خلك خد وعين، لأن هذي دنيا وما تعرف شنهو اللي يصير بيها. . . وضحك، وخرجت الكلمات متداخلة:

ـ وهذا، بالأول والتالي، ابن فضة، وأنت تعرف منزلتها عنده!

ـ خلنا يا عبد الله، من هذي السوالف.

هز عبد الله البخيت رأسه وهو يبتسم، وقال كأنه يخاطب نفسه:

ـ ظني ما له غنى عنها. رابطته. ومهما راح لا بد يرجع لها، وبقلبها تقول مثل ما قال صاحبنا القديم: أيتها السحابة اذهبي أنّا شئتي فإن خراجك راجع إليّ، فأخاف يروح يوم ويجي الثاني وننكس على روسنا يا أبو عزيز، ونضيّع الدنيا والآخرة. وترنم:

يستغفر الناس بأيديهم وهن يستغفرن بالأرجل

ـ لا تخف يا رجّال، مثلها آلاف!

ـ زين. . . زين يا أبو عزيز، بس هذي دنيا وما ينحزر عليها!

ـ وكّل الله يا عبد الله، وهالحين همّ العود أكبر من همّ العجيان، فخلنا نستغفر رب العالمين ونشوف شلون ندبر روسنا. . .

وبعد قليل وبقلق:

ـ وأنا، خوفي، يا عبد الله، من خوّيك، هذا اللي سولفت لي عنّه، مشرف البكيري، فيلزم نفّك رباطه ونلعن والد والديه، وكل ما عداه سوالف ليل!

ـ اللي تقوله يا أبو عزيز، وما لي إلا أسرى عليه، أو نسري جميع، ومني كلمة ومنك كلمة وعسى أن الله يفرجها.

طالع العريفان كان الضحية، خلال الأسابيع الأولى، بل خلال الشهرين الأولين، لغياب السلطان، إذ حاول راكان إرهابه، وحمله على أن ينفذ كل ما يريد، وطالع استجاب وحاول كل جهده، لتجنب الشر، ولرغبة في أن تسير الأمور بأقل ما ينبغي من الإزعاجات، لكنه لم يتوقع أن تطول غيبة السلطان هكذا، ولا يعرف أيضاً متى يعود، ولذلك استيقظ فيه، يوماً بعد آخر، الشعور الحاد بالرفض والتحدي. وقد ترافق ذلك مع التغيرات التي طرأت على قصر الروض، إذ ما كاد يكتشف تمرد الأخوة، ويتأكد من صلابة ابن العليان، حتى أصبح أكثر الناس حزماً وعناداً. وراكان الذي افترض أنه قادر على ترويضه، أو يمكن تجاوزه، اكتشف أن لا شيء في القصر يمكن أن يمر دون موافقته، فهو يعرف الرجال، يعرف كيف يتعامل معهم، وكيف يحملهم على طاعته، كما أنهم يفهمون عليه بأقل الكلمات، وبعض الأحيان بمجرد الإشارة. ورغم التعليمات العديدة التي أصدرها راكان، إضافة إلى الأوامر المشددة، وتكون الإجابة عليها غالباً هزات الرؤوس بالموافقة، إلا أن لا شيء يتم، أو يسير بشكل طبيعي، الأمر الذي اضطره مرة بعد أخرى إلى الرجوع لطالع العريفان والاستعانة به، وما يرافق ذلك من محاولات استرضائه وسماع رأيه.

وطالع الذي بدا، خلال الفترة الأولى، منكسراً، أقرب إلى الحزن والحيرة، لا يعرف كيف يواجه هذه الصعوبات، أو كيف يتعامل مع سادة القصر الجدد، وكان يحس بنظرات ناهي المليئة بالتشفي والسخرية، فقد أصبح خلال الفترة الأخيرة أكثر حيوية واستعداداً للمقاومة. قال له ناهي، ذات ليلة، بعد أن غادرت الشيخة:

- شلون تريدنا نحمل، يا أبو جازي، إذ الجمال هجّت والجبال ارتجّت؟

وحين التفت طالع وتساءلت عيناه، تابع:

- الشيوخ شيّلوا، وآخرهم الشيخة، يا ابو جازي، فإلى متى تريدنا نصبر ونحمل؟

رد طالع بحزن مشوب بالأسف:

- إذا عاد العود، وحال الحول، يا ناهي، ما أظلّ لو يرتمي وردهن على رجليّ حجول.

- من هو اللي يقول الشعر هالحين، أنا أم أنت يا أبو جازي؟

ولم يتوقف إلا قليلاً، ليضيف بنبرة ساخرة وهو يعني راكان:

- له هدّة ما قيل أبا زيد هدها ولا عنتر المشهور ما قيل نالها

- وعيب على مثلي إن هد ينثني إن شاف نيران الحرب كبار

وقال ناهي وهو يضحك:

- يا ما ذكرته إن كثرت نوايبي والكبد كنه على كير يهاج بها

وضحك طالع العريفان بحزن، اسيان، وقال:

- اسمع يا ناهي، ومن قبل قالوا:

يا طالبين الحكم مهلاً ترفقوا رويداً ترى قضب النجوم عسار

وبعد أن صمتا، وتذكرا، وامتلآ بأحاسيس كثيرة متناقضة، وكانا متأكدين أيضاً أنهما لا يستطيعان أن يتركا في هذه الفترة، وقبل عودة السلطان، فقد قال طالع العريفان، وخرج صوته مديداً، وكأنه آتٍ من بعيد:

- ما لنا، يا ناهي، إلا نومة أهل الكهف: لا عين شافت ولا قلب يحزن، إلى أن يبدل الله حالاً بحال.

رد ناهي، وكان صوته بعيداً أيضاً، كأنه خارج من مغارة:

- مشينا خطا كتبت علينا ومن كتبت عليه خطا مشاها

ومن كانت منيّته بأرض فليس يموت في أرض سواها

لم يكن الاثنان بحاجة لمن يعلمهما كيف يقاومان أو كيف يحرضان الآخرين. إذ لم تمض فترة، ونتيجة لاتفاق ضمني، ترك بموجبه طالع العريفان لمساعده أن يتصرف، أن يفعل ما يراه ضرورياً، حتى امتلأ جو القصر بالصمت، فإذا تجاوزه فإلى تلك الابتسامات الصغيرة المتحفظة، رداً على أي طلب. أما مسألة التنفيذ، أما مسألة الفهم والاستجابة، فإن كل واحد من الرجال الذين يعملون معهما كان يفهمها بالطريقة التي تروقه. وناهي الفنان، لم يقل، مرة واحدة، كلمة لا، حين يطلب راكان أو أحد رجاله. كان يبدي تفهمه الكامل، وبعض الأحيان حماسته، لكن لا ينفذ إلا ما يريد، ما يراه ضرورياً.

إنها الحرب الحقيقية، رغم الصمت والدماثة، والمليئة بالابتسامات.

قال طالع بعد ثلاثة أسابيع من الشعر والاتفاق:

ـ تراك، يا ناهي، مخبا بثيابك!

ـ عساني ما أخطيت، الله يسلمك، وسويت اللي ما يتسوى؟

ـ المهم، يا ناهي، نعلّمهم شنهو اللي يقدرون عليه بليانا.

ـ هذي خلها عليّ، يا أبو جازي، ونم مرتاح، وابن فضة عجي، كلمة تأخذه، وكلمة ترده. قل له تؤمر، وسوي اللي تريده!

ـ بس احرص يا ناهي، ترى أخواله عيونهم حمرا، وأشوفهم يلوبون.

رد ناهي الفرحان بصخب:

ـ أنت حط بظهر ابن العليان، وابن العليان ظهره قوي ويحمل، وطويل العمر ما يرد كلمته، وخلي الكبار يتبالشون، وحنا نتفرج.

كان المال الحائط الذي اصطدم به راكان، واحتج به طالع العريفان، وأمور القصر دون المال متعثرة، مرتبكة، وعرضة لتقلبات ليس لها نهاية. وعثمان العليان الذي كانت له تجربة قاسية مع خزعل، وقد تعلم منها الكثير، فضل أن يعطي بمقدار، وأن يوازن أموراً كثيرة، فالمصروفات المقررة للنساء ولأولاد السلطان يصرفها دون ضجة وبمواعيدها، فإذا أراد أن يزيد، أن ينوّع، لكي يكسر هيبة راكان، فكان يفعل ذلك بكثير من

الحذر وبسرية مطلقة، ويوصي من يعطيه أنه يفعل ذلك بناء لأوامر السلطان، ولمرة واحدة فقط. لقد كان ضد العادة، وضد أن تصبح العطايا واجباً إلزامياً. حتى ما صرفه لراكان، فوق ما يستحقه، لم يدفعه هكذا، ولم يفعل إلا بعد انتظار. وهذه الحالة خلقت جواً من القلق ومن الارتباط به. وقد استند إليها طالع العريفان واعتبرها حجة كافية لكي يؤجل تنفيذ الكثير من الطلبات، وبدا أن الرجلين، يفهمان على بعضهما، أو أنهما متفقان.

وخصومات النساء لا تقل عن خصومات الرجال. صحيح أنها اتخذت، في المرحلة الأولى، شكل الإشاعات والمؤامرات الصغيرة، إضافة إلى التحريض، ولم يتجاوز ذلك، خشية أن يتصرف راكان بطريقة قاسية، كما تصرف تجاه بعض النساء، خلال الفترة الأولى، خاصة وأن السلطان لم يستجب للرسائل التي بُعثت إليه، ولم يكلف نفسه عناء الرد، حتى بكلمات قليلة، مع الذين حملوا تلك الرسائل. الآن وقد تغيرت الظروف، وبدأت تصل إلى الجناح الغربي أخبار الرجال، وكلمات الاستهزاء التي تنال راكان، ثم ما نقله الخصيان والعبيد، فقد اختلفت الأمور كثيراً عن السابق.

العنود التي عادت، ولا يعرف إن كانت عودتها نتيجة تقديرها أن السلطان لا يمكن أن يغيب أكثر مما فعل، ولا بد أن يعود، أو نتيجة الرسالة التي وصلتها من قصر الروض، حول ما جرى.

كانت عودة العنود صاخبة مليئة بالتحدي. فالجناح الذي كان لها، والذي هدمت الجدران التي تفصله عن جناح فضة، عادت إليه. وضعت نفسها وأولادها، وحولهم الخدم والحرس، وأيضاً ما وجدته من أثاث، أو ما حصلت عليه، وقد ساعدها طالع العريفان، في نفس الحجرات التي كانت لها، أو ما تعتبره جناحها. وفضة وراكان اللذان قاوما بحدة وخشونة، ما لبثا أن وقعا في حيرة كبيرة، خاصة وأن العنود كانت من الحدة والعناد إلى درجة تحدّت الاثنين، وجمعت حولها الكثيرين. ورغم المحاولات والجهود التي بذلت لتسوية الأمر، بتقديم اقتراحات بديلة، كأن

تنتقل العنود إلى جناح جديد، أو أن تنتظر عودة السلطان، فإنها رفضت كل العروض.

ما كانت تستقر، وبعد بضعة أيام، وبمساعدة الكثيرين في القصر، حتى أعادت بناء الجدران، وأعادت الأمور إلى ما كانت عليه.

هذه الضربة، زعزعت راكان، وجعلت فضة في حالة عصبية لم يشهدها أحد هكذا من قبل.

لم تكتف العنود بذلك، فقد بدأت تطالب أن تعود لها أشياؤها التي كانت في الجناح. كانت تريدها بالذات، ولا تريد بديلاً عنها، حتى لو كان أفضل منها.

صحيح أن راكان بعث عدداً من حرسه لخلق مضايقات كثيرة للعنود، وللتحرش بعبيدها وعدد من أقربائها، لكن انتهى الأمر بأن بعث بطالع العريفان لكي يسترضيها، أو يحاول شراء سكوتها. وبعد الكثير من الجهد والوقت، أمكن الوصول إلى صيغة اعتبرت مقبولة مؤقتاً: وهي أن تفتح لها مخازن القصر لتختار ما تريد بدلاً عن الأثاث الذي احترق أو الذي غرق، كما قال طالع، في محاولة لإقناعها.

هذه الخطوة لم تترك أحداً يسكت أو ينتظر. كانت سابقة شجّعت الجميع، وهزت قصر الروض، وجعلت راكان وأمه يتبادلان اللوم والعتاب، وفي تحميل كل منها الآخر مسؤولية هذه الأخطاء.

في يوم من أواخر أيام الشتاء، وصل مهيوب فجأة إلى القصر.

وصل عند الضحى، وفي ساحة القصر الأمامية، كان ثلاثة من خدم وطفة يجلدون، بناء لأمر من راكان. الذين رأوا مهيوب يصل القصر، في سيارة سوداء، ظنوا أول الأمر أن السلطان هو الذي وصل. أما حين ترجّل واتجه فوراً إلى الساحة، وصرخ، بحدة، طالباً وقف الجلد، ثم تناول بنفسه خيزرانة وضرب بها أحد رجال راكان، فقد توقع الكثيرون أن القصر سوف ينقلب رأساً، لأن أحداً لا يجرؤ، غير السلطان، على التصرف بهذا الشكل، خاصة وأن عدداً من رجال راكان تراكضوا ليبلغوه. الذين كانوا مع

راكان، وحين بلغه وصول مهيوب، ثم ما فعله، نقلوا أن حالة من الخوف سيطرت عليه، جعلته صامتاً لفترة غير قصيرة، ثم بدأ يتصبب منه العرق، وحين أراد أن يتكلم قال كلمات مرتبكة غير مفهومة. أما بعد ذلك، وحين فُتح الديوان، وجلس مهيوب في الغرفة الأمامية المطلة على المجلس، ثم بعث أحد رجاله يبلغ راكان بضرورة المجيء، ليتلقى رسالة من السلطان، قد بدا واضحاً أن الرجلين إذا تقابلا، وهما في هذه الحالة من الانفعال، لا بد أن يقتل أحدهما الآخر.

لا يُعرف من أشار على راكان أن يصمت، ثم أن يعتكف في جناحه بالقصر. ولا يُدرى أيضاً لماذا لم يلحّ مهيوب على ضرورة حضوره. فالزمن الذي انقضى بين الوصول واللقاء، جعل الكثيرين يتحركون بين الاثنين، ويتدبرون الكثير من الأمور وسوء التفاهم، وبالتالي احتمال الصدام. وحين حصل اللقاء عصر اليوم التالي، وقد حضره العم ضاري، وابن العريفان، وعدد من الأمراء، إضافة إلى ثلاثة من أقرباء راكان من ناحية الأم، فقد بدا هذا اللقاء شكلياً، ولا يتعدى قراءة رسالة السلطان القصيرة، والتي تطلب من راكان أن يوافيه إلى العوالي؛ ولم تخل الرسالة من الجفاف وعبارات غامضة فهمت وفسرت بأشكال مختلفة.

العم ضاري، أكبر أفراد العائلة، والذي حضر الاجتماع، لم يكن في عمر أو حالة صحية تمكنه من المشاركة، أو حتى إبداء الرأي، فقد تراجع نظره، وخف سمعه، وأصبح يقاد إلى المكان الذي يجب أن يذهب إليه. أما الآخرون الذين حضروا الاجتماع، فقد ظلوا صامتين أيضاً، لأنهم فرحوا بقرار السلطان، وكانوا يريدون نهاية لهذا الذي حصل في القصر. حتى رجال راكان لم يستطيعوا أن يقولوا إلا بضع كلمات، وكلها تتعلق بتوضيح بعض المسائل التي حصلت، خاصة موت الكحلة، ثم التساؤل عن الموعد الذي يجب أن يكون فيه راكان في العوالي، وما إذا يحتمل الموقف تأجيل السفر إلى أواسط الربيع. قال مهيوب ليحسم الموقف:

ـ . . . وطويل العمر طلب مني أبات ليلة وأرجع الليلة الثانية، ويلزم يكون أمره تنفذ، وما أحد يعاوده، ولو بكلمة.

وحين بدا الضيق على وجه راكان، أضاف مهيوب:

ـ وإذا تلاقت العيون، وقال كل واحد اللي بقلبه، يصير خير!

وبعد الكثير من الجهد أمكن تأجيل السفر إلى ظهر اليوم التالي، وبدا لكل من سمع أو عرف أن قصر الروض، وربما موران، أو حتى السلطنة الهديبية كلها، تبدأ عهداً مختلفاً.

شمران العتيبي الذي بلغته الأخبار، وكان يستعد للسفر إلى الزرنوق، لكي يبقى هناك فترة يستريح خلالها، ويعيد التفكير، ليقرر بعد ذلك هل يعود إلى موران أم لا يعود، قال أمام عدد من أصدقائه:

ـ والحر إذا شاف الجفا عاف، يا جماعة الخير، وأنا كبدي ورم، وما أحمل، فخلني أغيب هالحين، فإذا جاء الصفري الله كريم.

رغم محاولات التكتم والنفي، ورغم الاحتفال الرصين الذي جرى للسلطان حين عاد إلى موران، لم يتوقف الناس عن الهمس، أو حتى الحديث العلني الصريح، حول محاولة الاغتيال التي تعرّض لها جلالته في أحد مساجد العوالي. كادت المحاولة تقضي عليه، لولا خزعل الذي ارتمى فوقه، وحال بينه وبين القتلة. أما الجروح التي أصابته، وأصابت خزعل، فلم يستطع أحد أن يحدد عددها أو طبيعتها، إذ جاءت الأخبار متناقضة إلى أقصى حد، وزادها غموضاً أن السلطان لم يغادر سيارته أثناء استعراض الجنود في الاحتفال. صحيح أن الاحتفال كان قصيراً، لكنه كان وقوراً ـ أما استقباله للوجهاء والشيوخ، بعد ثلاثة أيام من وصوله، وما دار من أحاديث أثناء الاستقبال، أو ما نقله الذين حضروا، فإن كل إنسان فهمه بالشكل الذي يروق له، وتبعاً لعواطفه أو مواقفه من السلطان، ومما زاد في التناقض والغموض غياب السلطان أو احتجابه بعد ذلك.

موران التي نسيت الحملات العسكرية السابقة، أو انشغلت بالهموم التي جاءت بعدها، نسيت أعداء السلطان السابقين، وبغيابهم غابت أيضاً أسماؤهم وملامحهم. وهذا ما أفسح مجالاً كبيراً لأن يتعدد القتلة بتعدد الأعداء. بل وبلغ الأمر، في بعض المجالس، أن سُمّي أعداء لم يسمع بهم أحد من قبل. ولتأكيد مثل هذا الافتراض ذكر الذين تبنّوه أحداثاً جرت قبل خمسين أو سبعين سنة، وحاولوا أن يذّكروا المسنين، لكي يستعيدوا وقائع جرت في ذلك التاريخ، لكن الذين أشاروا إلى مثل هذا الاحتمال لم يصروا عليه، ولم يستطع المسنون أن يسعفوهم في تذكر الأحداث

والعداوات التي جرت زمن جد خريبط أو قبل جده.

ولأن الأمور تزداد تناقضاً وتشابكاً، فقد وجد من قال أن المؤامرة من بدايتها إلى نهايتها من داخل الأسرة. إذ بعد أن جرت عدة محاولات في السابق، وأخذت أشكالاً مختلفة، وفشلت، فإن المحاولة الجديدة امتداد لما سبقها، وكأن الذين قاموا بها يريدون أن يقولوا: «حتى لو لم نستطع قتل السلطان، فقد جرحناه، وأمام جميع الناس»، لكي يدللوا على عدائهم له واختلافهم معه.

ولئلا يترك أصحاب هذه الرواية مجالاً للشك يروون قصص الخلافات التي وقعت داخل الأسرة، وكيف أصبح القتل القانون الذي يحكم بين أفرادها، إلى أن تعبوا، فاستراحوا خلال الفترة السابقة، وها هم يعودون إلى نفس القانون من جديد! ولكي يقنعوا أنفسهم، وهم يقنعون الآخرين، يوردون خلافات خريبط مع عمير، ومقتل مشاري قبل سنين، ثم محاولات الاغتيال التي جرت داخل القصر، ولم يتسرب إلا قسم يسير منها، بل وجرت عمليات نفي لها، كما يفعل هذه الأيام.

فإذا اختلطت الوقائع أو تداخلت، أو إذا نُسيت التفاصيل، في مجالس الرجال، فإن لدى نساء موران الكثير ليقلنه، وليقسمن الإيمان الغليظة على صحته، وبلغ الأمر ببعض النساء أن كن شهوداً عليه! وهنا تبدأ مجموعة لا نهاية لها من الوقائع والأسماء، وهي من الدقة والتشابك إلى درجة يضيع فيها أي رجل، لكن غالباً ما تنتهي مثل هذه الروايات عند مجموعة من أسماء زوجات السلطان، وعدد من أبنائه.

أما لماذا تصدى خزعل للذين حاولوا اغتيال أبيه، ولماذا لم يتصد فنر؛ ولماذا كان راكان بعيداً في زاوية المسجد، وقيل أنه غادر فور وقوع المحاولة، ولم يعد إلا بعد أن ذهب اثنان من أخواله وجاءوا به؛ ولماذا اختار رأفت شيخ الصاغة ذلك اليوم بالذات ليمرض فيه، ولا يشارك السلطان الصلاة في المسجد، وبالتالي ليحاول إسعافه في الوقت المناسب، بدل أن يُترك فترة طويلة ينزف، وينهكه ذلك النزيف؛ ولماذا يقتل فوراً الذين قاموا بالمحاولة، بدلاً من إلقاء القبض عليهم ومعرفة الذين وراءهم،

فإن مثل هذه الأسئلة، وغيرها أكثر منها، ظلت تدور من مجلس لآخر، ومن لسان إلى لسان، دون أن تلقى إجابة مقنعة، أو دليلاً ينفيها.

وفي المقاهي والدكاكين، وفي سوق الحلال، وفي مضارب البدو، كان الحديث يدور حول اغتيال السلطان.

وأن يكون الإنسان قريباً من القصر، أو يعرف بعض العاملين فيه، لا يعني، حكماً، أنه يعرف أحسن من غيره أو أكثر من غيره. صحيح أن البدو في المضارب، حين وصلت إليهم الأخبار، بعد أن قطعت مسافات طويلة، وانتظرت فترات أطول في محطات الطريق، وصلت قصيرة، محددة، وأغلب الأحيان تخلو من أية تفاصيل، ولا تتعدى بعض كلمات: «حاولوا ذبح خريبط لكن لا أحد يدري شلون نجا». أمّا بعض الرعاة، وهم يتبادلون الأخبار، عن بعد، وسط الفلاة، فكانت الكلمات أقصر: «ذبحوا العود» وحين لا تفهم الكلمات من هذه المسافات، أو حين تبعثرها الريح، فإن الذي يعرف يبلغ من لم تصله الأخبار بعد بحركة اليد، مع كلمة واحدة: العود ـ خريبط، ويشير بيده إلى الرقبة، دلالة الذبح.

قال شمران العتيبي، حين وصله، إلى الزرنوق، خبر الاغتيال:

ـ إن الله، يا جماعة الخير، يمهل ولا يهمل، فإذا فات هذي النوبة ما أظنه يفلت منها النوبة الثانية، وتشوفون وتسمعون!

صالح الرشدان في سوق الحلال، حين بلغه الخبر، وكان يحذي حماراً، قال، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ هالابن الحرام يلزم يذبحونه ألف مرة.

والتفت قليلاً ليرى أن فهمت كلماته، فلما لمح التساؤل في عيون الذين يتابعونه أضاف:

ـ ما دام نوى، ويعرف أنهم راح يذبحونه بأولها أو بتاليها، فكان يلزم أن خريبط ما يفلت منه. كان يلزم يوكد وين يضرب، وشلون يضرب، حتى ما يخلي واحد مثلي يقول: بومة، والله لا يبارك فيه.

وأخذ يضرب بقوة حذوة الحمار، وكان المسمار الكبير ينزلق بعد كل ضربة، وهو يردد:

ـ هالشكل يكون الضرب. أي نعم، هالشكل، وإلا. . .

في مقهى زيدان، في مقاهي موران الأخرى، وفي دكاكين القصابين بشكل خاص، حين يجري الحديث عن المحاولة، وكيف فشلت، كان الكثيرون يستعملون قبضاتهم، أو السكاكين التي في أيديهم، ليعبروا بشكل ما عن الطريقة التي كان يجب أن تتبع من أجل الوصول إلى النتائج المطلوبة. كانوا يفعلون ذلك دون حقد، وكأن الأمر لا يعني خريبط. إن ما يزعجهم، بالدرجة الأساسية، أن لا يكون الإنسان ماهراً قوياً. كان ذلك يثير حنقهم، ويجعلهم يتكلمون بطريقة غير مألوفة. فليس العيب أن يفشل الإنسان، العيب أن يخطئ، الخطأ غير مسموح به، تماماً كما لو تكلمت المرأة أمام الرجال كلاماً غير لائق. أما أن يفشل الإنسان، كأن ينكشف أمره في اللحظة الأخيرة، أن تستعصي البندقية، ولا تخرج الرصاصة، فإن ذلك خارج عن الإرادة أو الرغبة.

هكذا كان يجري قسم كبير من الأحاديث، رغم أن السلطان مادة هذه الأحاديث! وكان المسنون يطلبون من الشباب أن يحرصوا ويتوازنوا، إذ لا يجب أن تصدر عنهم كلمات أو تصرفات يمكن أن يساء فهمها، أو قد تسبب متاعب مع جماعة السلطان. وكان الرجال يحرّصون النساء، لكنهم، في نفس الوقت، يستمعون إلى ما يقلنه باهتمام بالغ، وإن تظاهروا بغير ذلك، لأنهم يعتبرون ما يجري على ألسنة النساء يعكس ما يفكر فيه الرجال، وإن ترددوا في التعبير عنه، أو إعلانه.

والسلطان. . . أين هو الآن، ولماذا لا يظهر ويبدد كل الشائعات التي تملأ البيوت والأسواق؟

فإذا كانت محاولة الاغتيال قد شغلت موران والعوالي والحويزة، ثم انتقلت إلى ما وراء «الحدود» وأصبحت الأمور أوضح بمقدار البعد عن المركز، وليس القرب منه، فإن ما شغل قصر الروض، وشغل الخدم والعبيد والخصيان والنساء والأطفال في المرحلة الجديدة: احتجاب السلطان.

قال عرفان الهجرس لعثمان العليان برجاء:

ـ . . . وأريدك، طال عمرك، ما دام تشوفه، ويسمع منك، تقول له: البريد، وما أريد بعد هذا أي شي.

أما العجرمي، الذي وصل إلى المسجد قبل السلطان بدقائق، وشهد المحاولة، فكان على ثقة أن الاغتيال لم يكن يستهدف السلطان وحده، وإنما يطال الآخرين أيضاً. وقد أكّد لابن العليان، بعد أسابيع، أنه رأى اثنين عند باب المسجد لم يرتح لهما، وقد نظرا إليه «بعيون شر»، لكنهما لم يقدما على عمل شيء ضده لأنهما يريدان اكتمال الشمل، ولو أن محاولتهم نجحت ضد السلطان، لكان هو الأول بعده.

ابن العليان الذي اعتبر الأمر عارضاً، ويعني السلطان، ولا أحد غيره، حاول أن يخفف أو ينفي احتمال أن يكون غيره مقصوداً، لكنه سمع كلاماً قاسياً:

ـ اسمع يا عثمان، وأريد غيرك يسمع: الناس فسدت، ما هو بس كذا، وفسقت، أي نعم فسقت، صار الواحد، بدل ما يقول: ربي لك الحمد والشكر، صار يتلفت ويقول: منين لفلان، وشلون بس فلان؟ وصار الناس، يا عثمان، لا يصلّون ولا يستغفرون، قتلهم الطمع والحسد، عيونهم مثل الفناجين، وحلوقهم مفتوحة. وما أحد يفتح الله عليه، ويقول له: خذ يا عبدي، حتى تشوفهم يدبون حوله مثل الجراد: منين لك؟ شلون؟ شكثر؟ وتعال اخلص من حلوق الناس، أو ارضيهم.

تنفس بعمق، تنفس أكثر من مرة، وكأنه يحاول تذكر ما يجب أن يقوله، ويواصل ما بدأ فيه، إلى أن تذكر ما اعتبره استمراراً:

ـ وحنا، يا عثمان، اللي نقول: هذا مع الشرع، وهذا اللي يخالف الشرع، والناس، يا عثمان، مع مصالحها، مع اللي يفيدها، وتزعل وتنتفخ، إذا قلت هذا ما يصير، هذا ما يجوز. فالله العليم، بعدما سولفنا مع شيوخ العوالي، وعلمناهم اللي يصير واللي ما يصير، وهم رادوا الشرع يمشي، وهو فوق الصغير والكبير، من كل بدّ ولازم أن جماعة تضرروا، تلفتوا هنا هنا، وقالوا: الشيخ العجرمي.

تنفس بحزن مرة أخرى، وسأل:

ـ فهمت شنو هي السالفة يا عثمان؟

عثمان العليان فهم الأمور بشكل آخر، لكنه لا يروق له النقاش، بعض الأحيان، قال بطريقة مسالمة:

ـ الصحيح اللي تقوله يا شيخنا!

بعد قليل، وبسخرية:

ـ وإيمان أهل العوالي، يا شيخنا، ضعيف ومزعزع، وما هم مثل أهل موران!

الشيخة عادت مع السلطان، بنفس الموكب وبنفس اليوم. وقد بالغ اثنان من خدم فضة، وأكدا أنهما شاهداها أثناء الاحتفال الكبير، خاصة حين مرت الخيول، وسمعا أيضاً زغردة من المكان الذي كانت فيه، ولم يعرف هل أطلقتها هي أم إحدى خادماتها. المهم: أصبحت عودتها مؤكدة، وأصبح وجودها قوياً ومؤثراً، خاصة حين غاب السلطان أو حين احتجب. فقد ذُكر أن السور الذي تعب راكان في إقامته، والذي أدى إلى ترحيل وهيبة وزينة، وثلاث من محظيات السلطان، من أجل تشييده، قد هدم. وصدف أن مرت الشيخة لما بدأ هدم السور، وحين أزيل آخر أثر من آثاره. أما الذين رأوا السلطان ذاته، بعد ذلك بشهور، يزور وهيبة في الجناح الجديد الذي بني لها مكان الجناح الذي هدم من قبل، فقد تأكدوا أن الشيخة، قبل أي إنسان آخر، عرفت كيف تنتقم من راكان. ومما عزّز هذه القناعة أن سرور، زلمة الشيخة، هو الذي تولى نقل الأثاث، والإشراف على الانتقال، ثم الاحتفال الذي حضره السلطان.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فتهاني التي لا يُعرف من يحبها ومن يكرهها في قصر الروض، والتي تُحب أن تعادي دون أسباب واضحة، بالنسبة للآخرين، وربما الأمر ليس كذلك بالنسبة لها، فقد بدت في المرحلة الجديدة كالطاووس، وتجرأت أيضاً على وريدة، الأمر الذي أزعج الشيخة.

فبعد غيابها شهوراً طويلة عن قصر الروض، وعن موران، عادت واثقة متحدية، بل أقرب إلى الاستفزاز. فما لا تحصل عليه من معلومات وأخبار

بأسئلة مباشرة، تلجأ إلى الإغراء أو التهديد. فهي تريد أن تبقى عين الشيخة وأذنها، ولذلك يجب أن تحصل على كل ما فاتها من معلومات، وأن تنقلها بطريقتها الخاصة.

الصدام الأول، أو الحقيقي، كان مع وريدة. إذ رغم التحفظ، الأقرب إلى البغض، بين المرأتين، فقد قامت تهاني بالزيارة أولاً، وخلال هذه الزيارة بالغت في إظهار المودة، لكن وريدة ظلت متحفظة: تبتسم، تتطلع باهتمام، تسمع، لكنها لا تتكلم إلا بمقدار، وأغلب الأحيان جواباً عن سؤال. وحتى الجواب يكون قابلاً للتأويل أو لعدة تفسيرات، الأمر الذي أزعج تهاني تماماً. قال لها قبل أن تبدأ الردح والكلمات الكبيرة.

ـ أنا والشيخة أمّنا بكِ واعتمدنا عليكِ، فيلزم تقوي لي كل اللي حصل بغيبتنا.

وحين ابتسمت وريدة، وقالت بهدوء، أقرب إلى الرخاوة:

ـ وبغيبتكم ما حصل إلا الخير والسلامة.

ردت تهاني، التي شعرت بالتعريض:

ـ من أمّنك لا تخونه ولو كنت خاين!

وفجأة تحولت المرأتان إلى قطتين، كل واحدة تريد أن تنهش الأخرى، أن تمزقها، لكن بعد قليل انتبهت وريدة أن تهاني جاءت لزيارتها، فاحتملت، ثم حاولت أن تتراجع، لكي تمر الأمور، وأن تجعل الزيارة تنتهي على خير. فلما تحققت لها هذه النتيجة، وقبل أن ينقضي يوم واحد، لم تتأخر عن زيارة الشيخة، وأن تحكي لها كل شيء، لكنها أضافت، قبل أن تتكلم عما حصل بينها وبين تهاني، ثم بعد أن انتهت من ذلك، مجموعة كبيرة، وهامة، من الأخبار المتعلقة بقصر الروض، الأمر الذي جعل الشيخة تغضب على تهاني، وأن تؤنبها، ليس أمام وريدة، وإنما أمام اثنتين من النسوة، إحداهما صديقة وريدة!

ابن العريفان المشغول بهموم قصر الروض، ولا يعرف ماذا حصل بالعوالي، وحائر بين أن يصدق أو لا يصدق ما ينقل إليه، والذي راقب

الأمور بكثير من الحرص والدقة، يشعر، لأول مرة، إنه لا يفهم السلطان، أو كيف يفسر تصرفاته.

قال لمهيوب، بعد أن انقضت أسابيع لم ير السلطان خلالها:

ـ التليفون، يا مهيوب، ما يغني ولا يسد مسدّ العين. العين هي اللي تاكل وتشرب، ومن بد ولازم اشوف طويل العمر.

ـ مشغول، هالحين، يا أبو جازي، وما يقدر يشوف أحد.

ـ بس مسائلنا ما تنتظر، الله يسلّمك.

ـ اللي نقدر عليه، أنا أنت، نسويه، واللي ما نقدر عليه خلّه، فإذا خلص شغل طويل العمر وتعافى، أنت أول من يشوفه.

ولناهي الفرحان، وهما يستعرضان المشاكل الكثيرة التي تراكمت خلال فترة احتجاب السلطان، قال وهو يبتسم:

ـ اسخنا الماء طار الديك. . .

وبعد قليل:

ـ كنا نريده يجي حتى نفضّ شغيلاتنا، وبعدها ننفض أيدينا، ونقول له: اعتقنا يا طويل العمر، فحنا من يوم ما خلق الله ناس دراويش، على باب الله، وهالحين يلزم نسعى في مناكب الأرض ندوّر رزقنا، وغيرنا آلاف أخير منا، يخدمونك، يا طويل العمر، ونمشي. لكن، مثل ما تشوف عينك، صار من أهل الكهف، وهذا الماخوذ، التليفون، بدل ما يفرّج عنا الهم صار لنا هم: ألو، سووا فلان شي، أعطوا، استعجلوا، ويسدّه. وما تعرف شهو اللي تقوله، ومع من!

قال ناهي:

ـ والملوك والسلاطين، يا أبو جازي، وأنت أعرف مني، ما يتأمنون، وما يتذكرون إلا اللي يريدونه، واللي ينفعهم. وحنا، الناس ضاربينا بحجر كبير. كل كلمة والثانية: «الله ربكم، ما أحد مثلكم، اللي تريدونه يصير، واقعين بالرز واللحم، تاكلون وتتسوكون، والناس ما تلقى خبز الشعير». ما يدرون أن كل لقمة سودا، وكل نظرة تحرق. وما عاجبين أحد، لا حنا

مع سيدي بخير ولا مع ستي بخير. الضرب فوق روسنا، وما يكفي، يلزم من حذر، وتعال احمل وتحمّل!

ابن العليان حاول أن يساعد الآخرين، أن يتحمل الأعباء نيابة عنهم. لكنه في داخله غير مقتنع، ولا يقوى على تغيير الأمور، لذلك وصل، في وقت مبكر، إلى معالجة مريحة: اتركهم يقولوا ما يريدون، واعمل ما تريد. هذه المعادلة وجدت كل تطبيقاتها في المرحلة الجديدة: فما دام السلطان يعيش في ظل تلك الهواجس التي فجرها البكيري، ولم يخلقها، وبعد تلك الجروح التي جعلته في حالة صحية أقرب إلى نفسية المرأة الحامل، التي تخاف من كل شيء، وباعتبار أن المال أصبح العصب الوحيد، بعد أن انتهت الحروب، لذلك يجب على الإنسان أن يكون ذكياً وماهراً، ولأن فرصة مثل هذه لن تتكرر مرة أخرى.

قال لابن البخيت ذات ليلة:

ـ . . . أريدك تسمعني زين يا عبد الله. . .

وعبد الله البخيت الذي تعوّد أن يسمع بين فترة وأخرى من نسيبه كلاماً غير عادي، أو أسئلة غير عادية، وكان يفاجأ، بعض الأحيان، كيف تخطر مثل هذه الأفكار أو الأسئلة له، أصبح لا يستغرب. بل أكثر من ذلك بدا له الأمر طريفاً، وكان في حالات كثيرة لا يتردد أن يقول له بمداعبة:

ـ والله لو كنا، أنا وأنت، بغير هذا المكان، وبغير هذا الوقت، لكنا حملنا ربابة ودشينا على العربان، أنا أغني وأنت تسولف، ومني عتابة ومنك سالفة عن الهند أو السند، وعشنا، وربي لك الحمد والشكر!

وبعد أن يضحك ابن العليان بصخب يرد:

ـ الله يخزيك، الواحد يشتهي يصير ملك أو وزير. ما اشتهيت لنا إلا نصير قرباط؟

ويضحك من جديد، وبعد قليل:

ـ قرباط وجواعا، ووين؟ عند هذول الظلاّم، البدو، اللي ما يعرفون ربهم. لا يا ابن أخي، أريد أوقف على تل من مال، والناس تجيني، وما أروح لأي بني آدم، أقول له: عطني مما عطاك الله!

الآن، وعثمان العليان يطلب من ابن البخيت أن يستمع إليه، قدّر أن في الأمر شيئاً غير عادي، قال وقد جمّع نفسه وتحفز:

ـ كلي، آذان، يا أبو عزيز. . .

وبعد أن هزّ ابن العليان رأسه عدة مرات، وكأنه متردد، قال له عبد الله:

ـ هات، يا محروس السلامة، وخلنا نشوف شنو هي بضاعتك اليوم!

ـ مية مرة، ألف مرة، قلت لك يا عبد الله: اليوم اللي يروح منك راح عليك. وإذا كنت قبل كم سنة زكرتي، والفلوس، مثل ما كنت تقول: وسخ دنيا، وما تسوى أن البني آدم يتعب حتى يحصلها، لأن كل واحد لاقي خبزته، فأريدك، من اليوم، تصير غير شكل، أريدك تأمّن روحك، تضم تحت وسادتك قرشين، لأن هذي دنيا، وغدارة، ومثل ما شافت عينك بالشهور الماضية، طويل العمر عنفص، وحتى أنا وأنت ما يريدنا، ولا يريد يشوف وجوهنا، وتذكر ما وصلناه بغدير الفارعة: اصفّر، وقال: شنهو اللي جابكم؟ ولما قلنا: الشوق، وما لنا غنى، انفرد، وقال: ابن الحال عند طاريه، ومن توّي اسولف عنكم للربع، وأقول: من بد ولازم نطرّش واحد من الخويا حتى تجوّنا.

توقف عثمان، وهو يهز رأسه بحزن، وبعد لحظات صمت طويلة، تابع بلهجة جديدة:

ـ وأنت أدرى بالسوالف التالية، يا عبد الله.

رد ابن البخيت بنزق:

ـ ما عرفت شنهو اللي تريد تقوله، يا أبو عزيز.

ـ تذكر شلون صار لما قلنا له: سفرة العوالي مالها لزوم، يا طويل العمر؟ وتذكر شلون تغير وتنكد لما قلنا كلمة والثانية عن مشرف البكيري؟

ـ اذكر، يا أبو عزيز، وبعدها؟

ـ أريد أقول لك، يا عبد الله، إن المال، بهذي الدنيا، كل شي. إذا معك قرش تسوى قرش، أما إذا كنت مفلس فما يناظرك أحد، ولا أحد يقول لك مرحبا يا ولد.

قال ابن البخيت بيأس وألم:

ـ المال ما هو كل شي بهذي الدنيا، يا أبو عزيز.

ـ لكن الدنيا بلّيا مال ما تسوى يا عبد الله. البني آدم ينذّل، يتعب. والناس تهرب منه. وهو، نفسه، يخجل ويهرب، وبعدها ما يدري يروح لمن أو شنهو اللي يسوّيه.

تنفس عبد الله البخيت من رئتيه، وصمت طويلاً، ثم قال بحزن:

ـ خلنا من هذي السالفة يا عمّ، لأن هذي السالفة، مثل أغنية الشيطان ما لها تالي.

ـ خليناها، وسولف أنت هالحين.

تلفت عبد الله البخيت أكثر من مرة، وكأنه يخاف أن يسمعه أحد، أو يحاول أن يكسب وقتاً، لكن حين لابت في رأسه، وتذكر أموراً كثيرة، احتقن وجهه فجأة، وقال بحدة:

ـ وأريدك تعرفني زين، يا أبو عزيز. . .

شعر عثمان العليان، من الصمت، من اللهجة، ثم احتقان الوجه، أن عبد الله البخيت سيقول كلاماً خطيراً. ولكي يقطع الطريق عليه، ابتسم، لكن ابن البخيت تابع:

ـ إذا جيتك محتاج، يوم من الأيام، يا أبو عزيز، إذا قلت لك عطني، فكل ما أريده أن تقول: الله يعطيك. وإذا متّ، وأولادي احتاجوا، فأنت خلك بعيد، لا من شاف ولا من سمع.

ضحك عثمان بصخب ليمتص هذا الاحتقان، ولكي يعيد الحديث إلى مجراه، وبعد فترة صمت، قال:

ـ الله منك يا عبد الله، نفسك حامضة، وكل شي تحسبه عليك. . .

وبعد قليل، وبلهجة مختلفة:

ـ اللي أريده لك، يا أبو بادي، فوق اللي تتصوره. أريدك تتحرر حتى من السلطان. عندك قريشاتك وتقدر تروح للمكان اللي تريده، وإذا رحت ما تخاف وما تحسب؛ أما هالحين فأشوفك مربوط، وطويل العمر إذا زعل

أو رضي تصير فوق الريح أو تنزل أسفل السافلين.

ولم تنته المناقشة بين الاثنين، لكن تركتْ الأسئلة والقلق!

خزعل الذي عاد مع أبيه إلى موران، وكان بادي النشاط والمرح، رغم الجروح التي أصابته في كتفه الأيمن، وفوق الساعد، وفي راحة يده اليسار، وقد ظلت اليد مربوطة لعدة أسابيع، لأن نزاً أصاب الجرح، وجعله متقيحاً فترة طويلة، وقيل ان رأفت شيخ الصاغة أخطأ أو أهمل في تضميده، وفي فترة لاحقة أصبح الجرح رمزاً يفاخر به كعنوان لبسالته؛ استطاع خزعل أن يفرض وجوده وهيبته على القصر، سواء في استقبال الوفود، أو في تثبيت صيغة جديدة، ومختلفة للقصر عن السابق، أثناء غياب السلطان. ورغم محاولاته أن يكون ودوداً مع أخوته، بمن فيهم راكان، إلا أن الاستجابة، من راكان بالذات، أو الذين كانوا إلى جانبه، بدت محدودة، بل وأخذت في بعض الحالات، مظاهر العداء والتحدي، خاصة أثناء إعادة تنظيم مخازن الأسلحة واسطبل الخيول.

ورغم الكثير من الود الذي ميز تصرفات خزعل، وقيامه بكل الواجبات، بما في ذلك زيارة المسنين في العائلة، وتقديم الهدايا، والسؤال عن النساء، فإن العداء الذي قوبل به لم يكن يخفى.

قالت تهاني لثلاث من نساء السلطان، جئن لزيارة الشيخة، قبل أن تدخل عليهن الشيخة:

ـ الحمد لله، خلصنا من راكان وأمه...

وبعد قليل:

ـ وخزعل، الله يسلمه، ما مثله.

أما الشيخة، فقد كانت أوضح:

ـ ... ويا بعد عيني خزعل: قوي وقلبه جَسر. ما جا الأول إلا ورماه؛ ولما جا الثاني لطمه ودفره؛ ولما جا الثالث، وغذر، ومن وراه، ما شافه، فطعنه أول طعنة، وطعنه الثانية، لكن أبد، ما قال: آخ. وظل يضرب بيده اليمنى ويحمي أبوه باليسار. ولولا أنه خشن، وقوته، الله

يسلمه، مثل الجمل، وإلا راح وراح معه طويل العمر. تحمل، صبر، والجرح، وهو حامي، ما يحس به البني آدم. بس الله نجاه. الملائكة حمته، كانت تتلقى عنه خناجرهم وسمومهم. كانت الخناجر مسمومة، يا جماعة الخير، لكن الله هو الحامي.

ونساء السلطان اللواتي يسمعن هذه التفاصيل، كانت تتقلص وجوههن، وتنقبض أجسادهن، وتصدر عنهن أصوات صغيرة، هي بين اللذة والخوف، وكأنهن يشهدن الخناجر وهي تهوي مرة أخرى من جديد.

قالت الشيخة، لكي تختم هذا المشهد، ولكي تعرف الجديد الذي يجري في قصر الروض:

ـ أولاد الحرام كثر. وهذه السالفة تنذكر وما تنعاد...

وابتسمت ابتسامة واسعة، وهي تمرر أصابعها حول فمها، وتسأل:

ـ يا الله... صارت تواريخ وأمثال؛ وأنتن، إنشاء الله ما وراكن خلاف، بعدما راح اللي تحكمه مرية؟

قالت سكينة، وهي تنظر، بسرعة:

ـ ما دمت أنت بخير، يا أمي زهوة، حنا بخير، وما دام طويل العمر سالم ودايم، وفوق روسنا، الدنيا بألف خير.

قالت أمي زهوة بثقة:

ـ وكلّن الله، يا جماعة الخير، فأبو منصور خيّال الشقرا، وخيّال الكحلة...

وغصّت بالكلمة الأخيرة، وبدا أنها أخطأت، قالت بحدة:

ـ كانت الكحلة، عند طويل العمر، تسوى الدنيا، لكن ابن فضة، الأرعن، كيس الشحم، تصور نفسه رجّال، وبدل ما يحطها بعينه، لأنها فرس أبوه، واللي لها الفضل في الحويزة والعوالي، كدّشها، وبعدين قتلها، لكن لكل ظالم يوم...

قالت تهاني، بانفعال، وليس من عادتها أن تتكلم:

ـ لكن مثل ما قالوا، يا عمتي: غاب البس العب يا فار.

قال فنر:

ـ أهل العوالي أخبث من الحيات، سوالفهم زينة لكن أفعالهم شينة، وأبد ما يتأمنون. . .

قال ذلك لثروت، وقد عاد لتوه من عين دامة، حيث ودع أباه هناك. كان متعباً، بادي الشحوب، وكان منفعلاً أيضاً. وفي مثل هذه الحالات، فإن دواء هاملتون وحده يجعله في حالة أفضل. بعد أن تناول جرعات، قال بمرح:

ـ ومن اليوم يلزم أن الواحد يكون معهم ألعن من إبليس، يضحك بوجوههم، يقول لهم: ما يخالف، بس ما يسوى إلا اللي بباله.

قالت ثروت بحنان:

ـ كنت خايفة، وكنت أريدك تكون قريب!

ـ كنت أريد أصل معه إلى موران، لكن أبد، رفض، قال: حدك عين دامة وترجع، ورجعت.

ضحكت بفرح، اقتربت منه، قالت بهمس:

ـ ومن اليوم لازم تحرص، وتدير بالك زين، لأن أولاد الحرام ما يتركون أحد يرتاح!

هز رأسه، نظر بتحديد، لكن لم يكن يرى ما حوله، كان يفكر بما يجب أن يفعله. لأول مرة يحس أنه أهين، فكل ما افترضه ذكاء وقدرة على السيطرة، تكشّف، في لحظة، عن هشاشة كادت تهدم ما بني خلال سنوات طويلة. ليس ذلك فقط، كان أبوه، خلافاً لفترات سابقة، صامتاً، أقرب إلى التحفظ. حتى طريقة الطلب إليه أن يبقى في العوالي، وألا يرافقه إلى موران، بدت جافة، وتشبه الرفض. نظر إلى القلعة، حين كان يكلمه، وقال:

ـ بعد ورانا سوالف كثيرة، يا فنر، ويلزم نفتح قلوبنا قبل عيونا.

وتمثلت له صورة خزعل: لأول مرة يراه واثقاً هكذا. وكان أبوه ينظر إليه بمحبة أقرب إلى الإعجاب. استرق النظر عدة مرات، وفي كل المرات

كان أبوه يتابع خزعل، يتملاه. الصدفة وحدها جعلت خزعل قريباً منه، وبالتالي لأن يبذل كل قوته من أجل حماية نفسه وحماية أبيه. وما ذنبه إذا كان ضعيفاً هكذا؟ إنه لم يختر هذا الجسد، لقد ورثه كله، فإذا كان خزعل قد ورث جسده من أبيه، وجزءاً من أخواله، فليس ذنبه أن يرث جسده هو من أخواله وخدهم. إنهم أقرب إلى الضمور، لأنهم بذروا حياتهم من أجل إقناع الناس، لحملهم على أن يكونوا شيئاً مختلفاً. لم يعرفوا الراحة يوماً واحداً، ولا عرفوا الاستقرار. ولذلك أكلت الصحراء أرجلهم وهم يركضون، لم يكونوا مثل غيرهم، كان لديهم هم يعذبهم، وهذا ما جعل أجسادهم تضمر، مقابل تفتح عقولهم ونموها.

وامتلأ بمشاعر متناقضة، هي مزيج من الفخر والحقد. كان يتمنى لو أنه ورث من أبيه جزءاً من هذه القوة. وتساءل ماذا لو أنه كان الأقرب إلى أبيه، أو لو كان بدل خزعل؟ هل يستطيع أن يرد القتلة؟ أن يمنعهم من إتمام جريمتهم؟ وألا يكون هو الضحية الأولى قبل أبيه؟

قالت ثروت، وهي تستعيده من المكان البعيد:

- أمي تقول أن الأطفال والحكام تحميهم الملائكة، ولولا ذلك لما بقي طفل سليماً أو حاكم حياً. قلت لها: الملائكة تحمي الأطفال، أما الحكام فيجب أن يعرفوا كيف يحمون أنفسهم!

ضحك، وقال بمداعبة:

- أنت وأمك تعرفن كل شيء!

- لا. صحيح، يجب أن يكون الحاكم في هذه البلاد غير ما هو عليه الآن.

نظر إليها بود، سأل والابتسامة تملأ وجهه:

- شلون يلزم يكون؟

- لا أدري، ولكن طريقتكم غير معقولة.

فتح عينيه جيداً، تابعت بحدة:

- بيوتكم مفتوحة، والناس تدخل وتخرج، وكأنها داخلة إلى بيوتها،

وأنتم بين الناس دون حساب، ودون حراسة.

وكادت تسترسل، لولا أنه هز يده بطريقة أصبحت تعرف معناها، وبعد قليل قال كأنه يخاطب نفسه:

ـ وكلي الله يا بنت الحلال، وما يصير إلا اللي كاتبه الله.

موضي كانت «المشرفة» الطبية طوال الفترة التي قضاها السلطان في العوالي. إلى ما قبل هذه الحادثة، لم تتصور نفسها أنها قادرة على رؤية دم ينزف، أو إنسان يتألم. بل أكثر من ذلك كانت تصاب بالغثيان، وتمتنع عن الأكل، إذا صدف أن عرفت بوفاة أحد تعرفه. وكان معظم الذين حولها يعرفون هذه الصفة فيها. أما بعد محاولة الاغتيال، فقد أصبحت امرأة أخرى. إذا تركت غرفة أبيها في القصر، فإلى الغرفة المجاورة، لأن أحداً من الرجال جاء. والسلطان الذي لاطفها كثيراً، اكتشف أنه يحبها أكثر من بنات أخريات له، وأنه يريدها أن تكون قريبة. أما حين طلب منها أن ترافقه إلى موران، لكي تواصل العناية به، فقد قالت، وخرجت كلماتها متلعثمة:

ـ أرافقك لأي مكان تريده، بس ما أريد أزعّل فنر!

رد وهو يقهقه:

ـ خلي فنر عليّ.

ولم يستأذن السلطان فنر، قال يبلغه:

ـ موضي رايحة معانا!

سأل فنر بخوف، إذ خشي أنها قد تتزوج، وأن أباه وعد أحداً:

ـ وسفرتها، طال عمرك، طويلة؟

وضحك السلطان، وترك الأمر غامضاً، حين قال:

ـ إذا ملّتنا أو ملت موران، نلقى لها مكان ثاني!

وسافرت موضي إلى موران.

قال هاملتون بعد أسابيع من سفر السلطان:

ـ . . . وذكرت للسلطان، أكثر من مرة، أن اتخاذ الاحتياطات ضروري، خاصة في بلد تعود الناس ألا يشعروا بفرق بينهم وبين الحاكم.

لقد صلى جلالته في الجامع نفسه ثلاثة أيام متوالية، وكان رأي ألا تصبح الصلاة أو أي شيء غيرها عادة أبداً، سواء في المكان أو الوقت. وقلت له: إن الحراسة ضرورية، خاصة في الأماكن التي يدخلها الناس دون استئذان. غضب جلالته، وقال: وتريدنا نحطّ الحراسة على بيوت الله؟

وابتسم هاملتون، وكأنه كان يتوقع ما حصل:

- بعد المحاولة ذكّرته، قلت له: لقد صحّت مخاوفي. رد: الله، سبحانه وتعالى، كاتب كل شيء باللوح المحفوظ، والإنسان، مهما حرص، ما يعرف تجيه منين. قلت له: ولكن الرسول، عليه الصلاة والسلام قال: اعقلها وتوكل، وهذا معناه أن يحتاط الإنسان، أنه ينتبه، لكن...

وفي مذكراته كتب هاملتون: «البداثية حالة متكاملة، ولا يمكن أن تتجزأ. وهذه الصفة تنطبق على الصغير والكبير، الحاكم والمحكوم. السلطان يعتبر الحديث مع الناس، أياً كانوا، ومهما قضى معهم الوقت، الصيغة التي تجعله قريباً ومحبوباً. بل ويبالغ، في أحيان كثيرة، فيقضي الساعات الطويلة مع أناس عاديين تماماً، يسأل عن المطر، وعن الأماكن، ويتوقف، ويستعيد، وهؤلاء البدو إذا كانوا ماهرين بشيء فإن يتكلموا الساعات الطوال دون أن يعنوا شيئاً، ودون أن يقولوا فكرة هامة. إن الزمن بالنسبة لهم يشبه الصحراء، ويشبه الريح، ولذلك تراهم، أغلب الأحيان، يتأملون أو يكررون ما سمعوه، وهم بذلك يشبهون ذرات الرمل أو هبات الهواء.

أما محاولة الاغتيال فإنها إنذار خطير. لا تزال الأحقاد تملأ الصدور، ولا يزال الناس قادرين على تذكر الأشياء التي تزعجهم، وقادرين أيضاً على الانتقام. طبيعي كل ذلك يجري بأسلوب بدائي أيضاً، وإلا، لماذا لم يحاول القتلة، استعمال السلاح المتطور بدل اللجوء إلى هذه الوسيلة البدائية؟

قالوا لي، في تفسير هذه الظاهرة، أن البدو، رغم محبتهم للسلاح، فإنهم يعتبرون السكين، أو ما يشبهها من الأدوات، الوسيلة الأفضل

للانتقام. يحس الواحد وهو يغرز السكين في صدر عدوه أنه ينتقم فعلاً، إذ يقبض على الضحية، ويتفنن في إنهاء الحياة، كعلامة للنشوة والامتلاء. أما من بعيد، فإنهم إذا اعترفوا، فيعزون الأمر للمهارة، أكثر مما هو للقوة أو الشجاعة. ويبدو لي أن هذا ما دفع الذين قاموا بالمحاولة لاستعمال هذه الوسيلة. وفي ذلك دليل على عمق الكراهية، ورغبة الثأر الحقيقية، واستعداد للموت من أجل ذلك!

إن قوة الجسد، في أحيان كثيرة ميزة في هذه البلاد. لأول مرة أشعر أن فنر يخجل بجسده. ولأول مرة يبدو لي خزعل قادراً على أن يكون اكثر من مجرد وعاء للجنس أو الأكل. ذكروا لي أنه كان يهزج ويده مرفوعة ومليئة بالدماء!

إن الشعوب البدائية جديرة بالدراسة، لأنها لا تعكس الصفات الأولى، وربما الأساسية، في الإنسان فقط، وإنما تحدد أيضاً نمطاً من العلاقات والصيغ أصبحنا نجهلها، لأننا ابتعدنا عنها كثيراً، ومن هنا ضرورة أن ينخرط الإنسان في هذا المجتمع أكثر فأكثر من أجل أن يصل إلى أعماقه، وأن يفهمه بدقة، لكي يتوقع ويستنتج ما يمكن أن يتمخض عنه».

عادت موضي بعد أن قضت ثلاثة شهور في موران. قالت لفنر إن أباها شفي، وأنه ينوي أن يتزوج من جديد، وقالت إن خزعل في الحويزة، كما أشارت إلى أن أباها لا يكف عن ذكره وامتداحه، ويبعث إليه بتحياته الحارة وأشواقه الكثيرة.

وحين سألها من جديد وبإلحاح عن صحته وجرحه، أجابت من بين الدموع التي سقطت فجأة:

ـ يعجب وما يعجب، يوم زين ويوم ما هو زين، وما أدري.

وساد الصمت، وبدأ فنر بالتفكير!

محاولة اغتيال السلطان، التي شغلت الكثيرين، وكانت حديث الناس في الأسواق والمضافات، وسبباً لتساؤلات لا نهاية لها، ما لبثت أن تراجعت، أو تباعد الحديث عنها، خاصة بعد أن احتجب السلطان ولم تعد تسمع أخباره.

شمران العتيبي، الذي رجع من الزرنوق لم يكتف بالأخبار التي وصلت إلى سوق الحلال عن المحاولة، ذهب إلى الكثيرين، بمن فيهم عدد من خدم القصر وحراسه، وسألهم، قارن بين الروايات فداخله القلق والشك. أما حين غاب السلطان، وقال صالح الرشدان «رجعت حليمة لعادتها القديمة»، فقد رد عليه شمران بحدة:

ـ اسكت يا معوّد، لأن غيبته هذه المرة أكبر من عرس وأكثر من حصرة صدر.

وحين تطلعت إليه العيون بتساؤل، هز رأسه وخفّض صوته:

ـ مخوطرة يا جماعة الخير، لأنه حتى ابن البخيت نشف ريقه يريد يقابله. . . وأبد، لا أي ولا لا، وهذا أنا سامعه منه.

ـ وبعد يا أبو نمر؟

ـ إذ بعده حيّ وعدل نسمع أخباره، وإذا لا نسمع خبره.

ـ وإلى ذاك الوقت نضرب أخماس بأسداس يا أبو نمر؟

هكذا سأل مغامس الحصيني، فرد صالح الرشدان، وهو ينهض ليواصل حذو حمار:

ـ يلزمنا نبيّت خيرة، أو نطرّش الحريمات ينشدن جماعة القصر، وإذا ما فاد لا هذا ولا ذاك، فما لنا ألا نحذي خيلنا زين، لأن ورانا مشي ليل.

قال شمران بثقة، وهو يحرك رأسه، وكأنه يشير نحو القصر:

ـ الأخبار الزينة بهذي الأيام تنضمّ يا صالح، والشينة ما أحد يقدر يضمّها، فسدّ خشمك أحسن ما تذبحك رياح مغرّب!

وانشغل الناس، من جديد، بتدبير أمورهم، ولم يحفلوا كثيراً بالخصومة الجديدة التي دبت فجأة بين العجرمي وابن شاهين، ومعها القصص والنكات تنتقل بين حي سبيع والقلعة. وإذا كانت العادة في خصومات مشابهة ألا يكون السلطان بعيداً، وقيل انه كان يحرّض عليها، من خلال الاستفسار والأسئلة، وبعض الأحيان بتعليقات ساخرة، فإذا وصلت حد الخطر، أو طغت على ما عداها من القضايا والأخبار، فلا بد أن يتدخل، عن طريق رجاله ورسله أول الأمر، ثم بالهدايا، حتى إذا أوشك الاثنان على الرضا، يدعوهما إلى وليمة ويدعو إليها الكثيرين، وفي هذه الوليمة يتصالح الرجلان ويتعانقان، تحت أنظار الجميع، ووسط كلمات الإشادة والثناء، ويكون السلطان، دائماً، القمر الذي يسطع ويضيء، وموضع التقدير.

هذه المرة، حين دبت الخصومة، وتجاوزت ما كان مقدراً لها، وتوقع الذين يعرفون أن يظهر السلطان ويضع حداً لها، أخذت توقعات شمران تجد ما يؤيدها، فالأخبار التي تسربت عن طريق الخدم، أو عادت بها النسوة، رغم غموضها وتناقضها، بدأت تنتشر وتولد الخوف. وحين تساءل مغامس الحصيني في سوق الحلال عن أخبار العجرمي وابن شاهين، أيهما المصيب وأيهما المخطئ، وما إذا سيتدخل السلطان، فقد رد شمران بسخرية:

ـ طوشة خرسان وعزيمة عميان، يا ابن الحلال. أما من هو أحسن من الثاني فالكلب أخو السلوقي، فلا تدوخ روحك يا مغامس، ولا تقرب بلشتهم!

ـ والعود يا أبو نمر؟

ـ العود إذا عاد راح يخرب البلاد ويفني العباد!

وأشار شمران للذين حوله أن يقتربوا أكثر، وأخذ يروي، بغموض، ما سمعه عن حالة السلطان:

ـ . . . وقالوا: يسهر الليل بطوله، ما تغمض له عين، ويدربس البيبان بيده، وما يريد يشوف أحد، وإذا سمع حركة أو صوت عمّر سلاحه وصاح ذاك الصوت: قف. ويقول غيرهم: من يوم ما نصاب مسدوح، وبين الموت والحياة، واللي شافوه يقولون ما منه أمل، إذا عاش اليوم يموت ثاني يوم، وما يندري!

بالإضافة إلى هذه الأخبار عادت النسوة بأخبار من نوع آخر: «بعد يوم الغدر تاهت عليه، ما يعرف حريمه من حريم غيره، وكل ليلة، من بد ولازم، زواج جديد، بنت بكر، بعمر بنات أولاده، يقصّ ويمشي، وهاتوا غيرها، وما ينعرف سوالف صدق أو سوالف عدى وحاسدين».

وحين تُسمع في السوق العتيق مثل هذه الأخبار يصيح حائك مسن:

ـ ما لنا إلا شيخنا، العدوي، فهو يقول: «وإن أُخذ قضيب الذئب بحيث لا تراه الشمس، بل يكون ذلك قبل طلوعها أو بعد غروبها ثم جفف في الظل وسحق وشرب منه فإنه يذهب شهوة الجماع» «وإذا أخذتَ من شجرة مريم وسحقتها وعجنتها بماء النعنع وجبّتها مثل دانق وسقيت منها حبة انقطعت الشهوة لسنة وحبتين لسنتين».

رد عليه حائك في مثل سنه:

ـ اسقيه مية حبة، خلنا نخلص منه!

قال بائع البسط الذي يتعامل معهما:

ـ أو ندوّر على شهرزاد عساها تخلصنا من هذا الغضب!

انتهت الخصومة بين العجرمي وابن شاهين، أو على الأقل علقت لفترة، لما توفي أحد أولاد ابن شاهين. مات فجأة، فتوقفت الشتائم والنكات، ولم ينتظر العجرمي، بادر بحمية، لفتت نظر الكثيرين، بزيارة دار المتوفى أولاً، ثم في الصلاة على الميت وتلقينه، وأخيراً بالوقوف إلى جانب غريمه والناس يعزونه. وفي اليوم التالي، قبل غروب الشمس

بقليل، شوهد، وكان إلى جانبه، ناحية اليسار، في السيارة السوداء، معتمدي، يغادر موران باتجاه العوالي. وبعد أكثر من أسبوع عُرف أنه سافر إلى عين دامة.

قبل أن ينقضي شهر على سفر العجرمي بدأت تخرج من قصر الروض أخبار مقلقة، لكنها أكثر وضوحاً.

قال مهيوب لعرفان الهجرس:

ـ اللي أصعب من الموت، يا عرفان: خوف الموت.

وتغيرت لهجته تماماً، بدا وكأنه يحدّث نفسه:

ـ . . . الشي اللي يدوخني ويحيرني: إني من يوم ما عرفته، قبل عشرين ثلاثين سنة، وبمعاركنا كلها، بالحويزة والجمرة، بالرحيبة والعوالي، وقبلها وبعدها، ما هجست يوم من الأيام أنه يهاب الموت، وكان الموت أقرب له من حبل الوريد. ما هو بس كذا، كم مرة تعرّض للذبح، للاغتيال؛ كم مرة انجرح، وكم مرة قلنا خلص، لكن أبد، ينفض الموت وهو ينفض عباته، ويقول: يا الله يا جماعة الخير. . .

توقف. هز رأسه عدة مرات. صفن، وبعد وقت غير قصير:

ـ والجرح اللي صابه، يا عرفان، ما يبيّن هالحين، لكن الظاهر أنه غار بالقلب، وهناك يدبي، وظني أنه ما له منه شفا.

كتب رأفت شيخ الصاغة في مذكراته ما يلي:

ـ «. . . البناء القديم، الذي كان يبدو قوياً راسخاً، أخذ يتصدع، ولن يطول به الأمر، كما أقدر، إلا وينهار. لقد كان مثل الصخرة الكبيرة يسندها حجر صغير، فلما أزيح هذا الحجر اهتزت ولا تلبث أن تتهاوى، هكذا هو وضع السلطان الآن. فالثقة التي كانت تملؤه طوال السنوات السابقة، أصبحت شكاً قاتلاً، والشجاعة التي كانت تفيض منه على كل من حوله، ويعرفها خصومه، تحولت إلى حذر أقرب إلى الخوف. أما مظاهر القوة والجبروت، وكان يدلّ بهما على أعدائه وأصدقائه معاً، فإنها الآن تثير الحزن والرثاء.

«ما أرجّحه أن الإصابة ليس من شأنها أن تؤدي إلى هذه النتائج

والمضاعفات. صحيح أنه لم يلتزم التعليمات بدقة، وامتنع، خلال فترة، عن تناول أدوية الالتهابات، مما أدى إلى تقيح الجرح مرة وثانية، لكن الأكثر أهمية من الإصابة، أن هذا الجسد المكابر، والذي يبدو قوياً، في الظاهر، كان مليئاً بالأمراض المزمنة، وبعضها وراثي، مثل العقد السلّية في الكليتين وفي الرقبة، وقد أخذت تتحرك بسرعة الآن، وربما يكون لها مضاعفات، قد تظهر خلال فترة غير بعيدة.

«مع ذلك، وبالرغم من عناده، ورفضه للأدوية، مثل أي بدوي جاهل، وعدم تقيده بالنظام الغذائي الملائم، إضافة إلى إرهاق جسدنه بالممارسة الجنسية، لا بد من عمل شيء من أجل وقف التدهور، حتى لو اقتضى الأمر إرغامه على دخول المستشفى».

وقصر الروض، بعد الخوف والصمت اللذين استمرا شهوراً عديدة، أخذ يتململ. بدأت المناوشات بينه وبين القصور الصغيرة المتناثرة هنا وهناك، في موران وما جاورها، والتي تسكنها، في الغالب، الزوجات الجديدات. ومناوشات أخرى بدأت أيضاً بين هذه القصور مجتمعة وقصر الغدير. صحيح أن خزعل يبدو ودوداً متواضعاً، ولا يكاد يفارق قصر الروض، وأصبح، خلافاً لفترات سابقة، لا يسافر، أو لا تطول سفراته إذا اضطر للسفر، إلا أن ما يدور داخل هذه القصور، وما ينتقل إلى موران من الأخبار والإشاعات، جعل الكثيرين في حالة من الترقب والخوف.

قال عبد الله البخيت لطالع العريفان الذي جاءه راجياً أن يعمل شيئاً لكي يحمل السلطان على وضع حد لخصومات النساء:

ـ وتكتب معروض، يا أبو جازي، وتوقعه وتندندشه بالأختام الحمرا والخضرا ولا تنسى الزرقا، وتبيّته تحت السما ليلة والثانية، وباليوم الثالث تنقعه وتشرب مياه، وبعدها يصير خير: أما يقابلنا السلطان أو نقابله، وإذا لا هذا ولا ذاك، ندوّر على مشرف البكيري عسى أن يفتح لنا على الجنة باب.

وحين بدا الضيق على طالع العريفان من هذه السخرية، قال ابن البخيت بيأس:

ـ يا طالع، وأنت أدرى الناس، طلعت أرواحنا وحنا ندقّ بابه، لكن لا حياة لمن تنادي.

ـ والحلّ يا أبو بادي؟

ـ لا أمر لمن لا يطاع...

وبعد قليل:

ـ تسودن يا أبو جازي، وفوقها الفزع والمرض وما تدري بعد شنهو، وما دمت صبرت كل هذي الشهور، فبعد اصبر، وعسى الله أن يفرجها، وتنتهي على خير!

ـ ما أظن يا أبو بادي، لأن المكتوب يبيّن من عنوانه، ولأن السودا هذي النوبة غير عن كل نوبة.

ومثلما غاب السلطان غابت بعض نسوة القصر. قيل: فضة عند أهلها، وكذلك العنود. ولم يعرف ما إذا سافرن نتيجة غضب السلطان عليهما أم لأسباب أخرى. وقيل إن فضة لم تفارق قصر الروض ليلة واحدة، وبالغت واحدة من خادماتها، وردت عندما سئلت: «ستي أبد ما تركت حجرة السلطان»، وضحكت! أما أمي زهوة فهي الغائبة الحاضرة أبداً. تغيب أياماً، تمتد لأسابيع، ولا يعرف إن كانت موجودة أم مسافرة، لأنها في كل المرات تترك ما يدل على وجودها بشكل أو آخر. فإذا لم يبق سرور، فلا بد أن تبقى تهاني، وحين يغيب الاثنان وتغيب، فحسيبة البصرية، التي تصنع القهوة والشاي لأمي زهوة، لا بد أن تدور في قصر الروض، متعمدة أن يراها الكثيرون، ولا ترضى بأية دعوة توجه إليها للبقاء، أو لإطالة الجلوس في مكان، «لأن الشيخة إذا ما طلبت الشاي هالحين لا بد تريد القهوة» وتسرع في سيرها، أو تنهض باستعجاب، لئلا تتأخر وتعرّض نفسها لغضب الشيخة! وحول حضور الشيخة أو غيابها يمتلئ قصر الروض بالهمس عن البخور الذي أمرت بإشعاله، أو أشعلته بنفسها، مع الأدعية بأصوات عالية، ترددها نساء سوداوات، والتي ملأت القصر كله، وأخذ هذا يتكرر مرتين، على الأقل، كل أسبوع، ليلة الاثنين وليلة الجمعة. وأكد عدد من الحرس والخدم أن الشيخة كانت تحرص

على دعوة عدد من الفقراء مطلع كل شهر، وأكد غيرهم أن هؤلاء ليسوا فقراء، أو لم يدعوا لأنهم فقراء، وإنما لمعرفتهم بالسحر والتنجيم، إذ حالما يفرغون من الأكل، تبدأ الطبول والابتهالات وإلقاء الملح والبخور في النار، وقيل إنهم في الليل المتأخر يدورون سبع مرات حول القسم الأوسط من القصر، حيث يقيم السلطان، حاملين أكياساً من الملح، وربما أشياء أخرى، ينثرونه في الزوايا بعد أن يقرأوا عليه.

المرات القليلة التي شاهد الكثيرون أمي زهوة تنتقل من مكان إلى آخر، كانت مسرعة، وكانت ساهمة أقرب إلى الحزن، وربما هذا ما دعاها لعدم الرد على التحيات التي كانت توجه إليها، وقيل لأنها تكون صائمة عن الكلام، فقد نذرت ألا تكلم أحداً قبل أن يشفى أبو منصور!

وأبناء السلطان يتحركون، لكنهم، هذه الفترة، مع أقربائهم لأمهاتهم أغلب الأحيان، متجنبين زيارة بعضهم، وإذا اضطروا للزيارة، فإنها تتم ضمن حشد من المرافقين والحرس، ولا تدوم طويلاً، كما تخلو من أي ود، وكأنها استعراض للقوة والأهمية، إضافة إلى عدم الرغبة في أي حديث طويل أو جدي، لئلا تشي الكلمات بما وراءها من مواقف ونوايا.

قال ابن العليان لعبد الله البخيت، بعد زيارة قصيرة للسلطان:

ـ أبد ما يعجب يا أبو بادي. . .

صمت قليلاً، وكأنه يستعيد صورته، ثم تابع:

ـ أفكاره تايهة وعيونه شايحة، وضيّع الأول والتالي. . .

ضحك بحزن وأضاف:

ـ قلت لروحي إذا قعدنا وتواجهنا لا بد تنحلّ المشاكل، لكن تعيش، طلعت لنا هالحين مشاكل جديدة.

ـ خير يا أبو عزيز؟

ـ «تدزون على منجمي المشرق والمغرب، على منجمي الهند والسند، تجمعوهم هنا، بموران، يوم، اثنين، أسبوع أسبوعين، وأريد جواب على سؤال واحد: أموت موت الله أو بيد العبد؟ متى؟

يزفر ألماً ويضيف:

ـ وكل ما أريد اطمنه وأغيّر الموضوع، يرجع من جديد: «يا عباد الله سويت لهم اللي ما يتسوى، اللي ما يسويه بشر، وبعدها يريدون يذبحوني؟ يريدون أموت موتة كلب؟ لكن يخسون، أنا ما أحد يقدر عليّ، وما أموت» ومن جديد نطيب خاطره، نطمنه، لكن أبد ما يفيد: «أنا أعرف كل شي يا ابن العليان، وقبل ما أذبحهم، وقبل ما يذبحوني، أريد أتأكد» ولم يترك أحداً من أولاده أو أهله إلا وسماه، واعتبره غريماً. لو أخذت وأعطيت معاه يجوز اعتبرني أريد أذبحه، وبعدها ما تدري شنهو يطلع منه!

ظل القلق والتساؤلات، ثم الخوف، هكذا، بضعة شهور. الناس الذين انشغلوا بأخبار قصر الروض والسلطان، وبتحركات أبنائه ونسائه، أو بخصوماتهم، ولأن لا جديد هام وكبير، فقد ملّوا. تراجعت أسئلتهم، ثم مخاوفهم، إلى أن نسوا أو تناسوا. حتى شمران الذي اهتمّ وتوقع ما لبث أن تراخى إلى أن نسي الأمر تماماً. قال لمغامس الحصيني حين جاء يسأله عن صحة السلطان:

ـ لا حي فيرجى ولا ميت فينسى!

ـ وقريشاتنا، يا أبو نمر؟

ـ الداخل مفقود، والخارج مولود!

ـ ولكن الحي يلزمه يدفع يا شمران، والميت، قبل القسمة، تتوفى ديونه.

ـ سل ابن شيخ الصاغة إن كان بعده حي، أو سل العجرمي إن كان صلى عليه.

ـ يعني خيلنا راحت وقريشاتنا ماتت يا أبو نمر؟

ـ هذا ابن عليان، هو أمين الصندوق، هو اللي يقبض واللي يدفع.

ـ قال لي: المعاملة خالصة، بس ورقة من يد طويل العمر، وحنا جاهزين!

ـ دوّر أهلك يا ابن الحلال، غب شهر اثنين، وبعدها تعال، عساه

يكون انصمد أو انلحد، عندها يجوز تحصّل فلوسك، لأن الخيل راحت عليك.

هذا الاهتمام الذي كان يبديه مغامس الحصيني، لأنه باع ثلاثة رؤوس من الخيل إلى القصر، ووعد أن يسدّد له ثمنها بعد عودة السلطان في العوالي، أما بعد محاولة الاغتيال، وبعد ما جرى، فلم يجرو أحد على إعادة الخيل أو دفع ثمنها، وهكذا ظل الأمر معلقاً.

ظل الأمر معلقاً بضعة شهور، إلى أن جاء فجأة هاملتون.

ما كانت زيارة هاملتون إلى موران لتلفت النظر، أو لتثير كل هذا الاهتمام، لولا النتائج والأحداث التي أعقبتها. صحيح أن الزيارة كانت قصيرة جداً، إذ لم تتجاوز ليلة وجزءاً يسيراً من اليوم التالي، ولم يرافقها احتفال أو ضجة، كما لم تتسرب عنها أخبار هامة، لكن، مع ذلك، لم يبق أحد، تقريباً، في موران، ثم في أنحاء عديدة من السلطنة، إلا وعرف أو سمع بها، خلافاً لزياراته الكثيرة الي سبقتها، وتلك التي أعقبتها أيضاً.

إذ ما كاد هاملتون يصل قصر الروض، وقد وصل عند الغروب، أو قبله بقليل، في يوم دافئ من أيام الربيع المبكرة، وكان مرهقاً بادي التعب، ولا تخلو ملابسه من بقايا الغبار، وبعد فترة استراحة قصيرة في غرفة عرفان الهجرس، حتى تراهن عدد من موظفي القصر: هل يستقبله جلالة السلطان أم لا؟ الذين قالوا نعم، وكسبوا الرهان، اعتمدوا على العلاقة التي تربط بين الرجلين، ولم يخطر ببالهم، أو لم يفترضوا أن الزيارة تمت اعتماداً على اتصالات سبقتها. أما الذين كانوا متأكدين أنه لن يُستقبل، فقد قاسوا الأمر على ما رأوه من عزلة السلطان، ورفضه بإصرار لقاء أحد.

لمداراة الخطأ، برر الذين لم يتوقعوا استقباله «أنه من غير اللائق، وغير الجائز، بعد أن قطع الرجل ما يزيد على الألف كليومتر، أن يعود هكذا» ثم أضافوا بصراحة بلغت درجة الوثوق الكامل «زيارة مجاملة ولن تطول». أما حين طالت وامتدت إلى ساعة متأخرة من الليل، وتخللها العشاء أيضاً، فقد أصبحوا على يقين «أن الرجل يحمل أخباراً هامة» ومما رجح هذا الاحتمال، إلى أن أصبح حقيقة مؤكدة، استدعاء مهيوب، ثم

عرفان الهجرس، وأخيراً رأفت شيخ الصاغة. صحيح أن أياً منهم لم يمكث فترة طويلة، واستدعي كل واحد على انفراد، لكن بدا واضحاً أن اللقاء يتجاوز السمر والأحاديث العامة إلى أمور محددة وجديّة، بما في ذلك التأكد من صحة جلالته.

في الليل المتأخر، أثناء وداع هاملتون، بدا المنظر مثيراً للاستغراب والدهشة، للحرس، للخدم، للسواق، ولكل من كان موجوداً أيضاً. فالسلطان الذي اعتزل الناس، ولم يره أحد، تقريباً، خلال الفترة الماضية، والذي كان يتباهى بقوته وقامته المديدة، لم يعرفه الكثيرون، بل وأنكره معظم الذين رأوه. كان ضعيفاً شاحباً، وقد تقلص تماماً. ليس هذا فقط، ما أثار الاستغراب أكثر من أي شيء آخر، إنهم رأوه وكان يدرج على كرسي متحرك، ووراءه اثنان من حرسه الخاص، وهاملتون يسير إلى جانبه. بعد صدمة المفاجأة لكل من رآه هكذا، بدا وكأن الثلاثة: السلطان والحارسين، يتعاملون مع الكرسي بمعرفة وألفة.

صحيح أن السلطان أخذ يستعمل عصا في السنوات الأخيرة، وكانت تلك العصا للغواية أول الأمر، ثم أصبحت تساعد أثناء الحديث، إذ كثيراً ما شعر بالقوة والثقة وهو يستند إليها، إلى أن تحولت في وقت متأخر إلى حاجة ضرورية، أو لا غنى عنها، للمشي أو في التعبير.

قال بعض الحرس: «هاملتون حمل إليه هذا الكرسي». صحح آخرون: «أن الكرسي وصل قبل أسابيع، مع الأثاث الجديد الذي جاء عن طريق الطريفة». رفض اثنان أو ثلاثة مثل هذا التفسير، وأصروا أنه وصل هذه الليلة بالذات، والدليل أنه تجري تجربته الآن أمام هاملتون ليتأكد. أما حين استدار السلطان عائداً إلى الداخل، فقد أصبح الجميع على يقين أن استعماله بدأ قبل فترة، وربما بعد المحاولة مباشرة، لأنه لم يبق أحد آنذاك إلا ورآه يعرج وينقل خطواته بصعوبة، قاطعاً الأمتار القليلة بين مكان وقوف السيارة والأدراج، وقد لفت النظر تماماً، وإن عزاه البعض إلى مرض النقرس الذي يشكو منه.

ظل المشهد كحلم، وظل يثير التساؤل والدهشة. أما في اليوم التالي،

عند الضحى، فقد دبت حركة غير عادية في جناح السلطان، ثم في أنحاء متعددة من القصر، وأصبح من المؤكد أن شيئاً ما يجري ترتيبه، لكن لم يجرؤ أحد على السؤال. وحين اصطفت مجموعة من السيارات، وفيها حرس السلطان، وبعض رجاله، وتحركت سيارات أخرى، وهي في العادة ترافق جلالته في رحلاته إلى البادية، فإن التقدير تحول إلى يقين ـ خاصة حين هبّت نسمات الربيع الدافئة وملأت الجو ـ بعزم السلطان على أن يضع حداً لعزلته واحتجابه، وباعتباره لا يزال تحت وطأة الحالة السابقة، فليس كالبادية مكان يعيد إليه الصفاء.

تذكر الذين يشهدون الاستعدادات والحركة النشيطة، والرحلة الأولى لفنر مع أبيه، وكيف أنه كان من نتائجها موافقة هاملتون على البقاء في موران، وأن يكون من رجال السلطان المقربين. لقد مضت سنوات طويلة، وربما طويلة جداً، على تلك الرحلة، لكنها، وحدها، لمعت الآن في أذهان الكثيرين، وكأنها حصلت البارحة. هزوا رؤوسهم وابتسموا، قال واحد منهم: «كان يلزم يجينا الصاحب قبل أيام وأيام». قال غيره: «ما أحد يقدر على القوي إلا الأقوى منه، وهذا الصاحب طلّع، هالحين، الحية من جحرها». قال آخر: «الانكريز رب الدهاء والمكر، والصاحب لا أسلم ولا صار ابن عرب، وأبد لا يغرّكم، لأن الدم ما يصير ماي».

لم يكن الكرسي المتحرك وحده، ما فاجأ الذين يتابعون المشهد، إذ ما كاد يصل السلطان على كرسيه إلى بداية الشرفة حتى حُمل والكرسي معاً إلى نهاية الأدراج. ولما كان باب السيارة مفتوحاً، فقد امتد المقعد الخلفي، بكامله، تقريباً، كلسان طويل، ليلاصق الكرسي تماماً، وبعد أن تحرك السلطان، بمساعدة حارسيه الاثنين اللذين حملاه، واستوى على اللسان الممدود، انزلق المقعد إلى داخل السيارة واستقر. ركض هاملتون، كقط بري، ليركب إلى جانب السلطان من الجهة الثانية.

جرى كل ذلك بسرعة ومهارة، مما أكد أن تدريبات مبكرة وعديدة قد حصلت من قبل. وبين الاستغراب، والمتابعة النشيطة والدهشة وعدم التصديق، ثم السرعة في انطلاق الموكب، حار الكثيرون في فهم أو تفسير

ما يرونه يجري أمامهم، وفات بعضهم أن يتملى السلطان، أو يقدر وضعه الصحي، كما فاتهم أن يعرفوا المرافقين على وجه الدقة والحصر.

وإذا لم يفت أحد، بعد ذلك، التساؤل أو السؤال عن كل ما رأى، فما لبثت التساؤلات، بعد أن انطلق الموكب وغاب، أن أخذت شكلاً آخر: أين وجهة سفر السلطان؟ وإلى متى سيغيب؟ ولماذا لم يصطحب معه أياً من نسائه هذه المرة؟ ولماذا لم تطلب النساء أو لم تحاول، كما هي عادتهن دائماً؟ ولماذا تجاوز السلطان معظم رجاله المقربين، لم يصطحب أي واحد منهم، واصطحب ناهي الفرحان بالذات؟

وعشرات الأسئلة الأخرى أثيرت، أو طرأت فجأة على البال أو على اللسان، لكن لم يكن هناك من يجيب، أو من ينتظر الإجابة.

ناهي الفرحان الذي لم يصدق أذنيه، حين أبلغه طالع أنه سيرافق السلطان، وعليه بعد لحظات أن يتوجه إلى السيارة الرابعة في الموكب السلطاني، تساءل بخوف، بعد أن استوعب كلمات طالع:

ـ واترك الشقا على من بقى، يا أبو جازي؟

وحين لم تستطع عينا طالع، أو كلماته المتلعثمة، أن تجيب، تابع ناهي:

ـ راح تصير بغيبتي، يا أبو جازي، أذلّ من ابليس يوم عرفة.

ـ عساها ما تطول!

انقضى أسبوعان قبل أن تعرف أخبار السلطان الأولية. قيل انه ذهب، خلافاً لعادته، إلى حومة الوادي، ورغم أن الكثيرين لم يصدقوا أن يختار هذا المكان البعيد، والأكثر برودة من غيره في هذا الوقت من السنة، فقد ذهبت الظنون بغيرهم أن شيئاً كبيراً وخطيراً يدبر هناك، وربما تكون الدواحس الهدف الجديد للسلطان. وقال غير هؤلاء: رحلة قنص، وليس مثل الحومة الوادي مكاناً ملائماً. وقالت نسوة القصر: ما اختار ذلك المكان إلا وبباله الوطفانيات، وهالحين يتزوج واحدة ويطلق الثانية، فإذا ملّ منهن، العوالي كلها على مرمى حجر، وحواليه المرابيع والحواتمة وأهل السوافي.

عبد الله البخيت لم يسمع بخبر سفر السلطان، وبزيارة هاملتون، إلا في اليوم التالي للسفر. بعد أن تأكد من التفاصيل، قال، بنغم، لعثمان العليان ولاثنين كانا معه:

ـ . . . وسافر هو والصاحب جميع، ما هو كذا؟

حين اهتزت الرؤوس بالإيجاب، زفر وقال بسخرية:

ـ اي نعم، الفرنجي برنجي، وابن العرب اكنجي. . . أو كرخنجي!

وبعد قليل وهو يدق على ساقه بإيقاع:

ـ أنا صاحبت صاحب، أتاري صاحبي مصاحب، وصاحب الاثنين ما لهوش صاحب، فاشكي لمين الهوى يا أهل الهوى؟

رد ابن العليان بدعابة:

ـ مالك يا أبو بادي ألا تصاحب الصاحب، لأنه وحده يعطيك مفتاح الجنة.

ـ نارك ولا جنة الصاحب!

وغرقوا بعد ذلك في أحاديث أخرى!

خزعل ولأول مرة في حياته يصبح سيد القصرين، إذ رغم الكراهية، والتي تصل إلى حد العداء في راكان وأخوته، فإن الخوف، منذ «يوم الغدر»، مثل الجميع، خاصة وأن الشيخة لعبت دوراً بارزاً في الإشادة بخزعل، كيف دافع عن أبيه وكيف حماه. وإذا كانت مواقف راكان قد خفيت خلال الفترة الأولى، فما لبث أن أصبحت مثار السخرية والتندر في موران كلها، فقد أسرّ اثنان من حرس السلطان، وكانت مهمتهما البوابة الشمالية، إن «راكان أصيب بالإسهال» عندما سمع أو عرف أن أباه قد قتل. وأكد هذان الحارسان أنهما ساعداه في الخروج من المسجد، وأوصلاه إلى بيت موزة بنت دحيان، لكي يغير ملابسه!

لا يعرف على وجه التثبت ما إذا كان شيء مثل هذا قد حصل أم لا، ولكنه راج وانتشر، ثم أهمل أو نسي بعد عزلة السلطان، وما قيل عن طلاقه فضة، ثم ما تلا ذلك من أحداث.

ولا يعرف أيضاً ما إذا كان خزعل قد استغل هذه الأمور واستفاد منها، لكن المؤكد أنه أصبح سيد القصرين أثناء غياب أبيه. ولتعزيز هذه الصفة فقد طلب من زيد الهريدي أن يعيد تنظيم حرس القصر، وأن يلغي جميع الإجراءات، بما فيها ضرب البوق، والملابس المزركشة للحرس، وقد سنّها راكان خلال فترة غياب السلطان في العوالي.

قال ابن شاهين لعدد من أقربائه، بعد أن عرف بما حصل، وكان غاضباً من السلطان لأنه لم يوفد أحداً للعزاء:

ـ . . . وكان سليم الفاتح يكسّر بيبانهم ويعتلي حيطانهم، وهم يتصايحون ويسألون: هل الملائكة كلهم ذكور أم فيهم الإناث؟ والجمل إذا كان يعبر سُمّ الخِياط، فهل يا ترى يصغر الجمل أم تتوسع الابرة؟ وبين الأخذ والعطاء، وهم متبالشين، ما شافوا إلا وهو بينهم، وسمعوه يقول: الملائكة ذكور، والجمال نسور، وراح العن والد والديكم!

بعد أن ترك هذه القصة تستقر في عقولهم ووجدانهم، أضاف:

ـ وحنا هالحين بدل ما ندوّر على الشي اللي يفيدنا، ونعرف عدونا من صديقنا، دوخونا وتوهونا بين حومة الوادي وعين دامة، بين خزعل وراكان، بين البيادا والسواري، وتعال بعد كل هذه الدوخة افتي وقول!

قال أحد الذين يستمعون:

ـ كنا من قبل بهمّ واحد، هالحين صرنا بهمين. كنا بسوالف عين دامة، شنهو اللي صار أو اللي جرى، هالحين فوق عين دامة حومة الوادي، وما ينعرف باكر من هو بعد، وشنهو!

قال آخر:

ـ من دليله البقر طاح بالحفر، فما دام العجرمي هو اللي يفتي ويقول، ترى حنا بألف خير!

رد ابن شاهين بسخرية:

ـ إذا كان رب الدار بالدف ناقراً   فشيمة أهل الدار كلُهم الرقص

قال آخر ينهي المناقشة:

ـ اذكروا الله يا جماعة الخير، لأن من عرف الله هانت مصيبته.

الشيخة التي لم تتأخر لتظهر في قصر الروض قوية متجبرة، ودقات عصاها تسبقها وتعلن قدومها، لم تلبث أن اختفت من جديد. لم تعد ترى أو تسمع أخبارها، حتى حسيبة البصرية اختفت أيضاً. قيل إنها انتقلت إلى قصر الغدير، لأنها لم تقو على البقاء بعد أن سافر السلطان، ولأن سفره هذه المرة يختلف عن المرات السابقة. وقيل إنها التحقت بالسلطان في حومة الوادي. وأكد عدد من خدم وطفة أنها تعمدت أن تختفي، أو تتظاهر بالغياب، لأنها ترتب للإيقاع بعدد من نساء السلطان، بعد أن سمعت أخباراً لم ترتح لها.

وإذا كان احتمال سفر الشيخة إلى حومة الوادي ضعيف أو مشكوك فيه، لأن أحداً لم يؤكده، فإن وصولها إلى الحوطة أمر أقرب إلى الصحة والاحتمال، إذ بالإضافة إلى الدريبي، وهو أحد حراس مهيوب، وقد نقل خبر وصول الشيخة، فإن سرور، حين زار شداد المطوع وفاوضه بشأن الحصان الذي يريد أن يبيعه، ذكر أنه اشتراه من الحوطة، وفي نفس الفترة التي كان خلالها السلطان، مما اضطره لأن يدفع مبلغاً كبيراً ثمناً له.

إن سفر الشيخة إلى حومة الوادي أو إلى الحوطة ليس مهماً بحد ذاته، لكن أن يترافق ذلك مع مقتل ناهي الفرحان، ثم عودة السلطان المفاجئة والسريعة إلى موران، والإجراءات اللاحقة التي اتخذها، فكل هذه الأمور تثير تساؤلات وشكوكاً يتعذر معها معرفة حقيقة ما جرى، أو معرفة الأسباب التي أدت إلى تلك النتائج.

ليس ذلك فقط، إن سفرة السلطان المفاجئة، وعودته المفاجئة، ونوع المباحثات التي جرت بينه وهاملتون، ولماذا اختار هذا المكان بالذات، ولماذا اختار ناهي الفرحان لكي يرافقه في السفر، وعشرات الأسئلة الأخرى لن تجد، حالياً، من يجيب عنها، لأنها حملت معها أسرارها وابتعدت أو توارت، أو لأن الذين يعرفون لا يجرأون، على الأقل الآن، وربما بعد وقت طويل، على أن يتكلموا.

من الطبيعي، والمفهوم أيضاً، أن يقول رجال السلطان، خاصة بعد أن نبّه عليهم مهيوب وحذرهم، أن ناهي سقط في الجب ومات. وأن يشير

واحد منهم، في محاولة لإقناع الذين يسألونه، إلى المرض الذي أصاب عيني ناهي، الأمر الذي جعله لا يرى البئر التي أمامه ويسقط فيها. ورغم أن أحد رجال السلطان أخطأ، لكن بعد مرور بضعة شهور، وذكر أن الرصاصتين اللتين أصابتا ناهي لم تقتلاه، مما اضطر مهيوب لأن يسحب مسدسه ويطلق على رأسه رصاصة أصابته في الصدغ الأيمن وفجرت جمجمته.

أما حول الأسباب فهناك روايات لا حصر لها، لكن أقواها، أو الأكثر رواجاً، واحدة تشير إلى أنّ شيئاً ما حصل في القصر، وكان طالع طرفاً فيه، أما الطرف الآخر، فإنه يبدأ باسم امرأة ثم يمتد ليطال أسماء أخرى، وهذا ما دعا السلطان لاصطحابه من أجل التحقيق معه، أو لاستدراجه، لكي يعرف الحقيقة منه مباشرة، قبل أن يقدم على اتخاذ الإجراءات وإنزال العقوبة. قيل ان ناهي لم يعترف بشيء، لكن ذكر، وبمرح، أن ما رآه يشيب له الأطفال!

ورواية ثانية، وربما كانت أقوى واحتمالها أكبر، أن ناهي طلب الزواج من موضي ابنة السلطان، وكلف عرفان الهجرس أن يفاتح جلالته بالأمر، وهذا هو سبب الغضب، ثم القتل!

الذين لم يقبلوا أياً من الروايتين تساءلوا عن علاقة هاملتون. وغيرهم أشاروا إلى أن قرار السلطان كان مبيتاً وسابقاً على زيارة هاملتون، والدليل أن ناهي قدّم طلباً خطياً بنقله إلى العوالي، أو الحويزة، وأن عرفان لم يرفعه وإنما كتب عليه: يحفظ. لقد فعل ذلك بعد أن زادت مشاكل القصر، وعجز عن حلها، وبعد أن رفض السلطان استقباله، أو حتى الحديث معه بالهاتف.

وهناك رواية ذُكرت بحذر، وعلى نطاق محدود، وقيل ان هاملتون وراءها، تؤكد أن ناهي، ومنذ وقت طويل، يعمل لحساب ابن ماضي، وكان ينقل إليه كل ما يجري في القصر.

الذين يرفضون مثل هذه الروايات يشيرون إلى أن مقتل ناهي، أو موته، حصل بعد وصول الشيخة، وليس خلال الفترة الأولى، وفي ذلك

دليل أن الأمر متعلق بقضية نسائية، ومتعلق بالشيخة شخصياً، وإلا كيف يفسر أن يقتل في الفترة الأخيرة، وأن يعود السلطان بسرعة إلى موران؟

لكن رواية مثل هذه تبقى مليئة بالثغرات، إذ لم تعقبها أية نتائج أو تغييرات بالنسبة لنساء السلطان أو محظياته.

الشيء الذي حصل، وقد حصل بعد أسبوعين من عودة السلطان، أن سُمي خزعل ولياً للعهد، خلافاً لتوقعات الكثيرين، ولرغبات هاملتون، كما قيل. بل أكثر من ذلك، هناك من يؤكد، وإن يكن بتكتم شديد، أن هاملتون لم يأت موران إلا بهدف إقناع السلطان بتسمية فنر ولياً للعهد، خاصة بعد أن بدأت تتسرب أخبار مرض السلطان، وما قد يترتب عليه من عجز أو وفاة.

أما وصول الشيخة السريع وغير المتوقع إلى الحوطة، فقد كان نتيجة ما بلغها من أخبار حول ما يجري ترتيبه بالنسبة لولاية العهد، وهذا ما حملها، وبالاتفاق مع خزعل، على أن تلتحق بالسلطان، وأن تمنع أو تؤخر ما يحاوله هاملتون. وقيل انه كان ضمن رجال السلطان من يبعث الأخبار إلى الشيخة وإلى خزعل، وهذا ما دعاهما إلى التحرك بسرعة. ومما يؤيد مثل هذا الاحتمال أن هاملتون عاد مباشرة إلى العوالي، عاد غاضباً، وقيل انه لم يستأذن بالسفر.

وفي وقت لاحق قيل أن ناهي الفرحان هو من أبلغ الشيخة أو خزعل، وهذا ما أغضب السلطان فأمر بقتله في لحظة غضب، خاصة بعد أن أعطى هاملتون كلمة بالموافقة، إذا لم يكن بتسمية فنر ولياً للعهد، فلا أقل من أن يكون شريكاً في جميع الأمور، بحيث لا يفعل خزعل شيئاً دون استشارة فنر وموافقته.

إن هذه الأمور من التداخل والتعقيد إلى درجة يمكن معها لأية رواية أن تجد ما يؤيدها.

لم تكد تنقضي فترة أسبوعين على عودة هاملتون إلى موران، وثلاثة أيام على عودة موضي، حتى وصلت من السلطان البرقية التالية:

«ولدنا فنر. بعد الاتكال على الله، قررنا تسمية الأمير خزعل ولياً للعهد، فيلزمكم أن تأخذوا البيعة له، ونكلفكم بذلك نيابة عنا».

وفي الجامع الكبير، الذي جرت فيه محاولة الاغتيال، استقبل الأمير فنر وجوه وشيوخ العوالي، وأخذ البيعة لأخيه خزعل، كولي للعهد!

كتب هاملتون في يومياته: «تسمية الأمير خزعل ولياً للعهد تعني مرحلة جديدة وشاقة، ويجب أن يعيد الإنسان حساباته، وأن يتوقع الكثير».

الخاتم الفضي، المائل إلى السواد، بحجر العقيق، الكامد، هو الارث الوحيد الذي تركه الشيخ عوض لحفيده فنر، حين قدمته إليه الجدة، فعلت ذلك بكثير من الحفاوة والاهتمام، وقالت إن الجد أوصاها أن تبلغ فنر «من الجد إلى الحفيد، ومنه إلى ولد الولد، ومعه العز وطول العمر والسعد». وقامت الجدة بوضعه في بنصره الأيسر، وبعد أن بخرّته، وقرأت عليه آية الكرسي تسعاً وتسعين مرة، وكانت قد دفنته في تراب طاهر سبعة أيام، وفي اليوم الثامن، توضأت وصلّت ركعتين، وقرأت تبارك، ثم استخرجته، وذبحت ديكاً أسود. أما وهي تضعه في بنصر فنر، فقد أسبلت أجفانها، لكي تخفي الدمعتين اللتين انحدرتا، إلى جانب الصوت الخافت المتضرع أن يقوّي الله فنر وينصره على أعدائه ويرد كيد حساده.

وفنر الذي كان بعيداً أثناء وفاة الجد، اعتبر ذلك الإرث، مع الأدعية، حرزاً فتقبله بكثير من الامتنان والتذكر، وقال لجدته.

ـ الأمانة وصلت، وراح تتسلم لراعيها، ومنه لولد الولد.

ثروت كانت أول من لاحظ انتقال الخاتم، بعد تلك السنوات، من بنصر اليد اليسرى إلى بنصر اليمين. وحين نظرت إلى عينيه متسائلة، وقبل إن تقول كلمة، خرج صوته حازماً:

ـ ما أريد اسها أو أنسى يوم من الأيام... وإلى حين ترجع الحقوق لأصحابها!

وقد فهمت كلماته فابتسمت، وهزت رأسها علامة التأييد.

أما ماذا خصل منذ «يوم الغدير»، كما أصبح يطلق على محاولة

الاغتيال، وإلى أن سمي خزعل ولياً للعهد، ولماذا أخذت الأمور هذا المجرى، وخلافاً لما كان متوقعاً، فإن الروايات تتداخل وتتناقض إلى درجة تجعل كل شيء ممكناً، وكل تفسير له مبرراته. بل أكثر من ذلك، إن الأسباب الخفية، والتي أخذ الكثيرون يرددونها، بدت، في أغلب الأحيان، أشد قوة وإقناعاً من تلك التي كانت متداولة من قبل.

فزواج فنر من ثروت، وقد ولّد في حينه، فرحاً عم قصر الروض، وكان مناسبة للتعبير عن المودة، من خلال الهدايا الثمينة التي قدمت، ولم تبدر ملاحظة حتى من نساء القصر على هذا الزواج، بدا في هذه الفترة وكأنه السبب الذي دفع السلطان إلى تسمية خزعل ولياً للعهد، إذ وجد من همس أن التسامح الذي أظهره السلطان في البداية شكلياً وظاهرياً. فقد حقد في أعماقه على فنر، «لأنه خان الأمانة». ويؤكد هؤلاء أن ندم السلطان تجلى أثناء فترة العلاج، إذ لأول مرة يرى ثروت من هذا القرب، ويتملى منها، وأحس أنه خُدع!

الذي سمعوا هذه الرواية سخروا كثيراً، لأن ثروت، التي بدت جميلة بأعين الذين رأوها لأول مرة، فقد كان هذا الانطباع نتيجة بياض البشرة وصغر السن، أكثر من أي شيء آخر. أما بعد أن مرت سنوات، ومثلما يحصل لمعظم التركيات والشركسيات، فقد خبت، وتراجع جمالها، بل ودب إليها الهرم مبكراً، ولن تلبث أن تصبح، بعد بضع سنين، مثل أمها. ولذلك لا يعقل أن يكون سبب مثل هذا وراء التغير الذي حصل، خاصة وأن لدى السلطان من النساء من هن أجمل وأكثر فتوة وأشد بياضاً!

ولأن التغير، كما يؤكد عدد من الحرس والخدم، ظهر على السلطان في العوالي، وحتى قبل «يوم الغدر»، فقد تكونت قناعة لدى الكثيرين أن فريزة خانم تتحمل المسؤولية، إذ بالإضافة إلى المكان الزري الذي خصصته للشيخة، وكان عبارة عن غرفتين في منتصف المسافة بين القصر وقسم الخدم، وكانتا في وقت سابق مستودعاً، ثم أصبحتا المطبخ الخارجي للقصر، فإن طريقة التعامل، ثم العلاقة التي قامت بين المرأتين، ولدت النفور فالكراهية، وحين أوعز فنر لزوجته إصلاح الموقف، ونقل

الشيخة إلى الطابق العلوي من القصر، فقد كان الوقت متأخراً، وأصبحت العداوة مستحكمة. خاصة وأن الشيخة، كما أكد أكثر من واحد، عبرت عن رغبتها باستدعاء مبروكة العمياء، لتقرأ لها طالعها، إلا أن فريزة خانم أرجأت الموضوع مرة بعد أخرى ثم تظاهرت بالنسيان إلى أن تم تجاوزه.

بعد عدة سنين، حين أشار فنر، عرضاً، وهو يتذكر، إلى غضب الشيخة، ونظر إلى فريزة خانم، وكانت قد سمعت في حينه لوماً مماثلاً من ثروت، فقد ردت بسخرية.

ـ يشهد الله أني ما عاملت امرأة مثلما عاملت الشيخة. عرضت عليها القصر كله، قلت لها اختاري. قالت: ابعديني عن الزلم وعن الهرجة أبعدك الله عن نار جهنم. قلت لها: الطابق الثاني لفنر وأولاده، قالت: كل شيء إلا الصغار، لأن صدري ضيق وما أحمل. قلت لها: بمكاني، في الطابق الأخير، وتكون فرصة نسولف ونتسلى، قالت: ما بي حيل للسلم، وهذا ينراد له شباب. ما تركت مكان إلا وعرضته، قالت: أريد الفلا، وأريد أكون وحدي، ولو بخيمة. قلت لها، وأنا خايفة: هنا، بالحديقة وبعيد عن مدخل الرجال، غريفة، وثانية ببطنها، قالت: اي، راويني الله يروّي عليك، ولما شافتها قالت: هذا مكاني وما أريد غيره!

تهاني قالت لوهيبة لما جاءت مبروكة إلى قصر الروض، بعد شهور من زيارة العوالي:

ـ ولما شافتها الشيخة بالطريفة انشرح صدرها، وقالت: الله سبحانه وتعالى نور عيونها بقلبها، ومن الصوت، ومن لمسة اليد، تعرف كل شيء.

وهذا ما تأكد أيضاً حين التقت المرأتان، فقد ظهر، لكل من رآهما، أنهما تعرفان بعضهما من قبل، من طريقة السلام والمودة، وقد عبرت الشيخة عن ذلك بوضوح، وقلما تفعل ذلك، أما مبروكة فإنها دست في يد الشيخة، خلال الدقائق الأولى، شيئاً، ثم أغلقت اليد. لقد فعلت ذلك حين خيم الصمت للحظات، وحين ضربت الشيخة كتفها دلالة المودة!

رغم كل ذلك ظلت القناعة تزداد رسوخاً أن الشيخة ليست بعيدة عما

حصل، لكن اختلف تفسير دوافعها. فالأمر ليس له علاقة بفريزة أو مبروكة، وإنما له علاقة براكان، فتلك المودة التي أبداها فنر تجاهه، وطريقته في معاملته، أوغرا صدر الشيخة، وحملاها على مقاطعة الأماكن التي يكون موجوداً فيها، وحدد بالتالي موقفها من فنر.

وإذا كانت مثل هذه التفسيرات راجت ولاقت قبولاً في الجناح الغربي من القصر، وفي موران، فإن في قصر البحر، الذي انتقل إليه فنر مؤخراً، وفي العوالي كلها، تفسيرات أخرى مغايرة. فالتجار والوجهاء الذين أبدوا رضى عن وجود فنر في العوالي، وكانوا قادرين على التفاهم معه، وهيأوا جواً لتسهيل مهمته، لأنهم خافوا أن ينتقل إليهم جو موران، أو أن يأتي ليحكمهم من لا يعرفونه، أو من لا يستطيعون التفاهم معه، فقد سرت في السوق إشاعات قوية أن محاولة الاغتيال من تدبير أهل موران، وتجرأ بعضهم وقال إن خزعل وراء المحاولة، بدليل أنه كان قريباً جداً من السلطان، وكان متنبهاً وجاهزاً، بحيث «حمى» أباه من المحاولة، وتلقى الطعنات في مكان غير خطر، وهو الذي صاح على الحرس لكي يبطشوا بالقتلة، كما أنه قام بالإجهاز على واحد منهم بنفسه، لأنه لا يريد أن يبقى أي واحد منهم حياً. وهذا ما يفسر سرعة التخلص منهم، ثم الأهازيج التي أخذ يرددها!

أما لماذا اختار هذه الصيغة، وهذا المكان للمحاولة، فلكي يدلل لأبيه أنه الوحيد الذي أنقذه من موت محقق، وأنه عرّض نفسه للقتل بدلاً عنه. وليثبت أيضاً أن الطريقة التي تدار بها العوالي، أي طريقة فنر بالذات، تخلق مكاناً أو مناخاً للمؤامرات التي تهدد السلطنة والسلطان، ولذلك يجب أن يتغير كل شيء، وأن يُعطى درس لفنر.

خارج الأسواق في البيوت الفقيرة، وفي الأرياف والجبال، أحس الناس أن الأمور تزداد صعوبة كل يوم، ولذلك لم يفرقوا بين فنر وغيره، ولم يستغربوا أن تجري محاولات لاغتيال السلطان أو أحد أبنائه، كرسالة أو كإنذار، أن الأمور لم تعد تحتمل، ولا بد أن تتغير بعد هذا العذاب الطويل.

اثنان من المنجمين قالا، أمام عدد كبير من الناس، في سوق الخميس، أن مشرف البكيري له علاقة بالمحاولة، وقد غادر الطريفة قبل ثلاثة أيام من وقوعها. وحين بعث وراءهما مهيوب ليسمع منهما، وبعث أيضاً ليستدعي مشرف البكيري، دون سؤال السلطان، ودون علمه، فقد ثبت له من الأقوال التي سمعها أن مشرف تصله أموال من عدة جهات، وأن رجال ابن ماضي يزورونه، وأنهم لم يتركوه خلال الفترة الماضية. أما مشرف نفسه فلم تجده المفرزة التي أرسلها مهيوب، وتضاربت الأقوال حول المكان الموجود فيه. ويلغ الأمر ببعض مريده أن أكد سفره للهند، لكي يكشف جريمة وقعت هناك!

وأكد أحد هذين المنجمين أنه قادر على معرفة الذين وراء المجرمين، إذا استطاع مهيوب أن يؤمن له خصلات من شعر وقطعاً من ثياب القتلة، ولم يعرف ما إذا كان شيء من هذا قد جرى أم لا، لأن تقصي هذه المعلومات تم في جو من الكتمان الشديد، ومن قبل مهيوب بالذات. أما حين سافر مع السلطان فقد انقطع الحديث، ولم يعرف ما تم بعد ذلك.

ومما يعزز عدداً آخر من التفسيرات، ويعطيها أهمية، خاصة في الأوساط القريبة من السلطان، ثم يجعلها بمنزلة الحقائق التي لا تقبل الشك أو النقاش، أن تغييرات عديدة أخذت تحصل. فإن يعود السلطان إلى قصر الروض، وأن يقلّ خوفه من موران، بعد تلك الهواجس التي ركبته خلال الشهور الماضية، وأن يقرّب خزعل، ويبعد الآخرين، فإن الذين يراقبون بصمت، ويرون ذلك يجري أمام أعينهم، وقد يسمعون، بعض الأحيان، كلمات لا تصل إلى الآخرين، فإن هذا جعل القلق يدخل إلى نفوسهم، وفي حالات معينة، يطلق ألسنتهم، خاصة أمام الأهل والأصدقاء، وقد زاد ذلك في بلبلة الأمور، لأن القصص، وهي تروى، يحرص الذين يروونها على إخفاء أسماء الذين سمعوها منهم، أو تمويهها، زيادة في الحذر، ولئلا يخلقوا إحراجات جديدة، خاصة وأن مهيوب، في هذه الفترة، أصبح لا يترك أحداً أو خبراً دون أن يتحقق منه ويتابعه بنفسه. ولا يعرف ما إذا كان هذا الإجراء بمبادرة شخصية منه، لرغبة في متابعة الجريمة، أو

بناء لتعليمات من السلطان، لأن أحداً لم يعد يرى السلطان، أو يسمع أخباره، وأصبح مهيوب، تقريباً، وحده، أو أحد أشخاص قلائل، الذي ينقل أوامره ورغباته.

أما حين وصل إلى العوالي، بعد أسبوعين من تسمية خزعل ولياً للعهد، وقيل انه يحمل صدقات السلطان إلى الفقراء هناك، فقد بقي ثلاثة أيام في الطريفة، غاب بعدها. وظل الدافع لمجيئه غامضاً، ثم اختفت آثاره، رغم أن فنر أوعز لعدد من رجاله بمرافقته، وأن يلازموه تماماً، لكنه، في مرحلة معينة، استطاع أن يتخلص منهم، بحجة الاستراحة في عين دامة، ومقابلة عمير.

وفي هذه الزيارة انتشرت إشاعات كثيرة أيضاً. فالذين اتصل بهم من الوجهاء والشيوخ، وقدم إليهم هدايا السلطان، سألهم، بشكل غير مباشر، عن البيعة، كيف تمت، ومن بايع ومن لم يبايع، ورأي الناس، وكان السؤال يتضمن، بمكر ومداعبة رأيهم بفنر، وقد فسر الكثيرون دافع الزيارة بهذا الموضوع بالذات، ولا شيء غيره. وآخرون قالوا أن ابن ماضي يحاول العودة مرة أخرى، وأنه جدد اتصالاته بعدد من الشيوخ، وقيل أنه التقى ببعضهم في عرض البحر، وقد عزز مثل هذه الشكوك سؤال مهيوب عن المواني الصغيرة، بما فيها مواني الصيد، وقد دوّنها، بالأسماء، مرافقه، شكري الروماني، وسأل عن أسماء أصحاب المراكب والوجهاء والأقوياء، ولم ينس مواعيد الصيد أيضاً!

أما الذين يعرفون، أو سمعوا، عن علاقة مشرف البكيري بالسلطان، فكانوا على يقين أن زيارة مهيوب تتعلق بهذا الموضوع وحده، ولا شيء غيره. ولما كان مشرف خلال هذه الفترة غائباً، فقد تعززت شكوك سابقة، وهذا ما يفسر أيضاً الهدايا السخية التي أعطيت لبعض منجمي العوالي، فقد أعطيت لسبعة منهم كسوة كاملة، وقيل ان الذي طلب من مهيوب شعر القتلة أو أجزاء من الملابس، رافقه إلى موران.

وأكد مساعد حفار القبور في مقهى الحويلة بالطريفة أنه وجد عدة قبور منبوشة. الأمر الذي أثار شكوكه ومخاوفه أن تكون الحيوانات الجائعة قد

فعلت ذلك، خاصة وأن المقبرة تعرضت لحالة مماثلة قبل سنين، مما استدعى شراء سلاح لقتل الغريريات والكلاب السائبة التي تشاهد في المقبرة، لكن ظل السلاح دون استعمال، إلى أن سرق!

العجرمي الذي لم ير مشرف البكيري، ولم يعرف بعلاقته بالسلطان إلا متأخراً، والذي قضى في عين دامة شهوراً، وظل ينتظر القمر ليصير بدراً سبع دورات، وقد ثبت له بالدليل الحسي أن صحته تحسنت أكثر مما قدر في البداية؛ تعرض العجرمي لانتكاسة حين وصلته رسالة مشتركة من ابن العليان وعبد الله البخيت، يطلبان فيها أن يلتحق بالسلطان، في الطريفة، لأن المسألة مسألة موت أو حياة، بعد أن وصل السحرة والمنجمون إلى السلطان، وأصبحوا وحدهم الذين يحكمون ويرسمون. وذكر عبد الله البخيت في الرسالة أموراً مفزعة، وقد صاغها بطريقته. وطلب من ابن السويد الذي حمل الرسالة أن يروي له غيرها، ودربه خلال ليلتين كيف يجب أن ينقل الأمور إلى الشيخ، وأن يستعمل كل الوسائل لإقناعه بخطورة الوضع. ويبدو أن كلام الرسول أثر أكثر من الرسالة، وبدا لابن السويد، وكان يطمح أن يكون وكيلاً لابن العليان في العوالي، الأمر طريفاً، فأضاف من عنده الكثير، ليحمل العجرمي على أن يلتحق بالسلطان فوراً. لم يكن العجرمي بحاجة إلى هذا التحريض كله، فقد حنّ أيضاً للأهل والدار والأصدقاء، وكان متأكداً أن السلطان لن يطيل الإقامة في العوالي، وقرر، في نفسه، الموافقة على أن يعود معه بالسيارة!

بعد شهور، وبعد أن سمع العجرمي الكثير، عن مشرف وغيره من المنجمين، وبعد أن شهد محاولة الاغتيال، وقد تأثر من ذلك إلى درجة أن طلب من مهيوب إعادة الحرس، بعد أن كان قد صرفه منذ شهور طويلة، وقبل إقامته في عين دامة، فقد تبين له أن المخاطر لا تزال كبيرة، ولام نفسه أنه ترك السلطان وحده فريسة لهؤلاء «الذين لا يخافون الله». أما بعد عودته إلى موران فقد طلب من عبد الله البخيت مساعدته في كتابة رسالة إلى علماء العوالي، لكي يبصرّهم أن السحر حرام، وأن لديهم ساحراً أفاقاً لا بد من محاربته، لأنه تأكد من كفره. وابن البخيت الذي وجد الأمر

طريفاً، فتح أحد الكتب التي أحضرها معه من مصر، وكتب في الرسالة ما يلي: «. . . ما يقول السادة الفقهاء رضي الله عنهم وأرضاهم في رجل يرى أنه من أئمة الشرع، ومن أرباب الأصل والفرع؛ ويعتقد أن له الدرجة المنيفة في مذهب أبي حنيفة؛ ويقول لو جادلت مالكاً لكنت له مالكاً، ولو لقيت ابن إدريس لسلم لي التدريس؛ ولو أدركت ابن حنبل لكنت أتقى وأنبل، وسره وفقكم الله بخلاف نجواه، وفعله يكذب دعواه، وذلك يبيح أنه يبيح الفروج بفروج، ويستحل سفك الدما على البيض الدمى، ويأخذ بأرخص الأقوال في استباحة الأموال. ان ولي المدارس صيّر العلم كالطلل الدارس، وان دخل الجامع صانع فيه وجامع، وإن سكن المساجد طلب الرقص والشاهد، وإن صعد للوعظ على الأعواد حث الحرم على الوفاء بالميعاد، ومزج لهم الهزل بالجد فأخرجهم في الحال إلى البد، ثم إنه لركاكة دينه، وضعف يقينه، يصلي قاعداً من غير ألم، ويبول قائماً على فرد قدم، وتراه يسهر على التمام والورد، وينام عن ليلة القدر، يحلل بيع القبلة بقبلة، ومكة بصكة، ولا يشتري حجة بعجة، ولا عمرة بتمرة، قد أخرج مال الفتوح والصدقات، في وزن المهور والصُدقات، وصير مال الحبس والأوقاف، لربات الشنوف والأرداف. وقد أفرخ في الوطء قواه، واتخذ الهه هواه، فغدا بلا عقل ولا حلم، وأضله الله على علم، وختم سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، فبينوا لنا، وفقكم الله، هل يجب أن يضرب السلطان على يديه أو يقره على ما هو عليه؟ مأجورين مثابين، إن شاء الله تعالى»(*).

لقد سرت الرسالة العجرمي إلى أقصى حد، ولام نفسه أن بخس ابن البخيت حقه، حين عنّفه أكثر من مرة لتركه الصلاة. وطلب منه أن يستنسخ له صورة منها ليحتفظ بها، ويحاول أن يحفظها، إذ قد يحتاج إليها في المستقبل!

(*) من منامات الوهراني ومقالاته ورسائله، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نفش ـ مراجعة عبد العزيز الأهواني ـ القاهرة ١٩٦٨.

لم يكتف بذلك، طلب من ابن البخيت وابن العليان معاً، أن يعملا ما بوسعهما من أجل الحصول له على كتب من مصر والمغرب لإبطال السحر، ورد كيد السحرة، لأن مشرف البكيري طالما ظل مختفياً أو غائباً لا بد أن يستمر مؤثراً، «ولا بد محاربته بسلاحه».

راكان الذي رافق أباه، وأبدى ندمه، وحاول أن يصحح مواقفه وسلوكه، تأخر ثلاثة أيام في الطريفة، بحجة المرض، وقيل ان خلوات طويلة جرت بينه وبين فنر. أثناء عودته إلى موران توقف أياماً عند أخواله، كانت فضة هناك، وقد استطاع أن يقنعها بضرورة العودة معه إلى موران، وأن تتناسى الكثير مما حصل. «لأن هذي فرصتنا، فإذا ضاعت منا ضاعت علينا». وفضة التي غضبت من طريقة استدعاء راكان، وأقسمت ألا تعود إلا إذا جاء مهيوب وقبّل قدمها، وعند ذاك فقط قد تفكر بالعودة، وقد تكون لها مطالب أخرى!

الآن، وقد جاء راكان، وزعم أن استدعاء السلطان له كان بدافع الشوق، أكثر من أي دافع آخر، وأورد الكثير من التفاصيل حول محاولة الاغتيال، كيف جرت، وكيف أغلق الباب بنفسه ليمنع هرب المجرمين، ثم كيف أوعز لرجاله أن يحيطوا بالسلطان، وقد وضع رأسه على ساعده طوال الفترة التي استغرقها إسعافه، وكان أبوه ينظر إليه بكثير من الحنان والامتنان... بعدما أورد راكان هذه التفاصيل، رقّ قلب فضة، وقررت أن تعود. بل وبلغ الأمر أن انحدرت دموعها، ثم أجهشت بالبكاء، وفي إحدى اللحظات طلبت أن تسافر على الفور، وأصرت، لكن أخوتها وعدداً من الأقارب تدخلوا لثنيها عن السفر وتأجيله يوماً أو اثنين، ليأنسوا بوجود راكان، ولأنهم يريدون أن يتحدثوا بأمور كثيرة، وحين أصرت على السفر، قالوا أن السفر ليلاً مليء بالمخاطر، ولا بد من الانتظار إلى الصباح. في اليوم التالي وافقت على إرجاء السفر يوماً آخر، لكن بكت أكثر من مرة، ورفضت تناول الطعام مع الآخرين، وقيل إنها لم تتناول الطعام أبداً!

أما حين وصلت قصر الروض وكان الوقت بعد الغروب، فقد دخلت بصمت، كما يدخل اللصوص، وقيل ان الكثيرين لم يعرفوا بوصولها إلا

في الضحى العالي لليوم التالي، أما حين أُبلغت الشيخة، فقد ردت بسخرية:

ـ والطقعة!

هاملتون اعتبر تسمية خزعل ولياً للعهد، ضربة قاسية. لكن بعد أن زالت المفاجأة، بدأ يخطط إلى ما بعدها. قال لفنر، في إحدى الليالي، وكان يتمشى في شرفة القصر الجديد المطلة على البحر:

ـ الضربة التي لا تقتلني تقويني وتفيدني.

وفنر الذي فهم أي شيء يعني، وكان الحوار، أغلب الأحيان، يستمر من حيث توقف في وقت سابق، وأصبح الاثنان يفهمان بعضهما دون مقدمات، فقد آثر هذه المرة الصمت. كان حائراً ومملوءاً بالمرارة، وسيطرت عليه، خلال فترة طويلة، حالة سوداوية أقرب إلى التشاؤم، ليس لأن الفرصة فاتته فقط، وإنما لأن الأمور أخذت هذا السياق، وتوقع أن تتلوها أمور أسوأ. وهاملتون الذي لاحظ، وقدر أيضاً، كيف يفكر فنر، كان يريد أن يخرجه، وبسرعة، من هذا التخبط.

تابع بنفس النبرة:

ـ ثم إن بناء الدول ليس عملاً مزاجياً، أو شيئاً يتم بين يوم وآخر. إنه يحتاج إلى الكثير من الجهد والذكاء، إضافة إلى الاستفادة من الظروف...

وضحك وهو يضيف:

ـ والظروف تتغير كثيراً، خاصة في هذا الشرق!

ورغم أن الرجلين يتحاوران، إلا أن جزءاً من الحوار، يتم، في بعض الحالات، من خلال الصمت، أو بنظرة عابرة. ويكون الصمت، أو تكون النظرة، كافياً للتعبير. وفنر الذي يتلحف الصمت، كما يتلحف عباءته، تستبد به أحياناً، رغبة المشاكسة، فيلجأ إلى التعليقات القصيرة الساخرة. وهاملتون الذي يعرف هذه الصفة يحتال عليها بالابتسام، بتغيير الموضوع، لكنه يرجع إليه المرة بعد الأخرى.

في هذه الليلة، وقد تحصن فنر بصمته، قال هاملتون وهو يذرع الشرفة:

ـ ثم إن الدول ليست فقط الملوك، إنها أكثر من ذلك وأهم. . .

وفجأة استدار وأسرع بخطواته، أمسك الكرسي المقابل لفنر، من الخلف، استند إليه، تطلع بإمعان، فلما تأكد أنه خلق جواً، تدفقت كلماته:

ـ كيف يمكن أن تجعلهم ليس فقط بحاجة إليك، وإنما لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً دون الاستعانة بك؟ أن تكون عقلهم الذي يفكر، يدهم التي تضرب، عيونهم التي يرون بها، وآذانهم. . . بكلمة أخرى: يجب أن يشعروا شعوراً قوياً ومستمراً أنهم غير قادرين على أن يفعلوا شيئاً دون الرجوع إليك.

هاملتون يعرف أن كلماته ليست عبثاً كلها، قد تسرق الريح قسماً منها، وربما موهتها الرغبة أو الطموح، وقد يفسدها تشاؤم فنر، لكن، مع ذلك، يبقى قسم منها وكان يكفيه، الآن، هذا القسم. كان يقول لنفسه: يجب أن يتصف السياسي بمزايا عالم الآثار: «أن يبحث في المكان المناسب، أن يبحث بصبر، لكن بدأب، وعليه ألا يهمل أي دليل، مهما كان ثانوياً، ويجب أن يفكر بعمله حتى أثناء النوم، إذا توافرت هذه المزايا لا بد أن يصل!».

تابع دون أن ينتظر تعليقاً من فنر:

ـ يجب أن نعمل وأن نصبر.

رد فنر بسخرية واستفزاز:

ـ عش يا كديش إلى أن يجيك الربيع!

وهذا المثل الذي سمعه هاملتون مرات كثيرة، وعرف معناه، ومتى يطلق، رد بحدة:

ـ أنتم البدو أبناء اللحظة وأبناء المزاج. وحتى ما تدعون من أنكم قادرون على الانتظار أربعين سنة لكي تثأروا، فإن ذلك نتيجة العجز وليس نتيجة الصبر. دائماً تمتلئون بعدم الرضا والرفض، لكن دون أن تعرفوا ماذا تريدون وماذا يرضيكم!

وقف فنر، اتجه إلى نهاية الشرفة، وقال بسخرية:

ـ وأنتم، يا الصاحب، ترون البدو الذي يمرون أمامكم، ترون أشكالهم، لكن لا تعرفون أعماقهم، لا تعرفون كيف يفكرون، وماذا يملأ عقولهم وصدورهم، ولذلك فإن الواحد منكم يتوهم، يرى ما يريد فقط، أما الأشياء الأخرى. . .

ظل هاملتون في مكانه، مستنداً إلى الكرسي، وقال بحدة أقرب إلى الغضب:

ـ يا صاحب السمو، اعتبر الأمور لا تزال في بدايتها، ولا تزال أمامنا واجبات كثيرة.

لم تعجبه هذه البداية. صمت: الصمت لا يؤذي فنر، أو بالأحرى يروق له.

جلس على الكرسي. صب لنفسه قدحاً. شرب. قال بطريقة جديدة:

ـ لا أعرف كيف يمكن أن نطلق على الأشياء بعض الصفات دون أن نخطئ. هناك قوة مجهولة، هل هي الصدفة، أم القدر، أو ربما لها تسميات أخرى، تلعب دوراً أساسياً في كثير من الحالات؟ أن يكون خزعل أكبر سناً. أن تجري محاولة الاغتيال. أن تأخذ الأمور هذه الصيغة. . . إن كل هذه الاعتبارات تلعب أدواراً هامة، وبعض الأحيان حاسمة، والمهم، إزاء مثل هذه الاعتبارات، كيف يتصرف الإنسان، كيف يكون رد فعله. هذا هو التحدي الحقيقي، وهذا ما يميز إنساناً عن آخر، وبالتالي يجعل هذه القوة معه أم ضده!

راق لفنر هذا الانفعال. كان شديد التنبه، ويعتبر الاستفزاز أو الصمت، أهم الوسائل من أجل الوصول إلى الحقيقة، قال بعد لحظات صمت طويلة:

ـ بهذي البلاد، طال عمرك، يقولون: احذر عدوك مرة واحذر خويك ألف مرة!

ـ الحذر ضروري في كل الأحوال، تجاه الأعداء والأصدقاء، لكن الأهم من ذلك: كيف تجعل أعداءك وأصدقاءك معاً بحاجة ماسة إليك؟ كيف ترغمهم، بغض النظر عن الحب والكراهية، على أن يعتبروك ضرورياً

إلى أقصى حد، وأنك الوحيد القادر على أن تفعل شيئاً يناسب الحالة، وتجعلهم، أيضاً، مضطرين للموافقة، لأن ليس هناك إلا البدائل الأسوأ؟

بعد سنوات طويلة سوف يتذكر فنر هذا الدرس مرات عديدة، لأن هاملتون لم يمل من تكراره، وبأشكال مختلفة؛ ولأن هذا الدرس، بمقدار ما يبدو بديهياً وبسيطاً، ويكن أن يمارسه الكثيرون دون وعي، وربما بحكم الغريزة، فإنه يبقى أهم الدروس وأصعبها، وقد يحتاج إلى مراجعة يومية.

قال لثروت في الليل المتأخر:

ـ أحد عيوب السلطنة أنها تبدأ بشخص قوي وذكي، لكنها عندما تستقر تستغني عن القوة والذكاء، وتستبدلها بعيوب الدولة التي جاءت بدلاً عنها.

وثروت التي لم تفهم ما يريد قوله، قدّرت أنه يعني أباه وخزعل، قالت لتغير الحديث:

ـ الرجال يخافون من الأشياء التي لن تحصل أبداً، أما النساء فعندهن مشكلة واحدة: المشكلة القائمة، وهذه وحدها هي التي تحتاج إلى الحل، وعندما تأتي المشكلة الأخرى، يجب أن يفكر بحلها، أما قبل أن تقع تلك المشكلة فإن من العبث التفكير بحلول لمشاكل وهمية!

وحين اقتربت منه، ابتعد قليلاً، لينظر إلى عينيها، ولما ابتسمت بسخرية، قال وهو يضمها:

ـ بسيطة، وتشوفين!

فنر الذي سافر ورأى العالم، وعرف الكثير من أسراره وخباياه، والذي التقى بالكثيرين وتعلم منهم، كان يوماً بعد آخر يزداد خوفه من العالم ومن الناس، وكان يزداد شكه أيضاً. يعتبر الشر قوة مسيطرة، والخير إذا لم تكن له أنياب لا يمكن أن ينتصر. أما أفكار أبيه وقناعاته وطريقته في إدارة السلطة، فإن استطاعت أن تقنع أهل موران، أو ترغمهم على الطاعة، فإنها الآن أضعف من أن تواجه التغيرات التي حصلت، لذلك لا بد أن يهيىء نفسه، إذا أراد أن يكون كل شيء في السلطنة.

لكن ما هو العالم أو من هو العالم؟

كان أبوه في كل سفرة يسافرها يوصيه وصية واحدة: «اسمع من كل واحد تشوفه، وشاور كل من تلقاه، لكن لا تعط سرك لأحد، ومثل ما الصلاة غير جايزة إلا إذا توجهت نحو القبلة، فيلزم ما نخطي خطوة إلا إذا تشاورنا مع الخويا، لأن الانكريز، يا وليدي، آفة، ما ينقدر عليهم، والأحسن أن يكون الواحد معهم صاحب».

ولأن الوصية تكررت، فقد حفظ فنر الدرس جيداً، وجاء الذين اختارهم له أبوه ليكرروا الدرس ذاته. أكد له النويعري «إن الانكليز سادة البحر والأرض، وأنهم، مثل الموت، في كل مكان وكل زمان» وجاء بعده الدوسري ليكرر نفس الأفكار وليضيف «عادِ كل الناس وصادق الانكليز، وأنت الرابح». أما عماد فوزي الذي رافقه في أول زيارة إلى نيويورك، فقد همس بأذنه كلاماً مختلفاً. قال له:

ـ بريطانيا كانت قوية في القرن الماضي، وظلت تحتفظ بهذه القوة حتى الحرب العالمية الأولى، أما بعد ذلك، خاصة بعد الحرب العالمية

الثانية، فأصبحت أثراً بعد عين. ونكون مجانين إذا راهنا على بريطانيا.

وأضاف عماد فوزي وهو يلقي نظرة من نافذة الفندق على ناطحات السحاب:

ـ الآن تحكم العالم قوتان: أميركا وروسيا. والذي يفكر في المستقبل ليس أمامه إلا هاتان القوتان، وما دامت روسيا كافرة ملحدة، وما دامت ضد الدين فنحن مع أميركا!

لم يكن فنر بحاجة إلى الكثير ليقتنع، لقد لمس الأمور بنفسه، وان أدركها من قبل بالحدس والتقدير. فبريطانيا، رغم الضجة والمظاهر، تتراجع وتنسحب، رأى ذلك بعينه، لم يقل له أحد. رآه في أماكن كثيرة بعد انتهاء الحرب. وحتى الحرب ذاتها لم تكن لتكسب لولا الروس والأميركيين. الروس قدموا الرجال، والأميركيون قدموا الأموال. أما بريطانيا فكانت تعدّ قتلى الآخرين، وتحسب المساعدات، وتنتظر!

حتى هاملتون لم يعد كما كان. صحيح أنه لا يحمل وداً للأميركيين، لكن يقدر جرأتهم، وتلك الروح العملية التي تملي عليهم مواقفهم وعلاقاتهم. يقول هاملتون بدعابة، حين يرد ذكرهم:

ـ إنهم بحاجة إلى حضارة، إلى جذور.

يهز رأسه عدة مرات ويضيف:

ـ لو أنهم لا يرفعون أبنيتهم بهذا المقدار، ويستعيضون عن ذلك بحفر الأرض، لعلهم يجدون آثاراً لحضارة. . .

ولقد تأكد فنر أن الرياح تدفع المراكب ليس نحو القارة القديمة وإنما نحو القارة الجديدة من خلال ذلك النشاط المجنون لاستثمار النفط خلال الفترة الأخيرة من سني الحرب ثم بعد ذلك.

ويتذكر ذلك الوجه المستدير، الأقرب إلى رأس الملفوف، والذي أصرّ على لقائه في سويسرا، خلال السنة الأخيرة من الحرب، وكان في إجازة. قال له ذلك الأميركي:

ـ الخطر الحقيقي الذي يتهدد السلطنة يأتي من الشرق، من الروس، ولا بد أن يدرك السلطان ذلك، ولا بد من الاستعداد له منذ الآن.

وكأن ذلك الأميركي قرأ ما يدور في رأس فنر، إذ أضاف بسرعة:

ـ والانكليز معنا في هذا التقدير، ويطلبون مساعدتنا!

لما رجع فنر حدّث أباه. قال له: كان الانكليز اسوداً، لكنهم الآن دون أنياب. لم يصدق السلطان أن الأسد يمكن أن يكون بلا أنياب. ابتسم، وربما قال في سره: أوهام شباب، والزمن هو المعلم.

لم يكن السلطان خريبط خالي البال إلى الدرجة التي افترضها فنر، لذلك حين تابع بحماس وهو يحدث عن عظمة أميركا وقوتها، وأن المستقبل لها، ابتسم السلطان، وعلق ببرود:

ـ أنا، يا وليدي، ما زرت لا هذول ولا هذول، ولا شفت ديرة الانكريز ولا ديرة غيرهم، بس اتذكر كلامك بعد رجعتك مرة من بلاد الانكريز، شلون كنت مدهوش ومتعجب، فخلنا نصبر ونشوف!

وحين بدا الحرج على فنر أضاف أبوه:

ـ هناك مسائل، يا وليدي، ما يختلف فيها اثنين: الشجاعة للألمان، والدهاء للانكريز، واللي يحبون الدنيا والكيف الفرنسيين، والطرب للأتراك، والصبر لأهل الهند والصين، واللي يرمون قروشهم بالقاع وما يخافون الأميركان. . .

وضحك السلطان بثقة، وهو ينهي حديثه:

ـ وحنا، وبتوفيق من الله، نصلي ورا علي وناكل مع معاوية، بالسياسة مع الانكريز وبالمصلحة والشغل مع الأميركان!

. . . ولم يتوقف فنر عن السفر. جال العالم من أقصاه إلى أقصاه، وتكونت له علاقات واسعة، فعرف معنى السلطة، وما يجب أن يفعل، خاصة حين أصبح نائباً لأبيه في العوالي. أما المهمات التي كُلف بها داخل السلطنة وخارجها، وملازمة هاملتون له، وأيضاً الرجال الذين اختارهم لكي يكونوا إلى جانبه، فكل ذلك جعله يحس أنه اقترب من الوصول، ولا بد أن يصل، خاصة وأن موقف السلطان من خزعل شديد التقلب والخطورة. فما يكاد يرضى عنه يوماً حتى يغضب في اليوم التالي. صحيح أن هناك أسباباً للغضب، أو لفتور العلاقات، لكن ليس دائماً خزعل وحده المسؤول عن ذلك، فالأخبار التي لا تنقطع يوماً واحداً، والتي تنقلها نسوة السلطان عن البذخ والإسراف في قصر الغدير، ونزاعات النسوة هناك، إضافة إلى التعريض، والذي يصل حدود الشتيمة، بقصر الروض، يدفع الدم قوياً حاراً إلى رأس السلطان فيمتلئ غيظاً ومرارة، فإذا أضيف إليها ما يصله من الحويزة، أو أخبار المناطق، ثم نقمة شيوخ القبائل واحتجاجهم، لأن أحداً لم يزرهم أو يسأل عنهم، فلا بد أن يتذكر السلطان أيضاً أخطاء خزعل مع ابن مياح، عندئذٍ يهدر صوته بالغضب:

- إلى متى يظل كذا يا عباد الله؟ وإذا كانت هذي سواياته وحنا بعدنا طيبين، شنهو اللي راح يسويه إذا متنا وصار هو السلطان؟

ويصل كل ذلك إلى فنر، وكان له أيضاً في موران من يهمس بأذن السلطان عما فعله في العوالي، وكيف أن الأمور تسير من حسن إلى الأحسن، وأنه لا يهدأ ليل نهار، والناس راضون، فيصبح الاقتناع مرجحاً

أن يسمي السلطان فنر سلطاناً بعده، وأن يجعل خزعل ناظراً، وهذه الصفة أو اللقب اخترعه الأتراك في فترة سابقة وطبقوه في العوالي، بل أكثر من ذلك طبقه السلطان ذاته على أبيه، خلال فترة من الزمن!

وفنر الذي يعرف كل ذلك يبقى بعيداً، وغير ظاهر، وبعض الأحيان يبدو زاهداً، إلا إذا كلفه أبوه أو انتدبه لعمل، فلا يتوانى ولا يهدأ. كان يتابع وينتظر. وكان له من يتابع أثناء غيابه. فأمي زهوة التي تحظى باهتمام خاص منه، ويتذكرها في أسفاره بالهدايا التي يحملها، وبإصراره أن يكون ضيفها أثناء إقامته في موران، لا بد أن تتذكره أيضاً، خاصة أمام أبيه السلطان. ولكي لا تنسى كان يبعث إليها من العوالي، بين فترة وأخرى، بالتمر والبخور والرمان، ويوفد أيضاً الأقرباء والأهل لزيارتها، ولا ينسى فتاحي الفال والمنجمين، كان يرسلهم ويرسل معهم العطرة والريحان، وأنواعاً أخرى من الحشائش التي تقوي البصر وتمنع النسيان وتطيب الأنفاس!

قالت تهاني لوطفة، ذات ليلة، بتكتم، وهي تلتفت:

ـ . . . بعد طول عمر، السلطان بعد السلطان فنر!

وحين حاولت وطفة أن تعرف أكثر من ذلك، فسألت، ضاحكة، ما إذا كان هذا رأي الشيخة أيضاً، تخوفت تهاني، فقالت بتلعثم:

ـ وتعرفين. . . كل شي بهذي الدنيا قسمة، وكل شي مكتوب على الجبين!

ولما أرادت أن تعرف بشكل محدّد، قامت تهاني معتذرة، وقالت بتحذير:

ـ ما أريد أوصيك، يرحم والديك: ترى المجالس بالأمانات!

ما قالته تهاني لم يكن سراً، أو لم يعد كذلك، منذ شهور طويلة. حتى خزعل كانت تصله مثل هذه الأخبار، فلا يعرف كيف يداري حرجه. وفي مرات كثيرة، إذا جاء من ينقل إليه ماذا سمع، أو ماذا قال أبوه يصبح عصبياً نزقاً، وكأنه لا يريد أن يسمع أو أن يصدق. ومما زاد في هذه القناعة أيضاً الزيارات الطويلة التي كان يقوم بها السلطان للعوالي،

وبالمقابل لا يكاد يقضي بضعة أيام في الحويزة، حتى يطلب أن تُشدّ الرحال. لقد حصل ذلك مرات عديدة. قال مهيوب في إحدى زيارات السلطان للحويزة، ليبرر الموقف:

- الحويزة ديرتنا وجماعتها أهلنا، وطويل العمر خزعل يكفي ويوفي...

وبعد قليل:

- ويلزم طويل العمر، أبو منصور، يزور اللي ياخذون على خاطرهم!

استمرت الأمور هكذا فترة غير قصيرة حتى ظن الكثيرون أن الأمر حسم، ولا يحتاج إلا لظرف مناسب لكي يعلن. ويبلغ الحال بثروت وموضي أن هيأتا ثياباً زاهية، موشاة بخيوط من ذهب، لهذه المناسبة. ويبدو أنهما تحدثتا في الأمر واستعدتا له تماماً، لكن فريزة خانم التي لاحظت انشغال ابنتها، والمبالغة التي ظهرت منها، خاصة أمام الخدم، فقد قالت تعنفها:

- يلزم تكوني عاقلة وحريصة، لأن ما هو كل شي ينعرف ينقال، خاصة قدام الحريمات، لأن هذولا ما عندهن شغل إلا يسولفن ويبربرن، وبعدما تضيع علينا أو ما نخلص...

وبعد قليل، وقد تغير صوتها تماماً:

- كان أبوك، الله يرحمه، يقول: من طلب الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه!

لقد حفظت فريزة هذه الكلمات من بندر الرفيفان لفرط ما رددها، وهو يصف خطأه المميت تجاه خريبط، وكيف أنه أضاع كل شيء نتيجة هذا الخطأ!

ورغم أن ثروت أخفت الثياب، وبالغت في التهذيب والتواضع مع الخدم، إلا أنها كانت على يقين أن في زيارة السلطان إلى العوالي سيتم إعلان النبأ. وهذا التقدير ليس تعبيراً عن رغبة أو استنتاجاً سريعاً، وإنما نتيجة إشارات، شديدة الدلالة، التقطتها من فنر، خاصة بعد أن ألقى نظرة

على الطابق الأوسط من قصر البحر، حيث سينزل السلطان. لقد ألقى بنفسه نظرة مدققة، وتأكد من كل شيء، فلما اطمأن، قال وهو يفرك يديه:

ـ مكان يليق بالزوار العظام والمناسبات الكبرى!

لكن الرياح، في هذه الصحراء الملعونة، لا تجري أبداً كما يريد أصحاب القوافل، أو الذين يريدون الوصول بسرعة. فتلك الحادثة المشؤومة، محاولة اغتيال السلطان، غيّرت كل شيء!

أما كيف أخذت الأمور هذا المسار بعد ذلك، وماذا حصل في حومة الوادي، ولماذا سمي السلطان خزعل ولياً للعهد، ومن حمله على اتخاذ القرار، ولأية أسباب، فإن الأمور من التداخل والتعقيد إلى درجة لا يستطيع أحد أن يدّعي معرفة ما جرى.

ومع ذلك، فقد قرر فنر، بالاتفاق مع هاملتون، أن يصمد، أن يعتبر الأمر طبيعياً، لعل رياحاً من جهة أخرى تهبّ وتغير المعالم والتضاريس، وتجعل من الممكن أن تُنسى تلك اللحظات المجنونة التي حصلت في المسجد، وربما كانت السبب التي أعطت الأمور هذا المسار.

كانت المراهنة «أن يبقى السلطان، أن يستعيد صحته، أو أن يخطئ خزعل». «أو أن. . .» وابتسم هاملتون، وهو يطرح الاحتمال الثالث:

ـ أو أن تتغير الظروف!

أخذ فنر البيعة لأخيه، وأكد على رجاله في موران أن يتابعوا بدقة صحة السلطان ومزاجه، وأن يوافوه بأي جديد. ولقد سر إلى أقصى حد حين بلغته الأخبار أن السلطان استعاد قوته، وأصبح يشاهد يومياً في حديقة القصر، أو قرب اسطبل الخيول.

استمر الحال كذلك إلى منتصف الخريف، وبعدها لم يعد يشاهد السلطان. قيل بسبب البرد. وقيل ان السودا عاودته من جديد، إذ بعد أن أمر بإطلاق عدد من المحابيس، أمر بعد ثلاثة أيام من ذلك بجلد عشرين أو ثلاثين من الخدم والحرس، ونقل عن لسانه التهديد والوعيد، والسبب أن طالع العريفان اختفى من القصر نهائياً، اختفى دون أن يحس به أحد، ولم يكتشف غيابه إلا بعد يوم أو يومين.

وقيل أيضاً أن سبب غياب السلطان انهيار صحته.

ومثل أي شيء في هذه القصور، إذ يصبح ما يجري داخلها معروفاً وغير معروف، في آن واحد، لكن بدا أن أقوى الاحتمالات انهيار صحة السلطان.

أما كيف بدأ الانهيار؟ وهل أصيب بالعمى خلال هذه الفترة، أم مجرد تقولات تصدر عن الخدم المضطربين؟ وهل أن ما حصل أمر طارئ أم له ما بعده؟ فإن الأخبار التي تخرج من القصر متعارضة متداخلة بحيث لا يمكن الجزم بصحة أي منها، لكن بدا واضحاً أن الحالة الصحية لجلالته تزداد سوءاً يوماً بعد آخر، ومما أكد ذلك وصول الأطباء المتعددي الاختصاصات، وفي فترات متقاربة. وهذا ما جعل رأفت شيخ الصاغة في حالة عصبية أقرب إلى الهياج، إذ ما يكاد يبدأ معالجة السلطان حتى يتدخل الآخرون، من الأطباء والسحرة والمنجمين، والأقرباء أيضاً. ولكل واحد من هؤلاء رأي يختلف عن الآخرين في تشخيص الحالة أو طريقة المعالجة. ونتيجة الاختلافات الكثيرة، والتدخل المستمر من هنا وهناك، تولت الشيخة الأمر خلال فترة معينة، إذ منعت الدخول عليه، وأوقفت الأدوية التي وصفت له، وأكد بعض الأقرباء أنه تحسن، واستمر كذلك لعدة أيام ثم انتكس من جديد، الأمر الذي دعا خزعل للتدخل.

وخزعل الذي كان متعجلاً وخائفاً استدعى طبيباً من حران. لقد استدعاه وأوكل إليه الأشراف الكامل على صحة جلالة السلطان، وفي وقت متأخر قيل إن هذا الطبيب، الذي لا يؤمن بالأدوية الجاهزة، وقام بتركيب الأدوية التي أعطيت للسلطان، تسبب في التعجيل بالوفاة. إنه مجرد ظن، أو اتهام، لأنه في ظل الاضطراب والفوضى يحق لكل إنسان أن يقيّم أعمال الآخرين وحتى نواياهم! ورغم أن شيخ الصاغة ظل، نظرياً، مسؤولاً عن صحة السلطان، إلا أنه رفض التدخل في أكثر من مرحلة. وفي مذكراته وردت كلمات غاضبة، لكنها غامضة أيضاً. كتب «... ومثل أي شيء في هذه البلاد، ولدى كل إنسان، فإن العجلة والادعاء، والجهل يحكم ويسيطر، وقد لمست ذلك بنفسي، ومن خلال

أدلة حسية لا يرقى إليها الشك ولا تقبل المناقشة، خاصة في طريقة معالجة السلطان.

«. . . وحتى الأطباء الأجانب، في ظل الفوضى السائدة، لا يلبثون أن يصبحوا أسرى الحالة العامة، ويبالغ بعضهم فيتجاوزها».

«. . . ومن المناسب أن أهيّئ نفسي لمرحلة جديدة، إذ يبدو لي أن إقامتي لن تطول هنا، أو على الأقل لن تستمر بنفس الوضعية السابقة، خاصة إذا انتهى السلطان وجاء خزعل».

ظلت الأمور هكذا طوال فصل الشتاء. وفي الأيام المبكرة من فصل الربيع، بدا لكل إنسان أن النهاية أصبحت وشيكة، وتأكد هذا التقدير من وصول أبناء جلالة السلطان، والصمت الذي خيم على القصور، ومن خلال الأخبار التي تتسرب، وينقلها الكثيرون. ولم تمض أيام حتى أعلنت وفاة السلطان خريبط.

ذاكرة الأمس القريب

بموت السلطان خريبط انتهت وانطوت صفحة كاملة في تاريخ الصحراء.

أما الصفحات التالية فإنها من الاضطراب والتداخل، وعدم اليقين أيضاً، إلى درجة تختلط فيها الوقائع بالرغبات والأوهام، ورغم قربها، أو بالأحرى بسبب قربها، فإنها زلقة، رجراجة، خادعة، وشديدة التحول أيضاً. وهي بمقدار ما تبدو واضحة، مثل الكثير من وقائع التاريخ الذي يتكون تحت أبصارنا، فإنها مموهة، محرفة، إن لم تكن كاذبة.

ولأن رياحاً شديدة ومستمرة ظلت تهب طوال سنين، فقد غيرت الكثير من المعالم والأشكال، وغيّرت أيضاً أفكار الكثيرين وقناعاتهم وعلاقاتهم، أصبحوا بشراً من نمط آخر.

وإذا كانت إحدى العواصف التي هبّت على هذه الصحراء قد أخذت خزعل وقسماً كبيراً من رجاله، وحملت تلك العاصفة فنر، فأصبح سلطاناً، وتوقع الكثيرون وأمّلوا، فإن أغلب هؤلاء خاب أملهم، ليس لأن فنر أحسن أو أسوأ من أبيه أو أخيه، وإنما لأن هؤلاء كانوا يعرفون فنر الآخر، فنر الذي كان، ولأنهم ظلوا يعيشون في أوهام الأيام التي مضت.

قالت غزالة الحوشان لأختها سارة:

ـ هذول الرجال دينهم ومعبودهم القصر. إذا زعلوا من القصر، أو القصر زعل عليهم ما ينحملون، وإذا رضي القصر يقومون وينامون هناك. وحنا رايحة علينا، دنيا وآخرة!

سقطت من عينيها دمعتان، وخرج صوتها متكسراً:

ـ قلت له: يا أبو هايل، خلنا بهمومنا، وعندنا من الهموم اللي يكفينا،

وفنر مثل خزعل، وما يلزمك تخطي. وابد، ومثل الولد الصغير، عاند. كل يوم لابس العقال المقصب، وبيده السبحة الكهرب، وعيونه تشولح مثل القطاة، وإذا سمع صوت: «ها، جوا جماعة القصر؟» وما أحد جاه. مر يوم، اثنين، شهر، شهرين، وكل يوم يمر يزيد عناده وتكثر شتايمه، وصار البيت نار الله الكبرى، لا ينعاش فيه ولا ينداس، ولا أحد يقدر يفتح حلقه أو يسأل ويقول!

قالت سارة بحزن:

ـ يلزمك تصبري يا أم هايل، وعساها عجّة، تمر وتنقضي.

ـ وسقم الأولاد، يضربهم ويصيح بوجوههم، وما يريد يسمع أحد، وأنا ما خلّى عليّ ستر مغطى: إذا ما عجبك ذاك بيت أبوك، وما أريد أحد يراجعني أو يقول لي شنهو اللي أسويه.

بعد شهر من هذا الحديث قالت سارة لإحدى جاراتها:

ـ . . . وخنق روحه بعقال القصب. كان معلق بالشباك، أزرق، ولسانه شبر، وراحت عليه وعلى أهله وأولاده.

زفرت وهي تضيف:

ـ الله يساعدك يا غزالة، والله يجازي اللي كان السبب!

عبد الله البخيت الذي عرف بأن مطشر الغصيب قتل نفسه، لأن خصومته مع جماعة خزعل أكلت اليابس والأخضر، ولأن رجال فنر اتصلوا به ووعدوه، فظن أن هذه الصلة تقربه وتجعله واحداً من رجال العهد الجديد، لكن بعد أن انتظر طويلاً، ولم يتذكره أحد، قرر أن ينتهي هكذا. قال عبد الله البخيت:

ـ هايل أبو هايل، عرف شلون يسمي ابنه وشلون يخلص نفسه!

وأضاف بعد قليل بلهجة هي مزيج من الحزن والسخرية:

ـ صحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال: اذكروا حسنات موتاكم، وعلى الميت ما تجوز إلا الرحمة، لكن بعد ذلك، كان، الله يرحمه، عقله خفيف، كان يظن السلطان مثل الزكرتي والقصر مثل المضافة، ولما قاس

الدنيا على أيام خريبط زلق، لأن كل شي تغير، وهالحين راح واستراح. وترك الهم والغم للباقي واللي يريد يناطح!

مطشر الغصيب كان واحداً من عشرات، من مئات، وهؤلاء حين تخاصموا مع رجال خزعل، أو بالأحرى حين انتزع منهم رجال خزعل أموالاً وخيولاً، أو حين حبسوهم دون وجه حق، ظنوا أن غياب خزعل سيعيد إليهم ما أخذ منهم، ويرد اعتبارهم، لكن بعد أن استقر فنر ورجاله، وغاب رجال خزعل أو تغيروا، لم تتغير الأمور.

قال عمر زيدان لرضا الجاوي لما جاءه يبلغه بما حصل في موران:

ـ خلنا نصبر ونشوف، يا ابن الحلال، من هو اللي صار عمنا بعدما تزوج أمنا!

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

ـ العروس ما تبيّن إلا ثاني يوم العرس، والمرية ما ينحزر عليها إلا إذا حال الحول!

قال رضا بانفعال:

ـ لكن اللي جا فنر، فنرنا، اللي عاش بينا، واللي عرفناه وعرفنا.

ـ اللي عرفنا، يا رضا، كان صغيّر وفقيّر، هالحين فنر صار سالفة ثانية، هالحين فنر سلطان، يا ابن الحلال. سلطان قد الدنيا... ولم يمهله دندن وارتفع صوته:

علمي به من ليالي الصيف	يوم البخت ناشر نوفه
دار العجب والطرب والكيف	والانس والفن ودفونه
أيام حظي يقصّ السيف	يشرب من المي بكفوفه...

لكن هالحين فنر حاجة ثانية!

واهتز رأسه عدة مرات وتابع:

ـ والسلطان غير الأمير، والأمير غير الخفير، وحتى الخفير جاء يوم، يا رضا، وتذكر، كنا ناخذ له تمني، وما يتركنا ولا يحل عنا، فخلنا نصبر ونشوف، وبعدها الله كريم!

عبد الله البخيت، الذي سمع مثل الآخرين، بما حصل، قال بعد أيام، يخاطب نفسه ويريد للذين حوله أن يسمعوا:

ـ بهذي الدنيا والواحد ما يتكلم ولا يتعلم إلا من كيسه. . .

وخفض صوته، أصبح همساً:

ـ ايه يا دنيا، مثل الدولاب، يوم فوق، وثاني يوم أسفل سافلين. وما تعرف متى وإلى أين، لكن، سبحانه الله، ما أحد يتعلم، وكل واحد يظن أنها له باقية ودايمة: يمشي مثل الطاووس ويقول: يا دنيا اشتدي، وما تلقي أحد قدي، لكن. . .

ضحك بصخب وظل يحرك يده حركات سفيهة، ثم أضاف:

ـ أين الفراعنة والأكاسرة؟ أين الملوك والأباطرة؟

وتغير صوته، أصبح طقسياً:

ـ من التراب وإلى التراب تعودون!

لقد قال هذا الكلام لأنه فعل مثلما فعل مطشر الغصيب، إذ كان يتوقع أن يستدعيه القصر، إذا لم يكن في الليلة الأولى، ففي اليوم التالي، لكنه انتظر أياماً وليالي، وحين لم يصل الرسول، قال لزوجته ساخراً، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ إذا قدر الواحد يبني نفسه دون مساعدة فيكون مجنون إذا قال: يا جماعة ساعدوني. وإذا الواحد قدر يكون بعيد عن السلاطين والوزراء، يكون مجنون إذا تقرب، لأن السلاطين وأتباع السلاطين ياخذون قبل ما يعطون، وإذا أعطوا بحساب وكتاب، وإلى حين. أما غضبهم فالله أكبر، وعن هذا لا تسل: ولية المخانيث وجنون العبيد.

بدا له أنه يتكلم وحده. التفت بألم. تأمل الجدران، أراد أن يتابع وأراد أن يصمت، وأخيراً خرج صوته:

ـ وأنا جرّبت وأكلت خرا!

وضحك وهو يتذكر:

ـ اللي سويته لخريبط ما يسويه أخ لأخوه، والنتيجة: زق. وخزعل

يناظرني كأني قاتل أبوه، وهذا، خوينا الجديد، ما ينحزر عليه، ومن قبل قالوا: «ينبغي لمن ساير خليفة أن يكون بالموضع الذي إذا أراد الخليفة أن يسأله عن شيء لم يحتج أن يلتفت: ويكون من ناحية إذا التفت لم تستقبله الشمس، وإذا سار بين يديه أن يحيد عن سنن الريح التي تؤدي الغبار إلى وجهه» وحنا ما نقدر نمنع شمس ولا نصد ريح، فخلنا بعيدين أحسن وآمن.

شداد المطوع الذي ذهب ليرى أخاه أو ابن أخيه، ولم يجد الاثنين، لكي يعرف أي شيء حصل في هذه الدنيا، وجد مفلح المطوع؛ وبعد القهوة والصمت، جاء من يبلغ شيبة آل المطوع أن حماد صار وزيراً. ولم يفهم مفلح، أو لم يكن مهتماً، عكس مرة أو مرات سابقة، حين توقع أن يصبح حماد سلطاناً. أما بعد أن هدأ الصراخ وانصرف الكثيرون، وكان الشايب يقلب الجمر ويقلب نظراته، فقد استغل شداد الظرف لكي يتكلم وحده، وإن كان يكلّم مفلح:

ـ . . . وكان الناس مثل الخيل: هذا ابن أصل وهذا مضرب. هذا أبوه فلان وأمه فلانة، وتسلسله لسابع جد، وتحزر عليه شلون رايح يصير. هالحين خاست وتاهت علينا يا أبو دهام. . .

وابتسم، وابتسم مفلح المطوع، كأنه فهم كل ما قاله. تابع شداد:

ـ هالحين إذا الواحد ابن حرام، يصعد ويصعد، يصير مكان النجم وازود. شلون، يا جماعة الخير؟ ليش يا جماعة الخير؟ يبّحرون بوجهك ويضحكون. يقولون: ما هو صحيح أنك ما تدري. تقول لهم: والله ما أدري، علمونا، يا أولاد الحلال. يقولون: ما هو بصحيح وتضحك علينا، وأنت تعرف كل شيء. وتقول ويقولون، وما تعرف شنهو اللي يقولونه، وما يسمعون اللي تقوله، وضاعت عليهم وعلينا!

قال مفلح المطوع:

ـ إذ الله أراد يهلك قوم امحلهم وبعث عليهم الجراد.

قال شداد ضاحكاً:

ـ ومع الجراد العجاج وأولاد الحرام.

قال مفلح المطوع:

ـ ومن سنين، وكنت صبيّ، ومات الناس والحلال، وقالوا: هذي آخرة موران، وموران صامتة كأن فوقها حجر، لكن هذي موران ما ينحزر عليها. مثل الفقع، إذا جت سنة خير والمطر وسمي تطلّع الأرض اللي ببطنها، وإذا أمحلت تسكت وتنام، لكن...

وضحك وقد تذكر أموراً كثيرة، ويبدو أنها اختلطت إلى درجة لم يعرف كيف يفصلها:

ـ بسنة الخير الناس بخير والدنيا بخير، وبسنة القشرة اللي عنده فلوس يخيس لا يريد يشري ولا يريد يبيع، لكن أهل موران أباليس، يعرفون شلون يطلّعون الحية من جحرها، وشلون يدبرون أمورهم، وهذا ما هو من الأمس واليوم، لا، عتيق... عتيق.

قال شداد:

ـ وبسنة القشرة، يا أبو دهام، يبين المعدن الزين من المعدن الردي. وإذا ابن أخوي حماد، بعد اللي سوّاه، وبعد ما خان خويه، يصير أعلى وأعلى فعلى الدنيا السلام. ويلزم ألحق نفسي واضرّب خيلي، لأنهم باكر أو اللي عقبه يقولون: عندك خيل أصيلة، أبوها معروف وأمها معروفة، وهذا ما يصير، ويجوز يطلع معهم أكثر!

قال مفلح المطوع:

ـ وكنا، يا وليدي، نعاون بعضنا، وكنا نسأل على القريب والبعيد، وكانت الناس عايشة: القهوة، الذبايح، السوالف، وما تلقى محتاج، لكن ما أدري شنهو اللي صار بهذي الأيام.

قال شداد:

ـ ما لي بليلة سودا مثل هذي غير شمران. شمران مثل الذهب، شلون ما رميته يرن، ويعرف الناس والدنيا، ويعرف اللي يصير واللي يلزم.

والتفت إلى مفلح الذي بدأ بدق القهوة، وقال:

ـ يا أبو دهام: أولاد الحرام قدروا علينا، طمّسوني بالخيل والليل،

وقالوا: هذا مكانك، وأنت طمست بليل أبيض، لأنك ما عدت تسمع، وبعدك عايش قبل ثلاثين أربعين سنة، وما تعرف شنهو اللي صار واللي جرى.

سعيد الأسطة الذي باع حصته في شركة السجاد، وقرر أن يصفي أعماله الأخرى، وقد سافر إلى الاسكندرية لكي يبدأ عملاً هناك. ما لبث أن رجع بعد أسابيع قليلة. رجع نادماً لأنه تصرف بهذه السرعة وبهذه الخفة، بعدما تزوج السلطان ابنة صبحي المحملجي. قال لشريكه السابق:

ـ حلال عليك يا أبو الحميدي، بس أريدك هالحين تكون معي مثل ما كنت معك.

رد ابو الحميدي بثقة:

ـ ابشر، يا رجل، واللي تريد يصير.

ـ حنا أولاد اليوم، ومثل ما اشتركنا بخير، أريدك هذه المرة تساعدني...

وبعد قليل، وبرجاء:

ـ إذا أحد سألك متى تفاككنا تقول قبل سنتين أو ثلاث سنين.

ـ كل شي... إلا هذي...

وبعد قليل وبحدة:

ـ شفت مني شي يا رجال؟ قالوا لك عني ناهب؟ سارق؟ ليش تخجل مني؟

ـ والعياذ بالله يا أبو الحميدي، بس صاحب الجلالة السلطان فنر يظن، أني من جماعة خزعل، وأنا، وأنت تعرف، لا من جماعة خزعل ولا من جماعة غيره. حنا تجار، على باب الله، نبيع ونشري، ولا حنا جماعة أحد، بس أولاد الحرام، ولا أكثر منهم. فحتى الواحد ما ينحسب على هذا أو ذاك يوصي جماعته، الناس اللي اشتغل معهم.

زفر أبو الحميدي، وقال، وخرج صوته ثقيلاً:

ـ إذا المسألة هالشكل، ما يخالف!

عمر الطريفي الذي درس القانون في استانبول، وأقسم ألا يعود إلى العوالي إلا بعد زيارة باريس، لكي يقضي أياماً في بلاد الحرية والعدالة والمساواة، وقد فعل، عاد في تلك الفترة المضطربة، وظل يبشر الناس أن الغد سيكون أفضل من اليوم، إلى أن وقعت معركة الطريفة الفاصلة، وما رافقها من كلمات كبيرة، إضافة إلى سيول الدماء، فالتحق، مضطراً، بابن ماضي، وظل ابن ماضي حريصاً عليه ما دامت العوالي تعني له شيئاً، ثم تخلى عنه وعن العوالي، فعاش ابن الطريفي خائباً منتظراً إلى أن جاءته الساعة التي اعتبرها مناسبة، هزيمة البداوة أمام الحضارة: ذهاب خزعل ومجيء فنر، خاصة وأن فنر، قدّم وعداً أكيداً: الدستور، والدستور يحكم بين الجميع.

عاد الطريفي. عاد إلى أرضه ووطنه، بعد أن أكله الحنين، وامتلأ بآمال انتظرها طويلاً. الآن يبدأ الدستور، ويعرف كل مواطن ما له وما عليه، هكذا قال فنر.

بدت له الطريفة مسكينة مسبيّة. وبدا له الناس متعبين تائهين، لم يصدق ما رأته عيناه. هل يمكن لهذا العدد القليل من السنين أن يغيّر الناس والأشياء بهذا المقدار؟ وإلى أين؟ إلى الوراء؟ أو الأسوأ؟ هل يعقل هذا وهل يصدقه أحد؟

كتم غيظه وقال للكثيرين: فنر أعطى كلمة: الدستور. لنصدق. الدستور أمر كبير ويجب أن تثقوا. إذا حصلنا على الدستور حصلنا على نصف الحقوق، أما النصف الثاني فإنه يحتاج إلى الجهد والعرق... والعقل.

وظل ينتظر.

بعد أن مرت سنوات قال لابن أخته الذي كان يستعد للسفر إلى باريس من أجل دراسة القانون:

ـ لو تفكر بدراسة غير هذه الدراسة...

وحين انفتحت عينا الشاب باستغراب، تابع عمر الطريفي:

- كلمة واحدة استنفدت عمري كله لكي أعرف معناها، وها أنذا أغادر الدنيا دون أعرف: الدستور.

وابتسم بحزن وأضاف كأنه يكلم نفسه:

- لكن ما يخالف لازم يبقى كم واحد من المجانين يتكلمون بلغة غير عادية، لا لكي يحققوا جنونهم، وإنما ليفضحوا الآخرين الذين يقولون كلمات لا يعنونها.

زعم بعض الذين عرفوا عمر الطريفي أنه حين جاءته الوفاة، وقد حصل ذلك في عهد فنر، أنه كان يردّد، أو يهذي، بكلمة واحدة: الدستور، الأمر الذي أغضب بعض رجال الدين، فصرخ أحدهم: أذكر ربك يا ابن الحلال، واترك كلام الشياطين!

عمير الذي أطلق سراحه مُنع من الإقامة في عين فضة، ورتبت له إقامة في موران، بحجة التكريم، وإن كان الواقع الحقيقي أن يكون تحت الرقابة المباشرة. قال لعدد من الذين زاروه بالعيد الصغير، وقد تطرق زواره، بشكل متعمد، إلى أن فنر غيّر الكثير، خلافاً لخزعل، وأن الناس يشعرون بالفرق بين ما كان، وما هو قائم الآن:

- قولوا اللي تقولونه، بس يلزم تعرفون: الكلب أخو السلوقي، والعرق دساس. ووين ما راحت مردها ذاك العرق!

أما شمران الذي لم يؤمل ولم يتوقع، وبعد أن قرر العودة إلى الزرنوق، فقد قال كلمة ترددت كثيراً:

- ما ينصلح آخرها إلا مثل ما انصلح أولها، واتركوا كلام الهزل، وهذا وحده كلام الجد.

أما هاملتون الذي طرد من السلطنة بعد بضعة شهور من استلام خزعل للسلطة، وبعد أن سافر فنر إلى الخارج للراحة والعلاج، رغم توصيات السلطان الراحل أن يكرم الرجال الذي ساهموا بإقامة السلطنة، فإن قرار خزعل كان حاسماً وسريعاً. قال لزيد الهريدي:

ـ هذا اذا تركناه يسرح ويمرح، من ديرة للثانية، تراه يحوسها علينا...

ابتسم أضاف بسخرية:

ـ لا تصدق أنه يدوّر أصنام وسوالف من هذا النوع، وأنا أعرفه زين يا زيد: خبيث وعظمه أزرق. لا يحلل ولا يحرم؛ والغريب أن أبوي ما عرفه زين، لكن الأغرب أن فنر ما يطلع عن شوره، وأبد لا تصدّق يا زيد أنه أسلم أو صار ابن عرب، هذي سوالف...

وعاد إلى لهجة الحزم:

ـ كل ما يهمنا يا زيد هالحين أريدك تكظه كظة فار، وما تخلي له درب، ومثل ما وصل موران يطلع منها: يد من ورا ويد من قدام، وما أقبل كل شفاعة.

وغادر هاملتون إلى لبنان.

أما السنوات التي قضاها بين بيروت وبرمانا فليست كلها انتظاراً لرضا السلطان خزعل أو لوصول رسائل فنر ووعوده، إذ بعد عدة رسائل بعث بها، وقد تضمن قسم منها تهديداً لا يخفى، انصرف إلى الدراسات والكتابة. كان لديه الكثير ليقوله، وكان يهيئ نفسه منذ سنين طويلة لكي يتفرغ لهذه المهمة، وهو على قناعة أن عملاً مثل هذا، إذا تم إنجازه،

سيكون بالغ الأهمية والأثر في المرحلة الحالية وفي المستقبل.

كانت الدراسة الأولى: «مقدمة في تاريخ موران» وهي عرض تاريخي، استغرق التاريخ القديم الجزء الأكبر منها. ولقد هدف من وراء ذلك إلى تأكيد مفاهيم يرى ضرورة حسمها، فاعتمد، في جزء من هذه الدراسة، على كشوفه الأثرية، على أفكار وملاحظات تأكدت نتيجة إقامته الطويلة في الصحراء، ومعرفته لهجات البدو وأساطيرهم.

ثم كتب كتاباً آخر: «موران أرض ورجال» وقد تطرق في هذا الكتاب إلى الرحلات التي قام بها عدد من الرحالة الأجانب. ولأنه كان أول من قطع الصحراء من شرقها إلى غربها، فقد صحّح الكثير من المعلومات الخاطئة التي وردت في مذكرات هؤلاء الرحالة، اعتماداً على معاينة مباشرة، نتيجة المساعدات التي قدّمت إليه، عززتها معرفته للغة، وقياس المسافات بدقة، ثم إعداد خرائط لبعض المناطق. وفي هذا الكتاب وهو مزيج من الوصف والذكريات وبعض الصور، تطرق إلى بداية علاقته بالسلطان، ثم كيف تطورت هذه العلاقة ونمت واتسعت، وتوقف عند مرحلة معينة، معتبراً هذا الكتاب جزءاً أولاً سوف تتلوه أجزاء أخرى، وفي ذلك أكثر من إشارة. كان بمثابة رسالة واضحة للسلطان خزعل.

بعد ذلك التفت إلى الجانب الأثري في السلطنة، مرجئاً التاريخ المعاصر، ليعطي فرصة لأكثر من جهة، خاصة وأن عدة رسائل وصلته من فنر بعد صدور هذا الكتاب، وفيها يرجوه أن يؤجل الكتابة، خاصة في مثل هذه الموضوعات، «للضرورة». وحين استفسر عن هذه «الضرورة» أجيب إجابات متعددة، لكنها ظلت غامضة، أو غير دقيقة، وإن فهم منها أن فنر يعدّ لأشياء كبيرة!

لم يترك الأمور تمر هكذا. انه ليس مجرد متفرج عادي، أو إنسان لا يملك سوى الانتظار. ففي مقابلة صحفية، وباعتباره خبيراً بهذه المنطقة، أشار، دون أن تكون إشارته إجابة عن سؤال محدد، إلى وجود مصاعب وتناقضات كبيرة، وأنها لن تمر هكذا، ولن تنتهي بهدوء أو بسلام. ولم يتطرق إلى تفاصيل أكثر.

هذه الإشارة أفزعت فنر قبل أن تفزع أي إنسان آخر. حتى السلطان الذي نقل إليه ما ورد على لسان هاملتون، علق بمرح:

ـ إذا الواحد قلّ عزمه وراحت عليه يطول لسانه وتكثر طلاييه!

وابتسم وقد تذكر أموراً كثيراً، ثم أضاف:

ـ واليهودي إذا أفلس يدوّر على دفاتره العتيقة.

فنر بعث إليه يونس شاهين، أو بالأحرى أبدى يونس شاهين استعداده لأن يقوم، أثناء زيارته للبنان من أجل اقتسام تركة مع اثنين من أخوته، بالاتصال مع هاملتون، وأن يعمل على تهدئته وامتصاص غضبه، مع جملة من الوعود والعواطف.

ولأن بين الرجلين من الفروق الكثير، فقد كانت رسالة فنر الشفوية سبباً إضافياً لأن يبعث هاملتون برد جاف: «إذا لم نلتق، وافهم منك شخصياً، فإنني غير قادر على الاستمرار بالصمت، لأن الواجب وطبيعة المرحلة، إضافة إلى قناعاتي، يملي عليّ أن أحلل وأفسر الأمور ضمن ما أعتبره أكثر صواباً».

ورغم اللوم الضمني الذي لم يخفه فنر، وهو يستوضح من يونس شاهين عما دار بينه وبين هاملتون، فقد بعث إليه يشعره أنه سيتوقف في القاهرة، أثناء عودته من الولايات المتحدة، بعد أن يجري فحوصات طبية ضرورية، ويقترح عليه أن يتم لقاؤهما هناك. إلا أن رسالة عاجلة وصلت لاحقاً من راكان غيّرت الكثير من خطط فنر، الأمر الذي اضطره إلى العودة مباشرة إلى موران. ومرة أخرى بعث نصّار برسالة جديدة لهاملتون، يعتذر فيها عن التعديل في برنامج الرحلة، لأمور طارئة، مع وعد أن يبذل أقصى الجهد لتأمين لقاء قريب، ومن جديد يرجوه أن يضبط نفسه، وأن يمتنع عن الإدلاء بأية تصريحات أو أقوال ربما يكون لها تأثير سلبي!

بعد انتظار طويل، ومرارة، لا يمكن إخفاؤها بسبب التأجيلات المتلاحقة، تم اللقاء بين فنر وهاملتون في جنيف.

المرة الأولى التي يلتقي الرجلان بعد سنوات من الغياب القسري.

كان اللقاء حاراً، أقرب إلى النشوة. في الليلة الأولى، وفي لحظات كثيرة، كان الاثنان يتبادلان النظرات المليئة بالود والمفعمة بالذكريات، ويشعران أنها تكفي، وتغني عن الكثير من الكلمات الكبيرة التي يتبادلها عادة الذين يلتقون بعد غياب طويل.

وفي هذه الليلة تعمد الاثنان ألا يخوضا في السياسة أو في الأحاديث الجادة، لكن كلمات كثيرة، كانت أقرب إلى الذكرى، وشت بما وراءها، وبدا وكأن الاثنين يستعدان لجولة طويلة، وربما مريرة، من الأحاديث الجادة، خاصة وأن الموفدين أو الرسائل خلقوا من المشاكل أكثر مما ساعدوا في حل المشاكل السابقة.

وفي الليلة الأولى تعمد الاثنان أن يشربا. شرباً أكثر مما تعودا في الأيام العادية، ولأنهما لم يحرصا كثيراً فقد أفلتت بعض الكلمات، كانت تتجاوز العتاب إلى اللوم.

قال نصار العديلي، مرافق الأمير فنر، لفوزان الشارخ، قريبه، ومدير مكتب الأمير:

ـ ترانا، يا فوزان، لا شفنا ولا سمعنا، لأن طويل العمر، أصعب ما عليه، بليلة مثل ليلة الأمس، أن تقول له: قلت وقال.

وخاطب نفسه، لكن يريد فوزان أن يسمع:

ـ وطويل العمر، هالحين، شوره من رأسه، وما هو مثل قبل، وصاحبنا يظن الأمور مثل ما كانت.

في الأيام الثلاثة اللاحقة عقد الأمير وهاملتون خلوات خاصة، لم يحضرها أحد. صحيح أنها اقتصرت على فترات قبل الظهر، لأن الأمير أبدى رغبة أن يتعرف على جنيف وما حولها، وقابل عدداً من المعارف والأصدقاء، وقد جاء بعضهم خصيصاً للقائه، إلا أن هذه اللقاءات كانت كافية لأن يتبادل الاثنان العتاب، والمعلومات، وأن يتفقا أيضاً على خطط للمستقبل. خاصة وأن لقاء اليوم الثالث كان قصيراً، وأقرب إلى استعادة ما تم الاتفاق عليه، لأن الأمير سافر قبل ظهر ذلك اليوم متوجهاً إلى باريس بناء لموعد سابق.

يمكن أن يتذكر نصار بعض ما حصل، وقد يستنتج، أو يتخيل! وفوزان مثله يستطيع أن يفعل ذلك اعتماداً على ملاحظاته، وعلى الأوراق التي أودعها لديه الأمير، وقد سلّمها إليه بطريقته، إذ قال، ويدا فوزان ممدودتان لاستلام الأوراق:

ـ وهذي مكانها مع الأوراق الخاصة، حقتي، وما أريد أوصيك!

وفوزان يفهم هذه اللغة، من النظرة، دون كلمات، لأن الأمير اختبره، بأشكال متعددة، فتولدت الثقة، وأصبح فنر متأكداً أن كلمات محدودة لفوزان كفيلة بأن تجعله مثل دجاجة وصيصانها، إذ يكون حرصه مبالغاً فيه، وتجاهله مفضوحاً، وخوفه من الأمير لا يخفى.

هاملتون كتب في يومياته: «. . . في حالات معينة يفضّل الإنسان أن يعيش في الماضي وعلى الذكرى، لأن الماضي، رغم صعوباته، كان شيئاً واقعياً ملموساً، وقد تكوّن وحصل تحت سمع الإنسان وبصره. والذكرى هي تلك الصورة التي انبنت في الذاكرة ذرة فوق أخرى، حتى أصبحت بهذه القوة وبهذا الرسوخ.

الماضي والذكرى زاد الإنسان وسبب بلائه، إذ بمقدار ما فيهما من قوة، ويولدان الثقة في النفس، ويجعلان حتى الحياة الصعبة أكثر سهولة، فإنهما يخدعان ويخلقان من الإشكالات والمصاعب، والمفاجأة أيضاً، ما يجعلان الإنسان أقرب إلى الاستغراب والحيرة.

المدة الطويلة، الأقرب إلى العمر، التي قضيتها مع فنر، تبدت لي، خلال الأيام الثلاثة الأخيرة، وكأنها تنهار تماماً، أو تحتجب دفعة واحدة، وخلال ثوان. ومن أعماق العين، ينبثق شيء آخر: حياة مختلفة، وإنسان جديد، وكأن لا صلة بين الحياة التي كانت، ولا صلة بالإنسان الذي كان.

هل أنا مخطئ؟ هل كنت متوتراً ومنفعلاً إلى درجة جعلتني لا أميز؟ هل تغير فنر بهذا القدر؟

وأنا، هل أعتبر نفسي ذلك الموتور الذي يبحث عن الثأر، ولا يرى شيئاً غيره؟ ولماذا أخذت المناقشات هذا المجرى، وجعلتنا، مرة أخرى،

متقابلين، وكل منا يبحث عن المبررات أو الأفكار التي تجعله أقوى، أو كأنه يريد أن يهرب من شيء يخاف منه أو لا يصدقه؟

«لو أتيح لي أن أبدأ من جديد لبدأت بشكل مختلف، خاصة بعلاقتي مع فنر، فهؤلاء البدو، في لحظة معينة، يصبحون شديدي الخطر، وهذه اللحظة التي تموه نفسها كثيراً، وقد تأخذ عدة أشكال، هي لحظة إحساسهم بالقوة وأنهم ليسوا بحاجة إليك. قبل ذلك يبدون بمنتهى الود والكرم، ويغيّبون أشخاصهم تماماً، لكي تكون أنت عقلهم ولسانهم، وكل شيء بالنسبة لهم، لكن ما يكادون يصلون إلى ما يريدون حتى ينسوا كل شيء، ويصبحوا نمطاً آخر من البشر».

«خريبط ظل حتى أيامه الأخيرة بحاجة إلى المساعدة والمشورة، وكان، ببساطة، يسأل عن الأشياء التي لا يعرفها لكي يتعلمها، وعن الآخرين لكي يعرف كيف يتعامل معهم. لا يخجل، لا يتكبر، ولا يتردد أن يفعل ذلك أمام الآخرين».

«فنر الذي بدأ خجولاً، متعثراً، والذي أخذ يتعلم بجهد، وقد بذلت من أجل ذلك كل جهدي ووقتي، أراه الآن إنساناً مختلفاً. فيما علّمته من وصايا وأساليب، وتلك الترجمة المبكرة «للأمير» التي وضعتها بين يديه، وحاولت معه بكل الوسائل لكي يتعلم اللغة الانكليزية، ولأن يتخطى الخجل والتردد في علاقاته مع الآخرين، خاصة مع الأجانب، بدا لي خلال الأيام الثلاثة، وكأنه يطبّق علي الوصايا والأساليب التي تعلّمها مني، وزاد عليها ما تعلمه من الآخرين. أصبح أكثر مكراً، وأقل رغبة في أن يخوض بشؤون المستقبل، كما أنه كلماته القصيرة زلقة تحتمل تفسيرات كثيرة، وتترافق مع تلك النظرات المفكرة المغادرة دائماً، وكأنه يخاف أن تلتقي نظراتنا، خلافاً لفترات سابقة».

«كان يتمنى أن تنتهي لقاءاتنا بأسرع وقت ممكن، هكذا أحسست، دون دليل مادي ملموس، ولكن هذا الإحساس ملأني تماماً. أعرف حالة الضجر أو الضيق التي يعاني منها الإنسان حتى لو أراد إخفاءها. أعرف أن الابتسامات أو المجاملات تخفي وراءها ما لا يريد الإنسان أن يقوله، حتى

ولو بطريق الخطأ أو المزاح. ولذلك كانت تتشعب الأحاديث بسرعة، ويدفع بعض الأمور إلى الظل، كما كان يثير ذكريات وأحاديث جانبية، ويسترسل ويسأل، وكأنه يريد أن نبقى في الماضي».

«لعبت معه اللعبة ذاتها، ورغم ذكائه، فقد كنت أكثر منه ذكاء، بحكم الثقافة وفارق العمر، ولذلك بدا محرجاً بعض اللحظات، اعترف أن خزعل لن يبقى سلطاناً. اعتقد أنه ما كان ليصرح لي بذلك لولا الخوف الذي لا يزال في أعماقه، نتيجة علاقتنا السابقة، ولأنه لا يقوى على الكذب إلى النهاية».

«تركت، وترك متعمداً، الكثير من النقاط دون إجابات كاملة أو دقيقة، لعل الفترات القادمة تتيح لنا إمكانية أفضل لمناقشتها».

«كان يريد أن يؤكد لي، بشكل مسرحي، أن الإهانة التي لحقت بي، نتيجة إبعادي عن البلاد، هي السبب الذي دفعه لأن ينتقم. صدقته، وبالغت في إظهار تأثري، وبضرورة الانتقام، لكي أعرف تفاصيل أكثر، لكن مثل عادته، تجاوز هذه النقطة إلى أخرى، إلى ثالثة، وعندما حاولت إعادته إلى الطريقة التي سينتقم من خزعل، أو ما يجب أن أساعده، عن طريق علاقاتي وخبرتي، فقد قال لي كلمة موجزة: «الطريقة الوحيدة ألا تكون موجوداً في الصورة، لأن العيون كثيرة، وحتى اجتماعنا هذا اليوم لا بد أن يصل إليه، وربما يؤخر أو يمنع ما يجب أن نفعله». هؤلاء البدو يسري المكر في دمائهم، إنه دائم الحركة، دائم الاستعداد لأن يعبّر عن نفسه بأشكال لا حصر لها، وإن كانوا يخفونه، كما تختفي الدورة الدموية».

«لو تركت بعض المفاتيح عندي لاضطر فنر، أو غير فنر، أن يعود إليّ، لكن حين سلّمت له كل شيء، لا أملك شيئاً ان فتح الطير، أو الحيوان، القفص، وانطلق إلى حيث يريد، إلى حيث يجد أن ذلك أكثر ملاءمة له».

«أتذكر الآن تلك الحكمة الصينية: «ان تعلّم الإنسان صيد السمك خير ألف مرة من أن تعطيه سمكة كل يوم». لقد قتلتني هذه الحكمة، كنت

أفترض أن الإنسان المتعلم، الذي يتقن اللغة، ومن كانت له علاقة بالآخرين، خاصة الأجانب، يمكن أن يكون إنساناً أفضل لأن أتعامل معه، لأن يساعدني. الآن اكتشفت أن مثل هذا الإنسان، عندما امتلك الأدوات كلها، لم يعد بحاجة إليّ، تجاوزني ليبحث عما يراه ضرورياً ومناسباً له بمعزل عن آرائي وما أريد».

«لقد علّمت فنر صيد السمك، وعلّمته أيضاً أين يوجد السمك، وتخليت عن أدوات الصيد كلها، فهل يحق لي الآن أن ألوم أحداً؟»

«قد أبدو متشائماً، وقد أشعر بالخيبة نتيجة تجارب معينة، لكن الأمر لم يصل إلى هذا الحد بعد، ويجب ألا أدعه يصل، خاصة وأن فنر، بالإضافة إلى الجانب السياسي، ترك في نفسي شعوراً بالاعتزاز، فقد تأكدت أن تعب الإنسان، أياً كانت النتائج بالنسبة له، لا يذهب سدى، ولا يمكن أن ينتهي إلى الخواء واللاجدوى. فنر كإنسان، الآن، يتمتع بمزايا كثيرة لم أكن أتوقع أن تظهر فيه بهذه القوة أو بهذه السرعة. ولولا المرض، الذي قد يعيقه، وربما أيضاً يطبع الكثير من تصرفاته، فإن شخصه وسلوكه يلفتان النظر، ولذلك يحق لي أن أفخر، كالأب الذي يفخر بأبنائه، رغم الخلافات، وهي دائماً موجودة، وبعض الأحيان كبيرة، بين جيلين، وبين عصرين».

«وفي هذه اللحظات المنفعلة التي أكتب عن انطباعاتي قد أراجعها في الغد، وأندم، أشعر أن خسارتي الحقيقية، إذا جاز لي أن أستعمل مثل هذه الكلمات، هي دورثي ومايكل، هل فقدتهما إلى الأبد؟ هل أستطيع أن أستعيدهما؟ وماذا يجب عليّ أن أفعل؟»

«إذا أهين الإنسان من الصعب أن ينسى. أنا، بمعنى ما، رجل مهان، ولا أريد أن أكتب أكثر من ذلك، لكي لا أحتقر نفسي».

وافترق الرجلان، على أنهما متفقان، فانصرف هاملتون إلى الكتابة، وعاد فنر إلى موران. ومرت أيام كثيرة. أصبح فنر سلطاناً. فوجئ هاملتون ولم يفاجأ. انتظر أن يبعث فنر وراءه، لكن فنر، ربما في زحمة الانشغال، أو لأسباب أخرى، نسي! ولم ييأس هاملتون، ظل ينتظر، وظل متفائلاً!

وبعد أن بعث عدة برقيات ورسائل، للتهنئة أولاً، ثم يعرض خدماته، وأخيراً يطلب زيارة موران، ولم يتلق رداً إلا مرة واحدة، إذ أبلغه السفير «أن مفاجأة كبيرة تنتظرك، ولا بد أن تصبر قليلاً، حتى يحين وقتها المناسب» ومثل طفل انتظر واحتمل، وظل متفائلاً، إلى أن جاءه الموت في إحدى الليالي واختطفه.

حين بلغ فنر خبر وفاته، ضرب على ساقه وقال أمام الكثيرين:

ـ لهْ لهْ لهْ. . .

وأضاف بعد قليل:

ـ سبحان الله، كان ببالي اطرّش نصار أو أحد الخويا هالجمعة حتى يجيبه ويجي. . . لكن الدنيا ما لها أمان.

وحين خيم الصمت، بدأت تتراءى له صورة هاملتون، كانت صورة مضطربة غائمة بعيدة، لم تكن واضحة، ثم توارت خلف غيمة من الدخان، وفيها قطرة صغيرة من الدمع!

الشهور والأسابيع الأخيرة، التي سبقت استيلاء فنر على السلطة، كانت عصيبة، إذ بعد الزيارات التي قام بها لأنحاء متعددة من السلطنة، والاتصالات التي أجراها، وكانت لا تخلو من التعريض والسخرية لطريقة خزعل في الحكم، وبعد أن تعبأ الجو تماماً، خاصة حين تم الاتفاق مع حماد المطوع، فإن التوتر الذي سيطر على فنر وصل إلى درجة التردد ثم الخوف، وإذا كان قد تحصن بالصمت خلال الفترة الأخيرة، ولجأ إلى عدم الظهور، وبعض الأحيان إلى التخفي، فإن صمته أخذ يفضحه، وغيابه يثير التساؤل، لكن ثروت وموضي كانتا قريبتين.

فحين أصبحت فريزة خانم، بعد إنجاب ثروت لولدها الأول، المسؤولة عن تربية الأطفال، لأن ثروت زادت أعباؤها ومسؤوليتها عن الطفل الكبير، فنر. إذ بالإضافة إلى غلبة السوداوية على مزاجه، أخذت حالات المرض تعاوده، وأخيراً جاءت الأسفار، وترافق ذلك كله مع فيض من الهذيان الذي يتفجر كل ليلة، تقريباً، من خلال الأحلام والكوابيس، الأمر الذي أصبح يخيف ثروت أكثر من أي شخص آخر.

قالت لأمها ذات ليلة:

ـ إذا كان لخزعل أحد بقصرنا، وينقل له اللي يسمعه، فالله يعلم إذا مسّينا ما نصبّح...

كانت شاحبة، ظاهرة الخوف والتعب، لأنها لم تعد قادرة على النوم في أغلب الليالي، كما لجأت إلى إخلاء عدة غرف مجاورة لغرفة النوم. لقد فعلت ذلك لأنها لم تعد أمينة أن لا يصل صوت فنر إلى هذه الغرف،

حيث كانت المربيات والخادمات، رغم أنها بذلت جهداً خارقاً في انتقاء هاته النسوة.

ردت فريزة خانم في محاولة لأن تخفف عن ابنتها:

ـ القصر أمين يا بنتي، وناسه أوادم، والنوم إذا حطّ يغرق الجمل.

تنحنحت وخرج صوتها مصقولاً:

ـ أغلب الأوقات الواحد مثل ما ينسى أحلامه ينسى الكلام اللي يسمعه وهو نايم!

وتغير صوتها وهي تسأل:

ـ وبعدها القصة ذاتها، ما تغيرت؟

ـ بعدها وزادت أكثر من قبل!

وتابعت كأنها تكلم نفسها:

ـ قلت له: صحتك، الله يسلمك، أغلى شي علينا، وأهم ما في الدنيا، ولازم تترك هذا المجنون، خزعل، وكل سوالفه، والمُلك أولها وتاليها واصلك، إذا ما هو اليوم اللي عقبه، وأنت اليوم بالنسبة للسلطنة كل شي، وخزعل، بليّاك، ما يقدر يسوي شي، لكن يناظرني ويسكت، وإذا هذا الحيط ينطق ويقول هو تطلع منه كلمة.

قالت فريزة خانم بغيظ:

ـ هذول الرجال مثل الأطفال قدر ما تعرفيهم ما تحزري عليهم!

ردت ثروت بحزن:

ـ وهذا خزعل ما يوفّر أحد، وإذا صبر اليوم ما يصبر اللي بعده، وأنت أعرف الناس: أولاد الحرام ولا أكثر منهم، فأخاف أحد، مريّة أو رجّال، إذا أعطوه، إذا طعّموه، يشيل روحه ويروح لخزعل ويقول له: بقصر السعد صار كذا وكذا، وفنر سوى كذا ويقول كذا، وتقع.

لقد وقعت سابقاً عدة مرات بين الاثنين. وفي كل مرة تنتهي بانسحاب فنر، يحزم حقائبه ويغادر، غاضباً أو يائساً. وكانت ثروت، خلال أيام قليلة، تلتحق به. أما الأولاد فكانوا يتركون لدى جدتهم. وفريزة خانم مثل

الدجاجة القوية، والتي لا تخلو من دهاء، تعرف كيف تسوس الأمور: تقبل هدايا خزعل وعطاياه بمودة وامتنان، لكن تعرف كيف ترفض الانتقال من الطريفة إلى موران. وكان لديها دائماً أسبابها المقنعة: الربو، الحرارة، دراسة الأولاد. وخزعل الذي يتذكر الأمر فترة، ويلح عليه، لا يلبث أن ينساه. حتى إذا تعثرت الأمور، وخلا الصندوق، وغاب ابن العليان في تلك الأسفار التي أخذت تمتد وتطول، وبدأت موران تململ، ويظهر ذلك أكثر ما يكون من صمت الناس، أو من خلال النكت التي لا يُعرف من أطلقها، لكن سرعان ما تنتشر، وتتحرف، لكي تصبح كلها في النهاية تعني قصر الغدير، ثم الخالدية بعد ذلك، ولتطال خزعل بالذات...

عندما تصل الأمور إلى هذا الحد، ويتفرق أولاد خريبط ما بين الأسفار الطويلة أو القنص، ويُنقل إلى السلطان ما يدور في المقاهي والمضافات، عندئذٍ كان يزفر ويخرج صوته عميقاً من صدره، وكأنه يخرج من بئر عميق:

ـ كلها شغلة هذا الخبيث: فنر.

وبعد فترة صمت طويلة، والجميع حوله صامتون، يقول بصوت متآمر:

ـ لازم يجي، لأنه إذا جا يدبر الأمور، ويظل تحت أنظارنا. أما وهو بعيد فيظل يحوص ويلوص.

وصدف أكثر من مرة، أن جاء فنر وحده، وصدف أن جاء بناء لإلحاح الأخوة، وبعد أن زاره عدة موفدين بعثهم السلطان.

ثروت ما دامت بعيدة، ورغم شوقها للأولاد، ورغبتها أن تكون سيدة القصر الأولى، إلا أنها صحتها في هذه الأسفار تتحسن وتنعكس على جمالها ومرحها، فتبدو أكثر تألقاً، أكثر فتوة، كما تميل إلى المزاح، وهذا ما كان يخفف عن فنر، وينسيه بعض الأحيان، خاصة تلك الكوابيس التي كان تشغل معظم لياليه.

ولما كان فنر قد تعوّد الصمت حتى أدمنه، خاصة حين يكون في السلطنة، فكانت تفلت منه، بعض الأحيان، كلمات، تعرف ثروت كيف

تلتقطها، وتجمعها إلى جانب بعضها بصبر، حتى إذا شكّلت موقفاً أو فكرة دفعتها إلى مكانها المناسب، لتستخرجها مرة أخرى، حين تحتاج إليها، بعد أن تتراكم فوقها معلومات. وبطريقة بسيطة، لكن لا تخلو من مكر، تعرف كيف تحاوره وكيف تواصل معه الحديث. في حالات عديدة كان يفترض أنها لا تعرف مثل هذه المعلومات، لأنه لم يقلها لها مباشرة. لكن كان يعزو ذلك إلى هذيان الليل، أو حين يفرط في الشراب، وبعد أن ينظر إليها بطريقة خاصة، يضيف كلمات أخرى في نفس الموضوع، ثم ينتقل إلى آخر!

وشيئاً فشيئاً، أصبحت ثروت وجهه الآخر. لقد تعلمت هذا الدرس من موضي إلى أن تفوقت عليها. وتذكرت أمها حين كانت تلحّ عليها لكي تصبح مثل موضي، وكيف تدخل إلى قلبه، لتعرف ما يدور في رأسه دون كلمات، بأقل الكلمات. أصبحت تلك النصيحة ذكرى بعيدة، لأنها تجاوزتها لكي تصبح كل شيء بالنسبة له.

قالت لأمها والسلطان خزعل يستعد للزواج من سلمى المحملجي:

ـ هذا آخر زواج له وهو سلطان. . .

ابتسمت بخوف والتفتت، فهي لا تقوى على إخفاء مثل هذا السر، ومع ذلك تريد من أمها أن تستعد فيما لو تعقدت الأمور، أو أخذت مجرى آخر، نتيجة خطأ، وتريد أيضاً ألا يقع هذا الخطأ، خاصة ممن حولها، على شكل تعليق ساخر أو شتيمة، فيشي بما وراءه.

ردت فريزة خانم:

ـ هذول، يا بنتي، تعودوا، حتى لو قالوا: هذا الأخير؛ لأن ما يمر شهر شهرين إلا وينسون، ويبدون من جديد!

وحين ظلت ثروت صامتة، واكتفت بهزات ساخرة من رأسها، سألت الأم:

ـ هو اللي قال إنه آخر زواج؟

قالت ثروت في محاولة للتمويه:

ـ هو وغيره، يا ماما!

لقد انتظر فنر طويلاً. الحيرة لا تزال تأكله، والخوف يجعل تفكيره مضطرباً أقرب إلى الشلل. «ماذا لو عرف خزعل؟» «ماذا لو فشلت المحاولة؟» وهؤلاء الذين تحدث معهم، اتفق معهم، ماذا لو نقلوا لخزعل ما يفكر فيه وما يخطط له؟

يتذكر، قبل سنين، حين بدأت العواصف تثور حول السلطنة، أن هاملتون قال له:

ـ يجب الحذر الشديد في أواخر الليل وعند الفجر، لأن في الليل المتأخر تبدأ القطعات العسكرية بالتحرك، وعند الفجر تصل إلى حيث يجب أن تكون، بما في ذلك الإذاعة؟

وحين لم يفهم بدقة ما يرمي إليه هاملتون، وتساءلت عيناه، أوضح هاملتون:

ـ على الحاكم أن ينام قبل الآخرين وأن يستيقظ قبلهم، لأن الذين يستيقظون مبكراً يستطيعون أن يفعلوا شيئاً: أن يمنعوا انقلاباً ضدهم، إذ يمكنهم أن يتحركوا بسرعة، وإذا لم يحالفهم الحظ، يكون لديهم متسع من الوقت لكي يتواروا عن الأنظار، ليهربوا، وعند ذلك تكون أمامهم فرصة ثانية، أو على الأقل يمكن ان ينجوا بأرواحهم!

ومرت في ذاكرته صور الانقلابات التي حصلت هنا وهناك. كان يقرأ تفاصيلها بكثير من العناية والشغف، يريد أن يعرف كل شيء، لا لكي يطبقها، وإنما لكي يمنع وقوعها، فهو يبقى، مهما اختلف مع خزعل، شريكاً في السلطة، وإذا أسعفته صحته لا بد أن يصبح سلطاناً بعد أخيه، فهل وصل به الأمر الآن لأن يفكر بالانقلاب؟ إن هذه الوسيلة الملعونة إذا مكّنته من الوصول، فإنها تفتح الباب عريضاً لكل واحد آخر يمتلك عدداً من الدبابات والرجال والبنادق أن يفعل مثله، وعندئذٍ يكون كمن فتح باب الجحيم، وترك الشياطين تخرج من أوكارها لتفعل كل ما تريد.

قال لأخيه مساعد الذي جاءه واقترح عليه أن يتم اغتيال خزعل:

ـ مجنون أنت؟

ولما فوجئ مساعد برد الفعل، قال بتلعثم:

ـ لأنه إذا ما تحركنا غيرنا راح يتحرك، طال عمرك، وهذول إذا تحركوا يذبّحونا كلنا، ما يخلّون منها مخبر.

رد فنر، وكانت لهجته لا تخلو من لوم.

ـ صحيح أننا مختلفين مع خزعل، وخزعل خرّب الأول والتالي، لكن ما وصلت بينا أن الواحد يذبح الثاني. . .

وبعد قليل:

ـ وهذا الكلام ما أريد أسمعه منك نوبة ثانية يا مساعد!

قال مساعد بضيق:

ـ الواحد ما يقول هذا الكلام، طال عمرك، إلا لأنه انشق كبده، ولأن اللي سوّاه خزعل ما نزل بكتاب ولا يشيله عقل!

وتغيّرت اللهجة:

ـ صار الغُرب هم اللي يحكمون ويرسمون، وحنا، أولاد خريبط، مثل الأيتام، لا نحكم ولا أحد يسمعنا؛ وهالحين مثل ما تشوف ومثل ما تسمع: المحملجي ما هو بس مستشار طويل العمر، راح يصير نسيبه وعمه، وحنا إذا كنا نقدر نقول له يصير وما يصير، لا بالله بعد اليوم يلزم نقول له: اللي تؤمر، وأمرك، واللي تريده يصير على العين والراس.

رد فنر بحدة ونزق:

ـ اتركنا من العظريط، هذا على مريته ما يمون!

ـ بس هذا اللي راح يتحكم بروسنا، يا طويل العمر!

ـ خلنا من هذي السوالف هالحين، بس أنت قوِ أعصابك، وقوِ قلبك، وما يصير إلا الخير.

ـ أعصابي قوية، طال عمرك، وقلبي صخر جلمود، بس خلي غيري تصير أعصابه قوية ويقوي قلبه.

كانت الكلمات الأخيرة تحمل تعريضاً لا يخفى، وفنر الذي احتملها وابتسم، أدرك ان استمراره في موقف الانتظار والتأجيل يمكن أن يدفع الآخرين للتحرك، لعمل شيء، كما أن طاعة الأخوة له، والهيبة التي تميزه بالمقارنة مع غيره، قد تتلاشيان، أو لا يعود قادراً على الاستفادة منهما.

قال بعد فترة صمت طويلة:

ـ بلغ راكان وسند وميزر وحمود أنهم يمرون بي المسوّيات، وتعال معهم، وعساها تنفرج!

موران التي أخذت باحتفالات الزواج، وانشغل الناس فيها بمتابعة الألعاب النارية وفرقة موسيقى القصر، وقد لبس أفرادها ثياباً جديدة ملونة، وتابع الكثيرون سباقات الخيل والهجن، وحضر قسم منهم الولائم التي أقيمت، وخرجت النسوة مع الأطفال إلى الشوارع، وتجرأوا في الوصول إلى أسوار القصر، وراقبوا السرادق الكبير بوجوه نصف مكشوفة، دون خشية من لوم الرجال أو تعنيف الأزواج والأخوة، ثم المراهنات التي جرت بين الكثيرين حول عدد أيام التعطيل والمنح التي ستعطى للموظفين... كل هذه الأمور جعلت الناس يكفون عن مراقبة بعض، أو عن الاهتمام بالأشياء الصغيرة والعادية. وكان هذا كافياً لأن يلتقي أولاد خريبط دون خشية أن تصل أخبارهم إلى السلطان. وأن يلتقوا أيضاً بآخرين، وأن يتفقوا معهم على أمور كثيرة.

ما كادت حفلات الزواج تبدأ، ومعها الأصداء والولائم والصخب، حتى توارى فنر. غاب تماماً. قيل انه ذهب إلى عين فضة، وقيل إنه ذهب إلى القنص، لكن ما هو مؤكد أنه غاب وعدد من الأخوة. صحيح أنهم هنأوا السلطان بزواجه، وقدم بعضهم هدايا بهذه المناسبة، إلا أن الكثيرين انسحبوا دون أن يحس بهم أحد.

حين تقرر سفر السلطان، وكانت موضي أول من عرف، ذهبت بنفسها إلى الرحيبة لتبلغ فنر، وقد كانت من القلائل الذين يعرفون مكانه. قال لها أو قال لنفسه، ولم تفهم معنى الكلمات بدقة:

ـ هالحين تحددت ساعة الصفر!

أما حين تقرر أن يسافر السلطان قبل ظهر يوم الخميس، فقد أرسل فنر مرافقه نصار ليعتذر عن عدم الحضور لوداع السلطان بسبب انحراف الصحة. كان يخشى أن تفضحه عيونه، أن يجرحه صمته، وكان يريد أن يتأكد أيضاً من آخر التفاصيل التي تسبق الحدث الكبير.

ومرة أخرى تذكر كلمات هاملتون حول النوم المبكر والاستيقاظ قبل الفجر، وإذا كان قد حاول النوم، فإنه لا يتذكر أن غفوة، ولو صغيرة، زارت عينيه، رغم أنه شدّ العينين كثيراً، أكثر مما يفعل في العادة، لكي ينام. وفي هذه الظلمة البراقة سافر كثيراً وحلم كثيراً، لكن خوفه كان أكثر، وقد لاحظ أن دقات قلبه أصبحت قوية صاخبة، أما عندما سمع الأذان فقد نهض مثل قط، ولم ينتظر لترتفع الشمس لكي يتوجه إلى موران.

النقطة الوحيدة، وربما الأخيرة، التي شغلته: هل ينتظر انقضاء اليوم كله، والليلة التي تليه، وإلى أن يأتي الفجر، لكي يعلن أن السلطان خزعل قد عزل، وأنه أصبح السلطان، أم يتجاوز طريقة الانقلابات التي قرأ عنها الكثير، ويعلن في وضع النهار، أمام جميع الناس، أنه أصبح لهم سلطاناً جديداً، بعد أن عزل السلطان الذي كان؟

بعد سنين، قال فنر بنشوة، وهو يتذكر:

ـ . . . ولو صبرنا عليه سنة ثانية كان خرّب الأول والتالي، وكان صرنا كلنا اثر بعد عين، لأنه بآخر أيامه صار مثل الجمل الهايج، ولأن اللي حوله بس يهزون رؤسهم ويوافقون على كل اللي يقوله، وما هو بس كذا، صار كل واحد منهم مستشار وهو اللي يؤمر وينهي!

مـن الأوامر الأخيرة التي أصدرها زيد الهريدي، قبل أن يغادر مع السلطان: حجز الشيخة إلى ما بعد السفر. وقد استدرجت أمي زهوة بطريقة لا تخلو من مكر، وحبست في قصر الروض، في جناح كان ذات يوم مستودعاً، وظلت خمسة أيام بعد سفر خزعل، لأن أحداً لم يتذكرها في خضم الأحداث الكبيرة التي وقعت.

عصر اليوم الخامس أفرج عنها فنر. فعل ذلك بكثير من الانفعال والغضب، إذ قام، يرافقه عدد محدود من الحرس، وفتح بنفسه بوابة المستودع، ولأنه لم يسمع صوتاً خلال اللحظات الأولى، وكان الظلام في الداخل كثيفاً، فقد ظن أن الشيخة غير موجودة، أو أنها فارقت الحياة.

قيل إنه بكى وهو يقبلها ويعتذر منها، وأكد لها أنه لم يعرف بالأمر إلا قبل لحظات، حين سأل عنها يريد أن يزورها. أما قبل أن يغادر المكان، ويصطحب معه الشيخة، فقد أمر بإنزال مائة جلدة بكل واحد من الحرس الذين كلفوا بحراستها!

الشيخة، وهي تدخل قصر السعد، وبعد أن عرفت بتنحية خزعل، ملأت القصر بزغاريدها! كان صوتها ضعيفاً منهوكاً، أقرب إلى مواء قطة مسنّة، لكن خلال لحظات اشتركت معها نسوة أخريات، وترافق ذلك مع إطلاق الرصاص، فامتلأ القصر بالخوف، أول الأمر، ثم بالفرح، بعد أن تبين السبب!

في اليوم التالي، ولعدة أيام لاحقة، كانت الشيخة بملابس زاهية تتنقل، كالبطة، بمشيتها البطيئة المضطربة، في جميع أنحاء القصر، وعلى غير عادتها كانت ترفع يديها بالتحية، ليتبيّن كل من يراها الحناء الذي ملأ اليدين، ولأن تهاني أسرفت في وضع الكحل حول عيني الشيخة، فقد بدا

الوجه وكأنه عينان كبيرتان، أما العصا التي كانت تسبقها وتنذر باقترابها، فكانت غير تلك القديمة المسودة، إنها عصا جديدة بلون خشب الزان، وكانت هدية من فنر.

رغم إلحاح فنر أن تبقى، ورغم مظاهر الاهتمام والتكريم التي كانت تحيط بها، وهذا ما جعلها تستعيد جزءاً من عافيتها وقوتها، فقد أصرت الشيخة على أن تعود إلى قصر الروض، إلى «بيتها»، كما قالت لنصار الذي جاء كرسول أخير يرجوها أن تبقى.

في قصر الروض، ولثلاثة أيام متوالية، بدت الشيخة، وحدها، سيدة القصر: استقبلت بالذبائح وإطلاق الرصاص. أمرت أن توزع الهدايا والأعطيات، أمرت بذبح أعداد كبيرة من الغنم والجمال وأن توزع لحومها في موران كلها. قال حرس القصر وعدد من الخدم أنهم لم يشهدوا سخاء مثل هذا إلا مرات قليلة، وأثناء انتصارات خريبط، وبالغ بعضهم فزعم أن مثل هذا الكرم لم يظهر حتى من خريبط ذاته.

بعد هذه الأيام بدأ يعود قصر الروض إلى حياته السابقة، وكان من الطبيعي أن يحصل ذلك، لأن الأحداث والأخبار، وحتى الشائعات، لم تعد تقع فيه أو تصدر عنه، وإنما في القصور الأخرى، منذ أن هجره معظم ساكنيه، وقد فعلوا ذلك بشكل متلاحق وسريع بعد وفاة السلطان خريبط. وبمرور الوقت لم يبق في القصر إلا المسنون، والذين لم يجدوا أمكنة أفضل، أو أولئك الذين تعودوا عليه وأصبح جزءاً من حياتهم وملامحهم. ويوماً بعد يوم أصبح قصر الروض قديماً متعباً، أقرب إلى الهرم. حتى الأحداث التي تقع خارجه لا تصل إليه إلا أصداء وبعد مرور وقت غير قصير.

الفترة الواقعة بين الإفراج عن الشيخة ثم اختفائها الكامل من الغموض والتداخل إلى درجة، لا يمكن لأحد أن يقطع برأي. فما عدا الأسبوع الأول، أو على التحديد الأيام العشرة التي أعقبت إطلاق سراحها، وقد حفلت بالعطايا والزيارات والضجة، فإن ما تلا ذلك أقرب إلى التقدير أو الافتراض.

قيل إنها نذرت الصيام العمر كله، إذا قُدّر لها أن تعيش. الصيام ليس فقط عن الأكل وإنما عن رؤية الناس أيضاً، وها هي تعتبر النصف من شعبان الوقت المناسب لتنقطع عن العالم وتنصرف إلى التعبد، لأن الأشباح التي طوقتها في محبسها، والأصوات التي كانت تسمعها طوال الأيام الخمسة، جعلتها تحسّ بالخوف والإثم معاً، وتريد الآن أن تطهّر روحها قبل أن تنتقل إلى الدار الأخرى.

وقيل إنه المرض، إذ بعد أن رفضت الأكل طوال الأيام الخمسة، وتحاملت كثيراً على نفسها، لكي تظهر قوية، ولتفرض إرادتها من جديد، لم تلبث أن سقطت، وقد تكتمت، وفعل ذلك كل من حولها أيضاً، لتبقى بالصورة التي رآها عليها الكثيرون. ومما يعزز احتمال المرض أن نعوّم قضت بضعة أيام في الجناح الغربي، وأنها استعانت باثنتين، ممن يعملن معها في حمام القصر، لتدليك الشيخة ثم حجمها، وقيل إنها كوتها أيضاً.

بعض الذين سمعوا الحديث يدور عن مرض الشيخة، وبالتالي احتجابها، وما رافق ذلك من تكتم، ضحكوا كثيراً وهزوا رؤوسهم سخرية، لأنهم كانوا على ثقة أن وراء هذا الغياب أموراً خطيرة وليس لها علاقة بالمرض أبداً! يستدلون على ذلك من وصول مزهر العطيفي، المنجم، وفاتح الرمل الذي تعرفه موران كلها، وهو الوحيد الذي تنبأ بقرب وفاة السلطان خريبط، وقيل إنه أسرّ بتلك النبوءة، بعد تردد وامتناع طويلين، إلى اثنين: الشيخة والأمير خزعل، وقد طلب منه أن يغادر قصر الروض فوراً وأن لا يبوح بذلك لأحد. وأكد بعض الحرس أنه أرسل إلى الحويزة مع رسالة إلى أميرها أن يستبقيه هناك، وأن لا يسمح له بمغادرتها إلا بأمر لاحق. مزهر العطيفي الذي غاب عن قصر الروض طوال الفترة السابقة، شوهد من جديد ولمرة واحدة في القصر، ثم اختفت آثاره تماماً بعد ذلك.

ولأن الأمر تشعب في اتجاهات عديدة ومتضاربة، من مداهمة لقصر المحمجلي، والاستيلاء على حاجات عديدة خاصة، بما فيها ملابس للثلاثة، الأب والأم وعروس السلطان، وقيل ان جزءاً منها أحضر إلى قصر

الروض، بناء لطلب مزهر؛ ولأن كميات من النباتات الطبية حملت إلى القصر، ولم يعرف ما إذا كانت للعلاج أم لأغراض السحر. ثم وصول عدلة وبقاؤها يوماً كاملاً في جناح الشيخة، مع لغط تزايد كثيراً قبل مغادرتها بساعة، إذ وصلت عدة سيارات من قصر الغدير، وفيها عدد من أبناء السلطان خزعل، وقد بدت على ملامح الجميع مظاهر الغضب، ثم مغادرتهم السريعة بعد ذلك، جعل الكثيرين يحارون في تفسير ما يجري، خاصة وأن تهاني غادرت مع هؤلاء، وبدت مضطربة وهي تسير بينهم. أما الذي تلا ذلك من إشاعات عن احتمال وصول السلطان فنر، وأن مصالحة سوف تتم بين الأخوة، بعد أن ظلت عدلة تبكي من لحظة وصولها، وتتوسل، وربما لتعيد خزعل، فقد حمل الشيخة على أن تستجيب، وقد عزز توقعاً مثل هذا أن موضي وصلت فجأة عند الغروب، وقيل إن السلطان أرسلها نيابة عنه، لأن المفاوضات لا تزال، حتى الآن، تجري بين النساء، ومن الأنسب أن تكون موضي المفاوض نيابة عنه.

وفجأة ينتهي كل شيء، إذ يغادر الزوار ويغرق الجناح الغربي في الصمت، ولا يعرف ما تم الوصول إليه. وتبدأ بعد ذلك الفترة التي يحيط بها الغموض.

تهاني لم تتكلم أبداً، خوفاً أو عجزاً، ولهذا سيبقى الأمر سراً إلى الأبد، ولا يمكن لأحد أن يجزم تماماً بما حصل. لكن، مع ذلك، فإن الخدم والحرس، قدروا أن شيئاً ما وقع في اليوم الأول، واستكمل في الأيام الثلاثة اللاحقة، لكن يبقى، مع ذلك، كل تفسير قابلاً للنقض والرفض بأدلة قوية معاكسة.

أكثر من هذا أن الكثيرين، حتى بعد مرور فترة طويلة، يصرّون، وبقناعة أكيدة، على أن الشيخة لا تزال على قيد الحياة. صحيح أن أحداً لم يرها، لكن أن توقد أنوار القصر كل ليلة، وأن تسمع بعض الأصوات في ليالٍ معينة، خاصة ليالي القمر، أدلة لا تقبل الشك على وجودها. أما عدم رؤيتها، أو عدم ظهورها فلا يتعدى الرغبة التي سيطرت عليها في أن تبدأ ذلك الصيام الطويل لما تبقى لها من سنوات العمر.

ولأن هذا التفسير أتى من جهة قصر الغدير، ويروج له الذين لا يزالون على ولائهم للسلطان المعزول، ولنفي أية علاقة بما تردد بعد ذلك، فإن آخرين يؤكدون أن عدلة التي وصلت إلى الجناح الغربي من قصر الروض، لم تأت من أجل الزيارة، أو تعبيراً عن المودة، كما لم تأت للاعتذار عما بدر من السلطان، أو بالأحرى من المرافقين والحرس، وإنما جاءت لمهمة محددة: أن تخدّر الشيخة، وقد فعلت ذلك بكثير من البراعة والمكر، إذ وضعت لها مادة في الشاي الذي شربته، ولما تأكدت من نجاح مهمتها جاء عدد من أبنائها ومعهم حرسهم، وخلال دقائق معدودة أكملوا المهمة، وانتهى كل شيء.

مقابل هذا التفسير يتردد على ألسنة خدم قصر الخالدية: إن الشيخة نُفيت، أو ربما قتلت، بأمر من السلطان فنر ذاته، لأنها رفضت البقاء بقصره، وأصرت على أن تعود إلى قصر الروض، ثم حين أمرت، زيادة في تحديه، بذبح الخراف، وكأنها تريد أن تعيد لقصر الروض المكانة التي كانت له. أما مجيء موضي، عند غروب ذلك اليوم، ولم تدم زيارتها إلا وقتاً قصيراً، فكان بمثابة الإنذار الأخير: إما أن تكفّ الشيخة نهائياً عن التدخل في شؤون القصر وإلا . . .

قيل إن الشيخة لم تكتف برفض التهديد، إذ لم تسمح لموضي أن تتم رسالتها، ومما يؤكد افتراضاً مثل هذا أن موضي تعثرت وهي تصعد إلى السيارة نتيجة الانفعال، بينما قالت قطمة لإحدى خادمات العنود، أن سيدتها لم تتوقع وجود عدلة عند الشيخة. لذلك انسحبت بسرعة لكي لا تختلف معها، رغم محاولات الشيخة استبقاءها!

أما ما ظهر من غنى ورفاه على عدد من الأمراء بعد فترة من غياب الشيخة، فإن بعض الذين يميلون إلى تفسير الأمور تفسيراً سيئاً، يؤكدون علاقة هؤلاء بغيابها، أو حتى بمقتلها، ثم الاستيلاء على ما كان عندها من أموال. خاصة وأن تهاني لم تعد إلى قصر الروض إلا بعد أيام من مغادرته، ويظن أنها هي التي أبلغت عن مكان وجود ذهب الشيخة وجواهرها، والسيوف الذهبية التي كانت تحتفظ بها. فعلت ذلك نتيجة

السحر الذي عمله لها مزهر العطيفي، والذي استدعي لا ليشفيها من الأوجاع التي ألمّت بها بعد ان حبست، وإنما لأسباب أخرى!

ولأن لدى موران الكثير مما يشغلها أو تتلهى به، ولأن عدداً كبيراً من الذين رافقوا السلطان خزعل في سفرته إلى بادن بادن بدأوا يعودون، ورافق عودتهم الكثير من اللغط والتوقع، فقد تراجعت الأخبار والشائعات المتعلقة بالشيخة، لتحل مكانها أخبار وشائعات أخطر منها: عادت طلائع خزعل، وهو سيعود بين يوم وآخر. ومما ساعد على انتشار هذه الأخبار التعزيزات والتحصينات التي أقيمت حول عدد من قصور الأمراء، وعودة الدبابات إلى حراسة قصر السعد، إضافة إلى معلومات، لم تتأكد، حول اعتقالات وإعدامات نتيجة اكتشاف محاولة لاغتيال السلطان فنر.

ومثلما حصل في مرات سابقة، خاصة أثناء التغيرات الكبيرة، وما كان يرافقها من مخاوف وانتظار، فإن موران بدأت تتوقع وتراقب وتنتظر.

لكن خلافاً للمرات السابقة، حيث كان الخدم والحرس، إضافة إلى النساء، هم الذين يتولون تسريب الأخبار، وبأشكال لا حصر لها، وكان يجري في سوق الحلال إعادة ترتيبها ضمن انساق يمكن في النهاية استنتاج ما تحمله من مغزى ودلالات، فإن قصر السعد هذه المرة غرق في الصمت تماماً، وقيل إن عدداً من الحرس استبدل أكثر من مرة نتيجة هفوات صغيرة، وأشرف حماد المطوع بنفسه على ترتيبات الأمن، بما فيها التحريم الكامل أن تنتقل أية أخبار عن القصر، حتى أسماء الذين يزورونه، وأسماء الذين لا يأتون. لذلك فإن أي خبر ينتشر في موران يمكن أن يكون صحيحاً ووقع بالفعل، ويمكن أن يكون مجرد شائعة.

عبد المولى الذي انتقل مع حماد المطوع من جهاز الأمن والسلامة إلى وزارة الداخلية، وسُمّي في هذه الفترة مديراً لمكتب الوزير، كتب إلى مسؤولي الجهاز، بناء لأمر الوزير، ما يلي: «... ويراقب مسؤولو الجهاز مرؤوسيهم بدقة عن تنفيذ التعليمات السابقة، ويعتبر المسؤول نفسه معرضاً للعقاب الشديد في حال تسرب أية أخبار، مهما كانت، عن القصر، وعن صاحب الجلالة السلطان بالذات، وعن الأمراء».

«ويحظر على منتسبي الجهاز تقديم أية تفسيرات للأخبار التي يتداولها الناس، مهما كانت الظروف».

«ويحظر على منتسبي الجهاز إقامة أية علاقات مع الأجانب وزوار موران، ويلزم التبليغ عن أية صلات سابقة».

«ويطلب من كل مسؤول أن يقدّم تقريراً أسبوعياً عن العناصر التابعة له، وسوف نوافيكم، في بلاغ لاحق، بالنموذج الذي يجب اعتماده في إعداد التقرير المطلوب».

«يعتبر مساء السبت، الساعة التاسعة، موعداً ثابتاً ودورياً لاجتماع مسؤولي الجهاز، دون حاجة لإشعار لاحق. ويكون الاجتماع في شعبة العمليات والمتابعة».

لقد فعل حماد المطوع ذلك بناء لأمر مباشر من السلطان. قال السلطان فنر في اجتماع ضمهما وحدهما، وقبل تسميته وزيراً للداخلية:

ـ . . . وما يحتاج أن أحد يوصيك يا حماد، ومثل ما قالوا جماعتنا من قبل: اقطع رأس تموّت خبر، فابتداء من اليوم، كل واحد، خاصة من الجهاز، ينسمع عنه أنه قال كلمة واحدة، ما أريدك ترحمه، ويلزم تخليه عبرة لمن يريد يعتبر. . .

تنحنح فخرج صوته حاداً:

ـ وأنت تعرف: أهل موران، ما عندهم غير السوالف، ويعرفون شلون يجرون الواحد حتى يطلّع اللي ببطنه، ودايماً يأخذون أسرارهم من زغارهم، يدورون الحرس والمرافقين والناس اللي حوالينا: ها من زار القصر اليوم؟ مع من تغدى عمك؟ شلون جا فلان وشلون طلع؟ ومن هذي السوالف يبنون علالي وقصور، ويعرفون الأول والتالي. . .

وعاد إلى لهجته الأولى:

ـ فأريدك يا حماد تقطع دابر كل واحد من هذول. أريد الواحد منهم أخرس حتى لو قطعت رأسه، وأريد سوالفنا تظل بينا، وما تتعدى القصر أبد.

تطلع فنر ملياً إلى حماد، وابتسم، ثم قال بصوت متآمر:

ـ ولأنا نثق بك يا حماد، وجربناك وعرفناك، فأريد منك تساعدني، وأريد أمون عليك، وأحمّلك فوق ما تحمل: مع الجهاز أريدك تكون وزير للداخلية، وابتداء من اليوم ما يطير طير فوق السلطنة إلا وتعرفه وبأمرك، والرجال للأحمال، وعسى أن الله يوفقنا!

لقد اعترف حماد بما دار في هذا اللقاء، بعد سنتين، لتركي السقيّان، حين سُمّي الاثنان سفراء في وزارة الخارجية. تمهيداً لاختيار الأمكنة التي تناسبهما. قال ذلك بمرارة، وهو يستعرض الفترة السابقة كلها.

أما الإجراءات التي اتخذها، خاصة لحماية أسرار الدولة، كما وصفها لكبار معاونيه، فلم تترك أحداً صديقاً له، إذ بالغ كثيراً فيما يعتبره سراً، ولم ينج أحد من عقابه، إذا كان تابعاً له، أو من الملامة، وحتى المساءلة، إذا كان من الإدارات الأخرى.

قال شداد المطوع تعليقاً على ما سمعه في مقهى زيدان، وقد انتشر فيه المخبرون، وحين سأل أحد الجالسين حوله عن أخبار موران، فاكتفى هذا بجواب مختصر: هز كتفيه وضحك بسخرية، قال شداد موجهاً الخطاب إلى الكثيرين:

ـ ابن أخوي يريد الناس جيران مقبرة: لا يتكلمون، لا يتزاورون، ولا أحد يعرف الثاني، لكن هذي موران: إذا الواحد ما طلّع اللي بقلبه يموت حسرة أو يهجّ. . .

وأضاف بعد قليل بحزن:

ـ وظني أن ولد اخوي ما يعرف موران ولا يعرف أهلها، واللي يعيش يشوف!

وموران التي انكفأت على نفسها، وغطّت وجهها بطبقة سميكة من الصمت، عرف الناس فيها كيف يهجرون المقاهي والمضافات المفتوحة، ليستبدلوها بوسائل أخرى تفننوا باختراعها، إذ بالإضافة إلى اللغة الجديدة التي بدأت تغتني كل يوم بمفردات وتعابير لا يعرف من اخترعها، فإن الراديو هذا الجهاز الذي دخل كل البيوت، وأصبح حتى الرعاة يحملونه أينما ذهبوا، غيّر كل شيء.

قال زيدان لعدد من الأصدقاء الذين يجلسون حول طاولته، في مقدمة المقهى، وأصبحوا جزءاً من أثاث المقهى:

ـ . . . وأولاد الحرام عيونهم مثل عيون الحرامية: يشربون ويمشون، ولا أحد منهم، في يوم من الأيام، يخطي ويمد يده على كيسه ويقول: هذا حق المشروب. . .

وضحك بسخرية ثم تابع بحسرة:

ـ قلنا أول شهر شهرين: ما يخالف، زكاة، وإن ما كانت تحلّ عليهم، لأن غيرهم يكّفي ويوفي. لكن مثل ما تشوف عيونكم: أولاد الحلال، اللي يشربون ويدفعون ما عادوا عتّبوا قهوتنا، وما شفناهم، وظل هذول اللقامة بوجهنا، فيلزم ندوّر شغلة ثانية!

ولم يتأخر زيدان لأن يحوّل مقهاه إلى فرن، سماه فرن الأصدقاء، وإن ظل أهل موران لا يعرفونه إلا بفرن زيدان.

أما الراديو الياباني الصغير فقد حل مكان سوق الحلال والسوق القديم، وبين يوم وآخر تغيرت موران. فالصمت الذي بدأ يملأ شوارعها خلال ساعات النهار، تحوّل إلى دوي يملأ لياليها، وترافق ذلك مع النكت والتعليقات الساخرة. كان الناس يسمعون أخبار موران من الإذاعات الخارجية، حتى خلاف الأخوة، وانتقال خزعل من مكان إلى آخر، كانت تصلهم من بعيد، فإذا صدف أن فتح أحد على إذاعة موران، وغالباً ما يكون ذلك بطريق الخطأ أو لحب الاستطلاع والفضول، فلا تلبث أن تنهال عليه التعليقات الساخرة: «اتركنا، يا ابن الحلال، من هذا الكذوب» «تركت إذاعات الدنيا كلها وفتحت إذاعة أكلك منين يا بطة».

قال زيدان يوصي صديقاً يريد أن يسافر أحد أقربائه إلى اليابان:

ـ وأريد تكلّف لي قرابتك، ما دام رايح لليابان، أن يطرّش لي راديو زين زين، وادفع له، مهما كان.

وخفض صوته، صار متآمراً:

ـ بس بشرط. . .

وتابع بتآمر أكثر:

ـ الشرط أنه ما يجيب موران!

ـ عمر الطريفي الذي جلب معه دساتير اثنتين وعشرين دولة، وقيل أنه أعد مشروعاً لدستور، وقد صودرت هذه الدساتير، مع مكتبته الكاملة، قال لرئيس المفرزة التي داهمت بيته بمرارة وسخرية معاً:

ـ يا وليدي أنت مأمور، وما لك ذنب، بس يلزمك تعرف: الدنيا اليوم ما هي مثل قبل، الدنيا صارت صغيرة. إذا أخذت هذي الكتب ترى مثلها بالآلاف، والكتاب قبل ما يخلص ينطبع مرة وثنتين وثلاث. وإذا ما وصل بأول يوم يصل ثاني يوم، وإذا ما نقرا اليوم ينقرا عقبه، وإذا ما قريته أنت يقراه غيرك. وكل ما أريده منك أن تحمل الكتب على مهلك، وتوّصلها للي يلزم تصل له. وبهذا وحده أعتب عليك وألومك إذا أخطيت.

ورئيس المفرزة الذي تظاهر، أنه لم يسمع هذه الموعظة، استشاط غضباً حين أوقع أحد عناصر المفرزة كمية من الكتب وداس فوقها. قال، وخرج صوته حاداً:

ـ لا تدوس عليها، يا ابن الحرام، لأن بكل صفحة منها مكتوب اسم الله، فخاف الله يسخطنا!

قال عمر الطريفي:

ـ مهما حاول الواحد يهرب من الشمس والقمر، لكنهم فوقه، وما يقدر يغيرهم أو يوقفهم، والأحسن والأسلم أن الواحد يمشي ممشى زمانه!

وبعد قليل وكان يحدث نفسه، ولا يهمه إذا سمعه أحد أو لم يسمعه:

ـ والدستور ما منّه، إذا ما جا اليوم يجي اللي عقبه، بس ما أدري ليش اللي يحكمون يكذبون هالكثر!

قال قائد المفرزة بغضب مبالغ فيه:

ـ خفّوا أيديكم، ورانا ألف شغلة غير هذي الشغلة، وأهم منها!

نمر، ابن شمران العتيبي، قال للسجناء الخمسة الذين كانوا معه، وبعد أن انتزع من أذنيه سماعات الراديو، وقد دفع من أجل الحصول عليه كل ما

أخذه من بدر، في زيارته الأخيرة. دفع المبلغ، وكان كبيراً، ثمناً للجهاز ورشوة للحارس الذي جلبه:

ـ ولولا مية سبب وسبب يظن الواحد أنه بقهوة زيدان!

رد أحد السجناء الخمسة:

ـ لا بالله، وأنت الصادق، يا أبو شمران، يظن روحه بقصر السعد. . .

وبعد قليل وبسخرية:

ـ هات علمنا علومك، شنهو اللي سمعته، من أول الليل إلى هالحين؟

وبدا نمر، مثل عادته:

ـ إليكم أولاً، يا جماعة الخير، الأخبار. أخبار موران اليوم أن المعاهدة التي وقعها فنر نيابة عن السلطان خريبط مع الولايات المتحدة قبل عشر سنوات، تم تجديدها اليوم، ولمدة عشر سنوات جديدة.

أما التعليق، يا جماعة الخير. . .

قال أحد السجناء مقاطعاً وبسخرية:

ـ ونريدك، يا أبو شمران، مثل ما تحفظ الأخبار وتعيدها، أن تحفظ الأغاني، وبين نشرة ونشرة، ومن صوتك الحلو، مجموعة أغاني وتقاسيم.

ـ وتريدنا نسمعه، يا ابن الحلال؟

هكذا سأل سجين آخر، وكان لا يتكلم إلا نادراً، وأضاف بعد قليل وهو يقهقه:

ـ لو سوّاها أبو شمران كان ثاني يوم يفرجون عنا، أو يهدمون السجن فوق روسنا!

قال نمر بغضب:

ـ والله يا خنازير ما تستاهلون إن الواحد يتعب روحه لأجلكم!

وظلت موران تدور في هذه الحلقة الرجراجة، وظل الناس ينامون على آخر نشرات الأخبار، ويستيقظون على أول النشرات، وقد امتلأوا قناعة أن شيئاً ما لا بد أن يحدث!

الزيارة التي قام بها ليفي شاوات، كنائب لرئيس الوفد الذي أبرم صفقة السلاح مع سلطنة موران، غيّرت الكثير من أفكاره ومشاريعه.

قبل الزيارة كان يخطط لشراء مزرعة في كاليفورنيا لكي يستقر فيها، بعد أن تعب من الانتقال من قارة إلى أخرى، إلى ثالثة، حتى استقر في هذه الشركة. لكن والسنوات تمر، والأعمال المكتبية تحاصره، ثم تلك الاجتماعات والمناقشات ودراسة العقود التي لا تنتهي، جعلته يحس أن صدره يضيق، وحياته تتبدد. الآن يريد أن يتصرف، بما تبقى له من سنوات، بطريقة مختلفة، يريد أن يعمل بيديه. وبعد أن يتعب، أو ينتهي من العمل، يجلس في الشرفة لكي يتأمل ويستعيد حياته كلها، والتي تبدو له في لحظات كثيرة غير قابلة للتصديق، لفرط ما عانى وما رأى، حتى إذا جاءه الموت ذات يوم يترك لأولاده وأحفاده شيئاً ثابتاً وقوياً، ولم يجد أقوى وأكثر ثباتاً من مزرعة كبيرة في هذه البقعة من العالم.

هكذا كانت تنساب أفكاره، وكانت أقرب إلى الحلم، وفجأة، ولا يعرف كيف، تغير كل شيء دفعة واحدة.

لا يمكن أن تكون الأحاديث التي تبادلها وغزوان في مكاتب الشركة، ثم في الرحلة الطويلة التي حملتهما إلى موران، السبب وراء القلق ثم الحيرة وأخيراً التغير الذي سيطر عليه، وحرك شيئاً في داخله.

إذا أراد أن يعتبر لحظة بذاتها أثرت عليه، وجعلته يعيد النظر بكل شيء، فهي بالتأكيد تلك اللحظة التي لامس فيها وجهه هواء موران. كان الهواء دافئاً، أقرب إلى اللفح، وهو الذي أشعره بالتغير، بشيء جديد. أو ربما انبعثت، في تلك اللحظة، رائحة شيء أحبه عندما كان صغيراً، وربما

تراءت له صور يعرفها أو رآها من قبل، وقد يكون أحد أو شيء تكامل في ذاكرته تلك اللحظة وأقنعه، وإن كان بشكل غامض، أن هذا ما يريده وما يبحث عنه.

طوال رحلة العودة، وفي محطات الطريق، خاصة في باريس، لم يترك فرصة إلا واستغلها لكي يبحث مع غزوان إمكانية أن يبدآ معاً عملاً، وأن يكون مجاله موران. ربما لاحظ علاقات غزوان ونفوذه، وربما أغراه هذا المجال الذي لم يفكر فيه من قبل، أو بالأحرى لم يفكر أن يتجاوز دوره في قسم مبيعات الشركة. الآن، بعد أن رأى، وتعرف، وسمع الكثير، وقد ساعدته معرفته للغة العربية، وكان في جزء هام من المفاوضات، خاصة مع المسؤولين الكبار، المترجم الأساسي، وبعض الأحيان الوحيد مع غزوان، وما قيل من أمور على هامش المفاوضات، تبدي له أنه قادر على القيام بأعمال كثيرة تتجاوز حراثة الأرض، وقيادة التراكتور، ثم انتظار الثمار لكي تنضج.

وحتى إذا أراد أن يصبح مزارعاً، في أخريات أيامه، وأن يترك شيئاً وأثراً يفتخر به، ثم يواصل أولاده وأحفاده، من بعدهم، التفاخر به، فإنه سيكون أقدر، بما لا يقاس، إذا استطاع أن يستغل بمهارة مجالاً يمكن أن يحقق له في عدد قليل من السنين، وربما بضعة شهور، ما لم يستطع أن يحققه طوال عمره.

في باريس، المكان الذي عرفه وأحبه في سنوات شبابه، اقترح على غزوان أن ينفصلا عن الوفد، وأن يقضيا معاً عدة أيام.

بسهولة اتفقا، ولم يجدا صعوبة أبداً في موافقة رئيس الوفد على أن يتأخرا بضعة أيام، خاصة وأن رئيس الوفد كان لديه الكثير من المشتريات من باريس أولاً، ثم لديه الرغبة أن يكون الأول، والوحيد، الذي يعرض النتائج التي توصل إليها، دون أن يكون مضطراً، حتى من خلال النظرات، لاستئذان أي من الاثنين اللذين ساهما معه في هذا النجاح.

عامل المعرفة؟ السن؟ الخبرة؟ ما الذي سهّل له أن يصل وغزوان إلى اتفاق كامل على ما يجب أن يعملاه في المستقبل؟

الأيام الأربعة في باريس كانت كبيرة وحاسمة: «يمكن أن نبقى لشهرين أو ثلاثة شهور في الشركة، لكن خلال هذه الفترة، وبهدوء، نهيئ الجو لأن نترك، ونهيئ أنفسنا لأن نبدأ العمل الجديد. يمكن أن نضع جزءاً من خبرتنا وعلاقاتنا في خدمة الشركة ولمصلحتها، «ثم أن رئيس مجلس الإدارة يعرف أني أنوي الاستقرار في كاليفورنيا، وأريد أن أبدأ عملاً جديداً» «ووالدي قال لي: يجب أن تبدأ عملاً خاصاً بك، لأن الوظيفة، مهما كانت كبيرة، ليس لها مستقبل» «ويمكن، كبداية، أن نعمل في مجالات بعيدة عن السلاح، خاصة وأن فرص العمل في السلطنة، كما بدت لي، غير محدودة، بدءاً من توريد الطعام وانتهاء بالهدايا للقصور» «كانت الهدايا مؤثرة وموضع اعتزازهم، حتى السلطان، وهو يقلب البنادق، كان بادي السرور» «ويمكن أن تتنوع الهدايا في المستقبل، وتثير الإدهاش» «وهي بنظرهم تعبير، كما أخبرني الوالد، عن المودة ومدى الاهتمام» «وفي المستقبل سوف تتجاوز الأشياء المادية إلى هدايا من أنواع أخرى!».

وغزوان الذي كان يفضل البيرة، وشرب مرة أو مرتين النبيذ الأبيض، خاصة وهو يأكل السمك في المطعم، بدا مأخوذاً بليفي شاوات وهو يتنقل به في باريس من مكان لآخر، ويصرّ على أن يدفع، ويفتح أمامه الطرق بلغته الفرنسية الواثقة، ثم يختار، في الليلة قبل الأخيرة، غزالتين، كما كان يطلق على تلك الحسناوات الصغيرات والشقيات! وتعرف الغزالتان كيف تكسران آخر مظاهر التردد.

بعد سبعة شهور، طويلة وصعبة، وافقت الشركة على قبول استقالة ليفي شاوات. وافقت لكن بشروطها: «أن يبقى المستر شاوات مكلفاً بتنفيذ العقود السابقة، وبالتالي موظفاً في الشركة من أجل تنفيذ هذه العقود، وليس له صفة مستقلة؛ وأن يكون من حق الشركة أيضاً إيفاده بمهمات، وبأجور مقطوعة، إلى البلدان المتكلمة بالفرنسية أو العربية، وبصفته مترجماً، دون أن يكون له حق الاعتراض، أو المطالبة بالنسبة المقررة لعقود من هذا النوع».

وافق ليفي شاوات، وصفى علاقاته، وافتتح مكتباً في سان فرانسيسكو، وبدأ بإعداد الملفات ومراجعة السابقة. ورغم التفاؤل، لا يريد أن يغامر، ولا يقوى أن يبدأ، كما فعل قبل عشرين سنة، حينما كان مجرد بائع، وليس له مهمة سوى الاتصال، وعرض سلعه، واستعمال كل براعته لإقناع الزبون بالشراء. إنه متأكد أن موران تحتاج إلى كل شيء، ليس موران وحدها، وإنما المنطقة كلها، لكنه يحتاج إلى «مفاتيح»، يحتاج إلى الآخرين، ومن هناك، لكي يقدموه، ليس كمجرد بائع، يحمل في حقائبه السلع، وإنما كرجل أعمال، بإمكانه أن يؤمن كل شيء، كما يقال في التعبير الذي صار متداولاً: من الإبرة إلى الطائرة.

اليانور، إحدى القريبات، أصبحت السكرتيرة في «الشراكة العالمية للاستيراد والتصدير». فتاة في العشرينات من عمرها. قطة في وداعتها، وفي قدرتها على أن تعرف البشر، خاصة من يحبونها، ويمكن أن تطمئن لهم. جميلة، لكن ليس إلى الحد الذي يجعل الشباب في شوارع سان فرانسيسكو يصفرون إذا مرت. ومع ذلك، وإذا ألفها الإنسان، إذا تمعن بملامحها، يكتشف اتساق الملامح، والابتسامة الحلوة، الأقرب إلى الخجل، وكأنها، حين تبتسم، تحس بنوع من الذنب أو العري، إضافة إلى ذلك الجسد المغري، الأقرب إلى السمرة الهادئة الرقيقة.

عندما التحقت اليانور بمكتب الشركة العالمية للاستيراد والتصدير، كانت خارجة لتوها من تجربة حب مريرة: واحد من هؤلاء المجانين الذين يريدون أن يغيروا كل شيء في العالم، وكان يحلم أكثر مما يفعل الذين حوله، وأكثر مما يحتملون، وحين عجز عن إقناع اليانور أن تجن وتحلم مثله، ألقى بنفسه من فوق جسر سان فرانسيسكو، وغاب.

كانت متأكدة، وهي تحلم معه بعض أحلامه، إنها قادرة على ترويضه، كانت تتكلم بنفس لغته، وتؤكد أنها تريد ما يريده، ولكنها كانت تؤكد لنفسها أنها قادرة على استيعابه وإعادته إلى حيث يجب أن يكون. ولما اكتشف أنها تسخر منه، وأنها لا تعني الكلمات التي تقولها غادر بسرعة. ووافقت هي أن تكون مثل ما يريد الآخرون، ولذلك عندما عرض

عليها ليفي أن تكون سكرتيرة له، لم تتردد.

غزوان، وهو يتردد على الشركة العالمية، تعرف عليها. كانت مهذبة، لكن لم تكن رقيقة أو ودودة. كانت تؤدي عملاً، وليس لديها شيء آخر. ابتسم لها فهزت رأسها. حاول أن يفتح حديثاً، شاركت في الحديث عن الطقس والحوادث، ولم تشارك، أو لم تجب، عن الأحاديث الأخرى.

قال غزوان، بعد أسابيع لليفي:

ـ هذه الفتاة صعبة، ولا تريد أصدقاء!

ـ إنها تبحث عن الأصدقاء.

ـ حاولت معها، لكنها تبدو بعيدة وصعبة.

ـ الزمن يجعل البعيد قريباً، والصعب تروضه الحياة!

ـ إذن ليس عليّ إلا أن أنتظر.

ـ أن تبذل جهداً متصلاً، وأن لا تيأس!

ـ ليس لي القدرة على ذلك.

ـ يجب أن لا تعلن هزيمتك، حتى لو كنت مهزوماً، لأن المرأة، وربما الحياة أيضاً، لا تحب أن تتعامل مع الذين يعلنون هزيمتهم!

ـ نتكلم الآن بطريقة لا يفهمها إلا الفلاسفة والمجانين...

وبعد قليل وهو يضحك ويسأل:

ـ المهم بالنسبة لي كيف أروضها؟ كيف أصل إليها؟

زفر ليفي وقال بلهجة أبوية:

ـ حالما تقبل استقالتك من الشركة، وتأتي إلى هنا.

وضحك بثقة وأضاف:

ـ عندما تصبح في وجهها كل ساعات النهار، وبعض ساعات الليل، سوف تتعود عليك وسوف تحبك.

وابتسم وهو يضيف واصبعه في الهواء:

ـ ولا تظن أن كل النساء مثل تلك الغزالتين اللتين لم نستطع أن نتخلص منهما حتى في المطار ونحن نريد أن نسافر.

وبعد قليل، وكأنه يكلم نفسه:

ـ المرأة، خاصة حين تريد أن تكون أماً، تتصرف بطريقة قد لا يستطيع الرجل أن يفهمها بسهولة. إنها تريد كل شيء، ولا تريد شيئاً.

قال غزوان برخاوة:

ـ أنا لا أفهم هذا المنطق، ولا أتصور أنه يمكن أن يؤدي إلى نتيجة.

رد ليفي شاوات:

ـ لدينا الكثير لنتكلم فيه إذا جئت إلى هنا.

وبعد قليل وبلهجة مختلفة:

ـ وماذا عن الاستقالة؟ لقد تأخرت أكثر مما أتصور.

ـ وعدني المدير، بعد الكثير من محاولات الإقناع لسحب الاستقالة، أن يوافق عليها في مطلع العام، وبشروط:

ـ مطلع العام؟ وبشروط؟

ـ أي بعد شهرين، وأن أكون مستشاراً للشركة في العقود التي تبرم مع المنطقة...

ـ ووافقت؟

ـ ليس لي إلا الموافقة.

ـ مثلما وصلت إلى القرار الصحيح في هذا الموضوع لا بد أن تصل إلى قرار صحيح أيضاً مع اليانور.

رغم تأخر، بل وتعثر، الموافقة على استقالة غزوان، فقد بدأت الشركة العالمية بتقديم عروض وخدمات للسلطنة. صحيح أنها كانت عروضاً ثانوية، إلا أن الزيارات التي قام بها غزوان للسلطنة، أو الزيارات التي حملت بعض الأمراء وكبار الموظفين والضباط إلى الولايات المتحدة، جعلت ليفي شاوات أكثر ثقة وتفاؤلاً بمستقبل العمل. وجعلته أيضاً شخصاً مختلفاً عما كان قبل شهور قليلة.

يشعر ليفي الآن أنه أكثر شباباً وأقدر على الحركة، بل ويفكر بطريقة مختلفة عن السابق. القواعد التي تعلمها في وقت مبكر، حين كان موظفاً مبتدئاً في ادارة المبيعات، والذي أخذ يتخلى عن قسم منها، ثم آخر، ما دام يترقى في سلم الوظيفة، وتقل وتبتعد علاقاته المباشرة بالناس، وينصرف بشكل متزايد إلى العقود الكبيرة التي تهم الدول أكثر مما تهم الأفراد... هذه القواعد التي تراجعت وكادت تتوارى، بدأت ترفع رؤوسها من جديد، وبدأ يستعيدها، لكن ضمن نسق أكثر حيوية وقوة. إنه الآن يعمل لحسابه الخاص، وأية صفقة يعقدها لا تتلخص ولا تقتصر على الراتب الثالث عشر أو نسبة الثلاثة بالمائة.

لم يكن يفكر أبداً أن يقطع القارة من غربها إلى شرقها لكي يستقبل أحد الأمراء في نيويورك، وأن يقضي معه بضعة أيام، يكون خلالها مرافقاً ومترجماً، وفي الليل أنيساً ونديماً. إنه شيء جديد بالنسبة له، لكنه «مقنع وضروري، على الأقل في البداية» هكذا قال لنفسه في إحدى السفرات، حين وصل الأمير راكان إلى نيويورك، وجاء لاستقباله ومرافقته. صحيح أن الشركة طلبت منه ذلك، اعتماداً على الاتفاق الذي تم بينهما بالنسبة للعقود

القديمة، لكن الأصح من ذلك أنه عرف بزيارة الأمير من غزوان، وأنهما اتفقا على أن يكونا بمعية الأمير طوال زيارته، لأنها الفرصة المناسبة لانطلاق الشركة العالمية، والوصول إلى العقود الكبيرة.

ـ أسبوعان رائعان، لم يعش الإنسان مثلهما في حياته...

وأصبحت لهجة ليفي تقريرية أكثر:

ـ الأكل، الثلاث وجبات، جيد جداً، ممتاز. النوم في أغلى الفنادق وأرقاها. السفر بطائرة خاصة، المشروب...

وضحك بلذة ثم أضاف:

ـ وأهم من ذلك كله: الأحلام...

وتغيرت اللهجة:

ـ إذا تحقق جزء من هذه الأحلام، يا غزوان، فلا بد أن نصبح من الأغنياء الكبار خلال فترة قياسية، ودون أن نغادر مكاتبنا، أو أن نتعب كما كان يفعل الرأسماليون في بداية هذا القرن.

رد غزوان بثقة:

ـ وهناك فرص أخرى كثيرة يا مستر ليفي!

ـ ويجب أن يحسم موضوع قبول استقالتك، لكي نتحركَ بقوة.

ـ أبلغتني الإدارة أن الموضوع حسم من حيث المبدأ، وسوف تعرض عليّ أكثر من صيغة لاتفاق لاحق...

وضحك، وهو يتابع بمكر:

ـ لم أترك فرصة اجتماع الأمير راكان والمدير العام للشركة تمر. قال له الأمير: «... ونحتاج إلى غزوان في موران، ونظن أن ما عندكم مانع، وسيبقى الصلة بيننا» وفهم المدير معنى هذه الإشارة وكلف القسم القانوني بإعداد الصيغة الملائمة.

انفعل ليفي شاوات، ولم يخفف مرحه وأحلامه. قال:

ـ ونحتاج إلى فتح فرع، على الأقل، في نيويورك، لكي يتابع الأعمال من هناك.

وتراءت له من جديد صور الأسبوعين الماضيين: البشر، الأماكن، الأحداث، وحتى الأحلام، فقال كأنه يحدّث نفسه:

ـ أتذكر الأمير راكان، أثناء توقيع العقد في موران، كان شخصاً آخر، شخصاً مختلفاً تماماً!

قهقه غزوان، وكأنه يريد من خلال هذه الضحكة الصاخبة، أن يثبت لليفي شاوات، أنه أكثر معرفة ودراية بموران، وبشرها، خاصة الأمراء منهم.

قال ليفي، وهو يبتسم لهذا الاكتشاف:

ـ يبدو لي أن الأمراء وكبار الموظفين والضباط يصبحون بشراً مختلفين تماماً حين يسافرون! أنهم يخلفون وراءهم الكثير من المظاهر والجهامة، ويكونون أكثر استعداداً للتفاهم والمزاح، أي أنهم يتخلون عن الألقاب والرتب والنياشين، نعم يتخلون عنها برضاهم ورغبتهم ويريدون أن يكونوا مثل غيرهم!

قال غزوان بانفعال:

ـ وعندما تزداد معرفتك بهم، يا مستر ليفي، وتتوثق علاقتك معهم، تكتشف فيهم البساطة والود والرغبة في المساعدة...

كاد غزوان يتابع، لولا مقاطعة ليفي:

ـ وهم في الليل غيرهم في النهار...

ولئلا يترك أي ظلال لكلماته، تابع مصححاً:

ـ أقصد أنه بعد ركض النهار، والمناقشات الجادة التي تجري خلاله، يكون الإنسان قادراً أو راغباً في أن يخوض بالموضوعات الإنسانية، وبالتالي إقامة علاقات شخصية صحيحة.

رد غزوان:

ـ إنهم أكثر مودة وبساطة مما يتصورهم الكثيرون.

ـ أنا متأكد تماماً مما تقول، لأني لمست الأمور بنفسي...

تنفس بعمق وتابع:

ـ كنت أتابع انفعالاتهم وردود أفعالهم تجاه الموضوعات الإنسانية.

إنهم سريعو التأثر والاستجابة: البنادق الأتوماتيكية الصغيرة التي قدمت، كهدايا، للأمير راكان ومرافقيه، كانت بالغة الأثر والأهمية. كان الأمير فرحاً بها، ولقد رأيت ذلك بنفسك.

ضحك وهز رأسه، ثم تابع بسرعة:

ـ حتى الهدايا المتواضعة التي قدمناها باسم الشركة العالمية كانت موضع تقدير وامتنان.

قال غزوان بفخامة:

ـ يردد أبي حديثاً للرسول، وأنا أحفظ معناه منذ سنوات طويلة، لكثرة ما سمعته: تهادوا فإن الهدية تخلق المودة وتقرب بين الناس.

ـ هذا صحيح...

قبلت استقالة غزوان أخيراً، وحرصت الشركة أن يبقى على صلة معها، لكن لم تحدد هذه الصلة ضمن صيغة، كما فعلت مع ليفي شاوات. وبدأ التفكير والتخطيط في مكاتب الشركة العالمية لبرنامج التحرك، وقد أبدى غزوان رغبة ظاهرة أن يتم استئجار مكاتب أوسع وأكثر فخامة، وأن يتم استخدام عدد إضافي من الموظفين. وليفي شاوات الذي فهم الدوافع وراء مثل هذا الاقتراح، ورغم موافقته، إلا أنه اعتبر الأمر مبكراً. رد غزوان، وبدا في لهجته الضيق:

ـ لو أننا أقمنا احتفالاً في مكاتب الشركة، ودعونا الأمير ومرافقيه، لكانت النتائج أفضل بما لا يقاس..

وبعد قليل وبحزن:

ـ أكثر من واحد سألني عن مكاتب الشركة العالمية التي يرأسها المستر ليفي شاوات، وكنت أضطر للإجابة بشكل غامض، أو أتهرب من الجواب.

رد ليفي بطريقة أبوية:

ـ لا أنكر أهمية ووجاهة اقتراحك، لكن يجب أن تعرف أننا لا زلنا في بداية العمل، ومن الحماقة أن نضع كل مدخراتنا، أو كل ما نحصل عليه، ثمناً للأثاث أو رواتب للموظفين.

وبعد قليل:

- ثم ان حجم العمل الآن، لا يقتضي موظفين إضافيين، إن اليانور تكفينا وتفيض عنا!

تطلع غزوان، من الباب المفتوح مواربة، كانت اليانور تجلس في الغرفة المجاورة، وربما تسمع الحوار الذي يدور بينهما. قال، يريدها أن تسمع:

- لا أنكر أبداً كفاءتها، والمهمات التي تقوم بها، والتي قد تحتاج إلى اثنين أو ثلاثة من الموظفين للقيام بها، لكن المسألة، يا مستر ليفي، لها أوجه أخرى...

هز رأسه عدة مرات. وجرح صوته الصمت:

- وأنا، يا مستر ليفي، أعرف طبيعة الناس الذين نتعامل معهم، إنهم يقيمون وزناً كبيراً للمظاهر، لطريقة التعامل، أكثر مما يفكرون بأي شيء آخر...

ابتسم وهو يضيف بلهجة جديدة:

- وأبي يردد دائماً: أهمية القبيلة بعدد أفرادها، وأهمية الشيخ بعدد المرافقين، وأهمية الموظف بحجم الطاولة التي يجلس وراءها!

انفعل ليفي شاوات، ورغم محاولته أن يخفي انفعاله، إلا أن صوته الحاد كان يشي بذلك الانفعال:

- وهل تعتقد أن قواعد مثل هذه صحيحة دائماً؟

- في بعض الأماكن، وتجاه بعض الأشخاص، صحيحة.

وحين ابتسم ليفي استدرك غزوان:

- ليس المهم أن تكون صحيحة أو غير صحيحة، المهم أن تكون مؤثرة، وأن تؤدي إلى النتائج المطلوب الوصول إليها.

قال ليفي شاوات لينهي المناقشة:

- سوف نفعل أشياء كثيرة حين نبرم عقوداً تأتينا بالأموال اللازمة، والتي نحلم بها.

قال غزوان بمكر:

ـ ما دامت اليانور قادرة على القيام بكل هذه المهمات، ولا تشكو من التعب، فليس لدي أي اعتراض أن نؤجل خطوات مثل هذه.

صرخ ليفي، الذي كان متأكداً أن اليانور تتابع هذا الحوار:

ـ اليانور... إذا كنت بنفس قناعتنا فاصنعي ثلاثة أقداح من القهوة، ولك الخيار أن تحمليها جميعاً إلى هنا، أو أن تحملي اثنين فقط، وأن تناولي قدحك وحدك وأنت تحلمين!

ولم تتأخر اليانور في أن تحمل الأقداح الثلاثة، وأن تواصل معهم الحديث من حيث انتهوا!

خلال الشهور الأربعة اللاحقة لزيارة الأمير راكان، أبرمت الشركة العالمية صفقتين مع السلطنة، الأولى: توريد مائتين وخمسين رأساً من الخيل؛ والثانية توريد مائة ألف طن من الطحين.

تمت الصفقتان بإيعاز من صاحب الجلالة السلطان، تعبيراً عن الثقة والمودة التي يكنها جلالته لمستشاره الدكتور صبحي المحملجي، بعد أن عرض عليه، وبالاتفاق مع رابح الحنيحن مسؤول الاسطبلات السلطانية، أن خيول صاحب الجلالة قد وزعت، بناء لأوامر جلالته، وبحاجة إلى تعزيزات عاجلة، خاصة بعد أن تم شراء معظم الخيول المعروضة للبيع في موران. ولقد أبدى غزوان استعداده للمساعدة في تأمين ما يلزم السلطنة من خيول، ووعد أن يتم اختيارها من أفضل الاسطبلات وأفضل السلالات، وسوف تكون فخراً لموران!

أما الصفقة الثانية فكانت بإيعاز من سيف الفتوحي، الذي جاء مكان ابن العليان، بعد أن أبلغ من أمراء المناطق أن الناس جاعوا، ولا بد من تدخل الدولة لإنقاذهم.

وبطريق الصدفة المحضة، حين جرى الحديث حول القحط والجوع، أبدى الحكيم المحملجي، استعداده للمساهمة في حل المشكلة، وتأمين الطحين المطلوب، وأنه سيكون مضطراً لتكليف غزوان أيضاً لبذل كل جهده من أجل ذلك!

صفقة الخيول أرهقت الشركة العالمية، إذ بالإضافة إلى الوقت والجهد اللذين صرفا من أجل توفير هذا العدد من الخيول «الكريمة»، فإن المفاوضات الشاقة التي جرت في القاهرة والاسكندرية وبيروت، في دير الزور والموصل، اضطرت الشريكين، أو أحدهما على الأقل، إلى السفر، وأن يدخل في مساومات طويلة ومتعبة، سواء في محاولة الاتفاق على أسعارها، أو التأكد من حججها، وأخيراً لتأمين وصولها إلى السلطنة. ورغم الأرباح التي حققتها الشركة، فإن غزوان الذي لم يكن ميالاً إلى هذا النوع من الصفقات، خاصة وأنها تتم في أمكنة لم يتعود عليها، ودخل في مشاحنات حول أمور تفصيلية لم يفكر فيها يوماً، فقد قال لليفي شاوات، بعد أن استراحا من الركض والتعب، وبدآ يحسبان نتائج الصفقة:

ـ صحيح أن الصفقة متعبة، وتشبه ما ذكرته عن تعب الرأسماليين في بداية القرن، وهم يركضون من مكان لآخر، لكن نتائجها، ويجب أن نعترف، تفوق نتائج أية صفقة يمكن أن يجريها الإنسان في حياته!

رد ليفي في محاولة لأن يخفف من أثر التعب:

ـ الأرباح الصعبة ممتعة أكثر من غيرها، ولا بد أن يتذكرها الإنسان، لكي يرويها لأولاده ثم أحفاده لتكون دروساً للأيام الصعبة. . .

وبعد قليل، وباستمتاع:

ـ فعلاً الأرباح التي تحققت تبرر التعب!

لم يكن التعب هو الذي أزعج غزوان، فالسفر كان أشق عليه وأصعب، لأنه لا يريد أن يبتعد عن اليانور، تلك المرأة التي بدأت تشغله.

ليفي، رغم ذكائه ودقة مراقبته، لم يفطن أن جزءاً من حماس غزوان، والوقت الذي يقضيه في المكتب، من أجل اليانور. صحيح أنه لاحظ تغيراً في وضع اليانور وسلوكها، سواء من حيث اختيار ألوان الفساتين التي ترتديها، أو تسريحة الشعر، وحتى الابتسامة، ولا تتردد بعض الأحيان، ليالي السبت عادة، في أن تضع بعض المساحيق على وجهها، لكنه اعتبر الأمر طبيعياً وعادياً، خاصة وأن الزمن، كما يحلو له أن يردد، الطبيب الحاذق، الذي يداوي جميع المرضى، والذي يقرر، في

النهاية، من يجب أن يبقى، ومن يجب أن يرحل!

اليانور التي خرجت، أو بشكل أدق، بدأت تخرج، من تلك التجربة، لم تتهيأ، بعد، لأن تدخل في تجربة جديدة، وبالتحديد مع رجل غريب، لا تفهمه بالمقدار الكافي، وهي في مثل عمره أو ربما تصغره بسنة أو اثنتين، وتفوقه معرفة وثقافة. لكن، مع ذلك، بدت أقل نفوراً، ولا تمانع في أن تتبادل وإياه الحديث، أحياناً، في القضايا العامة والسريعة.

وفي خضم الأحلام وتحضير ملفات العمل، خاصة ما تحتاجه موران، وضرورات السفر، أو انتظار الرسائل والقرارات، حول ما يجب، وما هو مطلوب، كان غزوان حائراً موزعاً، يريد أن يكون هنا وهناك في آن واحد. أن «يصطاد» اليانور وأن يهرب منها، أن يبقى قريباً، وأن ينطلق إلى أبعد مكان. أن يقرر ما يناسبه، أو أن يترك لأمه لتقرر نيابة عنه.

لم يخرج، مؤقتاً، من بعض الأوهام، إلا حين جاءه، بشكل لم يتوقعه، رسول من حماد.

كان جهاز الأمن والسلامة يريد تجهيزات إضافية للاتصال، وجاء عواد المفلح، المكلف بالأمر، إلى غزوان يطلب مساعدته، ويعرض عليه صداقته أيضاً. ومنه فهم أنه كان ضمن الوفد الذي زار الولايات المتحدة، مع الأمير راكان، أحد رجال القصر، وقد أرسله السلطان ذاته، ونقل إليه، بعد عودته، كل ما قاله راكان، بما في ذلك الوعود التي أعطيت للشركة العالمية، حول فرص العمل في السلطنة. وفي محاولة لقطع الطريق على راكان، والذين معه، بادر السلطان ذاته إلى تكليف الشركة العالمية بصفقة الخيول، ثم بصفقة الطحين!

وتأكد غزوان من صحة هذا التفسير حين صمت راكان تماماً، بعد الوعود الكثيرة التي أعطاها، حول إمكانية إبرام عقود تتجاوز تلك التي وقعت من قبل، وفي مجالات عدة، تم الاتفاق عليها!

بعد أن انقضت شهور، دون أن تظهر أية بادرة من راكان، بدأ ليفي شاوات يستعيد مقاطع عديدة من الحوار الذي جرى بينه وبين روبرت يونغ، أثناء زيارته الأخيرة لنيويورك.

وروبرت يونغ، الذي افتتح في السنين الأخيرة مكتباً للاستشارات الاقتصادية والقانونية خاصاً بالشرق الأوسط، كان موظفاً في شركة نفط موران، وظل في الشركة سنين طويلة، عرف خلالها السلطنة كلها، وجال، أيضاً، في المنطقة، وتعرف على الكثير من معالمها واحتمالاتها، وقامت العلاقة بينه وبين ليفي، من خلال العمل، وأثناء ترتيب صفقة السلاح، حيث تمت استشارة «مكتب خدمات الشرق الأوسط».

قال له روبرت:

ـ . . . ومن عادة أهل تلك البلاد، في لحظات الانفعال، أن يعطوا وعوداً، لكنهم لا يعنونها دائماً، ولذلك يجب أن تكون دقيقاً، وأن لا تعتمد على مصدر واحد فقط.

قال ليفي لغزوان:

ـ يبدو أن أشغال الأمير هناك كثيرة، بحيث نسي وعوده!

غزوان، قبل أن يرد، تطلع بإمعان إلى ليفي، ليكتشف ما إذا كان يعرف شيئاً، ولما بدت له الملامح صلبة، وأقرب الى السخرية، فقد أجاب:

ـ أقدر أن أشغاله حالت دون ذلك!

ـ إذن لا بد أن نتحرك، وأن نبحث عن علاقات وفرص عمل إضافية وجديدة. . .

وبعد قليل وهو يحاول تذكير غزوان:

ـ أنت تعرف روبرت يونغ. . .

لم يجب غزوان، لكن دارت عيناه، في محاولة للتذكر. تذكر. قال بمودة:

ـ بالتأكيد، وقد تحدثنا طويلاً عن موران، واكتشفت أنه يعرفها أحسن مما أعرفها.

ـ ويعرفه الكثيرون هناك، كما أن له علاقات بدول أخرى في المنطقة.

وبعد قليل وقد تغيرت لهجته:

ـ اتصل قبل أيام يعرض، مجدداً، خدماته واستعداده للتعاون، ورأى أن نوافق.

بعد مناقشة تفصيلية تم الاتفاق أن يسافر ليفي إلى نيويورك، وأن تُدرس إمكانيات واحتمالات التعاون، وأن يتم تبادل الرسائل، وحتى التوقيع على اتفاق!

في نهاية المناقشة، وكمحاولة لتثبيت الصيغة الجديدة، قال ليفي، بلهجة بين المزح والسخرية:

ـ لو أننا اعتمدنا في عملنا على الأمير راكان، لاضطررنا إلى تخفيض راتب اليانور، أو صرفها من الخدمة!

رد غزوان محرجاً، وهو يعرف ما حصلوا عليه من أرباح:

ـ لم يصل الأمر إلى هذا الحد يا مستر ليفي.

ـ سوف يصل. . . إذا ظلت الأمور هكذا!

وبعد قليل وكأنه يحدث نفسه:

ـ حين يرجع الأمراء إلى إماراتهم، يتخلون عن الشخصيات التي كانوها في السفر، يعودون أمراء، ويتصرفون كالأمراء، وعلى الآخرين أن يركضوا وراءهم!

رد غزوان، وهو يفكر بأشياء كثيرة:

ـ أو أن يبحثوا عن غيرهم!

لم يطل الوقت لكي يتم الاتفاق مع «مكتب خدمات الشرق الأوسط». لكن خلال فترة زيارة ليفي شاوات، والتي استمرت أسبوعاً، حدث أمران: بداية علاقة من نمط جديد بين غزوان واليانور، وتنحية السلطان خزعل.

في ظل التعب والاختناق يصبح الإنسان صلباً وهشاً معاً، ويكون قابلاً لأن يتشكل حسب الظروف التي تحيط به وحسب الناس الذين حوله، وقد يتخذ أصعب القرارات في أضعف اللحظات.

إذ ما كاد غزوان يقنع اليانور، في اليوم الثالث لسفر ليفي إلى نيويورك، وبعد مناقشات متشعبة حول العمل والإنسان والمستقبل والقدر، أن يتناولا طعام العشاء معاً، وما كاد يخوضان في علاقة الرجل بالمرأة، وما يحب كل منهما، وقد شرب غزوان كأساً ونصف من الويسكي، لكي

يمتلك الشجاعة ويقول ما يدور في رأسه، فإن اليانور تكلمت كثيراً. لكن بدا له كلامها بعيداً غامضاً، ومع ذلك اتفقا أن يكونا أصدقاء، بمعنى ما، وأن يتحدثا عن كل الأمور، «إلا العمل» كما قال لها مازحاً، وهو يودعها.

قبل أن تنتهي هذه الليلة، ولا تعرف اليانور لماذا فعلت ذلك، وقبل أن تنام، سمعت أخبار القارة، سمعت إذاعة لندن، وعرفت أن أحداثاً وقعت في السلطنة، أدت إلى تنحية خزعل. لم تستطع أن تنام قبل أن تتصل بغزوان.

خلال اللحظات الأولى، وكان بين السكر والصحو، لم يستطع أن يميز صوتها. كاد يتصرف بطريقته، حين تتصل به امرأة في وقت غير مناسب، خاصة وأن الشجاعة التي أحس بها، ومشاعر الندم أيضاً، لا تزال قوية فاعلة، ولأنه لام نفسه كثيراً أن ترك اليانور تذهب هكذا. لو حاول معها، لو ألح عليها، لقبلت أن تقضي الليلة معه، لكنه تراجع وجبن. الآن، وهو يسمع هذا الصوت يريد أن يعوّض، أن يستعمل براعته. تكلم بطريقة تمهد وتساعد على الوصول إلى ما يفكر فيه. تركته لحظة، وحين قالت له أنها اليانور، انتفض. أحس، تلك اللحظة، بالخطأ، لأنه تركها تمضي، فهي تريده، تشتاق إليه، بمقدار ما يريدها ويشتاق إليها.

قال لها، بعد أن عرفها:

ـ لا بد أن نلتقي، والآن.

ضحكت ضحكة جافة، قصيرة، وردت بسرعة، وبشيء من القسوة، وكأنها تريده أن يصحو:

ـ لدي أخبار سيئة، يا غزوان!

ـ أخبار سيئة؟

ـ آسفة أن أوقظك في هذه الساعة المتأخرة، وأن أبلغك بأخبار سيئة!

ولفترة غير قصيرة صمت. صرخت من الجانب الآخر:

ـ آلو... آلو غزوان، أتسمعني؟

ـ أسمعك يا اليانور، وأرجو أن ألا تكون سيئة جداً!

ردت بارتباك:
ـ لا أعرف إلى أي حد سيئة، أنت أقدر مني على الحكم، لكن يجب أن تعرف.
ـ قولي يا اليانور.
ـ نحّي السلطان خزعل، ويبدو أن شيئاً ما يحدث هناك.
ـ نعم؟ ماذا؟
ـ اغفر لي يا غزوان، لكن رأيت أن من واجبي إبلاغك بهذا الأمر، مهما كان قاسياً.
ـ كيف عرفت؟ من قال لك ذلك؟
ـ قبل أن أنام سمعت أخبار القارة.
ـ أية محطة؟ أين؟ ومتى؟
ـ غزوان...
وضحكت ضحكة صغيرة، وهي تضيف:
ـ أرجو أن تتماسك، أن تكون قوياً.
صرخ وكاد يبكي.
ـ أتعرفين معنى هذا الكلام يا اليانور؟
ـ أقدر مشاعرك وموقفك يا غزوان، وأرجو أن أكون مخطئة، لكن، مع ذلك، وجدت نفسي مضطرة لأن أتصل بك وأبلغك..
وبعد قليل وبلهجة حنونة:
ـ ومع ذلك، أرجو أن تكون الأخبار غير صحيحة!
ـ غير صحيحة؟
ـ لا أدري، يجب أن نتابع الأخبار لكي نتأكد!
ـ في أية إذاعة سمعت هذه الأخبار؟
ـ إذاعة لندن...
وبعد لحظة صمت أضافت:
ـ لا بد أن نستمع إلى عدة إذاعات، وإذا استطعت أن تلتقط إذاعات عربية يمكن أن تعرف تفاصيل أكثر.

وبعد لحظات صمت طويلة قالت في محاولة للمواساة:

ـ من رأي أن نتابع الإذاعات، وأن نبقى على اتصال. . .

وبعد قليل:

ـ لن أنام قبل أن تتصل بي وتبلغني بآخر الأخبار، فأنا أريد أن أعرف، أن أطمئن.

ولم ينم غزوان تلك الليلة، حاول أن يتابع الإذاعات. فهم ولم يفهم. اتصل باليانور ولم يقل لها شيئاً مهماً. ورغم أن اليوم التالي كان الأحد، وكان لدى اليانور ما تفعله، إذ وعدت، منذ بداية الأسبوع، أن تمر على العمة مرغريت، فقد اتصلت في وقت مبكر بغزوان واتفقا أن يقضيا اليوم معاً، وأبلغته أنها ستحضر معها راديو صغير لكي يستمعا للأخبار. ولأن الجو كان حاراً، فقد فضلا أن يقضيا اليوم معاً في الهواء الطلق، لكي يكونا أقدر على التقاط آخر الأخبار.

من الحديقة العامة أبلغت اليانور العمة مرغريت أن عملاً طارئاً اضطرها لعدم المرور عليها.

خلال ساعات بعد الظهر، وأول المساء، وبعد أن تعبا من الجلوس والصمت، والأحاديث القصيرة السريعة حول ما جرى في موران، وحين اقترح عليها أن يذهبا إلى شقته لكي يتابعا من هناك آخر الأخبار لم تمانع ولم تتردد.

لأول مرة تأتي إلى شقته. ولأول مرة تأتي امرأة يكنّ لها عواطف مختلفة عن الكثيرات اللواتي مررن من هنا.

رغم انشغاله، ومظاهر الحزن، كان مرتبكاً أكثر لمجيء اليانور إلى شقته يوم الأحد، اليوم الذي لا تأتي فيه الشغالة لكي تنظف البيت، وأن يبدو مكشوفاً هكذا.

وهما ينزلقان إلى الشقة، وبعد أن وضع إناء القهوة على النار، ذهب إلى غرفة النوم، وبسرعة حاول أن يقلل من الفوضى. أن يرتب، دون دقة، ودون اهتمام، ما يمكن أن يعتبره فجاً أو نابياً، وأن يزيل آثار نساء كن هنا سابقاً. فعل ذلك بكثير من السرعة مع الرغبة أن تبقى بعض مظاهر

الفوضى. وفعل الشيء ذاته في الحمام، جمع ملابسه الداخلية والجوارب، ودفعها كما دفع الأحذية، إلى الركن، تحت الغطاء الفاصل بين الدوش والمغسلة. لقد فعل ذلك بسرعة، وبطريقة آلية، وكأنه في أعماقه يريد أن يثبت لأليانور مدى الفوضى اللذيذة التي يعيش فيها، وبالتالي حاجته إلى مساعدتها، لأنها المرأة وحدها التي تستطيع، وبكفاءة، ترتيب الأشياء، ووضعها في أماكنها الصحيحة.

كان إناء القهوة، حين انتهى من الترتيبات الضرورية، قد جف أو كاد. ورغم أن صوت اليانور اندفع أكثر من مرة، تسأل، أو تعرض المساعدة، فإنه لم يستجب.

قالت، وكان داخلاً يحمل معدات القهوة، ويبدو واثقاً:

ـ الرجال، إذا كانوا وحيدين، لا يقلون عن النساء، في ترتيب البيت!

ابتسم وهو يجيب:

ـ أذا أرادت امرأة أن تهين رجلاً فيجب أن تطري قدرته على ترتيب البيت!

وحين رفعت حاجبيها استغراباً أو استنكاراً، فقد تابع:

ـ إذا رأيت اي ترتيب في الشقة فإن الفضل يعود إلى مسينر آندورز.

وبعد لحظة، وبعد أن أدار نظراته في غرفة الجلوس، وكانت مرتبة، وفي زاوية زهرات اشتراها بالأمس، وكان يفكر أن تأتي، أو أن تأتي غيرها، قال برخاوة وهو يضع معدات القهوة على الطاولة الواطئة:

ـ الإنسان حين يكون وحيداً ينسى أموراً كثيرة.

هذه الزيارة، التي طالت أكثر مما قدر غزوان، وتخللها سماع أكثر من نشرة أخبار، وفي ذلك الجو الرمادي الواقع بين اللذة واليأس، تركت تلك الزيارة آثاراً قوية، وسوف يكون لها أصداء ستردد طويلاً!

قال ليفي شاوات في لقائه الأول مع روبرت يونغ:

ـ . . . ولا بد أن تعرف، يا مستر يونغ، أن مركزنا أصبح أقوى من السابق بما لا يقاس، وأن لدينا الآن فرص تفوق أية جهة.

نظر روبرت يونغ إلى ليفي نظرة فاحصة مدققة، وانتظر ليسمع، أضاف ليفي:

ـ لقد تزوج السلطان شقيقة المستر محملجي:

بعد قليل وبمرح:

ـ لا أعرف إذا سمعت بهذا النبأ أم لا؟

دارت عينا روبرت دوراناً سريعاً مرحاً، وصفق بيديه وهو يعلق:

ـ يجب أن نشرع إذن في العمل بسرعة، لأننا نمتلك الآن أهم المفاتيح، ولا بد أن. . .

مساء الأربعاء وقع الاتفاق بين الشركة العالمية، ومكتب الشرق الأوسط للاستشارات الاقتصادية والقانونية. وُقّع بجو من المرح والتفاؤل، وقد اتصل ليفي وروبرت يونغ بعد التوقيع مباشرة بغزوان، وتحدثا معه طويلاً، وهنآه، وقالا كلمات كبيرة حول آفاق العمل واحتمالاته الإيجابية. ولم يتردد روبرت يونغ في أن يدعو ليفي إلى حفلة عشاء باذخة، وقد دعا إليها عدداً من العاملين معه والأصدقاء، وتركز جزء كبير من حديث السهرة حول الشرق. عاداته وأهميته وغرائبه. ولم ينس أحد، حتى النساء، من استعادة بعض ما قرأه في ألف ليلة وليلة. كما لم يبخل روبرت يونغ في أن يحدّث ضيوفه عن ذكرياته في تلك البقعة من العالم. وقد أشار، أكثر من مرة، وأن يكن بشكل عرضي، حول الدور الذي تلعبه المرأة هناك!

مساء الليلة التالية، وكان ليفي مقرراً أن لا يغادر فندقه، رغم العرض السخيّ الذي أصرّ عليه روبرت، بأن يقضيا المساء معاً في البيت، لمشاهدة إحدى المباريات الرياضية، واحتساء البيرة، وأيضاً لاستعادة ما يجب عمله أو تبادله من أفكار واقتراحات، إلا أن ليفي وجد نفسه مضطراً، بعد الأخبار التي سمعها من روبرت على التلفون، أن يركب إحدى سيارات التاكسي المرابطة عند بوابة الفندق، وأن ينطلق للقائه في بيته.

كيف يمكن أن تتحول عواطف الإنسان، أو بالأحرى كيف يمكن أن تنقلب بهذه السرعة؟

ما كادت نظراتهما تلتقي، حتى قال روبرت، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ لا بد أن تعرف، يا مستر شاوات، إني قضيت أهم أيام حياتي في موران، وخلال تلك المدة كوّنت علاقات، ولدي من الأصدقاء، بحيث لا أريد أن أدمر كل شيء في لحظة واحدة.

فوجئ ليفي، سأل بارتباك:

ـ لا أفهم ما تعني، يا مستر يونغ؟

ـ ما أعنيه، بشكل مختصر وواضح: إن العقد الذي وقعناه بالأمس لم يعد ملائماً لي.

ـ ولكن ماذا حصل ما مستر يونغ؟

ـ ماذا حصل؟

ضحك بسخرية، ثم أضاف:

ـ بمجرد أن تُعرف علاقتي بالمستر محملجي انتهى كل شيء!

جر نفساً عميقاً، وهو يحاول أن يبتسم، لكن ينتقل من صيغة الهجوم إلى صيغة أخرى، بعد أن سجل على خصمه بعض النقاط، سأل بتهذيب:

ـ ماذا تحب أن تشرب، يا مستر شاوات؟

بانفعال وسرعة رد ليفي:

ـ لا أريد أي شيء!

وحين خيم الصمت للحظات، ولخلق محطة جديدة، سأل ليفي:

ـ ولكن ماذا حصل بالضبط، يا مستر يونغ؟

ماذا حصل؟

ثم بسخرية:

ـ الورقة الرابحة التي كنا نراهن عليها جميعاً، أصبحت لاغية، لا تعني شيئاً، هذا ما حصل يا مستر شاوات!

ضحك روبرت بطريقة مصطنعة وهو يوضح:

ـ من الأخطاء الجسيمة التي يقع فيها الغربيون، ويبدو أنهم لا يريدون أن يتعلموا أبداً، إنهم يسألون بطريقة خاطئة.

هز رأسه عدة مرات، دلالة الوثوق، وهو يضيف:

ـ يجب أن لا نسأل أنفسنا لماذا. إن هذا السؤال، وهو يطرح بهذه الطريقة، يؤدي إلى أجوبة خاطئة. يجب أن نسأل أنفسنا «ماذا حصل»، وأن نجيب عن هذا السؤال فقط، أما اللا، هذه التي غيّرت الغرب فإن الشرق لا يعرفها!

بعد مناقشات طويلة اتسمت بالمداورة والمكر، وباعتبار أن العلاقة تعتمد على العمل، فإذا انتفى العمل، أو تغيرت طبيعته وظروفه، تتغير محتوياته وشروطه، اتفق الطرفان أن يمنحا أنفسهما فترة من الاختبار والانتظار، ووافقا، ضمناً، أن تجمد بعض بنود الاتفاق، إلى أن تتضح المواقف، وأن يتوارى غزوان من المشهد، لبعض الوقت.

قال روبرت يونغ في إحدى مراحل النقاش، وكان يريد أن ينبه ليفي:

ـ . . . ولا بد أن تدرك، يا مستر شاوات، أن الشرق القبلي يتمثل برموز محددة، فإذا سقطت هذه الرموز يسقط معها كل شيء.

ولما ظل ليفي صامتاً، وراغباً أن يستمع، لكي يستوعب هذا الدرس، لم يبخل عليه روبرت:

ـ فإذا سقط السلطان، أو هزم الشاعر، أو لحقت الفضيحة بالمرأة، فإن هذا البنيان كله، والذي يبدو قوياً راسخاً، يتعرض للشرخ ثم إلى السقوط. . .

وبعد قليل، وكأنه يحدّث نفسه:

ـ الآن، بعد أن ذهب هذا السلطان، ذهب معه كل شيء: رجاله ووعوده وعداواته وصداقاته، ليبدأ عهد جديد، برجاله ووعوده وأصدقائه. . .

وأضاف بسخرية:

ـ ولأني لم أكن من أصدقاء العهد السابق، فلا أريد أن أكون من أعداء العهد الجديد، هذه هي المسألة، يا مستر شاوات، وأرجو أن لا تسألني لماذا؟

يذكر الكثيرون في موران أنه حين بدأت طلائع الخيل بالوصول، وكانت سنة قاسية لم يمر على الناس مثلها منذ وقت طويل، أن الجياع هاجوا وشتموا في السوق القديم، وتوجه الكثيرون منهم إلى قصر الغدير لمقابلة السلطان، ليشكوا إليه الحال، لكن رجال حماد التقوا بهم قبل أن يصلوا، ومنعوهم من الوصول، وقبضوا على نفر منهم، أودعوهم السجن، فازداد الوضع سوءاً، وخيم على موران صمت ثقيل ينذر بأخطار كبيرة. لم يقتصر الأمر على موران المدينة، فقد عم الجوع السلطنة كلها، فبعث أمراء المناطق يشكون ويستغيثون، وهذا ما دفع حماد المطوع وسيف الفتوحي إلى مقابلة السلطان، والطلب منه أن تتولى الدولة تأمين الطحين. وبعد سؤال وانتظار، وبعد أن أبدى مستشار السلطان رأيه في أن ما يطلبه الناس لا بدّ أن يُلبى، تولى بنفسه تكليف من يلزم لتأمين الطحين!

شمران العتيبي الذي انقطعت علاقاته بالقصر منذ وقت طويل، تحسب وخاف حين بدأت تصله الأخبار عن الخيول التي ينوي السلطان شراءها. بل أكثر من ذلك اعتبر الأمر حديث حسد ونكاية، لأن موران، كما قال في مقهى زيدان:

ـ اللي تحتاجه اليوم قبل باكر الماء تبل به ريقها، أما اللي يسولفون عن الخيل والطير فاشهد بالله أنهم فسقانين.

وحين أكدوا له أن رابح الحنيحن بعث برجاله لملاقاة الخيل، ومرافقتها إلى موران، فقد قال بسخرية:

ـ ابشروا يا أهل موران لأن الدنيا بآخرتها. . .

تنفس بعمق وابتسم ثم بعد قليل تابع يحدث نفسه:

ـ كانوا يقولون من قبل أن المهبول هو اللي يولّم المعلف قبل الفرس، هالحين راح تجينا الخيل الطيبة وما نلقى لها العلف، وراح نصفّر لها حتى تشرب السراب!

مع ذلك، ورغم ما قيل، ظل شمران غير مصدق أن الأمر يصل إلى الحد الذي يمكن أن تُشترى فيه الخيل الطيبة من خارج موران، وحين جاءه ابنه نمر ليؤكد أنه أحصى بنفسه عشر سيارات تحمل كل واحدة منها ما بين خمسة وستة رؤوس من الخيل، وقد دخلت قصر الغدير، فقد شهق وصرخ:

ـ عشر سيارات، وعلى كل واحدة خمسة أو ستة روس؟

هز نمر رأسه للتأكيد، فقال شمران:

ـ يا عباد الله إذا التقى خارج موران كلها كم فرس أو كم حصان، فاصلهم من موران، انباعوا أو انشروا على أيدينا، هنا، وحنا نعرفهم زين، نعرف أسماءهم، ونعرف آباءهم وأمهاتهم، فمنين هالحين جتنا هذي الكدش كلها؟

ولكي لا يبقى نهباً للإشاعات والأقاويل، ولأنه يريد أن يتأكد بنفسه، فقد ذهب إلى قصر الغدير.

بدا القصر، الذي تركه السلطان قبل بضعة شهور، وانتقل إلى قصور الخالدية، أشبه بيوم السوق: الناس بالعشرات، يدخلون ويخرجون. رجال الحرس الذين كانوا، إلى وقت قريب، يتميزون عن الآخرين بملابسهم النظامية، تخلّوا عن قسم من هذه الملابس، أو تخلوا عن الأحذية، واختلطوا بغيرهم! ومثلما كان أغلب الذين يدخلون أو يخرجون، يبيعون ويشترون، وتبدو الأشياء التي تباع أو تشترى مثاراً للتساؤل والسخرية، فقد كان الحرس أكثر نشاطاً وأوفر حظاً، لأن لديهم ما يبيعونه، خاصة الأحذية والثياب، كما كانوا أقوى من الآخرين وأكثر ثقة، لأنهم يحصلون على الحد الضروري من الأرزاق، التي توزع عليهم عيناً في نهاية الأسبوع، أو على التحديد عصر الخميس، وكانت هذه الأرزاق وحدها تقيم سوقاً حافلاً كل يوم جمعة.

كان المنظر غريباً، وللحظات ظن أنه أخطأ المكان، أو أنه في حلم. فقصر الغدير، منذ أن أصبح قصر السلطان، وبعد أن وُسّع عدة مرات، وأضيفت إليه مساحات جديدة، ثم وضع على بواباته الحرس، وكان هذا أمراً جديداً وغير مألوف في موران، وقد زاره شمران مرتين أو ثلاث مرات، ليعطي رأياً بعدد من الخيول، وإن كان ذلك من عدة سنين، بدا له القصر ذلك الوقت مهيباً قوياً، وحرسه في منتهى العنفوان، وهم ينقلّون خطواتهم المنتظمة الواثقة، وقد ظهرت عليهم ملامح القوة والشباب.

الآن يبدو كل شيء مختلفاً إذ بالإضافة إلى الضجة واللغط اللذين يسيطران على المكان، كما كان الحال أيام السوق، (آه يا زمن سوق الحلال) فإن الحرس يبيعون الحاجات والأرزاق الآن، قريبو الشبه بالمتسولين، إذ بالإضافة إلى تقدمهم في العمر، فإن ملابسهم قديمة ممزقة، ويتصفون بالسخرية والقسوة، حين يرفضون الأسعار التي تعرض عليهم، أو باللجاجة لمعرفة كل شيء حين يُسألون عن أحدٍ من أهل القصر.

سأل شمران نفسه، وهو يشق طريقه عبر البوابة الشمالية، وكانت أقرب البوابات إلى أسطبل الخيول، كما يتذكر القصر قديماً «إذا حرس طويل العمر باعوا هدومهم، حتى يشبعوا خبز فشلون راح يكون حال الناس؟» وتذكر بعض الوجوه التي يعرفها، التي رآها من قبل. لقد تغير الناس كثيراً. دب إليهم الهرم منذ أن ترك سوق الحلال، واعتزل البشر. ثم أصبح لا يرى إلا من يأتون إلى مقهى زيدان. كان بعض هؤلاء من حرس خريبط، أو الذين حاربوا معه. كانوا شباباً وأقوياء، كانوا يتيهون إذا مشوا أو حملوا السلاح. الآن يبدون بشراً آخرين. قال «أيام السوق كان الناس حديد، مثل الحديد» وابتسم بحزن وهو يضيف: «يمكن اللي يشوفوني هالحين، واللي يعرفون شمران ذاك، يقولون لأرواحهم: الله الله يا زمان، صحيح أن هذا اللي تشوفه عيونّا هالحين كان شيخ السوق؟».

أما حين سأل عن رابح الحنيحن وطلب أن يوصلوه إليه، فقد تطلع إليه الذين سألهم، وكانت عيونهم تقول: «من أنت لكي تصل إلى ابن

حنيحن؟» ولما ابتسم وسأل من جديد، لكن بلهجة واثقة: «وين مكان رابح يا أولاد الحلال؟» فقد أفسحوا له الطريق وأشاروا. قال لنفسه: «لا أحد هالحين يعرف أبو نمر، لأن كل شي تغير: الدنيا والناس». ولو انصت أحد، وسط تلك الضجة، لسمعه يقول:

ـ أي نعم اللي ما يعرف الطير يشويه!

قال له رابح، بعد أن حيّاه بمودة:

ـ جيت والله جابك يا أبو نمر...

كان مع رابح عدد من العاملين معه، من المشرفين وسواس الخيل، وأغلبهم يعرف شمران، تابع رابح بلهجة ساخرة:

ـ كانوا يقولون عن الخيل: ظهورها حرز وبطونها كنز، فأريدك، يا أبو نمر، تقول قولك بالخيل اللي وصلتنا.

بعد أن دقق شمران بهيأتها، وفتح أفواهها، ليتأكد من أعمارها، وقد تعرف على اثنين من هذه الخيول كانت قبل سنين بموران، وكان تعرّفه على واحد منهما حاسماً لكل سؤال أو نقاش، إذ روى مانع الوهيبي «ما أن ناظره أبو نمر إلا وصاح: هذا مفتاح، حصان ابن الرشودي، أبوه حمداني وأمه سبيلية، وعمره تسع، واللي ما يصدق عندي علامته» تعجّب كل من سمعه، وقال له رابح: هذا، يا أبو نمر، وأنت الصادق والعارف، وحجته معه، صقلاوي ابن صقلاوية. وبعد ما تراهنوا، قال شمران: عندي علامته. وما كذب خبر، قال لهم: شوفو أذنه اليسرى، قيسوا اصبعين من حدر وناظروا: مخرومة أم لا؟ لما ناظروها، أي بالله، مخرومة، وبنفس المكان».

قال رابح لشمران، وقد سار معه حتى البوابة الشمالية:

ـ من كثرة الطوشة واللوشة، يا أبو نمر، تراها ضاعت علينا، وحنا هالحين شورنا من روس غيرنا!

كما يرجع المهزوم رجع شمران العتيبي إلى مقهى زيدان. تابعته الأعين. انتظر الذين عرفوا بزيارته لأسطبلات قصر الغدير، أن يتكلم، وحين طال صمته سأله زيدان:

ـ سولف يا أبو نمر، شلون شفت الخيل اللي وصلت!

جرّ نفسه عميقاً، وظل صامتاً. قال صالح النذير لزيدان، ويريد لشمران أن يسمع:

ـ طفّ نارك وثبت دارك، يا أبو جاسر، لأن ابو نمر جرّ النفس من بعيد بعيد، وهالحين إما يحرق نفسه أو يحرق الدنيا.

رد زيدان مازحاً:

ـ نَفَس أبو نمر ولا أطيب يا صالح، فخله ينفث...

ابتسم شمران العتيبي، وخرج صوته حزيناً:

ـ ترى الخيل، يا جماعة، صارت مثل ناس هذي الأيام: يجيبك الواحد أول يوم ما تعرف قرعة أبوه منين، وثاني يوم بيده حجة تسلسله إلى محمد العربي، ومنه إلى عدنان، واللي ما يصدّق: هذه شجرته، وهذي حجته برقبته!

ولما بدت كلماته غير مفهومة بالمقدار الكافي، أضاف وهو ينظر إلى الوجوه:

ـ أي نعم، شفت الخيل، ناظرتها زين: الحصان اللي طلع من بين أيدينا حمداني رجع لنا صقلاوي!

وابتسم وهز رأسه، وبعد قليل، وبنغم:

ـ واللي ما يصدق: الحجة موجودة، وفوق كل أختامها ختم الأملط، ومعها كوشان ابنه، وكُبره كُبر الرغيف!

وتغيرت لهجته، أصبحت أقرب إلى السخرية:

ـ بها نبطي من أهل السواد   يدرّس أنساب أهل الفلا

قال زيدان مازحاً:

ـ الخيل تظل خيل يا أبو نمر!

ـ آخر ما ظل للعرب، يا أبو جاسر، خيلها، ضيعوا الأرض، وضيعوا العرض، قلنا الخيل ترجّع الأول والتالي، وهالحين صارت خيلنا تجينا من

غيرنا، وصار الغُرب هم اللي يعلّمونا الخيل الأصيلة من الخيل المضربة، فتريدني بعد كل هذا انشبّ وأسكت؟

قال صالح الرشدان بحدة:

ـ باطن الأرض خير من ظاهرها!

قال الحكيم في الاحتفال الذي عُرضت فيه الخيول:

ـ . . . وهذه العتاق المطهمة الأصيلة فخر لموران ولما جاورها. إنها كريمة الأحساب، عريقة الأنساب، على ظهورها يعقد النصر، وبها ترتفع راية الحق، إنها ذخر لهذا اليوم ولكل يوم، أو كما قال عليه الصلاة والسلام: معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة!

قال شداد المطوع لابن أخيه حماد:

ـ اسمع وسمّع، يا ول، يا حماد: تراكم كسرتم أعراضنا ونكستم عُقلنا، والناس إذا صبرت اليوم تراها ما تصبر ثاني يوم.

وتغيرت اللهجة، أصبحت مشوبة بالحزن:

ـ ترى الناس جاعت يا حماد، وضاقت أرواحها، وبدل ما ترموا فلوسكم بالتراب أطعموا العباد، ويلزمكم تعرفوا حدكم.

وحين ابتسم حماد، لكي يمتص غضب عمه، أضاف شداد:

ـ الفلوس تروح وتجي يا حماد، والربح والخسارة ما هي كل شي بهذي الدنيا، ولا تظن أن الفلوس بعيني، وأنت تعرفني زين. بس أريدكم تصيرون خلق وأولاد أوادم، اللي يصير سوّوه، واللي يصير وتسوونه ينقال عليه كفر وقلة دين!

سأل حماد بدعابة:

ـ لكن ما فهمت عليك يا عم.

فهمت وزايد، يا حماد، لأنه ما ظل أحد إلا ويسولف: الحصان إذا طلع من الحدود صقلاوي يرجع عبيّان، وإذا كان أمس سبيلي ثاني يوم حمداني، وهذا ما نزل بكتاب ولا يقبله عقل.

رد حماد باعتذار مصطنع:

ـ إذا صار خطأ بحصان أو اثنين، يا عم، فهذا ما هو قياس!

ـ يا ابن أخي: اعطوا الأملط اللي يريده، بس لا تخلوه يحوس بأعراضنا وأنسابنا، لأن هذي اللي بقيت لنا، وكل ما عداه زرده زردة حيّة.

العجرمي الذي طالت إقامته في عين دامة، ولم يسمع بالكثير مما جرى في موران، حزم أمره وعاد، مضطراً، لمواجهة ابن شاهين الذي قال كلمة انتشرت في موران كلها، وطارت لتصل إلى العوالي، ولتصل إليه بالذات. قال ابن شاهين لما طالت غيبة العجرمي:

ـ يا أهل موران، الحاضر يبلغ الغايب، وهذا الكلام يلزم يصله: لا يتعب روحه، الخصوة مثل الغيمة ومثل الزناد. الغيمة إذا بها حيل تمطر، والزناد إذ به نار يوّج، فحرام عليه يوسّد ويمسّد، لأن لا أحد يحيي العظام وهي رميم إلا رب العالمين. فإذا كان عنده فلوس زايدة، فالزكاة بسنة القحط ألفاً مما يعدّون، خلّه يرجع ويفك كيسه ويتصدق، خير من أنه يظل يلعب بخصيانه!

لما سمع العجرمي، ما يتناقله الناس عاد. ورغم أن الكثيرين توقعوا، مثل مرات سابقة، أن يرد على ابن شاهين، وأن تعيش موران على قصص حي القلعة ووادي سبيع، لكي تتغلب على الجوع والمعاناة، فقد سكت العجرمي، خلافاً لعادته. وقيل إنه بعث بهدية لابن شاهين، وهي عبارة عن كمية من العسل وزناد وقطعة من الخشب. وقد فُسّرت هذه الهدية تفسيرات لا نهاية لها، وأكّد الذين يتابعون هذه الخصومة، والذين يزيدون في اشتعالها، أنهم لم يروا ابن شاهين غاضباً محتداً متوعداً كما كان حين تلقى هدية العجرمي، لكنه، مع ذلك، لم يرد عليه مباشرة، انتظاراً لوقت ولطريقة «يرد بها الصاع صاعين»، كما قالوا، وكانوا متأكدين!

أكثر من ذلك، أخذت الخصومة، في هذه المرحلة، وجهاً مختلفاً، إذ تركزت على السلطان. فقد اعتبر العجرمي أن السلطان ذاته وراء تحريض ابن شاهين، وأنه يريد إبعاده، ولذلك لم يكتف بالامتناع عن زيارة القصر فقط، وإنما بدأ الهجوم أيضاً، خاصة بعد قصة الخيل:

ـ الخيل لأهل الخيل، يا ناس: العتاق للعتقين، والضامرات

للضامرين، أما إذا الواحد كله طيز فيلزمه وانيت يتعبا به، واللي يزيد ينقصّ. . .

يلتفت، وبهمس، يسأل ابن البخيت:

ـ شنهو قولك، يا أبو بادي، بهذا الكلام؟

يقهقه عبد الله البخيت، يبدو مسروراً، وحين تطالبه عينا العجرمي بالجواب، يقول:

ـ ما يفيد، يا شيخنا، ويلزم تقول غيره!

وبغضب، لكن بهمس أيضاً، يرد عليه العجرمي:

ـ لكن ما تشوف عينك؟

ـ هذا منه كثير، يا شيخنا!

وظلت موران تتابع وتسمع، حتى إذا تزوج السلطان، وانتشرت القصص التي رافقت ذلك الزواج، فقد حمل ابن البخيت كتاباً من الكتب الكثيرة التي حملها معه من القاهرة، يوم عاد، وذهب إلى زيارة شداد المطوع.

ـ حنا ما علينا، يا أبو غانم، باللي يسولفه الناس. الناس عيونهم ضيقة وقاتلهم الطمع، لكن اقرأ لك اللي قريته بالتاريخ أمس.

وضرب على الغلاف، ثم بلّ أصبعه بشفته، وفتح الكتاب، وقال:

ـ هذا كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، يا أبو غانم، وهذه الصفحة التي انفتح عليها الكتاب رقمها ٧٤٠، وقرأ «وكان السلطان أيضاً يلعب مع العوام، ويلبس ثبان جلد (والثبان، يا أبو غانم، السروال) ويتعرى من ثيابه كلها ويصارعهم، ثم يلعب معهم بالعصي، ويلعب بالرمح والكرة، فيظل نهاره مع الغلمان والعبيد في الدهيشة، ويحضر في الليل عبد على العود، ويأخذ عنه الضرب بالعود، ويتجاهر بما لا يحمد.

«وشغف السلطان بكيرا (وهذا اسم جارية، يا شداد) حتى كان لا يكاد يفارقها»، واشترى لها زربية بمائة ألف درهم.

«وفيه (أي بذيل السنة) ارتفع سعر القمح، وغلا اللحم، وعامة

الأصناف المأكولة، حتى بلغت مثلي ثمنها. وتوقفت الأحوال، وقلت الغلال، وكثر السؤال من كثرة قدوم أهل النواحي إلى القاهرة، حتى ضاقت بهم، فكانوا كذلك مدة سنة، مع كثرة المناسر في البلاد والقاهرة، وقوة المفسدين وقطاع الطرق بأرض مصر وبلاد القدس ونابلس، وفتنة العشير بعضهم مع بعض».

«وأنعم السلطان من ليلته على كيرا محظيته بعشرين ألف دينار سوى الجواهر واللآلئ، ونثر الذهب على الخدم والجواري، فاختطفوه، وهو يضحك منهم. وفرق السلطان على لعّاب الحمام والفراشين والعبيد الذهب واللؤلؤ، وصار يحذفه لهم، وهم يتدافعون عليه، ويأخذونه، بحيث لم يدع منه شيئاً سوى القماش والتفاصيل والآنية والعدد، فإنها صارت إلى الخزانة، فكانت جملة ما فرقه ثلاثين ألف دينار، وثلاثمائة ألف درهم، وجواهر وحلياً، وزركشاً ولؤلؤاً ومصاغاً، قيمته زيادة على ثمانين ألف دينار.

«فمعظم ذلك على الأمراء».

وفي مكان ثان، بعد صفحة أو صفحتين، يا أبو غانم، يقول صاحبنا «وساروا به على فرس إلى تربة كذا، تحت الجبل، وذبحوه في ساعة قبل العصر [لما أنزلوه وأرادوا ذبحه توسل إلى الأمراء] وهو يقول: بالله، لا تستعجلوا على قتلي، وخلوني ساعة. فقالوا: فكيف استعجلت على قتل الناس، لو صبرت عليهم صبرنا عليك».

ما كاد يمضي أسبوع، وتقع تلك الأحداث، حتى هرول شداد المطوع لابن البخيت:

- اسمع يا عبد الله، ما أريدك تحلف وتتفكر، أريدك تعلمني الصدق.

- سم يا شيخنا.

- أنت، أي نعم، أنت، كنت تدري بهذا الشي اللي صار؟

ولما قهقه عبد الله البخيت، في محاولة للتمويه، تابع شداد:

- الكتاب اللي حملته، والصفحة التي قريتها، ما هي لله، بس أريد أعرف من هو اللي قال لك، وشنهو اللي قالوه.

ـ يشهد الله، يا أبو غانم، ومالك عليّ يمين، أني ما أدري شي، لكن إذا زاد الأمر عن حده انقلب إلى ضده، وأنت تدري شنهو اللي صار بموران، وشلون الناس تعذبت وتمرمرت، وشنهو اللي سواه خزعل بالعباد.

ضحك شداد المطوع غير مصدق، غمز بعينه، وبعد قليل:

ـ وهذا صاحبنا شلون تشوفه؟ شنهو حزرك عليه؟

ـ هذا ما أدري به، يا أبو غانم.

ـ ما تدري أم تخاف تقول؟

ـ لا بالله، خوف ماني خايف، بس هذول الحكام ما ينحزر عليهم. قبل ما يحكمون يكونون شكل وإذا حكموا يصيرون شكل تاني!

وابتسم، وبعد قليل وكأنه يقنع نفسه:

ـ وكتاب صاحبنا قرّيب، ومثل ما فتحناه على صفحة يا أبو غانم، واللي قريناه صار، نفتحه على صفحة ثانية، ونشوف شنهو اللي راح يصير!

ـ هذا قولك؟

ـ اي بالله.

ـ يعني هذا اللي نشوفه ونقراه، يا ترى ما أحد قراه على روسهم؟ ما أحد علّمهم، حتى يحرصوا؟

ـ أما هذي فلا!

وابتسم ابن البخيت وهز رأسه، ثم تابع:

ـ اللي قبلنا قالوا: آفة العلم النسيان، وآفة اللي يحكمون يا أبو غانم أن الواحد منهم ما يتعلم إلا من كيسه، وسوالف التاريخ وغير التاريخ، لواحد مفلس مثلي، يقرا ويترنم، وإذا سولف يسولف وحده أو بليل، ولهذا السبب تشوف أن الواحد منهم مثل الثاني، يجوز يكون واحد طويل والثاني مربوع والثالث طوله طول الشبر، لكن، يا سبحان الله، من ظهر واحد ومن أم وحدة، ولا يغرّك صوتهم العالي، والوعود، وحلّت البركة، واللي تريده يصير. . لا، أبد، ما يسوون إلا اللي بروسهم، واللي

يفيدهم، فخلنا نّاظر ونشوف صاحبنا الجديد، مثل ربعه، مثل اللي قبله أم أنه غير شكل.

قال شداد:

- والله، يا عبد الله، ما أنت قليّل، تعرف اللي صار واللي راح يصير!

رفع يديه الاثنتين، وهو يبتسم لكي ينفي أية معرفة:

- لا بالله يا شيخنا، أنا واحد مسيكين، أناظر وأسأل نفسي قبل ما أسأل الناس، ومتحير، ما أعرف عيبي أو عيب غيري.

- لا تتمسكن يا عبد الله، وهالحين عرفت ليش خريبط ما كان يقدر ينام إلا إذا سولفت أنت وياه!

- صيت غنى ولا صيت فقر يا أبو غانم، وهالحين كل واحد يغني من راسه، ويغني على ليلاه!

إذا كان روبرت يونغ قد شعر بالخديعة، نتيجة التغيرات التي حصلت في موران، فإن ليفي شاوات شعر بالهزيمة، فقد ترك شركته، رغم المحاولات التي بذلت معه من أجل أن يبقى، وترك معها التعويضات المجزية التي تمنح عادة لمن ينهي الثلاثين سنة، وكان قد بقي له أربع سنين من أجل بلوغها، على أمل أن يحصل على أضعاف هذا المبلغ، من خلال الصيغة الجديدة، خاصة بعد أن رأى بعينه ماذا يعني غزوان في موران، وبالتالي ماذا يمكن عمله. صحيح أنه استعمل كل مهارته لكي تبنى العلاقة دون مبالغات، ودون إشعار غزوان بمدى الأهمية، لكنه كان يراهن على هذه الورقة بالذات.

الآن، بسقوط خزعل، خاصة بعد أن تزوج شقيقة غزوان، سلمى، بدت لليفي الدنيا صغيرة إلى درجة لا يعرف كيف يتصرف. لا يريد أن يظهر ضعيفاً أمام غزوان، كما لا يمكن أن يسلم بهذه السرعة. بنفس الوقت لم يعد قادراً على أن يكون طبيعياً مثلما كان من قبل، لذلك فإن العلاقات الشخصية، رغم مظاهر الود، تعرضت إلى الارتباك والفتور.

صحيح أنه احتفظ بكل المظاهر لكن تحركت عليه قرحة المعدة، أو هذا ما ادعاه، لكي يبرر غيابه الطويل عن المكتب.

لقد فعل ذلك مضطراً أو ربما غريزياً، لكي يعيد التفكير، ولئلا يتخذ قراراً متسرعاً قد يندم عليه في المستقبل. إنه شديد الحيرة، ولا يقوى على إخفاء ارتباكه، ولذلك يتحصن بالصمت، انتظاراً لوقتٍ يعتبره أكثر ملاءمة، أو لقوة مجهولة تساعده على الخروج من المأزق الذي اندفع إليه بإرادته الخاصة. ولا يعرف لماذا سيطرت على فكره اليانور، وافترض أنها يمكن أن تساعده.

اليانور التي لم يمض على خروجها من التجربة إلا وقت قصير، لا تزال تعيش في جو تلك التجربة، كأنها تحس بالمسافة، وبعض الأحيان الكبيرة، بينها وبين غزوان؛ وهي في نفس الوقت، ورغم القرابة التي تجمعها بليفي، إلا أنهما جيلان، وبالتالي عالمان، فلا يتصور أنه قادر على أن يكلفها بأعباء أو مهمات فوق طاقتها، أو غير مقتنعة بها، خاصة وأنها ذاتها بحاجة إلى علاج من نوع ما يساعدها على تجاوز الفترة الصعبة، فهي تواقة، إلى أقصى حد، لأن تنسى، لأن تهرب من أشباح الليل والنهار، وأن تبدأ حياة جديدة.

في ذلك الجو من العذاب والحيرة والبحث، وربما لأن اليانور شعرت، حتى من خلال المكالمة الهاتفية، أنها كانت وراء الأخبار السيئة التي نقلتها لغزوان، وتسبّبت بأحزانه، فقد بدت محرجة، وتريد أن تكفر عن هذا الخطأ، خاصة وأن غزوان غرق في السكر والتعاسة، وبالغ أكثر من ذلك بأن أخذ يتحدث عن الانتحار!

كانت الأحاديث الشخصية، وبعض الأحيان الدقيقة، تجري بينهما بالهاتف. ففي الأيام الأولى، وفي محاولة من اليانور لمتابعة تفاصيل أحداث موران، اتصلت بغزوان عدة مرات، وفي ساعات متأخرة، تنقل إليه ما سمعته من الإذاعات، ولتسأل عما تحمله من معاني ودلالات. كانت، وهي تحدثه، تريده أن يفكر بما يمكن عمله لمواجهة الوضع الجديد. أما وهي تفيض بالأسئلة، بوضع الاحتمالات، بتفسير الأخبار التي تسمعها أو تقرأها، فكانت تفكر نيابة عنه، أكثر مما تريده أن يجيب عن أسئلتها. وكان يتوهم، في بعض اللحظات، وهو يصرخ ويتحدى، أنه تجاوز حالة التشاؤم، مع أن يأسه لا يخفى.

ولمداراة التشاؤم واليأس كانت تحس أن من واجبها أن تطيل الحديث معه، وأن تضمّن حديثها عبارات رقيقة لكي تشجعه! لكنها بمرور الأيام اكتشفت أن غزوان كالطفل يستجيب لتلك الكلمات والعبارات، ويرتاح إليها، بل ويعتبرها وحدها التي تسنده وتجعله قادراً على التماسك.

في المكتب يبدو الأمر مختلفاً، إذا بالإضافة إلى عدم الرغبة، أو ربما

عدم القدرة، على الخوض فيما تبادلاه من أحاديث في الليلة الفائتة، كان خجولاً، أقرب إلى الصمت أو الارتباك. حتى نظراته تبدو خائفة وهاربة. لقد سبّبت لها هذه الحالة قلقاً إضافياً، فالرجل الذي تراه أمامها، بأناقته المفرطة، ووجه الحليق الضاجّ بالعافية، أقل قلقاً مما يبدو على الهاتف، أو كأنه شخص آخر.

ليس الأمر متعلقاً بالليل والنهار، وإنما، كما قالت لنفسها، وهو يوقظها في ساعة متأخرة، في إحدى الليالي، ليتحدث إليها، ويطيل الحديث، وليعترف لها أيضاً، أن «الأمر، بالدرجة الرئيسية، متعلق بالمسافة، وبالسكر. كان يريد مسافة أمن، أن يبقى بين أربعة جدران، وواثقاً، لكي يتصرف كما يملي عليه عقله، أو أن يفقد السيطرة على هذا العقل لكي لا يبقى كابحاً له».

وتذكرت آخر سهرة لهما: في بداية السهرة كان أنيقاً وخجولاً، وفي نهايتها تخلى عن أناقته وخجله معاً، وكأن الأناقة أو الصحو، ما يمنعه ويحدّ من شجاعته وحريته، أو يريد مناسبة لكي يتخلى عن هذه القيود. فما كاد السكر يعربد في رأسه حتى أصبح شخصاً مختلفاً. وحصل الشيء ذاته، في مرات أخرى، فما يكاد يعود إلى بيته حتى يشعر بالأمن، بالثقة، وكأن المسافة ما يوفر له الشعور بالحماية، فلا يتركها لتنام. يتحدث إليها كما لا يتحدث أبداً حين تلتقي نظراتهما، وفي لحظات كثيرة، يبدو ذكياً ولا يخلو من دعابة.

وفي اليوم التالي، بعد كل لقاء، يبدو، من جديد، إنساناً خجولاً وضائعاً إلى أقصى حد.

قالت اليانور لنفسها: «لا أريد أن أغرق بتفسيرات نظرية، تحتمل الخطأ والصواب، أريد أن أكون أقرب إليه وأكثر حناناً». ولم تنتظر ولم تتردد في أن تفعل ذلك.

ليفي شاوات الذي شعر أن آلام القرحة خفت، ويمكن أن يمر على المكتب، وأن يقضي بضع ساعات يومياً، اكتشف أن العلاقة بين غزوان

واليانور تجاوزته، أو ربما لم يعد قادراً على أن يتحكم بها. قال لنفسه، وهو ينظر بطرف عينه، كيف أن اليانور عدّلت ربطة عنق غزوان: «لا يمكن للمرأة أن تصطاد الرجل إلا حين يكون في أضعف لحظاته، واللحظات الضعيفة بالنسبة للرجل تقع وتتكرر كل يوم، لأن المهم بالنسبة له أن يكون مرغوباً، أن ينتزع الاعتراف، وبالتالي لا غنى عنه، وأن يكون فحلاً إذا وصل إلى السرير» وبعد أن اطمأن لهذه القاعدة أو ربما بسببها، تذكر زوجته: «لم تقبض عليّ روزا إلا حين وجدتني ضعيفاً: مجرد إنسان يبحث عن وطن وعمل. وكان لديها الاثنان: المكان والعمل: وبعدها أصبح كل شيء بيدها».

روبرت يونغ المخدوع، والذي أحس بحجم الفجيعة، لم يترك للزمن أن يرسم له المسار، أو أن يفرض عليه ما يجب فعله. فبعد أسابيع من القلق والتفكير، وحين استعاد أيامه السابقة في موران، قرر أن يغامر بالسفر، مرة أخرى، إلى هناك. لا بدّ أن يذهب ليكتشف، لا أن ينتظر، لكي ينقل إليه الآخرون ما حصل في موران، أو ماذا فعلوا هناك.

فما دام يعرف فنر، وقد التقى به عدة مرات، ويعرف أيضاً ابن عليان، الذي وقّع عقد النقط، والإثنان في موران، الأول هو الحاكم، والذي يمكن أن يفتح له آفاقاً لا نهاية لها، والثاني، وقد أصبح أحد الأغنياء الكبار، ليس في السلطنة وحدها، وليس في المنطقة وحدها، وإنما تجاوزهما ليصبح أحد الأغنياء المعدودين في العالم. إذا استطاع أن يجدد علاقته معهما، أو مع واحد منهما، فيمكن أن يبرئ نفسه من أية علاقة مع العهد السابق، وأن يبدأ عملاً جديداً وكبيراً، اعتماداً على هذه العلاقة.

جاء روبرت إلى موران بعد عشر سنين من الغياب، ولأنه له اهتمامات تتجاوز العقود إلى نظرة باروكية، خاصةً في مجال البناء، ولأن له مذكرات مكتوبة حول مراحل بناء حران، ثم رأس الطواشي، وقد جال في السلطنة، وقضى عدة إجازات ينتقل ويتعرف، فقد كتب أثناء زياراته ملاحظات كثيرة.

الآن، وهو يحاول تجديد العلاقة مع معارفه القدامى، ويتعرف على

التطورات التي حصلت خلال الفترة السابقة، يستغرب كل شيء، إذ بالإضافة إلى عدم تمكنه من مقابلة السلطان، لأنه لم يجد الصيغة أو الشخص المناسبين، ولأن ابن العليان يهمه العمل المحدد أكثر مما تهمه الأفكار، بحيث لم يستطع بعد أن التقاه، ولفترة قصيرة، أن يتوصل إلى نتائج، أو صيغة يمكن أن تفتح له الآفاق إلى ما يريد، فقد كتب، بعد أسبوعين، بمذكراته الشخصية ما يلي: «. . . وتغيرت موران، خلال السنين العشر الأخيرة، كما لا تتغير مدينة أبداً. لم أعرفها، أو بالأحرى، لم أتعرف على أيٍ من معالمها التي ارتسمت في ذاكرتي. أين هي الصلة بين المدينة التي رأيتها من قبل، أو عرفتها فيما مضى، والمدينة التي أراها الآن؟ لا شيء أبداً يجمع الاثنين. ليس المهم الآن الحديث عن العواطف والرغبات، فكل ما هو ماضٍ، حتى البائس، عزيز على الإنسان، وله مذاق خاص، لكن مع ذلك، فإنَّ المدن إذا خلت من المعالم التي تجعلها دائمة ومتميزة فإنها لا تستحق التوقف أو الإشارة. لا يهم أن تكون المعالم ما خلقته الطبيعة أو ما صنع الإنسان، لكن، في كل الأحوال، يجب أن تبقى المدينة، أية مدينة، مختلفة عن غيرها، لها نكهتها وشخصيتها، وأيضاً معالمها.

حين بنيت حران، اقترحت أن يكون الامتداد نحو الجنوب والشمال الشرقي، وأن تكون المحاجر الغربية حداً للمدينة؛ اقترحت أيضاً ألاّ تنتزع من مكانها التلال، أو تتغير معالم البحر، إذ لا يمكن التسامح بأي منهما. وإذا كانت الشركة لها أسبابها في أن تمتد المدينة نحو هذه الجهة أو تلك، فقد راعت بعض الاعتبارات. ليس المهم أن تكون أخذت بوجهة نظري، ولكنها كانت حريصة أن تبني مدينة لها ملامحها، وأن تبقى فترة ليست قصيرة.

موران، وأنا أراها، الآن، بعد أن زالت معظم، وربما كل، معالمها القديمة، وبعد أن أعيد بناؤها من جديد، لكن ضمن ألف طراز، أصبحت شبيهة ببعض الطيور الإفريقية: مزركشة جداً لكن دون جمال. الطراز القديم إلى جانب الحديث جداً: اللبن إلى جانب الزجاج العاكس؛

الأندلسي إلى جانب الياباني؛ الهندي إلى جانب ناطحات نيويورك. أكثر من ذلك: القصر الواحد مزيج من عدة عصور، ومن عدة أماكن.

«موران القائمة، الآن يمكن أن تنتقل أو تزول، بعد عدد من السنين، وهذا العدد، إذا تفاءلت، (أو تشاءمت) لا يتجاوز الثلاثين سنة، لأن كل شيء ليس في مكانه: الأبنية والبشر، إضافة إلى الرغبة الإنسانية المجردة.

«قد أبالغ، أو ربما أشغل نفسي بهذه الأمور، التي لا تعني، في النتيجة شيئاً هاماً أو ذا قيمة، تماماً، كما يحاول الإنسان أن يمسك موجة، لأنها أعجبته، أو أن يقبض على الشفق أو اهتزاز الريح. هناك أشياء تأتي مرة واحدة، فإذا استطاع الإنسان أن يقبض عليها، أن يجمدها، أو أن يمجدها، تصبح ملكه، شيئاً خاصاً به، أما إذا أفلتت ثم تراجعت أو توارت، فإنها تذهب إلى الفناء، أو تصبح ملك غيره.

«لا أريد أن أسقط الإحباط الذي شعرت به، نتيجة عدم قدرتي على مقابلة السلطان، على الأمكنة والناس. أنني أحاول أن أكون محايداً، وربما أيضاً، نزيهاً، لكن، مع ذلك، لا بد أن أقول رأيي، وهو بطبيعة الحال ليس للنشر، خاصة الآن، لأن مدينة مثل التي أراها تصلح لأن تكون معسكراً لجيش منتصر، لجيش كان يراهن على تحقيق هدف معين، وحين تحقق هذا الهدف بالغ هذا الجيش في التعبير عما افترضه نصره الخاص، بغض النظر عما عدا ذلك، أو ماذا يحمل المستقبل من مفاجآت.

بعد أن يبتعد النصر وتتغير مهمات الجيش، سوف لن تجد هذه المدينة من يحرص عليها، أو يريد بقاءها، لأنها ولدت في غير مكانها وفي غير زمانها. حتى الذين بنوها سوف يتخلون عنها، لأنهم لم يتصوروها بهذا القبح وبهذا العداء. ماذا يفعلون بناطحات السحاب الزجاجية إذا أصبحوا عاجزين عن تأمين التبريد لها؟ هل يريدون أفراناً إضافية زيادة على الجحيم الذي يعيشون فيه؟ هل يريدون مزيداً من مصائد الغبار إذا راكموا ذلك الفرش والأثاث المصمم للمناطق الباردة؟ وماذا يفعلون بهذا الكم الهائل من الأجهزة إذا عجزوا عن إصلاحها؟

الفقراء، نعم الفقراء، وحدهم الذين سيكونون مضطرين للبقاء. لكن

كيف سيشقون طريقهم ضمن هذا الركام الهائل من الإسمنت والحديد والزجاج لكي يبدأوا حياتهم من جديد؟

الأمر لم يقتصر على شكل المدينة، أو طراز بنائها، فإن البشر، خلال هذه الفترة، تغيروا إلى درجة لم يعد من السهل فهمهم أو التعامل معهم. صحيح أننا عانينا الكثير ونحن نقيم العلاقة من قبل، كانوا يبدون لنا، في حالات كثيرة، غير مفهومين بالمقدار الكافي، لكنهم الآن أصبحوا طرازاً مشوهاً من المخلوقات، أو أشبه ما يكونون بإحدى مراحل نمو الضفدع، خاصة المرحلة المتوسطة، حيث لم تعد تربطهم بما كانوه صلة، وسوف لن يحملوا من ملامحهم الحالية شيئاً للمستقبل. وهذا لا ينطبق على الملامح وحدها، وإنما يمتد إلى النظرة والسلوك والعلاقات أيضاً.

لذلك يجب ألا أستغرب أو أفاجأ بابن العليان. صحيح أنه كان مهذباً طوال لقائنا، وربما كان هذا التهذيب نتيجة الأسفار أكثر مما هو قيمة محلية، لكن مع ذلك لم نتوصل إلى أكثر من وعود غامضة، وأغلب الأحيان لا يعنيها.

«وسوف أزور حران خلال الأسبوع القادم. قد أبحث مع إدارة الشركة إمكانيات التعاون. أعرف أن جوابهم لن يكون إيجابياً، لأنهم يفضلون التعامل مع العناصر المحلية، وليس لي صفة هنا، باعتباري غير مقيم، وفيما عدا ذلك سيشيرون إلى ضرورة مراجعة رئاسة الشركة هناك! مع ذلك يجب أن أحاول، خاصة وأن الكثيرين، الآن، يحاولون، حتى أننا نبدو في الفندق، وقد اجتمعنا وتعارفنا، أو هذا ما افترضه كل واحد منا، وهو يلتقي زملاءه في صالة الفندق، في الإبهاء، في صالة الطعام، أننا، هنا، أشبه بالخيول التي تستعرض وتستعد ليوم السباق. لا أحد يعرف، بدقة، أو على التحديد، ماذا يريد الآخر، أو ما هي فرصته، ومع ذلك فإن الاستعراض لا يتوقف يوماً واحداً. أننا نراقب، بعناية، كل زائر جديد، سواء أكان من أهل موران أو من الأجانب، نحسب ونقدر ما تعنيه كل إشارة، لكن، مع ذلك، يبدو الفندق كسجن، لأن لا أحد يستطيع أن يغادره إلا ليعود إليه بسرعة، وكأنه مربوط إليه بسلاسل حديدية لا يستطيع الفكاك منها.

العمل، الثروة، الحياة، وربما كل شيء آخر، يحتاج إلى علاقات من نمط خاص لكي تعطي النتائج المطلوبة».

بعد الزيارة التي قام بها عواد المفلح، والمكالمات الهاتفية الثلاث التي تلقاها غزوان من موران، وكانت الأولى من حماد المطوع، وقد بدا فيها ودوداً محباً، وهو يحاول الاستفسار، والتأكيد أن الأمور تسير سيراً حسناً، كما عرض على غزوان المجيء بزيارة إلى موران «لأن الجميع يسألون ويبعثون إليك بتحياتهم» وأكد أنه سيبقى معه على اتصال، أما المكالمة الثانية فكانت من الأمير راكان، وقد بدا متلهفاً، وجاداً في أسئلته وتعبيره عن المودة، ولم ينس الإشارة أنه عاتب أيضاً، لأن غزوان لم يهنئه بمنصب الوزارة. المكالمة الثالثة جرت من مكتب وزير الداخلية، حماد المطوع، وشارك فيها، بالإضافة إلى حماد، الأمير راكان أيضاً، وكانت أقرب إلى المرح والعتاب، «لأننا كنا بذكرك، وعاتبين لأنك لم تتصل ولم تأت» واختتم الأمير راكان الحديث بكلمات لها دلالة واضحة: قال له: «تعال بضيفاتي، وعلى مسؤوليتي، لأن طويل العمر سأل عنك أكثر من مرة».

كان الفاصل بين مكالمة وأخرى أقل من أسبوع، وقد ظل غزوان حائراً متردداً، إلى أن جاء عواد المفلح.

بعد أن عرض له عواد صورة عن الأحداث التي جرت، وكيف أن السلطان فنر دُفع إليها دفعاً، ووجد نفسه مضطراً، لأنه لو لم يفعل ذلك لأخذت الأمور مساراً خطراً، قد يؤدي إلى الإطاحة بكل ما هو موجود وقائم، طلب منه تلبية الدعوة الموجهة إليه لزيارة موران. وأشار، بطريقة لا تخطئ، إلى أن المصلحة تقتضي منه القيام بهذه الزيارة لأكثر من سبب. قال الكلمات الأخيرة وهو يبتسم.

غزوان الذي تغير كثيراً بعد أن سمع صوت حماد أول مرة، وبد مرحاً متفائلاً بعد مكالمة الأمير راكان، وقد أبلغ اليانور، في الليل المتأخر، أن موران اتصلت به، وأشار، وهو يضحك، إلى شخصيات عليا، دون أن يسميها. في اليوم التالي، وحين تأخر وصول ليڤي إلى المكتب اتصل به

وطلب إليه الحضور «للأهمية البالغة». خاصة بعد أن تشاور واليانور، وقد أبدت اليانور حماستها«لبقاء الاتصالات» دون أن تلحّ على ضرورة تلبية الدعوة. أما ليڤي الذي بدا متعباً، وقد شاخ خلال الشهور الثلاثة الأخيرة، فقد أظهر اهتماماً وفرحاً لم يتوقعهما غزوان، وطلب أن تُلبى الدعوة دون تأخير.

الاتصال الثالث، وكان ليڤي موجوداً، وقد سمع بنفسه صوت الأمير، بعد أن رفع غزوان مكبر الصوت، حسم الأمور.

لكن مجيء عواد المفلح، وذلك الأسلوب الذي اتبعه، وهو يؤكد الدعوة من جديد، جعل غزوان يخاف ويتحسب، إذ بعد أن تهيأ نفسياً للرحلة، وبدا أكثر استعداداً، عاد إلى التردد فطلب إلغاء حجز السفر، ومهلة للتفكير. وكاد يتصل بأبيه ليسأله رأيه، إلا أن ملاحقة ليڤي أن لا يفعل، ثم تدخل اليانور، في مرحلة دقيقة، إذ أعلنت استعدادها الكامل لمرافقته، تعبيراً عن اطمئنانها للدعوة، واستعدادها أن تضع مصيرها معه، جعل الأمور تأخذ مجرى إيجابياً.

لم يعرف ليڤي بسفر روبرت يونغ إلى موران، إذ بعد انقطاع طويل، وبدا واضحاً أن العلاقات ستنتهي دون تدخل أي من الطرفين، ودون إجراءات رسمية للإعلان عن انتهائها، إلا أن التفاؤل الذي خيم على مكتب الشركة في سان فرانسيسكو، دفع ليڤي للاتصال بنيويورك، بمكتب روبرت، فأبلغ بسفره، دون أية إيضاحات عن المكان الذي سافر إليه أو عن موعد عودته!

كان يريد ليڤي أن يرد إليه الضربة، أن يثبت له ماذا تعني هذه العلاقة، التي حاول أن يهرب منها ويتنكر لها. قال لغزوان بتشفٍ:

ـ الذين يتعاملون مع الأرقام والنصوص فقط لا يفهمون الحياة بالمقدار الكافي، انهم يرونها مجرد رقم أو نص ميت، لا يحسون بمدى القوة والحيوية الموجودين في الحياة العملية، ولذلك فإنهم معرضون للخطأ!

في فندق موران الكبير كانت المسألة أكبر من أن تستوعب، حين التقت نظرات غزوان بنظرات روبرت يونغ. ارتبك الاثنان. لم يتوقع أي

منهما أن يلتقي بالآخر هنا، وفي هذا الوقت. لم يعرف روبرت كيف يتصرف. كاد يتظاهر بعدم المعرفة، وأن ينسحب، لكن مبادرة غزوان وضعت حداً، إذ أقبل نحوه بمودة ظاهرة مما لفت نظر الكثيرين، فلم يستطع روبرت أن يتجاهل أو أن يتهرب.

قال له روبرت من موقع قوة:

ـ كنت أتوقع مجيئك، خاصة بعد أن أصبح الأمير راكان وزيراً!

ـ لم أكن أتوقع أن أراك هنا!

هكذا رد غزوان، بعد قليل، في محاولة لأن يستجمع نفسه:

ـ متى وصلت إلى هنا؟ هل أستطيع مساعدتك؟

ـ لا بد أن نجلس ونتحدث!

بعد أن تحدثا طويلاً، وبعد معرفة روبرت أن غزوان التقى بالسلطان، والأمير راكان، تغير كل شيء. قال له بدعابة:

ـ لا أدري لماذا كنت أتوقع أن أراك هنا، وفي هذا الوقت بالذات؟

ـ في الشرق يقولون إن القلوب هي التي تتكلم!

لم يطل الأمر لكي يتم الاتفاق، خاصة وأن غزوان تذكر كلمات السلطان فنر، قال له السلطان:

ـ حنا، يا غزوان، أولاد اليوم، وما نريد نحمّلك أخطاء غيرك، فإذا ردت تكون بينا فأهلاً بك ومية مرحبا، أما إذا ردت تكون مع غيرنا، فأنت حر، ولا تزعل منا مهما سوينا، ومهما حصل!

وقال له الأمير راكان:

ـ . . . كل اللي صار بداية، وهالحين، وأنا أتكلم كمسؤول، نريد نعقد اتفاقيات، ونسوي عقود لتسليح الجيش، لبناء البلد، لاستيراد مواد كثيرة، فنريدك معنا، نريدك تساعدنا.

ولم يطل الأمر، لكي يتفقا، وفي مرحلة من مراحل المفاوضات شارك روبرت يونغ. كان سعيداً إلى أقصى حد، خاصة حين جرى الحديث عن

كيفية تقاسم الأرباح. أما حين هيئت الصيغة، فقد طلب الأمير راكان أن لا يرد فيها اسم الطرف المستفيد في موران. قال ذلك وابتسم!

قال له روبرت في إحدى الليالي، وقد عادا من سهرة أقامها لهما الأمير راكان:

ـ . . . لا بد أن أعترف بشيء أساسي: خفت كثيراً نتيجة التغيرات التي حصلت في موران، وكدت أنهي العلاقة بيني وبين الشركة العالمية للاستيراد والتصدير. . .

ابتسم، هز رأسه، ثم تابع:

ـ وعليّ أن أعترف أيضاً: إن الإنسان، خاصة الأجنبي، في هذه البلاد، لا يعرف ماذا عليه أن يفعل، أو ما هو الشيء الصحيح. أنه بحاجة ماسة إلى أبناء البلاد، فهم وحدهم الذين يعرفون كيف يجب أن تتم الأمور، عن طريق أي الأشخاص، وكم يجب أن يدفعوا لقاء ذلك!

قال غزوان بمرح:

ـ لقد أصبحت هذه القاعدة عامة يا مستر يونغ، وفي كل مكان. . .

ابتسم وهو يضيف:

ـ وأنا تعلمت هذه الأشياء في الولايات المتحدة أكثر مما تعلمتها هنا!

ـ ولكن الأمر هنا يختلف عن أي مكان آخر. في الولايات المتحدة، تعرف لمن يجب أن تدفع، ولماذا، أما هنا فلا بد أن تدفع إلى أناس مجهولين، لأن غيرهم هم الذين يظهرون أمامك، وهؤلاء لا يعنون شيئاً، أنهم مجرد مراسلين، أما الآخرون. . .

حين عاد غزوان وروبرت إلى الولايات المتحدة كانت اليانور مع ليفي في المطار لاستقبالهما، وقد أصرّ غزوان أن يذهبا معاً إلى سان فرانسيسكو، عبر مطار بوسطن، لكي يرى روبرت مقر الشركة العالمية، ولكي يتفقا على ما يجب أن يعملاه في المستقبل. قالت اليانور، وهي تعانق غزوان:

ـ لا أدري ما إذا افتقدتني كما أفتقدك؟

ـ بكل تأكيد يا اليانور!

قال هذه الكلمات، وهو يعانقها، ولم يفعل ذلك من قبل، لكن منح نفسه هذا الحق الآن، وكأنه يبلغها رسالة. ردت بمرح:

ـ لم أكن أتوقع أن تطول سفرتك إلى هذا الحد، فأين كنت كل هذه المدة؟

ـ كنت هناك، في الأماكن البعيدة والمجهولة!

وانصرف الجميع إلى أحاديث عامة، حول السفرة، والطقس، والاحتمالات القادمة بالنسبة للعمل، وكان جو المرح طاغياً، مما يوحي بالأجوبة، دون كلمات كبيرة!

لم تمض شهور على تسلم فنر للسلطة حتى قالت فريزة خانم لابنتها بتحذير أقرب إلى اللوم:

ـ الهمّ، يا بنتي، بالنسبة للبني آدم أخطر من المرض، لأن الواحد يتعافى من المرض إذا تعالج، صحيح أنه يهدّه كم يوم، لكن بعدها يروح. أما الهم فإذا ما انفرج يصير مثل السوسة، والواحد أبد ما يخلص منه. فأريدك تفتحي عينك زين، وتسوي كل اللي تقدرين عليه، حتى هالرجال يشوف دربه ويضحك سنّه.

ردت ثروت بأسى:

ـ والله، يا ماما، لا يجيني نوم، ولا تغفى لي عين قبل ما يرجع. وأول ما يصل أسوي كل اللي أقدر عليه حتى يرتاح ويرضى، لكن ما اقدر اخش تحت جلده، ولا أعرف شي غير اللي يقوله!

اقتربت فريزة، منها وسألت باستعجال:

ـ أي يا بنتي، وشنهو اللي يقوله هذي الأيام؟

ـ والله، يا ماما، كان حالنا قبل ما يصير سلطان، وحنا بعيدين، أحسن بألف مرة!

هزت ثروت رأسها بحزن، وأضافت بعد قليل:

ـ كنت خايفة عليه من الأحلام، والكلام اللي كان يقوله، هالحين أخاف عليه من نفسي وأخاف على نفسي منه.

ـ شلون يا بنتي؟

ـ ثابر الدنيا، لا يرتاح ولا يخلي أحد يرتاح، لا ينام ولا يخلي أحد ينام!

وضحكت بحزن وسخرية، وتغير صوتها:

ـ إذا خلص من الاجتماعات، سبقته الأوراق، وإذا تعب من الطاولة، ينسدح ومناظره على خشمه، يقرأ ويوقع، وأنا أتعطر، واتنطّر، وهالساعة، وبعد شوي، لكن أبد، مثل الحجر، فاغفي، وبعد ساعة، ساعتين، الله يدري، أقوم وأناظره: بعده بأوراقه وأختامه!

ـ وما سويتي شي؟

ـ شنهو اللي اقدر اسويه؟

ـ اندحشي بجنبه، اسأليه، قولي له: يكفيك يا بعد عيني، لأن الأوراق ما تنتهي، ولأن الأولياء والأنبياء قالوا: إن لنفسك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً.

ضحكت ثروت بسخرية وهي توضح:

ـ ما خليت شي إلا سويته. وإذا لان مرة، وضحك سنه، وإذا طوى أوراقه وشال مناظره مرة، فألف مرة غيرها لا من شاف ولا من سمع!

قالت فريزة خانم، وهي تغير جلستها:

ـ يا بنتي، يا ثروت: الرّجال مثل الولد الصغير، كلمة تأخذه والثانية تجيبه، بس المهم أن تتحرك المريّة، أن تعرف شلون لازم تتصرف، أما إذا كانت مثل الحجر، فتصير هم لنفسها ولزوجها، وتخرب بيتها بيدها.

تنفست فريزة خانم مثل بقرة، وبدا أنها حانقة، وغير راضية عن سلوك ابنتها، ولما تأكدت أنها أوصلت الرسالة تابعت:

ـ ومن قبل قالوا: إذا شفتم الفقير مخبوص وملتاش فاعرفوا: أن الغني سخره! وأنا، يا بنتي، إذا شفت الرَّجال مهموم، وبيّن عليه الكبر والتعب والهم، اسأل حرمته: شنهو اللي سويتيه بالرجال...

وبعد قليل، وكأنها تحدّث نفسها:

ـ الرجال مثل عود النعنع، لا يغرك كبره وصوته العالي، وحتى قوته، المهم أن يرتوي. إذا ما ارتوى يهرم بسرعة، تضيع عليه، يصير غير شكل.

ردت ثروت بنزق:

ـ الصحيح: ما عدت أعرف شنهو اللازم يتسوى!

قالت فريزة خانم:

ـ المهم أن أي شي إذا تسوّى، لازم يتسوى بوقته!

ـ هذول الرجال، يا ماما، الله ما يرضيهم، وصعب أن ينفهموا، والأحسن أن الواحد يتركهم وحدهم. إذا زعلوا اليوم يرضون ثاني يوم!

هكذا ردت ثروت، وبنفس النزق، فقالت فريزة خانم:

ـ الله يسامحك يا بنتي...

وبعد قليل، وبهمس:

ـ إذا المرية ما قدرت تتفاهم مع زوجها بعد عِشرة هالسنين، فهذه مصيبة كبيرة، لازم المرية بعد شهر، اثنين، سنة، ثنتين تفهم زوجها، تعرف شنهو اللي يوجعه، وليش، وتعرف شلون تداويه. وإذا ما قدرت تسوي هذا الشي فالحق عليها ما هو عليه.

ردت ثروت بألم:

ـ إذا كان زوجها واحد عادي، أما إذا كان حامل الدنيا على أكتافه، وإذا رايد يغيّر كل شي، ويسوي الناس على مزاجه، فيتعب ويتّعب معه غيره!

ـ كل واحدة تقول نفس الكلام عن زوجها، بس الله يسامحك، لأنك بعدك صغيرة، ورايدة الدنيا على كيفك.

قال فنر لثروت في الليل المتأخر:

ـ إذا مرت هذي السنة على خير، وأعلن خزعل استسلامه، وأوقف تهديداته، فأظن أن الأمور تمشي زين، لكن الظاهر أنه ما هو ناوي، ويلزم أن الواحد ينتبه ويأخذ باله.

ردت برخاوة وإغراء:

ـ ما دام طلب عدلة، وعدلة راحت، فالدنيا بخير، صار يريد السلامة!

ـ لكنه يلعب بذيله، وعنده فلوس برّه، والتقى من يوزّه.

وبعد قليل ولنفسه:

- لازم اقصقص جناحاته، واخليه يرمح على أقرب أصحابه!

قال لراكان:

- وأريدك، يا أبو منصور، تعمي قلبه، وتخليه شاكّ وحاير. وأريدك تجرّ أقرب الناس من حوله. عطهم. قل لهم: حلت البركة، واللي تريدونه يصير. بس أبيه يظل وحده، لا أنس ولا جان معه. إذا صار هالشكل يجي يحبّ الأيدين، ويقول: أنا أخوكم، وأريد الستر والسلامة، بس وافقوا أن أكون معكم!

قال راكان:

- الحق اللي تقوله، يا طويل العمر، وأنت فوضني، وما يصير إلا اللي تريده.

قال حماد لراكان:

- زيد خرطي. صحيح أن صوته يفرقع، لكنه ما يمون إلا على خصاويه، وإذا همّ وتكلّف ينشد: شنهو غدانا اليوم؟ وإذا طخت النخوة برأسه شتم وبرّد قلبه، هذا حده زيد.

وابتسم حماد هز رأسه، ثم أضاف:

- خزعل عقله جوزتين بخرج، إذا اتخربط تاهت عليه، ولولا أن الحكيم انقرص، ويلزم له وقت حتى يروح جنونه ويرجع لصوابه، لفادنا، كان زين، بس هالحين ما لنا إلا ابنه، غزوان، فخلنا نجرب حظّنا معه، ونشوف بعدها.

قال حماد لغزوان في زيارته الأولى لموران:

- . . . وأنت، يا غزوان، تعرف معزتك عندنا. الكل يقدرك ويحبك، والكل يريد مصلحتك، بس أولاد الحرام ولا أكثر منهم. . .

ابتسم، وهو يتطلع إلى غزوان بعينين أقرب إلى التحدي:

- كل ما يرد ذكرك يقولون: إذا غزوان أراد شي، وإذا اقتنع، لا أحد يمنعه، وأنا هذا رأي. بس غيرهم يقولون: غزوان ما يخرج عن رأي أبوه،

وأعرف أن هذا رأي جماعة خزعل. وأنا حاير ما أدري شنهو اللي أقوله لهذول أو لهذول!

حاول غزوان أن يوضح، أن يبرر بعض المواقف، لكن الأمير راكان قال بحزم أقرب إلى الحدة:

ـ . . . وما أريد أحد يقول ليه، أو يعطيني الدروس. لما خزعل خاس وخان الأمانة، ولما خبّص وسوى اللي ما يصير، وأنا أخوه، تركته. تخليت عنه. وهذا اللي سويته من أجل مصلحته، فإذا ما عرف اليوم مصلحته واللي يفيده يعرف باكر أو اللي عقبه.

وزفر:

ـ وكثيرين ما يعرفون مصلحتهم، ما يعرفون اللي يفيدهم من اللي يضرهم، ويلزم اللي حوّلهم يتصرفون، ويقولون اللي يصير واللي ما يصير!

قال ابن البخيت للعجرمي:

ـ يلزم، يا شيخنا، يا أبو مشعل، نحسب للألف قبل ما نقول نعم أو لا، لأن الجماعة لا يحللون ولا يحرمون!

وحين انتفحت عينا العجرمي بتساؤل مرعوب، أوضح:

ـ ما دام جرّوا ابن شيخهم، الحكيم، وصار بيدهم مثل المحبس، ولا تعرّف على أحد، حتى أبوه، فأظنهم راح يجربون سلاحهم بكل اللي حولهم، فأريدك تحمل وتصبر، وعسى أن يكون آخرها أحسن من أولها.

قال العجرمي بفخامة:

ـ يا أبو بادي، ما دام خزعل راح فحنا بخير، لأنك تذكر شلون الأملط خبط الخير بالشر، وحاس الدنيا. والابن ما يلزم أنه ينأخذ بجريرة أبوه!

رد ابن البخيت وهو يبتسم:

ـ خلنا ننتظر ونشوف يا شيخنا.

ـ المكتوب يبين من عنوانه، يا عبدالله!

ـ الله خلق الدنيا بستة أيام، يا أبو مشعل، ما هو بيوم واحد، والصبر زين!

ـ ما يخالف يا وليدي!

قال شداد المطوع:

ـ الله الله يا دنيا، دنيا عجب، كل شي يصير بيها. . .

وقهقه والتفت حواليه، وحين بدا كلامه غير مفهوم أضاف:

ـ إذا طلع واحدهم من الباب يرجع من الشباك، مثل الخيل اللي شروها للسلطان، يطلع الحصان حمداني يرجع صقلاوي. وهذول مثل خيلهم، طلع الأب مدحور، رجع الابن منصور. قلنا خلصنامن الأملط رجع لنا الأزرط. قلنا راح عهد وجا أحسن منه، ترانا صرنا مثل بول البعير، كل يوم لورا، وظني ما عاد يفيد لا كي ولا حجامة!

قال زيدان في المقهى:

ـ ترى، يا جماعة، هذي موران تسامح، لكن ما ننسى. الأب بعد ما أكل الأخضر واليابس، وبعد ما سوّى اللي ما يصير، قلنا بروحته خلصنا. اشوف اليوم رجع ابنه. وقالوا إن طويل العمر شافه وسولف معه وطيب خاطره، فأريد منجم يفتح ويقول: موران بعدها بوعيها أو الله هبل أهلها؟ وإذا أمهلها، فيا ترى ينذرها، وبعدها يسوي بها اللي سواه بارم ذات العماد ويقلب عاليها سافلها، ويغير كل شي فيها، أم عنده أشغال أهم منها؟

قال صالح النذير:

ـ يلزمك تورم أكثر يا قلب، لأن اللي شفته ما شافه أحد من قبل، وظني ما أحد يحمله من بعد.

وبدأ يدندن:

سأصبر حتى يعلم الناس أنني صبرت على شيء أمر من الصبر
ولو أن ما بي بالجبال لهدمت وبالنار أطفأها وبالريح لم يسر

قالت فضة لأصغر أبنائها، وهي تقص عليه الحكايات، لكي ينام:

ـ «. . . وكان ذاك الولد اليتيم، كان أصفر وقلّيل، ودايماً معلعل،

لكنه ذهين، فقال الأخوة لما مات أبوهم: أحسن ما نختلف وتقع بيّنا، خلنا نسلطن أخونا اليتيم، وهذا اللي صار».

وحين فتح الصغير عينيه ليعرف بقية القصة تابعت «وأنت تعرف أن القليل والعليل ما يقدر يسوي شي بليا أخوانه، قال لهم اصير إذا صرتم معي، قالوا ما يخالف، قال نجيب القرآن ونحلف عليه، قالوا: عهد الله بينا، بس نريدك بكل شي تشاورنا وتأخذ رأينا، قال: على خيرة الله، وما يصير إلا اللي تريدون، وبهذه الطريقة حكموا وعاشوا سنين وسنين».

قال الصبي وقد تنبهت حواسه:

ـ وبعدها شنهو اللي صار؟

ضحكت وقالت:

ـ وهذول الأخوة، اللي هم من فرد أم، كانوا متصافين ويحبون بعضهم ومتفاهمين، وغيرهم مختلفين ومتنازعين، وما مر يوم والثاني، إلا والسلطان، ذاك اليتيم، مرض ومات، واجتمعوا الأخوة وقالوا: السلطان منا، وما يصير من غيرنا، واللي يصير الكبير، واللي بعده، واللي بعده، وظلوا بهذا الشكل، والناس راضين، وهم عايشين، وبعدهم أولادهم، وبعدهم أولاد أولادهم، إلى قيام الساعة».

قالت فضة توصي راكان:

ـ . . . وما أريد أوصيك، يا وليدي، لأن هذي الدنيا غدارة، وكل واحد يا نفسي، وتذكر سالفتنا مع خزعل!

واختنق صوتها:

ـ كان أبوك، الله يرحمه، يريدك أنت تصير بعده، لكن بآخر أيامه دهوا بعقله، وقالوا خزعل. قلنا ما يخالف. وأنت وأخوانك، الله يسلمكم، سويتم لخزعل اللي ما يتسوى، لكنه لئيم، وتذكر كل اللي صار.

وتغير صوتها من جديد:

ـ وأخاف السالفة تنعاد مع فنر؟

ضحك راكان، ضم أمه إلى صدره، وهو يقول:

ـ وكلي الله يا بنت الحلال، لأن اليوم غير الأمس، وفنر غير خزعل!

تطلعت إليه بتحديد وسألت:

ـ أنت متأكد يا وليدي؟

ـ وحنا هالحين غيرنا قبل سنين.

واحتضنها، قبّل رأسها وهو يقول:

ـ بس أريد دعاك!

فتحت عن صدرها قليلاً، ورفعت يديها إلى السماء:

ـ يا حامل السموات من غير عمد، ويا واهب الأرزاق من غير عدد، يا مكرم المرضعات ومجيب المتضرعات، يا مسيّر الأفلاك وحامي الأملاك، أمانتي عندك راكان وأخوانه، لا تنساهم ولا تغفل عنهم، وتوصلهم لمرادهم، يا مستجيب الدعاء!

قال راكان لأخوته الأربعة الكبار، وقد اقتصر لقاؤه عليهم وحدهم، لأن الآخرين كانوا أصغر من أن يفهموا ما يمكن أن يقال:

ـ . . . بعد اليوم أبد ما يلزم تفلت منا. . .

وتغيرت النبرة:

ـ فنر بدونّا ما يقدر يسوي شي، وحنا، بدون فنر، ما كنا قادرين نسوي شي، وفنر يفهم الدنيا والناس، وتعرفون أنه مريض، إذا عاش اليوم يموت ثاني يوم، فيلزم منا أن نستعد، أن نكون قدر الحمل!

ابتسم، تطلع في وجوه أخوته، ثم تابع:

ـ والدنيا اليوم غير الأمس. والناس اليوم غير الناس قبل. الدنيا تغيرت، والناس صاروا يريدون ويحاسبون، وتعرفون أن اللي ما عنده قرش ما يسوى قرش. . .

هز رأسه وهو يضحك، تنحنح، وخرج صوته متكسراً:

ـ أتذكر أبوي، الله يرحمه، شلون كان يترجى ابن العليان أن يدبر له كم قرش، من هنا أو هنا، كان يقول له: أريد فلوس يا ابن العليان، أريد

أدفع للخويا، واللي يحملون السلاح معنا، لأنا إذا ما دفعنا داروا ظهورهم ومشوا. وابن العليان يصفق يد بالثانية ويقول: منين نجيب يا طويل العمر؟ ما نقدر يا طويل العمر. وأبوي، الله يرحمه، يهز رأسه، ويرد عليه: دبر رأسك، يا ابن العليان، بع اللي فوقك واللي تحتك ودبر الفلوس. . .

وتغيرت اللهجة:

ـ والله يرحمه دبر الأمور لأن الناس كانوا قنوعين. هالحين، إذا ما كنا قاعدين على تل من ذهب، لا أحد يناظرنا أو يقول مرحبا. فيلزم أول شيء أن تكون فلوسنا سلاحنا، وما نحتاج أحد، ولا نسأل أحد.

قال دحام:

ـ اللي تقوله، الله يسلمك، صحيح، والفرصة، هالحين، ما مثلها، وتشوف عيونا شلون الناس يتراكضون حولنا. . .

قال دهام:

ـ قبل الفلوس، والأهم منها، أن نتفق: أنه الواحد منا ما يخطي خطوة قبل ما نتشاور. إذا اتفقنا كل شيء سهل.

ـ الحق اللي تقوله يا دهام، هكذا رد راكان، وهو يضيف: ومثل ما كان أبوي، الله يرحمه، يجمعنا كل صباح اثنين، يلزم نجتمع ونتشاور، والواحد ما يسوي شي إلا إذا اتفقنا.

سأل دحام:

ـ وفنر؟

قال راكان:

ـ فنر عنده من الهموم ما يكفيه وزود، وحنا إذا اجتمعنا نلبلب له المسائل ونرفعها خالصة للموافقة فلا يحتار ولا يتعب.

سأل دهام:

ـ وجازي ومسّلم ودعيج ومحجيم وتركي. . .

رد دحام بمداعبة:

ـ لا تزيد يا ابن الحلال، لأنّا إذا بدينا ما ننتهي، وباكر يطلع أولاد

العموم، والأخوال، وغيرهم وغيرهم، فخلنا، هالحين، بفخذ آل عجاج، وبعدها كل واحد له نبي يصلي عليه!

قال راكان بحزم:

ـ ومن رأي نحرص أن اللي يصير بينا ما يطلع ولا يصل لغيرنا، لأن الدنيا محظورة والأرض مشبورة، ولا بد كل واحد يفكر ويعمل حتى يجر النار لقرصه.

قالت قطمة، خادمة موضي، للعنود:

ـ وستي قالت لسيدي: يلزمك تعرف، طال عمرك، فضة وأولادها، ما يتأمنون. إذا كانوا معك اليوم، فما تدري شنهو اللي يصير ثاني يوم. فيلزم تكون مثل أبوي: كلمة حلوة وعين حمرا، لأنهم إذا انتركوا يركبون ويطحطحون!

سألتها العنود:

ـ وشنهو كان جوابه؟

ـ قال: أنا شوري من راسي، وما أريد أحد يشور عليّ، وأعرف اللي يفيدني من اللي يضرني!

ـ وموضي؟

ـ قالت ستي: الواحد يشاور اللي أكبر منه، واللي أصغر منه، وبعدها يرجع لشوره...

وضحكت قطمة، وهي تضيف:

ـ وقالت له: ويلزمك تعرف أني أكبر منك، وأبوي كان يشاورني!

وبعد قليل، وبجو من الحزن، أنهت قطمة القصة:

ـ قالت له: يا طويل العمر: أنا تعودت على العوالي، فأريد أكون هناك إذا توافق، ناظرها، صفن، وبعدها قال: إذا كانت العوالي تريحك فعلى بركة الله، بس يلزمك ما تطولي الغيبات، قالت: أروح وقلبي هنا، وما يمر شهر والثاني، إلا وتشوفني بوجهك، بس يلزمك تتحملني، ولا تقول حريمة وما تفهم. حبّها على راسها، وقال لها: توكلي على الله!

قالت سعدة، زوجة السلطان لابنها وهي تهديه حصاناً:

ـ مالك يا وليدي غير حصانك ولسانك، وغيرك عنده المال والأخوان، فناظر نفسك وشف شلون تأخذ ثارك!

رد حمود على أمه، وكان جازي، قريبه ومرافقه يسمع:

ـ الشمس وحدها مالية الدنيا، والقمر وحده شاغل الناس، والله واحد، وأنا واحد، ويروح يوم ويجي الثاني وتسمعون!

قال جازي الهداوي لسعدة:

ـ إذا أولاد فضة ما صادوه، وإذا الله كتب له العمر، تراه راح يسوي اللي ما صار.

ردت سعدة بحزن:

ـ من هذا اليوم لذاك اليوم الله يستر!

قالت فريزة خانم:

ـ خريبط، الله يرحمه، سوى سوايته، خلّف كل هذي الذرية، وراح. ترك الشقا لمن بقى!

وقالت صفية الحلواني، الخادمة الجديدة لفضة:

ـ عمتي تحب أولاد الضراير أكثر مما تحب أولادها، وما يمر يوم إلا وتسأل عن كل واحد منهم، الكبير والزّغير!

قالت نعوّم: وهي تنظّف الحمام، بعد أن تخلى عنها أغلب الخدم:

ـ موران مثل حمّال الملح، بس يريد يخلص من حمله، حتى لو غرق بالماء!

بعد أحاديث بالغة الود، قال حماد لغزوان أثناء سفرته الثالثة لموران:

ـ أبلغني صاحب الجلالة السلطان أن أملاك الوالد، وكل ما يعود إليه، يمكن أن تستعيدوها شرط أن تنتقل من اسمه إلى أسمائكم.

ابتسم غزوان، عبّرت عيناه عن الشكر، وقبل أن يعلق أضاف حماد:

ـ ومن رأي، ما دمت أنت مشغول وأسفارك كثيرة، أن تتولى الوالدة الموضوع، فإذا جاءت إلى هناك فالكل سيساعدها ويسهّل لها الأمر.

واتفقا أن تأتي زوجة الحكيم!

الفكرة لم تكن بهذا التحديد أو الوضوح لو لم يتدخل سعيد الأسطة، فقد أجاب حماد، عندما سأله، باعتباره يعرف الحكيم معرفة جيدة، وسبق أن عمل معه، عن الطريقة المناسبة لإسكات المحملجي الأب وشل معارضته:

ـ الحكيم، يا سعادة الوزير، قضيته بسيطة: زكزكه تكسب نصف معركته معه، لأنه، الله يسهّل عليه، لا يتحمل المعارضة أو المزح، فإذا عصّب ضاعت عليه، يصير مثل ثور المسلخ: ينعمي ويظل يدور ويخور.

ابتسم حماد وهو يرد:

ـ اسمع يا أبو شكيب، احكِ لي كلام اقدر أفهمه، يطلع منه شي، ما أريدك تدوخني!

ـ والعياذ بالله، يا سعادة الوزير!

وضحك بمكر، وبعد أن نظر إلى عيني حماد بتحديد قال:

ـ ما ينراد أحد يوصيكم، يا أبو راشد، لأنكم قطعتم نصف المشوار.

فما دام جربتم المحروس، ابنه غزوان، ظل عليكم النصف الثاني، وهذا سهل وبيدكم.

ـ شلون يا أبو شكيب؟

تنبهت حواس حماد تماماً، واقترب. رد سعيد الأسطة:

ـ باقي عليكم، هالحين، الخانم، أم غزوان، لأن الحكيم بدونها يصير قط من خشب، فإذا قدرتم تكسبوها، ترى الحكيم صار في خبر كان، أثراً بعد عين!

ـ هذا قولك؟

ـ جربوا وشوفوا، وبعدها قولوا: أبو شكيب يعرف الناس أم لا!

وهكذا جاءت وداد الحايك، أم غزوان، لتتولى إدارة أملاك العائلة! ولأنهم يريدونها أن تبقى بصورة دائمة، أو على الأقل لأطول فترة ممكنة، فإن الآمال الكبرى والوعود كانت تسير جنباً إلى جنب مع بطء المعاملات وانتظار الموافقات والتدقيق. وبين فترة وأخرى تكتمل إحدى العمليات، وتكون نتائجها كبيرة إلى درجة يدور معها رأس وداد. فالأرض المنسية إلى جانب مسجد الرفيعي مثلاً لم يكن أحد يظن أنها للحكيم، لكن عندما اتخذ قرار بتوسيع المسجد، واستملاك الأراضي المحيطة، والتعويض على مالكيها، فقد كان المبلغ الذي دفع إلى وداد خيالياً، دفع إليها بصفتها القيّمة، دون حاجة إلى أوراق تفويض، إذ اكتفت دائرة الأوقاف، بإيعاز من حماد، بحضور مجرد شاهدين يؤكدان أن وداد الحايك لا تزال زوجة المالك، وكان الشاهدان راتب الفتال وسعيد الأسطة.

قال السلطان فنر لحماد:

ـ ترى الفخ قرّب يطبق، بس أريدك تتوعى أكثر، خاصة من الجماعة اللي حولنا. . .

لم يتكلم حماد، ظل منتظراً السلطان لكي يوضح ما يريد، تابع السلطان:

ـ إنما الأولاد والأموال زينة الحياة الدنيا، وحنا ما قصرّنا: بعثنا لخزعل عدلة وخمسة من أولاده، راحوا وشالوا معهم أموال ما تأكلها

النيران، وسوينا حالنا ما شفنا ولا عرفنا. والحكيم، قلنا لأهله وأولاده تعالوا وخذوا اللي تريدونه، وما كذّبوا خبر، جوا يركضون، وهالحين تشوفهم عينك.

ابتسم السلطان، بدا مرحاً، وهو يحس بالظفر، وبعد قليل:

ـ ويلزمك تعرف يا حماد، إذا الواحد بدأ يشك بأقرب الناس له، ترى سالفته ما منها نتيجة. فإذا ما رفع الراية البيضا اليوم يرفعها ثاني يوم. فأريدك تملا قلوبهم همّ، وتخليهم يشكّون بكل واحد معهم، وأريدك تقطّع حبالهم مع موران، لا يقدرون يبعثون طارش، ولا يصلهم من هنا رسول.

ـ الحق اللي تقوله، يا طويل العمر، وهذا اللازم يصير.

ـ هذا ما يصير إلا إذا مسكنا الداخل، عرفنا كل شي، فأريد من رجالك يفتحون عيونهم وقلوبهم.

ـ رجالنا ما هم مقصرين، طال عمرك، بس...

وتردد في أن يوضح أكثر، سأله السلطان بحدة وقلق:

ـ شنهو بس، يا حماد؟

ـ الخال عمير، يا طويل العمر، وأولاده، ثابرين موران.

ـ وغيرهم؟

ـ وتعرف سوالف أولاد خزعل وحريمه، واللي كانوا عايشين على عطاياه.

ـ اسمع يا حماد...

تنفس بعمق، صمت قليلاً، ثم تابع، وكان صوته عميقاً:

ـ خالي عمير، ما منه غير السوالف، وما نقدر نمنعه، بس نقدر نمنع الناس تصله. كل واحد يصل دار عمير ألعن والد والديه. ما عندنا لحية مشطة، ولا أحد فوق الدولة أو أكبر منها.

ـ ما قصرّنا مع اللي يزورونه، يا طويل العمر، جبناهم وهددناهم، وهالحين ما أحد يتجرأ يزوره. فلما شاف أن الناس ما يجونه، كل يوم، صبح وعصرية، واحد من أولاده قايده، ويهفي، من مضافة للثانية، من

مكان إلى مكان، وتعرف، طال عمرك، الناس أبوابهم مفتوحة وما يقدرون يردون أحد، فصار الشر شرين. اللي كانوا يصلونه أربعة خمسة، هالحين يشوف الناس بالميّات، وما أدري شلون نتصرف!

ـ الشيبة، يا حماد، ما منه نتيجة، فأريدك تشوف أولاده. جيبهم، سولف وياهم، ومثل ما قالوا: جرّب معهم السيف والذهب، وما تسوّي شي قبل ما تشاورني، وخلنا نشوف تاليها معهم!

ـ تؤمر يا طويل العمر!

وبعد قليل، وبحيرة:

ـ وأولاد خزعل، طال عمرك؟

ـ هذول خلّهم عليّ، يا حماد، هذول دبارهم عندي، وتشوف...

وتغيرت نبرة السلطان وهو يتابع، كأنه يحدث نفسه:

ـ أولاد الأمراء والسلاطين ما تموّتهم إلا الغيرة، تماماً مثل الحريم، الواحد منهم ما يقدر يشوف غيره عنده أكثر منه، أو أحسن منه، وظني أن راكان يدبر الأمور...

وبعد قليل، وبمكر، وكأنه فكر بأشخاص آخرين:

ـ راكان... وغير راكان!

حين دفعت الأموال لوداد الحايك، وطالت سفرة غزوان، ولأنها سمعت عدة قصص عن سرقات وقعت في موران، فقد بدأت تفكر بطريقة ما لحماية هذه الثروة، ولاستثمارها أيضاً.

قالت لراتب، الذي جاءها وزوجته، في إحدى الأمسيات.

ـ ... وفكرت أسألت إذا كان ممكن أن تشغّل لي الفلوس اللي استلمتها، يا راتب.

وراتب الذي فوجئ بالسؤال، أو بالطلب، تطلع إلى زوجته، وقبل أن يتاح له اتخاذ القرار المناسب تولت زوجته الإجابة:

ـ والله، يا أم غزوان، من شهور، راتب عمّ يفكر أن يصفي أعماله ونرجع.

وبعد لحظة، وقد حدّدت هذه البداية مساراً إلزامياً:

ـ الشغل، بعد المشاكل اللي صارت، دأر، يا أم غزوان، والواحد محتار، ما بيعرف يبقى أو. . .

قال راتب بأسى:

ـ ما أعرف إذا كان الحكيم حكى لك عن شراكتنا مع الزوبعي، وكيف هالابن الحرام أكلنا واستوكلنا؛ حتى الرأسمال اللي حطّيناه بالشراكة ما حصلناه إلا بالويلاه، وإلى اليوم لنا ببطنه كم ألف. . .

وتغيرت النبرة، أصبحت واثقة:

ـ سمعت قبل كم يوم، من جماعة، يا أم غزوان، أن سعيد الأسطة عم يفتش عن ناس عندهم فلوس حتى يتشارك معهم، وسمعت أنه عارض شروط ممتازة. . .

وبعد قليل:

ـ وأنت بتعرفي سيعد الأسطة، أبو شكيب، والحكيم بيعرفه، فإذا وافق أنه يستلم هذه الفلوس ويشغّلها فحظك من السما، لأن الزلمة شغّيل، ويعرف البلد، وعلاقاته فوق فوق، بالعلالي.

قالت وداد بمرارة:

ـ يضرب، ما كان في اتقل من دمه إلا دم أمه!

ـ ما راح تناسبيه، يا أم غزوان، راح تحطي عنده الفلوس وهو يشغّلها، وبنهاية كل سنة يقدم الكشف: هذا إليك وهذا إلي، وإذا قويت العلاقة ما راح تزيد عن فنجان قهوة، ويحمل حاله ويمشي!

سأل حماد سعيد الأسطة عن نتائج الزيارة التي قام بها لأم غزوان، لأن سعيد لم يجرؤ أن يقوم بهذه الزيارة قبل أن يستأذنه ويبلغه، رد وهو يضحك:

ـ بدأ الفار، يا أبو راشد، يقرقش بالجبنة!

ـ الله يخزيك، احكِ كلام يمكن الواحد يفهمه، لا تحك عن الفار والبزون وما أدري شنهو!

ضحك سعيد بصخب، وبعد أن هدأ:

ـ القصة، يا سيدي، وما فيها، أن الخانم تريد تشغّل الفلوس اللي دفعتوها، تريد تنزل للبورصة وتخرب السوق، فالله يستر!

ـ أي، وشنهو اللي اتفقتم عليه؟

ـ قلنا لها: على العين والراس، يا أم غزوان، اللي تؤمريه يصير!

ـ أي. . . وبعد؟

ـ حطينا الفلوس بالجيب، وراح نشوف شلون نشغّلها.

قال حماد بفرح:

ـ بارك الله فيك يا أبو شكيب، وأريد منك تشغلها زين، تضاعفها، لأن الظاهر الحريمة ذاقت الطعم وحبته!

غمز سعيد الأسطة، وسأل بمكر:

ـ أخاف، يا أبو راشد، نفسك اشتهت وناوي شي نية؟

ـ الله يخزيك، شنهو يطلع من هذي العجوز القاضية؟

ـ لا تغلط، يا أبو راشد، هذي مربّاية على الغالي، على اللوز والعسل، والحكيم ما كان عنده شغلة إلا يدللها ويرطّل فيها، فخيرها بعده، ودلالها السابق هالحين وقته!

ـ اسكت، اسكت يا رجّال. إذا كانت زوّجت بناتها، فلا بد تكون قطعت الخمسين، وما أظن أن أحد يفكر بها!

قال سعيد، وكأنه يحدث نفسه:

ـ والله اللي يشوفها يظنها بنت ثلاثين، وإذا كثّرت خمس وثلاثين. وما هو بس كذا، هالحين شايشة وتقمز مثل القطة بشباط!

ـ يا وّل خاف الفلوس عمتك؟

ـ الفلوس وغير الفلوس، يا أبو راشد!

قال حماد ليغير الموضوع:

ـ خلنا من هذي السوالف هالحين. اللي أريده منك أن تربطها بموران، تخليها هنا، حتى نشوف شلون نحل مشاكلنا مع ذاك الأثول.

وبعد قليل، وبصوت متآمر:

- إذا ربطنا الكُرّ، أمه ما تذكره مثل ما يتذكرها، وهو ما يقدر بلّياها، فخلنا هالحين نجرب، وبعدها نشوف!

قال السلطان لراكان:

- . . . وتبلغ أبو صفوق، مالك الفريح، أن لا يدفع لأصحاب القايمة الزرقا إلا النصف. واللي أسماؤهم بالقايمة الخضرا يدفع لهم مرتين أكثر مما كان يدفع. وفوقها، لكل واحد من هذول سيارة جديدة هدية مني.

ابتسم وهو يضيف:

- وخلنا نشوف بعد شهر أو شهرين.

مالك الفريح لم يكن بحاجة إلى توصية من هذا النوع، فقد كان أحرص من كلب، فعندما يأتيه واحد من وكلاء الأمراء، كانت تدور عيناه كبندول الساعة، ويسأل نفسه: «صاحبنا أزرق أو أخضر؟» وكان ميالاً إلى توسيع القائمة الزرقاء، وكان يردد عبارات بذاتها:

- قلت لي تريدون المخصصات. . . ها؟

ولا ينتظر الإجابة:

- كل واحد يقول هات، كل واحد يريد. . .

ويضحك بسخرية وهو يضيف:

- أتمنى، ولو مرة بحياتي، أن يجيبني واحد ويقول: خذ يا أبو صفوق!

ولأن أغلب الذين يأتون لا يريدون إغضاب مالك الفريح، أو إثارته، فإنهم يفضلون الصمت، وإذا التقت نظراتهم بنظراته يبتسمون. عند ذاك لا بد أن يتأكد ما إذا كان طالب المخصصات بهذه القائمة أو بتلك. يفتح الدرج، يضع نظاراته، وخلال ذلك، وفي محاولة للتمويه، يتكلم:

- تريدون مخصصات شهر ربيع أول، ما هو كذا؟

وبعد قليل، وعندما يتبين موقع صاحب الطلب، يغلق الدرج، يخلع النظارات، ينقر الطاولة وهو يترنم:

ـ الحق حق، بس الواحد يلزمه يمد رجليه على قدر لحافه. . .

وتنفرج شفتاه عن أسنان كبيرة أميل إلى الصفرة، وهو يزف البشرى:

ـ لأن الدولة دولتكم وتعتمد عليكم، ولأن طويل العمر ذاته تنازل عن مخصصاته، فظني أنكم تقدرون الظروف، فإذا سويتم مثل ما سوى طويل العمر فخير منكم وبركة، وإذا لا والله ما تقدرون، فحنا قررنا تنزيل المخصصات للنصف، وهالحين تروحون تتشاورون مع اللي دزوكم وترجعون لنا بعد أسبوع أو اثنين، وإن شاء الله يصير خير!

هذا إذا كان صاحب المخصصات في القائمة الزرقاء، أما إذا كان في القائمة الخضراء فإن أجزاء كثيرة من هذا الحوار تبقى هي ذاتها. ما عدا البشرى الأخيرة، إذ يقول وهو يضحك:

ـ . . . وقال طويل العمر أن مصاريف الأمراء زادت والغلاء ما ترك شي، وقرر طال عمره زيادة المخصصات. فإذا كنتم محتاجين للزيادة دفعناها هالحين، وإذا ما كنتم محتاجين نخليها لكم أمانة بالصندوق إلى حين الطلب، وهالحين تروحون تتشاورون مع طويل العمر وتردّون الخبر، وحنا جاهزين من هالعين وهالعين.

ويشير بإصبعه، لكن بهدوء شديد، إلى عينيه واحدة بعد الأخرى، دلالة المودة والتقدير.

ولم يتأخر مفعول هذه الوصفة، فالاضطراب الذي حدث في القصور ودارات الأمراء بدأ خفياً ثم اتسع. بل أكثر من ذلك اعتبر الكثيرون من الوكلاء أن الأمر مجرد نزوة، وربما من مالك الفريح بالذات، ولذلك لم ينقل أغلبهم الأخبار السيئة فوراً. تمهلوا، حاولوا مرة ثانية وثالثة مع مالك، لعل خطأ أو سهواً دفعه لأن يقول ما قاله. أما حين تأكدوا، فقد لجأوا إلى التمويه وتجزئة الجواب، لأن الأمراء إذا غضبوا، فإن غضبهم سينصب على هؤلاء الوكلاء الذين لم يعرفوا التصرف في يوم من الأيام، ولا يفعلون شيئاً سوى الثرثرة، وسرقة معظم الأموال التي يستلمونها، ظناً منهم أن الأمراء لا يتذكرون، ولا يهمهم سوى الساعة التي يعيشون فيها.

لكن الأمور، مهما بذل من جهد لإخفائها أو تمويهها، وإذا نجحت

محاولات من هذا النوع في مرات سابقة، فإنها لا يمكن أن تبقى كذلك، إذ ما كادت السيارات الجديدة توزّع، وقد تعمد راكان اختيارها بشكل متميز، لتكون رسالة واضحة الدلالة، حتى ارتفعت الأصوات والاحتجاجات، وتحول الاعتراض إلى تحدٍ، والهمس إلى شتائم.

استمر الأمر كذلك بضعة شهور. ومالك الفريح الذي وجد لذة أقرب إلى المتعة، وهو يطبق التعليمات بدقة صارمة، ويرفض أن يناقش، ما لبث أن شعر بالخطورة، خاصة وأن التهديدات لم تتوقف يوماً واحداً، وأصبحت تصل إلى مسامعه واضحة، وبعض الأحيان من الأمراء انفسهم.

قال لحماد المطوع بمرارة:

- يلزم تسمعني زين يا أبو راشد. . .

ابتسم حماد، لأنه يعرف، أو يقدر، في أي الموضوعات يفضل مالك الفريح أن يخوض، قال له بمداعبة:

- كلي آذان يا أبو صفوق إذا ردت تسولف بغير قضية الفلوس!

- لا بالله، يا حماد، لأن كل السوالف منشاها أو وراها الفلوس، والواحد مهما حاول يهرب منها ما يقدر، فيلزم يحكي عن وجعه.

- إنا لله وإنا إليه راجعون. . .

قالها حماد بحزن متصنع، ثم أضاف:

- إذا كان لا بد سولف، يا أبو صفوق، وعسى أن الله يقدّرنا على مساعدتك!

هز مالك الفريح رأسه بحزن، لأن لا أحد في الكون يستطيع أن يفهمه، أو أن يتعاون معه. الجميع يعادونه، لا يعرف لماذا. حتى الذين يعطيهم من ذوي القائمة الخضراء، فإنهم يعتبرون كل شيء حقاً لهم، وأنه لا يعدو أن يكون مجرد أمين للصندوق. حتى كلمات الشكر التي يطلقونها جزافاً يبخلون بها عليه. وحين ينفذ الأوامر يتحول إلى عدو، ولا يخفي أكثرهم حقدهم عليه، واحتقارهم له. وإذا كان قد تحمل كل هذا في السابق، فالأمور الآن أخذت مساراً خطراً، لأن رأسه أصبح مطلوباً. ليس ذلك فقط، ما الفرق بين غزوان وأبيه؟ ولماذا اختلف مع الحكيم؟ صحيح

أن بينهما شيئاً شخصياً، لكنه، وهو يؤدي واجبه، لا يقيم وزناً لعواطفه. قناعاته وحرصه ما يملي عليه اتخاذ الموقف المناسب، مهما كانت النتائج.

مرت هذه الصور والأفكار، وحماد ينتظر، وحين طال صمته، قال له حماد بمداعبة:

ـ إذا ما كنت غلطان، يا أبو صفوق، فظني أنك، هالحين، معي، وأن الفلوس ما هي كل شيء بالدنيا!

رد مالك الفريح بحزن:

ـ أنا معك وماني معك يا حماد، لأني صرت حمامة بشبكة، وأنا بكل الأحوال مأكول ومذموم، وجه قباحة. . . .

وبعد قليل، وهو ينظر إلى البعيد:

ـ طويل العمر يريد يصل إلى هدف موكده زين. فليش حتى يصيب النيشان، يلزم نصاله تمر بي؟

وضحك بسخرية، وهو يترنم:

ـ وصارت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

غير قعدته، تنحنح، شد وجهه، وهو حين يفعل ذلك، يريد أن يحارب، وحماد يعرف هذه الإمارات. قال بمداعبة، لكي يقطع عليه الطريق:

ـ وكلّ الله يا أبو صفوق، لأن الأمور أبسط بكثير!

ـ اسمع يا حماد. . .

قال هذه الكلمات، وخرجت من بين أسنانه، فتجعد وجهه، ولم ينتظر:

ـ أعرف أن أي وزير مالية ما أحد يحبه، والكل يحكون عليه، لكن الوزير هو اللي يحمل الوزر، هو اللي يتلقى الضربات، وأنا وأنت، يا أبو راشد، بكفة ميزان واحدة، أنا للمالية وأنت للداخلية، لكن ما يلزم نكون طعام لأولاد خريبط، وأظنك تعرف: إذا تغدوا بي لا بد يتعشون بك، وإذا ما هو اليوم اللي عقبة!

ضحك حماد ليداري حرجه، ولم يشأ أن يشارك بهذه اللعبة: تابع مالك الفريح:

- كفر وقلة دين أن الواحد يفرّق بين أولاده، يأخذ من واحد ويعطي الثاني. وما هي سياسة أن نشد الحزام الظهر ونفجر ونطّلع الأول والتالي العصر. فيلزم طويل العمر يكون عادل ومنصف، وأنت تعرف أن العدل أساس الملك، فظني إذا فنر ما فتح عينه زين، وعرف اللي يصير واللي ما يصير، ترى هذول اللي تعودوا على المخصصات والعطايا ينقلبون ذياب، ولا أحد يقدر يلمّهم، ومن قبل قالوا: خف من الغني إذا جاع ومن الفقير إذا شبع!

قال حماد المطوع بمكر:

- حنا مأمورين، يا أبو صفوق، حنا ننفذ اللي يقوله السلطان، وهو وقرابته ينجازون، لأن اللي يطاول الأطول منه يتعب!

بعد ثلاثة أيام قال الأمير راكان لمالك الفريح، وقد تشعب الحديث بينهما كثيراً:

- أنت، يا شيخ مالك، ما عليك إلا تصرف إذا صدر لك الأمر، أما ليش فلان بالقايمة الزرقا وليش فلان بالقايمة الخضرا، فهذي يمّ طويل العمر، وهو أدرى منا جميع!

زار حماد وداد الحايك، زارها حاملاً إليها مبلغاً كبيراً، وهو عبارة عن بقية ما يستحق للحكيم في ذمة الزوبعي، بعد أن انتهت الشراكة، وقد استدعاه حماد حين تأخر في تسديد بقية الدين وأجبره على دفعه.

قال لوداد، وهو يتطلع إليها بطريقة مختلفة عن السابق:

- نشف ريقنا، يا أم غزوان، حتى حصلنا اللي لكم من الزوبعي، وهذا هو المبلغ.

وفتح حقيبة سوداء كان يحملها، وقد ظلت عينا وداد معلقتين بهذه الحقيبة منذ لحظة دخوله، إذ لم تره من قبل، في زياراته السابقة، يحمل أي شيء. استغربت وتوقعت. أما وهي ترى الأوراق المالية تتراكم وتصطف، فقد صرخت بلذة:

ـ كل هذا المبلغ إليّ؟

ـ هذا ما هو شي، يا أم غزوان، بالنسبة للدفعات التي راح تجي!

وامتدت يدا وداد للنقود، حملتها لتعرف وزنها، لتتأكد، تابع حماد بنبرة جديدة:

ـ وأنا اتصلت اليوم، يا أم غزوان، بغزوان، واقترحت عليه أن يجوا الأولاد، أو واحد منهم على الأقل، حتى تتلاحق المعاملات، لأنك تعرفين: موران والناس في موران، محافظين، والمرا ما تقدر تتابع وتراجع، خاصة وأن في بعض الدوائر جماعة متعصبين، وغزوان ما هو فاضي لهذه القضايا!

سألت بلهفة:

ـ وشو كان جوابه؟ شو كان رأيه؟

ـ وافقني تماماً، وقال إن كمال يمكن أن يتم دراسته بالمراسلة. . .

وضحك وهو يضيف:

ـ وشنهو قيمة الشهادة؟ المهم، هالحين، أن يستلم الرزق، أشغالكم ومصالحكم، ويلاحق القضايا. والشهادة ما راح تطير، تتحصل، إذا ما هي بهذي السنة، اللي عقبها. والشهادة، ليش الشهادة، حتى تفتح للواحد الطريق، فإذا الطريق انفتح كل شي سهل.

ـ كأنك بقلبي يا أبو راشد، وهذا كان رأي!

تطلع حماد إلى ساعديها البيضاوين وإلى رقبتها. رأته وهو ينظر إليها. خفضت نظرتها للحظة، ثم رفعت إليه، وبسرعة، عينيها، لكي تشعره أنها رأت. قال بمكر:

ـ ولا بد أن روحك ضاقت وأنت وحدك يا أم غزوان!

ردت بأسى:

ـ هيك النصيب، يا أبو راشد!

قال سعيد الأسطة لحماد، بعد أن استلم المبلغ الجديد:

ـ بعدك تريد، يا أبو راشد، نخلي الجدي مربوط، أو نتركه لحال سبيله؟

ـ كنت تسولف من قبل عن الفار والبزون، أشوفك اليوم تسولف عن الجدي والتيس؟

ـ اليوم وقعت عليّ قفة من السما.

ـ شلون؟ هات، علّمنا.

ـ أم غزوان، يا أبو راشد، الفلوس تمطر عليها مطر، ومحسوبك صار أمين الصندوق وموضع الأسرار، بعد كل اللي صار بيني وبين ذاك المقرّن!

وضحك بصخب، وسأل من جديد:

ـ ها... شنهو رأيك، نربط الجدي؟

ـ أي بالله، يا أبو شكيب، هذا الجدي يلزمه ربط، لأنه إذا ظل طليق يلبط ويعور!

ـ راح ادخلها، يا أبو راشد، بدرب له أول لكن ما له آخر!

ـ شلون، يا ابن الأوادم؟

ـ ما عليك، خليها عليّ!

ـ وحنا؟ ما تحسب حسابنا، ما تقول أصحابنا؟

ـ اللي تريده يصير يا أبو راشد.

وبعد قليل وهو يغمز بعينيه:

ـ أنت شفتها بالأيام الأخيرة، شلون شفتها؟ عجبتك؟

ـ استر عليها وعلينا يا ابن الحلال، وخلنا هالحين، بقضايا العمل.

ـ اللي تؤمره، يا أبو راشد، واللي تريده يصير.

قال حماد، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ بس إذا ربطت اربط وحزم زين!

ـ لا توصِ حريص، طال عمرك.

قال راكان لتسعة من أولاد خزعل، وكان سبعة منهم في القائمة الزرقاء، واثنان في القائمة الخضراء، قال لهم بلهجة أبوية:

ـ طويل العمر، السلطان فنر، وصاني أشوفكم وأسولف معكم، ونريد نفتح قلوبنا ونتكلم بصراحة. . .

خيم الصمت. تطلع إلى الوجوه. تنحنح وتابع:

ـ أبوي، الله يرحمه، تعب وهو يوصينا: الدولة أكبر من أي واحد منا. وهذه الدولة، اللي أنتم أمراء فيها، ما صارت بالهين، سالت أنهار من الدم حتى صارت، وما أظن أن أحد يفرط بها، خاصة وأن الدنيا حولنا تغلي، وكل يوم والثاني تسمعون شنهو اللي يجري واللي يصير!

تعب وتشتت، تابع بعصبية:

ـ وما نسمح أنه واحد منا، واحد من دمنا ولحمنا يقول فلاني وتركاني. . .

ضرب على الطاولة الصغيرة، وتابع:

ـ أدري أن بعضكم ما هو براضي، وادري أن الواحد ما يقدر يتنكر لأبوه، بس أنتم كبار وتتفهمون زين، ويلزم أن العقل يتحكم، إذا أحد يريد يعاند، ويقول يصير وما يصير، ترى ما هو منا. . .

وزفر بحزن:

ـ أبوي، الله يرحمه، ما ترك أحد يتدخل، حتى أبوه، قال له: أطيعك كأب، وأخضع، لكن الدولة أكبر مني ومنك، فإذا ردت أن نخسر أنا وأنت، فالدولة يصير لها راسين، وهذا معناه أن الكل يطمع بينا، ونختلف، ونتذابح، وننتهي، أو نترك كل شيء.

ابتسم، تطلع إلى الوجوه، تطلع بإمعان، وأضاف:

ـ وجدي، الله يرحمه، قال له: اللي تقوله حق، وهذا وحده يلزم يصير، وما دمت قادر وقوي، وعلى طاعة الله ورسوله، اترك لك كل شي، ونفسي راضية، وقلبي معك!

وخبط راكان على الطاولة، وقال بلهجة جديدة:

ـ ويلزم كل واحد منكم يعرف: الدولة أكبر من أي واحد منا، والدولة، هالحين، غيرها أيام أبوي؛ الدولة هالحين تقدر تسوي كل شي.

الدولة هي أبونا وأمنا، تغني الواحد وتجوعه. اللي يكون مع الدولة، يا أهلاً ومرحباً، وكل ما يريده يصير، أما إذا أراد أن يكون أكبر من الدولة، ضد الدولة، لا بالله، لا نعرفه، ولا له مكان بينا.

وابتسم، بعد أن تعب، لكن شعر أنه أوصل الرسالة. ترك الصمت يمتد طويلاً قاسياً، لكي يتيح لكل فرد أن يتخذ القرار المناسب، وبعد أن مرت دقائق في ظل الصمت، سأل:

ـ يجوز تكلمت أكثر من اللازم، أو قلت شي تعرفونه زين، وهالحين اريد أسأل كل واحد منكم: أنت مع الدولة، أو مع غيرها؟

لم يجب أحد إجابة واضحة أو قاطعة، لأن المناقشات أخذت مسالك كثيرة، وكانت، أغلب الأحيان، غامضة متداخلة، خاصة وأن معظم الذين حضروا، استعدوا، هيأوا أنفسهم لأسوأ مما قيل، لكن كل واحد صمم أيضاً ألا يقول كلاماً واضحاً أو نهائياً.

حين نقل راكان ما دار من أحاديث بينه وبين أولاد خزعل لفنر، فقد أمر السلطان أن ترسل، وبشكل عاجل، سيارات من نفس النوع، لكل واحد من أولاد خزعل، وأمر أيضاً أن يترك لكل أمير منهم اختيار اللون الذي يفضله!

قال مالك الفريح لمساعده:

ـ سجل، يا وليدي، بتاريخ اليوم: وصرفت لأصحاب السمو الأمراء أربعون سيارة كاديلاك. وسجل يا وليدي: إلى إدارة النقل والمركبات: بأمر صاحب الجلالة السلطان تستورد مائة وخمس وأربعون سيارة كاديلاك جديدة، ويفضل أن يكون اللون بين الأخضر والأصفر والأحمر والقلقلي والكموني، ولا تنسَ يا وليدي، تقول لهم، وبأمر من صاحب الجلالة، سبع من السيارات كشف، لأن بعض الأمراء يحبون الصيد.

اتصل غزوان بأمه. كان محرجاً، لأنه لم يستطع أن يأتي في الموعد الذي قدّره، لكثرة الأشغال، وقال في نهاية المكالمة:

ـ واتفقت، يا ماما، مع أبو راشد، وأبو شكيب، أن يتوجه كمال إلى موران، حتى يحمل عنك كتف ويساعدك.

ـ ودراسته، يا غزوان؟
ـ بسيطة يا ماما، اتفقنا مع الجامعة على أن يتابع الدراسة بالمراسلة.
ـ أنت متأكد يا غزوان؟
ـ تماماً يا ماما.
ـ والبابا، شلون البابا، يا غزوان؟
ـ كل شي منيح يا ماما، وأنا راح يكون لي مشوار عن قريب لموران...
ـ البابا، يا غزوان، كيف أحواله؟ صحته؟
ـ نعم؟ آلو... آلو...
وانقطع الخط!

رغم تعاقب الأزمان، وتغير الحكام والسلاطين، فإن لموران قدرة متجددة وغير محدودة على متابعة أدق أسرار الذين يحكمون، وأكثرها خفاء. قال المسنون: من يريد أن يعيش في موران عليه أن يألف هواءها. قالوا ذلك وهزوا رؤوسهم، وهم يعنون أشياء كثيرة. لم يقصدوا تحمّل حرها وبردها وحدهما، وإنما قراءة رياحها أيضاً. والنساء المسنات، وهن ينمن الأطفال، لا يجدن حديثاً أمتع من حديث الذين مروا: الحكام والشيوخ والذين اغتنوا فجأة. كان الخيال يحمل الأطفال والعجائز بعيداً، يعطيهم القدرة على إعادة تشكيل العالم، بحيث يبدو كل شيء هشاً ومؤقتاً، ولا بد أن يسقط نتيجة أول هبة ريح، أو إذا رفع الرجال في وجوه بعضهم السيوف!

في بعض الأحيان تبدو الأمور راسخة، وفي أحيان كثيرة يتصرف الذين يحكمون بثقة مبالغ فيها، ربما اعتماداً على ما يسمعونه. لكن فجأة، وبسرعة لم يتوقعها أحد، حتى الذين يقرأون الرياح، ينهار كل شيء وينتهي.

قال السلطان لعدد من أخوته، بعد أن اكتشفت محاولة تمرد.

- بعد اليوم ما اريد سوالفنا تنطرح بسوق الغزل أو بالسوق العتيق. . .

تطلع إلى الوجوه بحزم، وأضاف:

- بعيني هذي، اللي راح ياكلها الدود في يوم من الأيام، أنا شايف أبوي يؤمر بقص آذان ثلاثة من العبيد، ولسان الرابع، لأن الثلاثة سمعوا الرابع يسولف لهم عن واحدة من حريمه، وما بلّغوا ولا قالوا. . .

ابتسم بشفقة، وهو يضيف:

ـ أما أيام خزعل، وأنتم تعرفون زين، فاللي يصير بالليل، وقبل ما يطلع النهار، على كل لسان، واللي يجري بين الواحد وأهله، ما يظل أحد إلا ويعرفه!

ولأن الصمت ظل مخيماً، فقد تابع بصوت مختلف:

ـ ما أريد أوّصي، ولا أريد أهدد، لكن يلزم كل واحد يعرف حده ويقف عنده. لأن أهل موران، وهذه عادتهم، ما يعرفون غير السوالف. ما يفيد معهم عيني وآغاتي، هذول ما يجون إلا بالعصا والعين الحمرا، ولازم يتأدبون!

قال راكان، وهو يفرك يديه:

ـ ظني، طال عمرك، أن وقت السوالف راح، وحتى القهاوي اللي يجتمع فيها التنابل والسريرية واللي ما عندهم إلا نقل الكلام، ما ظل لها أثر. وهالحين يلزم كل واحد منا يشمر عن ساعده ويشتغل!

قال سند، وهو واحد من الأخوة يفضل أن يقضي معظم وقته في البادية، ولا يأتي إلى موران إلا في أوقات متباعدة، قال وهو يبتسم:

ـ لا تضيقوا، يا عباد الله، أكثر من اللازم، على أهل موران، ولا يخدعكم اللي حولكم، واللي ما يسولفون إلا السوالف اللي تعجبكم!

ولأن الكثيرين لا يعرفون سند معرفة دقيقة أو واثقة، فقد بدا لهم الكلام غريباً. قال السلطان ليعيد الجو إلى ما كان عليه:

ـ حنا، الله يسلمك. ما نريد نتعدى على أحد، نريد كل واحد يلزم حده. اللي يقول لنا مرحبا نقول له مرحبتين، واللي يرفع خشمه ويقول يصير وما يصير ما له إلا العصا!

قال راكان بانفعال:

ـ وأنت، يا سند، بعيد، وما تعرف شنهو اللي صار بأيام خزعل.

قاتل مساعد، الأخ الشقيق لراكان:

ـ أشهد بالله أنّا انفضحنا، وما ظل لنا سر مخبّا، والناس ما عندهم سالفة إلا صار وجرى بقصر السلطان، أو بقصر الأمير الفلاني والأمير

الفلاني. والناس، يا سند، مثل ما تعودّهم، أما إذا انتركوا فإنهم يفجمون، يفجرون، وبعدها ما أحد يقدر عليهم!

رد سند بسخرية:

ـ أنتم أدرى بأهل ديرتكم، بس لا تروحوا زايد بليلة العرس، خاف بعدين تندمون!

قال السلطان ليحسم المناقشة:

ـ وأهل البادية غير أهل موران، يا سند.

ولأن التغيير، ثم التمرد، ما زالا قريبي العهد، وقد رافقتهما الإعدامات والسجون، فقد تحسب الكثيرون، فخيم صمت ثقيل على موران، وتراجعت الإشاعات التي تروى في المضافات، إذ انتقلت إلى البيوت، وأصبحت تروى همساً أو في الليل. فبدا كل شيء قوياً مستقراً، خاصة بعد أن غادر شمران موران إلى الزرنوق، وامتلأت مقهى زيدان بالمخبرين. أما بعد أن عاد العجرمي، وبدأ عمير ينتقل من مضافة إلى أخرى، وتنتقل معه القصص والشتائم، فقد قال شداد لعبدالله البخيت، وبدا واثقاً:

ـ أتذكر زين، يا أبو بادي، الكلمة التي قلتها لي قبل شهور: علة العلم النسيان، وعلة اللي يحكمون موران أنهم ما يتعلمون إلا من كيسهم... تذكر؟

ـ شلون ما أذكر يا أبو غانم.

ـ وهالحين تحققت بنفسي!

ـ هات، سولف، يا أبو غانم.

ـ حتى ابن أخوي، حماد، الله عماه، صار أثول...

وضحك بسخرية، ثم أضاف:

ـ قبل أيام سألته: شلون الدنيا يا حماد؟ رد عليّ: الدنيا بألف بخير، الناس ساكتة، وكل واحد ما عنده شغل ألا يركّض ليل ونهار، حتى يؤمن خبزته، وهذا اللي نريده. قلت له: لا تدوسوا على ذيل الناس أكثر مما

يتحملون، ولا تظنوا أن السكوت رضا، لأن الديرة اللي أنتم فيها اسمها موران، ويلزم الواحد يعرفها زين، وإلا أخذته ريحها!

ـ وشنهو كان رده، يا أبو غانم؟

ـ قال: ما عليك يا عم، فنر غير خزعل، والمال يركّع أكبر جمل ويهدّ أكبر جبل!

ـ وأنت، شنهو اللي قلته؟

ـ والله، يا أبو بادي، بلعت لساني وسكت. قلت لروحي مثل ما يقول أهل العراق عن اللي ما أحد يسمعه: لا تتعب روحك يا شداد، لأن كلامك بول بشط، ما أحد يسمع ولا أحد يفهم!

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

ـ وهذي مورن أبد ما ينحزر عليها، يا أبو بادي، تأخذ الواحد غفل، وياما أخذت!

لم يكن هذا رأي شداد وحده، كان رأي الكثيرين. فموران، هذه المدينة الخادعة، تعرف كيف تلتقط الإشارات، وكيف تتحرى الوقائع. تقرأ الكراهية في العيون، قبل أن تسمعها كلمات أو قرقعة رصاص. تميز المشاعر والمواقف، فلا تقوى الابتسامات أو الكلمات الكبيرة على تغيير قناعتها. حتى الصمت الذي خيم على القصور، وقد نقلت قصص كثيرة عن الإعدامات التي حصلت داخل سجون هذه القصور، لم يخدع أحداً.

عمير وهو في مضافة ابن الشهيري، صدف أن كان أحد رجال حماد، فهمس ابنه عطا في أذنه، لكي ينبهه، فقال وهو يقهقه:

ـ عدلت فأمنت فنمت يا عمر، أما هالجين، فأولاد أبو جهل يدربسون بيبانهم، ويرفعون حيطانهم، ويملون الدنيا بعيونهم، وما يقدرون ينامون، فخلنا نشوف شنهو اللي يقدرون عليه باكر أو اللي عقبه.

قال عثمان الشهيري ليغير الموضوع:

ـ الواحد بهذي الأيام ما عاد يأمن أو يثق. . .

وحين تابعته العيون، أضاف:

ـ قبل شهر، شهرين، اشتريت هذه الساعة، اشتريتها من رضائي. ما مرّ أسبوع حتى انكسر الزنبرك. قلنا ما يخالف، دفعنا كثر حقها وصلحناها. ويوم تقدّم والثاني تؤخر، إلى أن توقفت تماماً. وما يدري الواحد يصلّحها نوبة ثانية، أو يشتري غيرها؟

ولكي لا يترك مجالاً لعمير لمعاودة شتائمه، سأل:

ـ كم الساعة، يا عثمان؟

ولما كان عثمان الدباسي يثير من المتعة والقهقهة الكثير، حين يستخرج ساعته، من كيسها الجلدي، ثم من غلافها المخملي، وبعد ذلك يفتحها وينظر إليها ملياً، وهو يردد: الساعة، يا عم الساعة، الساعة، يا عم الساعة، إلى أن ترتفع الأصوات، فيقرر أن يعلن الميقات، لكنه غالباً ما يخطئ، وبفرق كبير. وهكذا يتحول النقاش إلى مساومة عثمان الدباسي على تلك الساعة، أو على الأقل النظر إليها، وتلمسها، مما يضفي على الجو مرحاً لا يقاوم. عند ذاك يقرر الشيخ عمير أن ينهض، ويغادر، لكنه لا ينسى أن يقول، وهو يدق الأرض بعصاه:

ـ كما تكونون يولى عليكم، يا أهل موران!

وبدا، من بعيد، وكأن موران تعبت وتريد أن تستريح؛ لكن العيون لا تتعب من المراقبة، والعيون، حين تريد، تعرف كيف تنظر، وإلى أين. أما الآذان فكانت متوجهة نحو الريح.

فقبل أن تبدأ شتائم الأمراء، وقبل أن تصل السيارات التي طُلب من رضائي استيرادها بشكل عاجل، أصبح يُسمع في موران، همساً، ثم بصوت أعلى، أن الخلافات بين الأخوة وصلت إلى درجة يمكن أن تهدد كل شيء. تم تقدير ذلك دون أن ينقله الخدم والنسوة، لأن الخدم خافوا، ولأن النسوة في هذه الفترة، وعلى غير العادة، انصرفن إلى أمور لم يفكرن بها من قبل، انصرفن إلى الميراث، وإلى ترتيب أمور المستقبل. لذلك انتشرت أخبار خصومات من نوع جديد، لم تكن مألوفة في القصور: أخبار السرقات. كانت أشياء كثيرة تختفي، لا يُعرف من حملها أو متى. يكون الجناح مليئاً بالأشياء والبشر، وما يكاد الأمير أو الأميرة يغادر، وقبل

أن يمضي أسبوع، وبحجة نقل محتويات الجناح إلى مكان آخر، إلى قصر جديد، حتى تأتي سيارات وتنقل كل شيء، ثم يتبين، بعد يوم أو اثنين، بعد أسبوع أو اثنين، أن محتويات القصر اختفت.

لقد حصل هذا الشيء عدة مرات. ثم أصبحت السرقات تأخذ أشكالاً أكثر براعة واتقاناً. إذ يأتي الحمالون ويطلبون حاجات معينة، أثاثاً يسمونه ويصفونه، بحجة استبداله أو إصلاحه، ثم لا يعود أبداً!

كانت الأواني الذهبية أو الفضية أكثر الأشياء التي تُسرق، في البداية. وبعد ذلك أصبح السجاد والأثاث الخشبي، وفي فترة متأخرة، لم يعد شيء إلا وأصبح قابلاً للسرقة!

قال حماد، حين سئل عن سرقات قصر الروض، ثم قصر الغدير:

ـ يا جماعة الخير لا تسموها سرقة، هذي أخذ وعطا، ومن يومه، القصر، مال داشر. الواحد يأخذ اللي يريده، اللي يقدر عليه، واللي ما يريده يرده للمستودع. وإذا ما تصدقون افتحوا المستودع وناظروا، كأنه مقبرة.

وحين تزايدت التأكيدات أن ما يجري أكثر من أخذ وعطاء، وفي محاولة للتبرير، رد بنزق:

ـ بعدما انهجر قصر الروض، وبعده قصر الغدير، وانتقلت الحراسة إلى القصور الجديدة، ما أحد يدري شنهو اللي دخل وشنهو اللي خرج.

وبعد قليل:

ـ عندما كان طويل العمر بالقصر، وكنا مسؤولين عن الحراسة، كان الطير الطاير ما يدخل أو يخرج إلا بأمرنا، بمعرفتنا، أما هالحين. . .

قال عبدالله البخيت، لما سمع أن خمسة قطعت أيديهم، بعد أن «ثبتت» عليهم السرقة:

ـ الله يذكرك بالخير يا شمران. . .

وبعد قليل وبحزن:

ـ قبل سنين، بأيام سوق الحلال، وكان يوم جمعة، بعد الصلاة،

ورادوا يقصون يد واحد فقير، لأنه سرق حمار، كان ينوي يحمّل عليه ماء ويبيعه للبدو، قال شمران، لا بالله، كان يصرخ: «حرام عليكم يا أولاد الحلال». أما بعد ما انقصت اليد، فما ظل أحد إلا سمعه يقول: لا إله إلا الله، سارق السر يقطعه سارق العلانية!

وزفر، وهو يقوم:

- بهذي الأيام ما أحد يدري من يسرق من!

أبو جازي، طالع العريفان، الذي اختفى خلال الأيام الأخيرة من حكم السلطان خريبط عاد، لقد تقدم به العمر كثيراً، قال، حين سمع بأخبار السرقات في القصور:

- ترى إذا الواحد بدا يسرق نفسه، فاعرفوا أن الدنيا مصبحة مسيّة!

قالت نعوّم التي سُرق منها الكحل، ولا تعرف كيف سرق:

- إذا صاروا يسرقون حتى الكحل، فالله يستر ما يسرقون المرية من حضن رجلها!

وبعد قليل، وكانت تحدّث نفسها:

- ترى السرقة ما هي حاجة، هي عادة، والعادة سوسة، والسوسة ما يطيب منها الواحد إلا بالموت.

مالك الفريح الذي فرح كثيراً بتنزيل المخصصات، وبالقوائم الزرقاء لا الخضراء، واحتمل التهديدات، والشتائم، وأخذ يتصرف بحيطة وحذر، سواء في استقبال وكلاء القائمة الزرقاء، أو في التعامل معهم، بدأت تختلط عليه الأمور، خاصة بعد أن زادت المصاريف بشكل لم يتوقعه.

فرضائي، الذي بدا له في فترة سابقة إنساناً معقولاً، ربما لخصومته مع صبحي المحملجي، وقامت بينه وبين مالك معرفة، تحولت بمرور الأيام إلى صداقة، أصبح لا يفارق وزارة المالية، لاستيفاء ما يستحق له ثمناً للسيارات التي أخذت تتدفق على موران. ورضائي، رغم الود والمظاهر الناعمة، يعرف كيف ينتزع، وبوسائل لا حدود لها، الأموال. ولأن الأمور تجاوزت الحدود، بدأت عداوة صامتة بين الرجلين، من خلال امتناع مالك الفريح عن تخصيص المبالغ، بحجة عدم وجودها، ومن خلال ضغوط

رضائي المتنوعة، والتي لا تتوقف، وقد وصلت في إحدى المراحل إلى التحريض على «ابعاد وزير المالية لأنه يعيق تنفيذ سياسة السلطان، وربما لا تزال له علاقة بالسلطان المخلوع!».

لم تقتصر علاقة رضائي على الأمير راكان ومساعد ورضوان، إذ امتدت إلى موظفي الوزارة. ومن خلال هؤلاء أصبح على بينة، وادرى الناس بالمبالغ التي دخلت للخزينة، والمبالغ التي صرفت. فإذا احتج مالك بعدم وجود المال، كانت تصفعه الأرقام!

قال مالك الفريح لحماد بعد مشادة بينه وبين رضائي لتأخره في صرف بعض القوائم:

ـ أريدك، يا أبو راشد، تنوب عني، وتبلغ طويل العمر رسالة، لأني ما أقدر أنقلها بنفسي.

ـ سم يا أبو صفوق.

ـ أريد استعفي من هذي الشغلة، واريد أشور على طويل العمر من هو اللي يلزم يجي بمكاني.

قهقه حماد، في محاولة لامتصاص الغضب، ولأنه يعرف، من خلال التقارير التي تصله، اضعاف ما يعرف مالك الفريح، خاصة عن رضائي، وبعد أن هدأ، رد مازحاً:

ـ والله لو سألني طويل العمر عن وزير للمالية غيرك، لقلت له: مالك يا طويل العمر إلا مالك!

ـ مالك زعّل الناس كلهم، يا حماد، وهالحين ما يرضى الناس إلا برضائي!

لم يكن رضائي الهمّ الوحيد لمالك الفريح، فالقوائم التي بذل جهداً لحفظها، بدأت تتغير يوماً بعد آخر، وذاكرته، التي كانت يفاخر بها، لم تعد تحتمل التغيرات التي تقع كل يوم، ومع كل دفعة سيارات جديدة. قال لسكرتيره ساخراً:

ـ . . . وأريد منك يا وليدي تنقل فراشك لبوابة قصر السعد، وبكل صباح، وقبل ما تصبّح عليّ، تعطيني اللوايح الجديدة، لأن الصرف بدون

أمر، ولغير مستحق، يغرّم الصارف المصروف، ويحبسه ويلعن والديه!

وبعد قليل وهو يتبسم بحزن:

ـ لو طويل العمر اعتمد الأصفر بدل الأزرق كان ارتاح وريّح غيره!

قال السلطان ليونس شاهين:

ـ هذا الخزندعي، اللي يسمونه مطيع شخاشيرو، ما عنده سالفة إلا يمسد شواربه، وإذا كتب يكتب عن سباق الخيل وعن الطريق الفلاني أو العزيمة الفلانية!

وتغيرت لهجته:

ـ هذي السوالف ما تفيدنا يا يونس؛ صحيح أنها ترضي فلان أو فلان، لكنها ما تنشال من أرضها. أريد جرايدنا، والجرايد اللي معنا، هنا وهنا، ترّج الدنيا، تغير الناس، وأريدها تخلي موران على كل شفة ولسان، وإذا هذا ما صار ترى فلوسنا راحت بالتراب.

رد يونس بتشفٍ:

ـ لم أكن أريد، يا صاحب الجلالة، أن أتدخل مباشرة بالأمر، فقد ظننت أن هذه تعليمات جلالتكم، لاسترضاء بعض الأمراء، وتوجيه اهتمامات الناس. . .

ابتسم وهز رأسه، ثم تابع:

ـ مع العلم، يا صاحب الجلالة، إني لم أكن راضياً عن هذه الصحافة، وكنت أريدها أن تهتم بالأمور الكبيرة التي أشرت إليها.

وبعد قليل:

ـ وأما وأن تعليمات جلالتكم هكذا، وإذا فوضتموني، فلا بد أن نغير كل شيء، وأن نجعل الصحافة تأخذ منحى آخر.

قال السلطان بهمس:

ـ أنت مفوض، يا يونس، بس أريد هذا الشي يصير على مهل، يوم بعد يوم. وأريدك تترك هذا الخزندعي بمكان زين، لأنّا بحاجة له، نريده يظل مخرز بجنب الحكيم.

قال يونس شاهين مازحاً:

ـ المهم بالنسبة له، طال عمرك، صورته ويده على خده، وصفحة لغو، وغير شيء ما له علاقة!

ابتسم السلطان، فتشجع يونس:

ـ وأنا، طال عمرك، ما غفلت عن الموضوع، سألت الجماعة الذين يشتغلون معه، وأخذت فكرة كاملة، وإنشاء الله ما يمضي شهر والثاني إلا وتكون الأمور كما تريدون!

قال السلطان بنجوى:

ـ الدنيا حولنا، يا يونس، تغلي، والناس ذبحهم الحسد، وموران ما هي بعيدة، فيلزم نتغدى أعداءنا قبل ما يتعشون بينا.

ـ الحق ما نطقت به يا صاحب الجلالة.

ابتسم السلطان وأضاف ساخراً:

ـ الحق، حتى يصير حق، يا يونس، ينراد له سيف قوي ورجل سخي ولسان ما هو عيي!

هتف يونس بإنفعال:

ـ هذه الكلمات القليلة، يا صاحب لجلالة، تمثل شعارات السلطنة وعناصر قوتها، ولا بد أن تكون مبادئ موجهة!

وبعد قليل وكأنه يحدث نفسه:

ـ هذه القضية بالذات، كانت، يا صاحب الجلالة، موضوع الخلاف بيني وبين هاملتون. كنت أقول له: أن البداوة تحمل من القوة والأصالة والبداهة، ما لا تحمله أية بيئة أخرى، وأن البدو، رغم بساطتهم، فقد وصلوا إلى الحقيقة ـ الجوهر، وكان رأيه، كما تتذكر، يا صاحب الجلالة، أن البداوة أصبحت ماضياً، ولا يمكن أن تستعاد. وأن موران، إذا أرادت أن تكون شيئاً في عالم اليوم، فما عليها إلا أن تغادر بداوتها، أن تخلفها وراء ظهرها، وبسرعة، من أجل أن تلحق بركب العصر.

رد السلطان بحزن:

ـ الله يرحمك يا هاملتون!

وبعد قليل:

ـ من علمني حرفاً كنت له عبداً.

وتغيرت النبرة تماماً:

ـ كنت أتمنى لو أن هاملتون بينا بهدي الأيام، لو كان معنا، لو كان حي، لفادنا وشار علينا، لكن الأعمار بيد الله!

خيمت فترة صمت. لم يشأ يونس أن يعلق، ولم ينس السلطان الموضوع، تابع:

ـ والناس، هنا، يا يونس، مثل العجينة، شلون ما تريد تسويهم يصيرون، بس ينراد تخوفهم وتشيّمهم، فإذا خافوا ناموا نومة الحية، وإذا تشيّموا صاروا نار الله الكبرى!

قال يونس بفخامة:

ـ البدو أصل العرب، فإذا ذل البدو ذل العرب، وإذا ذل العرب ذل الإسلام.

قال السلطان بفخامة مماثلة:

ـ موران أصل البدو، وحنا أصل العرب، والإسلام بليانا ما هو بشيء.

قال يونس:

ـ صدقت، يا صاحب الجلالة!

مـن يصل إلى موران، عن طريق مدخلها الجنوبي، وقبل وادي الرها ببضعة كيلومترات، يفاجأ بهذا العدد الهائل من السيارات التي تراكمت بالمئات فوق بعضها. أنها واحدة من عدة «مقابر» حول المدينة، نشأت، أول الأمر، بالصدفة، ثم بمرور الوقت أصبحت مقابر رسمية يلقي فيها الجميع، بمن فيهم الدولة، السيارات القديمة، أو التي تعرضت للحوادث، وتلك التي تخلى عنها أصحابها لسبب من الأسباب. وإذا كانت تلك السيارات قد أثارت اهتمام بدو القرعة، في البداية، لأن منازلهم ومراعيهم كانت بالجوار، ولم يبق أحد من هؤلاء، كباراً وصغاراً، إلا وتفقد، بحرص وعناية، تلك السيارات، لعلها تكون مفيدة، أو أجزاء منها، لشيء ما، فلم يتردد الكثيرون من نزع المقاعد والمرايا، ثم أجزاء أخرى أيضاً. لقد فعلوا ذلك بشكل سريع، أول الأمر، ودون اتقان، إلا أنهم في وقت لاحق، وبعد أن بدأت السيارات بالتراكم، أخذوا ينتقون الأجزاء التي ينتزعونها بعناية أكبر، إلى أن كفوا عن ذلك، لأنهم لم يعودوا بحاجة إليها، ولأنها لم تعد مغرية، ولا تستحق الجهد.

شباب القرعة، مثل غيرهم من شباب موران، أبدوا اهتماماً مبكراً بالسيارات عموماً، ثم بهذه السيارات التي أخذت تتراكم حولهم وتشاوروا فيما بينهم، ثم مع الآخرين، حول إمكانية إصلاحها والاستفادة منها، لكنهم لم يستمروا، بل وتوقفوا دون تردد، حين ذكرت أمامهم الأرقام الكبيرة مقابل إعادة الحياة لها!

الوحيدون الذين لم يفتر حماسهم، ولم يتخلوا عن هذه السيارات هم الأطفال. كانوا، أو أكثرهم على الأقل، يقضون سحابة نهاراتهم

في «أم الطراقيع»، كما أصبح يطلق على مقبرة السيارات.

اخترع الأطفال عشرات الألعاب، إذ بالإضافة إلى تظاهرهم أنهم يسوقون تلك السيارات، وهم ثابتون وراء المقاود، فإن الكثيرين أعطوا أفضليات للسيارات التي يملكونها، إما بسبب أحجامها، أو بسبب الألوان، وفي وقت لاحق لأنها تعود إلى أمراء عرفوا أسماءهم. كما أنهم باعوا واشتروا، أو تبادلوا على أعداد لا حصر لها منها، وتساوموا طويلاً، كما يفعل الكبار، وهم يبيعون ويشترون!

حين زهق الأطفال من هذه الألعاب أخذوا يمثّلون بالسيارات، وبالغوا كثيراً: اخرجوا الأحشاء ومزقوا المقاعد وانتزعوا الدواليب، ونبشوا كل جزء منها، وصدف، عدة مرات، أن وجدوا داخل بعض هذه السيارات أشياء ثمينة، مما حفز الرجال لإعادة النظر والبحث من جديد، ثم حفزهم لأن يضعوا قواعد صارمة، بحيث يحرم الصغار من الاقتراب أو اللعب بالسيارات الواصلة حديثاً، وإلى أن يفرغ الكبار من الكشف عليها وفحصها والتأكد من خلوها من الأشياء الثمينة أو النافعة!

قال تركي الدوّاس، وهو أكبر بدو القرعة ملكية للإبل والمواشي، وكان يستعين بالصغار للرعي.

ـ هالمصايب الواحد ما يخلص منها لا بحياتها ولا بمماتها!

قال ذلك وهو يشير إلى ركام السيارات، ثم أضاف:

ـ بحياتها هجّجت البل، وقطعت أنفاسها، وأخذت كل أحمالها، وبمماتها أخذت الرعيان وطمّستهم ببطنها وانهبلوا بيها، وما ندري شنهو اللي راح تسويه بعد!

أما المهندس الإرلندي الذي جاء مع غزوان وروبرت يونغ، من أجل دراسة بناء عشرة جسور على الأودية بين موران والعوالي، وبعد أن شهد هذا العدد الهائل من السيارات المتراكمة في المدخل الغربي لموران، فقد قال ساخراً:

ـ سوف يعيش ناس هذه الأرض في النعيم الكامل، لأن لديهم كل ما

يريدون: نعمة النفط الآن، ونعمة الحديد في المستقبل. أما إذا غادروا هذه الدنيا فإن نعمة الجنة بانتظارهم!

قال هذه الكلمات وهو ينظر إلى تلال السيارات، وبعد قليل، وبجدية مصطنعة:

ـ في المستقبل، وبعد أن تنتهي مناجم الحديد من الأماكن الموجودة فيها الآن، وبعد أن ينتهي نفط هذه الأرض، سوف تجد الأجيال القادمة أن معظم حديد العالم انتقل إلى هنا، ولن تلقى مشقة كبيرة في البحث عنه، لأنه سيكون قريباً جداً من سطح الأرض!

العجرمي الذي طُلب منه أن يصلي على خمسة أو ستة من الأمراء الذين راحوا ضحايا بحوادث السيارات، قال لعبدالله البخيت:

ـ صحيح إني صليت عليهم وطلبت لهم الرحمة، لأن على الميت ما تجوز إلا الرحمة، لكن سمعت سوالف ما تسر القلب، يا عبدالله.

ـ خير يا أبو مشعل، شنهو اللي سمعته؟

ـ يقولون، يا أبو بادي، أن اثنين أو ثلاثة من أولاد خزعل انذبحوا بالسيارات وهم سكارى. ويقولون إن اللي ماتوا ماتوا وهم يتناطحون بهذي البلاوي. ويقولون إن السيارات مخرّبة، وبعضها ما له رسن يوقفها.. ويقولون ويقولون يا عبدالله، وما يندري الصحيح من الكذب!

قال عبدالله البخيت:

ـ أكثر الناس بالسوق، يا أبو مشعل، يقولون إن طويل العمر هو اللي دفّر أولاد خزعل.

ـ شلون يا ابن الحلال؟

ـ عطاهم سيارات تسابق الريح، وقال: «تسابقوا، وخلنا نشوف من يسبق» وقا لابن المطوع لا تتدخل: إذا تسابقوا، إذا تناطحوا. واتركوهم بدماهم إذا صارى شي!

ـ ما هو معقول يا ابن الحلال.

ـ هذي سوالف السوق يا أبو مشعل، ولو تشوف عينك تلال السيارات

عند وادي الرها أو بطريق العوالي: تلال لها أول ما لها تالي، وكلها راحت «بالحروب» و «المناورات»!

ـ كانت أيامنا، من قبل، أحسن، يا عبدالله.

قال عبدالله البخيت بعد فترة صمت:

ـ كل اللي صار من قبل، يا أبو مشعل، بكفة، واللي صار مع شداد المطوع، هالحين بكفة ثانية.

ـ شنهو اللي صار معه يا ابن الحلال؟

ـ يقولون إن حصانه، الأكحل، وهذا عنده أغلى من أولاده، ضربته سيارة من القصر، وما انعرف سيارة من، والحصان مخوطر، بين الحياة والموت، وقالوا إنهم دزوا على طبيب من مصر حتى يداويه.

ـ أي وبعد؟

ـ إلى هالحين ما يندري، بس يقولون: شداد ما خلى كبيرة أو صغيرة، إلا وقالها على القصر وأهل القصر، وهدد أنه إذا الأكحل ما رجع مثل قبل ما يرضى بأقل من راس الكبير!

ـ والله، يا عبدالله، ما سمعت بهذا أبد...

وبعد قليل:

ـ متى صار هذا الشيء؟

ـ قبل أول أمس، يا شيخنا.

ـ وأنت ما شفت شداد ما سألت عنه؟

ـ هو عند حصانه، بالحصيبة، يا أبو مشعل، ومعلومك أنه بأرض الحصيبة، جماعة القصر سووا مضمار ويتسابقون بالسيارات هناك.

ـ والله، يا عبدالله، ما أدري، ولا أحد قال لي.

ـ تجيك العلوم يا شيخنا!

قال ابن العليان لمالك الفريح، وكأنه يتذكر:

ـ بأيامنا، يا مالك، ما تنشري السيارة، إلا بطلعان الروح. ينشف ريقه الواحد من أولاد طويل العمر، ونقول له: السنة اللي حنا بها لا بالله،

والسنة اللي تجي نشوف، وبعدها إذا هو ما نسي حنا ننسى! وراح يوم وجا الثاني، وصارت السيارات تدردب على موران مثل المطر. بيوم من هذي الأيام ينشرى سيارات ما كانت تنشرى بسنين، فشنهو اللي دهاكم، وليش تمردون الفلون مرد؟

رد مالك بحزن:

ـ والله، يا شيخنا، كل سيارة تدوس أرض موران كأنها دايسة بقلبي، لكن ما نقدر نسوي شي، لأنها أوامر طويل العمر!

ـ هذي ما هي أوامر طويل العمر، هذي أوامر غيره يا مالك.

وزفر بحرقة، ثم أضاف:

ـ هذي، يا مالك، أوامر رضائي، واللي وراه، لأنهم على كل سيارة تصل موران يأخذون باج كثر حقها وازود.

وبعد قليل، وبلهجة مختلفة:

ـ وأنا، يا مالك، درت الدنيا واعرف الأسعار، اعرف هذي الحاجة بهالكثر وهذي بهالكثر، أما إذا وصلت إلى موران، فالله أكبر، يتضاعف سعرها نوبتين أو ثلاث نوبات، وهذي الزيادة تروح للمسعدين، لرضائي وشركاء رضائي!

وعاد إلى اللهجة الأولى:

ـ وهذا ابد ما يصير، ويلزم تمنعه.

ـ ظني، يا شيخنا، أن طويل العمر يسمع منك، وأنت تمون عليه، ومن كل بد ولازم تشوفه وتقول له: هذا حرام، هذا كفر، لأن كل فلوسنا راحت بهذي الطراقيع.

رد عثمان العليان بلهجة متآمرة:

ـ ما يفيد يا مالك، لأن طويل العمر بعدما شرى أولاد خزعل بالفلوس والسيارات، يريد هالحين يشري غيرهم، ويريد من كل واحد بموران وغير موران أن يبيع اللي فوقه واللي حدره ويشري سيارة وثنتين وثلاث، ويخلي كل واحد يبدّل سياراته نوبة أو نوبتين بالسنة.

ـ والراي يا شيخنا؟

قال عثمان ساخراً:

ـ خلنا نصفن يا مالك، وعسى أن الله يفتح علينا!

ولم يتأخر ابن العليان في الوصول إلى النتائج التي يريدها: فقد حصل على عدة وكالات لسيارات المانية وسويدية، ثم في فترة لاحقة على وكالات لسيارات يابانية. ابن الفريح الذي بدأ يسمع من الكثيرين عن هذه الوكالات، ثم أخذت السيارات الألمانية بالوصول، ولم يصدق أول الأمر، ثم استغرب، فقد سأل ابن العليان ساخراً حين التقى به:

ـ أتذكر، يا شيخنا، أنك قلت لي: حرام تروح فلوسنا بالسيارات، أشوفك اليوم تتاجر بالسيارات؟

رد عثمان العليان هامساً:

ـ أنت تعرف، يا أبو صفوق: ما يفل الحديد إلا الحديد. . .

وبعد أن التفت لأكثر من جهة، مع أنهما كانا وحيدين، أضاف:

ـ هالابن الحرام، رضائي، ما يفهم ولا يتعلم إلا إذا انكسر راسه. قلت لروحي: يلزم اخرب عليه السوق، الحبة اللي يبيعها بواحد أبيعها بنص، وإذا ديّن شهر ادين لسنة. وبهذه الطريقة يخسر وينلعن والد والديه!

ـ ونخلص من السيارات، وتظل فلوسنا معنا؟

قالها مالك الفريح بسخرية، فاقترب منه عثمان العليان، شد على يده وهمس:

ـ البَل راحت أيامها، يا أبو صفوق، وهالحين السيارة لا غنى عنها، بس السيارة الزينة، الرخيصة، غير عن سيارات رضائي.

ـ وإذا رضائي رخّص سياراته؟

ـ نرخّص سياراتنا أكثر!

ـ وتروح فلوسنا كلها على السيارات؟ وتمتلي موران بالطراقيع؟

ـ رضائي حتى يرضي اللي معه ما يقدر يحمل الخساير، ولا بد ينسحب.

- وتظل وحدك يا أبو عزّيز؟
- اللي يحمل ويصبر هو اللي يبقى يا أبو صفوق!
- وتحمل الخسارة يا أبو عزّيز؟ وإلى متى؟
- خلناهالحين نلعن والديه لرضائي، وبعدها الله كريم!

وقبل أن يُعفى مالك الفريح من وزارة المالية بشهر، حصل كمال المحملجي على وكالة سيارات لعدة شركات أميركية، وبدأت السيارات تصل مباشرة إلى موران، وليس عن طريق بيروت.

قال مالك الفريح لسكرتيره:

- وتكتب بالدفتر يا وليدي: كان عمي مالك يقول: يا أولاد الحلال المُلك لمالك الملك، وحنا بهدي الدنيا نعبر عبور، نعيش اليوم ونموت ثاني يوم، فإذا الله أغنانا وتفضل بنعمته علينا فيلزم نشكره ونبوس أيدينا بطن وظهر، ونقول: ربنا لك الحمد والشكر.

وضحك بسخرية، ثم أضاف بلهجة أكثر جدية:

- وتكتب، يا وليدي، أنه حرام الواحد يفسق ويفجر، أو ينكر نعمة ربه، وحرام أن الواحد يمرد النعمة ويدوس عليها، لأن الله عز وجل، مثل ما أعطى النعمة يمنعها...

تنحنح واكمل:

- وهذا اللي تشوفه عيونّا هالحين كله فسق وفجور وقلة دين، وما يرضى به لا الله ولا رسوله، وأن الله يمهل ولا يهمل.

وبعد قليل:

- اي يا وليدي... شنهو آخر ما كتبت؟
- وأن الله يهمل ولا يمهل...

واستدرك بسرعة:

- وأن الله يمهل ولا يهمل...
- ونكتب يا وليدي: اللهم إني بلغت!
- وبعد أن كتب السكرتير العبارة الأخيرة سأل:

ـ وهذه الرسالة لمن نبعثها؟

ـ ها؟ شنهو اللي قلته؟

ومن جديد سأل السكرتير بارتباك:

ـ الرسالة . . .

قال مالك الفريح بمرارة:

ـ عطني كاس ماء يا وليدي، لأنه يلزم انقعها قبل ما . . .

كتب روبرت يونغ في يومياته: «. . . ليس عبثاً وجود المحاكم، انها ضرورية لكي تحلّ الخلافات بين البشر، وليس أكثر من الخلافات في الأمور المالية. هذا ما افترضته حين علّقت علاقاتي مع الشركة العالمية. كنت أتصور، في أسوأ الحالات، أن نلتقي في إحدى محاكم نيويورك. لكن كنت أفترض، أيضاً، أن تنتهي العلاقة بطبيعتها، حين لا تكون بيننا أعمال مشتركة. ومن جملة المزايا التي يتمتع بها رجال الأعمال، وربما غريزياً، أو نتيجة الخبرة الطويلة، أن يتركوا جزءاً مهماً من الأمور معلقاً أو حتى مهملاً أو منسياً، إذ ربما يأتي دوره أو أهميته لاحقاً.

«لا أريد هنا أن أحلل أو أفسر العلاقة التي نشأت بيني وبين الشركة العالمية، لكن أشكر القدر لأني لم أتصرف بتسرع أو حماقة.

«المهمة التي جئنا من أجلها: بناء عشرة جسور. وهذه المهمة بحد ذاتها معقولة ومربحة، لكن ما حصل أنّا تعرفنا على عدد من الأمراء؛ ووقعنا على عقدين إضافيين، الأول: لبناء مستودعات للجيش في المنطقة الشمالية؛ والثاني لتوريد ألبسة عسكرية لقوات الحدود وحرس السلطان.

«وإذا استطعنا أن نحصل على وكالة لتوريد السيارات الأميركية مباشرة، فسوف يكون هذا مهماً للغاية. لا أريد أن أستبعد الأمور، لأن منطقة الشرق الأوسط، في عرف العديد من الشركات الأميركية، منطقة واحدة، وربما يكون أحد غيرنا حصل عليها. إذا استطعنا أن نتوصل إلى صيغة لتوريد السيارات إلى موران، فأعتبر أن القدر يحارب معنا مباشرة، وليس مؤيداً لنا فقط!».

«الأمراء مفاتيح كل عمل في هذه المنطقة. أنهم وحدهم القادرون على فتح جميع الأبواب، ويمكن من خلالهم الوصول إلى أي شيء. غزوان كان بارعاً إلى أقصى حد، ولا بد أن أعترف له بهذه البراعة. إذ بالإضافة إلى الثقة والمعرفة، فإنه يعرف كيف يعرض أصعب الأمور بأكثر الوسائل إغراءً وإقناعاً».

«موران الأرض العذراء. أنا أقف على هذه الأرض. المستقبل يحمل الكثير من البشائر. لا بد أن أتعامل مع غزوان بطريقة أستطيع أن أجعله يعتمد عليّ أكثر فأكثر. ليڤي رجل منطوٍ على نفسه ولا يخلو من أنانية. عكس غزوان الذي يتمتع بأريحية ربما تكون جزءاً من طبيعته».

قال السلطان لحماد، بعد اكتشاف تنظيم داخل الجيش:

ـ لا بالله، حنا بألف خير إذا اعتمدنا عليكم يا حماد. . .

وضحك بسخرية، وتابع:

ـ أنتم متلهين وشاغلين أرواحكم بسوالف القهاوي والنسوان، شنهو اللي قاله فلان، وشنهو اللي قالته فلانة، والماي سارح حد رجلينا وحنا ما ندري.

وضرب الطاولة بغضب:

ـ ميّة مرة قلت لك يا حماد: اترك عمير وسوالف عمير. واترك العجيان وصراخهم وأحلامهم، والتفت للجيش. . .

وزفر بحرقة:

ـ عمير خالي وأنا أدرى الناس به، ما يطلع منه غير السوالف، وأنت مالك شغلة ألاّ تروح وتردّ: قال عمير. سوّى عمير.

وبعد قليل وبلهجة ساخرة:

ـ الأميركان، وبينا وبينهم مسافات ربنا، يعرفون ويدرون أن الحريق وصلنا، وأنتم غافلين؟ ولولا أنهم قالوا لنا احرصوا من فلان وفلان، وإلا صرنا أثر بعد عين، لأن هذول الضباط، اللي حطينا عليهم دم قلوبنا، وسويناهم أوادم، محضّرين روحهم ومتفقين على كل شي: بليلة ما بها ضو قمر، يدّشون علينا، وقبل ما نقول كلمة، حتى أشهد أن لا إله إلا الله، يصلبونّا ويأخذون الأول والتالي، ونصير عبرة لمن يريد يعتبر.

وضرب الطاولة مرة أخرى:

ـ من اليوم، يا حماد، وهذه آخر مرة أقولها، الجيش هو الأول والأخير. . .

وتغيرت اللهجة، أصبحت أبوية:

ـ على كل ضابط تكلّف ما هو بس واحد، من جماعتك، تكلف اثنين، وليل ونهار، وأريدك تعرف كل شي.

صمت قليلاً وهز رأسه، ثم أضاف:

ـ توصي كل واحد من جماعتك يا حماد، يلزمه يترك كل شي ويلتفت للجيش، خاصة الضباط، لأن هذول بيدهم السلاح، وهم المسؤولين عن حمايتنا وحماية الدولة، فإذا غفلنا عنهم، أو طمعوا، تراهم يقدرون يسوّن كل شي.

بدا حماد محرجاً ومرتبكاً، كان يهز رأسه موافقاً ومؤيداً، خاصة بعد أن استمع إلى اعترافات عدد من الضباط الذين قبض عليهم، وكانت الاعترافات تشير إلى وجود علاقة فيما بينهم.

أما السلطان الذي أفرغ غضبه، ثم حاول أن يوجه إلى ما يجب أن يُعمل، فقد أنهى حديثه مع حماد بكلمات ظلت غامضة:

ـ وعليك من اليوم يا حماد تعرف رجالك زين. سمعتني؟

ومثلما أفرغ السلطان غضبه بحماد، فعل حماد بمساعديه.

ـ ما لكم شغل ألا تخّمون، من عزيمة للثانية، غدا وعشا، وكأن ما لكم بيوت، ولا أكلتم فيها، وبدل ما تسمعون شنهو اللي ينقال هنا وهنا، وتعرفون شنهو اللي صاير بهذا المكان وبذاك المكان، الناس يسمعون منكم، ويقولون: قال جماعة السلطان، وسوّى جماعة السلطان. . .

وضرب الطاولة ثم تابع:

ـ أصحاب الشرايط والنجوم لعبوكم، عرفوا منكم الصغّيرة والكبيرة، يشيمونكم ويجرون منكم كل اللي يريدونه. وهذا ما هو قال عن قيل، أنا سمعته منهم. قالوا: عرفنا من خلال فلان وفلان وين يبات طويل العمر،

وعلى من يعتمد، ونقاط الحراسة، ومواعيد تبديل الحرس، وكل شي، كل شي. . .

وضرب الطاولة بغضب أشد، وهو يقف:

ـ والله أكثر جماعتكم ما يسوون الأكل اللي ياكلونه: تنابل وسرسرية، ويَنْشرون بنواة أو ببوسة لحية. . . وكل ساعة وكل يوم يجون يهفّون: بالسوق يقولون. بالسوق يسولفون. وكلها سوالف جايفة، ما تنشري بنواة، وما تسوي بعرة، وأنتم، نعم أنتم، بدل ما تلعنون والديهم، تنقشون التقارير وترفعونها: للاطلاع.

وتغيرت لهجته:

ـ وحنا، يا عباد الله، بروسنا ألف شغلة. الواحد منا سها حتى عن صلاته، فاعتمدنا عليكم، لكن الظاهر أن ثقتنا ما هي بمكانها، ولولا أنّا انتبهنا، أنا وطويل العمر، وبالوقت اللازم، وإلا الواحد منكم تعلّق على نخلة، وسووا به اللي ما يتسوى!

وعاد إلى لهجة الغضب:

ـ اتركونا من سوالف السوق والعجيان، ما أريد أسمعها بعد اليوم. فتّحوا عيونكم زين زين على الضباط. كل ضابط. كل ضابط بدل العين الواحدة عليه، تصير ثنتين، وأريد أعرف كل شي.

قال مرخان الحمد:

ـ فرعنا رفع لكم، الله يسلمك، قبل سفري لأميركا، تقرير عن الجيش. والتقرير يتضمن كل المعلومات عن الجماعة المقبوض عليهم، فرجع التقرير، مع كلمة واحدة: نُظر.

ارتبك حماد للحظة. تطلع إلى الخلف وتطلع إلى الباب، وسأل:

ـ ومن هو اللي كتب عليه: نظر؟

ـ يجوز، طال عمرك، واحد من مكتبكم، لكن التوقيع توقيعكم!

ومن جديد ضرب حماد الطاولة، وخرج صوته حاداً:

ـ إذا تدزّون تقرير الجيش مع تقرير قهوة زيدان، مع تقارير مخالفات

السوق، فيلزمنا منجم مغربي حتى يقول لنا أقروا هذا التقرير، ولا تقروا هذا التقرير.

واحتد غضباً، إذ ترك طاولته، واتجه نحو مرخان:

ـ وأنا... كم مرة قايل لك، يا مرخان، ومنّبهك، أني أريد تقرير عن حرس الحدود؟

رد مرخان بغيظ:

ـ بعثنا اثنين، أو ثلاثة، الله يسلمك، وما رجعوا بشي مهم. فقلت لروحي ما يلزم أشغلكم فوق أشغالكم بأمور تعرفونها!

قال السلطان لعدد من أخوته المقربين:

ـ أريد منكم، اليوم قبل باكر، أن تعيدوا النظر بكل اللي يعاونونكم، لأن الناس، خاصة بهذه الأيام، تغيروا واجد...

صمت قليلاً، ثم وكأنه يحدّث نفسه:

ـ الناس، من قبل، كانوا أحسن. الواحد منهم ما يخاف ولا ينكس. ويظل معك مهما شاف ومهما جرى. هالحين، حتى جماعتنا، أقرب الناس لنا، أكل الطمع قلوبهم، صار الواحد يركّض ورا اللي يفيده. وكل يوم اسمع سوالف تعجّب!

ابتسم، وقد تذكر أموراً كثيرة:

ـ أفضالنا عليهم جميع. حنا اللي عطيناهم واللي سويناهم، وقلنا لهم تعالوا يا عباد الله: خذوا اللي تريدونه، وصيروا، بس نريد شي واحد: تكونون معنا، وما تخونون، لكن...

وانفعل وهو يتابع:

ـ حتى أولاد عبيدنا، ولأن أباءهم خدمونا من قلوبهم، قلنا لهم تعالوا: صيروا بالجيش، صيروا ضباط. فتحنا أبوابنا وجيوبنا وعطيناهم، وراح يوم وجاء الثاني، وأشوف أربعة أو خمسة منهم مع جماعة المؤامرة.

وتغيرت اللهجة مرة أخرى:

ـ وإذا هذي النوبة مرت على خير، انكشف أمرهم وكظيناهم قبل ما

يطلقون طلقة، فما ينعرف باكر شنهو اللي يصير، إذا ما فتّحنا عيونا وآذانا زين.

قال راكان بانفعال:

ـ كان رأي. طال عمرك، أن لا نعتمد على الغُرب، لأن الواحد إذا ما كان من لحمك ودمك، فالشيطان يظل بقلبه، ويزين له الخيانة، وإذا هذي المرة فاتت فأخاف اللي بعدها تصيب ونندم!

قال مساعد:

ـ وبهذه الأيام، مثل ما قال طويل العمر، الناس طمعوا، وما عاد يردّ روسهم شي، خاصة بعد الطريقة التي صارت هنا وهنا، حولنا.

قال السلطان بثقة وصوت هادئ:

ـ ما ينصلح آخرها إلا مثل ما انصلح أولها. . .

وبعد قليل:

ـ يلزم نخلي الناس عايشين بخطر، ودايماً خايفين، لأن المخوطر، واللي خايف على روحه أو على رزقه، يعرف شلون يدافع عن نفسه. أما إذا الناس عاشوا وبالهم مرتاح، وسهر وسوالف، والواحد يوشوش الثاني، ويقول له شفت بالمكان الفلاني، وصار بالمكان الفلاني، ويلزم تسافر وتقرا وتشوف، ويلزم تتعرف وتتأكد، وليش عند فلان أكثر مما عندي، أو ليش فلان يحكم وأنا ما احكم. . . إذا الدنيا صارت كذا، ومعها هذي الزعازع والخرابيط اللي ما أنزل الله بها من سلطان، فترى إذا حكمنا اليوم، وكنا متأكدين، باكر أو اللي عقبه ما يندري شنهو اللي يصير.

قال الأمير ميزر:

ـ ترى يا جماعة، وهذا أنا سامعه من أبوي، الله يرحمه، الناس اللي حولنا طمعانين ببلادنا وبفلوسنا، وما يهدأ لهم بال ولا يرتاحون إذا كنا حنا بخير.

قال مساعد بانفعال:

ـ وحتى عبيدنا طمّعوهم بينا، وقالوا لهم: تحركوا وحنا معكم. ولا بد أنكم سمعتم أو قريتم اللي يقولونه علينا بالإذاعات والجرايد.

قال راكان:

ـ كلام الجرايد والإذاعات خرطي، ما ينشال من أرضه، ولا يطلع منه شي، لكن الأخطر منه أن نظل بدون سلاح قوي، لأن هذول ما يخافون إلا من القوة، ولا يتأدبون إلا إذا ضربتهم على خشمهم.

قال السلطان في نهاية المناقشة:

ـ كل اللي أريده منكم: أن الواحد يتأكد من جماعته، وما يتكلم إلا الشي الضروري، وحتى لو تكلم ما يقول كل شي، وخلوا الباقي عليّ، وإن شاء الله ما يصير إلا كل خير!

ولم يكتف السلطان بهذه التعليمات والتوجيهات، إذ كلّف رباح الأبرش، رجل المهمات الخاصة، كما كان يطلق عليه، بأن يتولى، أولاً، مراقبة جهاز الأمن والسلامة، بما في ذلك إعادة النظر بتكوين هذا الجهاز ومهماته؛ وأن ينشىء، أيضاً، جهازاً خاصاً تكون مهمته الأساسية القوات المسلحة.

والتقى السلطان، من جديد، بيونس شاهين، لكي يعرف منه، ويتفق معه، على الطريقة المناسبة لكيفية خلق قناعات في السلطنة، وفي المنطقة، لأية خطوة قد يتخذها. قال السلطان ليونس مازحاً:

ـ أهل مكة أدرى بشعابها، يا أبو فنر، وأنا ما أنوي، ولا أستطيع، أن أتدخل بشؤون عملكم، لأنكم أدرى بهذا العمل، لكن مع ذلك لا بد أن ألفت النظر إلى بعض الأمور التي قد تفيدكم...

ابتسم وسأل بعد لحظة صمت:

ـ وإذا ما تريد، يا أبو فنر، نطوي الموضوع.

ويونس الذي ارتبط بالسلطان خريبط في وقت مبكر، والذي كلف، منذ السنوات الأولى، لوصوله إلى موران، أن يلزم فنر، وبعد أربع بنات، جاءت الواحدة بعد الأخرى، دون أن يجي الصبي، وفي فترة معينة قرر أن يتوقف عن الإنجاب، وأن يكتفي بالبنات، إلا أن زوجته ظلت تحاول، عن طريق الأدوية والمنجمين والحجب، فلما حملت حملها الخامس، نذر

أن يُسمى الصبي فنر إن كان ذكراً. ولم يخب أمله وأمل زوجته، ولم يتردد في تسميته حين جاء. وقد ذكر هذه القصة لفنر في وقت مبكر، لكي ينفي عن نفسه صفة النفاق. وكان يروق لفنر أيضاً أن يناديه بهذه الكنية، احتراماً وتقرباً، ولأن الاسم، أيضاً، يعني له شيئاً!

رد يونس بمرح:

ـ لقد قال أجدادنا، أطال الله بقاءكم: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان. وأنا كلي قلب لسماعكم!

ضحك السلطان طرباً، وبعد أن هدأ:

ـ والله، يا أبو فنر، السلطان، وأي حاكم، دون مستشارين يثق بهم، ويعرفهم ويحبهم، ما يسوي شي.

رد يونس، ووجهه نحو الأرض:

ـ استغفر الله، يا طويل العمر، وإن شاء الله نكون عند حسن ظنكم.

قال السلطان، وهو لا يخفي الود:

ـ واللي افتخر به، يا أبو فنر، وأحس أني قوي، وقادر أسوي أي شي، لأن حولي ناس يفهموني زين.

صمت يونس ليتيح للسلطان أن يتابع، فتابع:

ـ ما اكتمك: وضعنا ما هو سهل، وظروفنا، خاصة هذه الأيام، غير شكل، لأن كل الناس طمعوا بنا، هنا، بالسلطنة، وخارجها. فأريد نتعاون حتى نغير كل شي. أريد الناس، هنا، بالسلطنة، يحسون أنهم محسودين، وأنهم أحسن من غيرهم. والكل طمعان بيهم...

تنفس بعمق، وصمت قليلاً ثم أضاف:

ـ الناس، يا أبو فنر، إذا ما حسوا أنهم محسودين، وأن أرواحهم وأرزاقهم مطلوبة، تراهم يظلون نايمين. فأريد منكم، بالجرايد، بالتوجيه، بصلاة الجمعة، بكل ما تقدرون عليه، تعلمون الناس، تقولون لهم: روسكم مطلوبة، وباكر أو اللي عقبه تصيرون عبيد، ويأخذونكم عسكر

مثل أيام الأتراك، ويلزمكم تتحركون وتفتحون عيونكم زين، لأن اللي حولكم إذا وفروكم اليوم، فما راح ينسونكم ثاني يوم.

ويونس شاهين الذي كان يعرف مثل السلطان، أكثر من السلطان، ما يجري في المنطقة، وقد نقل إليه أكثر من واحد أخبار التنظيم في الجيش، كان يريد أن يستمع قبل أن يعلق، قبل أن يقول رأيه.

قال السلطان بأسى:

ـ الناس أمانة برقابكم، يا أبو فنر، فيلزم أن تؤدوا الأمانة!

قال يونس شاهين بفخامة:

ـ اتفق معكم تماماً، يا صاحب الجلالة: الأيام التي نعيشها الآن صعبة وخطيرة، صعبة لأن القيم اهتزت والقواعد انهارت، وخطيرة لأن التعقل انتهى، والحكمة لم تعد الموجه الفعلي للناس. . .

وفجأة انفعل يونس، وكأن مجموعة هائلة من الصور عبرت رأسه:

ـ الناس اللي حولنا ما هم مصليين على النبي، يا طويل العمر. أولاد الفلاحين والحراثين، بعد ما تعلموا حرفين، ولبسوا البدلة، وحطوا البارودة بكتفهم، صاروا آلهة أو انصاف آلهة. متصورين أنهم. بكبسة زر، قادرين يغيروا الدنيا كلها. شباب هوج، كلمة تأخذهم وكلمة تردّهم، وعقولهم مليانة أوهام وأحلام، وما عندهم اعتبار لكبير، لأولاد الأصل، لشيء مقدس، لذلك يجب أن نواجه هذه الموجة المجنونة قبل أن تصلنا، وقبل أن تستفحل.

رد السلطان بثقة:

ـ كل اللي قلته، يا أبو فنر، صحيح، بس هالحين شنهو اللازم يتسوى؟

ـ تسأل، طال عمرك، شنهو اللازم يتسوى؟

ولم ينتظر، تابع بثقة:

ـ لا يمكنني أن أجيب عن هذا السؤال بعمومه، لأنه من الاتساع،

وتعدد الجوانب، إلى درجة يتطلب أن نسأل ماذا يجب وماذا يمكن أن نعمله في كل حقل. . .

وابتسم، ثم بعد قليل:

ـ ما أستطيعه، وأنا واثق، يا صاحب الجلالة، يتركز في حقل الأعلام والتوجيه. ويمكن أن أعرض على جلالتكم خلال بضعة أيام الخطة الكاملة لما يجب أن يعمل في هذا الحقل.

إلى ذلك الوقت، كان يتكلم وهو ينظر إلى السلطان، أحنى رأسه، وأضاف:

ـ وتعرفون، يا صاحب الجلالة، أنني لا أبخل ولا أتردد في إبداء وجهة نظري، في القضايا الأخرى، إذا تبين لي أني أملك ما أقول، أو إذا طلبتم مشورتي، لأنه، كما قال عليه الصلاة والسلام: الساكت عن الحق شيطان أخرس.

ـ أشهد بالله أنك ما بخلت بشي، يا أبو فنر، ودايماً كان رأيك صايب، وشورك بمكانه.

وهز السلطان رأسه تأكيداً لما قاله، ثم أضاف:

ـ وإذا الناس فهمت ووعيت، وكانت كلها قلب واحد ويد واحدة، ترى ما أحد يقدر علينا، ولا يغرك الهذر اللي تسمعه حولنا، والضجة اللي تصمّ الآذان، كله ما يساوي شي إذا الناس معنا!

لم يهدأ يونس شاهين ولم يتوقف يوماً واحداً من أجل تعبئة الرأي العام، وإعادة صياغة المفاهيم والأفكار التي كان يحلم، منذ وقت بعيد، بتحقيقها. صحيح أن المهمة صعبة، ليس لأنه غير قادر على إنجازها، وإنما لأن الناس، الآن، اختلفوا كثيراً عن السابق. فقدوا الحماسة، أو فقدوا الرغبة. تغيرت اهتماماتهم. لم يعودوا يحترقون وجداً من أجل قضية يعرفون، سلفاً، صعوبتها، أو ربما استحالتها.

وهو نفسه، رغم اقتناعه الذي لا يتزعزع، بدأت تدب إليه، وبسرعة، الشيخوخة، قال لنفسه: «الزمن هو العدو الغادر بالنسبة للإنسان، إنه يتسلل، أول الأمر، خفية، غير طالب سوى مساحة للراحة، زاوية ليست لأحد، والإنسان يحثه، يستعجله، لكي يتقدم أكثر، وبسرعة، ثم فجأة، يكتشف أنه احتل كل شيء، وفرش نفسه كالعنكبوت، وتمدد كما يتمدد البخار ليملأ المساحة كلها».

هكذا يفعل الزمن، وهو لا يقتصر على الإنسان وحده، أو على الكائنات الحية، إنه يمتد إلى الأشياء والمدن. فموران، التي كانت تبدو قوية راسخة، بنظر يونس شاهين، لا يمكن لأية قوة أن تغيرها، أصبحت، في الفترة الأخيرة، مثلها مثل المدن الأخرى في المنطقة، والتي هرب منها. أخذت ترتجف، وكأن زلزالاً حرّك أعماقها، ولا بد أن ينفجر في أية لحظة. كانت إلى وقت قريب، بعيدة، هادئة، منسية، حتى بنظر نفسها، وكانت غير معنية بما يجري حولها، لكن عندما بدأ ذلك الأرخبيل بالاهتزاز، وأخذت الحرائق تشبّ هنا وهناك، فقد وصلت الأدخنة، وملأت الجو، وربما تسري النار وتمتد إلى موران ذاتها، إذا لم يبادر إلى إطفائها، أو على الأقل تطويقها.

لذلك لا يريد أن يترك نفسه للهواجس، أو أن لا يفعل شيئاً سوى انتظار النار، لا بد أن يتحرك. لديه كل أسباب القوة: المال، والعقيدة، والاستعداد للقتال. لقد شهد في حياته الطويلة الحافلة معارك كثيرة، كانت أصعب، بما لا يقاس، مما يجري الآن، خاضها جميعها وانتصر. والمعركة الجديدة استمرار لحربه التي لم تتوقف أبدا!

قال له السلطان:

ـ معركتنا الآن، ولفترة قد تكون طويلة، نطاح كباش، إلى أن نصل، مع الآخرين، اما إلى الحرب الكاملة، أو الاتفاق الكامل. وحتى ذلك الوقت فالمعركة باللسان، بالتهديدات، بالضغط، فأريدك، يا أبو فنر، تشعلها عليهم معركة ما تعرف الرحمة، وما تخلي عليهم ستر مغطّى. ولا تسل عن المال، كل اللي تريده جاهز.

ديفيد برادلي كان ضمن الوفد الصحفي الذي جاء إلى موران، بدعوة من القصر، وقد زار عدة أماكن، والتقى بالكثيرين. كتب ديفيد إلى جريدته.

«. . . في المرات السابقة كنت أحس بالثبات، ثبات الأشياء والعلاقات والبشر. الآن، رغم الاستقرار الظاهري، فإن المراقب لا يحتاج إلى جهد كبير ليكتشف أن هذه البلاد الشاسعة، والتي كانت تميل إلى الرضا والقناعة، قد بدأت تتململ، تماماً مثلما تفعل الحية في فصل الربيع، إذ بعد السبات الطويل، ومع أول هبات الدفء تتحرك. صحيح أن حركتها تبدو بطيئة، غير واثقة، لكن مع تقدم الفصل الدافئ تنتظم هذه الحركة وتتزايد سرعتها، وخلال ذلك، ولكي تستقبل فصل الصيف الطويل القاسي، لا بد أن تتخلى عن جلدها التي قضت فيه الشتاء كله، وتستبدله، بآخر جديد.

موران، الآن، تبدو لي، وكأنها في بداية الانتقال، أول أيام الربيع.

لا أعرف لماذا تكونت لدي هذه الصورة، وطغت على كل ما عداها من الصور. ربما نتيجة ما تسرب من معلومات عن تحركات في الجيش، أدت إلى عمليات اعتقال واسعة، تبعتها إعادة تنظيمه. يجب أن لا نبالغ بحجم ما حصل، لكنه مؤشر واضح الدلالة. يضاف إلى ذلك أن همساً

متزايداً، وغير واضح حتى الآن، يشير إلى وجود تباين، ولا أريد أن أستعمل كلمة خلاف، بين الأخوة حول أمور كثيرة. قال لي أحد الجامعيين الذين أنهى دراسته في الولايات المتحدة، إن الدستور الذي وعد به السلطان يمكن أن يحل جميع المشاكل، ولذلك لا بد من الدستور. وقال لي أحد الموظفين، طلب ألا أذكر اسمه، وأن لا أشير إلى الوظيفة التي يشغلها، إن «الآخرين» يجب أن يشاركوا بالسلطة على قدم المساواة، وحين سألته عن هؤلاء «الآخرين»، أجاب وهو يبتسم: الشعب، كل من هو مؤهل، وليس فقط أفراد الأسرة، والحاشية.

صحيح أن مظاهر عديدة تغيرت، بالمقارنة مع الزيارات السابقة، لكن هناك أشياء يحسها الإنسان، حتى لو لم يرها رأي العين، لا تزال كما كانت من قبل. بل أكثر من ذلك تنبثق فجأة صور يفترض الأجنبي أنها لم تعد موجودة، أو أنها مجرد صور في كتاب قديم.

ذكر لي شاب تونسي يعمل في الفندق الذي نزلنا فيه، أنه جرت قبل أيام من وصولنا، عملية إعدام لثلاثة من العصاة. ما كاد يقول لي ذلك، حتى استعدت صورة كدت أنساها: الجلاد الأسود، الممتلئ، يهز سيفه، وكأنه يلعب به، والناس كأنهم يشهدون تمثيلية ساخرة، من جملة مشاهدها: ذلك الأسود المرح، المختال بقوته، وهو يدور ويصوب نظراته إلى الناس، ثم فجأة يتحرك بطريقة مختلفة، إعلاناً عن بدء فصل جديد، فيخيم الصمت، وخلال دقائق قليلة يؤدي دوره بإتقان: يهوي على الرأس، وغالباً ما ينفصل بضربة واحدة، وتنفر الدماء، ثم تغور في الرمال، وبعد فترة قصيرة تهرول مجموعة من الحرس لكي تجمع الأجزاء وينتهي المشهد ويسدل الستار ويتفرق الناس.

قال لي ذلك الشاب إنه لم يستطع أن يأكل لعدة أيام، بعد أن رأى المشهد، وأن الأحلام والكوابيس لاحقته في الليالي الماضية ولا تزال. وقال أيضاً، إنه يستغرب كيف أن أكثر الذين شهدوا تنفيذ الإعدام عادوا، بسرعة، إلى ما كانوا فيه. الذين كانوا يأكلون عادوا إلى الأكل. الذين كانوا يتساومون على سلعة واصلوا مساوماتهم من حيث انتهوا. الذين كانوا

يشكون من السأم، وليس لديهم ما يفعلونه، وجدوا أنفسهم، فجأة، وقد امتلأوا حيوية ومرحاً، لأنهم الآن يتفوقون على أولئك الذين لم تتح لهم الفرصة لمشاهدة ما شاهدوه، وأن لديهم ما يقولونه لغيرهم!.

«في أكثر المناطق التي زرناها لا تزال الهيئات والعادات والأخلاق، وتلك الطريقة في التحية، وحتى الجلوس على قارعة الطريق، مثلما كانت في الزيارة السابقة. أكثر من ذلك، يُخيّل للإنسان أن أغلب المشاهد، بما فيها الناس، بالعيون الماكرة، وهي تتابع الصغيرة والكبيرة، هي ذاتها، أو كأن الناس والأشياء لم يغادروا أماكنهم، أو وضعياتهم منذ أن رأيناهم المرة السابقة!».

«صحيح أن عادات ومظاهر جديدة غزت المدن الكبيرة، لكنها لا تعدو القشرة الخارجية، أو بمثابة ديكور غير ملائم للمشهد العام. فذلك المدى الصحراوي الذي، ربما، وحده، يشكل الثبات الحقيقي، الأقرب إلى الرسوخ، وقد انعكس بقوة على الملامح ولون البشرة، ولا يمكن أن تمحوه أو تغيّره الأبنية الحديدية والزجاجية العالية، والتي غالباً ما تبقى فارغة، ليس لانعدام الحاجة إليها، إنما لأنها لا تلبي الحاجات الفعلية للسكان، رغم التراكم العشوائي الهائل للمصاعد وآلات التبريد، وغيرها من الأجهزة الكهربائية، التي تجدها بكثافة تزيد عما في البلدان الصانعة!

«إن حركة ما تجري تحت السطح، لا يستطيع الإنسان أن يميز جميع مظاهرها، لكنه يحسها، بل أكثر من ذلك تجد أن كل شيء غادر مكانه. ليس مهماً إلى أين، لكن ما افترضت أنه باق وراسخ لم يعد كذلك. صحيح أن الطابع العام لما يمكن أن يرى هو الفوضى والاضطراب، لكن أي زائر يقارن بين ما كان، وما هو قائم الآن، يجد فرقاً كبيراً. قد يكون من السابق لأوانه توقع احتمالات، دون غيرها، خاصة من زائر عابر، لكن الشيء المؤكد أن الأمور لا يمكن أن تعود إلى ما كانت عليه.

«أيام السلطان القديم كانت الحركة بطيئة، والتغيرات سطحية ومحدودة. فإن يأمر السلطان بإحضار الملاعق لضيوفه الأجانب، لكي يأكلوا بها، أو أن يتولى بنفسه تشغيل الراديو، وأن يشرح ما ورد في الصحيفة أو نشرة

الأخبار، ويبدو كل ذلك طريفاً، وأيضاً مؤشراً على التغيرات التي بدأت تشق طريقها، كما كتب أحد القناصل لدولته، أو أن يأمر السلطان الذي جاء بعده ببناء القصور وفتح الطرق وإقامة الميادين، فإن كل ذلك، رغم أهميته وتأثيره، لا يغير في البنية الحقيقية والعميقة للمجتمع.

«التغير العميق والمؤثر الذي حصل في السنوات الأخيرة، ولا بد أن يتفاعل في المستقبل أيضاً، هو ظهور قوى جديدة ووعي جديد لدى الكثيرين. وسوف نشير إلى مظاهر ذلك في مقالات لاحقة».

حين قرأ يونس شاهين هذا التعليق انفعل، شعر أنه خدع، إذ لم يبدر من ديفيد برادلي أو غيره، أية إشارة تدل على عدم الرضا، لكنه تذكر ادموند ميلر قبل عدة سنوات، حين جاء بزيارة طويلة إلى العوالي، وكيف أجزل له العطاء، وكلفت مجموعة بمرافقته وتلبية جميع طلباته، ولما جاء في وقت لاحق بزيارة أخرى لموران، وعاتبه يونس على ما كتبه، كان رده صريحاً ومفاجئاً:

ـ كتبت ما رأيت، وهذه قناعتي!

ولما رأى الاستغراب على وجه يونس أضاف موضحاً:

ـ من الخطأ الافتراض أن الصحفي الذي يحترم نفسه يكتب ضد قناعاته. يمكن أن يصمت، يمكن أن يكتب أشياء ثانوية، مسلية وطريفة، لكن لا يمكن أن يكتب شيئاً غير مقتنع به لإرضاء الآخرين!

وحين تساءل يونس، بمكر، ما إذا التحويل المالي وصله، رد ميلر بسخرية:

ـ تصلني بعض الأحيان تحويلات غير متوقعة، وهي بمثابة أوراق يانصيب رابحة. أو أشياء يعثر عليها في الطريق...

وابتسم ابتسامة مليئة باللؤم، وأضاف:

ـ أو أنه مال زائد لا يريد أصحابه الاحتفاظ به!

لقد تعلّم يونس شاهين الكثير من هذا الدرس، ولذلك لم يكرره بصيغته السابقة الآن، وهو يقرأ هذا التعليق أيضاً، وحين سأله السلطان عن انطباعات الصحفيين، رد بمرارة:

ـ النتائج، بصورة عامة، إيجابية، لكن دون ما كنا نتوقع، يا صاحب الجلالة!

وبعد قليل، وبدا صوته مشروخاً:

ـ لم نترك شيئاً إلا وفعلناه من أجلهم، يا طويل العمر، ليكونوا في غاية الرضا والراحة، ولكي تكون انطباعاتهم إيجابية، علماً بأن الذين دعوناهم محايدون، أو أصدقاء للسلطنة، ومع ذلك فإن النزعة الصليبية، العداء للشرق والإسلام، لا يمكن أن ينتهي. قد يتموه، أو يتخفى جزئياً، لكنه لا يزول. . .

وهز رأسه وتغير صوته:

ـ لا يحتملون شرقاً مزدهراً ومستقراً، لذلك تمتلئ تعليقاتهم بالسموم. قد لا تبدو ظاهرة، ولكنها موجودة بكل تأكيد.

ـ لا تكلف نفساً إلا وسعها، يا أبو فنر، ولا يمكن تغيير الناس بين يوم والثاني!

ـ لم نطلب منهم الكثير، يا طويل العمر، طلبنا الإنصاف.

ـ وظني أن هذا الشيء تحقق، لأني قريت بصحف لبنان أشياء زينة.

رد يونس بلهجة ساخرة:

ـ أغلب الذين جاءوا من لبنان كتبوا أشياء إيجابية، لأننا استطعنا التفاهم معهم وإقناعهم، إضافة إلى استمرار صلتهم بنا، لكن بعض الأجانب كتب تعليقات لئيمة. صحيح أن الجميع أشاروا إلى الاستقرار، وإلى التفاف الناس حول العرش، لكنهم، أو بعضهم، يضيفون أن المستقبل مليء بالاحتمالات والمخاطر.

وعاد إلى لهجة الحزن:

ـ من أين امتلكوا هذه النبوءة أو هذه الفراسة، ليتحدثوا بثقة عن المستقبل، علماً بأن مرافقينا لم يتركوهم لحظة واحدة، وظلوا معهم منذ لحظة وصولهم، وإلى لحظة مغادرتهم، كما حضروا معهم جميع المقابلات التي أجروها؟

ـ لا يمكن، يا أبو فنر، أن نفرض على الناس كل ما نريد، يكفي،

هالحين، أنهم كتبوا عن الاستقرار والتفاف الناس حول العرش!

- لكن ما كتبوه، يا طويل العمر، كل لا يتجزأ: يعطون باليمين ويأخذون باليسار، ولا تعرف في النهاية إن كنت رابحاً أو خاسراً!

قال شداد المطوع لابن البخيت:

- اسمع مني يا عبدالله: خلنا نشد رحالنا ونشوف لنا ديرة ثانية، لأن خبزتنا بهذي الديرة انقطعت. وما هو بس كذا، خاف، باكر أو اللي عقبه يبهدلون شيبتنا، مثل ما صار مع كثيرين.

رد عبدالله وهو يبتسم:

- خلنا، هالحين، من هذي السوالف؛ أريد أسألك شلون انتهت سالفة الأكحل؟

- هذول، يا عبدالله ما يفهمون إلا بالصوت العالي، وبالعين الحمرا...

وابتسم وهو يحس بالثقة، وبعد قليل:

- حتى ما ادوخ روحي: من هو المسؤول، وشلون صار الحادث، أول ما سمعت الخبر، يا أبو بادي، قلت: سيارة العود، وهو وحده المسؤول، وكل ما يقول أحد: العود ما له علاقة، ويجوز فلان أو فلان، أقول لهم العود وسيارة العود. وطلبتي منه وثاري عنده. ولا بد أن الخبر وصله. ثاني يوم طرّشوا الحكيم المصري، وعالج وسوى كل اللي يقدر عليه. صحيح أن الأكحل ما عاد مثل قبل، لكن، والشهادة لله، تعافى وصار زين. وعطاني القصر تعويض: حصان مثله وقريشات، فسكت، وقلت ما يخالف!

وتغيرت نبرته:

- بس، يا أبو بادي، هذا كله ما يفيد، لأن الجماعة راكبين روسهم، واسمع بين يوم والثاني أخبار ما تسر الخاطر، فقلت لروحي: امش يا أبو غانم قبل ما تسمع كلمة تغثك، وقبل ما يتحارشون بك.

- يخسون، والله ما يقدرون يمسون بك شعرة، لأنهم يعرفون ناسهم، ويثردون لكل واحد قدر ما يسوي!

ـ هذا كان قبل يا عبدالله، هالجين تساوت المنازل، ولأنهم خايفين من الشي اللي صار، فتشوفهم منكلبين وتايهه عليهم. . .

وأصبح صوته حزيناً بمرارة:

ـ حتى هذا المطي، ولد أخوي، تشوفه هذي الأيام مثل كلب الراعي: ينهش هنا وهنا، ويركُض هنا وهنا، وكأن الدنيا بآخرتها. قلت له: امسك الأرض يا حماد. اعقل، واحرص، فيسكت أو يجاوب جوابات ما لها معنى.

ـ الله العليم أن صوابهم طار لما عرفوا أن ابن فلان وابن فلان، وهم أقرب الناس لهم، باعوهم، وصار شورهم من روسهم!

ـ وما هو بس كذا، يا عبدالله، بهدلوا آباءهم وإخوانهم، وقالوا لهم كلام ما ينقال، وما تدري بعد شنهو اللي راح يسوونه باكر واللي عقبه!

قال عبدالله البخيت كأنه يحدّث نفسه:

ـ كأنهم ما يعرفون موران، ولا يعرفون أن الكلمة تقتل أكثر من السيف، وأن المال يداوي الجروح لكن ما يداوي القلوب.

همس شداد:

ـ وقال لي واحد من جماعة حماد أنهم ما تركوا أحد من العسكر إلا وحققوا معه، حتى اللي طرّشوهم ببعثات أو الموجودين بالملحقيات دزوا وراهم وحققوا معهم. وما هو بس تحقيق: إهانات وتهديد وبهذلة.

وبعد قليل، وبتشفٍ:

ـ وأنت، يا عبدالله، تعرف هذول العسكر: الواحد منهم شاخط بيها للسما، وكثيرين منهم حاملين دمهم على راحاتهم، فإذا تحملوا البهذلة اليوم لا بد ينتقمون ثاني اليوم، فالله يعلم شلون راح تنحاس موران، وشلون راح تنلاص.

قال عبدالله البخيت:

ـ ظني، يا أبو غانم، أن هذي السوالف ما تفوت فنر، ولا بد يكون حاسب حسابها.

ـ ما علينا، بس أريدك تصفن باللي قلته لك، يا أبو بادي، وترد لي خبر.

قال العجرمي لعبدالله البخيت:

ـ اشوف نفسي، يا عبدالله، تعبان. تعبان من كلام الناس ومن هوا موران، وظني أنه ما يفيدني إلا عين دامة. إذا رحت هناك شهر أو اثنين، ورجعت معافى، لا بد اسوي بابن شاهين اللي ما يتسوى، واخليه على سن رمح وسالفة بكل مجلس.

ـ والله يا شيخنا عين دامة ما هي قاصرة، وبها فوايد واجدة: تقوّي الواحد وتنسيّه، وهناك ما يسمع شنهو اللي صار واللي جرى، فتوكل على الله.

وبعد قليل ومازحاً:

ـ وإذا طبّيت هناك يا أبو مشعل، وشفت الجو يوالمنا، فلا تنسانا من دعاك، وإذا تونست فتذكرنا، وإذا دزيت ورانا يجوز نجيك!

رد العجرمي:

ـ الواحد، يا عبدالله، ما عاد بنفسه ونسة، بس يريد راحة البال...

وبعد قليل:

ـ والله أيامنا قبل كانت أحسن من هذه الأيام.

وهز رأسه عدة مرات. وبدأ، همساً، يدندن:

ـ اللـــي راح اللـــي راح   كـل ونـيّ عـلـى اللـي راح

ضحك ابن البخيت انفعالاً وطرباً، وأخذ يردد، بصوت أعلى:

ـ اللـــي راح اللـــي راح   كـل ونـيّ عـلـى اللـي راح

قال العجرمي:

ـ وهذي الأيام، اللي ما تعجبنا هالحين، يجوز يجي وقت نتحسر عليها، يا عبدالله، بس تروح، لأن الأيام اللي راح تجي، مثل ما تشوف عيني، جلهيمة سودا، والله يتممها على خير!

رغم حمّى التغير التي اجتاحت موران، مع تزايد الأموال، والتنافس بين الأمراء في بناء القصور بشكل خاص، فإن فنر الذي وافق، بعد تردد طويل، وبعد مرور فترة من الزمن، على الانتقال إلى قصر السعد، واختار له أثاثاً من طراز إنكليزي، أصرّ على أن يبقى في القصر ذاته، بعد أن أصبح سلطاناً، لم يغيّره ولم يغيّر فيه شيئاً، عدا بعض التعديلات البسيطة، إذ بنيت في الجهة الغربية، بجوار الحائط الخارجي مباشرة، ثكنة جديدة للحراسة، كما وُسّعت الباحة الأمامية، ناحية الجنوب، بإضافة الحديقة العامة، عند تقاطع طريق قصر السعد مع الطريق المتجه غرباً، مما جعل المرور في هذا الشارع محدوداً أول الأمر، ثم ممنوعاً، بعد ذلك.

ما عدا هذه التعديلات، فإن فنر أبقى كل شيء كما كان من قبل؛ رغم المحاولات التي بذلت للضغط عليه وإقناعه، من أجل الانتقال إلى قصر الحصن، كما أطلق على القصر الذي بناه أمين الورداني للسلطان المخلوع، ولم يكمل إلا بعد استلام فنر بثلاثة شهور. هذه المحاولات لم تجد، بل أكثر من ذلك قابلها السلطان برفض حازم، مؤكداً أن قصر السعد يكفيه. وحين حاول راكان، محاولة أخيرة، بحجة «أن هيبة الدولة تقتضي ذلك» فقد رد السلطان مداعباً:

ـ . . . وكل شيء، بهذه الدنيا عادة: السكن والأكل. . . حتى الزواج، واللي يغير عاداته يتعب ويتّعب غيره!

فسر راكان اعتذاره رفضاً، في الوقت الذي فسره أخوة آخرون، صدف وجودهم، تعريضاً، خاصة فيما يتعلق بالزيجات التي تمت خلال الفترة

الأخيرة والتي أعادت إلى الأذهان زيجات خريبط وخزعل، لأنه رافقها الكثير من الضجة والاحتفالات!

أما الملاحظة التي أشارها إليها رباح الأبرش، وقد نُقلت إليه، ولم يسمعها مباشرة، حول انزعاج الأمراء من هذا التعريض، وأيضاً عدم قدرتهم على فهم سلوك وتصرفات السلطان، وبالتالي ما يدور من لغط حوله. فقد دفع فنر، عن عمد، لأن يتطرق الى الموضوع مع راكان، وأثناء وجود عدد آخر من الأخوة، قال، وقد مهّد لذلك:

ـ . . . وأتذكر، قبل شهر أو أكثر، أنك اقترحت عليّ، يا راكان، قصر الحصن، وقلت لك أني تعودت على قصر السعد. واللي أريده هالحين أنْ ما ينفهم من كلامي لوم أو عتب على أحد. ومثل ما قالوا من قبل: الواحد ينام على الجنب اللي يريحه، فإذا الله، سبحانه وتعالى، وبسبب المرض، حرمني من أكلٍ اشتهيه، فما أريد من أحد أن يسوي مثلي، ويقول هذي سنّة، لأن البنيٍ آدم وقدرته، وما تطلبه نفسه!

كان هذا التوضيح كافياً لأن يزول الحرج بسرعة، ولأن يتصرف الأخوة كل حسب ما لاءمه، وما يراه.

ولأن فنر اتبع، ومنذ البداية، طريقة خاصة في حياته وسلوكه، وعرف عنه الأخوة ذلك، فإن الكثيرين اختلطت عواطفهم تجاهه. لا يعرفون إن كانوا يحبونه أم يخشونه؟ هل علاقتهم به علاقة أخوة أم علاقة من نوع آخر؟ ولأن الأمر ظل ملتبساً، فإن المسافة بينه وبينهم عرضة للخطر والتغير. إنه قريب وبعيد في آن واحد. يعترف له أكثرهم بالكفاءة، وبالقدرة على مواجهة المصاعب، لكنهم لا يرونه ضاحكاً، ولذلك لا يجرأون، أو لا يرغبون، أن يقولوا ما يجول في رؤوسهم. يريدونه ويخافون منه.

هذه المسافة، وهذه الصيغة، فرضها بنفسه، أكثر مما فرضت عليه، ووحده القادر أيضاً على التحكم بها.

عندما أصبح استمرار خزعل خطراً، وهو الذي قرر ذلك، وأبلغه إلى عدد محدود من الأخوة والمساعدين، لم يبق في موران، ذهب إلى عين

فضة، رغم ما تولده تلك الزيارة في قلبه من أحزان، مما حمّل عدداً كبيراً من الأخوة على زيارته، والطلب منه، بل ورجائه، على أن يستلم مكان خزعل، وقد وافق نتيجة إلحاحهم!

وعندما أراد بيعة جامعة مانعة، شرطاً لاستلامه، وافق حتى الذين لا يخفون كراهيتهم له، لأنها الطريقة الوحيدة لإنقاذ السلطنة، ولإنقاذ كل واحد منهم بالذات.

أما حين أصبح سلطاناً وباشر مسؤولياته، فقد كان واضحاً أنه لا يريد من أحد أن يتدخل، أو أن يملي عليه ما يجب أن يعمل. ورغم المرارة، وحتى الشعور بالخديعة، فقد اضطر، أغلب الذين كانوا يفترضون أنفسهم شركاء، للانسحاب، أو للتراجع، إلى أن طلب منهم مجدداً ما يجب أن يقوموا به من أعمال.

قال مزعل، وهو واحد من الأخوة لا يعرف كيف يخفي عواطفه، قال أمام عدد من أفراد العائلة. ولم يكن يقصد إغضاب فنر أو رضاه:

ـ أبوي، الله يرحمه، تعرف متى يغضب ومتى يرضى. وتعرف أنه إذا زعل من أحد صعب أنه يرضى عليه. أما فنر فما تعرف: هو زعلان ولاّ راضي، يريد يسولف أو يصفن، يريد هذا الشيء أو ذاك!

ضحك، وتابع، وهو ينظر في الوجوه، لئلا يساء فهم كلامه:

ـ لكنه، والشهادة لله، إذا جرح يداوي، وقلبه طيب، وما بنفسه شي!

ولأنه كذلك، فقد تولدت صيغة جديدة داخل الأسرة، امتدت إلى العلاقات ما بين النسوة والأبناء، وقد ساعد على ذلك أنه تزوج امرأة بعيدة عن موران، وعاش معها فترة طويلة في الخارج، وأخيراً، حين عاد، انعزل في بيته، فلم يره إلا القليلون. لذلك فإن ثروت، بالنسبة لنساء الأسرة، امرأة مجهولة، من نمط خاص، والعواطف تجاهها غير محددة. ولأنها كانت هكذا، فقد ظل الموقف منها مؤجلاً.

بعد أن عاد وعادت معه، وبعد أن وافق على الانتقال إلى قصر السعد، وفي ظل ذلك الجو المضطرب، المليء بالتوجس، فإن أكثر نساء القصرين، قصر الروض وقصر الغدير، وبعد أن قمن بزيارات التعارف

والمجاملة، وجهن لثروت دعوات الضيافة، لكنها اعتذرت عن أغلبها، متذرعة بحجة أو أخرى، ولذلك فإن الظلال والعتمة اللتين أرادهما فنر، قد حجبا أيضاً كل شيء وراء أسوار قصر السعد.

ومنذ وقت مبكر، وقبل أن تتحسب أو تتنبه أكثر نسوة القصرين للمرأة الجديدة، فإن اثنتين، رغم ما بينهما من مسافة، وفارق العمر، تحسبتا، بل وداخلهما الخوف: فضة وموضي. فضة، من خلال الخدم والخصيان، ومن الأقوال التي سمعتها من السلطان خريبط، ثم بعد ذلك من راكان ومساعد وسيف، الذين اعتبروا أن الوحيد الذي يمكن أن يخلصهم من خزعل هو فنر، فقد داخلها الهم ثم الخوف.

ولكي لا تترك الأمور للصدف، ومن أجل أن تعرف كل شيء، ولأنها اعتبرت ثروت ليست نداً لها، أو يمكن من خلالها أن تفهم، أو أن تصل إلى ما تريد، فقد حاولت مع فريزة خانم.

فريزة خانم، بمقدار ما تبدو امرأة بسيطة، ولا تتردد، في حالات كثيرة، أن تقوم بأدوار تمثيلية، لتقريب الحالة وتوضيح الصور، باعتبار أن لغتها لا تسعفها بالمقدار الكافي، والتي تتظاهر أنها لا تعرف شيئاً عن الأسرة وموران والخلافات، فإن لها أذنين كالحمار، كما قال مرة الأمير فنر مازحاً، حين اكتشف أنها سمعت شيئاً لم يكن من المفروض أن تسمعه! كانت فريزة خانم، خلال الزيارات التي تم تبادلها، في أكثر من فترة، تقوم بهذا الدور، وقد بدا طريفاً ومرغوباً، لكن لم يلبث أن استنفذ الأمر الذي اضطر فضة، رغم شكوكها، ورغبتها أيضاً، أن ترجئ تقصي الموضوع إلى وقت لاحق.

المرأة الثانية التي تنبهت: موضي. لكن موضي التي لها تجربة قاسية من خلال زواج فنر الأول، ثم غياب فنر الذي طال، وانصرافها إلى ابنه تربيه وتعتني به، جعلها لا تعرف كيف تتصرف تجاه ثروت.

تتذكر كلام خالها عمير، حين غادرا عين فضة إلى موران، وتتذكر كلام الجد والجدة، وكيف استطاعت، خلال الفترة الأولى، أن تبني سداً يمنع اقتحام الآخرين. ثم كيف بدأ هذا السد بالانهيار: حين أصبح فنر لا

يترك مجلس أبيه، ثم يسافر، ثم بعد أن تزوج. وفي كل مرحلة، وفي كل مرة، تبذل جهداً استثنائياً من أجل استعادته، فيستجيب، يحن، يبدو حزيناً، لكن لا تلبث يد قاسية أن تنتزعه منها مرة أخرى.

قال لها الخال عمير، وهما يغادران عين فضة:

ـ إذا سهيتي عنه، يا موضي، يوم واحد راح منك إلى الأبد!

لم تفهم معنى هذه الكلمات، لكنها حفظتها. وانقضت سنوات كانت إلى جانبه. كانت كل شيء في حياته. أما حين بدأ تلك الرحلات الطويلة، كأي رجل، خاصة من موران، وفي تلك الفترة، فقد أحست بمعنى كلمات خالها عمير أولاً، ثم بدأت تستعدّ لمرحلة جديدة، لم تلبث أن تلخصت بشخص صخر، ابن فنر الأول!

مع ثروت حاولت أن تكون امرأة مختلفة، أن تكون صديقة، لكنها صداقة من طرف، واحد، فثروت لا تريد لأحد أن يقترب، أن يشاركها بفنر.

بعد الابن الثالث قالت موضي لنفسها، وقالت لصخر:

ـ تظل تربية بلادنا وأهلنا أحسن من غير تربية!

كانت موضي تشير إلى هذا العدد، الذي يزيد مع كل ولد جديد لفنر، من المربيات الأجنبيات، ولا تعرف إن كانت هذه رغبة أخيها، أم شروط ثروت وأمها فريزة خانم، واللتان جعلتاها تحس، أثناء زياراتها، أنها زائدة وغريبة، رغم ما تبذله من محاولات لتكون أقرب!

أغلب ما جرى حين كان فنر نائباً لأبيه في العوالي، ثم حين قرر العودة إلى موران. الآن، وقد أصبح سلطاناً، اختلف الأمر.

فثروت، تلك المرأة المجهولة بنظر الكثيرات، والتي لا يُعرف إن كانت موجودة أو غير موجودة، لفرط تخفيها، أو لعدم الإحساس بوجودها، بدت بنظر الجميع المرأة التي يجب أن تُعرف، أن تقوم العلاقة معها.

ومثل عادة موران، التي لا تعرف الاتزان، أو الهدوء، فإن شيئاً أقرب

إلى انفجار حصل في أجنحة النساء، وفي القصور الثلاثة معاً، بعد أن أصبح فنر السلطان.

قال لها فنر، وكان في زحمة الخوف والاجتماعات وترتيب الأمور:

ـ خلي بابنا مفتوح، ولا تسديه بوجه أحد، لأن أهل موران، بهذي الأيام، ما ينحملون، ولا أحد يخلص من لساناتهم إذا أخطأ.

ولأنها استقبلت أعداداً كبيرة من النساء، ولم تستطع أن تميز القرابة والعلاقة، ولم تحفظ الأسماء أيضاً، فقد التبست عليها الأمور إلى درجة خشيت من الخطأ، وحين سألته كيف يجب أن تتصرف، ماذا عليها أن تقول للرد على الأسئلة، فقد أجابها بسرعة:

ـ ما ينراد أحد يوصيك، يا بنت الحلال: خلي ضحكتك تملأ وجهك، وما عندك إلا: أهلاً وسهلاً وزارتنا البركة، وما أدري، وما أعرف، وبعدها الله كريم.

أما حين سألته عن تلبية الدعوات الكثيرة التي توجه إليها، وكيف تواجه الإلحاح أو كيف تعتذر، فقد رد مازحاً:

ـ قولي لهن: يا بنات الحلال، الدنيا ما هي لا يوم ولا اثنين، وأنتن تشوفن، فخلنا نخلص هالحين، وبعدها كل شي يصير!

ولأنه لم يكن لدى السلطان الوقت الكافي، أو لم تكن لديه الإمكانية، لأن يشرح لزوجته كيف يجب أن تتصرف، فقد تولت فريزة خانم الأمر مع النسوة بنفسها:

ـ . . . وقال، طويل العمر، أن كل زيارة، ولكل واحدة، دين، وإذا الواحد ما وفاها تصير حبل نار برقبته يوم القيامة. . .

وتبتسم ابتسامة اعتذار وهي تضيف:

ـ كل واحدة منكم صايمة مصلية، وتعرف أن الفرض أهم من السنة، فإذا خلصنا من فرضنا، من بد ولازم نزور. . .

وتضحك بقهقهة، ثم تضيف:

ـ وزياراتنا ثقيلة، ما هي يوم أو اثنين، أكثر وأكثر!

أما بعد أن خفت الزيارات وتباعدت، وبدأت ثروت تفكر بردّ عدد منها، فقد قال لها السلطان بحزم:

ـ الملوك ينزارون، يا بنت الحلال، ولا يزورون، إلا . . .

وحين فتحت عينيها بتساؤل، أضاف:

ـ حتى لمن يستاهل، كل مية زيارة منه زيارة منا، أما هذول اللقامة، واللي يهفّون، فالواحد منهم يريد يزور ما يريد ينزار. . .

وضحك بمرح، وبعد قليل:

ـ وإذا زرنا الواحد منهم، دون سبب، إذا كان ما عنده ميت، أو راجع من حج، أو جاه ولد بعد سبع بنات، فيحسبك تضحكين عليه، تهنيه.

وشد وجهه، أصبح صارماً، وقال:

ـ ومثل ما قلت لك: الملوك ينزارون وما يزورون، وهذا شرف للي يزورهم!

ولأن الجو، تلك الليلة، كان مرحاً وكان لدى السلطان رغبة لأن يبدأ بداية جديدة، فقد رن الجرس وطلب مجيء فريزة خانم. فوجئت ثروت بالطلب. . . وشعرت ببعض الحرج، خاصة لأنها كانت بثوب شفاف!

جاءت فريزة خانم. كانت تمشي كالبطة. كان وجهها مريحاً منتعشاً، أقرب إلى الرضى. لم تعرف لماذا استدعيت، وإلى تلك الغرفة الفاصلة بين الصالون الصغير وغرفة النوم، حيث يروق للسلطان أن يتناول قهوته كل يوم، ولم يكن يدخلها إلا أقرب الناس. قام لها السلطان على غير العادة، إلى أن جلست. طلب من ثروت أن تنتقل من المقعد الطويل وكانا يجلسان عليه إلى ما قبل وصول فريزة خانم، وأن تجلس على كرسيها، وبطريقة لا تخلو من الاحتفال، وإن مازجها المرح، أيضاً. قال، وقد وجه الخطاب إلى فريزة خانم:

ـ ابتداء من هذه الساعة، وحتى نهاية العمر، الاسم الوحيد الذي يطلق على ثروت: صاحبة الجلالة الملكة. . .

فريزة التي فوجئت وظلت خائفة، بل وساورتها الشكوك، حين قيلت

تلك الكلمات، وبذلك الشكل، لم تعرف كيف تتكلم أو ماذا تقول. تابع السلطان، الذي لم يكن يريد لأحد أن يتكلم:

ـ وأنت أول من يعرف، وأنت الشاهد والمعرّف...

ولم يجد السلطان صفات أخرى يضيفها، قالت فريزة خانم، في ظل هذا الصمت المنفعل:

ـ سبحانك يا ربي ما أكبر عظمتك وقدرتك!

وبعد قليل، وبصوت تخنقه العبرة:

ـ من أول يوم جات فيه للدنيا كنت أسميها الأميرة!

كادت أن تضيف شيئاً آخر، لكن السلطان قاطعها وبحزم:

ـ ومن هذه الساعة: الأميرة تصير ملكة!

سقطت دمعتان ثقيلتان من عيني فريزة خانم، وبعد صمت لذيذ سيطر على الثلاثة، قالت، وكان صوتها رجراجاً:

ـ الله ييسر لك يا عنان بك، وين ما كنت، بالدنيا وبالآخرة!

إن شيئاً أقرب إلى الزلزال وقع خلال تلك اللحظات، وهزّ كل شيء. ورغم النظرات القليلة التي تم تبادلها، والكلمات الأقل، فقد حفرت عميقاً وغيرت الكثير. خاصة وأن فريزة، وهي تتذكر عنان بسيوني، شعرت بالذنب، قالت وهي تنسحب:

ـ الله يجعلها فيكم وبذريتكم إلى قيام الساعة.

ولأن الخبر انتشر عن طريق النساء، فقد انتشر بسرعة، ولم يبق أحد إلا وسمع به. وإذا كان الرجال قد سمعوا، واستغربوا، ثم هزوا أكتافهم، فإن الأمر لم يمر بالسهولة نفسها بالنسبة لمعظم النساء، خاصة بنات التجار، والجميلات وبنات الشيوخ، لأن كل واحدة منهن كانت مرشحة، بشكل ما، لأن تصبح زوجة لأمير. وكل واحدة كانت تنتظر ليلة كبيرة في موران، خاصة وأن الزيجات التي توقفت بعد زواج خزعل، أو أخذت شكلاً متواضعاً، ما لبثت أن عادت، بعد هذا التوقف، وأصبحت، من جديد، حديثاً لموران كلها. لكن مع الحديث تلك القصة: أن ثروت

وحدها أصبحت الملكة، وأن فنر يختلف عن الكثير من أخوته!

في القصور السلطانية كان الحديث يأخذ نسقاً متنوعاً، وكان يختلف من امرأة لأخرى. نساء خريبط، وقد تقدم العمر بأغلبهن، نظرن إلى الوجوه، وتذكرن أشياء كثيرة، وقد علت وجوههن ابتسامة أقرب إلى الحزن، لكن اختلفت هذه الابتسامة بين واحدة وأخرى، فالتي لم تخلّف انشدّت إلى لحظات بعيدة، رافقتها رعشة أو خوف؛ التي خلّفت عدداً من البنات امتلأت غماً؛ أما التي كانت تنتظر الضجة إعلاناً عن وصول الأمير وعبيده وحرسه، فقد ظل يراودها أمل أخير أن يحصل شيء، وأن يكون ابنها، في يوم ما، سلطاناً لموران.

فضة الموجودة، أو أكثر نساء القصر، هياجاً وغضباً، لا تصدّق، ولا يمكن أن تسلم بهذه البدعة التي لم تخطر ببال أحد: أن تكون امرأة ملكة. ومن هي المرأة: ثروت! كيف تتعامل معها؟ كيف تناديها؟ ولماذا حصل هذا الشيء الآن؟ كان خريبط يذهب إلى أقصى الأرض، يغيب شهوراً، لكنه كان يرجع إليها مشتاقاً نادماً معترفاً أنها المرأة الوحيدة التي ترضيه، وأنها الوحيدة التي تجعله بين أحضانها طفلاً. لم يكن يرفض لها طلباً، ولا تتذكر أنها تخاصمت معه، أو غضب عليها، ومع ذلك لم يفكر، ولم تفكر هي، أنها بحاجة إلى أكثر مما حصلت عليه. من أين جاءت هذه الألقاب؟ ولماذا لهذه المرأة بالذات؟ حتى عدلة، زوجة خزعل، وكانت مثله، لا تعرف كيف تخبئ سراً، اعترفت بأشياء كثيرة: كيف طلّقت عدة زوجات، وكيف زوّجته عدة مرات، ولم تفكر بأكثر من ذلك.

المرأة الوحيدة التي كان لها وضع مميز في قصر الروض، وإلى حد أقل في قصر الغدير، هي أمي زهوة، الشيخة. لكن حتى هذه لم تطلب لقباً، ولم تناد السلطان طيلة حياتها إلا باسمه أو بأبي منصور.

قالت فضة، ولم تخش أن تصل كلماتها:

ـ أولاد السلاطين والملوك يقولون لربعهم: إذا تحبونا صدق لا تسمّونا إلا بأسمائنا، أما هذول اللي ما يدري الواحد أصلهم منين، فسالفتهم مثل سالفة البغل لما سألوه من هو أبوك، قال لهم الحصان خالي!

أما عمير فما كاد يسمع أن فنر سمى زوجته ملكة، حتى صرخ في مضافة السلامي:

ـ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها.

وضحك بسخرية، وأضاف:

ـ يا جماعة الخير، لا بدّ أن عفريت وكرّ بقلب ابن أختي، لأن ما أحد يسوي سواته. شال خزعل، قلنا اختلف الحرامية؛ ظلم العباد، قلنا الظلم أيامه قصيرة؛ وسوّى وسوّى، وما كفّاه، هالحين صار مثل الأكاسرة والقياصرة: صار عندنا ما هو بس ملوك... وملكات!

قا حمود السلامي للفقيه الذي يحدّثه ويسليه، في محاولة لقطع الطريق على عمير لكي لا يواصل هذا الحديث الخطر:

ـ هات يا فقيهنا، علّمنا مما علمك الله.

قال مبروك الصخيري:

ـ وقرأت في سير العجم أن اردشير سار إلى الحضر، وكان ملك السواد متحصناً فيها، وكان من أعظم ملوك الطوائف، فحاصره فيها زماناً لا يجد إليه سبيلاً، حتى رقيت ابنة ملك السواد يوماً، فرأت اردشير فعشقته وأخذت نشابة وكتبت عليها إن أنت شرطت لي أن تتزوجني دللتك على موضع تفتتح منه هذه المدينة بأيسر حيلة وأخف مؤنة، ثم رمت النشابة نحو اردشير؛ فكتب الجواب في نشابة: لك الوفاء بما سألت، ثم ألقاها إليها، فكتبت إليه تدله على الموضع؛ فأرسل إليه أردشير فافتتحه ودخل هو وجنوده، وأهل المدينة غافلون، فقتلوا ملكها وأكثر مقاتليها وتزوجها؛ فبينما هي ذات ليلة على فراشه أنكرت مكانها حتى سهرت لذلك عامّة ليلتها، فنظروا في الفراش فوجدوا تحت المجلس (وهو ثوب يطرح على ظهر الفراش) ورقة من ورق الآس قد أثرت في جلدها، فسألها أردشير عند ذلك عما كان أبوها يغذوها به؛ فقالت: كان غذائي الشهد والزبد والمخ، فقال أردشير: ما أحد يبالغ لك في الحياء والإكرام مبلغ أبيك، ولئن كان جزاؤه عندك على جهد إحسانه مع لطف قرابته وعظم حقه جهد إساءتك،

ما أنا بآمن لمثله منك، ثم أمر بأن تعقد قرونها بذنب فرس شديد المراح جموح ثم يُجرى، ففُعل ذلك حتى تساقطت عضواً عضواً[1].

صرخ عمير:

ـ حيل، وتستاهل ازود، لأن اللي يخون أبوه أو أخوه ما يطلع براسه خير... أبد!

ولما خيم الصمت، قال السلامي في محاولة جديدة لأن يغير الجو:

ـ فقيهنا اليوم يقسّم لعمير وعمير يرد عليه، وهذي السالفة لها أول وما لها تالي، فخلنا هالحين نسمع تقاسيم شريتح.

عدّل شريتح جلسته وقال:

ـ كان عندنا، كذا قال أهل الورى، كان عندنا بمرو قاص يقصّ فيبكينا، ثم يخرج بعد ذلك طنبوراً صغيراً من كمه فيضرب به ويغني ويقول:

بَا اِيْنِ تيمَار بَايَدْ أَنْدَ كي شادِي

ومعناه ينبغي مع هذا الغم قليلُ فرح[2].

تنحنح شريتح، إيذاناً باستعداده أن يصعّد أهاً طويلة، ليغير الجو.

صرخ عمير:

ـ عوذة، عوذة، إذا بدا الطرب ما لنا مكان بينكم...

وصرخ على ابنه:

ـ قم يا عمر، خلنا نمشي، لأن الجماعة قلبهم حار وراسهم بارد، ودربهم غير دربنا!

قال السلامي:

ـ خلك يا شيخنا، ونصلي العشاء جميع!

ـ يا الله يا عمر، لأنهم قالوا من قبل: اللي جامع المغنين غنى، واللي جامع المصلين صلى، وحنا أهل صلاة ما حنا جماعة طرب.

---

(١) أمين قتيبة الدينوري ـ عيون الأخبار، المجلد الرابع، ص١١٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٩١.

قال شريتح، وقد فهم ما يريده السلامي تماماً:

ـ بعد بروسنا، يا شيخنا، نغم أو اثنين، فخلك معنا نستأنس بيك، تسمعنا وتقول رأيك بغنانا، وبعدها. . .

قال واحد من الموجودين ولم يبين وجهه، قال بنزق:

ـ اتركوه يا جماعة الخير!

كتب عبدالله البخيت رسالة إلى العجرمي، وقد أرسلها مع الأدوية التي طلبها العجرمي، وطلب معها عصا قوية، لأن عصاه انكسرت، وهو يستعمل الآن قضيباً من الرمان يتوكأ عليه، وأشار، مازحاً، أن «القضيب» يتثنى ولا يسعفه بالمقدار الكافي، وقد قهقه ابن البخيت كثيراً وهو يكتب الرسالة لأنه استعان بأحد الكتب التي جلبها معه من مصر.

كتب إليه: «. . . وشوقنا إليك، يا أبا مشعل، شوق الرضيع إلى أمه، والرجل إلى أهله، والحبيب إلى حبيبه، والمؤمن إلى ربه، لأن موران، بعد فراقك لها اسودّت وضاقت، والناس تواروا وازوروا، والحال فمن سيّئ إلى أسوأ، من نقرة إلى حفرة، فإذا اكتب إليك، استشهد بمعلمي، الجاحظ، إذ جاء في أحد كتبه: «وقيل لرجل: كيف كتمانك للسر؟ فقال: اجعل قلبي له قبراً أدفنه فيه إلى يوم النشور.

«واعلم يا أبا مشعل «ان الدنيا دار زوال وملال، ليس في كيانها أن تثبت هي ولا شيء مما فيها على حال واحدة، وأما الثبوت الدائم لدار القرار، فالسآمة تلحقها في محبوبها، كما يصيب المنتهي من الطعام والشراب والباه، فإنه ليس شيء أبغض إلى ما يتناهى فيه إلى غايته، من النظر إلى ناحيته، فضلاً عن ملابسته، إلى وقت عودة السبب الأول».

«وإفشاء السر إنما يوكّل بالخبر الرائع، والخطب الجليل، والدفين المضمور، والأشنع الأبلق» ولذلك لا بد أن نبلغك، يا أبا مشعل، أن مولانا السلطان، سمّى حرمه المصون، ملكة للسلطنة، وقد تأتي بعده، بعد عمر طويل، لتكون حاكمة البشر، وقائدة البر والبحر، ولتصنع ما عجز عنه الرجال وتأبى على الأبطال، وهذه الرسالة إليك وحدك، لأن أحداً إذا

قرأها غيرك فاعلم أن رأسي طار وصرت خبراً من الأخبار، فاحرص عليّ رعاك الله وهداك، لأن الملوك لا يستهان بغضبهم، ولا يغفرون، وقال معلمنا إياه، وقد شكا بعض الملوك تنقيب العوام عن أسرارهم فقال:

ما يريد الناس منا؟ ما ينام الناس عنا؟
لو سكنا باطن الأر ض لكانوا حيث كنا
إنما همهم أن ينشروا ما قد دفنا

ولِمَ نرى حب الطعن على الملوك، والتجسس على أخبارهم، وعشق نشر المعايب، واستحلال الغيبة، ظاهراً في طباع الناس لا يكاد ينجو منه أحد منهم إلا من رجح حلمه، وعظمت مروءته، وظهر سؤدده واشتد روعه، حتى قال بعضهم: الغيبة فاكهة النساك»[1].

«ولا أريد أو أوصيك، مرة أخرى، يا أبا مشعل، لأنك تعرف أنه «كتب على بعض أبواب المدن بالمسند: احفظ رأسك، وقالوا: مقتل المرء بين فكيه، وقال بهرام: وسمع في الليل صوت طائر فتحداه بسهم وهو لا يراه، إلا أنه تتبع الصوت فصرعه، فلما صار بين يديه قال: والطير أيضاً لو سكت كان خيراً له»[2].

وقيل أيضاً، ولا بد أن تسمعني، يا أبا مشعل، «ما شيء أحق بطول سجن من لسان»[3].

وقيل أيضاً: «ويسأل اللسان الأعضاء في كل يوم فيقول: كيف أنتن؟ فيقلن: بخير إن تركتنا!»[4].

«وأخيراً، إن كان لنا محل عندك يا أبا مشعل، فنحن قادمون، لأن الأكباد تورمت والقلوب تخّددت، والعيون تقرحت، والأفكار تشتت، والأحلام تبددت، وأصبح الإنسان ينام وهو قاعد، ويشهق وهو صامد،

---

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، كتمان السر وحفظ اللسان ـ ص ١٥٨ ـ ١٥٩.
(٢) المصدر السابق. ص ١٦٧.
(٣) المصدر السابق. ص ١٦٧.
(٤) المصدر السابق.

ويقول لا وهو غير معاند، وفي الختام تقبل التحية والسلام، وموعدنا في عين دامة أو في وادي الحمام!»

قالت العنود، وقد سمعت بالخبر في وقت متأخر:

ـ وي. . . وي، الحايك إذا غني سمى بنته ملكة، وهذا العوج، فنر، اللي الواحد ما يعرف هو حقيقي أو طيف صار وتصور، وسمى مريته ملكة!

وبعد قليل وبمرارة وسخرية:

ـ وهي صدّقت، صارت وتصورت، لأن العنز الجربا ما تشرب إلا من راس النبع.

فريزة خانم التي سمعت بعض ما يقال، ردت:

ـ عين الحسود بيها عود، وعين كل واحدة ما تقول مبروك وتصلي على النبي تطق وتنبق، تطق وتنبق!

وحرقت ورقة وضعت عليها كل الأسماء التي تتذكرها ومسحت بها جبين الملكة ثروت!

رغم أن فترة المساكنة بين اليانور وغزوان طالت وامتدت، ولم يتخللها فتور أو خلافات، فإن فكرة الزواج، وقد تطرق إليها غزوان مرات عديدة، وبأشكال مختلفة، لم تحسم. إذ احتفظت اليانور، رغم مرور الشهور، بشقتها الصغيرة، وحرصت أن يبقى جزء من أشيائها الخاصة، بما فيها بعض الملابس والإسطوانات، وقسم من أدوات الزينة، هناك. أما ملاحظات غزوان حول ضرورة اختصار التكاليف. بالاستغناء عن تلك الشقة، وأشار إليها مازحاً، فلم تأخذها اليانور على محمل الجد أبداً، لأنها تراه كيف يصرف المال وكيف يعيش إضافة إلى الآفاق الكبيرة للعمل، والتي أخذت تتسع وتزيد فترة بعد أخرى.

في جميع الأسفار الطويلة والبعيدة كانت اليانور معه، وكانت تُقدّم في كل اللقاءات بأكثر من صيغة السكرتيرة، وتتصرف على هذا الأساس أيضاً.

المرات القليلة التي لم ترافقه في أسفاره، كانت إلى موران. لم يحرص، ولم تصرّ، وكأن اتفاقاً ضمنياً بينهما. أما حين تقرر توقيع عقد المدينة الجديدة، الذي عملت الشركة كثيراً من أجل إنجازه، وذلك الحماس الذي سرى في المكتبين، في نيويورك، وسان فرانسيسكو، وما رافقه من آمال، ووعود، وتحديات من منافسين أيضاً، إضافة إلى الجهد الخفي والدؤوب الذي بذله صفاء الشلبي، صديق غزوان، وكانت تربطه معه علاقات عمل منفردة أول الأمر، ثم أصبح أحد العاملين في مكتب سان فرانسيسكو براتب، إضافة إلى نسبة مقدارها عشرة في المائة، هذه الأسباب ساعدت في التغلب على تردد اليانور، وجعلت الشركة تتخذ قراراً بسفر الجميع إلى موران، لإنجاز العقد، وللاحتفال به هناك. وتعبيراً عن

هذا التألق، واحتفاء بالأيام الكبيرة القادمة، فقد أعلن غزوان واليانور، قبل يومين من السفر، عن زواجهما.

صحيح أن الاحتفال الذي أقيم بهذه المناسبة كان باذخاً، لكنه كان سريعاً ومختصراً، مع وعد تكرر في بداية الاحتفال، وفي نهايته أيضاً، أن تجري، بعد العودة، احتفالات كبيرة «تليق بأهمية هذا الحدث، وتعويضاً عن القصور والبخل» كما قال ليفي شاوات مازحاً، وهو يودع العروسين، اللذين قررا أن يقضيا اليومين الأخيرين، قبل السفر، في الفندق!

الاحتفالات التي أقيمت في موران، ولم تعط اسماً كما لم تحدد صفتها، عوضت عن كل شيء، كما قال ليفي شاوات أيضاً، في أعقاب الحفلة الكبيرة التي أقامها الأمير راكان في قصره للعروسين!

أما الذين رأوا جانباً آخر من هذه الاحتفالات، أو ما تعنيه، فقد كانوا متأكدين أن مصالحة محتملة بين السلطان فنر وأخيه خزعل، وأن الذي يرعى هذه المصالحة غزوان بالذات. وقد راجت إشاعات كثيرة في موران تؤكد وصول الحكيم صبحي المحملجي، مما دفع غزوان، الذي تخوف من ردات الفعل، وظن أن وراء كل ذلك خصوماً أو منافسين يتربصون ويريدون الإيقاع به أن يقول ويؤكد أمام الكثيرين، حتى دون أن يُسأل، أن الحفاوة موجهة، بالدرجة الأولى، إلى مدراء الشركة الأميركيين، وبمناسبة توقيع عقد بناء المدينة الجديدة، التي اختير لها مكان على ساحل البحر، وستكون مركزاً للصناعات البتروكيمياوية.

ومع أن أغلب الذين حضروا الحفلات لم تخف عليهم العناية والاهتمام بغزوان، فقد انتهز الامير راكان إحدى اللحظات المناسبة ليرفع نخباً إعلاناً عن أن السبب الحقيقي زواج غزوان. وأكد أن غزوان أصرّ على أن يتم في موران وحسب الطريقة الإسلامية! ورغم أن الخبر أذيع وسط هذا العدد المحدود من الضيوف، إلا أنه لم يلبث أن عمّ وانتشر. وفي محاولة أخيرة للتمويه، كان غزوان يصطحب، في أغلب السهرات التي أقيمت على شرفه، أخاه كمال وزوجته، بحجة أن «الوالدة نذرت أن تزوّجنا نحن الاثنين في نفس السنة، لأنه صدف أن ولدنا في ذات

التاريخ»، مع أن الذين يعرفون أسرار العائلة يؤكدون أن غزوان وُلد في أواخر الخريف، وكمال في عيد النيروز، ويضيفون أن تلك إحدى تجارب الحكيم الفاشلة للتحكم بمواعيد الحمل والولادة!

«إن اليانور هي الملكة الحقيقية في موران» هكذا قال الأمير مساعد، حين رأى اليانور، وفهم كلامه تعريضاً بالتسمية التي أطلقت على ثروت. قال ذلك أمام عدد من الأخوة، وكانوا يشاطرونه الإعجاب باليانور، وعدم اقتناعهم أيضاً بالتسمية التي أطلقها السلطان على زوجته!

ولأنه صدف أن سافر، خلال فترات متعددة، عدد من الأمراء إلى الولايات المتحدة، والتقى أغلبهم بغزوان، وتعرفوا أيضاً على اليانور، وقد سهروا والتقوا كثيراً، ورافقت بعضهم إلى الأسواق، فقد حان الوقت، الآن، للتعبير عن التقدير والمودة، ولتجديد العلاقات وتقويتها.

خلال أسبوعين، وهي فترة الزيارة، لم تخل ليلة من دعوة أو أكثر. كانت الدعوات تنهال إلى درجة يصعب قبولها أو رفضها. ورغم أن صفاء حاول، ببراعة، وأكثر من مرة، وضع برنامج، إلا أن الأمور أفلتت من يده، لأن معظم دعوات الغداء، والتي يكون مقرر لها ساعتين، مثلاً، كانت تمتد وتطول، لأنها غالباً ما تقام في الهواء الطلق. في المزارع الخاصة للأمراء، ودائماً يتخللها سباق للخيل أو سباق للسيارات؛ وقد شاركت اليانور في أحد هذه السباقات، وفازت، وكانت الهدية: السيارة التي استخدمتها في السباق!

نتيجة عدم القدرة على التحكم بالمواعيد والدعوات، فقد تدخل راكان، وأعلن، بمرح، أن هذه الزيارة فقط للتعارف، ولا بد أن تتلوها زيارات أخرى كثيرة، وفي أوقات قريبة، «لأن نسيبتنا أصبحت تحمل جواز سفرنا، ولا بد أن تطيع أوامرنا، وإلا نكون، مضطرين، أن نسحب الجواز وأن نعاقب حامله». وهكذا اختصر بعض الدعوات أو أجلّ، لأن غزوان، أعلن بأسف مازجه الحزن، «أن الوالدة لم ترنا، ولم تر العروس، منذ وصولنا، وحتى الآن، لأكثر من ربع ساعة».

بدل الدعوات، وكتعبير عن المودة والإعجاب، انهالت على اليانور

الهدايا. كان الصالون الكبير في الجناح الذي خصص لهما في الفندق، يمتلئ كل يوم. وكانت اليانور، مثل طفلة، بعد كل سهرة من السهرات، وحين تعود إلى الفندق، تحار في كيفية ترتيب الهدايا أو حفظ أسماء مرسليها. كانت تقلبها، تنظر إليها بفرح، تصنّفها، تتأكد من مكان صنعها، وبعد هذه الجولة، وأثناء ما تستعد للنوم، لا تتردد في أن تنتقل مرات، عارية أو بالملابس الداخلية، بين الصالون وغرفة النوم، تفرز الهدايا من جديد، تقلّبها، استعداداً لإعطاء الأوامر حول كيفية ترتيبها للشحن.

كان القسم الأكبر من الهدايا الثمينة وارداً من الولايات المتحدة، وكان هذا ما يجعلها تفخر بها، لأنها لم تحلم بمثلها حين كانت هناك! أما الهدايا الأخرى، الغريبة، النادرة، الآتية من تلك الأماكن البعيدة والمجهولة، فكانت تثير حماسها، وقد حرصت على أن تمنحها اهتمامها الأول، خاصة وأنها ذكرت، عرضاً، ولا تتذكر أمام أي من الأمراء، أنها تتمنى أن تظهر كأميرة عربية بالملابس، بالزينة، وأن يكون لديها أيضاً خيمة عربية وبعض البسط، فجاءتها بعد ثلاثة أيام مجموعة كبيرة من الملابس والحلي الإسلامية المصنوعة في إيران وتركيا ومصر والشام، وجاءتها أيضاً خيمتان واحدة سوداء، والأخرى ملونة. أما السجاد الذي وصل إلى الفندق، فقد ظن عدد من العاملين أنه أرسل من قبل بعض التجار كنماذج تعرض وتعاد، «لأن صفقة كبيرة سوف تستورد من أوروبا وأميركا، وأن الضيوف طلبوا الاطلاع على النماذج المرغوبة»، كما ذكر أكثر من واحد. وحين حُزمت وهيئت للسفر، فقد قال مدير الفندق، سرور المدوّر، أن معظم هذا السجاد تم شراؤه من الولايات المتحدة، حين كان نائباً للبعثة التعليمية هناك!

وداد التي فهمت الأسباب التي دعت غزوان للنزول في الفندق، كما في عدة مرات سابقة، واحتملت أيضاً، وإن كان بغيظ، دعوات الغداء والعشاء التي شغلته، إلا أنها قالت، وبحدة، في عصر اليوم الرابع، حين جاء لزيارتها:

ـ وبدك تفهم، يا غزوان، مثل ما للناس عليك حقوق، أنا أمك،

وأنت شقفة من لحمي ودمي، والي عليك حقوق. . .

ولما احتضنها وقبلها ارتخت وهدأت، فقال:

- والله، يا ماما، كل الناس بكفة وأنت بكفة، وأنا بس بدي رضاك ودعاك.

ردت بانكسار:

- رضاي عليك يا ابني.

وبعد أن خيم الصمت، تذكرت فعادت إلى اللهجة الحازمة:

- ومهما كانت أشغالك، ومهما قلت، بدي أشوفك، وأشبع منك، يا غزوان. . .

وانتبهت إلى اليانور. . .

- وهذي المسكينة، صحيح أنها أول مرة تجي لموران، ولازم تشوف وتتعرف، لكن أنا لازم أشوفها، وأشبع منها. . .

وبعد قليل:

- يقطع أهلنا اللي ما علّمونا. لو الواحد تعلم، وعرف يدير لسانه بكلمتين إنكليزي أو فرنساوي، كان تفاهمنا مع هذه المخلوقة؛ كان سألناها عن حالها وأهلها، وشو بتحب وشو بتكره، لكن مثل ما شايفين: خرسا، وما طالع بيدي شي!

قال غزوان بفخامة:

- والله التعب اللي تعبتيه، يا ماما، ما حدا تعبه، كنت مثل الشمعة، حرقت نفسك حتى تضوي على الناس. . .

تنفس بعمق وأضاف:

- لازم تفتخري، يا ماما، لأن تعبك أعطى وأثمر، وصرتِ بنظر الناس كلهم أحسن أم!

قالت، وهي لا تخفي غبطتها:

- لا تهيلم عليّ يا غزوان، ولا تضحك عليّ بكم كلمة، وتنسّيني. . .

وهزت إصبعها بتهديد:

ـ إذا سامحتك، ووافقت أنك تنزل أنت ومرتك باللوكاندة، مع أنه عندك بيت في موران، فلا تتصور أنك تهيلم عليّ بكثرة الأشغال حتى تهرب مني. . .

وبعد قليل سألت بحزن:

ـ والمخلوقة. . . وأنت، ما بدكم تاكلوا من كبة أم غزوان؟ ما بدي اسمع منك: تسلم أيديك يا ماما على هالكبة؟

ـ والله يا ماما دوشتها للمخلوقة قدر ما حكيت لها عنك، وعن أكلك الطيب، وعن ذوقك. . .

وتطلع إلى اليانور وابتسم، ثم واصل:

ـ وهي، من أول ما وصلنا، وكل يوم، تقول لي: ما بدنا نشوف الماما؟ وأنا كل يوم أقول لها: بكرة، وبس نخلّص الشغل اللي جينا مشانه؛ وما صبرتْ، قالت: اليوم لازم نجي ونزور الماما!

ـ هيك الناس المقدّرين، اللي بيفهموا، واللي عندهم ذوق!

وابتسمت لأليانور، وكادت تضمها إلى صدرها، لكنها خجلت، قالت بنبرة صلبة:

ـ العمر بيخلص، يا ابنيَ والشغل ما بيخلص، فلازم تفرّغ حالك، لأني بعدني ما شفتك!

ـ كم يوم يا ماما، وما تشوفيني إلا عندك.

ـ لا. . . هذي غير مقبولة، لازم اعرف امتى؟

ـ لو قلنا: لا بكرة، ولا اللي بعده،؛ واليوم الخميس، وبكرة الجمعة، شو رأيك الأحد؟

ـ أنت قرر وأنا موافقة!

قال بحزن:

ـ بسم كم يوم شغل، يا ماما، وبعدها الله كريم!

ـ معليش، يا ابني، تعب كم يوم، وراحة العمر كله، لأن الدنيا هيك!

ـ ما بتعرفي يا ماما اديش بتذكرك، ودائماً أحكي لأليانور عنك، وأقول

لها: بس تشوفيها راح تحبيها من جوات قلبك، ولازم تاكلي، من ايد أم غزوان!

قال روبرت يونغ بعد توقيع العقد، وكانت يده ترتجف، وقد أشارت أليانور إلى المكان الذي يجب أن يوقع فيه:

ـ سوف تنقضي سنوات طويلة قبل أن يُوقّع مثل هذا العقد!

راكان، وقد كان الطرف الآخر في العقد، ارتجفت أجفانه الثقيلة، وسأل عما قاله روبرت، فرد غزوان:

ـ يؤكد المستر يونغ أن العقد الذي وقعناه الآن من الأهمية إلى درجة قد تمر فترات طويلة قبل أن يوقع عقد مثله في العالم.

قال المستر ليفي بعربية ثقيلة:

ـ يمكن تشييد مركّب صناعي، يا صاحب السمو، ويمكن تشييد جسر، وهذا يحصل دائماً، وفي كل مكان، أما أن تقام مدينة كاملة، مدينة قادرة على استيعاب الآلاف، وقابلة للتوسع والامتداد، وسوف تكون أيضاً مدينة صناعية، بالتجهيزات، بالمعدات، فإن ذلك شيء خارق، ولا يحصل إلا نادراً.

عقب روبرت يونغ وهو يهز رأسه ويبتسم:

ـ ربما لأني رافقت إنشاء مدينة، خاصة في هذه المنطقة، أقدمت، وبروح المغامرة، على تبني المشروع الجديد. . .

وابتسم وهو يتذكر:

ـ أنشأنا حران من لا شيء. كانت صحراء، بدأنا من الصفر، ولم تمض بضع سنوات حتى أصبحت مدينة عامرة. ولي الشرف أني رافقت كل مراحلها. ولأن من جملة هواياتي تتبع تطور المدن، فقد وافقت شركتنا أن تأخذ على عاتقها المساعدة في إنشاء هذه المدينة. . .

اكتسبت ملامحه الصلابة وشيئاً من الحزن، وأضاف:

ـ قد تتردد شركات أكبر من شركتنا على تبني هذا المشروع، أو مجرد التفكير فيه، لأن إنشاء المدينة، معناه: بداية الحضارة، وضع النواة

الأساسية للحياة، ليس فقط لهذا الجيل، وإنما للأجيال القادمة أيضاً. ومعناه أن الإنسان قَبِل تحدي الطبيعة، ومستعد للمخاطرة، حتى لو لم يكسب مادياً. بل أكثر من ذلك، حتى لو خسر.

قال الأمير راكان، الذي كان يستمع إلى ترجمة غزوان، وينظر، بين لحظة وأخرى، إلى اليانور:

ـ هذا واحد من المشاريع الكبيرة في السلطنة، وحنا متأكدين، وعلى ثقة، أن شركتكم الوحيدة القادرة على تنفيذه!

رد غزوان:

ـ هذا المشروع، يا صاحب السمو، دليل على رغبتنا للتعاون، بغض النظر عن المخاطر المالية، وأيضاً لكي نثبت مدى قدرة الشركة واستعدادها للمساعدة.

حاول الوفد، قبل سفره، أن يقابل السلطان، وقد بذلت مساعٍ حثيثة من عدد من الأمراء، لكن السلطان اعتذر. قال لراكان:

ـ فيك البركة، يا أبو منصور، كفيت وفّيت، وخلِ شوفتي لنوبة ثانية!

الأمير راكان الذي لم يصرّ، قال لوفد الشركة في الليلة الأخيرة:

ـ كان طويل العمر مخصص لكم الموعد، لكن انحراف صحته أخرّه، مع أنه ألحّ على شوفتكم. قلنا له: راح نبلّغ سلامك، وما يهون علينا أن تتعب، والجماعة مثلنا، ومنّا وفينا، ويقدرون.

في طائرة العودة قال روبرت لليفي شاوات:

ـ ... والناس هنا يعتمدون على العلاقات، وعلى العمولة. إذا عرفوك، وإذا تأكدوا أنهم سيحصلون على المبلغ، فإن كل شيء ممكن وسهل...

ضحك وهز رأسه، بأسف، وتابع:

ـ كان يجب على غزوان أن يصرّ على رأينا: المبلغ المقطوع.

وبعد قليل، وكأنه يحدث نفسه:

ـ المبلغ المقطوع، يا مستر ليفي، مقنع أكثر. حين تقول مليون دولار

تعني مليون دولار. وحين تقول عشرة ملايين تعني عشرة ملايين. وهذا المبلغ، حين يصبح خرافياً هكذا، يقنع أي إنسان، خاصة من هؤلاء، وبدل أن ينصرف الواحد إلى التفكير بالنسبة، ينصرف إلى التفكير بما يجب أن يفعله بهذا المبلغ، ولا بد أن يقتنع في النهاية. أما إذا بدأنا بالنسبة، فإن الأمر يثير المخاوف والشكوك، فكل شيء قابل للنقصان أكثر مما هو قابل للزيادة، لأنه لم يتحول بعد إلى رقم. والعكس صحيح لمن يفكر بالأمد الطويل: المدينة التي ستشاد مجرد هيكل، هناك عشرات، مئات التفاصيل، التي تولّد مالاً، في كل خطوة، بكل عمل، ولذلك يمكن أن يكون وضعنا أفضل...

ـ وإذا حصلت ارتفاعات في الأسعار، أو مخاطر من نوع أو آخر؟

ـ مستر ليفي...

وضحك، وهو يضيف:

ـ الخسارة، في مثل هذه الحالات مستحيلة، لأني أقيم مدينة، ولا ألعب كرة المضرب، يا مستر ليفي.

وبعد قليل:

ـ إذا وقعت الخسارة، وهذا افتراض صعب، أو مستحيل، فإنها تقع على الجميع، ويكون صوتها مثل دويّ الأواني الفارغة. ضاجاً، ومثلما تقبلناها لا بد أن يتقبلها الآخرون، وبالتالي ينخفض المليون إلى النصف. أما الأرباح، وبالنسبة، فإن لها بداية، وليس لها نهاية!

قال ليفي بسخرية:

ـ لمن يعرف كيف يحاسب. لمن يعرف ما له وما عليه. ثم ان هؤلاء، رغم بساطة مظهرهم وطبيعتهم، فقد أصبح لديهم من يقول لهم ماذا يجب أن يفعلوا، ولذلك يمكن أن تخسرهم، يا مستر يونغ، إذا حاولت أن تبخسهم حقهم!

ـ حقهم؟

ـ هذا ما يفترضون، ولا يمكن أن تجادل في ذلك.

قالت له اليانور، وهي تسند رأسها إلى كتفه:

ـ . . . وأعطتني، أيضاً، هذا السلسال الذهبي، وفيه شيء مقدس، وطلبت مني أن أضعه ولا أخلعه.

وأخرجت من رقبتها السلسلة الذهبية، وفي نهايتها المصحف، وأضافت، وهي تضحك.

ـ وكمال، وهو يترجم، كان يستعمل كلمات كبيرة، ربما تعلمها في الجامعة، وكان شديد التجهم!

نظر غزوان ملياً إلى السلسلة والمصحف ثم قال:

ـ إنها امرأة بسيطة، مثل كل الأمهات، تحب أبناءها، وتحب ما يحب أبناؤها، ولذلك فإنها تريد أن تترك أثراً. . .

استدار قليلاً، وهو يضيف:

ـ أبي. . . وأمي. أبي يحب تغيير العالم. يحب الأشياء الكبيرة: الأراضي الشاسعة، الأبنية التي تحيط بها الأشجار، الملوك والحواشي، وحتى الكتابة. . .

وابتسم، وهو يضرب على ركبتها:

ـ والوالدة: مثل أي أم، تريد تأمين الحليب لأطفالها. . .

قهقه، وقد استدار مرة أخرى، نظر إلى عيني اليانور، بعد أن رفع رأسها، لكي تراه:

ـ لا تعرفين، يا أليانور. . . كان همها الوحيد، ولا أعرف لماذا، أن أتكلم مع عدد من الأصدقاء، وواحد من أصدقاء أبي، لكي يساعدوا في إنشاء عدد من المطاعم في موران، لأنها تريد أن توظف الأموال التي لنا، والتي حصلنا عليها حتى الآن، باعتبار أن أملاك أبي لا تزال غير قابلة للتصرف، في الأعمال اليومية: تريد أن تشتري عشرين أو ثلاثين سيارة لكي تعمل في الأجرة، تريد أن تفتح مشاغل للخياطة، أن تشارك بعدد من المطاعم، أن. . .

ـ وماذا قلت؟ وماذا كان موقفك؟

ـ قلت لها: يا ماما: هذه الطلبات سهلة، ولا تحتاج إلى جهد لكي أقنع الناس بها، لكنها لا تتناسب مع سمعة العائلة، والدور الذي نرشّح أنفسنا له. وبعد الكثير من الجهد والنقاش، تولى كمال الموضوع، قال: وافق على الفكرة وأترك لي التفاصيل، وبلغ حماد وراتب أن يناقشوا معي الأمر، وهكذا اتفقنا.

قال صفاء الذي شرب أكثر من اللازم وهم يعبرون الأطلنطي:

ـ اسمع... لا بد أن تساعدني، يا غزوان، لكي أتزوج أميرة موران.

ضحك مثل حشاش، وهو يضيف:

ـ أميرة من موران: بولصة تأمين مدى الحياة، بداية الصعود إلى القمر، مخزن بارود، خط الدفاع الأخير ضد الفاقة والفقر والتوسل والتعتير وأخيراً ضد التسول...

هز رأسه، كأنه يفيق من النوم، وسأل من جديد:

ـ كنت أشطر مني بالدراسة يا غزوان، وأريد أن أسألك: ما الفرق بين الفاقة والفقر؟ الغنى والثراء؟

قال ابن العليان لمالك الفريح بعد توقيع العقد:

ـ اعرفك، يا ابن الحلال: حريص، والقرش ما يطلع من يدك إلا مبري. وقبل ما تقول خذوا تصلي على القرش صلاة الميت، فشنهو اللي دهاك حتى وافقت أن فلوسنا ترمى بالبحر؟

ـ صار لي مسخّن أسبوع، يا أبو عزّيز، وكأنك قاتل أبوي!

هكذا صرخ مالك الفريح، ثم اختنق، فخرجت كلماته ممزقة:

ـ عافت نفسي الأكل والشراب، يا رجّال، ولا أنام لا بالليل ولا بالنهار، وإذا عشت اليوم لا بد ميت باكر أو اللي عقبه.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله...

قالها عثمان العليان بأسى، ثم أضاف مخاطباً نفسه:

ـ الواحد يبني قصر حتى يسكنه، يبني مسجد حتى يتعبد ربه. وإذا فسق يبني تياترو حتى يتونس به، أما أن الواحد يبني مدينة بالتشول، ما بها

لا أنس ولا جان، ويحط فيها، اللي جمّعه بالدنيا والآخرة، فهذا اما مجنون أو ابن حرام.

ـ والله، يا أبو عزّيز، الاثنين جميع!

ـ يا أبو صفوق هذا ما يصير، وما يرضاه لا عقل ولا دين.

ـ وشنهو اللي نقدر عليه؟

ـ احكوا، احتجوا، قولوا هذا حرام وما يصير.

ـ والله، يا أبو عزّيز، شقّيت هدومي، وانبحّ صوتي، وقلت اللي ما ينقال، لكن: أبوك الله يرحمه، لا من يسمع ولا من يفهم، كأن الواحد وحده بفلاة.

واستعاد ابن العليان، في ذاكرته، الأرقام، التي سمعها ككلفة أولية لبناء المدينة الجديدة، فثار من جديد:

ـ والله لو قطعوا يدي، لو صلبوني، ما أوقع، ولا أقول: الله يبارك لكم.

ـ ما سألوا عني، يا رجال. أخذوا الأختام، وصاحوا الرويشدي، قالوا له تنوب عن عمك، وزير المالية وتوقع هنا وتختم هنا، وما كذّب خبر. قال لهم: هاكم الأختام، وهذا توقيعي.

وضحك مالك بسخرية، وهو يضيف:

ـ ويروح يوم، ويجي الثاني، يا أبو عزيّز، وتنبني المدينة الجديدة، وكأنه ناقصنا مدن.

ـ وتقوم مدن الملح، ترتفع وتكبر، لكن إذا جاها الماء: فشّ، ولا كأنها كانت!

وتحول الحديث بينهما إلى سخرية مغيظة. سأل ابن العليان:

ـ وشنهو راح يسمونها، يا أبو صفوق؟

ـ مدينة العفاريت والجان.

ـ ومنين راح يلقون لها أوادم؟

ـ من ارم ذات العماد.

ـ هذي الله سخطها وخلصوا رجالها.

ـ الخويا يدورون لهم بشر، ويستأجرونهم.

ـ القول اللي تقول، يا أبو صفوق، يلزم يتبضعون لمدينة من هذا الشكل أوادم مخصوصين: طوال، جهامة، بطرابيش سودا، وعيون زرقا، ويحمّلون كل واحد منهم جرس بالنهار وفانوس بالليل، ويقولون لهم شقوا البحر وانتظروا، أو افتحوا بطن الفلاة، لأن أهل موران ماتوا، وأنتم اللي راح تدفنوهم بليا غسيل وبدون صلاة، وعسى أن الله يوفقكم!

ـ والحل يا أبو عزيّز؟

ـ الحل؟

أما ابن البخيت الذي سمع عن المدينة الجديدة. ولم يعرف لماذا ستبنى، ولمن، فقد انتظر إلى أن التقى بابن العليان، وحين سأله عن أمرها، ولم يتلق جواباً واضحاً أو شافياً، قال له:

ـ هذول أهل الكيمياء، يا أبو عزيّز، من يوم ما الله خلق الأرض، علامة الفقر، فإذا واحد منهم ما حمله الناس، فشلون إذا صاروا أهل مدينة كاملة؟

ـ ظني ما يصيرون يا أبو بادي!

ـ لكن الناس بالسوق يسولفون، يا أبو عزيّز، وسمعت واحد من جماعة حماد يقول إنهم راح يسمونها مدينة فنر!

ـ مدينة فنر؟

ـ أي بالله، يا أبو عزيّز.

ـ حضّروا السرج قبل الفرس؟

ضحك ابن البخيت، وتناول كتاباً، وقال:

ـ اسمع يا أبو عزيّز، شنهو اللي كتبوه من قبل: «وفي تلك السنة رسم السلطان بإكحال عيني شخص يقال له علي ابن محمد المرجوشي، فاكحل عينيه وقطع لسانه، وكان والده من أعيان وجوه التجار بسوق الشرف، وسبب ذلك أنه أوحى إلى السلطان بأنه يعرف صنعة الكيمياء، فانصاع له

السلطان حتى أتلف عليه جملة مال، ولم يفد من ذلك شيء. وفعل نظير ذلك بالأمير تمراز الشمسي، أمير سلاح (يعني مثل وزير الحربية) وأتلف على الآخر جملة مال، ولم يفد في شيء، فحنق منه السلطان وفعل به ما فعل»(*).

وأغلق الكتاب وسأل:

ـ شنهو قولك ياأبو عزيز، متى يحنق سلطاناً، أو غيره، ويسوي مثل ذاك السلطان؟

حين سمع السلطان ما يدور من لغط في الأسواق والمضافات، قال امام عدد من رجاله بغضب:

ـ شورنا من راسنا، وما نريد أحد يقول لنا شنهو اللي نسويه، وشنهو اللي نتركه.

وبعد قليل وبسخرية:

ـ باكر تشوفون، هذول اللي ما عندهم شغل إلا السوالف، يتراكضون حتى يجمعوا الفلوس، وإذا قلت لهم: ها يا جماعة... نسيتم سوالفكم؟ يقولون: والله ما كنا ندري، وجلّ من لا ينسى.

وبدأ الدوي على ساحل البحر البعيد لبناء مدينة فنرا

(*) أيمن أياس، الجزء الثالث، ص ٢٧٥.

ما كادت تنقضي بضعة شهور على توقيع عقد مدينة فنر، وتزايد الموارد المالية للسلطنة، حتى بدا السلطان في أحسن حالاته، لاقتناعه برضا الناس عن كل ما فعل.

وفي أعقاب الاحتفالات الكبيرة التي أقيمت بالسنة الهجرية الجديدة، وكان ابن شاهين، بملابسه البيضاء الفضفاضة، وهو يستقبل المهنئين، إلى جانب السلطان، قد أصبح المفتي الفعلي للسلطنة، دون تسميته، انتظاراً لموت العجرمي، أو لظرف مناسب. . . ما كادت تبدو الأمور بهذا الشكل من القوة والالتفاف والسيطرة، إلا واهتزت موران واضطربت، نتيجة ما وقع في سلطنة الدواحس.

قال السلطان لأخوته الاثني عشر، أهل الحل والربط، والذين اتخذوا القرار بتنحية خزعل:

ـ هذي مورانّا، وحنا أدرى الناس بها. . .

كانت ملامحه قاسية مشدودة، وهو يتكلم. وكان الخوف قد ملأ القصور، منذ الساعات الأولى، وبسرعة كبيرة سرى الخوف من الأمراء إلى الحاشية، إلى النساء، وحتى الأطفال الذين سمعوا ولم يفهموا، استغربوا سلوك الكبار والعصبية التي ميزت تصرفاتهم، فخافوا.

وأهل موران، مثل عادتهم دائماً: بدوا هادئين، أقرب إلى عدم الاهتمام، إلا أنهم لم يخفوا اعتدادهم ومرحهم. ولم يتردد الكثيرون في أن يقولوا، وقد فعل بعضهم بصوت عالٍ، خاصة في السوق العتيق، «الدنيا، يا جماعة الخير، مصبحة مسيّة» ولم تخف دلالة هذه الكلمات على أحد. فبعد أحداث الدواحس، بدا واضحاً أن النار اقتربت، فإذا لم تصل اليوم، فلا بد أن تصل غداً. وقد ولّد ذلك حرصاً، أقرب إلى

الحذر، في نفوس الكثيرين، حتى رجال حماد، الذين كانوا، إلى الأمس، يبدون قسوة وتحدياً في مواجهة الجميع، ما لبثوا أن غابوا خلال الأيام الأولى، ثم أخذوا يغيرون وجوههم وجلودهم مع مرور كل يوم جديد. ويلغ الأمر ببعضهم أن أخذ ينقل ما يجري وراء الأسوار، ويشير، بسخرية، إلى الخوف الذي عم القصور واستبد بالأمراء!

الآن، في الاجتماع الطارئ، الذي دعا إليه السلطان، في قصر السعد، بدا الهم واضحاً على وجوه المجتمعين. كان هماً ثقيلاً أقرب إلى الانهيار، ولأن السلطان عرف، وجاء من قال له: إن الأرض تهتز، ولا بد أن يفعل شيئاً، لكي لا يترك الخوف يمتد وتصل عدواه إلى الجميع، فقد بادر بسرعة، وكان قاسياً متحدياً هكذا.

تابع في جو الصمت المرتاب:

ـ حنا ولد خريبط، حنا النشامى، ندافع عن ملك آبائنا وأجدادنا بأرواحنا. ما نخاف، وما تأخذنا كلمة ولا تردّنا الثانية، وإذا خفنا فمن رب العالمين. حقنا واضح، وجيشنا قوي، وسلاحنا جديد. والناس، أي نعم الناس، معنا، إذا سسناهم زين، وعرفنا شلون نتصرف...

تنفس بعمق، فاسحاً المجال للحديث أن يُستوعب، وأضاف بحدة:

ـ والشرط، يا جماعة الخير، أن تصفى قلوبنا، ونكون يد واحدة، ونحطّ كل عزمنا...

وبعد قليل بنبرة جديدة:

ـ وأنا، قلت لروحي، أنه قبل ما نتخذ أي قرار يلزم نتشاور، حتى ما نندم.

بعد أن تبادل الأخوة النظرات، وكانت تمتلئ بالتحدي والخوف معاً، وحين بدأت الأجساد تتحرك، وقد زايلها بعض التوتر، بدأ السلطان بشرح الكثير من التفاصيل المتعلقة بما حصل، وما أجراه من اتصالات، وما وصلت إليه من معلومات. ولم يخلُ كلامه من التأكيد، مرات عديدة، على المخاطر التي تتعرض لها السلطنة، وضرورة اتخاذ الإجراءات اللازمة للمواجهة، خاصة وأن هناك معلومات مؤكدة تشير إلى احتمال تدبير

مؤامرات، والاتصال بالمعارضين، وتحريض السكان، لذلك يجب الحذر والحيطة، وإلى إحداث تغييرات تتناسب مع المرحلة الجديدة، بما في ذلك الاستغناء عن عدد من الوزراء، واستبدالهم بغيرهم، وضرورة أن يكون أحد الأمراء وزيراً للداخلية، وآخر للمالية، وأن يكون ثالثاً للدفاع.

قال راكان في نهاية ذلك الاجتماع:

- إذا ارتخت أيدينا سرحت الماي حدر رجلينا، وعندها صعب تدبر!

قال مساعد بنزق:

- أيدينا، يا أخوي، أبد على الزناد، وبعد اليوم، ما أظن أن واحد من أولاد خريبط يهنا له عيش قبل ما نخلّص سالفتنا مع الطامعين بنا.

وبدأ يتغير كل شيء في موران.

الملكة ثروت التي تغيرت قبل هذه الأحداث، بتأثير اللقب الجديد، إذ استبدلت معظم الخدم والمربيات، وتغيرت أيضاً بسلوكها وعلاقاتها، أصيبت بالهلع نتيجة ما جرى، وما يصل إليها من أخبار. وفريزة خانم التي تحسبت وخافت من سلوك ابنتها، لجأت، ودون علم الكثيرين، حتى ثروت، إلى الإبقاء على أغلب الصلات التي كانت من قبل، خاصة مع الخدم والعاملين في القصر. فعلت ذلك من قبيل الشفقة، ونتيجة العشرة الطويلة، ولأن هؤلاء كانوا نافذتها على العالم، وعلى ما يجري في القصور بشكل خاص.

أما بعد أن بدأ السلطان يحيط تحركاته بالسرية والكتمان، وأصبح ينام، أغلب الأيام، خارج قصر السعد، وما رافق ذلك من الاحتياطات والحراسات المشددة، مع الهمس والخوف، فقد جعل ثروت في حالة من العصبية أقرب إلى عدم الاتزان، ليس فقط تخوفاً من اغتيال السلطان، كما أشيع، وإنما لأنها لم تعد تعرف شيئاً مما يجري، ولا تعرف شيئاً عنه.

ورغم أنها بذلت في الفترة الماضية جهوداً خارقة لكي تضرب حوله طوقاً، مستغلة الكثير من الوقائع، بما فيها النقد لذي وُجّه إليه، خاصة من الأخوة، حين منحها لقب الملكة، وأقنعته أيضاً باستبدال عدد من المحيطين به، وجدت نفسها، فجأة، في المرحلة الجديدة، وقد فقدت

الصلة تماماً، لأن العناصر التي تم استخدامها مؤخراً، رجالاً ونساءً، لا تعرف دهاليز القصور ولا ناسها، خاصة وأن السلطان، زيادة في الحيطة، لجأ إلى التعتيم على تحركاته أو مكان وجوده.

ردت فريزة خانم على ابنتها، بعد أن انقضى أسبوع كامل، لم يعد فيه السلطان، ولم يسمع عنه أي شيء، رغم المحاولات التي بذلتها ثروت:

ـ أحمدي ربك، يا بنتي، أن الرّجال بعده حي وموجود...

وبعد قليل، وكأنها تحدّث نفسها:

ـ والسلاطين ما هم مثل الناس العاديين، ولا هم ملك أنفسهم أو ملك زوجاتهم...

وحين تطلعت إليها ثروت باستغراب وتساؤل، أضافت:

ـ أي نعم، لأن مثل ما لك حق، لغيرك حق!

ـ يعني في غيري؟

ـ والله، يا بنتي، علمي علمك، بس يمكن تكون المسألة شي تاني.

صرخت ثروت بحدة، وكان صوتها أقرب إلى الصرير:

ـ فكّر أنه ضحك عليّ بكلمة؟ بلقب ملكة؟

وبعد قليل:

ـ إذا صار مثلهم ما يلوم إلا نفسه!

ردت فريزة خانم وهي تبتسم:

ـ ما وصلت المسألة لهذا الحد، يا بنتي، وبعدين الغايب عذره معه.

وحين رددت ثروت لنفسها، بعض الكلمات، وبتورية غير خافية، قالت الأم بنزق:

ـ كبري عقلك يا بنتي، وحطي الله بين عيونك...

وهزت رأسها وهي تضيف:

ـ وبعدين... هو سلطان، يا بنتي، والسلاطين أكبر منك ومني!

انخرطت ثروت بالبكاء، وأحست بالخديعة، أما الأسباب الأمنية فلم تقتنع بها. وهكذا وجدت نفسها في عزلة. أما الخدم والحاشية الجديدة، فقد أصبحوا الأعداء الحقيقيين، لأنهم عاجزون عن المساعدة، ولا يعرفون

أي شيء، كما لا يستطيعون الوصول إلى تلك الزوايا المعتمة والمعطرة، حيث يفترض أن يكون السلطان الغائب!

أحست فريزة خانم، بغريزة الأم، بالخطورة، وهي خطوة تتجاوز غياب السلطان، أو وجود علاقة له بامرأة ثانية، خاصة وأن الابتسامات والرشاوى للخدم مكنتها من معرفة الكثير، لكن الملكة لا تريد أن تسمع، وإذا سمعت لا تقتنع، وإذا اقتنعت، فلفترة قصيرة، ولا تلبث أن تعاودها الشكوك وتملأ قلبها.

ولأن فنر بارع في صمته، ولم يكن، حين يعود، يشير أين كان، أو ماذا فعل، كما لا يقول متى سيغادر، أو كم سيغيب، فإن السياسة، بنظر ثروت تتراجع، لتحل مكانها المرأة. كانت حريصة أن تعرف، مجرد المعرفة تكفيها. سوف توافق وتسامح، المهم أن تعرف. وفنر ذلك المتنوع كالرمل، الصاخب، معها، كالريح، يتحدث، ينتقل من موضوع لآخر ثم يصمت، وصمته هو القاتل.

ولأن ثروت تمتلك براعة توازي براعته، لا تريد أن تسأل، تخفي شكوكها، تتظاهر بالرضا، تضحك، وبعض الأحيان بصخب. تتطلع إلى عينيه بإمعان، ترقب ارتجاف يديه، أو شفته السفلى، إذ أصبحت، من خلال العشرة الطويلة، تعرف إن كان يخفي شيئاً، إن كان متعباً، أو أن هموم الحياة وثقلها ما يشغله.

وفي هذه المباراة الشاقة الطويلة، احتفظ الإثنان بتلك المنطقة المحايدة، احتفظا بها بأقل الكلمات وأكثرها غموضاً وإثارة.

حتى في الفراش، كانت تعتبر أن ذلك المختبر الشفاف يمكن أن يكشف كل شيء، استطاعت، بعد تجارب عديدة، أن تضيف إلى جهلها جهلاً جديداً، حين قالت لأمها، بعد ليلة قضى السلطان معظمها في قصر السعد، ولم يغادر إلا عند الفجر، لأنه كان يخاف كما قال لها وهو يغادر:

ـ كل ما حصل في المنطقة من انقلابات وتغيرات حصل عند الفجر، ولذلك ما أريد افرّح اللي محضرين أرواحهم للفجر!

قالت ثروت لأمها في تلك الليلة:

ـ هذول الرجال ما في أحد يعرف شلون يفكرون، وشنهو اللي يريدونه، كلهم سويعاتية. كل ساعة فكر، وكل ساعة شكل!

ردت فريزة خانم:

ـ يا بنتي، يا ثروت. . .

وابتسمت قبل أن تتابع:

ـ هموم فنر كبيرة، ولازم تساعديه بدل ما تكوني هم على قلبه.

ـ لكن يا ماما.

ولم تستطع أن تواصل.

أهل موران، هؤلاء الذين ولدوا على هذه الأرض القفر، واكتسبوا منها صفات لا تحصى، كي يتغلبوا على قسوة العيش وصعوبات الحياة، تعلموا غريزياً: أن الإنسان الذي يبقى هو الذي يحتمل هذه الظروف، بكل ما فيها من قسوة وخشونة، ويعرف كيف يتعامل مع الأقوياء والضعفاء، دون أن يخاف الأقوياء، إلا بما يتطلبه استمرار البقاء، ولا يسخر من الضعفاء إلا بما تفرضه قوانين الطبيعة.

لم يكن أهل موران مع الذي حصل في الدواحس، كما لم يكونوا مع ما هو موجود هنا. كانوا يريدون شيئاً غير الاثنين، ولأنهم، مثل الحيوانات الصحراوية، ومثل نباتات الفلاة، ينتظرون المطر، ويتشممون الريح، فإن ما حصل في الدواحس شجعهم وأغراهم، وحين التفتوا إلى السماء يستطلعونها، وإلى الرياح يتنشقون فيها رائحة المطر، لم يجدوا، لذلك لجأوا إلى الكلمة اللاذعة، إلى النكتة يصوغونها في اللحظة، فتخرج قوية نافذة.

في هذه الفترة امتلأت موران بأعداد لا تحصى من النكت، ومعظمها يطال السلطان بالذات، ولأنها كانت متقنة، ومصوبة ببراعة، فقد انتشرت وانتقلت، ووصلت إلى السلطان أيضاً.

ولأن موران، مثل المرأة الحامل، كانت تدلّ وتفخر بحملها، فلم تترك أحداً أو بيتاً إلا وأنبأته. حتى العجرمي الذي عاد من عين دامة، بعد أن سمع بما وصل إليه ابن شاهين، ثم تلك المعركة التي وقعت بينهما،

وكانت يفترض أن تنتقل الكلمات التي يتبادلها الاثنان، فإن الكثيرين، إزاء النكات الجديدة، نسوا العجرمي وابن شاهين معاً. أما حماد الذي كانت تصله تلك النكات، فكان يضحك لها أكثر مما يفكر بنقلها. وحتى في المرات القليلة التي نقلها، فقد فعل ذلك أمام أصدقاء، ضمنهم عدد من الأمراء، أكثر مما كان يريد إيصالها إلى السلطان.

قال السلطان لأخيه راكان:

ـ ترى إذا ظلينا سالفة بحلوق الناس، يا أبو منصور، وإذا كفّتهم الكلمة اليوم، فباكر أو اللي عقبه ما راح تشبّعهم حتى عظامنا، فخلنا نقول لهم حنا من، وشنهو اللي نقدر عليه، لأنهم بغير ذا ما يتأدبون!

راكان الذي فهم المعنى العام، هز رأسه، أكثر من مرة، دلالة الموافقة، لكنه كان ينتظر شيئاً محدداً. تابع السلطان، وهو ينظر إلي عينيه تماماً:

ـ أهل موران ما يفهمون إلا بالعصا. اضرب الخشم تدمع العين.

وتنفس بأسى، وتابع:

ـ اللي سويناه لهم ما أحد يسويه: كانوا يرعون الإبل والغنم، كانوا يسافرون من ديرة للثانية حتى يلقوا الخبز، كانوا يشتغلون، هنا وهنا، مثل الصناع والخدم، فقلنا لهم: كفاكم يا أولاد الحلال، وأنتم من اليوم بديرتكم ويصلكم كل شيء، لأنكم تستاهلون على تعبكم، ويلزم ترتاحون ويجيكم رزقكم وأنتم جالسين، وبدل ما يشكرونّا، ويقولون طالت أعماركم وكثّر الله خيركم، رفعوا خشمهم.

ضرب على مسند الكرسي، هز رأسه بأسف، وبعد قليل:

ـ حتى ابن العليان، صار يحكي علينا، ويقول فلاني وتركاني، يا أبو منصور...

وتغيرت لهجته، أصبحت ساخرة:

ـ وابن المطوع لا يقول ولا يحكي، وكأن الدنيا ما بها شيّ. ولما سألته عن السوالف اللي يقولها الناس، تعرف شنهو كان جوابه؟ قال: سوالف ليل يا طويل العمر، وما نريد ندوخك...

وبحدة أكبر:

ـ اسمع يا راكان: من هذه الليلة أنت وزير للداخلية، وأنت المسؤول!

وراكان الذي تراجع بقوة، وكأن مساً كهربائياً أصابه، وأيقظ كل شيء فيه، أجاب دون انتظار:

ـ من قبل كان رأي، يا طويل العمر، أن هذه الوزارة، يلزم واحد منا يكون فيها. . .

ابتسم، وهو ينظر إلى السلطان، وأضاف:

ـ عفا الله عما مضى، وحنا أولاد اليوم.

وما أريد أوصيك يا راكان: هذول أهل موران نار الله الكبرى، ما يخافون إلا من العين الحمرا، وما يصيرون أوادم إلا بالعصا، فلا تقصّر.

ـ وكل الله يا طويل العمر، وإن شاء الله ما يصير إلا الخيرا!

أذيعت، في نفس الليلة، إرادة سلطانية بتغيير عدد من الوزراء: سُمّي راكان وزيراً للداخلية، وميزر وزيراً للمالية، وعين الرويشدي معاوناً لوزير المالية، أما وزارة الدفاع فكانت من نصيب مساعد. كما تضمنت الإرادة ذاتها تبادلاً في الحقائب بين عدد من الوزراء.

موران، مثل غيرها من المدن، انشغلت لعدة أيام في تفسير ما جرى، لكن دون أن تصل إلى جواب. أما حين انفجرت قنبلتان، الأولى عند سور وزارة الدفاع، والأخرى في السوق العتيق، فقد تلفت الناس وتساءلوا: «ها. . . وصلت البشاير أم هذي غيمة صيف كذابة؟».

وظلت موران تنتظر وتترقب، الرجال يعودون مبكرين إلى بيوتهم، لا خوفاً، وإنما لكي يسمعوا ما تقوله الإذاعات الخارجية. النساء اللواتي جمعن أخبارهن من خدم القصور والماشطات، وأضفن لها من عندهن الكثير، يخلقن في عقول الرجال الاضطراب أكثر مما يساعدونهم على قراءة أحداث الغد.

قال عمير الذي سمع بالأخبار:

ـ كان يلزمه يعرف من زمان، ابن المطوع، لأنه ما حصّل إلاّ الكلمة الشينة والوجه الأسود، ويستاهل.

تذكر أشياء كثيرة، وبعد صمت، أضاف بسخرية:

ـ سألوا ذاك الواحد: أنت شنهو؟ قال: أنا عبدكم وأجير مرابعهم!

وتنحنح عمير، وقال كأنه يحدث نفسه:

ـ أهله، والشهادة لله، أوادم. أبوه تاجر، وما عنده غير تجارته. يجوز أنه طماع ويحب الفلوس، لكنه حقاني. وعمه شداد: صاحب خيل، والحصان عنده مثل ابنه. أتذكر أنه كان إذا توجع حصانه يتوجع قبله، وإذا باعه يبيع روحه معه، ويظل يوصي المشتري ويلحّ عليه، حتى انهم قالوا: شداد إذا باع الحصان اليوم مستعد يشتريه ثاني يوم ويعطي فيه مربح...

وضحك وهو يتذكر أكثر:

ـ أما مفلح، الله يعافيه، فما كان بعينه شي، وكان يقول: خريبط الثور الكبير. وكان يقول: الثلم الأعوج من ذاك الثور. ومع أن خريبط سمع هذا الكلام، لكنه، والشهادة لله، سكت، بلعه وسكت!

أما حين جرى الحديث عن مالك الفريح، فقد قال عمير وهو يصرّ بحقد:

ـ حيل، ويستأهل أكثر، لأنه أحرص من كلب وانجس من خنزير.

وتحددت عيون أهل موران ودق سمعهم. ومثلما افترشوا الأرض في الأيام الأخيرة من مرض خريبط، وكانوا يتبادلون الأخبار وينتظرون. وكذلك فعلوا يوم تزوج السلطان خزعل، ثم يوم خلع، فقد عادوا إلى تلك الهواية التي لا يملّونها أبداً: الانتظار. لكن مع الانتظار، هذه المرة، النكت اللاذعة، والسخرية.

قال راكان لعدد من أقربائه، من ناحية أمه، جاءوا لكي يهنئوه بوزارة الداخلية: وقد أشاروا، عرضاً، إلى تندر أهل موران وتطاولهم:

ـ ما يخالف، بس إذا كانوا رجال فخلهم يحملون!

وبعد قليل، ومن بين أسنانه:

ـ والله لاطلّع حليب أمهاتهم من خشومهم، وتشوفون!

سوف تنقضي أعوام طويلة قبل أن يحصل في موران مثل ذاك الذي حصل في الجمعة الأخيرة من شهر رمضان من تلك السنة.

إذ ما كادت تمضي بضعة شهور على «ثورة» الدواحس، حتى امتلأت موران بالنكت والدخان والانتظار. ومع كل يوم جديد، كانت تقع بين السلطنة والدواحس منازعات من نوع لم يألفه الناس. بدأت أول الأمر بفتور بين الدولتين، ثم أصبح الفتور جفاء: أما حين بدأت القطيعة وحرب الإذاعات والصحف، فقد قال الكثيرون: «الله يستر، لأن أول الحرب الكلام».

لم ينتظر فنر أن تصله الحرب، إذ اعتبرها واقعة، وبدأ يعد نفسه ويعمل على هذا الأساس.

فبعد الوزارة الجديدة، أرسل عدداً كبيراً من الوفود إلى الدول المجاورة والصديقة، وإلى مناطق الحدود. وإذا كان موفدوه قد حملوا إلى الدول ورؤسائها الرسائل، وطلبوا التفهم والدعم والتأييد، فإن موفديه إلى مناطق الحدود، وعلى الطريق، حملوا النقود والوعود والسلاح، كما وجهوا إلى شيوخ العشائر دعوات حارة لزيارة موران.

قال الكثيرون أنهم لم يشهدوا موران مليئة هكذا بشيوخ البدو وحراسهم وأقربائهم إلا مرتين أو ثلاث مرات أيام خريبط، وقبل أن تبدأ حملات الحويزة والعوالي. وتحدثوا عن الولائم الكبيرة التي أقيمت، والهدايا المتنوعة التي تم توزيعها خلال أسبوعين، مما اضطر عدداً من التجار، وكان أبرزهم سعيد الأسطة، ليس فقط إلى إرسال بعض رجالهم على جناح السرعة لشرائها، إذ طلبوا منهم أن يبقوا في بيروت لتلقي قوائم

جديدة للمشتريات، وشحنها فوراً، «مهما كلف ذلك» كما قال سعيد، وهو يوصي ابن أخته أيمن متولي.

أما الاحتفالات التي أقيمت، وقد تم في إحداها استعراض قطع رمزية من الجيش، كان على رأسها الأمير مساعد، فقد أثارت من الاهتمام والتعليقات الكثير. وذكر بعض الخبثاء أن الأمير مساعد، بالملابس العسكرية ـ وكان يرتديها لأول مرة ـ بدا صارماً ومضحكاً معاً. حتى وهو يمر أمام المنصة الرئيسية للعرض، وكان في سيارة جيب مكشوفة، لم يستطع أن يمنع نفسه من الابتسام حين سمع التصفيق، مما دفعه لأن يطلب من السائق الإبطاء، فتوقف السائق فجأة، وكاد يتسبب بوقوعه. أما وهو يتماسك ويعتدل، فقد قوبل بعاصفة مدوية من التصفيق والمرح!

في الأحياء الفقيرة، وفي الأزقة البعيدة، رغم أن الفصل نهاية الربيع، وقد تعود الكثيرون أن يتركوا أزقتهم إلى وسط المدينة، وإلى الحديقة العامة، وهي الوحيدة في موران، وقد أخذت أول الأمر اسم حديقة السلطان خريبط، ثم حين وُسّعت أطلق عليها حديقة السلطان خزعل، أما بعد أن خلع فقد أصبح اسمها «حديقة السلطان»، فإن أغلب الناس لم يجدوا في أنفسهم الحماس أو الرغبة لمتابعة الاحتفالات أو التمشي في الحديقة. فضلوا البقاء في احيائهم وقريباً من بيوتهم ليسمعوا الأخبار على أن يشهدوا اللقامة، «لأن الشيوخ ورجالهم بوجوهنا وين ما رحنا وين ما جينا، وشوفتهم تقطع الرزق»، أما الأمير مساعد فلم يستطع أحد أن يتصوروه وزيراً للدفاع، إذ كان، خلافاً لأغلب أخوته، حتى الأشقاء، قصيراً، شديد السمنة، وكان في وقت من الأوقات، مشهوراً بنهمه، وقيل إنه كان يأكل خروفاً كاملاً في الوقعة الواحدة، وقد كسب أكثر من رهان!

رغم أنه لم يبق أحد من العاملين في القصور، أو له صلة بها، إلا وانشغل، بشكل ما، بضيوف موران، وانعكس ذلك بوضوح في الأسواق، وتفاءل الكثيرون من التجار، وتمنوا أن تستمر هذه الحال، فإن راكان الوحيد من الوزراء والأمراء لم يظهر في الاحتفالات والدعوات.

الذين راقبوا، مبكراً، من حضر ومن لم يحضر من الأمراء، تلفتوا في

البداية ثم تساءلوا، وحين تكرر الأمر في الاحتفالات والدعوات اللاحقة، وتأكدوا من غياب الأمير راكان بالذات، قالوا إن في الأمر شيئاً غير عادي، ولم يضيفوا أكثر من ذلك. أما الذين اكتشفوا غيابه في وقت لاحق، اكتشفوه بأنفسهم، أو جاء من لفت نظرهم، وكانوا أكثر معرفة أو أكثر شكاً، فقد كانوا متأكدين أن وراء هذا الغياب أمراً خطيراً.

أما حين بدا غيابه واضحاً جلياً في الاحتفال العسكري، لأن الأخوة، والأبناء جلسوا على جانبي السلطان، وأمام الناس، ليس حسب أهميتهم، وإنما حسب الأعمار، فقد سُمعت تساؤلات كثيرة، في الاحتفال ذاته، حول الأمير راكان.

خبر من هذا النوع لا يمكن إخفاؤه أو تجاهله. وإذا كان أغلب الذين حضروا الاستعراض قد انشغلوا بالمصفحات التي مرت، والمدافع التي كانت تدور، ثم بالجمال والخيول، وكانت قمة الاحتفال حين مرت ثلاثة أسراب من الطائرات، فإن الذين نقلوا وقائع الاحتفال للآخرين لم ينسوا الإشارة إلى غياب الأمير راكان. ذكروا ذلك بتساؤل أقرب إلى الاستغراب.

موران الأزقة الخلفية، موران الفقراء، كانت تعتبر جزءاً من حربها التي لم تتوقف يوماً واحداً، أن تلاحق السلطان، وكل من يمت له بقرابة أو بصلة. ولأنها اكتسبت بمرور الأيام، وتزايد الظلم، قدرة خفية على المواجهة والتحدي، فقد وجدت في قصة الأمير مساعد تسلية، لذلك أستعيدت رهانات أكله وشرابه، وكيف أن السلطان خريبط، حين تزايدت القصص التي تروى عن شرهه، حبسه، ومنع عنه الأكل، حتى كاد يموت. وكيف كان يتظاهر بالصيام أيام رمضان، ثم فجأة يسقط مغشياً عليه، وخلال إسعافه، إذا لم يستطع أن يأكل شيئاً، فلا بد، على الأقل أن يشرب الماء!

الآن، وموران تسمع أنه وزير للدفاع، ويستعرض الجيوش، وأنه فقد توازنه حين توقفت السيارة فجأة، فإن القصة ذاتها تنتقل من مكان لآخر بعد أن تكبر ثم تتغير، إلى أن تصبح قصة طويلة مسليّة.

وإذا كانت قصة الأمير مساعد قد سلّت موران، فإن غياب راكان شغلها.

قال حمود العياف، وهو من أصدقاء شمران:

ـ غياب راكان ما هو لله، لا بد تكون وراه سالفة...

ضحك بحزن، ثم أضاف:

ـ ومَنْ طوّل الغيبات جا بالغنايم!

أما فهاد الشكبان الذي أرغمه راكان على بيع الأرض التي كانت له غرب الحاووز، فقد قال ضاحكاً، حين سمع بغيابه عن الاستعراض:

ـ الله العليم أنه موّكر ورا قاع أو بوجه حريمة، وباكر تسمعون: أرض فلان انباعت لبلدية موران، لأنهم يريدون يفتحون شارع، أو بنت فلان تركت رجلها وتزوجت ثاني، ولا بد يكون الثاني من رجال راكان!

زيدان، مع الأرغفة التي يضعها في يد المشتري، كان يهمس لمن يعرفهم:

ـ مثل الدجاجة، كل ما يلقاه يلقطه، فاحرص من راكان!

صالح النذير الذي تبهدلت أحواله، بعد أن ترك المقهى، وهام في موران من عمل لآخر، وقد دب إليه الضعف والهرم، وكان يرجع، أغلب الأيام، إلى سوق الحلال، ويسأل كل من يلقاه عن أخبار شمران، وقد تعرّض للتوقيف عدة مرات، منذ أن أصبح فنر سلطاناً، بتهمة التشرد، أو لعدم وجود كفيل. حين قابل صالح بعض الشبان الذين جاءوا إلى موران خلال إجازتهم الجامعية، وصدف لبعضهم أنه عرفه أو سمع عنه، وقد التقوه ذاهباً باتجاه السوق، ولما استوقفوه وسألوه عن أحواله، وأحوال موران، رد ساخراً:

ـ موران ما مثلها هذي الأيام: بالعلالي، نخر وزمر، غنا ورقص، وبينهم دق قهوة وشمة هيل. والشيوخ، طالت أعمارهم وكثّر الله أمثالهم، مربعين بموران: يستعرضون ويقسّمون سوالف، وطويل العمر يعلفهم حتى يحارب بهم.

وضحك بصخب، وبعد أن هدأ تطلع إلى السماء بحزن وبدأ يدندن:

- شكوت له ما أقاسي من الظما فقال إلى صخر شكوت ولم تدر
فقلت له إن كان قلبك صخرة فقد انبع الله الزلال من الصخر

لكن الظاهر أنه غافي، أو ما يسمع!

لما حاول معه الشباب أن يتكلم أكثر، قال وهو يمشي:

- ويجوز، يا جماعة الخير، أن ربنا عنده أشغال أهم من موران، فخله يخلّص أشغاله، وبعدها إذا جانا وسألنا، نقول له: مظلومين يا رب العالمين، وأنت ناسينا!

واتجه صالح إلى سوق الحلال القديم بخطى ثابتة قوية، وكأن وراءه عملاً لا يحتمل التأخير أو التأجيل. قال أحد الشبان:

- بين هذي المرة، وآخر مرة شفته، وكأنه كبر عشرين، ثلاثين سنة.

قال آخر:

- والشيخوخة ليست مرتبطة فقط بالسنوات، لأن الأمراض، والوراثة، وسوء التغذية، ونوع الحياة، والهم...

وكاد يضيف أسباباً أخرى، إلا أن شاباً ثانياً قاطعه:

- الله يساعد موران ويساعد أهلها، لأن واحداً من الأسباب التي ذكرتها تكفي وتزيد!

قال آخر:

- قال الله للإنسان: ساعد نفسك يا عبدي حتى أساعدك!

بعد أن انتهت الاحتفالات، ووزعت العطايا والنقود، غادر الشيوخ موران استعداداً للأيام الآتية، ولقد جرى للكثيرين وداع حافل عند وادي الرها، أو في بداية طريق العوالي، وكان كبار الأمراء في الوداع.

لم يبق لعيد الفطر سوى خمسة أيام. اليوم الجمعة، الجمعة الأخيرة من رمضان. الفصل أواخر الربيع، الحرارة معتدلة والهواء منعش، وكأن رضا الله، كيدٍ خيّرة، تبارك البشر والمخلوقات، الآباء يفكرون بكيفية تأمين المال لشراء مستلزمات العيد، الصغار يفكرون بالأحذية والملابس والهدايا، والنسوة يفكرن بالأعباء الكثيرة التي تنتظرهن.

في تلك الجمعة، منذ الصباح الباكر، وبعد صلاة الفجر مباشرة، وعلى غير العادة في أيام وليالي رمضان الأخرى، حيث كان الناس يطيلون السهر، ويتأخرون في الاستيقاظ، دب نشاط غير عادي في معظم البيوت. نهض الآباء مسرعين، وكان الأبناء بانتظارهم، وانطلقوا إلى السوق. كما انطلقت النسوة، في حملة صاخبة، إلى عمليات التنظيف، لأنها الجمعة الأخيرة، والوقت يمر سريعاً.

بدت موران بنظر الكثيرين، في ذلك الصباح الندي، يمامة فتيّة شبعت نوماً في ذلك الليل القصير، وتستعد، وهي تستقبل يوماً مليئاً بالطراوة، لحياة حافلة. أشجار النخيل تزهو بثمرها، والرمان أزهر وتورد. أما الريحان فقد ملأ أريجه باحات البيوت، وكانت تفتح هذه البيوت أبوابها لتقذف الآباء والأبناء، بحثاً عن الرزق، وتأمين حاجات العيد.

لأول مرة، منذ وقت طويل، يتقابل الرجال والصبية في هذا الوقت المبكر. وإذا كان الكبار قد حيوا بعضهم، وساروا معاً مسافة من الطريق، فإن الصغار اندمجوا بسرعة وواصلوا الأحاديث التي قطعوها في الليلة السابقة، حين نادى عليهم الكبار، لكي يعودوا، بعد أن تقدم الليل.

شكا الرجال للرجال ضيق الحال، وصعوبات الحياة، لكنها شكوى لم تصل إلى حد المرارة أو فقدان الأمل، وذكروا، عابرين، كيف كانت موران في الأيام الماضية، وتمنوا ألا تصل الأمور إلى حد الحرب والقتال. قالوا ذلك وهزوا رؤوسهم، أسفاً، ثم افترقوا. الباعة، على غير عادتهم، فتحوا محلاتهم، وعرضوا سلعهم، في وقت مبكر. فعلوا ذلك برضا وأمل، وقالوا لأنفسهم «في جمعة العيد، إذا كان الموسم طيباً، يبيع التاجر ما يبيعه في سنة» وبعد أن كنسوا ورشوا الماء، تطلعوا في هذا الاتجاه، وفي الاتجاه الآخر، وقالوا: يا رزاق يا كريم.

عمليات البيع والشراء تجري سريعة رضية، المساومات أقل من الأيام العادية، فالباعة لا يبالغون، والمشترون لا يترددون كثيراً. والأطفال، هم في الحقيقة الذين يحسمون، من خلال رغباتهم، وانكسارات العيون، ولحظات الصمت الضاجة، عمليات البيع والشراء.

خلال ساعات قليلة تم شراء معظم أو كل ما يراد شراؤه. وإذا بدا الاستغراب على الرجال أنهم أنجزوا خلال ذلك الوقت القصير ما يحتاج إنجازه إلى وقت أطول وإلى جهود مضاعفة، فقد عزوا ذلك إلى الرضا الذي ميّز سلوك البائعين، فبدوا أكثر طيبة، وأقل طمعاً، خلاف ما تعودوا عليه في شهور أخرى، خاصة شهور الصيف. وأحس الذين باعوا، والذين اشتروا، أن مجيء رمضان في ذلك الوقت من السنة رضا من الله، وتخفيفاً على البشر، وتمنى الكثيرون لو أن رمضان يأتي دائماً في مثل هذا الوقت. وتذكر بعضهم أيام الصوم الطويلة القاسية، وتراءى لهم أن رمضان لا يأتي إلا في الصيف، وربما جاء هذه السنة خلافاً للسنين السابقة.

الأطفال الذين اعتبروا أن السوق لم يعد يعني لهم شيئاً، واستعجلوا العودة إلى البيوت، لكي يفردوا الثياب والأحذية والهدايا، وليقولوا للأمهات والأخوات عن البراعة التي تميزوا بها في اختيار الأشياء التي حملوها، هذه الرغبة قابلتها أخرى، إذ سيطر على أكثر الآباء خشوع جعلهم لا يترددون في أن يصلوا الجمعة الأخيرة من رمضان في جامع السلطان فنر. ان موران كلها، في هذه الصلاة، ستكون هناك. ولا بد أن يقول العجرمي، أو من ينيبه، شيئاً هاماً وقوياً في خطبة الجمعة. إنها الجمعة الأخيرة، والناس الذين ركضوا وباعوا، وغيرهم الذين كذبوا أو غشّوا، وأولئك الذين انتظروا، كل هؤلاء سوف يكونون في مثل هذا اليوم، في مثل هذه الساعة، في حالة من التساؤل وعتاب النفس والمراجعة، ولا بد أن تتطهر قلوبهم وتصفو نفوسهم، ولا بد أن يصبحوا بشراً من نوع جديد.

لذلك، فإنه بمقدار رغبة الأبناء بعودة مبكرة، كان إصرار الآباء أن يعلموا أولادهم الامتثال لأوامرهم أولاً، وأن يهتدوا ويصبحوا صالحين، في وقت مبكر، بعد ذلك.

أودعت معظم المشتريات عند البائع الأخير: «إلى ما بعد الصلاة» هكذا قال كل أب لمن اشترى من عنده، وكان الأخير يستعد للصلاة أيضاً.

لا يتذكر أغلب الذين صلوا أي شيء قاله الإمام. صحيح أنه تحدث

عن الحياة والموت، عن الخير والشر، عن الأعمال الصالحة، وعن ضرورة أن يكون الناس أخوة، وأن يساعد بعضهم بعضاً. يتذكرون شيئاً من هذا أو ما يشابهه، ولا يتذكرون أكثر من ذلك، لأن ما حصل بعد الصلاة مسح من ذاكرة الكثيرين ما حصل قبلها، ولأنه ظل يرنّ ويتوهج فترة طويلة من الزمن.

ما كادت الصلاة تنتهي، وكان الزحام شديداً، وتخرج الأفواج الأولى من المصلين إلى باحة المسجد، ثم إلى بداية الساحة، حتى تراجعت الموجة الأولى. لم تتراجع، وإنما ثقلت خطى المتقدمين، فعرقلت الذين كانوا بعدهم، والتفتت عيون الذين خرجوا قبل غيرهم بتساؤل أقرب إلى الذعر، وكانت تقول أشياء كثيرة.

من خلال الهمسات والكلمات القصيرة المذعورة، ومن الصمت الذي امتد كثيفاً قوياً صاعقاً، عرف الذين خرجوا أن في الساحة سبعة رجال جاهزين لتنفيذ حكم الإعدام.

السبعة صغار الأجساد، صفر الوجوه، أقرب إلى المرض. كانت شعورهم، رغم قسوتها، تعبث بها ريح لا ترى، وكانت عيونهم مسكينة راجية. أما الخرق التي كانوا يلبسونها فقد تمزقت في مواضع كثيرة، فكشفت عن أجسادهم، أو كشفت أجسادهم، فظهرت ضامرة ضعيفة، وكأنها لم تكتس لحماً، وكانت أقرب إلى الزرقة.

الصغار الذين بدوا، للحظات، وقد كبروا سنين، حين انفصلوا عن آبائهم، أو ابتعدوا قليلاً، ما لبثوا من خلال الصمت والوجوم، أن عادوا، مثل الفراخ الملاحقة، إلى أيدي الآباء،أو إلى ثيابهم يتمسكون بها. لقد أحسوا، قبل أن يعرفوا، أن شيئاً خطيراً يجري خارج الباحة، في الساحة الكبيرة التي مروا بها ثلاث أو أربع مرات خلال النهار، وهم يجمعون الحاجات من هنا وهناك.

ومثلما تسري النار في بيادر الأعداء، سرت أخبار هؤلاء السبعة: انهم الذين ألقوا القنابل في السوق العتيق، وعند أسوار وزارة الدفاع. صحيح أن القنابل انفجرت، لكنها لم تقتل أحداً، لأن من وضعها قصد ذلك، فعند

الصباح الباكر، وفي مثل هذه الأيام، لا يكون أحد في السوق، أو عند سور الوزارة.

قال الرجال: «ما دام لم يُقتل أحد، لماذا يقتل هؤلاء؟» وقالوا: «ما انفجر قنبلتان، والقنبلتان تحتاج إلى رجلين، والذين سيعدمون هنا سبعة، فمن أين أتى المجرمون الخمسة الآخرون؟» وقالوا: «راكان فجّر القنابل وفنر يريد أن ينتقم من أهل الدواحس» وأشياء أخرى قالها الرجال لأنفسهم، أو قالوها همساً، ولأن الصمت كان شديداً مسيطراً، فإن الأفكار ضاعت في هذا الصمت!

لما بدا للرجال أن كل شيء مدبرٍ، وقد تأكدوا من هيئاتهم ونظراتهم، فقد امتلأوا غيظاً، ثم أصبح الغيظ حقداً، إلى أن تحول إلى غضب.

قال أب لابنه، وهو يرفعه لكي يرى:

- ناظر زين يا وليدي. تشوف؟

والطفل لا يعرف كيف يجيب، أو إلى أي شيء ينظر. فيدير الأب وجه ابنه بيد، ويهزه بالأخرى:

- هنا... هنا، يا وليدي.

وحين يتأكد أن الطفل ينظر إلى حيث يشير، يتابع:

- هذول المساكين، لا صوج ولا ذنب، بس لأنهم فقارا، وما لهم أحد يحميهم ويدافع عنهم.

ولأن الطفل لا يفهم ما يجري، ولأن الأب يريد أن يقول، يصرخ:

- أي نعم، هذول المقرّمين، وناظرهم زين، راح يذبحونهم هالحين...

ويضحك الطفل، وهو ينظر إلى أبيه من فوق، وينظر إلى الذين حوله. يخاف من الصمت، يخاف من نظرات الرجال، يهز كتفيه بحيرة. يقول أبوه:

- راح يذبحونهم، لا صوج ولا ذنب، بس لأنه ما لهم أحد.

وتتغير نبرة الأب وهو يضيف:

ـ وكل واحد، يا وليدي، مسكين ضعيف، وما يقدر يدافع عن روحه راحت روحه، يصير به ما يصير بهذول.

وبعد قليل:

ـ تشوفهم زين؟ ناظرهم، يا وليدي، حتى ما تنساهم.

ويهوي سيف الجلاد على الرؤوس واحداً بعد آخر. تتساقط الرؤوس وترتفع نافورة الدماء. يرتفع صراخ الأطفال، يشتد لبطهم وضجيجهم وخوفهم وفرحهم. ولا يعرف الآباء هل كان هذا الدرس ضرورياً وهل يحتمله الأطفال ويفهمونه، أم أنه سيرهقهم ويكون أكثر مما تحتمل رؤوسهم الصغيرة؟

إن شيئاً أقرب إلى الانتقام من النفس، إلى العذاب وإلى الجنون، ما كان يحصل في تلك الجمعة من رمضان. الجمعة الأخيرة من رمضان. بعد الصلاة، في ساحة مسجد السلطان فنر.

قال واحد كان يشق طريقه بصعوبة، لكي يترك الساحة:

ـ كفار وما عندهم شهامة اللي يسوون مثل هذي السواية بهذا اليوم الفضيل.

ودفعه بكتفيه أكثر من قبل وهو يصرخ:

ـ ويا حسنته اللي يلاقي وجه ربه بمثل هذا اليوم.

قال واحد من الرجال:

ـ لو كانوا من أهل موران لكان هذا ما صار.

رد آخر:

ـ وكلّ الله، يجي دوردهم، أهل موران.

ـ تخسا!

قال آخر:

ـ يا أولاد الحلال: النفس نفس، من أهل موران، أو من أهل الزقان، فخافوا الله، وقولوا الله يرحمهم.

وخرجت همهمة: الله يرحمهم... ويرحمنا.

ولا يعرف الرجال كيف عرفوا الدكاكين التي أودعوا فيها حاجاتهم، وكيف حملوها عائدين إلى البيوت. ولا يعرف الأطفال هل يفرحون أم يبكون، هل يلبسون الأحذية الجديدة، أم يروون الأحداث التي رأوها. إن الأشياء، اختلطت إلى درجة لا يمكن فصلها، أو وضع مسافات، ولو وهمية، بين العقال ورأس القتيل، بين الحذاء الجديد والدماء الحمراء التي ما تكاد تستقر في الرمال حتى تتغير ألوانها. ولا يعرف الطفل هل فرح بالحذاء والثوب، أم أنه متعب ويريد أن ينام.

النساء اللواتي تعبن في هذا اليوم كما لم يتعبن السنة كلها، قلن إن التعب بسبب حزن الرجال، وذلك الهم الذي فجأ البيوت على غير توقع، واحتل كل زاوية. وقلن، بعد أن مرت فترة غير قصيرة، ان الرجال، حين عادوا قبل العصر بقليل، أكلوا، أو على الأقل شربوا ماء، لأنهم وصلوا في حالة لا يستطيعون معها الاتزان أو القدرة على التصرف.

أما الرجال الذين شهدوا في جامع السلطان فنر ما حصل، فإن الأمور تختلط بالنسبة لهم، إلى درجة لا يتذكرون كيف حصلت الأمور، وأي أمر سبق الآخر أو أعقبه، أما حول إفطارهم، أو أنهم أكلوا أو شربوا قبل غياب الشمس، فإن أغلبهم لا يتذكر. والذين تذكروا قالوا كلمات لا يجرؤ غيرهم على أن يرددها.

أحد الشبان، الذين التقى صالح الرشدان، واستغرب ما قاله، وكان يحضرّ لرسالة الدكتوراه حول «أثر النفط في التنمية، النموذج: السلطنة الهديبية» وقد صلّى الجمعة الأخيرة في مسجد السلطان فنر، وشهد تنفيذ حكم الإعدام، طوى الرسالة التي كان يحضرها، وأحرق جميع الأوراق والملاحظات، ولم يعد مرة أخرى إلى الولايات المتحدة. وقد كتب إلى أحد أصدقائه هناك رسالة سريعة وقصيرة:

«. . . ويجب أن لا تستغرب إذا لم أكتب إليك بعد الآن، لأن المشهد الذي صدّع به آذاننا المستر كرستوفر، حول بعض مشاهد القسوة، في إسبانيا، أثناء محاكم التفتيش، لا تقاس ولا يعتد بها أزاء ما شهدته في تلك الجمعة. لقد شهدت، بعيني، إعدام سبعة رجال، ربما ذنبهم الوحيد أنهم

مواطنون لدولة «معادية» أني أضع معادية بين أقواس، لكي أقول لك كيف كانت العلاقات بين دولتنا والدواحس. لا أريد، وقد لا أستطيع، أن أذكر كل شيء، لكن، منذ ذلك اليوم، وبعد ذلك المشهد، أحس، كإنسان، أنني مدعو للتفكير بكل شيء من جديد. ومطلوب مني، أدبياً، أن أعرف: لماذا أتعلم، ومن أخدم، وماذا يجب أن أعمل. أنها الأسئلة الأولى، البسيطة، والتي تجعل لحياة الإنسان معنى وقيمة، وإلا فلا جدوى، ومن العبث أن نقنع أنفسنا، وبطريقة أكاديمية، أن لدراساتنا، ولرسالاتنا، معنى كبيراً وخطيراً. إذا تسنى لنا أن نلتقي، وخلال فترة معقولة، فسوف نتحدث، وإذا مضت فترة طويلة، ولم تتح لنا هذه الفرصة، فقد لا أكون موجوداً، أو قد لا تجدني، وربما أيضاً أحس بعدم جدوى الحديث معك. لا أريد أن أهدد، أو أن أضعك في خيار صعب، لكن يجب أن تعرف: أنني في الخيار الصعب، ولم أعد قادراً على التحمل بعد أن رأيت تلك المشاهد في ساحة جامع السلطان فنر، في تلك الجمعة الأخيرة من رمضان، ولا حاجة لأن أكتب التاريخ فأنت تعرفه!»

في تلك الجمعة، الأخيرة من رمضان، لم تبق بلدة في السلطنة كلها، إلا وشهدت، بعد صلاة الظهر، رؤوساً تتطاير. كان عدد الرؤوس يتناسب مع أهمية البلدة، ومدى ولائها، والرسالة المطلوب أن تصلها.

وفي قرى الحدود الخمس، المتاخمة، حين لم يعثر على أحد من الدواحس لكي يعدم، لأن الذين كانوا فيها غادروها منذ شهور، قاطعين الحدود إلى الجهة الثانية، أو توغلوا بعيداً في داخل السلطنة، فقد بعثوا إليها بعدد من هؤلاء، التقطوهم من أماكن متعددة، كما تلتقط الأرانب، وبعثوا بهم إلى هناك.

أما في الطريفة فقد جرى الموضوع بشكل مختلف. إذ بعد أن عجز أميرها في العثور على أشخاص مناسبين من أهل الدواحس، بعث إلى موران ببرقية يقول فيها: «بعد التقصي والتحري الشديدين، لم تتوفر الصفات المطلوبة بالمقيمين، ولذلك أجّلنا العمل ببرقيتكم المؤرخة في الثالث والعشرين من رمضان، إلى حين تلقي توجيهات جديدة».

ولم تتأخر موران: «يمكن الاستعاضة بثلاثة آخرين، عوضاً عن الموصوفين، موضوع برقيتنا في الثالث والعشرين من رمضان، وتؤخذ البدائل اللازمة من سجن العوالي المركزي، حسب استنسابكم، للتنفيذ، واعلامنا».

خميس البطي الذي لم يبق من محكوميته سوى أسبوع واحد، ولأن سجنه جرى في ظروف خاصة، فإن حي الدولعي بدأ استعداده في وقت مبكر لكي يستقبل ابنه البار بما يليق بسجين مظلوم، عجز الجميع عن حمايته.

أعيد تبييض البيت، وبنيت غرفة جديدة إلى يمين المدخل، مكان شجرة التوت التي يبست خلال السنة الأولى من سجن خميس، وقد أصرّ أخوه جمعة أن تبقى مكانها، يابسة، متوحدة، تعبيراً عن الاحتجاج، أو تكريماً لذكرى الغائب، لأن الشرطة حين جاءوا للقبض على خميس، كان يجلس تحت تلك الشجرة. أما بعد أن تقرر إطلاق سراحه، وفي حمى الاستعداد لاستقباله وتكريمه، فقد اقترحت زوجته قلع الشجرة، وبناء الغرفة الجديدة مكانها. وهذا ما حصل.

اشتريت ثلاثة خراف، وتقرر أن تذبح في ثلاثة أيام العيد، ورغم الحاح الكثيرين من أهل حي الدولعي على دعوة خميس، خلال الفترة الأولى، أو على التحديد بعد اليوم الأول من الإفراج عنه، إلا أن العائلة أصرّت على رفض الدعوات جميعها خلال تلك الأيام، وبالمقابل وجهت الدعوة مبكراً لرجال حي الدولعي في اليوم الأول، ولرجال حي القلعة في اليوم الثاني، ولرجال المشابك في اليوم الأخير من أيام العيد.

أما استعدادات العائلة، الزوجة والأولاد والأقرباء، فكانت لا تهدأ ولا تتوقف، سواء في تأثيث الغرفة الجديدة، أو شراء الملابس التي تليق بهذه المناسبة، أو لتأمين بعض المواد من العطور والبهارات والريحان. ان المناسبة كبيرة وهامة إلى درجة تبرر مثل هذه الاستعدادات. فذكرى سجن خميس، وما رافقها من ملابسات، خاصة في تلك الأيام الأخيرة من حكم ابن ماضي، تثير ذكريات وتعيد ماضياً كاد يندثر.

حتى خميس ذاته، والذي يعتبر أقدم سجين في الطريفة، بعد موت الأخوة الثلاثة من آل دحيمان، وقد قبض على واحد منهم يحمل رسالة من ابن ماضي إلى قبيلة العتوم، ثم قبض على الأخوين الآخرين تأديباً، وبعد أن قضوا فترة في السجن، بدأوا يتساقطون واحداً بعد الآخر، وقد حصل ذلك خلال أقل من شهر!

فسر الأمر، وقتها، أنهم سُمّموا، وقيل ان موت الأخ الأول كان طبيعياً، أما الآخران فقد ماتا حزناً! بعد موت هؤلاء الأخوة، أصبح خميس السجين الأقدام في سجن الطريفة المركزي. ولذلك نشأت له علاقات

وثيقة بالحرس والسجناء ومسؤولي التموين. ويؤكد الكثيرون أن حالة من الكآبة بدأت تخيم على السجن وتزداد كلما اقترب موعد إطلاق سراحه. حتى أن خميس ذاته بدأ يشارك السجناء هذه المشاعر، وقد لاحظ عليه ذلك أخوه مفرّج أثناء الزيارة الأخيرة.

في تلك الجمعة، الأخيرة في رمضان، وخلال زيارة سريعة لمدير السجن، وبإشارة من أصبعه، دون كلمات، كان خميس البطي واحداً من الثلاثة الذين اقتيدوا قبل ساعات قليلة من صلاة الجمعة، إلى النظارة الخارجية، أو كما يطلق عليها السجناء: غرفة المفروجين.

قيل ان عدداً كبيراً من السجناء لم يتمالكوا أنفسهم، فبكوا وهم يودعونه. كان بكاؤهم بين الفرح والحزن، الفرح للإفراج عنه قبل أيام من الموعد المقرر سابقاً، والحزن لأنهم يفارقونه.

وقيل ان اثنين من الحرس، وهما يساعدانه في نقل حاجاته القليلة، انخرطا في موجة حادة من البكاء. ورغم أنه أكّد لهما، وقال بصوت عالٍ أمام عدد كبر من السجناء، أنه لن يفوّت زيارة، ما دام حياً، وما دام يعرف أحداً في السجن، فقد طلب منهما، وبإلحاح، أن يأخذا إجازة خلال أيام العيد الثلاثة، لأنهما سيكونان ضيوفه «نيابة عن السجن، وبدلاً عن المحابيس» كما قال، إلا أنهما لم يتوقفا عن البكاء، ولم يستطع أن يفسر موقفهما.

كان يوماً غير عادي لكل واحد من أهل الطريفة، خاصة السجناء والسجانين، فمشاعر الندم وقسوة الفراق، وقوة العادة، وألفة الوجوه والأنفاس ونظرات العيون، وتلك المواعيد التي خلقت قوانين صارمة، وعشرات الأشياء الصغيرة، كلها تراكمت وكوّنت تلك الحالة التي لا شفاء منها.

مفرّج وأبناء خميس الثلاثة، لأول مرة، منذ سنوات طويل، يقررون عدم زيارته في تلك الجمعة، «لأن الفرق بين الجمعة والاثنين، ثلاثة أو أربعة أيام، وهو وصيّ وقال: تجون الاثنين ونطلع جميع». هكذا قال مفرج في تبرير عدم زيارته، تلك الجمعة.

وعجيل، مالك السجن، كما كان يطلق عليه، لأن مفاتيحه معه، كان يمكن أن يفتح للمدير الجهة اليمنى، ليدخل، وربما انتقى من هناك، لكنه لا يعرف لماذا فتح له الجهة اليسرى، وكان خميس في الغرفة الثانية على يمين الداخل. لن يغفر عجيل، لنفسه، كما لن يغفر له أحد أنه فتح تلك الجهة، وكان أن وقع الخيار على خميس.

والحساني، مسؤول التموين، خطأه بيّن واضح لا جدال فيه، لأنه أحد المتسببين في النتيجة النهائية، فقد أثار المدير أثناء الحساب، مما دفع الأمور أن تأخذ هذا الشكل العصبي الحاد.

والجراوي يعتبر نفسه مسؤولاً أيضاً، لأنه تبرع أن يقوم باستلام الأرزاق، بدل خميس، ولذلك خرج قبل عشر دقائق من دخول المدير إلى الجناح الغربي، ولو قدّر للأمور أن تسير بطبيعتها، لكان خميس في الباحة يتعارك مع رجال الحساني حول مواد الإعاشة!

وجدوع الأفطس تسبب، منذ اللحظة الأولى، في خلق إشكال لم يتعمده أبداً، فقد سأله المدير عن أسوأ ثلاثة سجناء، فقال له: «كلهم مثل بعضهم». ولا يعرف كيف فهم المدير هذا الجواب، وبالتالي أخذت الأمور هذا الشكل.

حتى غبيشان كان يمكن أن ينقذ خميس لولا إصراره على تأجيل إجازاته طوال شهر رمضان، لتتجمع ويستفيد منها، مع إجازة العيد، في زيارة لأمه في المشرفة. لو كان غبيشان مجازاً ذلك اليوم لما أمكن كسر قيود خميس، أما وهو يكسرها بذلك الحماس، فكان يريد أن يقتل خميس بدل أن يحرره قبل أسبوع من الموعد.

وعشرات التفاصيل الصغيرة الأخرى تجمعت بمصادفات عمياء في تلك الجمعة لتنتهي الأمور إلى ما انتهت إليه.

كان خميس البطي واحداً من الثلاثة الذين اقتيدوا، تلك الجمعة، الأخيرة من رمضان، إلى ساحة الجامع الكبير، في الطريفة، لتقطع رؤوسهم، استناداً للبرقية التي وردت من موران.

أما ما حصل بعد ذلك: كيف انتقل خبر مقتل خميس إلى أهله،

والسجناء والحرس، إلى سكان حي الدولعي، وسكان حي القلعة أو مشابك، فإن الأمهات سيقضين العمر كله يحدثن أولادهن، ثم أحفادهن، عن ذلك اليوم، وعن الرجال الذين قتلوا ظلماً وعدواناً. أما الكتابات البدائية التي حفرت بالمسامير على جدران كل زنزانة في السجن المركزي في الطريفة، فسوف يأتي سجناء أكثر مهارة في الكتابة والخط لينقشوا على البوابات وفي القلوب قصة مقتل خميس ورفيقيه، في ذلك اليوم، من رمضان.

لما بلغ الخبر عمر زيدان لم يصدق، ظن أنهم يحرضونه، يريدونه أن يشتم، وحين أكدوا له بإيمان غليظة، صمت فترة طويلة، وفجأة خرج صوته بمقام لم يتوقع الكثيرون أنه يتقنه هكذا، غنى يقول:

تحكموا فاستطالوا في حكومتهم وعن قليل كان الحكم لم يكن
لو أنصفوا... لكن بغوا فبغى عليهم الدهر بالآفات والمحن
وأصبحوا ولسان الحال ينشدهم هذا بذاك ولا عتب على الزمن

أما رضا الجاوي فقد أنشد بصوت تخنقه العبرة:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

... وذكر من كان موجوداً أن عمر زيدان ومحبيه، منذ أن سمعوا الخبر، وحتى الفجر، لم يهدأوا ولم يتوقفوا عن الشراب والغناء والبكاء. وذكر أيضاً أنهم نزلوا إلى البحر حين نزل القمر، وطلبوا من الذين على الشاطئ، أو من كانت بيوتهم قريبة، أن يساعدوهم في انتشال القمر قبل أن يغرق وينتهي تماماً! وقال غير هؤلاء أن رضا الجاوي ظل يدور في الطريفة ثلاثة أيام متوالية ليجمع التواقيع والأختام على عريضة بلغ طولها عشرين متراً. لم يكن في العريضة مكتوب أي شيء، وحين يسأل، كان يجيب أنها مكتوبة بدموع العيون، وموجهة إلى سلطان المسلمين وبقية البشر، إلى الله، عن طريق باشا إستانبول، لعله يفعل شيئاً قبل أن تقوم القيامة. كان الناس يوقّعون، أو يمدون أختامهم أو إبهامات الأيدي اليسرى، ويسجلون موافقتهم بحماس وقناعة!

وفي الليلة ذاتها، بعد صلاة التراويح، ولأن السلطان تعوّد دعوة الكثيرين في الجمعة الأخيرة من رمضان للإفطار، فإن ابن شاهين الذي أم المصلين في صلاتي المغرب والعشاء، اختصر الكثير مما كان ينوي أن يقوله، بناء لطلب من نصار، لأن «ورا طويل العمر أشغال واجد». أما حين التأم مجلس الحل والربط، وبعد أن استفسر السلطان من راكان عن تنفيذ المهمات، قال، وخرج صوته مرتجفاً:

ـ اليوم من أكبر أيامنا، ويلزم تذكرونه زين، ويلزم تعلّمونه لأولادكم..

وخيم صمت قاسٍ، لم يجرؤ أحد على أن يتكلم، لأن رائحة الدم كانت ثقيلة، وتملأ الجو. حتى النظرات التي تبادلها الأخوة كانت سريعة، مترددة، ثم انسحبت لتتركز على السلطان. ولأن العيون كانت كأفواه البنادق، كدوامات المياه، فإن الاضطراب استبد بفنر وأحرجه، فتحرك أكثر من مرة، وبعد فترة قال:

ـ ... وأنا اللي أمرت وقلت لراكان: اعدموا عشرين، ثلاثين، تصير السلطنة مثل الساعة، لا تقدّم ولا تؤخّر. ويصير الناس مثل المحبس في اليد. تقول لهم: موتوا، يموتون؛ وتقول لهم سووا فلان شي يسوون.

تنحنح وتنفس بعمق، ثم أضاف:

ـ أما إذا كان بيتنا داشر، وحيطنا واطي، فكل واحد يطمع بينا.

وتغير صوته:

ـ ومثل ما شافت عيونكم: رضينا الناس، قلنا لهم أنتم النشامى والأجاويد، واللي تريدونه يصير، فلتت. وما هو بس كذا، صاروا يقولون يصير وما يصير، ونوافق وما نوافق. وصار الغُرب يحركونهم ويقولون لهم ثوْروا وحنا معكم، وما يخفاكم، اللي صار بالدواحس...

تطلع سند إلى راكان، ووجه إليه السؤال:

ـ وهذول، يا أبو منصور، اللي انذبحوا اليوم، كان ضروري ينذبحون كلهم؟

ـ هذول مجرمين وجواسيس، يا سند.

ـ كلهم؟

ـ أي نعم. . .

ارتبك للحظة راكان. أما السلطان الذي لم ترقه هذه الأسئلة، وخشي أن تأخذ المناقشة اتجاهاً خطراً، فقد تدخل بحدة:

ـ ما نريد هالحين ندخل بإيراد ومصرف، ونفصّل جريمة كل واحد، ونقول حلال وحرام، ويجوز وما يجوز، لأن هذي سالفة ما لها تالي، وما يخفي عليكم الأخطار اللي تهددنا، وروسنا صارت مطلوبة، والناس طمعوا بنا، فإذا تركناها على غاربها ترانا ضعنا وراحت علينا.

التفت سند نحو السلطان وسأله برخاوة:

ـ أنا، طال عمرك، سألت أبو منصور إذا كان اللي انذبحوا اليوم يستاهلون الذبح أم لا، فقال مجرمين وجواسيس، وهالحين أريد أسألك، طال عمرك: هذول حاكمتوهم على أساس الدين والشرع؟ عليهم أدلة؟ اعترفوا؟

تحرك السلطان. جلس على حافة الكرسي، تطلع في الوجوه، وقال بحزم:

ـ ما أظنك، يا سند، إذا شفت الذيب غاير على غنمك، تسأله: شنهو نيتك أو شنهو اللي تريده.

ارتاح لهذه البداية، تراجع قليلاً، وأضاف:

ـ حنا الذيب غاير علينا، ويلزم ندافع عن أرواحنا. . .

تنفس بعمق وأضاف:

ـ وهذول اللي اعدمناهم اليوم، يا سند، ذياب غايرين علينا، فما يلزم أن نتركهم يُغيرون ويهبشون، وبعدما يخلصون نسألهم: ها. . . يا جماعة الخير: شنهو قصدكم؟

ـ قال سند برخاوة:

ـ لكن، طال عمرك، كل إنسان، وذنبه، والواحد ما ينسأل عن ذنوب غيره.

قال مساعد بحدة:

ـ هذول يا سند، طالبين روسنا، وإذا ما ذبحناهم ذبحونا.

ـ يا مساعد، يا أخوي، اتركنا من هذي السوالف، ذبحونا وذبحناهم، أنا أسأل: هذول الجماعة اللي انذبحوا اليوم، اتحاكموا بالشرع؟

قال السلطان بغضب:

ـ إذا المسألة، يا سند، اتحاكموا أو ما تحاكموا، ما هي خلاف بينا، يتحاكمون.

سأل سند بسخرية:

ـ ومتى طال عمرك؟

ـ إذا ما هو باكر اللي عقبه!

ـ على خيرة الله!

عمير الذي قاطع مسجد السلطان فنر، لم يسمع بخبر الإعدام إلا وهو عائد إلى البيت، كان في مسجد الشيخ جنيد، صلى هناك، وتحدث مع الناس، وقال بصوت عالٍ، وأمام الكثيرين، إن الفرج قريب. كان يعني شيئاً محدداً، وقد فهم كل من سمع. أما حين أبلغ بإعدام السبعة، وعرف أنهم من الدواحس، فقد صرخ بصوت عالٍ:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله. ولا إله إلا الله.

وبعد أن استوعب الأمر، قال، وهو يجلس على عتبة إحدى الدكاكين في السوق العتيق:

ـ «يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ».

ونقل من كان موجوداً أن عمير صمت، ثم أخذت دموعه تنحدر بغزارة على لحيته البيضاء، وبعد فترة أشار لابنه أن يساعده على النهوض، وأن يعود به إلى البيت سريعاً، لأنه يحس بالتعب والاختناق.

ولـم تتأخر الحرب لكي تقع بين الطرفين. ليس المهم من بدأها، أو كيف بدأت، فبعد شهور من التحريض والتعبئة والاستعداد، أصبح وقوعها محتوماً، وهكذا وقعت.

وحين تبدأ الحرب يتغير كل شيء: نظرة الناس وتصرفاتهم، بل وتتغير أشكالهم أيضاً. فيونس شاهين بذلك الصوت الخفيض، الأقرب إلى الخجل، بدا إنساناً آخر حين قدّم السلطان في الإذاعة ليعلن للشعب عن العدوان الذي تعرضت له السلطنة. أما حين ظهرت صورته، برفقة السلطان، وكان جلالته يتفقد بعض المناطق الحدودية، فقد أنكره أغلب الذين يعرفونه. فالوجه الذي كان أقرب إلى المثلث، الحاد، وربما زادته حدة اللحية المشذبة التي تبدأ عند نقطة التقاطع مباشرة، تغير ذلك الوجه لما اكتسى من جانبيه بلحية اضافية، فرضها طول الزيارة ومرافقة السلطان!

أما الكلام الهادئ، الدبلوماسي، الذي كان يغلب على كتاباته، وكان يفاخر بذلك، فقد أصبح في المرحلة الجديدة نمطاً آخر. صحيح أنه لم يتوقف خلال الفترة السابقة كلها عن الإشادة بعبقرية البدو وشجاعتهم، إلا أنه الآن يتكلم رصاصاً، وتتفجر ألفاظه في كل مقطع، ويكاد من يقرأها يحس بذلك اللهيب الذي يندلع من كل الكلمات فيفجرها، خاصة وقد أصبح لديه في المرحلة الجديدة «جيش» من الاختصاصيين في أنساب العشائر وأشعار البادية، ونشر مجموعة من المقالات والدراسات، جمعها في وقت لاحق في كتاب، وكلها تؤكد أنه لا يمكن كسب حرب، أية حرب، إلا إذا كان البدو مادتها الأساسية. وأشار في معرض إسناد هذه «النظرية» إن سكان الأرياف والجبال، في البلدان الأخرى، هم بدو تلك البلاد!

واشعار البادية التي كانت تحتل حيزاً محدوداً في إذاعة موران، أصبحت، بعد اندلاع الحرب، المادة الوحيدة، تقريباً، بعد القرآن، والأحاديث الدينية، وبعد نشرات الأخبار، في الإذاعة. وظهر خلال هذه الفترة عدد هائل من «القوالين»، ولا يعرف إن كانوا شعراء، أو حفظة للشعر. فجأة امتلأت موران بأعداد تزيد كل يوم من هؤلاء، وهم بالإضافة إلى الأموال الوفيرة التي يملكونها، كانوا يزهون بالملابس الجديدة، وبتلك الأرهاط من المرافقين والمحبين والحرس. كانوا موجودين في كل مكان: الفنادق، المطاعم، الشوارع. وإذا كانوا قد أثاروا فضول الكثيرين في الأيام الأولى للحرب، وصدف أن استوقفوا في الطرقات والميادين، وطلب منهم أن يعيدوا ما قالوه في الأيام السابقة، وقد استجابوا بزهو، وتحلق حولهم المتبطلون والصبية، فقد ملّتهم موران بسرعة، خاصة بعد أن قارنت بين ما يقولون وما يفعلون. وفي وقت لاحق وقعت عدة منازعات دامية بين هؤلاء، إذ قيل انهم اختلفوا على ما يتقاضاه كل واحد من أجور، وكانت المقياس الوحيد الذي يحدد الأهمية والمنزلة، فبدأت الملاسنات والهجاء، ويوماً بعد آخر أصبحت موران تتندر بالشتائم وتحورها لكي تنطبق على آخرين أيضاً.

وموران المدينة تغيرت أيضاً. فالمواد التي لا تظهر في الأسواق إلا في شهر رمضان من كل سنة، أصبحت متوفرة على مدار العام. وقد قامت الحكومة، بالإضافة إلى تشجيع التجار على استيرادها، باستيراد كميات كبيرة مباشرة، ووزعتها بكثير من السخاء، على ثلاثة من المتعهدين: ابن العليان وسعيد الأسطة ورضائي.

لقد فعلت الحكومة ذلك بعد الضجة الكبيرة التي أثارها ابن العليان بشكل خاص، اثر توقيع عقد مدينة السلطان فنر. فخلال الاجتماع الذي عقده السلطان لغرفة تجارة موران، وبعد أن سمع من الكثيرين شكوى، وصلت إلى حد المرارة، أن الأجانب أكلوا الأخضر واليابس، ولم يتركوا لتجار موران شيئاً، وكانوا يعنون غزوان، وعقد المدينة الجديدة، فقد ضحك السلطان إلى درجة القهقهة، وقال بصوت قوي حاسم:

ـ من اليوم ما أحد يعلى على تجار موران. . .

وتنفس بعمق وهو يضيف:

ـ بس يلزم أن يتحرك تجار موران، أن يكونوا نشيطين، لأن الرزق، إذا الواحد ما دوّر عليه، ما يجي وحده.

وفي نهاية هذا الاجتماع أبلغ السلطان أعضاء غرفة التجارة أمرين تركا في نفوسهم فرحاً لا يوصف. الخبر الأول: إيقاف العمل بعقد المدينة الجديدة، لأن هناك أموراً أكثر أهمية في الوقت الحاضر؛ والخبر الثاني تكوين: لجنة مشتركة من غرفة التجارة ووزارة المالية، لتسهيل عمليات الاستيراد والتوزيع. وقال، وهو ينهض، إيذاناً بانتهاء اللقاء:

ـ ومن هذي الساعة، ممثل الحكومة الرويشدي، وهذا هو، يسمعني، تلتقون وتتفقون عن كل شيء، وإن شاء الله ما يصير إلا كل خير.

أما مسألة إيقاف عقد المدينة الجديدة، فليست بالدقة التي عرضها السلطان، كما لم تكن وليدة اللحظة، أو أثناء اللقاء بأعضاء غرفة التجارة. فقبل ذلك بشهرين أو بثلاثة شهور، جرت مفاوضات طويلة وشاقة، ليس من أجل إلغاء العقد، وإنما من أجل تمديد فترة التنفيذ، وبالتالي الإبطاء في وتيرة العمل، فبدلاً من السنوات الخمس المحددة سابقاً، ثم الاتفاق على عشرٍ، وقد دفعت الحكومة مبالغ كبيرة تعويضاً، وأبدت استعدادها، بكتاب وقّعه الوزراء الثلاثة: المالية والدفاع والداخلية، أن تتحمل الكلف الإضافية نتيجة ارتفاع الأسعار.

المفاوضات التي جرت من أجل الوصول إلى هذه النتيجة، رافقتها مفاوضات أيضاً بين الطرفين، من أجل توريد كميات كبيرة من الأسلحة، لمواجهة المرحلة الجديدة. لقد جرت المرحلة الأولى من هذه المفاوضات في موران، ثم استكملت في الولايات المتحدة وبريطانيا، حيث سافر الأميران راكان ومساعد عدة مرات إلى هناك لإتمام الصفقات.

روبرت يونغ أبدى تصلباً واضحاً، معترضاً على التعديلات المقترحة، وقد أشار، في تبرير موقفه، أنها فرصته الأخيرة، ليس من أجل جني الأرباح، وإنما للتعبير عن نفسه، كما قال، من خلال إنشاء هذه المدينة،

خاصة وأن عدداً من الأخطاء تم اكتشافه بعد تشييد حران، الأمر الذي يريد أن يتلافاه في المدينة الجديدة!

في إحدى مراحل المفاوضات، أشار، بحزن، إلى أنه أصبح متقدماً في العمر، ولا يضمن بالتالي أن يشهد قيام هذه المدينة، إذا وافق على تمديد الفترة من خمس إلى عشر سنوات. قال في نهاية أحد الاجتماعات:

ـ صحيح إنني قرأت في أحد كتب الشرق، أن صبياً مر على شيخ يزرع زيتوناً، وحين أبدى الصبي استغرابه، لأن الشيخ لن يمتد به العمر حتى يأكل من ثمر تلك الشجرة، فقد رد عليه الشيخ: لقد زرعوا فأكلنا ونزرع فيأكلون. أن هذه المقولة إذا انطبقت على الزراعة، وعلى فترات ماضية، فإنها غير جائزة في الصناعة، وفي العصر الذي نعيش فيه.

حين خيم صمت ثقيل، وقد تأثر الجميع بالقصة، أضاف روبرت يونغ:

ـ إن أجمل لحظات الإنسان أن يرى نتائج عمله في عيون الآخرين، وأن يسمع كلمات التقدير، هذه هي المكافأة التي قضيت عمري أبحث عنها، وأريد الوصول إليها، وها إنكم، أيها السادة، تحرموني منها!

في وقت لاحق، حين جرى بحث حاجات السلطنة من السلاح، وحين جرى تحديد الكميات المطلوبة، أصبح المستر يونغ أقل تشدداً. صحيح أنه ذكّر «برغبة العمر» كما أصبح يعبر عن بناء المدينة، لكنه كان حريصاً على معرفة حجم المعدات العسكرية، والمبالغ المخصصة لهذه الغاية، وكيفية التسديد، وقد لجأ مرات عديدة إلى الآلة الحاسبة، واستغرق فيها، لكي يقارن بين أمور عديدة!

وإذا كان روبرت يونغ بطل المدينة الجديدة، فإن ليفي شاوات كان النجم الفعلي لمفاوضات السلاح. كان يقودها بكثير من المهارة، وقد أشار، بشكل خاص، إلى الصعوبات، بل والمخاطر، التي تحيط بهذا النوع من الصفقات، الأمر الذي دفعه لأن يحرص على وجود وزير الداخلية في معظم الاجتماعات «لأن أي خطأ، أو أي تسرب للمعلومات، ثمنه حياة الإنسان، وليس مجرد خسارة بضع آلاف من الدولارات».

لقد أحس ليفي شاوات، منذ وقت مبكر، أن وجود أليانور، في أي لقاء يكون فيه راكان يغير الكثير من المسارات والنتائج. أن شيئاً ما، لا يعرف ما هو، يحصل رغم الارتباك، وبعض الأحيان الحرج. ولأن راكان هو الذي يقرر، ورأيه أساسي، إذن لا بد من وجوده، ولا بد من وجود إليانور.

وأليانور، حين تكون في الولايات المتحدة، وحتى في بريطانيا، غيرها حين تكون في موران. يتذكر أنها في موران كانت مجرد لعبة، كانوا يتابعونها ـ وقد لاحظ ذلك باستغراب ـ كأنثى، كجسد، وهي رغم الحرج الذي أحست به، تحولت إلى قطة أليفة، لا تعرف سوى الابتسام وجمع الهدايا ومجاملة أي إنسان تواجهه. هنا امرأة أخرى: أكثر شجاعة، وأشد حضوراً. ولا يريد أن يبالغ ويقول: أكثر أنوثة أيضاً. هنا كانت تتدثر بتلك الملابس المحتشمة، وكانت لا تصهل بتلك الضحكة العذبة، وكأنها خائفة أو مربوطة. في سان فرانسيسكو، في نيويورك، في لندن، امرأة مختلفة: تتحرك بثقة، تلبس ما تعتبره مناسباً، تضحك، وتنكت أيضاً. أما إذا وضعت يدها فوق يد راكان، لتحاول أن تلفت نظره، أن تكلمه، فعندئذ يصبح إنساناً آخر.

قال ليفي لإليانور قبل أن يركبوا الطائرة في طريقهم لمقابلة راكان للمرة الثانية:

ـ القدر يضع بين أيدينا، في حالات كثيرة، أوراقاً هامة، والفرق بين إنسان وآخر، في كيفية استخدام هذه الأوراق. الأذكياء وحدهم الذين يعرفون ما في هذه الأوراق، ومتى يستفيدون منها، وكيف يستخدمونها، أما غيرهم فإن الرياح وحدها هي التي ترتب لهم أوراقهم!

ورغم أن أليانور فهمت المعنى العام لما قاله ليفي، إلا أنها كانت تريد أن تمتحن ذكاءها، سألته بمكر:

ـ هل تظن أن كل شيء حسب رغبة الإنسان، أو حسب ذكائه؟

ـ دعيني أقول لك، يا إليانور، حسب ذكائه، نعم، هذه هي القاعدة

الأساسية، وإذا حصل شيء آخر، فلا بد أن يكون هناك خطأ من نوع ما، ومن الإنسان، بالدرجة الأولى، وليس من القدر.

ـ وكيف تفسر، إذن، إفلاس الكثيرين، وأخطاء الحكومات، وهزيمة بعض الأقوياء؟

استدار نحوها بأكثر من نصفه، لأنه يسمع كلمات ذكية وتروقه كثيراً، خاصة من امرأة. تطلع إليها بإمعان، كأنه يقرأها من جديد. حين ظلت نظراتها صلبة ومتسائلة، قال، وهو يتنهد:

ـ الإفلاس والأخطاء والهزائم أيضاً نتيجة قراءة خاطئة، هذه هي قناعتي الأكيدة والراسخة...

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ دعيني أقول لك شيئاً، يا إليانور، لم أقله لكثيرين: إذا حصل الخطأ، إذا وقعت الهزيمة، وأي شيء مشابه، فإن الخطأ ليس في الشيء، وإنما في الإنسان.

اعتدل في جلسته، وبدأ يكلم نفسه:

ـ حتى من يفترضون في أنفسهم الذكاء، ويعقدون الصفقات، أو يشنون الحروب، فإذا حصل عكس ما كانوا يتوقعون، فإنهم يميلون إلى تحميل الخطأ لجهة ليست لها علاقة، ربما لقوة مجهولة، أو للحظ، ولا يحاولون أن يعتبروا أنفسهم المخطئين، وعند ذاك يصبح الخطأ مضاعفاً ومركباً، وبالتالي صعب التفسير.

ابتسمت إليانور هزت رأسها، وكأنها اكتشفت مفتاحاً لمعادلة مجهولة، كانت تبحث لها عن مفتاح منذ وقت طويل. تطلع إليها، لكي يعرف. قالت بتحدٍ:

ـ في نطاق العمل، ما قلته صحيح: يستطيع الإنسان، بمهارة، ولباقة أن يصل، لكن في الأمور الأكثر تعقيداً، فإن هذه المعادلة قد لا تكون كافية.

ولكي لا يضيع، ولأنه يريد أن يصل إلى نتائج محددة، فقد استغل مرور مضيفة الطائرة ليطلب لنفسه قدحاً من الويسكي، وليسأل اليانور عما

ترغب، ولما هزت كتفيها بعدم اهتمام، أو لأن المشروبات متشابهة، فقد طلب قدحين. وخلال الفترة الفاصلة، قال لها:

ـ لكي أثبت لك أنّا لسنا أذكياء بالمقدار الكافي، تركنا للآخرين أن يتحكموا بنا. . .

التفتت إليه مستغربة ومتسائلة، قال وهو يتطلع إلى عينيها:

ـ المستر يونغ ثانوي في صفقة السلاح، لكنه وضع المدينة في مواجهة المدفع، ولذلك استجبنا له، ووافقنا على كل ما يريد. . .

خلال رحلة الاطلنطي، تحدثا كثيراً، في أمور دقيقة، وغزوان الذي كان في انتظارهما في مطار هيثرو، كان مشتاقاً لإليانور، كامرأة، وكان محتاجاً لليفي، لكي يصلوا جميعاً إلى توقيع الصفقة الجديدة، خاصة وأن راكان وصل قبل يومين، وقد تأخرا في الولايات المتحدة من أجل ترتيب بعض الأمور الخاصة بهذه الصفقة.

قالت إليانور في نفس الأمسية، حين التقوا جميعاً حول مائدة العشاء:

ـ أرجو أن تعفوني من مهمات السكرتارية. أيها السادة، خاصة في مثل الموضوع الذي تبحثونه لأني أريد أن أعيش!

ولما تطلعت إليها العيون، توجهت إلى ليفي:

ـ لابد أن تحدثهم عن الصعوبات، والتي وصلت حد الخطورة، في تأمين المشتريات!

قال المستر يونغ:

ـ أكثر الصعوبات مفتعلة، خلقها تجار السلاح، ونستطيع أن نتغلب عليها.

قال راكان، قبل أن يفترقوا:

ـ اعتبر أن النتائج التي تم الوصول إليها جيدة، ويمكن أن نوقع العقد غداً.

قال لها غزوان:

ـ وجود ليفي كان ضرورياً، لكي يوضح لهؤلاء الضباط الفرق بين

سلاح وآخر، وتفوق سلاح على آخر. كان بارعاً وموفقاً، ولولاه، لأخذت الأمور مساراً آخر.

وبعد أن جال في أماكن كثيرة واستعرض وجوهاً ومواقف، أضاف بحنان:

ـ ثم ان الصفقات الأساسية لا تجري بين الفنيين، لأن هؤلاء لديهم الاستعداد الكامل للغرق في التفاصيل والتفاهات، ويغلب عليهم عنصر التحدي والعادة، ويحبون المماحكات والتأخير، لكي يثبتوا قوتهم ووجهات نظرهم.

وضحك بصخب، وهو يضيف:

ـ في عشاء اليوم أنجزنا عملاً يحتاج إلى جهد العشرات، وإلى وقت لا يعرفه إلا الله، لو تركت الأمور إلى الفنيين.

وفي اليوم الثالث وقع العقد الجديد بصفقة السلاح. وقد لعب ليفي دوراً رئيسياً، ليس فقط في ترتيب العقد، وإنما في تمرير بعض البنود الخاصة، لأنه تم الاتفاق أن تبقى بمعزل عن هذا الذي لا يكفّ ولا يتعب من الحديث عن «رغبة العمر».

وقضى الأمير راكان بضعة أيام في لندن، لإجراء بعض الفحوص الطبية، وللتسوق أيضاً وللراحة.

كان غزوان، وكانت إليانور، وفي بعض الليالي، كان ليڤي أيضاً، ضيوفاً لدى الأمير. وخلال هذه الأيام تم الحديث عن أمور كثيرة، وتم الاتفاق على أمور كثيرة.

نتيجة التبدلات التي جرت، سُمي حماد المطوع سفيراً في طوكيو، فكتب إلى صديقه، سفير الهديبية في برن: «. . . اليابان بلاد عجيبة: النظام، الدقة، النظافة، اللياقة الاجتماعية، وغير ذلك كثير، لكن تبقى موران، بعجاجها وفوضاها، بالنسبة إليّ، ارحم. في طوكيو الإنسان مثل الآلة، حتى وهو يبتسم لا تعرف هل هو تعبير عن المودة والسعادة أم أنه يضحك عليك. إنهم بشر من نوع مختلف عن أي مكان في العالم، ومن الصعب أن تدخل إلى أعماق هذا المجتمع، أو أن تفهم الياباني على حقيقته».

«لقد زرت الولايات المتحدة مرات عديدة، وتعرفت على الناس هناك، ورغم الفروق الكبيرة بيننا وبين الأميركيين، إلا أن القضايا المشتركة أو التي يشبهوننا بها كثيرة.

«وزرت أيضاً أغلب البلدان الأوروبية، وتعرفت على الناس، وكنت أسير، في أحيان كثيرة، وحدي في الليل، لكن ما أكاد أجلس في بار أو مقهى حتى تقوم علاقة بيني وبين بعض الناس، حتى لو لم تتوافر اللغة المشتركة.

«هنا كل إنسان صندوق مغلق، خاصة بالنسبة لنا، وقد صدف عدة مرات أن ابتسمت للسائق أو الطباخ، وحاولت معهما، ومع غيرهم أيضاً، من نفس المستوى، أو من مستويات أخرى، أن أقيم علاقات تتجاوز الوظيفة أو المجاملات الاجتماعية، لكن لم أنجح. والسبب أننا لا نفهم على بعضنا، ليس من ناحية اللغة، وإنما من ناحية الطباع والعادات!

«تسألني في رسالتك إذا كنت راضياً عن تعيني سفيراً في اليابان؟ لا بد

أن أجيب بالإيجاب، لأنني لم أعد أطيق البقاء في موران ضمن الظروف التي تعرفها، وقد تحدثنا عن ذلك، بشكل غير مباشر، أكثر من مرة.

«الجماعة، وتعرف معنى هذه الكلمة، يختلفون عن الذين كانوا قبلهم. صاحبنا يريد من كل الذين حوله أن ينفذّوا الأوامر، وليس لأحد حق الاعتراض، وكل من يحاول أن يتجاوز ما رسم له يصبح عدواً.

«لا أريد أن أشكو أو أن أندم، لكن هذه هي الحال الآن، كنت أظن أن الصيغة الجديدة أفضل ألف مرة، وهذا ما دعانا إلى التضحية والمخاطرة، وأنت تعرف الخدمات التي قدمتها. لا أريد أن أدعي إنني كنت كل شيء، لكن بالتأكيد ما كان ليتم التغيير لو اعترضت، لو اتخذت موقفاً مختلفاً. وحتى وزارة الداخلية التي استلمتها ما كانت تكريماً أو ترفيعاً، وإنما كانت درجة على الطريق الذي يوصل إلى الخارج. لقد قال لي السفير الأميركي هنا، وكان مساعداً لوزير الخارجية: أن الطريق الأفضل للتخلص من الموظف الكبر، هي أن تجعله موظفاً أكبر، لكي تحيله بعد ذلك على التقاعد، أو تبعث به سفيراً إلى طوكيو أو هلسنكي، حيث لا يتذكره أحد، ولا يراه أحد، إلى أن تتكون له هوايات جديدة في السلك الجديد، ويصبح عند ذاك أسيراً لهذه الهوايات.

«تقول لي إنك تفكر بالاستقالة، مهما ترتب على ذلك من النتائج؟ لا أتفق معك بهذا الرأي، بل أكثر من ذلك أطلب منك البقاء حيث أنت، لأننا، وأتكلم عن نفسي بالدرجة الأولى، لم نعد نصلح لشيء. فصاحبنا ملأ كل الشواغر هناك، ووضع كل واحد في المكان الذي يراه مناسباً، حتى التجارة لم تعد مهنة مثل قبل. أصبحت التجارة الآن بيد الدولة. والدولة هي التي تجعل من فلان تاجراً، ويملك الملايين، وتجعل من غيره مفلساً، حتى لو كانت التجارة مهنة العائلة أباً عن جد.

«ماذا يمكن أن تعمل لو عدت إلى موران؟ الأعمال الحرة؟ أن تنشئ مزرعة؟ كل ذلك يمكن في حالة واحدة: أن يكون صاحبنا راضياً عليك، وإذا لم يتوفر هذا الرضا فلا تحاول أن تقترب. أرى أن تمر عدة سنين قبل أن تفكر بمثل هذا الموضوع. إذا مرت سنوات، وتوفرت ظروف مؤاتية،

يمكن أن ترجع مرة أخرى، لتعمل عملاً خاصاً، وبرضاهم أيضاً.

«لدي أشياء كثيرة يمكن أن نتبادل حولها الرأي، لكن يفضل الآن أن نبقى بعيدين عن موران، وأن نُنسى. النسيان نعمة في مثل هذه الظروف، ولا بد أن أتعلم شيئاً من اليابان قبل أن أغادرها: أن أتعلم الابتسام، وأن أتظاهر بعدم معرفة أي شيء، أن أتساءل ببراءة عن كل ما يساعد على أن أبدأ عملاً جديداً.

«عزيزي، لقد سمحت لنفسي أن أكتب بعد أن قرأت رسالتك المليئة بالمرارة، ولا بد أن ألفت نظرك أن رسالة مثل التي كتبتها يمكن أن تؤدي إلى نتائج وخيمة، فيما لو وقعت بأيدي غير أمينة، فأرجو أن لا تكتب تحت الانفعال، أو في حالات الغضب، وأبلغك أني بعد أن قرأت رسالتك، ولأنها أخافتني، فقد أحرقتها. سمحت لنفسي أن أفعل ذلك خدمة لنا نحن الاثنين.

«ملاحظة: أنوي أن أقضي إجازتي السنوية في إسبانيا. هل تستطيع المجيء إلى هناك ما بين العاشر من تموز ونهاية آب؟ إذا استطعت سوف نقضي أياماً جميلة، وسوف نتحدث طويلاً، وأنا بانتظار أخبارك».

مفلح المطوع الذي مات بعد سفر حماد بأسبوعين، مات قبل الفجر، وكان يعد القهوة، وقد سمعت إحدى عجائز العائلة دقات المهباج قبل صياح الديك، وكان يوماً من أيام الربيع. وجد مفلح متخشباً عند دلال القهوة. قيل انه مات حزناً أو يأساً لسفر حماد، وقيل إنه أصبح أصماً تماماً، ولذلك لم يعرف بسفره أبداً. حتى عندما جاء لوداعه وقبّله بحرارة، لم يفهم سر هذه القبل، فظن الشوق، أو لمرور المدة بين هذه الزيارة والزيارة السابقة. ونقل خماس ومجلي، واثنان من رعيان آل المطوع، وقد سمعوا حماد يستأذنه بالسفر، أن مفلح قال له: هذه سنة خير، وإذا ردت تبقى من آل المطوع اعلمك بسر ما علّمته لغيرك، بس تدفى، اعلمّك بعشبة إذا انغلت تطيب من قرصة الحية، وهذه ينراد لها شهر أو شهرين؛ فلا تغيب تعال ونطلع على الفلا، وأخليها أمانة عندك، إذا عرفتها تشفي كل ممروض!

بعد وفاة مفلح قال شداد لأخيه:

- يا أبو فوزان، موران اليوم غير اللي تخبرها، ويلزمك تحرص وتتحذر، ويلزم تدوّر مكان ثاني ودرب ثاني، وإلا راحت عليك، لأن حماد راح.

وصالح المطوع رغم حزنه على مفلح وعلى سفر حماد رد بحدة:

- درب ثاني؟ خيل وسوالف ليل؟

- الخيل راحت من زمان، يا أبو فوزان، وهالحين الكم راس عندي تكفي، بس أنتم بعدكم بزمن الخيل.

وضحك وتابع بلهجة جديدة.

- اسمعهم بالسوق يسولفون عن فلان وفلان اللي صاروا فوق الريح، اللي يؤمنون تموين القصور وحاجات الجيش وأرزاقه، وغيره وغيره، وأنت بعدك تطرّش رعية غنم وتطلب غيرها، وكأن الدنيا مثل قبل!

- حنا تجار، يا أبو غانم، والتاجر ما ينْغر، وما تأخذه سالفة وترده غيرها!

قال شداد وكأنه يكلم نفسه:

- ما لي ألا آخذ خيلي وأشدّ رحالي إلى مصر، هناك الخيل تلعب وتسبق، والناس بعدها مثلنا تفهم علينا وتأخذ وتعطي.

- وطويل العمر؟

- طويل العمر بموران!

- ويقول: آل المطوع راحوا لعدانا، اللي يريدون روسنا؟

- ما دام طويل العمر ما يريد الخيل، الخيل، يا أبو فوزان، تدور مرعاها وملاعبها.

قال صالح المطوع بغضب وكأنه يحدث نفسه:

- كان عندنا مفلح، إذا اختلفنا نرجع له، هالحين مفلح راح لوجه ربه. وكان عندنا حماد يقول يصير وما يصير. هالحين تاهت علينا، ما ندري حنا هنا أو هناك.

رد شداد برخاوة:

ـ إذا ما ردت مصر، يا أبو فوزان، فخلك أنت هنا وحنا هناك.

ـ وشلون نخلص من فنر ومن حلوق الناس؟

ـ الناس كلامها ما يخلص، والناس تدوّر مصالحها، اللي يفيدها، ويلزم تعرف: ولا ابن حلال بسنة، سنتين، سألني: شلون خيلك، يا أبو غانم؟ كل واحد: يا نفسي. كل واحد فلوسي ويدور اللي يفيده.

قال صالح المطوع بيأس:

ـ يا أبو غانم: خلها تفّك، وخل صاحبنا يخلص من طلابيه، وبعدها الله كريم!

ـ ويشتري خيلي، يقول لي: الله يعطيك العافية لأنك حافظت على الخيل الطيبة وهالحين نريد نعوضك عن كل اللي خسرته؟

ـ الخيل سالفتها بسيطة، يا أبو غانم، هالحين، المسألة إذا الواحد راح لمصر، أكبر من الخيل وأخطر.

ـ أنت تعرفني، يا أبو فوزان، ما عندي غير هالخيل، هي دنياي وراس مالي، وما دامت موران ما تريد خيل، والسلطان صار عنده خيله ورجاله، فما لي إلا أن أدور على رزقي، ومثل ما قالوا: وين ترزق ألزق.

ـ وما تعرف أنا قوم ويّا مصر؟

ـ أصحاب الخيل ما يتكاونون إلا بالسبق يا أبو فوزان!

ومثلما سافر حماد إلى اليابان، ولم يعرف بموت مفلح. سافر شدادا المطوع بخيله إلى مصر. قال راكان للسلطان فنر:

ـ وهذول آل المطوع، يا طويل العمر، يلعبون بذيلهم، وما هو من أمس واليوم؛ حماد ما رضي يصير معنا إلا حين وعدته يصير وزير. وعمه شداد، وروحته لمصر، ما هي لله أو سالفة خيل، قبل ما يشد رحاله زار عمير، وطرّش حصان وفلوس لشمران...

قاطعه فنر بمرح:

ـ بعد اليوم ما يفلت منا أحد، اللي يجي بالفلوس نجيبه، واللي ما يجي بالفلوس يجي بغيرها، فوكّل الله ولا تخف!

- لكن أهل مصر. يا طويل العمر، ما ينقدر عليهم، وإذا شداد ينقصه شي يتعلمه هناك، فإذا فاته شي يتعلمه أولاده، ونكون بسالفة نصير بسالفة ثانية!

ضحك فنر، هز رأسه عدة مرات، وعلق:

- نظرك بعيد أكثر من اللازم يا راكان، بس من هالحين إلى ذاك اليوم سفر طويل، فخلنا بسوالف اليوم واللي عقبه!

- على خيرة الله، بس أذكرك أنه وعمير ظلوا ساعات، ووحدهم.

- غير السوالف ما يطلع منهم، لأن لحاهم بأيدينا: أرزاقهم وأولادهم، وإذا ردنا ما هم بعيدين!

- مهمتي، يا طويل العمر، أن أضع ما لدي من معلومات بين أيديكم.

- أريدك ما تنسى شمران.

- شمران بالقفص: أولاده عندنا، وسوالفه كلها تصلنا، وباكر أو اللي عقبه يتعب من الزرنوق ويرجع.

قال السلطان كأنه يخاطب نفسه:

- هذول البدو ما ينعطون وجه، لأنهم يطمعون وما يشبعون، فيلزم الواحد ينّقط لهم تنقيط: لا يشبّعهم ولا يجوّعهم، إذا شبعوا فسقوا وما ينحملون، وإذا جاعوا يخوفون، يبيعون دينهم وربهم للي يعطيهم، وما دام الله عطانا يلزم نذكرهم، نعطيهم، نربطهم بالحكومة، نشغّل أولادهم، نخلّيهم حوالينا، نفتح الطرق، ونقول لهم: ذهب الحكومة قريب وسيفها أقرب، من كان مع الحكومة سلم، واللي يريد يدوّر السوالف القديمة، ويقول يصير وما يصير، لا بالله حياته ومماته بأيدينا.

الذي ولدته عمليات الإعدام تراجع، ثم زال. الضجة التي رافقت بداية الحرب، وكانت تمتلئ بالعبارات الكبيرة، أخذت تخبو. وحتى وفرة الحاجات وحركة الأسواق، ما أن انقضت بضعة شهور على اندلاع الحرب إلاّ وتحولت إلى شكوى يطلقها الناس، ويطلقها التجار أيضاً.

أما العمليات العسكرية، ولم يُتوقع أن تستغرق إلا أسابيع قليلة، وتنتهي بالنصر، فقد امتدت وطالت، وأحاط بها ذلك الغموض المحيّر حول النتائج، خاصة وأن بلاغات الطرفين متناقضة إلى أقصى حد. وموران التي كانت تدفع بآلاف الرجال، فترة بعد أخرى، بدأت تستقبل آلافاً تفوقهم من اللاجئين من النساء والأطفال، وأصبح منظر هؤلاء يثير الأسى والتساؤل والشتائم. أما القوالون الذين كانوا يتيهون في الأسواق كالطواويس، فقد انكفأوا، لأن القصائد الهامة والكبيرة التي حملتهم من أماكنهم إلى موران، لم تعد تثير أحداً، ولا تعني شيئاً، إضافة إلى أن أغلبهم لم يعد لديه ما يقوله، ولم يبق من يستمع إليهم.

وإذا كانت حروب خريبط ولدت المرارة والأحقاد، فقد كانت بعيدة، ولم تُعرف الكثير من أخبارها وتفاصيلها إلا بعد أن عاد المقاتلون. الآن، أصبحت الحرب مختلفة: دخلت كل بيت، وطالت كل إنسان. خاصة وأن راديو موران الذي حشد كل قواه، واستعان بالكثيرين، جاء بهم من هنا وهناك، وكان يقطع برامجه بين ساعة وأخرى ليعلن عن المواقع الجديدة التي احتلتها قوات صاحب الجلالة، وكان يزف البشائر بقرب النصر وانتهاء الحرب، بدأ يتراخى ويتغير، إذ اقتصر على النشرة العسكرية، يذيعها مساء كل يوم، كما تذاع نشرة الأحوال الجوية!

حتى خطوط الحرب، وأسماء المواقع التي يفرزها القتال في كل المعارك، وفي كل الأماكن، ولمعت هنا لفترة، إلا أنها ما لبثت أن انطمست ثم انطفأت. لم يعد يُعرف أين تجري المعارك، لأن هؤلاء البدو الذين دق شيوخهم بالأيدي على الصدور، وأعطوا أرقاماً خيالية عن الفرسان والأفراد القادرين على تجنيدهم وتحريكهم، ليتقاضوا مقابل تلك الأعداد أموالاً وأسلحة وأرزاقاً، أصبحوا مثل الأشباح، فلا يعرف إن كانوا موجودين فعلاً، أم أنهم أرواح هائمة تغيب وتحضر حسب اعتبارات لا يحددها ولا يعرفها أحد.

سند الذي عشق البادية، وأدمنها، كما أدمن القنص والقصيد وبرنامج البادية في إذاعة موران، وكثيراً ما استضاف في مكان إقامته، في خبرة الشاوي، أعداداً من الشعراء، وكانت الخبرة مكاناً معروفاً ومقصوداً لطيب مائها ووفرة الصيد فيها، وليس لأنها في الطريق إلى الدواحس، أو لأن الطريق إلى العوالي يقترب منها أو يمر فيها.

سند اعتبر الحرب جنوناً، ولن تؤدي، خلافاً لما تدعيه إذاعة موران، إلى النصر، أو إلى نتيجة مشرفة، لأنها تجري في تلك الفلاة المكشوفة، ولأن أبطالها هؤلاء البدو «الذين يعطون للعفاريت الدروس، ويعلمونهم شنهو اللي يلزم يسوونه».

قال، بعد أسابيع من بدء القتال، لعدد من رجاله:

ـ يلزم، يا جماعة الخير، تدّورون لنا بادية غير بادية موران. . .

وبعد قليل، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ سياراتهم وطياراتهم ما تركت لا قطاة ولا حبرية، وفليسات طويل العمر سوّت العفاريت أباليس: يوم يحاربون بهذا الصوب وثاني يوم بذاك الصوب، وتعال أعرف من هو اللي معك ومن هو اللي عليك!

والسلطان الذي لم يعجبه موقف سند، أو بالأحرى سلبيته ونقده، فقد طلب من مساعد أن ينساه، على الأقل في المرحلة الأولى، وأن لا يستفزه، لأنه أحد القلائل الذين «يمونون على هذول البدو المساخيط». ولاقتناع السلطان أيضاً «أنه من بد ولازم يرده حليبه، إذا ما هو اليوم اللي عقبه».

الآن، بعد مرور الأسابيع تعقبها الشهور، والحرب تدخل في ذلك النفق المظلم، فلا يُعرف متى تنتهي أو إلى ما ستؤول، فقد جمع السلطان مجلس الحل والربط:

ـ بعد اليوم ما نقبل لأحد عذر. اللي ما هو معنا، اللي ما يشدّ ويحط كل حيله، ترى حنا مضطرين، وأقولها وقلبي ينعصر، أنه ضدنا، ولا بد نتصرف...

كان واضح أن السلطان يعني سند واثنين أو ثلاثة من الأخوة، خاصة بعد أن بعث إليهم يطلب منهم أن يشاركوا، أن يفعلوا شيئاً، لكنهم هزوا أكتافهم باستخفاف، ولم يغيروا مواقفهم.

بعد مناقشات حامية، تخللتها اتهامات وكلمات قاسية، خاصة من مساعد، فقد وقف سند، وقبل أن ينسحب قال بسخرية:

ـ قبل ما تشعلون هذه الحرب قلنا لكم: آخر الدواء الكي، والحرب ما ينلعب بها، لأنها تحرق الأول والتالي. قلتم: عندنا سلاح وعندنا رجال، ويومين والثالث نخلي عجاجهم يسبق ظلالهم. قلنا لكم البدوان جماعة غزوة وغارة، وما هم جماعة يمسكون القاع ويظلون بيها، قلتم: ولمّنا كل شي، وجسبنا لكل شي حسابه، قلنا: حنا ما علينا، نسكت ونّاظر...

وضحك بسخرية، وهو يخطو نحو الباب:

ـ وهالحين، بعد ما جربتم سلاحكم ورجالكم، وشفتم أرواحكم ما تقدرون على هذا الحمل، تريدوّنا نجيب رأس كليب؟ لا بالله ما هي شغلتنا، وما نقدر نعمّر البصرة بعدما خربتوها!

في وقت لاحق، قيل أن سند ندم للكلمات التي قالها، ولم يكن في نيته أن يفعل، أو أن ينسحب، لكن طريقة مساعد أثناء المناقشة، جعلته يتصرف هكذا، وأصبح صعب عليه، كما صعب على الآخرين، التراجع. وقيل أيضاً أن مساعد لم يتصرف بهذه الطريقة إلا بعد أن تشاور وراكان، وقيل ان راكان هو الذي طلب منه أن يفعل ذلك.

غزوان الذي كان يزور موران كل بضعة شهور، أصبحت زيارته، بعد

توقيع عقد المدينة الجديدة، أكثر. أما بعد توقيع عقد السلاح فكان لا يمضي شهر إلا ويقضي أسبوعاً منه على الأقل في موران. وحين اندلعت الحرب، وأصبحت متطلباتها كثيرة ومتنوعة وعاجلة، لم يعد أحد يعرف ما إذا كان في موران، أو غادرها. لكن كل من يريده فعلى ثقة أن لا بد ويلتقيه في الليلة الأولى أو التي تليها، على أبعد تقدير.

ولأن المرحلة الجديدة تتطلب الكثير، وتتطلب الكثيرين، ولأنه وقع خلالها سوء فهم بين ليفي شاوات وروبرت يونغ، ما لبث أن أصبح خلافاً حقيقياً، رغم محاولات روبرت التي اتسمت بالكثير من المرونة والتنازل، فقد أصبح صفاء الشلبي عنصراً أساسياً ولا يمكن الاستغناء عنه، خاصة في موران، من أجل إعداد قوائم المشتريات، والاتصال مع الجهات المعنية لترتيب استلامها، لذلك انقسمت الشركة العالمية إلى فريقين: الأول، في موران، وفيه غزوان معظم الأحيان، وصفاء دائماً، والثاني في سان فرانسيسكو، وكان فيه ليفي شاوات دائماً، وإليانور بعض الأحيان، إذا كانت «تضطر» للقيام بزيارات عاجلة إلى موران، «لأن طبيعة عدد من المواد التي يراد استيرادها تتطلب ذلك» كما قال غزوان، مرة، حين سئل، وابتسم ليخفي ما وراء هذه الزيارة من شوق! كما كانت إليانور تلتقي به في حالات أخرى في لندن وتايوان أو طوكيو، بناء على اتفاق سابق أو لمكالمة تلفونية عاجلة!

قال غزوان لامه، بعد أن عجزت عن تذكر تاريخ مولده حسب التقويم الهجري:

ـ لو كان بابا موجود لأسعفنا، لأن ذاكرته قوية، ويجوز أنه مسجل الولادة في أحد دفاتره!

قال ذلك لأنه متأكد أن ولادته تمت في ليلة القدر، خاصة ووداد تتذكر، رغم مرور الوقت، وتداخل الذكريات، «إن العائلة كانت في حالة فرح. يمكن عيد، يمكن مناسبة. بتذكر هيك، لكني ماني متأكدة!».

لقد خطر له أن يشير إلى ذلك لأن عدة مصادفات تجمعت في وقت واحد، وأدت إلى إبرام عقود لم يحلم بها ولم يسع إليها. «جاءت على

رجليها»، كما يقول بعض الأحيان، وهو لا يخفي فرحه. فقد صدف مرتين أن جاء لزيارة لأمير راكان، خلال الفترة الأخيرة، دون اتفاق سابق، ووجد عنده ابن عليان مرة، ووجد راتب الحفار في المرة الأخرى. والأمير راكان، مثل عادته، لا يستطيع أن يخفي براعته، فما كاد غزوان يسلّم ويتبادل بعض كلمات المجاملة، حتى التفت الأمير راكان نحو عثمان العليان وقال:

ـ حنا، يا أبو عزيّز، نريد التركّات المائتين جميع، وبشهر، وإذا ما تقدر فنشوف شنهو اللي عند غزوان، وشنهو اللي يقدر يساعدنا.

وابن العليان الذي استاء إلى أقصى حد من إثارة الموضوع. وبهذه الطريقة، فقد أعلم أنه يسحب عرضه، ولم يعد راغباً في أن يبذل جهداً إضافياً. ورغم محاولات راكان في أن يطيب خاطره، إلا أنه أصر، ثم انسحب في ذات اليوم، وبعد عدة اتصالات تلفونية أجراها غزوان، تم توقيع عقد استيراد أربعمائة سيارة كبيرة، تسلّم خلال ثلاثة أشهر، بمعدل مائة في الشهرين الأولين، والباقي خلال الشهر الأخير!

أما ما حصل مع راتب الحفار، وقد كان راتب ينتظر في غرفة السكرتير لما وصل غزوان، ولا يعرف أية حماقة دفعته لأن يستغل وجود غزوان ويدخل معه على الأمير، وكيف أن عقد الإطعام، الذي كان يفترض أن يوقعه، لتوريد حاجات الجبهة الغربية من الأرزاق، انتقل، خلال الجلسة ذاتها، إلى «شركة المأكولات الشرقية» لأنها وحدها القادرة على استيراد الرز والسكر والشاي في المدة اللازمة. وراتب الذي أحس بهول الخسارة، وافق، أو بالأحرى اقترح، أن يقسم العقد إلى جزءين: جزء خاص بالمواد التي يمكن تأمينها محلياً، كاللحوم والخضروات والخبز، وجزء متعلق بالاستيراد، وأن يتولى كل واحد من الطرفين تأمين الجزء الخاص به، وغزوان الذي وافق على هذه القسمة، قال بطريقة لا تخلو من سخرية:

ـ أنا موافق على هذه الصيغة، بس لازم تعرف يا عمو راتب أن إمكانيات شركة المأكولات الشرقية في الداخل لا تقل عن إمكانياتها

الخارجية، ومع ذلك، ومثل ما يقال: وتعاونوا على البر والتقوى!

وهناك عشرات العقود الأخرى، وفي شتى المجالات، كانت تنهال على غزوان، وكان، في حالات معينة، خاصة حين يُستدعى للرد على مكالمة تلفونية، أو حين يجد مواعيده مزدحمة ومتداخلة، أو يكون مضطراً لسفر عاجل، لا يخفي تبرمه أو تعبه، أنه مضطر، خدمة للسلطنة، لقضاء نصف حياته في الجو، رغم كل المخاطر، متنقلاً من مكان إلى آخر، من أجل تأمين الحاجات الضرورية، والتي لا تحتمل التأجيل، كما كان يقول!

لما ذكر لأنه أن لديه شعوراً، أقرب إلى اليقين، أنه ولد في ليلة القدر، خاصة بعد توقيع عقد الإطعام، وقد امتنع عن توقيعه، تاركاً لأخيه كمال أن يفعل ذلك «لأنك أنت المسؤول في الأول والأخير» كما قال له أمام راتب... بدت وداد ميالة إلى احتمال أن يكون ولد فعلاً في تلك الليلة «أنك ولدت في الليل، هذا أنا متأكدة منه. وأنه في عيد أو مناسبة، كمان متأكدة، أما غير هيك، يا ابني، فلازم أنه...». ولم تعرف ماذا تقول!

... وعقود ملابس الجيش، والتجهيزات الطبية، إضافة إلى الأغطية وإطارات السيارات، ومسلتزمات حرس القصور، ومستلزمات السجون أيضاً، كلها وقعها غزوان، أو من فوضه بالتوقيع.

العجرمي الذي أصبح يقضي الشتاء كله في عين دامة، ويعود إلى موران في منتصف الربيع، وكان قد سمع عن الحرب، وإن لم يعرف دوافعها وتفاصيلها، وجد أن اسم غزوان يتردد مثل اسم السلطان، وأكثر من الأمراء، قال لابن البخيت، بعد عودته، وكان قد مضى على الحرب بضعة شهور:

ـ ما تقول لي، يا عبدالله، منين جانا هذا البلوان؟

وعبدالله الذي يعرف عمن يسأل العجرمي، قال بطريقة فخمة:

ـ هذا اسمه غزوان، يا شيخنا!

ـ غزو واحد يكفينا، يا ابن الحلال، لكن ذلك الغيم خلف هذا المطر...

هز رأسه، وهو يتذكر، ثم أضاف بنبرة ساخرة:

ـ لما أبوه كان يلعب بخصاوي السلطان، قلنا لأرواحنا: ما هي خوش لعبة، مثل ما يقول العراقيين، والله يستر؛ واشوف هالحين أن العجي يلعب بروس الناس، وما ترك شي بموران إلا وحاسه.

ضحك عبدالله البخيت، وقال:

ـ تذكر، يا شيخنا، ذيك السالفة، عن ابن الحرام، اللي كان ينزع أكفان الميتين، وكان الناس يسبونه، فقال ابنه لما سمع الناس يسبون أبوه: والله لأخليهم يترحمون عليه. وما كذب خبر: بلّش يسرق الأكفان، مثل أبوه، لكن أبوه لما يسرق الميتين يدفنهم، يرجعهم لقبورهم، أما هو فكان يسرقهم ويلقحهم، وتجي الكلاب والذياب وتنهش بيهم، فصار الناس يقولون: الله يرحم أبوه، لأنه كان أحسن منه، كان يرجع الميتين لقبورهم!

بعد أن استراح قليلاً، تابع:

ـ وهذا غزوان، يا شيخنا، يريد الناس يقولون: الله يرحم أبوه. أبوه كان أحسن منه.

ـ وسمعت ابن عليان، يا عبدالله، دايخ مع هذا البلوان. إذا راح له من مغرب، جاء هذا من مشرق. وأبو عزيّز يصفق يداً بيد، وإذا استراح يضع يده على الخد، فشنهو اللي صاير؟

ـ خلنا ننتظر ونشوف، يا شيخنا!

ـ نشوف شنهو؟

ـ إنهم يخلّونا بأكفانا أو ينزعون عنا الأكفان!

ـ بارك الله بك يا أبو بادي، لأن بشارتك تبرّد القلب!

ـ أهل مصر يقولون، يا شيخنا: اللي يعيش يشوف، واللي يلف يشوف أكثر. وحنا عشنا وشفنا، بس يلزم نشوف أكثر!

راتب الحفار، وهو يحدث سعيد الأسطة، كيف وقع بين فكّي الذئب، غزوان، وكيف انتهت المعركة، رد عليه سعيد:

ـ وين وقّعت حالك يا ابن الحلال؟

وبعد قليل:

ـ أبوه لا حلل ولا حرّم، كل شي كان مسموح إذا من وراه فلوس، ومن شابه أباه فما ظلم!

قال راتب بحسرة:

ـ آخ يا زبي... لو تحكي!

أما الأمير راكان فقد حدّث السلطان، مستبقاً أي إنسان آخر، كيف أن ابن العليان وعد بتأمين متطلبات الجبهة من السيارات الكبيرة، وبعدما تم الاتفاق: على السعر، وعلى الكميات ومواعيد التسليم، بدأ ابن العليان، مثل عادته: «اليوم وباكر، وحنا صابرين ومنتظرين. لكن تعرف، طال عمرك، هذي حرب، وكل ساعة وكل يوم له قيمة. وحنا بالسالفة الله بعث غزوان. وبساعته، طال عمرك، فرجنا: اللي تريدون من هالعين ومن هالعين. وابن العليان انحمق، يصير وما يصير، وما خلى شي ببطنه إلا وطلعه. سمعناه وقلنا ما يخالف، أنت شيخنا ولك أفضال على هالبلد، بس هالقضية ما تتحمل. وبعدما طلعت أرواحنا، وحنا نقول: ما لنا غيرك يا أبو عزيز، حمل روحه ومشى. فصار العقد بينا وبين غزوان».

هكذا شرح راكان القصة. والسلطان الذي كان ينصت ويهز رأسه، رد بحدة:

ـ خله يولي...

وبعد قليل:

ـ كل شي راده قلنا ما يخالف، وبعدها، هذا اللي يطلع منه؟

ـ ما هو بس كذا، طال عمرك، صوته يلعلع، وكل كلمة من كلامه مثل السكين بالقلب، لكن ما يخالف، حنا نريد شغلتنا، نريد نأمن حاجاتنا، فما قلنا لا طويلة ولا قصيرة، سكتنا. قلنا اللي تشوفه يا أبو عزيّز.

وضحك راكان بحزن، ثم أضاف:

ـ وأبد، ما كذّب خبر، يا طويل العمر، قال: أنا ما لي علاقة، واللي بيده شوك خله يطلّعه، وفي أمان الله!

قال السلطان:

ـ هذول، يا أبو منصور، من يومهم، ما يتأمنون، داروا الدنيا كلها ورا القرش، وصار القرش بالنسبة لهم كل شي. ما عندهم نخوة، ولا يبولون على يد مجروح...

وبعد قليل وبثقة:

ـ وعين الصواب اللي سويته، يا راكان. وأريدك دايماً بهذا الشكل.

ـ قلت لروحي، يا طويل العمر، أقول لك اللي صار، خاف باكر يجيك بغيبتي، ويقول فلاني وتركاني، صار وما صار. فقلت الأحسن والأخير أن يسمع مني طويل العمر، لأنه ما نريد أحد يفوت بيّنا.

ـ وحنا، يا راكان، هالحين، أصابعنا بالنار، ما نقدر نسمع سوالف الناس، ونسأل: شنهو بعد؟

وتنفس ملء رئيته، وأضاف:

ـ وأخوك، يا راكان، بيوم الشدة هو اللي يقف معك، اللي يقول: شنهو اللي تريده، أما واحد فسقان، مثل ابن العليان، ما يهمه إلا المربح، وما يسأل عنك وقت الضيق، ولا يفرجك إذا احتجت، فشنهو قيمته؟

ولما ظل راكان صامتاً، واكتفى بأن هز رأسه عدة مرات دلالة التفهم والموافقة، فقد تابع السلطان:

ـ وغزوان ما مثله، يا أبو منصور، فخلوا اعتمادكم كله عليه، وخلوا ابن العليان وأمثاله ينشقّون.

وإليانور، البطة نصف الداجنة، تعرف متى تأتي ومتى تسافر. متى تتكلم ومتى تصمت. أما إذا تحدثت عيناها، فإنها تقول أشياء لا يمكن أن تقال بوسائل أخرى: واضحة، كاملة، قوية، أخاذة، جامحة، مجنونة، دافئة. والعيون التي تستقبل كلماتها تعرف كيف تحتضنها، كيف تجن بها. أما الحلم فكان سيداً قوياً متجبراً يسيطر على موران، وعلى أجزاء أخرى كبيرة من المنطقة، وكان يدفع الأمور هنا وهناك، لكي تأخذ هذا الشكل المجنون من التخبط والانتظار والهوس.

قال ابن عمير الذي لم يخرج من بيته بعد يوم الإعدام:

ـ الله حق والموت حق، بس يلزم أن البني آدم يعرف متى يموت، إذا أراد يناطح، ويعرف ليش يموت.

قال ابنه دحيم:

ـ والله، يا يوبه، ولا أكثر من الأسباب!

ـ لكن، يا وليدي، أولاد خريبط ذياب، وشموا ريحة دم. والذيب إذا شم الدم يقتل نفسه إذا ما لقي أحد يقتله.

قال دحيم:

ـ هذي الأيام، يا يوبه، غير أيامكم، وهذي الحرب راح تجيب أجلهم.

ـ ما أريد أردك يا وليدي، لأن باطن الأرض صار أخير من ظاهرها، بعد اللي شفناه، بس فتح عينك واحرص.

قال عمر لسويلم المصلح، وكان من الأصدقاء القلائل الذي بقي يزوره:

ـ . . . ما بقي من الحياة شي يستاهل، يا سويلم، لكن بيدي لا بيدك يا عمرو، مثل ما قالوا من قبل!

وابتسم بحزن ثم أضاف:

ـ ما أريدهم يفرحون بي، يا سويلم حتى إذا مت، وصيت الولد أنهم يدفنوني بساعتي، ويلزم ما يقولون لأحد، لأن موتنا يفرحهم يا سويلم.

قال السلطان لراكان، وهما يستعرضان وضع موران:

ـ . . . حتى عمير، لما شاف شنهو اللي نقدر عليه وشنهو اللي نسويّة، صار حريمة، وما أحد شافه بالسوق!

ـ وما هو بس كذا، يا طويل العمر، حتى اللي زاروه، وسألوه: شنهو رأيك بفلان شي وبفلان شي، قال لهم بعد ما ألّحوا: ما أدري، ما أعرف!

ـ هذي موران، يا أبو منصور: ما تفهم إلا بالعصا، ولا تتعلم إلا بالعين الحمرا. . . وبالدم، واللي يريد يجرب خله يطّلع قرعته!

بعد أن تحول سوء التفاهم بين سان فرانسيسكو ونيويورك، أو على التحديد بين الشركة العالمية للاستيراد والتصدير ومكتب الشرق الأوسط للاستشارات، إلى خلاف حقيقي، وبدأت تلك السلسلة الطويلة من المنازعات، وانتهت إلى المحاكم في المدينتين، وحين طالت المنازعات وتشعبت، قرر روبرت يونغ، كسباً للوقت، ووصولاً للعدالة، أن يتوجه إلى موران. فهناك النبع وهناك إجراءات العدالة البسيطة والمباشرة، حيث يلتقي الطرفان عند القاضي، ولا بد أن يحكم لأحدهما في ذات الجلسة.

وباعتبار أنه تعرض إلى خدعة مكشوفة، تصل إلى حدود السرقة الموصوفة، فقد شط الخيال بيونغ، بعد أن وصل إلى موران، وطلب مقابلة عدد من المسؤولين، على رأسهم الأمير راكان، إلى حدود الافتراض أن قضيته لا بد أن تحسم، إذا لم يحسمها الأمير راكان نفسه فإن المحاكم ستتولى الأمر. وتذكر ما قرأه عن الطريقة التي يعاقب بها اللصوص في موران، كيف تقطع أيديهم أمام الناس، وكيف يصبحون مدانين، تلاحقهم سبّة الجريمة إلى آخر أيام العمر، من خلال القرينة التي لا تخفى: اليد المقطوعة!

وحاول أن يتذكر صور خصومه: ليفي شاوات أكثرهم قسوة وبرودة دم. قال، على الهاتف، أن شركته لم تستطع أن تفي بمتطلبات العقد، ولذلك أُلغيَ القسم الأكبر منه. أما الأشياء الأخرى: الجسور، وعدد من المستودعات، وبعض المواد، فيمكن إجراء الحسابات بشأنها في نهاية السنة المالية، وبعد حسم كافة المصاريف والأعباء التي ترتبت بدءاً من قيام

العلاقة. هكذا لخص ليفي كل شيء، وبدا واثقاً وحازماً، أكثر من ذلك، بدا، من خلال لهجته، وكأنه رئيس عصابة أو قرصان يضع تلك العلامة السوداء على عينه، ويلف رأسه بمنديل. الآخرون كانوا أقل جرأة وأقل كفاءة. غزوان اعترف أن قسماً من المعدات العسكرية شُحن بالفعل إلى موران، لكن لم يتم تسديد أثمانها. وفي محاولة للتخلص، ادعى أنه كثير الأسفار، ولا يعرف معظم التفاصيل، ولذلك فإن من الأفضل أن يتم بحث الموضوع مع ليفي!

وحتى صفاء الشلبي، الذي كان يرد على الهاتف، في حال غياب ليڤي، فقد قال كلاماً ثم تراجع عنه، بل أكثر من ذلك أنكر كل ما قاله، حين جاء روبرت لبحث الموضوع في سان فرانسيسكو!

أما إليانور فإنها عدة نساء في امرأة: لطيفة، ذكية، لبقة حين تريد شيئاً، وجاهلة، لا تعرف أي شيء، حين تتوتر العلاقات أو تسوء.

هؤلاء هم خصومه. أنهم أشبه بالمافيا: عتاة قساة حين يريدون شيئاً، وجبناء إلى أقصى حد حين يتعرضون للتجربة. وإذا كانت محاكم نيويورك وسان فرانسيسكو حمتهم ووفرت لهم فرص الهروب والنجاة، من خلال التأجيلات المستمرة، وطلب المزيد من الأوراق والبراهين، إضافة إلى طلب الخبرة، ثم المدة بين تأجيل وآخر لأسابيع تمتد إلى شهور، فإن موران، السلطة أو المحاكم، كفيلة بوضع حد لهذه المحاباة. وتصور روبرت يونغ خصومه مقطوعي الأيدي، بملابس كلها أكمام لتخفي الجريمة! وتساءل أي الأيدي هي التي تُقطع عادة؟ ولما التبس عليه الأمر، تذكر أن عدداً من الجرائم لا يُكتفى بقطع الأيدي وحدها، وإنما تُقطع معها الأرجل أيضاً!

ابتسم، للحظة، وهو يتصور منظراً مثل هذا، لكنه عاد وحزن حين تصور اليانور بيد واحدة! قال لنفسه بحدة: «ولكنها زوجة غزوان، فإذا لم تكن مسؤولة سابقاً، فهي الآن كاملة المسؤولية».

وهو نفسه لا يستطيع أن يتبرأ من المسؤولية، لقد كان شديد الحرص،

في حياته الوظيفية كلها، حتى أن زملاءه كانوا يأخذون عليه دقته المفرطة. لكنه، منذ أن بدأ هذه العلاقة المشؤومة، لا يعرف كيف أصبح على هذا القدر الكبير من الحماقة ليغفل عن أبسط الضمانات التي يجب أن يوفرها لنفسه. لقد أراد، نتيجة الخطأ الأول الذي وقع فيه بعد تنحية خزعل، أن يثبت للآخرين أن الأموال لا تعني له كل شيء. ترك لاريحيته أن تتصرف، خاصة وأنه أصبح يعمل لحسابه الخاص، ولذلك يمكن أن يبدي أقصى التساهل، ليحمل الآخرين، أيضاً، على أن يفعلوا مثله. أن علاقة من هذا النوع أساسها الثقة والأريحية، يمكن أن تفتح لهم مجالات لا حدود لها، ولا بد أن تعوض «الخسائر» التي يفترض الحريصون أنها الأساس للربح.

قال لنفسه بثقة: «هؤلاء البدو، كما قرأت، وكان يحلو لهم أن يرددوا باستمرار، يعتبرون أن الكلمة تعني لهم شيئاً هاماً وكبيراً، لذلك فإن عدم وجود الأدلة المكتوبة لا يعني انتفاء الحقوق. سأطلب منهم أن يؤدوا اليمين. والقضاة هنا يعتبرون اليمين دليلاً قاطعاً. لكن ماذا يعني لليفي أن يحلف يميناً كاذباً؟ وغزوان. . .؟ ربما يختلف عن ليفي، لكن يبقى المال أقوى من الاثنين».

فكر أن يستعين بعدد من أصدقائه القدامى في شركة النفط، لكنه قال لنفسه بحزن: «أغلب الناس غير مستعدين للدفاع عن الحمقى، أو للوقوف إلى جانبهم، وما دمت أنا المسؤول عن الخطأ، فيجب أن أتحمل نتائجه».

وفي ليالي الانتظار لمقابلة المسؤولين، كتب أفكاراً وملاحظات كثيرة، منها ما يتعلق بالجانب العملي، وهو الأهم، ومنها عبارات أقرب إلى الانطباعات عن موران والناس، أو الأفكار الأساسية حول بناء مدينة السلطان فنر.

في إحدى الليالي زاره صفاء الشلبي.

في البداية ادعى أنه عرف بوجوده عرضاً، أثناء زيارة لمكتب وزير الداخلية، واطلاعه على أسماء الذين يطلبون مقابلة الوزير. ولم تمض فترة قصيرة إلا وغيّر في هذه الرواية، إذ قال إن مكتب الوزير سأله عن عدد من

الأجانب، كان من بينهم اسم روبرت يونغ. وفي فترة لاحقة اعترف، ضمناً، أن غزوان طلب منه أن يقوم بهذه الزيارة، لكي يعرف طلباته بشكل محدد. وأضاف وهو يتلفت:

ـ والأفضل، يا مستر يونغ، أن تتم تسوية الموضوع ودياً، لأن استمرار النزاع ليس من مصلحة أحد!

وروبرت الذي كان متحفظاً، أقرب إلى التجهم، ولا يجيب إلا بطريقة دبلوماسية، وبإجابات قصيرة، ما لبث أن تحرك في مقعده، وابتسم، فقد أحس أن الآخرين خائفون من زيارته، وأن قراره بالمجيء إلى موران أصوب من أية خطوة اتخذها في حياته. أما حين سأله صفاء عن المبلغ الذي يعتبره تسوية مرضية، فقد رد روبرت بحدة:

ـ المسألة بالنسبة لي، مستر شلبي، متعلقة بالمبدأ أكثر مما هي متعلقة بالمبلغ!

ورغم أن صفاء عرض، أو بالأحرى أشار إلى استعداد الشركة العالمية، من أجل إقفال هذا الموضوع، إلى دفع مبالغ كبيرة، وأكد عدة مرات على كلمة «كبيرة»، إلا أن روبرت كان صامداً ورافضاً.

في نهاية هذا اللقاء، وقد طال وتشعب، قال روبرت بثقة:

ـ يبدو أن بعض الناس لا يفهم من العمل التجاري سوى الربح، بأية طريقة جاء، وهذا الفهم إذا حقق بعض النتائج المؤقتة، فإنه الوسيلة الوحيدة لتصفية هذا الوسط من هؤلاء، لأنهم مغامرون أكثر مما هم رجال أعمال، والمغامرة إذا صدف وحققت بعض الأرباح فإنها الطريقة المثالية التي تؤدي إلى الخسارة.

وهز روبرت يونغ رأسه في محاولة تهديد، كرسالة أخيرة:

ـ أعرف أنك من وجهة نظرهم، ولا تملك أن تتخذ قراراً في هذه المسألة، لكن لا بد من سماع وجهة نظرك غداً أو بعد غد حين نلتقي بوزير الداخلية.

ليفي شاوات وإليانور اللذان وصلا قبل يومين من هذا اللقاء، ولأمور متعلقة بالعمل، لم يعرفا بوجود روبرت إلا عرضاً، وقد نزل الجميع في

إحدى الاستراحات الخاصة بالأمير راكان، وأثناء تبادل الأخبار أشار غزوان إلى وجود روبرت، ولذلك كانت هذه الزيارة. أما بعد أن تمت، وبعد أن سمع الجميع ما قاله روبرت يونغ، والطريقة التي عرض أفكاره، فقد قال ليفي بسخرية:

ـ حتى العشرة ملايين دولار التي وافقنا أن تكون التسوية بيننا، لا يستحقها!

رد غزوان، وهو يقهقه:

ـ سوف ينتظر طويلاً لكي يقابل الأمير راكان، وإذا قابله سوف يتمنى نصف المبلغ الذي اقترحناه!

ـ أن بناء «يونغ لاند» على الساحل الشرقي سوف يجعل الولايات المتحدة أكثر استقراراً وتوازناً، إذ لا بد أن يوجد شيء يقابل «ديزني لاند».

قال صفاء بمكر:

ـ لم يعد يهم مستر روبرت يونغ، كما لاحظت، أن يبني مجرد مدينة، أنه يريد ليس فقط إعادة بناء العالم، وإنما يريد أيضاً أن يعيد بناء أفكاره وقيمه...

وابتسم وهو يضيف:

ـ من يسمعه يتحدث عن التجارة، وعن القواعد الصارمة التي يجب أن يتحلى بها رجال الأعمال، يتصوره مجنوناً، أو من عالم آخر.

قالت اليانور في محاولة لتغيير اتجاه الحديث:

ـ من حق كل إنسان أن يحلم، لأن الأحلام تلوّن الحياة، وتجعلها مقبولة أكثر!

لما وصل الأمير راكان، قبيل منتصف الليل، أخذ الحديث نسقاً آخر. وفي لحظة مناسبة أبلغت اليانور الأمير أن روبرت يونغ بدأ يضايقهم ويضع العراقيل في وجههم لأنهم مستمرون بتوريد الأسلحة إلى موران. وأضافت وهي تبتسم:

ـ وحين عجز عن تحقيق ما يريد في الولايات المتحدة، جاء إلى هنا لكي يحاول.

بعد ذلك أخذ غزوان الحديث، فأشار إلى أن العلاقة مع يونغ منذ البداية خطأ، وإذا كانوا قد احتملوه في فترات سابقة، فلم يعودوا قادرين على أن يفعلوا ذلك أكثر، خاصة «وأن الرجل يحلم ببناء المدينة، ولا يفكر بغيرها»، أو كما قال مازحاً أو جاداً في آخر لقاء لنا: «بالأسلحة التي تصدرونها إلى موران سوف تهدمون المدن، ومهمتي أن أعيد بناءها على طراز حديث».

أما ليفي شاوات فقد بدأ في هذا اللقاء أكثر تطرفاً، فهو يفكر أن ينسحب من هذا الميدان نهائياً، لأن المضايقات التي يتعرض لها، وفي حالات عديدة، تصل إلى حد الخطورة، وتجعله يتردد في الاستمرار، أو في عقد صفقات جديدة...

كانت كلماته واضحة مؤثرة، وقد أعقبها صمت طويل، مما دفع غزوان لأن يتدخل:

ـ الحالة الوحيدة التي تجعلنا نستمر، يا صاحب السمو، تتوقف على مدى التفهم والدعم...

رفّت عينا راكان باضطراب، وهو يفعل ذلك حين تلتبس عليه الأمور، سأل، وخرج صوته مشروخاً:

ـ شنهو المطلوب منا؟

ـ أن تثقوا بنا، وأن تدعمونا دعماً كاملاً!

وأُعطي روبرت يونغ ست ساعات لمغادرة موران. أبلغ الأمر في السادسة صباحاً: أوقظ من النوم، وطلب منه أن يستعد. ورغم الانزعاج الذي شعر به، وهو يوقظ في هذا الوقت المبكر، إلا أنه حاول تفسير مثل هذا السلوك. قال لنفسه «قد تكون مشاغل الوزير كثيرة إلى درجة لا يجد الوقت لاستقبال مراجعيه إلا بين عملين أو بين اجتماعين» وحين انتهى من ارتداء ملابسه كان في وضع نفسي أفضل، فقال لنفسه «ولولا اهتمام الوزير بالاجتماع لما تذكره في مثل هذه الساعة المبكرة».

أما بعد أن نقل الى المطار، ولعدم وجود طائرة متجهة إلى لندن، حيث كان مقرراً أن يعود عن هذا الطريق، للبحث مع إحدى الشركات المصدّرة للسلاح، ولأن طائرة أخرى كانت متجهة إلى فرانكفورت عن طريق أثينا، فقد حجز له عليها، وسُلّم جواز سفره داخل الطائرة.

قال راكان للسلطان:

ـ . . . ولاحظنا، طال عمرك، أن بعض الأشخاص اللي تعاونّا معهم، خاصة في قضايا السلاح، انعرفوا، فظل الجماعة وراهم إلى أن صادوهم. صادوهم وقالوا لهم: نريدكم تستمرون، ولا كأن شي صار، وتخبّرونا بالسلاح اللي يصلهم: منين وشكثره، ووين حاطينه. . . وغيره وغيره. . .

سأل السلطان بقلق:

ـ اي، وبعد، شنهو اللي صار؟

ـ جماعتنا، طال عمرك، كانوا له بالمرصاد، فما أن عرفنا من، ووين، إلا واتخذنا إجراءاتنا!

وشرح راكان بالتفصيل كيف أن جزءاً من الحرب أخذ يجري في الخطوط الخلفية، وعدّد للسلطان بضعة أسماء موجودة في الدواحس حالياً، وتبعث بأخبار تحركات الجيوش وأنواع الأسلحة، والخطط المبيتة ضد السلطنة، وأن هذه الأخبار غالباً ما تكون صادقة ودقيقة.

السلطان فنر الذي بدا عليه السرور أن أخبار هامة تأتي من الداخل، ومن العمق، إلا أن القلق عاوده من جديد، فسأل:

ـ وإنشاء الله زرعوا بيّنا جواسيسهم، وينقلون لهم سوالفنا؟

ـ كاد أن يصير، يا طويل العمر، بس الله نجّانا، ومثل ما قالوا: على نياتكم ترزقون.

وشرح بالتفصيل، من جديد، كيف أن روبرت يونغ، الذي كان شريكاً لغزوان، لم يرتح لتأجيل بناء المدينة الجديدة، وبدأ يخرب، مما اضطر الجماعة إلى قطع علاقاتهم معه، فجاء إلى موران خلال الفترة الماضية،

في محاولة لمعرفة ما هو حاصل، لكن الدوائر الأمنية التي راقبته بدقة، وتابعت كل تحركاته، قدّمت عنه معلومات كافية، رأت وزارة الداخلية، كإجراء رادع، أن تتخذ قراراً بإبعاده. لقد فعلت ذلك لأنه أميركي الجنسية، ولو كان من جنسية أخرى، خاصة عربية، لكان درساً لكل من تسوّل له نفسه أن يتجسس على السلطنة، أو أن ينقل أخبارها للأعداء!

والسلطان الذي أبدى أسفه لأن الإجراء اقتصر على الإبعاد، إذ كان يفترض أن يحبس ويحاكم، حتى لو جرى إطلاق سراحه فيما بعد، فيمكن أن يقال للحكومة الأميركية أن بعضاً من رعاياها يعملون لحساب الطرف الآخر، لكن تعبيراً عن الثقة بهذه الحكومة، فإنه يطلق سراحه.

أما راكان فقد برر الإجراء بضرورة أمنية، إذ أشار إلى أن عدة عناصر مكلفة الآن بمتابعة روبرت يونغ، وبأشكال متعددة، وربما أدت هذه المراقبة والمتابعة إلى كشف عناصر أخرى تعمل معه، أو تعمل لحساب الدواحس. أشار أخيراً إلى أن الولايات المتحدة، حسب الأنظمة والقوانين المعمول بها هناك، مضطرة لأن تدافع عن مواطنيها، مهما ارتكبوا من الأخطاء، وقد تلجأ إلى المطالبة بإجراء محاكمة علنية، وترسل محامين أو صحفيين، مما يخلق تعقيدات نحن في غنى عنها!

وافق السلطان، مضطراً، على الإجراء، لكنه قال بتأكيد:

ـ بس يلزم، يا أبو منصور، أن تفتحوا عيونكم زين، لأن الكلام اللي أسمعه بالإذاعات، واللي يكتبونه بالجرايد، يدل أن لهم جماعة بينا.

ـ نراقب كل شيء، طال عمرك، بسن تاركين لهم الحبل، وعسى أن الله يوفقنا ونصل لروسهم، وعندها، وبموافقتكم، نخليهم عبر ودروس، مثل ما كانوا الجماعة قبل شهور.

قال غزوان لليفي:

ـ النصف الأول من الاتفاق، أن يبعد روبرت وأن يمنع من الدخول، انتهينا منه، والآن بقي النصف الثاني الخاص بالولايات المتحدة. فكيف تتصور الطريقة المناسبة لمواجهته؟

رد ليفي وهو يبتسم:

ـ مثلما البشر هنا، خاصة الذين في السلطة، يتمتعون بمرونة عالية، ويستطيعون أن يفهموا أدق الأمور وأكثرها صعوبة، من خلال منطق السلطة والدفاع عن النفس، فإن القوانين، خاصة المالية، في الولايات المتحدة، قادرة على استيعاب أعقد الأمور وإيجاد المخارج لها، وسوف نبقى ويونغ نقدم الدفوع سنين عديدة إلى أن نزهق كلانا، وعند ذاك لا بد أن نتصالح. وأن نتصالح معناها الدقيق، وربما الحرفي، أن نتفق على مبلغ من المال. وما دام رفض العشرة ملايين الآن، فسوف يأتي يوم يوافق عليها، أو قد نضطر إلى زيادتها، وحتى لو خسرنا بضعة ملايين إضافية، فقد ربحنا مقابلاً لها زمناً مديداً، وهذا الزمن هو فرصتنا الوحيدة لأن نجني أكبر مبلغ ممكن!

ورغم الشرح الطويل، فقد قال غزوان بمرح:

ـ مثلما اتفقنا على تقسيم العمل، فإن القسم الخاص بي من هذه القضية قد أنجزته، وعليك أن تنجز القسم الخاص بك.

ـ لا عليك مستر محملجي.

قال صفاء بمكر:

ـ إذا أردتم فإنا كفيل بمعالجة مشكلة يونغ...

قاطعه ليفي:

ـ لا أحد من الحماقة إلى الدرجة التي يطلب معالجة سريعة لهذه المشكلة. أتركها الآن. اتركها حتى تبرد، حتى تفقد أظافرها، وعند ذاك يمكن أن تعالج بشكل أفضل، ولمصلحة المستر يونغ بالذات.

وبدأوا يفكرون بأمور أخرى.

ما كاد الصيف الكبير يبتدئ، والحرب قد طالت، حتى تبين أن ذلك الصيف لا يشبه غيره من الأصياف التي سبقته: اضطربت موران، وغادرها ذلك الهدوء الرجراج المغلف بالصمت، فقال الكبار: «مثلما الموت يقطع العدوات فإن الصيف يوقف الحروب» وقالوا أيضاً: «إذا هدأت الأمور تروح السكرة وتجيء الفكرة، سوف يتأكدون أنهم يتحاربون على شيء لا قيمة له». قال غيرهم: «من السهل أن تبدأ الحروب، لكن من الصعب أن تنتهي، وما دام الجنون فرضها، فالجنون لا يبالي بالفصول، ولا يميز بين الصيف والشتاء» قال العجرمي «مثلما يبعث الله الجراد والمحل ليختبر البشر، يبعث الحروب، ولكل شيء نهاية»، أما عمير فقد نقل عنه أنه قال: «يظل ذنب الكلب أعوج ولو وضعوه بالقصبة أربعين يوماً، وهذا ابن أختي كله عوج، وما يشفيه إلا الموت، وتشوفون!».

البدو الذين شاركوا في الحرب طوال الشهور الماضية توقفوا عندما دخل الصيف الكبير. فعلوا ذلك دون تردد أو شعور بالخطأ، فهم يعرفون أن الصيف لا يشبه غيره من الفصول، ولا يستطيعون أن يحاربوا عدوين في آن واحد. ومثلما فعل الناس الذين عاشوا في هذه الصحراء منذ أقدم العصور فعلوا: قاموا بجولاتهم الأخيرة، وكانت بين الكر والفر، ثم تراخوا، وطالت استراحاتهم، إلى أن توقفوا تماماً. وبدأ كل طرف من الطرفين المتحاربين، دون اتفاق، ودون أن يشعر أحدهما الآخر، بالتراجع، على أمل أن يقضي كل منهما الصيف في الأماكن التي تعود عليها، حتى إذا هبّت رياح الخريف المتأخرة، ودفعت أمامها الغيوم

الرطبة، عاد الفريقان لكي يلتقيا في منتصف الطريق، إذا لم يتدخل أحد بينهما ليضع حداً لهذه الحرب.

هكذا بدا أن الأمور ستسير، اعتماداً على قوانين الطبيعة، وامتثالاً للأعراف التي سادت الصحراء، غير أن ذلك الزهو المفاجئ، أو ربما نتيجة خطأ الحساب والتقدير، خاصة بعد أن وصلت كميات وفيرة من الأسلحة، جعل الأمير مساعد في حالة من الهيجان أقرب إلى الجنون، عندما لاحظ تراخي المعارك أولاً، ثم ذلك الاستعداد الذي لا يخفى للرحيل.

جمع قادة المحاربين، وبعث وراء الشيوخ، كما أصدر تعليماته بأن يؤخر دفع الرواتب، ووضع قيوداً قاسية على الركائب، في محاولة لأن يضرب ضربته الكبيرة، وربما الأخيرة. فعل ذلك وهو على قناعة أنه قادر على منع هذا الذي يجري أمام عينيه وعيون الآخرين، وكأنه الشيء الطبيعي، أو وحده الذي يجب أن يكون.

قال له قادة الأفراد أنهم لا يستطيعون منع الذين يريدون الرحيل، خاصة وأن عدداً كبيراً من الأفراد مضت عليهم شهور دون أن يزوروا عائلاتهم؛ وكان جواب الشيوخ أكثر وضوحاً وحسماً. الذين جاءوا تلبية لدعوة الأمير مساعد قالوا: «دخل الصيف». وقال الذين لم يأتوا للرسل: «صلاة الجمعة والصيف لها أحكام وما أحد يقدر يخالف الأحكام، ومثل ما قال الله: إذا نُودي للصلاة فذروا البيع، فالصيف إذا دخل ما أحد يحارب!».

لم يسلّم مساعد ولم يهدأ. بذل للذين وافقوا على البقاء أموالاً سخية، استدعى قوات من أماكن عديدة، واستعان بالدروع كقوة أساسية. مع ذلك فإن النتائج جاءت مخيبة للآمال، وكادت أن تنقلب الأمور، لولا تدخل السلطان، إذ أرسل على عجل يطلب من مساعد الشخوص إلى موران.

كان مساعد، ولأول مرة في حياته، قاسياً أقرب إلى الغضب، في حديثه مع راكان. ورغم أنه ضبط أعصابه وهو يتحدث إلى السلطان، إلا أنه لم يستطع أن يخفي المرارة، التي وصلت إلى درجة الحقد على سند،

إذ يعتبره أحد المسؤولين، والمتسبب في انفضاض البدو، وعدم رغبتهم في استمرار القتال، وكاد يقول كلاماً أكبر، لولا تدخل عدد من الأخوة، إذ طلبوا معرفة رأي سند، وأرسلوا مجحم إليه ليسمع منه.

قال لمجحم:

ـ . . . وتقول للسلطان، وتقول لمساعد، ولكل واحد يهمه الأمر: من يوم ما الله خلق موران، إذا ابتدت مربعانية الصيف الواحد يدوّر الظلال ويقيل، وغير هذا الكلام ما يصير!

ومجحم الذي حاول أن يشرح ويوضح أن الظروف الآن تغيرت، ولم يعد هناك فرق بين صيف وشتاء، وإذا كان هذا العامل يؤثر على الطرف الآخر، فلا بد من استغلاله، وبالتالي الاستفادة من عنصر المباغتة، لكن سند رد بضيق:

ـ غريب أمركم، ولا كأنكم أولاد هذي الديرة. . .

وبعد قليل، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ هذي مربعانية الصيف، ما بها لا نسمة ولا طير، وهي للإرطاب والأعناب، وتحرق المسمار بالباب، وتخلي البني آدم يحسب لكل خطوة ألف حساب، واللي يقول لكم غير كلام يغشكم. ولذلك امسكوا الأرض هالحين، إلبدوا، إلى أن يفرجها رب العالمين.

طلبوا من سند أن يأتي إلى موران للتشاور، فكان جوابه قصيراً وحاسماً:

ـ حنا هالحين بحمّارة القيظ، فإذا دخل الصفري، بالخير والسلامة، إن شاء الله ما تشوفونا إلا بموران.

قال مساعد لأخيه فنر:

ـ الناس، طال عمرك، يتمنون شوفتكم، ويزحفون حتى يصلوا، وإذا منعهم مانع يقولون: باكر أو اللي عقبه، فشنهو اللي بلى صاحبنا، بدل يوم. . . اثنين صارت مواعيده بالشهور والفصول؟ إذا خلصت مربعانية الصيف. إذا دخل الصفري. وما ينعرف باكر أو اللي عقبه شنهو اللي بعد يطلع منه؟

قال راكان:

ـ ترى الحرب، طال عمرك، لها راس واحد، وأنت راسها، فإذا سند شاف روحه وعاند، أو تصور نفسه راس ثاني، فيلزمه يعرف حده ويتأدب.

قال مساعد بحزن:

ـ إذا وافقتم، طال عمرك، أريد تعفونّي من هذي المسؤولية، وأنا خادمكم وين ما أكون!

قال راكان بغضب:

ـ اسكت يا مساعد...

وبعد قليل، وهو يتوجه بالحديث إلى مساعد، لكن يريد السلطان أن يسمع:

ـ حنا بهذا المكان أو بذاك ما هو لأنا نريد، لأن طويل العمر يريد.

وتذكر السلطان ما قاله له هاملتون ذات يوم، قال له «وهناك طريقة تمكن الأمير من معرفة وزيره واختباره، وهي طريقة لا تخطئ أبداً. فعندما يفكر الوزير بنفسه أكثر من تفكيره بك، وعندما يستهدف في جميع أعماله مصالحه الخاصة ومنافعه، فإن مثل هذا الرجل لا يكون وزيراً نافعاً، ولن يكون في وسعك الاعتماد عليه، إذ ان من تعهد إليه مهام دولة الآخرين، يجب أن لا يفكر بنفسه وإنما بالأمير، وأن لا يكترث بأي شيء سوى ما يتعلق بالأمير، وعلى الأمير بدوره، لكي يحتفظ بولاء وزيره وإخلاصه، أن يفكر به، وأن يغدق عليه المال ومظاهر التكريم، مبدياً له اللطف، ومانحاً إياه مظاهر الشرف، وعاهداً إليه بالمناصب ذات المسؤولية، بحيث تكون هذه الاموال ومظاهر التكريم المغدقة عليه كافية، لا تحمله على أن يطمع بثروات أو ألقاب جديدة، ويجب أن تكون المناصب التي يشغلها مهمة إلى درجة يخشى على ضياعها».

قال السلطان بطريقة أبوية:

ـ يلزمنا، يا مساعد، نأخذ الناس على قدر عقولهم، وأنا لما اخترتك لوزارة الدفاع اعرف أني اخترت الزلمة الذي يقدر عليها، ويطلع بيده أن

يسوس الناس. وسند أخونا، ويلزمنا نحمله، ومثل ما قلت قبل مدة: إذا ردنا ما نضيعه فنرخي له، ولا بد يرده حليبه أو ترده شهامته.

قال راكان:

ـ اللي تقوله هو الصحيح، يا طويل العمر، بس الحرب ما ترحم، ومساعد يريدها تخلص اليوم قبل باكر، وهو معذور.

ـ وألف معذور، وأنا أفهمه زين، يا راكان، بس هذول اللي بعدهم عايشين مثل الناس قبل ألف سنة: قنص وقصيد وسوالف، شنهو رأيك بيهم؟

وقبل أن يجيب راكان، هز السلطان رأسه بأسى وتابع:

ـ وسند مثل اي بدوي: شيّمه وخذ عباته. بسيط وقلبه أبيض، بس ينراد له واحد يعرفه، ويحكي معه بطريقته...

وضحك السلطان، كأنه يتذكر أشياء كثيرة، ثم خرج صوته خشناً:

ـ ويحسبنا، هالحين، أفندية، ما نعرف البادية، ولا كأنا عشنا فيها، ويظن روحه وحده اللي يعرف كل شيء. فخلنا نمدّ معه إلى أن يفرجها رب العالمين.

قال مساعد بخضوع:

ـ يمكن، يا طويل العمر، اسوي اللي تريده، بس أنا وسند ما نتوالم، وما أريدك تزعل مني.

ـ وكل الله يا ابن الحلال، وما تكون إلا راضي.

الطيارون السبعة الذين وصلوا إلى موران، لكي يتابعوا حملة الصيف، كما سميت منذ أن تم الاتفاق مع غزوان للاستعانة بطيارين أجانب، أصبحوا العنصر الأساسي لاستمرار الحملة أولاً، ثم في التطورات التي أعقبتها. إذ ما كاد مساعد يتبين استحالة استمرار المعارك البرية، حتى وضع كل ثقله على الطيران. وخلال أقل من شهر بدأت المعارك من جديد.

قيل أن أكثر طياري السلطنة، عندما صدرت إليهم الأوامر بإنهاء الحياة

في الجهة المقابلة، بقتل البشر وهدم القرى وحرق المحاصيل، لم يصدقوا آذانهم. أما حين اضطروا فقد ألقوا القنابل في الصحراء، وبعد أن تأكدوا لأن لا أحد أبداً تحتهم. وقيل إن عدداً منهم رفض تنفيذ هذه الأوامر. وقد أدى ذلك إلى زيادة الاعتماد على الطيارين الأجانب، وإلى الموافقة على شروطهم أيضاً! كما راجت في موران أخبار قوية، بعد الغارات التي تعرضت لها حومة الوادي، وأدت إلى مقتل العشرات وحرق الخيام والنخيل، وإلى هلاك معظم الأغنام والجمال، أن تلك الغارات قام بها هؤلاء الطيارون، ربما خطأ أو سهواً، وربما لأسباب أبعد من ذلك، إذ قيل أن سكان الحومة من أخوال سند، وكانت الغارات رسالة لسند بالذات. أما القوافل التي كانت تنتقل من الحدود إلى الداخل، وقد تعرض عدد منها إلى غارات جوية مدّمرة، فإن الكثيرين يؤكدون أن الطيارين الأجانب قاموا بها نتيجة أوامر صدرت إليهم، لكي يعطوا درساً أن الحرب لا تميز بين الفصول، ولا توفر أحداً، ولكي تثبت خطأ الذين تخلوا عن مهماتهم الحربية، وفضلوا العودة إلى أهلهم وديارهم!

الدمار الذي خلفته الغارات الجوية، وعلى جانبي الحدود، لا يوصف. ورغم أن الدواحس استعملوا الطيران أيضاً، إلا أنهم ما لبثوا أن توقفوا، لعدم وجود إمكانية الاستمرار، ولأنه بلغتهم المرارة التي يحس بها الناس نتيجة هذه الغارات. ومع ذلك، فإن البلاغات الحربية لم تهدأ ولم تتوقف عن تحميل الدواحس مسؤولية كل شيء. وإذا كان من الصعب تكذيب الحكومات في زمن السلم، فإن من الجنون أن يفكر أحد بتكذيبها زمن الحرب! ومع ذلك، فإن ما كان يتسرب من طياري السلطنة، ومن تصرفات الطيارين الأجانب، وبعض الأحيان من اعترافاتهم ومباهاتهم، جعل الكثيرين على قناعة أن مساعد يريد أن يدفع الأمور إلى الحد الأقصى من الخطورة واللاعودة.

بعث سند أخاه مسفر إلى السلطان برسالة: «. . . إنك تعلم يا فنر ما قصرت في شيء نحوكم. لقد كنت في حرب دائمة مع ربع خزعل من أجلكم، فهل هذا جزائي معكم؟ ثلاثة من أخوالنا قتلتهم طيارات مساعد،

وعشرات غيرهم من جماعتنا. أما الطرش والزرع فلا تسل، كله راح، انذبح أو احترق. وهذا أبد ما يصير لا بشرع ولا بدين، والحرب أبد ما تكون مثل ما يريدها مساعد واللي يشورون عله من الكفار.

«قاتل الله الشيطان، لأنه زيّن السوء لبعض الناس؛ وهالحين، إذا ردتم أن نتصافى وتتبيض القلوب، ونقول عفا الله عما سلف، فيلزم أول شي أن تشيلوا مساعد، وتطردوا الطيارين الكفار، وتعوضوا على أهل حومة الوادي، وإلى أن يجينا جوابكم دمتم سالمين».

قالت ثروت لأمها:

ـ من سنين وسنين ما شفته حمقان والشرر يتطاير من عيونه مثل ما شفته اليوم!

وثروت التي استطاعت بعد جهد، وبأساليب لا حصر لها، أن تستعيده، أو أن تعود إليه، بعد فترة التخفي، وما رافقها من مخاوف، إثر إعدام جماعة الدواحس، لجأت إلى التوسل، وفي فترة أخرى إلى التهديد بالانتحار، لأنها لم تطيق أن تكون بعيدة عنه، وبدا الهزال عليها، وأصبحت أقرب إلى المرض، مما دفعه لأن يتردد أكثر من قبل على قصر السعد، ثم تبين له أن لا مبرر لتلك المخاوف، وأن الإجراءات التي اتخذها مبالغ فيها، خاصة وأن الهدوء استمر في موران وفي السلطنة كلها، ولم تظهر أية أخبار أو توقعات للانتقام، فارتخت تلك الاحتياطات، إلا في فترات المعارك الكبيرة.

قالت ثروت ذلك لأمها دون أن تعرف سبباً محدداً للغضب، رغم محاولاتها غير المباشرة، إذ سألته إن كانت معدته تؤلمه، أو أحد كدره، وكان جوابه بالنفي، إلى أن استطاعت في اليوم التالي، أو الذي يليه، أن تعرف السبب. قال لها نصار شيئاً، وقال يونس شاهين شيئاً إضافياً، كما سمعت جزءاً مما دار بينه وبين راكان. وحين سألته، بكثير من المداورة، عن عدد من أخوته، وتوقفت بشكل خاص عند سند، فقد اعترف:

ـ هذا الأثول اللي يطارد الطير وظلاله، صارت له شروطه...

وذكر لها الرسالة التي وصلته، وهي أقرب إلى الإنذار، لكنه اختتم الحديث بأن قال:

ـ سند غلطان، لأنه ما عرف على من يملي شروطه. وباكر، إذا تواجهنا، راح يأكل أصابعه ندامة، ونشوف.

المحاولات والمؤامرات التي دبرت للإيقاع بسند لم تنجح، بل أكثر من ذلك لم تعرف تحركات سند، أو ماذا سيفعل. فإذا ذكر أنه شوهد في مكان، فإنه ينام في مكانٍ ثانٍ، ويستيقظ قبل الفجر، ليلحق الطير، كما كان يقول، أو في الحقيقة لكي يكون في مكان ثالث قبل أن تصل أخباره.

أكثر من ذلك قيل أن عدداً من الأخوة وافوه إلى حيث طلب منهم أن يكونوا، ومثلما حصل في الأيام الأخيرة من ولاية خزعل، حصل مرة أخرى، وقد أخاف ذلك فنر، حين عرف به، إلى أقصى حد. فندم أنه أعاد مسفر دون إجابة، وندم أكثر أن الغضب ظهر عليه ولم يستطع أن يخفيه. أما المحاولات لاستدراج سند فقد رافقتها بعض الأخطاء كشفت عن النوايا، مما جعل الأمور تتعقد أكثر من قبل، وجعل الكلام ينتقل من مكان إلى آخر، وكله يبرر المخاوف والتوقعات.

موران التي تعودت على الحرب، وعلى النكات الساخرة، أصيبت من جديد بالصمت. قال المسنون: «من قبل قالوا: خذوا أسرارها من زغارها، هالحين يلزم يقولون: خذوا أسرارها من حجارها وأطيارها». وقال أهل العوالي: «كل بلد طربها من رأسها، إلا موران طربها من رأس غيرها» وكانوا يقصدون أن موران لا تعرف الفرح، أما الغضب فإنه يظهر عليها بسرعة.

العجرمي الذي بلغه أن سند يبحث عنه ويريده، سأل ابن البخيت عن سبب هذه الدعوة، فكان جوابه ساخراً وجاهزاً:

ـ أنت، الله يسلمك، هالحين، بعين دامة، وإلى أن تتعافى... الله كريم.

والعجرمي مثل الكثيرين، سمع بما هو حاصل بين الأخوة، وقد

استغرب دعوة سند لكن لا يريد أن يرفضها ولا أن يلبيها، ولذلك كان جواب ابن البخيت مقنعاً. أماحين سأله مجدداً عن السبب وراء هذه الدعوة، فقد رد:

ـ القرعا، يا أبو مشعل، تتباهى بشعر بنت عمتها، وهالحين أولاد خريبط مفزّعين مدرعين، وكل واحد منهم يقول: أنا وياي أبو مشعل، وأبو مشعل لا شاف ولا دري، وما هو مع أحد، وإذا ما تصدقني باكر أو اللي عقبه يجيبك رسول طويل العمر.

تماوُت العجرمي مرة واحدة، وهو يرد على رسالة سند. قال للذين جاءوا لتلقي الجواب:

ـ وتسلّمون عليه وتقولون: أبو مشعل وجعان، إذا عاش اليوم يفارق ثاني يوم، حتى عين دامة الموصوفة ما يقدر يصلها، وإذا الله منّ عليه بالصحة والسلامة يصير خير!

أما السيارة السوداء الفاخرة التي وصلت من القصر، فقد أمر العجرمي أن تُدخل فوراً إلى الكراج، وأن توضع خلفها سيارة أخرى. ورد على تحيات السلطان بتحيات مثلها، لكنه أكد الى الذين جاءوا بالسيارة «إن الشيخ بالفراش، هذّه المرض، وإذا تشافى وتعافى بالخير والسلامة يمر ويسلّم».

كان بوده أن يركب تلك السيارة بالذات، لكي يراه الناس، فيصل الخبر إلى ابن شاهين، ويفهمه بطريقة غير مباشرة، لكنها واضحة، ماذا يعني للسلطان. وحين تذكر كلمات ابن البخيت اعتبر التحفظ ضرورياً. قال لنفسه: «إذ تهابش البزون والبزون فيلزمك تناظر، لأن اللي يتدخل بين البزازين يتهبّر».

قال مساعد لراكان:

ـ راس ما له فشكة، لكنه ما هو حاصل.

ـ احرص، يا ابن الحلال، لأنه إذا اتقتل ما نخلص.

ـ خلني أصله والوحه، وبعدها كل شي سهل!

ـ أمنعك يا مساعد، لأن همومنا تكفي!

برجس الابن الأوسط لعمير، قال لأبيه:

ـ قربت يا يوبه، لأن البلشة بلشة عميان، طايحين ببعضهم، وما خلوا ستر مغطى.

رد عمير، وهو يضغط على مخارج الكلمات:

ـ خلك بعيد هالحين يا وليدي، لأن بلشة العميان هي اللي تعوّر، والأحسن أن الواحد يناظرهم من بعيد.

وبين الصمت والصمت كانت موران لا تكف عن مراقبة قصر السعد، كانت ترهف السمع، لعل شيئاً يأتي من الداخل، أو من بعيد. ومع المراقبة النشيطة، والتنصت، كانت النكت وكان الانتظار.

من جملة شروط العقد الذي أبرمه ليفي شاوات مع الطيارين والفنيين أن يحق لهؤلاء التمتع بإجازات مأجورة بعد عدد من ساعات الطيران، أو بعد مرور شهر بالنسبة للفنيين، وفي حال تأجيل الإجازات، لضرورات العمل، فيجب توفير وسائل الراحة، والمتعة في القاعدة. وتنفيذاً لهذا الشرط خُصّص مطعمان، الأول في الطابق الأرضي، وهو مشترك للعرب والأجانب، على أن يكون العرب من درجة معينة، والثاني في الطابق العلوي، ومعه بار، وهو مقصور على الأجانب، ومن يدعونه من الضيوف.

أما وسائل الترفيه والرياضة التي جهّزت بها القاعدة، ثم الأدوات الإضافية التي تم استيرادها بشكل عاجل، بناء لطلب الطيارين والفنيين، فإنها من الكثرة والتنوع، بحيث شغلت الجميع خلال الأسبوعين الأول والثاني. لكن ما كادت موجة الحر تطبق، وأخذ اللهب يتساقط من السماء وينبع من الأرض، حتى بدأ التململ ثم الهمس.

طلب أوكلي، قائد المجموعة، استدعاء صفاء «للتباحث بتنفيذ شروط العقد» باعتباره ممثل الشركة المتعاقدة. وخلال الدقائق الأولى للقاء، أوضح أوكلي أن الاتفاق كان واضحاً وصريحاً مع ليفي على أن يتم استدعاء عدد من الفتيات أسبوعياً، بقدر عدد الذين يسجّلون أسماءهم من العاملين في القاعدة، إذا تعذر سفرهم. وصفاء الذي فوجئ، طلب إمهاله يومين أو ثلاثة أيام للاتصال مع مقر الشركة، والاتفاق على صيغة مناسبة.

قال غزوان للأمير مساعد:

ـ . . . وتعرفون، يا صاحب السمو، أن الطيارين في جميع أنحاء

العالم يُعاملون معاملة خاصة، لأنه بالإضافة إلى المخاطر الدائمة التي يتعرضون لها، فإن هذه المخاطر تتضاعف زمن الحرب، أو هكذا يشعر الواحد منهم، لذلك فالمتعة، خاصة مع المرأة، ما يبعث فيه الأمل والشجاعة، وهذا ما دعانا للموافقة على شرطهم: إذا تعذر عليهم التمتع بإجازتهم، فالشركة تتعهد بتأمين «المستلزمات الضرورية».

ابتسم وهو يتطلع بتحديد إلى عيني الأمير، وأضاف:

ـ اضطررنا أن نضع بعض العبارات بصيغة مبهمة في العقد، لاعتقادنا أنها قد لا تطبق، أو ربما تكون ظروف المعارك أفضل مما هي الآن، بحيث يذهب الطيارون في إجازات قصيرة إلى بعض الأماكن، ويعودون بعدها بحيوية ونشاط. أما إذا لم تساعدهم الظروف، فلا بد، قبل تنفيذ هذا البند من العقد، أن نأخذ موافقتكم.

بدا الموضوع طريفاً للأمير، قال وهو يبتسم:

ـ تراكم حاسبين لكل شي حسابه...

والتفت إلى أكثر من جهة، قبل أن يتابع.

ـ الحق حق، واللي أوله شرط آخرته سلامة!

رد غزوان بمرح:

ـ كنت على يقين، يا صاحب السمو، أنكم تقدّرون الحاجات الإنسانية، والظروف القاسية التي يعمل بها هؤلاء، إضافة إلى مشاعر الموت التي تطوقهم في كل لحظة.

قال مساعد:

ـ بس يلزم نشاور أبو منصور، أو على الأقل نبّلغه.

ـ عين الصواب، ولا بد أن يعرف!

راكان لم يستطع أن يخفي سروره واهتمامه، وتوقع أن تكون فعالية الطيران في المرحلة الجديدة أكبر. كما أنه سأل عن عدد العاملين بدقة، وتساءل ما إذا كان العدد الذي سيؤتى به من الفتيات مساوياً، وعن عدد الأيام التي سيقضينها هنا. ولما تأكد من هذه التفاصيل، قال بحزم:

ـ بس يلزم وصولهن بالليل، وما نريد أحد يحس أو يدري.

رد غزوان بمكر:

ـ بالتأكيد سنحرص على السرية المطلقة، يا صاحب السمو، وزيادة في الحيطة، وإذا عرف شيء عن الأمر، فإن القادمات ممرضات، ولمعالجة ضربات الشمس والحروق وبعض الإسعافات الأخرى؟

قال راكان، وهو يرفع إصبعه مهدداً بدعابة:

ـ ترى إذا انكشف الأمر ما نخلص.

ـ وكلّ الله، يا طويل العمر، وسوف أكلف صفاء أن يرافق السرب من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوصول، وبعد أداء المهمة سوف يعود بهن إلى قاعدتهن سالمات!

بعد رحلتين ليليتين للأسراب الجديدة، ورغم الاحتياطات المشددة، سواء أثناء الوصول إلى المطار المدني القريب من قاعدة الريمان، ثم الباصات المسدلة الستائر الواقفة عند سلم الطائرة، والانتقال السريع، ثم الدخول من الباب الجانبي، إلى الطابق الثاني مباشرة، دون المرور بمطعم الطابق الأرضي، وأخيراً استبدال الطهاة والخدم الستة السودانيين بآخرين، أربعة مهم هنود، وثلاثة مالطيين، فإن الأمر لم يعد سراً أبداً، إذ انتقل وانتشر كما تنتقل الرائحة، وكما ينتشر الضوء. لم يبق أحد في القاعدة إلا وعرف ما يجري في الطابق العلوي، ثم بعد ذلك في الجانب الغربي، حيث أجنحة المنامة للطيارين والفنيين.

ومن لسان إلى أذن، ومن مكان إلى مكان، عمت أخبار الممرضات والمرضى. قيل إن عدد الممرضات كان دائماً يفوق المرضى مرتين أو ثلاثاً. وقيل إن بين المرضى عدد من غير الأجانب، وأكد اثنان من الطهاة السودانيين أن الأمير مساعد زار القاعدة مرتين خلال ثلاثة أيام، وتفقد معظم الأقسام، خاصة الجانب الغربي. قام بهذه المهمة ليلاً، متخفياً ليتأكد من جاهزية القاعدة! أما الممرضات فتنقلن، في اليوم الثالث والرابع، وفي وقت متأخر من الليل، إلى أكثر من مكان، لعيادة عدد من المرضى الذين استوجبت حالتهم ذلك! وقيل إن عدداً من الممرضات

تخلف بعد رحيل السرب، لأن حالة بعض المرضى تطلبت العناية المشددة والإشراف الكامل على مدار اليوم!

في الرحلات التالية، ورغم الاحتياطات الأمنية المشدّدة، فإن قاعدة الريمان لم تعد مكاناً أميناً أو مناسباً، لذلك استبدلت بالاستراحة التابعة لوزارة الدفاع، والتي لم تكن تبعد أكثر من خمسين كيلومتراً عن حومة الوادي. هنا خصص القسم الأكبر من الاستراحة لنزول الممرضات. وقد قام راكان بعدة عمليات تفتيش للتأكد، وأبدى رضاه الكامل لما رآه ولما لمسه من النظافة! وحسن أداء المهمة، إضافة إلى المعرفة الدقيقة بالعمليات، في الليل والنهار!

ورغم أن الأخبار تأخرت في الوصول إلى موران والعوالي، لبعد قاعدة الريمان أولاً، ولأن إجازات العاملين أرجئت، بتعليمات مباشرة من الأمير مساعد، فإن القوافل التي مرت بالقرب من القاعدة، وسكان القرى المجاورة، سمعوا، ثم نقل إليهم معظم ما جرى، ومع ذلك فإن الكثيرين لم يصدقوا. وحتى لما وصلت تلك الأخبار إلى موران، فقد اعتبرت من قبيل المبالغة، أو ربما من وشايات الخصوم. لكن وصول أحد جرحى القاعدة، وكان يمت للعجرمي بصلة قربى، أكد تلك الأخبار، خاصة حين روى الكثير من التفاصيل.

قال العجرمي لعبدالله البخيت:

ـ تاري السوالف اللي يسولف بيها الناس صحيحة يا عبدالله.

ـ من قبل قلت لك: يا شيخنا: لا دخان بلا نار...

وضحك ثم أضاف بسرعة:

ـ يجوز الناس تكبّر، تبهّر، تزيد أن تنقص، لكن لا بد لكل شيء من أصل.

ـ وتصدّق أن هذا يصير يا عبدالله.

ـ صار وخلص، يا شيخنا، والله يجيرنا من الأعظم.

ـ وفوق هذا... بعد شي؟

رد عبدالله البخيت بصوت خفيض وساخر:

ـ كانوا، من قبل، يقولون: اثنين ما يندري بيهم: تعريص الغني وموت الفقير، أشوف بأيامنا، يا أبو مشعل، كل شي بانت قرعته، وصار يجري على سن الرمح، ولا كأن في الدنيا شرف أو ناموس!

لطم العجرمي خده بقوة وسأل:

ـ وبعدني أنا، يا عبدالله، اللي يفتي ويقول حلال وحرام؟

ـ أنت يا شيخنا وجعان من شهور وازمان، ومن قبل ما يصير فنر سلطان، وإذا أحد ينلام فابن شاهين، لأنه صار الأول والتالي.

ـ وأنا، أي نعم، أنا شنهو يا عبدالله؟

ـ أنت اللي عليك سويته يا شيخنا!

ـ صرت مثلهم يا عبدالله؟

ـ أستغفر الله يا أبو مشعل، بس ما كلف الله نفساً إلا وسعها!

ـ كسرتني يا ابن البخيت بدل ما تكسّر عليّ. . .

وانخرط العجرمي في نحيب أقرب إلى المواء، إذ كانت الكلمات تختلط مع صوت البكاء، وبدا مثيراً للإضحاك أكثر مما يستدعي الشفقة.

حين دخل ابن العليان، ولمح ذلك الجو المأتمي، تساءلات عيناه، فقال ابن البخيت بطريقة رصينة:

ـ تذكّر شيخنا قيام الساعة والحساب، وشنهو اللي صاير بالدنيا، فأخذه الوجد!

رفع العجرمي لعبدالله البخيت عينين ذابلتين لائمتين. تجاهل عبدالله تلك النظرات وأخذ يردد لنفسه بنوع من التشفي:

ـ والله لأبكي على روحي وأنا حي. . .

وبعد أن هدأ الجو وتغير، وحين عرف ابن العليان أن ما أثار العجرمي تلك القصص التي يتداولها الناس، قال:

ـ اللي ما ينقال، يا شيخنا، واللي ما هو معروف أكثر بكثير، وباكر تجيك العلوم!

أما السلطان الذي كان يعرف الكثير، ولا يكترث إلا لما يعنيه، أو ما يعتبره هاماً، وحين بلغت الأمور هذا الحد، فقد قال لمساعد وراكان:

- كلام الناس ما يخلص، وهذا ما هو من أمس أو اليوم، من يوم ما خلق الله الدنيا، وأنا أكثر الكلام ما أشيله من أرضه، بس إذا زاد عن حده، وأنتم تعرفون أهل موران، تطلع لنا بلاوي ما هي بالبال.

ومساعد الذي أشار إلى الإنجازات الكبيرة التي حققها الطيران خلال الفترة الماضية، أكد أنه لن يمر شهر آخر إلا وتدك معاقل الأعداء وتصفى جيوب المقاومة، وعند ذاك ستكون الطريق مفتوحة أمام القوات البرية، وسوف تنجز المهمة بسهولة، وختم كلامه بأن قال:

- وتعرفون طال عمركم، أن جماعتنا، اللي من لحمنا ودمنا، ما تحملوا هذا الجو، وكل واحد منهم دوّر أهله، وهذول جاوا من تلفات الدنيا، ومتحملين القيظ والخطر، ولأن شرطهم أن يأخذوا إجازات، فقلنا الحل الثاني أسهل وأخير، وإن شاء الله ما نكون مخطين.

قال السلطان، وقد تذكر كلمات هاملتون:

- إذا خيّرونا بين أن الناس يحبونا أو يهابونا، وما قدرنا نجمع الاثنين، لا بالله نختار أنهم يهابونا، ويخافون منا، وتعرفون: رضا الناس ما هو سهل المنال.

قال مساعد بحدة:

- وإذا تساهلنا، يا طويل العمر، وما شاف منا الناس إلا الطبطبة على الظهر، وما يخالف، فأيام الحرب ومثل ما قالوا لي، الكلمة مثل الرصاصة، ويجوز يكون فعلها أكبر، فيلزمنا أن نتشدّد وأبد ما نتساهل.

رد السلطان، وهو ينظر إلى البعيد:

- وتوكّدون على الخويا أن يحرصوا ويقتصدوا، لأنّا ما نريد طلايب.

قال مساعد لراكان بعد هذا اللقاء:

- كل هذي السوالف من سند وأهل حومة الوادي، وما نخلص من هذي الطلايب إذا ما تأدبوا!

قال راكان همساً:

- إذا سمعت منك هذا الكلام فما أريد غيري يسمعه!

وبعد قليل، وبنفس الصوت الهامس:

- كانت الوالدة، الله يذكرها بالخير، دوم توصيني، ولا بد أنك سامعها: إذا ضربت اضرب حيل، بس لا تعلّم بطاريك، لأن بعد كل عركة صلحة، والخاسر هو اللي ينضرب وما يرد الصاع صاعين!

ولم يتأخر مساعد، فالضربة التي وجهتها الطائرات لحومة الوادي، لم تبق فيها شيئاً. لكن من حسن حظ أهلها أنهم ارتحلوا عنها قبل أيام قليلة، لأن مياهها تلك السنة شحت إلى درجة لم يعد الناس قادرين على البقاء.

وسند الذي وصلته الأخبار بأن حومة الوادي لم تعد موجودة، إذ احترق ما تبقى فيها من أشجار، وهدمت بيوتها كلها، فقد قال أمام الكثيرين:

- إذا الرجال سالمين كل شي يعود ويتعوض. حجر فوق حجر يصير بيت، وسنة والثانية يكبر الشجر، بس يلزم مساعد وربعه يتذكرون هذا اليوم زين، ونتواجه...

وبعد قليل أضاف بحزن وسخرية:

- ويجوز أن حومة الوادي ترجع قبل ما يحطون أول حجر بارم ذات العماد، بمدينة كبيرهم اللي علمهم السحر، فنر.

قال عمير الذي بلغه ما حصل:

- كان خريبط يفكر بيومه. يخلّف ويشمر، وإذا ناظر حوله وشاف عزوته تكبر، ما يعطي فرحته لأحد، لكن راح يوم وجا الثاني، وطاحت بين الولد. وإذا كان لليوم بعدهم بالإشارة والوما، فباكر أو اللي عقبه راح يصير الدم بينهم للركب، واللي يعيش يشوف!.

كتب يونس شاهين بتوقيعه، وبإيعاز من السلطان افتتاحية قال فيها: «... وفي هذه الظروف الدقيقة التي تجتازها السلطنة، حيث تتعرض للعدوان السافر، فإن هذا العدوان لا يقتصر على الغزو العسكري فقط، ولا

يتمثل بالغارات الجوية التي تتعرض لها القرى الحدودية في السلطنة وحدها، وإنما ترافقها أيضاً الحرب النفسية، حيث ينشر العدو الشائعات، ويحرض بعض الحاقدين أو الطامحين للوقوف سلبياً تجاه الحرب العدوانية الدائرة، إذا لم يستطع أن يقنعهم بالوقوف معه.

«إن الجهات الرسمية على معرفة دقيقة بمخطط الأعداء، وتعرف الأيدي التي تمتد إلى الداخل، هنا وهناك، للتحريض وبث روح الفتنة، وإذا اتسمت مواقف الحكومة، خلال الفترة السابقة كلها، بالاتزان وإعطاء المضللين فرصة للعودة والتوبة، فإنها ابتداء من اليوم ستضرب بيد من حديد، وسوف تعطي درساً للجبناء والضعفاء وذوي النفوس المريضة، وقد أعذر من أنذر، والعاقبة للمتقين».

أكثر الذين قرأوا هذه الافتتاحية عرفوا أن سند هو المقصود بالدرجة الأولى، وفهموا أن إجراءات رادعة سوف تتخذ.

قال أهل موران: «الواحد، بمثل هذه الأيام، ما يسأل عن سعر السكر والطحين، يهمه أن هذه المواد موجودة، ويقدر يشتري منها اللي يكفيه، لأن باكر أو اللي عقبه، إذا بلشت بين الربع، الواحد ما يلقى أي شي».

وارتفعت أسعار الكثير من المواد، وزادت حرارة الجو أكثر من قبل، فأصبح الليل الستر الذي يغطي جميع الناس، وتحت هذا الستر كانت تجري أمور عديدة، وتقال أشياء أكثر.

قال عرّاك المشعل لولديه الذين عادا من الولايات المتحدة، خلال العطلة الصيفية، وقد سمعهما يتحدثان بصوت عالٍ، عما قرآه في الصحف الأميركية، حول موران:

ـ هذه مورانا وحنا أدرى الناس بيها، والغُرب إذ عرفوا شي، مثل اللي يشوف من الجمل سنامه، فاتركوا سوالف الجرايد وناظروا زين قبل ما تقولون فلاني وتركاني!

وحين ضحك فواز، الابن الأكبر، وأكد لأبيه أن العالم أصبح صغيراً، وأن ما يجري في مكان من الكرة الأرضية لا يلبث أن ينتقل إلى جميع

أنحاء المعمورة، وفي اليوم ذاته، ولذلك يعرف كل شيء، حتى وهو بعيد، فقد رد عليه أبوه:

- هذا تقول لجماعتك، لِلولد بعمرك، أما حنا اللي عشنا وشفنا، وعرفنا شلون تصير الأمور، فما نصدّق إلا إذا شفنا بعينا، أو سمعنا بآذانّا!

رد فواز بتحدٍ:

- حكومات هذه الأيام، يا يوبه، تقول شي وتسوي شي ثاني، والواحد ما يقدر يحكم على اللي يشوفه بنفسه، لأن الأمور تعقدت وتداخلت، وأصبحت بحاجة إلى معلومات كثيرة ومتنوعة.

قال عرّاك بضيق:

- يا وليدي الصحيح ما يضم راسه، يبيّن. والشين دايماً صلعته تلمع!

- أنا موافق، ولكن يجب أن نعرف...

- اسمع يا وليدي: ما أريد أدوّخ أحد، وما أريد تدوخني، فخل سوالفك لربعك وخلني بالسوالف اللي تفيدني...

وانتبه الأب فجأة إلى أن جو موران في هذه الأيام غير عادي، وخاف على ولديه أن يخطئا، قال بصوت خفيض:

- وموران غير بلاد ثانية: الواحد يلزمه يعرف خويه، ويعرف شنهو اللي يقوله، ولمن، وإلا راح طعام للنسور.

ضحك فواز، وبدا غير مقتنع. تابع الأب، وكأنه لم ير شيئاً:

- من زمان قالوا بهذي الديرة: إذا تكلمت بالنهار فالتفت، وإذا تكلمت بالليل فاخفت، لأن أولاد الحلال، اللي يشيلون حتى الحجارة من مكانها، ولا أكثر منهم.

قالت الملكة ثروت لأمها:

- راح يشيب شعري قبل ما أعرف شلون أتعامل معه...

وزفرت بحرقة، ثم أضافت:

- طلعت روحي حتى رضي وصار، وما مضت جمعة والثانية، وقبل ما يخلص الشهر، ولا كأنه هو. تغيّر. انتحس. رجع اصعب من قبل. إذا

سألته: متى ترجع؟ يتطلع لي وكأني عدوة، وما يجاوب. قلت لازم يكون مهموم، وشي شاغله، وحاولت أحمل همه، أعاونه، لكن لا يريدني ولا يريد معونتي، وأنا حايرة أكثر من قبل.

فريزة خانم التي صمتت، لا تعرف ماذا تقول، بدا عليها الهم الأقرب إلى الحزن، وكانت تنقل نظراتها بين قطع الأثاث لتتأكد من تناسقها. وهذه النظرات أثارت الملكة، إذ قالت بحدة:

ـ من يوم ما سماني ملكة ضحك عليّ. اشتراني بهذا اللقب، قال لي: ملكة وتخرسي!

قالت فريزة خانم بضيق:

ـ طولة البال، يا بنتي، ما في مثلها، فطولي بالك، وربك يفرجها.

ـ ما بعد الصبر إلا القبر.

هكذا ردت ثروت وهي تنهض احتجاجاً على أمها وعلى فنر.

قال فرحان المدلول الذي كان يصب القهوة أيام السلطان خريبط:

ـ إذا البني آدم عاش أكثر من اللازم يتعب، ويتعّب غيره، فيا رب اقبض عبدك، ولا تجعلنا من أهل الكهف!

قال أحد الذين يسمعون:

ـ لكن كل يوم من هذي الأيام، يا عم، بألف!

ـ اللهم حسن الختام.

هكذا رد فرحان المدلول، واستمر يلعب بمسبحته وينتظر، واستمرت موران تنتظر.

صفاء الشلبي: مربوع، دائم الابتسام، ذكي، طويل وأقرب إلى النحافة والسمرة، لا يكف عن الحركة، ولا يتعب من تقديم المساعدة. يحس الذين يعرفونه، أو يتعرفون عليه، أنه قريب ودافئ، لذلك سرعان ما تتحول العلاقة معه إلى صداقة. الخدمات التي يعرض أن يقوم بها غالباً ما تكون عفوية، وليدة اللحظة، مما يضفي عليها أهمية استثنائية، وشعوراً حميماً بالمشاركة، خاصة وأنه لا يريد ولا يتوقع مقابلاً لها. ولأنه كريم ومحب للآخرين، فإن علاقاته تقوى وتتمتن دون جهد، أما تلك العفوية التي تميز تصرفاته فإنها تكسر الحواجز النفسية بسرعة بينه وبين الكثيرين.

من خلال إقامته الطويلة والمستمرة في موران، أصبحت له علاقات واسعة ومتشعبة، ومما زاد في ذلك معرفته بالإنكليزية، والفرنسية، إذ أصبح نافعاً، وبعض الأحيان ضرورياً، في مجالات عديدة.

كان يستطيع، مثلاً، وهو في موران، عن طريق الهاتف، أو بواسطة أصدقاء، أن يؤمن أمكنة مناسبة للاصطياف في إسبانيا أو الريفييرا الفرنسية، ولمن يريد بلداً مسلماً، في تركيا. وكان يحصل على مواعيد مع كبار الأطباء، في عواصم عديدة، خلال فترة قصيرة، الأمر الذي تعجز عنه سفارات السلطنة. أما الهدايا التي كان يحملها معه في أسفاره المتلاحقة والقصيرة، فكانت تثير الاهتمام، وينتظرها الأصدقاء، لجمالها وارتفاع قيمتها، ولندرتها أيضاً.

لم يكن يتوقع أن تقوم بينه وبين كبار مسؤولي الدولة تلك العلاقات الحميمة، وبسرعة، لكن ما كاد يحضر بعض الاجتماعات مع غزوان،

ويتعرف على عدد من المسؤولين، حتى يصبح إنساناً لا غنى عنه. أما بعد أن أخذت سفرات غزوان تطول، وأنيطت به كافة أعمال الشركة العالمية في السلطنة، فقد أصبح الكثيرون يبحثون عنه، لأنه الوحيد القادر على متابعة الأمور.

راكان الذي تخوف منه في اللقاء الأول، ربما لحركته الزائدة، ما لبث أن أصبح أقل تحفظاً في اللقاء الثاني. وحين تعددت اللقاءات، وبدت منه تلك الاستجابة، إضافة إلى المهارة والسرعة، لم يعد قادراً على أن يتعامل مع غيره.

قال له ذات مرة مازحاً:

ـ شنهو رأيك، يا ابن الحلال، لو تترك الشركة وتشتغل معنا؟

ـ هذا أكبر شرف أطمح إليه، يا صاحب السمو.

ـ ونعطيك قدر ما تحصله وزود!

ـ وغزوان، يا صاحب السمو؟

ـ هذه البلية اللي ما لها حل!

أما بعد أن تنوعت العلاقات وتداخلت، فقد أصبح صفاء الشلبي أكثر حرصاً ودقة في متابعة أعمال الشركة، وقد لاحظ ذلك عدد من الذين لهم به علاقة. وهذه الصفة التي لم ترق لبعض العاملين في مكتب الأمير راكان، اعتبرها الأمير ميزة إضافية، وعنّ له أن يختبر صفاء من جديد:

ـ . . . وقلت لي إن الجماعة مخصصين لك راتب شهري وعشر بالمائة، ما هو كذا؟

ـ أي نعم يا صاحب السمو.

ـ والباقي؟

ـ الباقي، يا صاحب السمو، لتسديد تكاليف المكاتب والسفر والرواتب والفنادق والهدايا، وعشرات البنود الأخرى، وما تبقى لأصحاب الشركة.

ـ كل هذا اللي عدّدته، يا ابن الحلال، ما هو شي بالنسبة للأرباح. فيلزم أن تكون حصتك أكبر.

ـ ما احصل عليه يكفيني، يا صاحب السمو.

ـ لكن كل الشغل عليك، أنت اللي تطارد ليل نهار، وتركّض من هنا لهنا، وبعدين. . . لك عشر ولهم تسعين؟

ـ القناعة كنز لا يفنى، يا طويل العمر.

ـ القناعة بالصلاة والصوم، ما هو بالمال، لأن المال ما أحد يشبع منه!

ـ بس المال، يا طويل العمر؟

هكذا سأل صفاء وهو يبتسم ابتسامة ناعمة، أقرب إلى الخجل. فهم الأمير. ضحك، كانت ضحكته أقرب إلى القهقهة، وبعد أن هدأ:

ـ ما تنسى شي يا ملعون!

وأصبحت العلاقات بين الاثنين أقوى وأكثر متانة وثقة. وبمرور الوقت اكتشف الأمير راكان أن صفاء يكنّ له وداً خاصاً، وقد تأكد من ذلك حين وصلت الفتاة الفنلندية في السرب الأخير، إذ ما كاد الأمير يبدي إعجابه بها، وبدا محرجاً أن يطلب بقاءها، حتى استبقاها صفاء دون أن ينتبه أحد، بمن فيهم الأمير مساعد الذي سأل عنها بالذات، لكن لم يُجب إجابة واضحة. بقيت الفتاة في إحدى الاستراحات شهراً كاملاً، قبل أن تستبدل بثلاث أخريات، اثنتين من السويد والثالثة من جزر هاواي، كنّ قد وصلن ضمن السرب الجديد.

كان صفاء دقيقاً في تصرفاته. لا يحب الخطأ، كما لا يحب الادعاء. كان يعرف متى يجب أن يكون موجوداً ومتى يجب أن ينسحب. أما الكتمان الذي كان يتميز به، فقد تعلمه من خلال العمل، إلى أن أصبح إحدى الصفات المميزة لشخصيته وسلوكه. «لأن الكلمة في غير مكانها، ومع الشخص غير المناسب، خسارة مؤكدة» هكذا كان يقول لنفسه، ويتذكر عدداً من الخسارات، أو الأرباح التي حصلت نتيجة كلمة قيلت في غير مكانها أو في غير أوانها.

ومن الأمور التي تعلمها صفاء أيضاً، أن لا يُشعر الذين يعرف عنهم كل شيء، أنه يعرف. فالأمير راكان الذي نسي، أو تجاهل، أن صفاء كان

موجوداً أثناء بحث عقد الأربعمائة سيارة، وكيف تم الاتفاق على أن تقسم الأرباح مناصفة، النصف للأمير، والآخر للشركة العالمية ثم طلب الأمير أن يودع المبلغ المستحق له في حساب، أعطى رقمه لغزوان، في سويسرا، هذا العقد سلّم صفاء بنفسه إشعار الإيداع للأمير بعد ثلاثة أسابيع من توقيعه!

رغم أن كل الأمور كانت تجري بمعرفته، ولا بد أن تمر بين يديه، فلم يتظاهر ولم يستغل تلك المعرفة، ولا أبدى ملاحظات من أي نوع. أكثر من ذلك كان يتعمد، غالباً، أن يبدو جاهلاً، أو مجرد حامل للرسائل.

أما في إطار العلاقات الشخصية فإن صفاء الشلبي يبدو كأنه خلق لهذه الحياة. يعرف كيف يكون مرحاً، خفيف الظل، من خلال النكت التي يحفظها، وغالباً ما تكون فاضحة، لكن دون تبذل، ومن خلال نعومة التصرفات. فما أن يتواجد في مكان حتى يزول التحفظ بسرعة ويسيطر جو حميم. كان يفعل ذلك دون تصنع أو مبالغة، ودون أن ينسى أيضاً المواقع والمراتب. وهذا ما كان يجعله مختلفاً عن آخرين، إذ ما يكاد يسيطر المرح أو الشراب على جلسة من الجلسات، إلا ويعطي بعض الناس لأنفسهم حقوقاً إضافية، سواء بطريقة المناداة على الأمراء، أو التعامل معهم. وإذا أبدى بعض الأمراء تسامحاً إزاء مثل هذه التجاوزات، فإنهم لا يشعرون بالراحة، ولا يفضلون أن تتكرر اللقاءات مع هؤلاء الأشخاص. صفاء، لم يقع في مثل هذا الخطأ، رغم أن علاقاته بعدد من الأمراء فاقت الكثيرين، وهذا ما جعله مرغوباً في كل جلسة، وضرورياً في كثير من الحالات.

قال راكان لمساعد ذات ليلة، وصدف أن كان صفاء مسافراً:

- . . . ابن الحرام مثل البزون، شلون ما رميته ينزل على رجليه. . .

وبعد قلل وهو يتلمظ:

- تذكر الشقراء الطويلة صاحبة الأرقش، أوكلي، ما أن وكدتها، ولمحني صفاء، حتى سألني: تريدها يا طويل العمر؟ قلت له: ظني أن

هالذيب معرّت بيها وما تصحّ. قال: ما عليك، وما تنام الليلة إلا بحضنك. وما كذب خبر، ظل ورا الأرقش، يكيل له ويشرب معاه إلى أن عماه. وبالويلات، وصلّوه فراشه، شالوه يد ورجل ونام ذيك الليل بهدومه، لا حسّ ولا دري!

سأل مساعد باهتمام:

- وهي... شنهو اللي صار بيها؟

- هذا السؤال ينسأل يا مساعد، وأنا أخوك؟

وفي مجالات لا حصر لها صفاء الشلبي إنسان ضروري ولا غنى عنه. الأفلام التي كان يحملها في سفراته لا يجدها إلا الخبراء في لندن وباريس. العطور المتعددة الاستعمالات والمتنوعة يعرف متى يقدمها ولمن. بعض المجلات «الخاصة» تخرج من حقيبته في الوقت المناسب. أما كيف يزول التحفظ، وينتهي الخجل مع «الممرضات»، أو المسعفات، كما أصبح يطلق عليهن خلال الفترة الأخيرة، والدور التمهيدي الذي يحسنه صفاء إلى أقصى حد، من خلال الترجمة، والإشارة إلى بعض الصفات والوعود، ثم كيف ينسحب في اللحظة المناسبة، بعد أن يتهيأ الجو تماماً، فإن هذه المهمات لا يمكن لأحد غيره أن يؤديها بنفس الاتقان والبراعة.

كان يقوم بهذا الدور ببساطة، ونفس طيبة، بل أكثر من ذلك يعتبره عادياً، لا يثير حرجاً ولا يولد خجلاً، «لأن العلاقة بين الأصدقاء لا تقيم وزناً للاعتبارات الاجتماعية البالية». ومن أجل تأكيد هذا المفهوم، وتمييزه عن غيره، فقد كان يفصل، وبعض الأحيان بحدة، بين مرافقة طائرة من كوبنهاغن إلى موران، وفيها تلك الأسراب التي يتولى ليفي شاوات تأمينها، عن طريق وكالة متخصصة كان يتعامل معها، باعتبار أن مثل هذه المهمة جزء من العمل، ولا يعنيه أي أمر آخر، وبين انتقاء مجموعة إضافية، وعن طريق الوكالة ذاتها، لكن ضمن شروط يحددها سلفاً وبدقة، من حيث مواصفات الطول ولون البشرة، إضافة إلى أنواع الجمال المرغوبة أو المطلوبة. كان يقوم بالعمل الثاني للمتعة، من أجل الصداقة، تعبيراً عن

الود. وكان واضحاً في التعامل، وينزعج إذا اختلطت الأمور أو تداخلت الأسراب!

إضافة إلى هذه الصفات، اكتشف الأمير راكان، ولم تمضِ بضعة شهور على التعامل، صفة جديدة وهامة بصفاء: الأمانة.

قال لغزوان وهما يجريان حساباً في نهاية العام الأول للعلاقة:

ـ . . . والله وفقكم، يا غزوان، بصفاء. ما مثله، وهذا وحده ما يتقدر بثمن، ما هو بس من ناحية شطارته وحرصه، هَمّ من ناحية أمانته.

وروى الأمير بكثير من الانفعال والمرح كيف أنه حاول إغراءه، ليختبر مدى استقامته، وكيف ألح عليه، لكنه قاوم كل الإغراءات ورفض جميع العروض. وختم الأمير كلامه:

ـ . . . والبني آدم، يا غزوان، حتى لو كان من صخر، إذا شاف هذه الفلوس، وعرف المربح، وإذا كان الشغل هنا كله عن طريقه، يرتخي، لكن، والشهادة لله، هذا الرِّجال عينه شبعانه، وما بنفسه شي، إلا اللي يجيبه بالحلال.

غزوان الذي بدا مسروراً وواثقاً، قال، وهو يهز رأسه، ويعني أشياء كثيرة:

ـ في مجال الأعمال، يا صاحب السمو، فإن اختيار المساعدين، ونوع المهمات التي يكلفون بها، وحجم الثقة التي تمنح لهم، لا تقل بنتائجها عن الأعمال السياسية، والشروط التي يتطلبها الرؤساء بمرؤوسيهم!

وبعد قليل وبمرح:

ـ وأول من لفت نظرنا إلى روبرت يونغ كان صفاء. كان يقول عنه: رجل هوائي، عجوز ثرثار وعقيم، ولا يعرف إلا أن يقاسمك على الأرباح!

قال الأمير راكان بطريقة أبوية:

ـ يلزم تحرصون عليه وما تخلونه إلاّ راضي.

أما السبب الأهم الذي جعل الأمير يكتشف أمانة صفاء، فكان موضوع

الاستثمار. فالمبالغ التي استحقت له خلال الفترة الأولى طلب إيداعها في سويسرا، ضمن أرقام سلمها إلى غزوان، ولم يفكر، ولم يأت من ينبهه، إلى إمكانية استثمارٍ أفضل، خاصة إذا أودعت في حساب طويل الأجل، أو إذا حوّلت إلى سندات.

صفاء وهو يسلّم الأمير راكان عدداً من الشيكات، لفت نظره، بطريقة لا تخلو من مشاعر الحرج، أنه يمكن توظيف هذه المبالغ في السوق المالية، كما يمكن الاستفادة من التنافس الموجود بين المصارف الأوروبية والمصارف الأميركية على نسب الفوائد، بل ويمكن الاستفادة من التنافس الموجود بين البنوك الموجودة في البلد الواحد، والحصول على شروط أفضل. والأمير الذي فوجئ بهذه الخيارات، وما تتيحه من احتمالات ربح أكبر، طلب منه أن يقوم بزيارة عاجلة إلى سويسرا، ويعود إليه بالخيارات المناسبة، بعد أن يبحثها مع عدة بنوك، أما القرار فيستخذ بعد عودته.

لم يتأخر صفاء في القيام بهذه المهمة، ثم الوصول إلى قرار صيغة إيداعات متعددة، تجنباً للمغامرة، وقبولاً بالحد المعقول من الأرباح المضمونة، إضافة إلى اعتبار هذه الصيغة تجريبية لفترة سنة أو سنتين، وعلى ضوء النتائج، يمكن تعديلها، خاصة وأن مجموعة الشركات المتعاقدة مع السلطنة على توريد السلع، أو تنفيذ مشاريع، اشترطت أن تدفع «الأتعاب» على أقساط تتناسب مع المدفوعات التي تحصل عليها نتيجة التوريدات أو تنفيذ المشاريع.

مقابل هذه الخدمات امتنع صفاء، وإلى درجة الرفض، أن يتلقى شيئاً. والأمير الذي استغرب، ولم يحتمل، قال في محاولة ضغط أخيرة:

ـ هذا معناه أنك ما تريد تعاوّنا مرة ثانية، أو أنك قمت بالعمل سخرة أو غصب عنك، وهذا ما أريده!

احرج صفاء. بدت عليه الحيرة، وبعد فترة صمت، قال وخرج صوته مرتبكاً:

ـ إذا أمرتم، يا صاحب السمو، فأنا اعتبر ما قمت به من عمل لا يتعدى الصداقة والمحبة، وفي حال الإصرار، وتحويله إلى مبلغ من

المال، فمعنى ذلك أنكم لا تريدون صداقتي، أو أني مثل الآخرين. . .

وتطلع إلى الأمير بعينين راجيتين وأضاف:

ـ وإذا كان لا بد من مقابل، فأنا أقترح أن يكون: تغطية مصاريف الرحلة و. . .

توقف قليلاً وهو يبتسم، تطلع إليه الأمير بإمعان، وحين وجده متردداً سأله:

ـ تغطية مصاريف الرحلة. . . وشنهو بعد؟

ـ منذ وقت طويل كنت أمني نفسي أن أحصل من سموكم على سيف!

ـ سيف؟

ـ أي نعم، يا صاحب السمو، لأني سأعلقه في صدر البيت، وسأنظر إليه كرمز لصداقة بيننا أرجو أن تدوم إلى الأبد.

تأثر الأمير راكان، جر نفساً عميقاً، وبعد فترة صمت طويلة قال:

ـ قبل ما تصل البيت يكون السيف هناك. . .

وبعد قليل، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ بس هذي آخر مرة أقبل منك الاعتذار. والنوبة الثانية، إذا كلفناك بشي، إذا سويت لنا شي، أول خطوة: نسألك: كم تريد؟

وضحك بمرح وأضاف:

ـ ويجوز اللي تطلبه كثير، فنقول لك: لا بالله، غيرك طلب أقل، ونتساوم، ونرفع وتنزل، إلى أن نتفق، شنهو قولك؟

ـ تمام يا صاحب السمو، وخيرها بغيرها، مثل ما يقول الشوام!

لم يكن الأمير راكان وحده الذي تربطه بصفاء تلك العلاقة، فعدد آخر من الأمراء عرفوه من خلال العمل، أو من خلال سهرات الطرب التي كانت تجري دورياً؛ وبعضهم عرفه عن طريق المسعفات. وغير هؤلاء لكثرة ما تردد اسمه، وبدافع حب الاستطلاع والتعرف. وكل واحد من الذين تعرفوا عليه، أحس أنه يعرفه منذ وقت طويل، حتى أنه لم تنته ليلة،

وصدف أنه كان موجوداً، إلا واتفق مع العديدين على تبادل الزيارات، أو على تأمين حاجات معينة. وإذا لم يتم الوصول إلى اتفاق من نوع ما، فلا بد أن تبقى في الذاكرة تلك الليلة وتلك السهرة!

ولأن موران، تلك الفترة، كانت مشغولة بالحرب، والتفكير بطريقة مناسبة لمواجهة مصاعب الحياة، فلم يكن لدى الكثيرين الوقت الكافي للانشغال بالأمور الأخرى، أو للتفكير بما يتجاوز اليوم الذي يعيشون فيه.

قال الكثيرون من أهل موران: «هذه السنة كشرة اللي ما أخذته الحرب راح يذبحه العطش أو الجوع، وعسى تكون نهايتها أحسن من بدايتها». وقال أهل العوالي: «كان الناس، من قبل، يقولون: الصيف جنة الفقير: يدفا ويتعافى، ومثل الطير يسكّت جوعته بما يلقى، لكن أتاري هذه السنة سنة العقبان والغربان، اللي ما أكله ابن العليان يحوشه راكان، وضاعت على الناس بين الصيف والشتا». أما أهل الحويزة فإن معظممهم حملوا أحزانهم وقهرهم وارتحلوا من مكان إلى آخر، وراء الكلأ والماء، ومن بقي منهم أصيب بالجرب، ثم جاء التيفوس فقضى على الكثيرين.

ولأن الحرب لا تتعب ولا تميز بين البشر، ظلت تستقبل أفواجاً لا نهاية لها من الرجال والأموال. أما الطائرات التي تجوب السماء، فإنها لا تميز، أو لا تريد أن تميز، ولذلك أخذت في طريق الذهاب والعودة الكثيرين. قال أهل حومة الوادي «الطير الحر ما يطلب الهداد إلا إذا شاف. والذيب ما يقرب الغنم إلا إذا جاع. وهذه العفاريت اللي تطارد بالسما تحرق الأخضر واليابس، بروحتها وبردتها. فعساها تروح وما ترد». أما رجال قاعدة الريمان فقد قالوا بصوت مقهور أقرب إلى اليأس: «يحرم علينا إذا قتلنا ضب بالفلا. ولو كان بنزين طيارتنا يصل كان وصلنا، وشفتم، لكن...».

قال سبندر كوانتي، متعهد الاسراب، لصفاء:

- ... ابتداء من أول هذا الشهر أصبحت الأسعار مختلفة، إذ بالإضافة إلى قانون زيادة الرواتب الذي أقرّته الحكومة قبل أسبوعين، فإن

الفتيات أقل ميلاً ورغبة للسفر إلى الصحراء، فهناك أخذت تقع أخطاء لا يمكن تجاهلها، إضافة إلى إرهاق الطقس والعمل!

ولما أبدى صفاء استغرابه، أو عدم فهمه لهذه التفاصيل، أضاف سبندر:

ـ لا أريد أن أدخل في مناقشات عقيمة الآن، لكن يجب أن تعرفوا بوضوح: أسعارنا تغيرت...

وضحك بسخرية، وقال:

ـ مع ليفي اتفقنا: رأس وليلة، وكان هذا اتفاق جنتلمان، أما أن يتحول الأمر إلى هذا الشكل المرعب: عدة أشخاص في الليلة الواحدة، وليس هناك فرق بين ليل ونهار، ولا وقت أبداً للراحة، فإن كل فتاة هنا تفضل أن تستقبل عدداً من البحارة، برغبتها واختيارها، على أن يفرض عليها عشرة من الذئاب، لا يتعاقبونها فقط وإنما يغتصبونها اغتصاباً.

قال صفاء في محاولة أخيرة لإنقاذ الموقف:

ـ يمكن الموافقة على ارتفاع الأسعار القانوني، أما ما عدا ذلك فلا بد من مناقشته مع ليفي.

قال سبندر بحدة:

ـ ليفي لا يهمه سوى الربح، والربح السهل، فهو يتقاضى على كل رأس ـ ليلة مائة دولار، أما كيف هو الرأس، وما هي الليلة، فانا وحدي، باعتباري أباً لهؤلاء البائسات، المسؤول واعرف. إن كل واحدة تعود من هناك تحتاج إلى أسابيع، إذا لم أقل شهوراً، من الاستجمام والمعالجة.

في مجلس الحل والربط الذي دعا إليه السلطان، وقد تغيب عنه، هذه المرة، عدد من الأخوة، إما لسفرهم خارج السلطنة، أو بحجة المرض، وغاب أيضاً سند، بدا السلطان مهموماً أكثر من أي وقت سابق. وبعد فترة صمت، بدت بنظر الكثيرين، طويلة بدأ السلطان الكلام:

ـ كلكم تدرون أن الحرب انفرضت علينا. ما كنا نريدها، لكن هذا اللي قسمه رب العالمين، وما كان أمامنا درب ثاني...

تنفس بحزن، تطلع إلى الوجوه بسرعة، ثم تابع:

ـ والحرب ما هي بس رصاص ودبابات وطيارات، الحرب، قبل كل شيء، بداخل النفس، يلزم أن الواحد يكون قانع ومستعد حتى يقدر يدافع عن أرضه وعرضه، وهذا يحتاج أن الناس تتصافى قلوبهم، ويكونون يد واحدة. . .

تحرك في كرسيه، بدا قلقاً شاحباً، وزاد في ارتباكه أن جميع العيون تتابعه، نبر بحدة:

ـ كنت أريد بهذا اليوم أن يكون سند موجود، ونتواجه. كنت أريد أبحرّ بعينه وأسأله: شلون يعطيك قلبك يا سند أنك تسوي اللي سويته؟ شلون يا سند تخالف الجميع وتقول على روس الأشهاد: الحرب خايسة، الحرب ما تحل مشاكل، الحرب قتلت ودمرت. . .؟ من هو اللي سوى الحرب؟ وإذا الأعداء هاجمونا ودشواعلينا، شنهو اللي يلزم نسوّيه؟ نقول هلم: لا يا جماعة الخير، ما يصير، ولا تسوونها نوبة ثانية؟ وإذا كان سند، أو غير سند، عنده رأي، يلزم يجينا ويقول، لا إنه يروح هنا وهنا وما عنده شغل ألا يسبسب ويتكلم الزايدة والناقصة!

تبادل الأخوة النظرات، خاصة راكان ومساعد. كاد مساعد أن يتكلم، لكن نظرة راكان، أو ربما عضة الشفة، الحازمة، جعلته يتردد. تابع السلطان:

ـ قبل ما تمشون، قبل ما ينتهي مجلسنا هذا، أريد منكم كلمة واضحة: بعدكم على بيعتكم وكل واحد يحط دم قلبه، وكلنا يد واحدة، ونحارب بكل قوتنا، أم أحد منكم له رأي ثاني؟.

وتباري الأخوة في إظهار حماسهم وتأييدهم، وفي إدانة مواقف المتخاذلين، خاصة سند. وفي محاولة لأن تأخذ الأمور صيغة عملية وفعالة، قال راكان بحدة:

ـ من رأي هذا ما يكفي، يلزم سند أنه يجي ويواجهنا، حتى يسمع رأينا، لأن المسألة مسألة حياة أو موت، وإذا تحملنا وسكتنا، مثل ما راد طويل العمر، فما عاد بنا صبار.

ـ ظني يا أبو منصور، أنه ما يقدر يواجه طويل العمر.

هكذا رد مساعد، فسأل شاهر:

ـ والحل؟

ـ الحل، الله يسلمك، إذا وافق طويل العمر، أن نبعث وراه، ونقول له: يلزم حضورك، فإذا ما جاء نعزله من المجلس، ونقطع عنه المخصصات، وإذا ما تأدب لكل حادث حديث.

هكذا رد راكان:

قال السلطان:

ـ المهم، هالحين، أن الموجودين يكونون قلب واحد، ويد واحدة، والمسائل الثانية تنحلّ.

بعد أن انفض المجلس، قال السلطان لمساعد.

ـ إذا ظلت الحرب هالشكل، يا مساعد، تراها تتعبنا. أريد زخم، أريد تكسر عظامهم، تضرب بقوة. أما طلقة هنا، وقنبلة هنا، فترى هذا ما يفيدنا.

ـ نريد نتعاقد على أسلحة جديدة، وعلى طيارين، يا طويل العمر.

ـ اللي يلزم سوّه، يا مساعد، وأنت مفوض.

والتفت السلطان إلى الأمير راكان:

ـ وأهل موران بخاصة، يا راكان، لساناتهم طالت، وكل يوم تصلني الأخبار...

وبعد قليل، وقد تغيرت لهجته:

ـ يلزمك تشدّ عليهم، تخليهم يركّضون وأبد ما يصلون، والواحد ما ينسدح يريد ينام إلا وبرأسه ألف همّ، لأنا إذا تركناهم يسولفون ويقسّمون، تراهم يثولونا، ويسدّون علينا الدروب...

وتغيرت اللهجة:

ـ خلّهم ينشغلون برزقهم، وخل رغيف الخبز يصير بالنسبة لهم مثل

لهاية الرعيان، ينشاف وما ينلحق. يرجون على الصغيرة والكبيرة. واليوم وباكر، ولساناتهم، من العطش، تتدلى شبر، حتى إذا تعبوا تأدبوا، وقالوا: إن الله حق، ويشوفون كل شي وكأنه عطية من السما.

ابتسم وهو ينظر بإمعان إلى راكان، وأضاف:

ـ وأنا كلّفت رباح أن يتعاون معك، لأن مثل هذه السوالف فادت بمكانات ثانية، وسيطروا على الناس بهذه الطريقة...

قال راكان وهو يفرك يديه:

ـ أهل موران ما لهم إلا العصا، يا طويل العمر.

ـ العصا ورغيف الخبز يا راكان.

وفي اليوم التالي بدأت لجان مختصة تدرس كيف يمكن مواجهة الإشاعات، وإشغال الناس، ومحاربة ظواهر الرخاوة والبلادة والكلام البذيء والنكات!

بعد أن تمت معاقبة حومة الوادي، قصفت «الطائرات المعادية»، كم ذكرت إذاعة موران، العبيلة ثم الزميقة ومشعان، فالجريفة فالعطارة، وربما قرى أخرى أيضاً. وهذه القرى أربع منها تبعد كثيراً عن حدود الدواحس، وتبعد عن بعضها مسافات ليست قليلة.

الذين يعرفون جغرافية المنطقة، ويعرفون أكثر مما يقال في الإذاعة، أو يكتب في الجرائد، لا يميلون إلى اعتبار ما أعلن صحيحاً، ولديهم ما يؤيد وجهة نظرهم، لكنهم لا يجرأون على أن يقولوا ذلك صراحة، لأن في زمن الحرب، وأثناء احتدام المعارك، على الجميع أن يصدقوا البيان العسكري الذي يصدر في بداية النشرة الإخبارية، ومن لا يصدق ينطبق عليه ما قاله يونس شاهين في الافتتاحية التي نشرت غداة ضرب الجريفة. كتب في تلك الافتتاحية: «. . . ومن جملة الأكاذيب التي طلعت بها علينا إذاعة الدواحس أن طائراتها لم تقصف الجريفة. إذن الجريفة لم تقصف، لم تتعرض للعدوان، لكن البعثة الصحفية المحايدة التي قامت بزيارة المنطقة في اليوم التالي أكدت أنها لم تشاهد سوى الضحايا وجثث الحيوانات النافقة، والبيوت المهدمة وآثار الحرائق. من فعل كل ذلك؟ تقول إذاعة الدواحس أن طائرات السلطنة فعلت ذلك، ربما نتيجة الخطأ. الخطأ؟ إن أخطاء من هذا النوع إذا جاز وقوعها، ففي مناطق الحدود، وفي مناطق الاشتباكات. وكل إنسان يعرف أن الجريفة تبعد عن الحدود أكثر من مائة وسبعين كيلومتراً. كما أنها لم تشهد أية عمليات عسكرية منذ بداية الحرب!

«إن الذين يحترفون الكذب يجب أن يمتلكوا الحد الأدنى من المنطق،

لكي يصدقهم الآخرون. أما أن يبلغ الفجور بالمعتدين هذا الحد السافر والوقح، وأن يفترضوا وجود أحد يصدقهم، فلا بد أن يكونوا واهمين، ولا بد أن يكون من يصدقهم مجنوناً أو خائناً».

ولأن معظم وقائع الحرب لا تخضع للمناقشة أو لإعادة النظر، في حينها، إذن فهي صحيحة، على الأقل وقت وقوعها. وباعتبار أن الوقائع كثيرة ومتلاحقة فإن الأخير منها يجبّ ما قبله. ولذلك ذهبت صرخات سند في مهب الريح، والأخبار التي تسربت من قاعدة الريمان لم تصل إلى موران إلا أصداء، ثم تلاشت بسرعة.

وبتزايد المعارك، نتيجة وصول صفقة كبيرة من الأسلحة، وقد تم التعاقد عليها قبل شهرين من اجتماع مجلس الحل والربط، ونتيجة وصول فوج جديد من الطيارين الذين تم الاتفاق معهم بأجور كبيرة، تولد انطباع أن الميزان العسكري أخذ يميل لمصلحة السلطنة. وكان هذا أحد الأسباب لزيادة إجراءات الملاحقة والتصفية التي أمر راكان باتباعها، وإلى أشغال الناس والهائهم بتدبير أمور رزقهم، ولذلك يجب أن يسكت كل صوت، ويعتقل كل من يتفوه بكلمة، فامتلأت السجون، وساد الخوف، وانشغل الناس، وهاجر الكثيرون في هذه السنة التي لم يروا مثلها منذ وقت طويل.

ورغم أن الصيف كان طويلاً قاسياً، فقد بدأت الاستعدادات لحشد القوى. ومثلما حصل قبل بداية الحرب، حيث تم استدعاء شيوخ البدو، وتقديم الهدايا، والمبالغة في الولائم والاهتمام، حصل هذه المرة أيضاً، لكن البدو، هؤلاء الأبالسة، يمتلكون غريزة لا تخطئ؛ فإذا كانت استجاباتهم كبيرة في المرة الأولى، وكلماتهم ضاجة وطلباتهم غامضة، ففي هذه المرة كانت طلباتهم أكثر واستجاباتهم أقل. شكوا صعوبة الحياة وانقطاع المطر. كما ادعوا أن رجالهم ارتحلوا بعيداً، وطالبوا بمبالغ أكبر وبأسلحة جديدة. واشترطوا أيضاً أن يمهلوا وقتاً إضافياً. ورغم الاستجابة لمطالبهم فإن الحذر لم يفارقهم. أكثر من ذلك باعوا معظم الأسلحة في طريق عودتهم، أنفقوا جزءاً من المال واحتفظوا بالباقي، وظلوا خائفين من الأيام الآتية.

وتجار موران الذين تذكروا كيف كان البيع والشراء في السنة الماضية، قالوا لأنفسهم، وقالوا فيما بينهم: انتهت المصاعب وبدأ الخير، ولا بد أن نعوّض في شهر ما فاتنا خلال العام كله. لكن حين أبدى البدو هذا الحرص، وتظاهروا بالفقر، وأنكروا أنهم حصلوا على معونات، فقد استمر الركود في الأسواق، لذلك تشاءم التجار، ولم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من الكلام. وإذا بدأ التجار، وهم أغنى أهل موران، وأقدرهم على تحمل الأيام الصعبة، فعندئذٍ يكون الوضع بلغ درجة تنذر بالخطر.

قصور العائلة، السلطان والأمراء، التي غرقت في الصمت، خلال فترة معينة، خاصة في بداية الحرب، ما لبثت أن امتلأت بالدوي. كان دوياً أقرب إلى صوت الريح: غامضاً متداخلاً، يهب فجأة ثم ينقطع. لكن والأيام تتوالى، والحركة تزداد، يصبح الدوي أكثر وضوحاً، إن لم يخل من الغموض. أما بعد أن تدفقت الأسلحة الجديدة والمعدات والأدوات والسيارات، وتغيرت أوضاع المحيطين بعدد من الأمراء، فقد عرف أهل موران أن مالاً كثيراً وصل إلى بعض الأيدي، وأن آخرين لم يقبضوا سوى المخصصات التي حددها القصر، ومثلما كانت الألوان، أيام مالك الفريح، تميز أميراً عن آخر، أو مجموعة عن أخرى، فإن الرويشدي كان أكثر براعة في إقناع أمراء المخصصات القليلة أن الفقر عارض، ولا بد أن ينتهي بانتهاء الحرب، وأكد لهم أنهم ما زالوا بخير لأنهم على قيد الحياة، في الوقت الذي مات الكثيرون على الحدود، وفي الداخل أيضاً!

ولأن المحرمات تزداد وقت الحرب، والناس لا يتكلمون خوفاً وتحسباً، أو احتراماً لذكرى الذين قتلوا، فقد سمع الكثيرون ما قاله راديو موران وصمتوا، انتظاراً لانتهاء الحرب، لكي يقولوا كل ما يعرفون.

قال السلطان لثروت:

ـ كنتِ على حق. . .

وحين نظرت إليه مستغربة، أضاف بثقة:

ـ الواحد قبل التجربة يهاب، يظن الأمور أصعب وأكبر. . .

ولم تفهم، لكنها ابتسمت، لكي تحثه على أن يواصل:

ـ قبل ما تبدأ الحرب اتخذنا احتياطات كثيرة، وتذكرين. أما هالحين، فموران، وكل السلطنة، مثل الساعة. الناس راضين، والدنيا بخير، ولا بد نخلّص عليهم بهذه السنة، وأبعد تقدير بربيع السنة الجاية.

وثروت التي صهلت بضحكة فرح، لم ترد أن تفسد هذه اللحظة الرائعة، أسبلت جفنيها وأمسكت يده بقوة. كانت دافئة ورطبة، وشعرت أنها أخطأت، خلال فترة معينة، حين أساءت به الظن، وافترضت أن هناك امرأة أخرى.

والسلطنة كلها، من أقصى الحويزة، إلى أبعد نقطة في العوالي، والشمال كله، رغم الهدوء الذي يسيطر على كل شيء، تحس أن شيئاً يتحرك تحت الجلد، ربما حرّكته رياح الخريف التي بدأت تهب، فانكسر معها ذلك اللهب الذي يتفجر مع الرمل وجدران البيوت، ومن ذرات الهواء، فكانت تنام وتقوم، وهي تتوقع.

ولم يكذب توقع الناس ولم يطل انتظارهم. ففي الأيام الأولى من فصل الخريف، ولأن مساعد ضاق صدره وهو يسمع تلك الأجوبة من ضباط القاعدة أن فترة التدريب لم تنته بعد، فقد حدد موعداً اعتبره نهائياً لكي يشارك ضباط السلطنة في الهجوم الجوي الذي سيمهد للقوات البرية كي تقتحم وتتقدم، إلى أن تصل إلى أهدافها بإسقاط النظام المعادي، وتلقين كل من يبقى حياً من رموزه وضباطه درساً يكون عبرة لكل من يفكر في المستقبل أن يغيّر نواميس الطبيعة!

مع أول أضواء الفجر من ذلك اليوم، بداية الخريف، وتنفيذاً للأوامر التي أعطيت للسرب الأول بالإغارة، وما كاد الطيارون الستة الذين يشكلون ذلك السرب، وهم أربعة من السلطنة واثنان من الأجانب، يقلعون بطائراتهم، وما كادت ترتفع الطائرات وتأخذ سمتاً محدداً، ثم تميل نحو الأفق الغربي، حتى انفصلت أربع طائرات، ولم يعرف عنها أي شيء.

حتى الظهر كانت التأكيدات تتوالى أن الطائرات أسقطت، أو ضلت طريقها. فالأخبار التي تسربت من الدواحس أشارت إلى وصول أسلحة جديدة مقاومة للطائرات نصبت حول المعسكرات وقريباً من المدن، ولا بد

أن تكون أصابت تلك الطائرات. وهمسٌ سري في القاعدة أن تدريبات الطيارين لم تكن كافية، وبالتالي ضلوا طريقهم.

وبين الخوف والانتظار، ولوم النفس، ظل التكتم على الخبر مستمراً إلى ما بعد الثانية. في نشرة أخبار الظهيرة من موران، وفي البلاغ العسكري، ذُكرت الطلعات الجوية وإصابة الأهداف المعادية بدقة. كانت لهجة الفخر والاعتزاز، والمذيع يذكر التفاصيل، لا تخفى. أما من إذاعة لندن، فقد جاء خبر، لم يتأكد رسمياً، أن أربعة طيارين بطائراتهم لجأوا إلى الدواحس.

وقبل أن يتصل مساعد بموران ليبلغها أن شيئاً ما حصل، اتصلت موران.

بعد امتناع، استمر بضع دقائق، عن الإجابة، حاول مساعد مع عدد من معاونيه واثنين من ضباط القاعدة، إضافة إلى أوكلي، أن يتوصلوا إلى تقدير أخير. كان الميل أن يكون الجواب إلى موران: «ضلت الطائرات والبحث عنها جارٍ»، لكن في اللحظة الأخيرة، وقبل أن يتوجه الأمير مساعد للرد على تلفون موران، جاءه مرافقه بورقة مكتوبة: «ذكرت الإذاعات الخارجية أن الطائرات بطياريها لجأت إلى الدواحس».

قال مساعد يرد على راكان:

ـ الأوامر كانت واضحة، ومع السرب كان اثنين من الخويا، والاثنين يقولون شفناهم راحوا مغرّب وراحوا مشرق، وبعدها ما ندري.

وسُمع كلام حاد وغامض في الجهة الأخرى، أجاب مساعد وهو يتلفت:

ـ مثل ما قلت لك يا أبو منصور: الأوامر كانت واضحة.

ـ . . . .

أي نعم معروفين زين بالنسبة لنا.

ـ . . . .

ـ كلهم؟ كلهم؟

ـ . . . .

ـ فوراً، وبعد نصف ساعة اتصل بك.

ـ . . . .

ـ زين. . . زين، ما يخالف.

في اليوم التالي أعلن في الدواحس أن الأمير سند ومعه خمسة من أخوته الأمراء وصلوا وطلبوا حق اللجوء السياسي.

وفي اليوم الثالث حصلت حركة لم تعرف تفاصيلها، لكن في نفس المساء أعلن من راديو موران أن عدداً من الأشقياء والمجرمين المسلحين حاولوا الاعتداء على مبنى الإذاعة، وبعد تبادلٍ لإطلاق النار استسلم هؤلاء المجرمون، فقبض عليهم وادعوا السجن تمهيداً لمحاكمتهم وإنزال العقاب الرادع بهم.

الأيام الثلاثة، وما وقع فيها من أحداث، يمكن أن يروى عنها الكثير من التفاصيل. ويمكن أن تروى بأشكال لا حصر لها، أو مثلما قال الصحفي الإنكليزي الذي جاء بعد ثلاثة أسابيع من وقوعها، وكان يجمع المواد ليعد كتاباً عن السلطنة في عهد السلطان فنر: «. . . والحادثة الواحدة، مهما كانت صغيرة أو ثانوية، تروى بعدة أشكال، تبعاً للقناعات والعواطف، وتبعاً لزمن روايتها أيضاً. ولأن الناس بسطاء وعاطفيون، فهم من ناحية لا يستطيعون أن يخفوا قناعاتهم، ومن ناحية لا يعرفون الكذب المباشر. أنهم ينقلون ما رأوا، ما سمعوا، بغض النظر عما يترتب عليه من نتائج. صحيح أن الحادثة ذاتها يمكن أن يرويها نفس الشخص بعدة أشكال، وهذا ناشئ، بالدرجة الأولى، بسبب قرب الحادثة زمنياً أو بعدها، وما ترتب على ذلك من تفاصيل أو تفسيرات لاحقة للحادثة، مما يجعله يتوهم أنه رآها بشكلها الجديد.

«ولذلك فإن مسألة الدقة أو التثبت من الوقائع، ومن ثم تفسيرها، تحتاج إلى وقت إضافي، وإلى معرفة جوانب أخرى لا تزال غامضة.

«ومما يزيد في تعقيد الأمر أن إجراءات الانتقام تترك ذيولها على قناعات الناس ومواقفهم. أن الناس هنا (وربما في كل مكان) ضد الظلم،

وغالباً مع المهزوم. ولذلك فالإجراءات اللاحقة تركت ظلالها القاتمة حتى على الأحداث ذاتها. وباعتبار أن الناس هنا لا يملكون الوسائل، وليس لديهم الضمانات لمواجهة السلطة، فإن الكلمة بالنسبة لهم سلاحهم الوحيد أو الأساسي. ويجب أن لا نستغرب إذا سمعنا أقسى الكلمات في وصف أعمال الحكومة أو تصرفاتها، لأنها الطرف المضطهد، والطرف القوي في علاقة مختلة بالأساس.

«لا أتفق مع المسؤولين الذين التقيت بهم وسألتهم عن تفسير ما جرى. أنهم يعتبرون أن هؤلاء «الخونة» تم شراؤهم، أو استدراجهم من قبل أجهزة معادية. وقد حصل ذلك في وقت مبكر، وهم معروفون بسوء سلوكهم وارتكاباتهم، وبعشرات الصفات السيئة الأخرى، وإن هذه الصفات ليست وليدة اللحظة، أو فترة زمنية قصيرة، وإنما هي صفات خلقية، أي ولدت معهم، وبنفس الوقت لا يعترف المسؤولون بأية أخطاء ارتكبت من جانبهم، بل غالباً ما يميلون إلى العكس، حيث يفاخرون ويشيرون إلى المزايا التي يتمتعون بها، وهي التي منعتهم، ومنذ وقت مبكر، من إنزال العقوبة، أو حتى الالتفات إلى هؤلاء. هذه الصفة رأيتها في الكثيرين، إذا لم أقل في جميع من قابلتهم، عدا السلطان، الذي اعترف بمسؤولية الحكومة عن بعض الأخطاء، ووعد أن يتم تلافيها مستقبلاً، ولا أدري إن كان هذا موقفه الحقيقي، أو مظهر من مظاهر الذكاء والتفوق على الآخرين. وأشار إلى أن مشاغله حالت دون مراقبة مساعديه بالمقدار الكافي.

«لا أريد أن أسرف في الحديث عما جرى، لكن لا بد من اعتباره كبيراً وخطيراً، رغم فشله. إنه يدل على الخلل الكبير، إذا لم أقل الشرخ، الذي حصل في هذا المجتمع، وجعله غير قادر على أن يبقى امتداداً لما كان، ولا يجرؤ أن يكون شيئاً جديداً.

«الوضع لا يحتاج إلى الكثير من الذكاء للاستنتاج إلى أنه وضع انتقالي، ولا بد أن يتمخض عن صيغة ما، وهي بالتأكيد ليست القديمة، أو كما يريدها الذين يحكمون، وليست أيضاً كما يريدها الذين ثاروا. وإلى أن

تتوفر مجموعة من الشروط الضرورية، ستبقى حالة من القلق والصراع والثورات الفاشلة... أيضاً».

عمر زيدان الذي سمع بلجوء الطيارين إلى الدواحس، قال لعدد من تلاميذه ومحبيه:

ـ ... وأنا شغلتي ما هي بس الطرب والكيف، أنا أكبر قاري للتاريخ بالعوالي. الحلفاء بالحرب كانت عندهم طيارات ربنا. كانت الغارة من غاراتهم تملأ السما طيارات. وإذا صارت الغارة تظل تدك ساعات، لكن الطيارات وحدها ما تسوي شي. لازم مع الطيارات بشر من تحت، ناس على الأرض، وهذول المخبطين، بأربع طيارات شنهو اللي يقدرون عليه؟ وإذا خلص بنزينهم؟ وإذا خلصت قنابلهم؟ وين يروحون إذا ما عندهم جماعة على الأرض؟

ويزفر، وهو يهز رأسه أسفاً، وبعد قليل:

ـ الجماعة استعجلوا، أي نعم؛ كان يلزمهم يربطوها، لكن صار فيهم مثلنا، والواحد ما يتعلم إلا «تحريري»، وهالحين لازم يعترفون بخطأهم وذنبهم:

وابتسم ثم غنى:

إن كنت قد أذنبت ذنباً سالفاً ... في حقكم وأتيت شيئاً منكراً
أنا تائب عما جنيت وعفوكم ... يسع المسيء إذا أتى مستغفراً

وبعد آهات كثيرة غنى رضا الجاوي:

لو كنت أشرح ما ألقاه من حرق ... ومن سقام ومن وجد ومن قلق
لم يبق في الأرض قرطاس ولا قلم ... ولا مداد ولا شيء من الورق

قال عمر:

ـ عند هذا الفنار، قال لي يوم من الأيام، وإذا الله ما كذبني، قبل ثلاثين، خمس وثلاثين سنة، بحار اشترك في الحرب العالمية الأولى، وبعدها في اليونان وإسبانيا، قال: لا تصدق أن واحد يسوي تاريخ إذا ما قرأ تاريخ. كان ضد هتلر، وكان كل الناس معه!

وابتسم بحزن، وهو يضيف:

ـ وهذول الوليدات، هالحين جربوا وشافوا، ولا بد أنهم تعلموا. . . والمرة الثانية هم أو غيرهم يكون شغلهم أحسن؛

وبعد قليل غنى:

إنـي رأيـت وقـوف الـمـاء يـفـسـده   فإن جرى طاب وإن لم يجر لم يطب
والأسد لولا فراق الغاب ما قنصت   والسهم لولا فراق القوس لم يصب

العجرمي الذي لم يسمع بهروب الطيارين إلا في اليوم التالي، سمعه وهز رأسه، تنبهت كل حواسه حين جاءه ابنه قبل الغروب ليبلغه أن «موران قايمة قاعدة، لأن الأمراء انهزموا» كان مشعل مرتبكاً، لا يعرف من هرب ومن بقي، ولا يعرف إلى أين هربوا أو لماذا. ولما ظل الأمر ملتبساً ومثيراً للقلق، فقد طلب منه أبوه أن يأخذه إلى بيت ابن العليان.

هناك كان عدد من الزوار. دخل العجرمي مضطرباً، قال له عبدالله البخيت:

ـ ابن الحلال عند طرياه.

تطلع العجرمي إلى الوجوه كلها، قبل أن يرد. عرف الكثيرين، لم يعجبه أن يكون موضوعاً للحديث. سأل ابن البخيت بمكر:

ـ ها يا عبدالله. . . . بعدك تندّل القبلة أو تاهت عليك؟

ـ اندل، يا شيخنا، لكن أهل مكة أدرى بشعابها، وما دام أبو عزّيز موجود، فهو أدرى مني!

ـ ها. . . يا أبو عزيّز؟

ـ بس المغرب بعده ما وذّن يا شيخنا.

ـ يلزم نتحضر له يا أبو عزيّز، خاف يفوتنا!

وما كاد يجلس، حتى سأل ابن البخيت:

ـ ها. . . يا عبدالله شلونك؟ وبعد شلونك؟ وشلون أيامك، وشلون شايف الدنيا؟

رد ابن البخيت بمكر:

ـ لحظة والثانية، يا شيخنا، يأذن المغرب، وأنا أريد أتوضأ. فشنهو قولك نتوضا ونسولف؟

وقام الاثنان.

بعد أن انفض الجمع، وبقي أربعة أو خمسة أشخاص، واطمأن العجرمي، سأل:

ـ ها. . . يا جماعة الخير، شنهو اللي صار بالدنيا؟

قال ابن العليان:

ـ إذا جا الكفار خربت الديار يا شيخنا. . .

وبعد قليل:

ـ انلاصت يا أبو مشعل، صار سافلها عاليها، وإذا كان هذا أولها ما ينعرف شلون راح يصير تاليها.

وطال الحديث وتشعب، ولم يستطع أحد أن يقنع الآخرين، أو أن يدخل الطمأنينة إلى قلوبهم. وحين تقدم الليل قام العجرمي، قال وهو يودعهم:

ـ هذي موران ما ينحرز عليها. تسكت كثير، تحمل كثير، ومثل جمالها إذا لاحت برأسها ما ينعرف لوين تصل وشنهو اللي تسويه.

قالت زوجة عمير بنزق:

ـ وأبوه قبله، خريبط، ما خلى سجن إلا وقال له تزوره. وزار، وطالت زيارته، لكن آخرتها الله فرّج عليه، وطلع.

قال عمير بفخر:

ـ برجس ابني وأنا أعرفه زين، فخل فنر يجرب سلاحه، ونشوف!

ونتيجة هذه الأيام الثلاثة حدثت أشياء كثيرة في موران. قيل إن عدة طائرات ظلت على أهبة الاستعداد لمدة شهر كامل، وقد نُقلت إلى هذه الطائرات أشياء كثيرة. وأكد اثنان من العاملين في المطار أن غير هذه الطائرات اثنتان لم تتوقفا إلا لفترات قصيرة، لكي يتم استبدال الطواقم، وظلت تنقل خلال الأيام الثلاثة التي أعقبت محاولة الاستيلاء على الإذاعة.

كما سافر عدد كبير من أفراد العائلة السلطانية، خاصة من النساء والأطفال والصبية، ولم يعودوا إلا في نهاية فصل الخريف.

وقيل إن عدداً من الأمراء اختفوا تماماً، حتى مرافقوهم وحرسهم لم يعرفوا أماكن اختفائهم. ولوحظ أن أمراضاً غامضة ظهرت في القصور، وقد أُستنتج ذلك من عدد الأطباء الذين وصلوا تباعاً خلال الأيام الخمسة الأولى، وكذلك من وصول اثنين من الأطباء الأجانب تم استدعاؤهم على جناح السرعة. وأشار بعض الذين رأوا الأطباء يصلون، أن الأمر متعلق بمعالجة عدد من الجرحى وقعوا جراء مصادمات جرت في أكثر من قصر وفي أكثر من وقت، بسبب الخلاف، وظلت هذه الأمور أقرب إلى التوقع والتقدير، لأن التكتم الذي فرض منع من انتقال الأخبار الصحيحة.

ربما ينقضي وقت، وقد يكون طويلاً، قبل أن تعرف حقيقة ما جرى، وهذا ناتج عن الكتمان الشديد، والصمت، إضافة إلى الإجراءات اللاحقة. وإذا كانت العادة أن ينقل الخدم والحرس ما يجري في داخل القصور، وأن تعرف موران بوسائلها الماكرة، فهذه المرة بدا الأمر مختلفاً للغاية.

حتى حماد الذي استدعي من مقر سفارته في طوكيو، وقضى أسبوعاً في موران، ولم يره أغلب أفراد العائلة، لانشغاله معظم الوقت، فلا يستطع أحد أن ينقل عن لسانه خبراً أو تعليقاً، إذ بالإضافة إلى غيابه طوال النهار، واعتذاره عن تلبية الدعوات، فإن الذين رأوه لفترات قصيرة لم يسمعوا منه إلا أخباراً وتعليقات متعلقة باليابان. وهذا ولّد خوفاً لدى أقربائه المباشرين، أما حين سافر فقد تنفسوا ملء رئاتهم، لأنه بقي حياً!

ويونس شاهين الذي تعوّد أن يكتب مقالاً أسبوعياً، ويكتب أيضاً في حالات خاصة، ليعبر عن موقف هام للدولة، فقد بدت كتاباته في الأيام الأولى للأحداث مرتبكة، غامضة، رغم الكلمات الكبيرة التي استعملها!

قيل إنه قبل انقضاء عشرة أيام على الأحداث التي جرت، امتلأت سجون موران. امتلأت بالعسكريين والمدنيين، الكبار والصغار، وقيل إن عائلات بكاملها اعتقلت. خاصة من لهم علاقة أو معرفة بسند وإخوته، أو

بالطيارين. أما عمير الذي اعتقل بعد أسبوع من اعتقال ابنه برجس، فقد قال للرجال الذين جاءوا:

ـ البني آدم ما به طرف، وأنا محضّر روحي، ما هو من يوم أخذتم برجس، من سنين وسنين...

ابتسم بسخرية، وهو يضيف:

ـ والسجن هالحين ما هو مثل عين دامة، ذيك الأيام كنت وحدي، هالحين الخويا واجد، والزمن ينقضي: سوالف وتواريخ وحدّ سنون، إلى أن تنفرج.

أما صالح النذير الذي التقط بالقرب من سوق الحلال القديم، فلم يُعرف باعتقاله، إلا بعد أسبوعين. وقد عرف بالصدفة، إذ التقى به صالح ابن شمران العتيبي، أثناء نقله من سجن القلعة إلى السجن المركزي، وقد وضع صالح مبلغاً من المال بيد الشرطي الذي سلمه إلى السجن المركزي، وطلب منه أن ينقل رسالة صغيرة: تبلغ زيدان، صاحب فرن الأصدقاء، أن ابن النذير حي وموجود.

ومع الأمطار الأولى، وكانت أقرب إلى الوحل، بدت موران شديدة الحزن. وبدت أيضاً شديدة الحقد.

وإذا قال عدد من المسنين في السوق العتيق: باطن الأرض خير من ظاهرها، فإن السجناء كانوا أكثر مرحاً، وأكثر تفاؤلاً، وكانت لياليهم لا تخلو من ضحكات صاخبة، وغالباً ما تزعج الحرس، فتبدأ بعد الضحكات معارك الليل!

الأجانب الذين وصلوا بعد الأحداث الأخيرة كثيرون، لاحظ ذلك المقيمون بالقرب من فندق الرابية وفندق موران الكبير، ولاحظه أيضاً تجار السوق العتيق. أما أحد موظفي المطار، فقد همس في أذن قريب له، أن الذين وصلوا يفوق بعدة أضعاف من بقي منهم في موران، لأن الكثيرين ذهبوا مباشرة من المطار إلى مدن أخرى، أو إلى معسكرات الجيش. أما لماذا جاء هؤلاء الأجانب، ومن هم، وإلى متى سيبقون، فقد تضاربت التفسيرات والتقديرات إلى أقصى حد.

ولما كانت موران، مدينة المال والصمت والانتظار، وتخشى الغرباء منذ وقت بعيد، فقد تعلمت كيف تبقى رصينة، لا يظهر عليها ما يعتمل في داخلها، ولا ما تفكر فيه، وتعلمت أيضاً أن تقوم بواجب الضيافة تجاه هؤلاء، حتى إذا تأكدت من الأسباب التي دفعتهم للمجيء، تتصرف وفق ما تمليه عليها أخلاقها وعاداتها. الذين جاءوا بحثاً عن الرزق الحلال، وكان لدى موران ما تعطيه، لا تتردد في أن تفعل. لذلك فإن عدداً كبيراً من الغرباء الذين جاءوا في يوم من الأيام إلى موران، من أجل الرزق أصبحوا أبناء لهذه المدينة، لا يعرفون غيرها، ولا يفضلون غيرها عليها. وبمرور الوقت اكتسبوا عادات المدينة وملامحها. أما الذين جاءوا لأسباب أخرى فقد كان لدى موران من القوة النفسية والعناد ما تجعلهم يتركونها دون أسف، ودون تفكير بالعودة إليها مرة ثانية.

كتب عنها أحد الصحفيين الإنكليز: «. . . وموران مدينة عجيبة، انها تشبه الصحراء بكل تفاصيلها وأخلاقها، أو بالأحرى تلخصها. فهي قادرة على استقبال كل شيء، وهضم كل شيء، تماماً مثل النعام، لكنها تعرف

كيف تتظاهر بالصمت والسكينة، حتى إذا جاءت لحظة الغضب لا تبقى ولا تذر».

ليس مهماً كيف يرى الغرباء مدن غيرهم، أو كيف يقيّمون عاداتها وأخلاق أهلها، إن هذا يحتمل عدداً غير محدود من التفسيرات والاختلاف، لكن أن تبدو المدينة بنظر نفسها وكأنها ليست هي، أو لا تشبه ما كانته بالأمس، أو ما ستكونه غداً، فإن في الأمر ما يستعصي على الفهم.

لا يمكن الزعم أن الحالة الجديدة بدأت أو تكاملت بوصول الأجانب، فأمثال هؤلاء وجدوا في فترات متعددة، وإذا كانوا قد سبّبوا قلقاً، فإنه لم يصل إلى درجة الخوف، واستطاع أهل موران، وإن ببعض الصعوبة، أن يتعاملوا معهم، لقناعتهم أنهم عابرون، ولن يبقوا طويلاً. وإذا تساهل الناس أو تناسوا وجودهم، فإن الطبيعة تتولى المهمة نيابة عنهم. فما يكاد يدخل الربيع، وتقبل موجات الدفء اللذيذة العذبة، ويتوهم الأجانب أنهم وجدوا المكان الذي كانوا يبحثون عنه، فيبدأ الكثيرون منهم يخططون لإقامة طويلة، أو حتى للبقاء نهائياً، إلا ويحدث شيء لم يخطر ببال، أو ربما غيّبه خدر الربيع وعذوبته. فجأة تهب الرياح الساخنة، ثم تتلوها موجات الغبار، فتضيق الأنفاس ويعتكر المزاج، فإذا جاءت رياح الخماسين، وصادف ذلك سنة محل، فعندئذٍ يحس هؤلاء الغرباء أنهم جاءوا على أرجلهم إلى الجحيم، فتتعالى في صدورهم، مع موجات السعال الشتائم وتقريع الذات، ثم الرغبة الجامحة بالرحيل.

لقد حصل ذلك مئات المرات. لذلك فإن أهل موران، وهم يبدون وداً ظاهراً تجاه الغرباء، يعرفون ان هؤلاء أن بقوا اليوم فلا بد أن يرتحلوا غداً. وهذا ما يجعل الخشية من الأجانب لا تصل إلى حدود التطير أو الخوف.

لكن موران هذه المرة كانت مختلفة. ما كادت ترى أفواج الغرباء، وتسمع بأخبارهم، حتى هاجت في القلوب ذكريات موجعة: أيام الطاعون، وسنين الجراد، والرياح الصفراء، وكل شيء آخر يذكر بالموت

أو يوحي به. ترافق ذلك مع الأخبار التي أخذت تزيد يوماً بعد آخر عن المحابيس الذين تتضاعف أعدادهم، وعن الأشخاص المطلوبين، والجوائز السخية لمن يرشد إليهم، أو يعرف شيئاً عنهم. وعن العائلات التي قبض على جميع أفرادها، ولم يعرف أين أخذت أو ماذا حصل لها.

وموران التي تعودت خلال السنين أن تواجه المصاعب والأحزان بالصبر والسخرية، أو بأن يرتحل بعض أبنائها، فلا يُعرف أبداً كيف اكتشفت سلاحاً جديداً، بدا ينظر الكثيرين أقوى وأشد مضاء: الصمت.

حتى الذين غابوا من أهل المدينة عن موران فترات قصيرة، ثم عادوا، فوجئوا أن مدينتهم تغيرت. لم تعد مثلما كانت. صحيح أن الأحداث التي جرت أثرت على الكثيرين، وجعلتهم على الأقل يتساءلون، ولذلك يمكن فهم جزء من التغير الذي حصل في مزاج الناس، لكن أن يبلغ الأمر هذا الحد من التواطؤ والاتقان، وأن يغلف المدينة كلها الصمت الثقيل، فقد دفع معظم الذين وصلوا حديثاً إلى الحيرة ثم إلى الخوف.

وأن يترافق ذلك أيضاً مع وصول أعداد كبيرة من الأجانب، فلا بد أن يكون الأمر مختلفاً عن أي فترة سابقة، ومختلفاً عن أية حالة قد تشابهها.

إنه الصمت، في الأسواق، في البيوت، في المساجد، وهو صمت مضني شديد الوطأة.

كتب زائر أجنبي: «وأغرب شيء في هذه البلاد أن الناس لا يتكلمون، أنهم كالسلاحف، يغرقون في قواقعهم ويصمتون، ووحدها عيونهم التي تتكلم. وحين تتكلم العيون فإنها تقول أشياء خطيرة، أقرب إلى الحرائق. حتى الباعة في الدكاكين، إذا وافقوا على أن يبيعوك حاجة تطلبها، فإنهم يشيرون إليها، طالبين، دون كلمة، أن تأخذها بنفسك. ولا يمدون أيديهم لتضع فيها الثمن، يشيرون إلى الطاولة، وعليك أن تمتثل لكل ما يطلبون. ومن أغرب الأمور التي صادفتها أنني كنت أمد يدي لكي يضع فيها البائع بقية الفرق بين القطعة النقدية التي دفعتها وثمن السلعة، فنحى يدي، ووضع النقود على الطاولة، كان يعتبر أن ما يفعله طبيعياً إلى أقصى حد.

«أما أن يمتنع البائع عن بيع سلعة موجودة لديه، ويهز رأسه دلالة عدم وجودها، وأنت تراها بعينك، فإن هذا لا يمكن أن تصادفه في غير موران».

ليفي شاوات الذي طُلب منه المجيء لبحث صفقة سلاح جديدة، كان متحمساً لهذه الزيارة، فهو يريد أن يرى الأمور بنفسه وعلى الطبيعة، بعد أن قرأ عدداً من التحقيقات والمقالات عما جرى، خاصة وإن إحدى النشرات المتخصصة، والتي توزع على نطاق محدود، أشارت إلى الهزة الكبيرة التي حصلت، وحذّرت رجال الاعمال، لأن هذا الإنذار يقتضي إعادة دراسة الكثير من المشاريع وإعطائها أولويات جديدة، على ضوء ما وقع وما قد يقع.

جاء ليفي وجاء معه أيضاً غزوان وإليانور. وبدا واضحاً أنهم تعمدوا المجيء معاً من أجل تقدير الموقف، ولكي يكونوا قادرين على اتخاذ القرار المناسب، دون تردد ودون تأخر.

وإذا كانت عادة ليفي، منذ وقت مبكر، أنه لا يحب الكلمات الكبيرة، مفضلاً عليها الكلمات الدقيقة، ولا ينظر باطمئنان إلى الرجال الذين يؤثرون أن ينتهوا من قضايا العمل بسرعة، لكي يلتفتوا إلى شؤون الحياة، كما عبر عن ذلك مرة الأمير مساعد، فإنه الآن في مرحلة إعادة النظر، وهذا ما دعاه، وبدافع ماكر، أن يقترح على غزوان اصطحاب إليانور!

كيف يمكن أن يتغير البشر والأشياء بهذه السرعة؟

حتى وقت طويل، ربما يبقى ليفي عاجزاً عن الإجابة. فالأشخاص الذين عرفهم في أوقات سابقة، في موران وسان فرانسيسكو، بدوا له، وهو يلتقيهم من جديد، أنه يتعرف عليهم لأول مرة. صحيح أن شبهاً ما زال موجوداً، لكن كالشبه بين الثمرة والشجرة، بين قطرة الماء والنهر الكبير. وما عدا السلطان، وقد التقى ليفي وغزوان وحدهما، ولم يجد الاثنان ضرورة أو أهمية لوجود إليانور، التي انشغلت، أو تظاهرت بالانشغال مع أم غزوان. السلطان وحده لم يتغير، إلا بقدر ما يخلّف

الزمن من آثار، تبدو أحياناً حادة، وربما زادتها وضوحاً وحدة، كما قال ليفي لنفسه، الأيام الصعبة التي مرت. كان السلطان واثقاً وهادئاً، رغم الحذر الذي يمكن أن يكتشفه الزائر، من خلاله نظراته السريعة، وردود فعله المتوترة. لقد استقبلهما للتعبير عن الاهتمام والود، أكثر مما يريد أن يبحث معهما تفاصيل صفقة السلاح الجديدة.

أما الآخرون، جميع الآخرين، مع تفاوت جزئي، فقد بدوا له مختلفين عما كانوا عليه، أو كما عرفهم، حتى ضحكات مساعد الصاخبة كانت للتمويه، وتخفي خوفاً أكثر مما تظهر فرحاً. أما حين شاركت إليانور قبل أن ينتهي الاجتماع، لتسجيل النقاط الرئيسية، فقد تغير. أصبح أكثر ارتباكاً، وكأنه تلميذ في امتحان صعب.

وإذا كان لا بد من الإشارة إلى الأشكال، فالأمراء يجمعون بين ميزتين: الطفولة والأنوثة معاً. يحبون الدلال والإطراء، ويميلون إلى الأخذ باقتراحات الآخرين، خاصة من حيث اللباس والزينة. راكان غيّر شكل لحيته ومدّ شنبه قليلاً، وأصبح أكثر ميلاً للألوان الكامدة، ربما ليعطي نفسه بضع سنين إضافية، لكي يدلل من خلالها على تقدمه عن أخوة آخرين أكبر منه سناً. أما مشهور الذي سُمي في التغيير الأخير نائباً لوزير الدفاع، وقد حضر معظم الاجتماعات، فكان حائراً في اختيار الملابس التي تلائمه، أو التي يعتبرها أكثر جدارة بالمنصب الجديد. فبين الملابس العسكرية والملابس التقليدية، والتي تتغير عدة مرات خلال اليوم الواحد، كان أقرب إلى الضياع، وربما تشغله هذه المسألة عن كل ما عداها!

ويمكن أن يقال الشيء ذاته عن عدد آخر من الأمراء، الكبار والصغار. أما التغيرات في الأجسام والتصرفات فإنها تحتاج إلى إمعان، وإلى عين خبيرة لتلاحظ الفرق. فالأيدي وهي ترتجف قليلاً، خاصة في اللحظات الدقيقة، والهالات الزرق حول العيون، وتلك الضحكات العصبية، وتغير نبرة الصوت، ولا يهم أن تكون أقوى من قبل أو أضعف، لكنها تغيرت، ثم الحراسات المشددة، والأجهزة الجديدة التي وضعت في أمكنة عديدة، وبمبالغة ظاهرة، ولا بد أن يكون وراء الأمر إحدى الشركات اليابانية

المهتمة بمثل هذه الأجهزة! ثم التوصيات التي يهمس بها بصوت خفيض للمساعدين، ولا يُعرف عن أي شيء تدور... كل هذه المظاهر والتصرفات تدل بوضوح أن أمراً خطيراً وقع خلال الفترة الماضية.

أما أكثر شيء فاجأ ليفي شاوات فالناس والمدينة. أصبح الناس أقل بكثير في الشوارع مما كانوا، رغم أن الصباحات وساعات الغروب في مثل هذه الأيام مغرية جداً، وقد حرص ليفي، ربما نتيجة أكل المآدب، على التمشي نصف ساعة في الصباح، ومثلها عند الغروب، ولفتت نظره ظاهرة قلة الناس، أو حتى غيابهم. أما محاولاته لتحسين لغته، وهي عادة لازمته منذ وقت طويل، ولا يترك فرصة إلا ويستغلها، فقد قوبلت، هذه المرة، بالسخرية والاستغراب. فموظف الفندق العربي، الذي يبدأ في الحادية عشرة ليلاً، ويبقى حتى السادسة صباحاً، كان يرد على استفسارات وأسئلة ليفي بالإنكليزية، وحين ظهرت دلائل الاحتجاج على ليفي، أكد له ذلك الموظف أنه لا يفهم معظم الكلمات التي يقولها!

والمدينة ذاتها تغيرت ليس من ناحية المباني أو الميادين، وإنما من ناحية الجو السائد. فنقاط الحراسة والتفتيش التي أقيمت في عدة أماكن، وتغيير اتجاه السير، أو منع المرور في شوارع معينة، إضافة إلى الجنود المسلحين الذين يقفون عند تقاطع الطرق، أو لحراسة المباني العامة والقصور، لفتت نظر ليفي، وأثارت قلقه، ثم تساؤلاته.

لو جاء وحده في هذه الزيارة لندم ولام نفسه، فقد كان غزوان ليس مجرد شريك، كان صديقاً، وعوناً، وشارحاً للكثير من القضايا التي يستعصي على الغريب أن يفهمها بسهولة. كما كان عيناً تدخل إلى أكثر الأماكن سرية وعتمة، وأذناً تلتقط كل شيء. لذلك لم يضع ليفي في هذه التفاصيل، التي قد تعني زائراً غيره، وربما تفيد المؤرخ أو الصحفي، أو حتى بعض القناصل، وهم يكتبون إلى دولهم! ما بدا له أكثر أهمية، كمحصلة، أن يتلفت إلى الطلبات والأعمال التي جاء من أجلها. ولكي لا يقع خطأ قد يندم عليه، فإن تفكيره انصب بالدرجة الأساسية على الأسعار أولاً، ثم على شروط الدفع، من حيث ما يترتب دفعه معجلاً، كثمن

للصفقة، وما يتطلبه المؤجل من ضمانات. وبهذه الطريقة تم إنجاز صفقة، كما وصفها لغزوان، في الليلة الأخيرة:

ـ صفقة العمر.

إلى جانب هذه الصفقة تمت أعمال أخرى، جاءت عرضاً. حتى إليانور، التي انشغلت مع أم غزوان، وبدا لها أن هناك أموراً كثيرة يمكن أن تنجز على هامش العمل، أو بين عملين، فقد قالت، باعتزاز، وهم في طريق العودة:

ـ لقد أنجزت أول صفقة في حياتي، خلال هذه السفرة.

وأخذت تشرح لغزوان وليفي، كيف تم الاتفاق بينها وبين وداد الحايك، على فتح عدة محلات، أولاً في موران، ثم في مدن أخرى، لمستحضرات التجميل وللأزياء. كان الاقتراح، أول الأمر، من وداد، أم غزوان، وكان بدائياً وبسيطاً، إذ اقترحت أن ترسل لها، أسبوعياً، حقيبة، تحتوي على حرائر وكنزات كشمير وبعض الشالات، وهذه الحاجات يمكن أن تباع بطريقة ما، ولم يكن الأمر واضحاً. أما حين تحدثت المرأتان طويلاً، وكان كمال مترجماً جيداً هذه المرة، وبدا متحمساً، فقد تبلورت الاقتراحات إلى هذه الصيغة، وتم الاتفاق على أن يبدأ المشروع خلال بضعة أسابيع، وأقصى حد شهرين أو ثلاثة شهور. وقد تعهّد كمال أن ينجز الأمر خلال فترة أقصر!

صفاء، «الحاضر الأبدي»، كما أطلق عليه مرة ليفي شاوات، كان أيضاً في هذه الزيارة حاضراً ونشيطاً، وكان مفيداً أو «لا غنى عنه» كما قال الأمير راكان. الدفتر الأخضر لا يفارقه لحظة واحدة، كان سجلاً كاملاً ودقيقاً لكل شيء: للأسماء، وأرقام التلفونات، والمواعيد، إضافة إلى أرقام الشيكات وتواريخ استلامها ومواعيد استحقاقها، أما عناوين الشركات، وأسماء المسؤولين، فقد عوّد نفسه منذ وقت طويل على حفظها، ولذلك فإذا سجلها فمن الباب الحيطة والدقة.

كان صفاء في معظم اللقاءات. حتى اللقاء بالسلطان الذي لم يحضره، قام أولاً بتوصيل غزوان وليفي إلى تشريفات القصر، ثم عاد ليصطحب

إليانور للقاء أم غزوان، ولكي يتولى الترجمة بينهما. أما بعد ذلك فقد حل كمال مكانه.

الأحداث التي وقعت في الفترة الأخيرة كشفت لصفاء نفسه، قبل الآخرين، إنه لا يحب جواً مثل هذا. فهو أميل إلى الاستقرار، إلى الهدوء، أما أن يكون مصيره، أو حياته، عرضة لهذا الجنون، بغض النظر عن أي طرف فإنه لا يجد في أعماقه هذا الميل. قال لنفسه: «أنا لست جباناً، ولكن لا أريد أن أموت دون معنى، وفي هذا المكان». صحيح أنه يعترف، في لحظات قليلة، بالخوف، لكن يعتبر أن هذه حالة إنسانية، وكان يحلو له، أن يردد: «اللي ما بيخاف ما بيخوف» ولا يعرف لماذا كان يقول هذه العبارة، أو ماذا تعني له بالضبط.

فرح كثيراً أن كل المحاولات التي جرت في موران انتهت إلى الفشل. لا يحمل حقداً على الطيارين، ربما لا يعرفهم، صحيح أنه زار الريمان عدة مرات، خاصة مع أسراب المسعفات، وتناول العشاء والغداء هناك مرات عديدة، سواء في المطعم الأرضي أو مطعم الطابق الأول، وتعرّف على عدد من الطيارين، لكنه لا يتذكر أياً من الأسماء التي سمعها بالإذاعات أو قرأها بالجرائد. حتى المؤتمر الصحفي الذي عقده الطيارون، وظهرت صورهم في ذلك المؤتمر، وبعد أن تمعن طويلاً بالصور، ودقق بالملامح، لم يتعرف على أي منهم.

أما الأمراء الذين فروا، أو التجأوا، تمهيداً للزحف نحو السلطنة، لتخليص البلاد من الاستبداد، فإنه يعرف اثنين منهم. لا... إن كلمة «يعرف» فضفاضة، لقد التقى بهما في حفلة طرب ضمت الكثيرين أيضاً. ولذلك لا يدعي أنه يعرفهم.

عمير، هذا الذي كان يتردد اسمه كثيراً في موران، من الأمراء بسخرية، ومن الآخرين بمهابة وخوف، ترك في نفسه انطباعاً خاصاً بالتقدير، فلم يصدق ما يقال عن جنونه، أو هوسه. وباعتبار أن لدى صفاء من الأشغال والاهتمامات الكثير، فإن هذا الاسم بقي بالنسبة له مجرد اسم. الآن، بعد أن اعتبر ابنه برجس مدبراً لمحاولة انقلاب، وأنه هجم

على الإذاعة، لتكون البداية ونقطة انطلاق، وفشلت هذه المحاولة، ثم اعتقال عمير ذاته، وعدد من أفراد أسرته، بدا له أن ما قيل لا يمت إلى الحقيقة بصلة، فكيف يفسر سلوك ابنه، والآخرين الذين كانوا معه؟

بإيجاز، «صفاء لا يحب هذا الجو». هذا ما قاله لنفسه. وقال أيضاً «لا تنام بين القبور. . .» ولم يتذكر الباقي. وليغيّر مزاجه قال: «حين يصبح الإنسان غنياً يصبح قوياً».

ووتيرة العمل، وطبيعة العلاقات والجو، لا تترك للإنسان أن يسترسل كثيراً في الأحلام والأفكار، ولذلك فإن النسيان أحد المزايا التي يتمتع به البشر، وهكذا نسي صفاء، في زحمة العمل، كراهيته لموران والخوف والأحلام.

وموران تتغير، يتراكم صمتها، تسمع كثيراً وتصمت. ووتيرة الحرب تتصاعد، على الأقل في الإذاعة، وتغطي على كل ما عداها.

الأمراء الذين اختفوا فترة من الزمن عادوا إلى الظهور. الأجانب الذين جاءوا للتحقيق، لإعادة تنظيم الجيش، لإقامة أجهزة جديدة، لوضع أنظمة حديثة لحراسة القصور، لإعادة تخطيط موران، واصلوا العمل ليل نهار. سافر بعضهم. جاء غيرهم. توصلوا إلى نتائج معينة. دققوا بهذه النتائج هنا وهناك، ثم قدموا توصيات. بقي بعضهم وجاء غير الذين سافروا.

الحرب بين السلطنة والدواحس لا تقتصر على القنابل العمياء. اشتركت معها كلمات من نفس النوع، أو ترى قليلاً. الناس يسمعون يصمتون. السجون تمتلئ، تحمل الزائرين سيارات ثم تختفي. وتختفي معها أخبارهم. الجوائز التي ستدفع للذين يبلغون عن بعض الهاربين تزداد ثم تتضاعف مرة واثنتين. الخريف الذي بدأ موحلاً شارك الناس الصمت، إذ لم تعد ترى في السماء غيمة، ولا تسمع خفقة ريح. الجوع الذي كان قليلاً وبعيداً، أخذ يزداد ويقترب. السلطان الذي لا يعرف إن كان مريضاً أو بصحة جيدة، إن كان موجوداً أو غائباً، شارك أهل موران الصمت، فلم يتكلم ولم يعرف عنه أي شيء.

قال أوكلي لآمر قاعدة الريمان:

ـ أريد أن أرى مسؤولاً من الشركة العالمية اليوم قبل الغد.

وحين جاء صفاء، نظر أوكلي إليه بغضب، انتفخت عروق رقبته، وقال بعداء:

ـ ليست مهمتنا أن نغير العالم، هذه المهمة لغيرنا. مهمتنا الوحيدة أن نلقي القنابل حسب الخرائط، وأن نتقاضى أجوراً تتناسب مع هذا الجحيم. وحسب الاتفاق، بين غارة وأخرى، أن نلتقي بامرأة تخفف الموت الذي نعيشه في هذا الجو الذي لا يطيقه حتى الخنازير.

وبعد مناقشات هادئة مرة وحادة مرة، لخص أوكلي الطلبات:

١) زيادة الرواتب إلى الضعف، أسوة بالفوج الذي وصل مؤخراً.

٢) استمرار زيارة الفتيات، وبمعدل مرة أسبوعياً، خاصة وأن فصل الشتاء بدأ يقترب.

ولم تتأخر الموافقة على الطلبين. التعديل الذي حصل أن أصبحت الفتيات يصلن إلى مطار الطريفة، ومن هناك ينتقلن إلى استراحة، في جبل المبرد، كانت ذات يوم قصراً من قصور السلطان خريبط، وإلى هناك ينتقل أفراد القاعدة على ثلاث وجبات، فيبقى الفوج يوماً وليلتين ويعود، ليحل مكانه فوج آخر.

وما كاد يتقدم الخريف قليلاً، وتنكسر حدة الحرارة، حتى بدا أن الأمور اقتربت أن تعود إلى حالتها قبل الأحداث.

كاد ينقضي الخريف ويبدأ الشتاء. الحرب تراوح مكانها، الغارات تتكثف أسبوعاً وتتراجع في الثاني. البدو تأخروا كثيراً، رغم مضاعفة الرواتب وزيادة الأرزاق والملابس. قصر السعد غارق في حركة لم يستطع أحد أن يقدر احتمالاتها، وإلى ما ستؤدي. الأمراء الكبار ينتقلون من مكان إلى آخر سراً، أو في مواكب من الحراسة المشددة. السجناء الذين كانت تسمع أخبارهم بين فترة وأخرى، لم يعد أحد يسمع عنهم أي شيء. يونس شاهين، بعد العصبية التي ميّزت كتاباته خلال الفترة اللاحقة للأحداث، بدا أكثر ثقة وتحدياً: «لا يفل الحديد إلا الحديد، وعلى الباغي تدور الدوائر».

موران التي ظلت عيوناً تراقب وآذاناً تتنصت، أصيبت بالدوار من اضطراب الحركة وتشابكها. لم تكن موران حائرة، وفاقدة القدرة على التمييز كما هي الآن. الصمت الذي انتصب مثل جدار طوال الشهور الماضية، اعترته الشقوق.

الأجانب، خاصة من الأميركيين، الذين كانوا يحرصون على عدم الظهور، وإذا اضطروا، كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر بالملابس المدنية، ما لبثوا أن تخلوا عن الكثير من التحفظ والقيود. أصبحوا أكثر ميلاً للتجول في الأسواق بملابس الميدان، وفي ممازحة الباعة في السوق العتيق؛ أما هواية التقاط الصور، خاصة في الأماكن العامة ومع الأشخاص، لكي يتميز المكان الذي هم فيه، وإرسال الصور إلى الأهل والعشيقات، هذه الهواية التي ترددوا في ممارستها خلال الأسابيع الأولى، ما لبثت أن أصبحت الشغل الشاغل للكثيرين.

وتأخر المطر هذه السنة أيضاً، نظر المسنون إلى السماء وهزوا

رؤوسهم. التجار الذين صبروا وانتظروا، وتوقعوا أن يعوضوا ما فاتهم من ربح بعد زيارة شيوخ البدو، من جامعي النقود الصغيرة، إذا اطمأنوا أن السنة ستكون سنة خير، أو إذا عضهم الجوع، ما عادت صدورهم تحتمل هذا الصمت كله. قال الزويعي:

ـ موران تحتمل شهر، اثنين. أما أنها تحمل الله وعبيد الله فهذا فوق ما تقدر!

أما سعيد الأسطة الذي بعث ابن أخته ومعه شخص آخر، بمجرد أن سمع بقرب دعوة شيوخ البدو، وطلب أن ترسل، وبالطائرة، كميات كبيرة من نوعية السلع التي باعها في السنة الماضية، وحين تجمعت تلك السلع في محلاته الثلاثة، وفي المخازن، ولم تتحرك، فقد قال بنزق كاد يخرجه عن طوره:

ـ والناس يشترون، يا جماعة الخير، إذا كانوا مرتاحين وبالهم فاضي، أما إذا دخلت السياسة بالتجارة، والواحد ما هو مؤمّن لا على عيشته ولا على حياته، لا بالله يضم فلوسه بعبّه ويقول: إلى أن الله يفرجها.

أما صالح المطوع الذي أصبح وكيلاً لعدة شركات يابانية، وفتح معرضاً من أكبر معارض الأدوات الكهربائية في موران، وقد وصل لتصميمه وتنسيق معروضاته اثنان من اليابان، فقد بعث بثلاث برقيات في غضون أسبوعين، يطلب تأجيل إرسال البضائع، إلى حين الطلب. وحين اتصل به رضائي ليسأله عن حالة السوق، فقد رد بسخرية:

ـ البدو المساخيط اللي كان دينهم ومعبودهم الترانزستور، وكان الواحد منهم يجوع حتى يشتريه، تراهم اليوم يقسّمون على الربابة وما يريدون بضاعتنا.

رضائي له رأي مختلف، اعتبر الركود أمراً طارئاً، ولا بد أن يتحسن السوق إذا عرضت بضائع جديدة، لذلك أخرج بعض ما كان في المخازن، ووافق على تسهيلات أكبر مما تعود عليها في بيوع التقسيط. لقد فعل ذلك بدافع تنشيط السوق، وللرد على ابن العليان الذي تحداه قبل فترة في شروط بيع السيارات.

المسنون الذين كان يروق لهم أن يذهبوا إلى المساجد قبل مواعيد الصلاة بفترات طويلة، كانوا، في وقت سابق، يتجنبون الحديث في أمور الحياة الدنيا، لأنهم يعتبرون أن ذلك لا يليق بالمكان ولا بأعمارهم، وإذا تطرقوا إلى شأن من هذه الشؤون، فإنهم يتكلمون أو يسألون بشكل عام، ما عدا حالة واحدة: انحباس المطر، عند ذاك ينتابهم الخوف ويسيطر عليهم الضيق، لأنهم يعتبرون ذلك مظهراً من مظاهر الغضب، وعلامة على أن الأمور وصلت حداً لا يحتمل السكوت.

قال المسنون في المساجد، وهم يتذكرون أموراً كثيرة: «إذا زاد الفساد، وفسق العباد، واستبد الحكام، فلا بد عندئذٍ من العقاب» وقالوا: «إذا نام الراعي أو جار، خربت الديار». وقالوا: «من يوم ما جاء، بلشت السبع العجاف».

وقصر السعد تظل أضواؤه مشتعلة الليل والنهار، وحراسه لا يغفلون لحظة واحدة. الحركة فيه وحواليه لا تهدأ، لكن صاحب القصر لا يتكلم ولا يظهر. حتى صلاة منتصف شعبان، وكانت مناسبة للصدقة وإظهار المودة ونسيان العداوات، لم يحضرها. بعث راكان نيابة عنه. ولم توزّع الصدقات، ولم تُنس العداوات. فقال عدد فمن حضروا الصلاة: «لا هو حي فيرجىٰ ولا هو ميت فمن، وأقسى أشكال الممات: الموت في الحياة، وإنّا لله وإنا إليه راجعون». وأدوا تلك الصلاة وهم أكثر هماً وأشد حيرة.

عندما هبت الرياح الزرقاء في نهاية الخريف، كانت لجان التحقيق قد انتهت من أعمالها، وقدمت تقاريرها لرؤسائها، وبعد أن دُققت ثم عُدّلت هذه التقارير رفعت إلى السلطان، أما البدو الذين تأخروا، فلم يجدوا مفراً، بعد أن انحبست الأمطار، من العودة إلى الحرب. صحيح أن التأخر كان نوعاً من الاحتجاج على الشيوخ وعلى الحكام، لكنه كان أيضاً لإعادة القسمة فيما يستحق لهم وما يستحق للشيوخ. وهكذا بدأت أفواجهم تصل تباعاً إلى مناطق الحدود. استغربوا كثيراً حين مروا بالجريفة، ثم بمشعان، أما حين خيموا في حومة الوادي، باعتبارها المحطة، فقد صرخوا من أعماق القلوب وهم يشهدون الآثار: «الله أكبر». ولم يتأخر رجال السلطان

كي يقولوا لهم أن طائرات الدواحس هي التي فعلت كل ذلك. كانوا يريدون أن يحرضوهم، لكن مع التحريض تولد الخوف، فتساءل الكثيرون: «الحدود إذا كانت هنا أو هنا ما يتغير شي، لأن الجماعة، بالجهتين، قرابات ونسايب، وحرام أن الواحد يقتل خويه، اللي هو صورته ومثله، على شي هو لمالك الملك».

قريباً من العبيلة، لكن دون المرور بها، وعند عين دامس، التقت طلائع القوات الآتية من موران والعوالي. كان يفترض بهذه الطلائع أن تجهز المخيمات وتعدّ كل ما يلزم، حتى إذا وصلت القوات، تقام الاحتفالات الكبرى، قبل أن تبدأ كل مجموعة بأخذ مواقعها على الحدود.

ولأن القوات كانت بطيئة في سيرها، فقد كان هناك متسع من الوقت لأن يسأل أهل العوالي أهل موران عن الأمطار والأسعار والأخبار، ولأن يفعل أهل موران مثل ذلك.

قال أحد أقرباء عمر زيدان، في الليل المتأخر، لاثنين من بدو موران، وقد سألاه عن الأسباب التي دعته للالتحاق بالقتال:

ـ لي عم، ولا بد أنكم سمعتم باسمه، اسمه عمر زيدان، أكبر مغني في العوالي، حاول أن يعلمني الغناء، جرب معي كل حيلة، لكن رقبتي ورمتْ وصوتي ما طاب، فقال لي: «يا ولد أنت ما تصلح لشي، فرّح مُت». وهاني جيت...

وضحك بصخب لأن النكتة أعجبته أكثر مما أعجبت اللذين يحدثهما. وبعد فترة صمت، أضاف:

ـ وعمي مع الغناء والطرب يقرأ علوم السابقين، وقال لي: أنا قريت تواريخ العرب، والعجم، الهند والسند، وأريد أفهم هذه الحرب وما فهمت، فرِح يا ولد عساك، إذا عشت، ورجعت تقول لنا: شنهي.

وضحك أكثر من قبل، وكأن أحداً يكركره، ثم صمت، وصمت رفيقاه. ولما امتد الصمت غنى:

«ودعتني يوم الفراق وقالت ... وهي تبكي من لوعة وفراق
ما الذي أنت صانع بعد بُعدي ... قلت قولي هذا لمن هو باقي»

ما كاد يغني هذين البيتين حتى أجهش بالبكاء، كان بكاء حاراً موجعاً. ظن رفيقاه، أول الأمر، أن به خبلاً، وقد نظرا إلى بعضهما بتساؤل ساخر، أما حين استبد به البكاء، فقد شعرا بالحزن، وبذلا جهداً إلى أن هدأ، ولما اطمأنا، قال واحد منهما:

ـ يا ربع ورانا باكر شغل، الله أكبر، فخلنا، هالحين، ننام، حتى نقدر نسوي شي إذا أصبحنا.

الاحتفالات التي أقيمت أدهشت الكثيرين، لأنهم لم يشهدوا كرماً مثل هذا منذ سنين طويلة. كان الرجال في حلقات، حول المناسف، يأكلون ويتذكرون الذين خلّفوهم وراءهم. عشرات منهم تمنوا لو أن الأهل غير بعيدين، إذن لحملوا لهم شيئاً من هذا الأكل. أما حين بدأ القصيد، على ضوء النار الخافتة، فقد أثار من الأحزان والذكريات أكثر مما أثار من الحماس. وكلمة الأمير مساعد، وكانت نصف محفوظة، إذ قضى الأيام الأخيرة في قاعدة الريمان، وكان معه عدد من معاونيه، وردد الخطبة ذاتها على مسامعهم سبع مرات خلال يومين. وحين بدأ بإلقائها، في جو من الصمت والجلال، ارتبك كثيراً. التفت عدة مرات، وكأنه يستنجد بأحد. أما بعد فتح الله عليه، وتذكر المطلع، فقد بدا وكأن في داخله شخصاً آخر هو الذي يتكلم! وقبل أن ينتهي بدقائق قليلة، وكان يفترض أن يردد ثلاثة أبيات من قصيدة اشتهرت أيام أبيه، لكنه نسي بداية البيت، فالتفت إلى أحد رجاله، وكان حاضراً التدريبات كلها، وسأله:

ـ وأنت، يا محمد، تتذكر القلوص، فشنهو اللي قاله صاحبنا!

وذكّره، لكن بدل أن يستمع الناس إلى الأمير مساعد، وهو يردد تلك الأبيات، فقد بدأ الكثيرون بترديدها، مما خلق جواً هو بين الألفة والمرح، ونسوا الأمير والكلمات التي يريد أن يختم بها، فاكتفى بذلك، وقد كثرت التعليقات والابتسامات.

قبل أن تتحرك القوات، لتأخذ مواقعها، وبعد أن قسمت إلى مجموعات، وصل عدد من ضباط السلطنة، ومعهم عدد من الأجانب. وأثناء إعطاء التعليمات الأخيرة حول المواقع وساعة الحركة، تساءل البدو

وسألوا عن هؤلاء الذين لم يروهم من قبل ولا يعرفون لماذا هم موجودون. بدأت تتوالى الإجابات، همساً، أن هؤلاء جاءوا للمساعدة. فإذا عجزت الألسنة عن أن تقول كل شيء، فقد عاضت عنها العيون وتعابير الوجوه. قادة المجموعات الذين سمعوا، وقيل لهم من قبل، أبدوا حزماً مبالغاً فيه ليقطعوا دابر الأسئلة، وليعيدوا إلى الصفوف انتظامها، لكن، مع ذلك، أفلتت كلمات كثيرة: «لا بالله حنا بألف خير ما دام الخويا معنا» «أنا وأخوي على ابن عمي، وأنا وابن عمي (ويشيرون بطرف العين إلى هؤلاء الأجانب) على الغريب» «أبشروا يا الدواحس، والله لنخلي عجاجكم يسبق ضراطكم. . . وتشوفون».

وبسرعة وبحزم تصرف قادة المجموعات.

الطائرات التي حوّمت فوق المعسكر في عين دامس لم تعرف هويتها على وجه التأكيد، لذلك ولدت الكثير من الحذر الأقرب إلى الخوف، ربما تعمد قادة المعسكر، بعد ردة الفعل التي لمسوها نتيجة وصول الضباط والأجانب، أن يتركوا الأمر ملتبساً، إذ دوى البوق في بداية المعسكر وفي مؤخرته، وصدرت أوامر عاجلة بالانتشار. وبالغ بعض قادة المجموعات، نتيجة الاجتهاد وعدم المعرفة، إلى إصدار أوامر بأن يكون الجميع في حالة الجاهزية الكاملة، وأخذ وضعية القتال.

أما الأوامر اللاحقة بضرورة التحرك السريع، ومرافقة ضابط من السلطنة وأحد الأجانب لكل مجموعة، فإنها لم تبدد القلق، إنما غيّرت في نفسيّة الأفراد، خاصة وأن الطائرات كانت تظهر بين فترة وأخرى، وكان الضابط والأجنبي، بعد أن يستعملا المناظير المكبرة، يتشاوران لتحديد هوية الطائرة ما إذا كانت صديقة أم معادية، مع ما يترتب على ذلك من ضرورة الحيطة وزيادة السرعة، إضافة إلى عشرات الأوامر الصغيرة التي تصدر ثم لا تلبث أن تُنسى.

كان التحرك يوم الأحد؛ وكان الوصول إلى المواقع المحددة، سلفاً، يوم الاثنين باكراً. أما يوما الثلاثاء والأربعاء فقد خصصا، بالنسبة للأفراد، للراحة والاستعداد، وللقادة الثلاثة: الضابط والأجنبي ومسؤول

المجموعة، للتعرف على جغرافية الموقع، وتحديد طريقة التقدم. أما يوم الخميس، ومع أضواء الفجر الأولى، فقد بدأت المناوشات. كانت تصدر من هذا الجانب، أو الجانب الآخر، بين فترة وأخرى، وغالباً ما تكون الفترات متباعدة، مجموعة طلقات. وقد استمر الحال كذلك حتى الظهر. أما حين بلغت الساعة الثانية ظهراً في موران، فقد أذيع بيان عسكري عن بداية هجوم كاسح شاركت فيه القوات البرية والجوية. وأكّد البيان، بلهجة حازمة تفيض بالثقة، أن الهجوم حقق أغراضه، وأن القوات المظفرة للسلطنة تواصل الزحف، وأن العدو يتراجع ويخلي مواقعه وقتلاه وجرحاه.

إنه بداية الهجوم الذي طالما تحدثت عنه موران.

يوم الجمعة، كتب يونس شاهين افتتاحية مليئة بالفخر والزهو، وأشار إلى «أن السلطنة تبدأ مرحلة جديدة وتاريخاً جديداً، وستلقن الأعداء، وكل من تسول له نفسه، درساً يكون عبرة لمن يريد أن يعتبر» وفي نهاية الافتتاحية أورد تلك العبارة التي أصبحت تروقه كثيراً: «وعلى الباغي تدور الدوائر».

في اليوم التالي، الجمعة نفذ حكم الإعدام بثمانية عشر رجلاً حكمت عليهم المحاكم المختصة، لقيامهم بالهجوم على دار الإذاعة وبعض المؤسسات الرسمية. نفذ الحكم في سجن موران المركزي، خلافاً لأحكام كثيرة سابقة، إذ كانت تنفذ في ساحة مسجد السلطان فنر، وكان بين هؤلاء برجس بن عمير، وصالح الرشدان. واختتم البيان بعبارات التهديد ثم بالآية الكريمة: ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون.

ومساء الجمعة ذاتها ألقى السلطان خطاباً في مجلس العلماء، أشار بسرعة، إلى «الأحداث المؤسفة» التي وقعت خلال الفترة الأخيرة، في الوقت الذي تتعرض السلطنة إلى العدوان الخارجي. وأكد، رغم الصعوبات والتحديات، أن السلطنة في المرحلة الجديدة تبدأ عصراً جديداً من أهم مقوماته: الدستور.

سمع أهل موران بهجوم يوم الخميس. ويوم الجمعة، بعد صلاة الظهر، لم يلفت نظرهم شيء وهم خارجون من جامع السلطان فنر. ولما وصلوا إلى بيوتهم، وقبل أن تمتد أيديهم إلى الطعام، جاء من قال إنه تم إعدام ثمانية عشر رجلاً.

الكثيرون لم يصدقوا. قالوا: إشاعات. وقالوا: كلام حساد. وقالوا: العادة أن يجري الإعدام في ساحة المسجد، والآن كنا هناك، وكانت الساحة خالية مثل قلب أم موسى. ومع ذلك ترددوا في أن يتناولوا الطعام. أكثر من ذلك طلب الرجال من النساء إطعام الصغار والانتظار، لأن شيئاً من الشك تسلل إلى القلوب. خرج عدد من الناس إلى الشوارع، تطلعوا نحو قصر السعد وقصور الخالدية، تطلعوا إلى السماء. كان كل شيء ساكناً، ثقيلاً. كادوا يعودون إلى البيوت، لكن تلك الرغبة بالمعرفة منعتهم. ذهب قسم منهم إلى الأقارب والأصدقاء، وعرّج غيرهم على المقاهي التي كانت تتثاءب في شمس الظهيرة الكامدة. موران تتغطى بالهواء الرخو، هواء ليس دافئاً وليس بارداً، لكنه غير منعش. يخلق في النفس حالة أقرب إلى الضيق.

جهاز الراديو الصغير الموجود في معظم البيوت أصبح العدو الذي تنشد إليه الآذان والعيون في تلك الظهيرة. ورغم الكراهية، التي تصل حدود العداء، فإن أحداً لم يقو على الابتعاد عنه. يعرفون أنه مليء بالأكاذيب، ولا يتصورون أن جهازاً بهذا الحجم، يمكن أن ينقل هذا الكم الهائل من الكذب والهموم والأحزان.

حين أذيع الخبر في الساعة الثانية، وكان خبراً قصيراً، حاداً، مع

إشارة أن تنفيذ الحكم جرى في سجن موران المركزي، وأن بين الذين نفذ بهم برجس بن عمير وصالح الرشدان، طفت موجة من الحقد الممزوجة بالقرف على القلوب مثلما تطفو طبقة الزيت فوق الماء. شعر الكثيرون بآلام في المعدة وبجفاف في الحلق، وشعر غيرهم أنهم لا يستطيعون البقاء، وليست لديهم الرغبة في الذهاب إلى أي مكان. هجم وخيم الصمت ثقيلاً موجعاً. أغلق معظم الناس هذا الجهاز الأسود الحقود. سألت النسوة، لكن دون حماس، ما إذا حان وقت الطعام، فلما أجابت العيون، أو الصمت، أو تلك الحركة من الرؤوس، والتي لا يمكن لغيرها أن تعبر بهذه القوة، إذ أعلنت الرفض وعدم الرغبة والطلب من السائل أن يكف، أو يغور، لم تحتج النسوة، ولم يحتجن إلى جهد ليفهمن معنى النظرات الجامدة، والصمت القاسي المنصهر، ومعنى تلك الحركة. ولما نهض أغلب الرجال، وهم يترنحون، لكي ينظر بعضهم من النوافذ إلى اللاشيء، وليرفع غيرهم رؤوسهم إلى السماء، أو حين توجه آخرون إلى الفراش، فقد كان كل شيء مفهوماً ومقبولاً، أو بالأحرى وحده الذي يعبر عما يدور في عقول الناس وقلوبهم.

أغلب أهل موران، في المساء ذاته، لم يسمعوا خطاب السلطان. أما بعد أيام، حين أخذت تلك الكلمة الشيطانية، «الدستور» تقفز كالجندب، وتنتقل من شفة لأذنٍ، ومنها إلى لسان آخر، فقد نظر الناس إلى وجوه بعض وابتسموا ساخرين. تذكروا أن هذه الكلمة، او ما يشبهها، قيلت قبل سنين، حين نُحيّ السلطان خزعل، لكنها لم تعن لهم شيئاً في ذلك الوقت، ولا تعني لهم شيئاً الآن.

كتب طالب يعد أطروحة جامعية حول «طبيعة شخصية الفرد في موران» ملاحظة في دفتره: «. . . ومن الأمور التي تسترعي النظر، وتتطلب الدراسة، أن الناس، أو معظمهم على الأقل، لم يسمعوا بالوعد الدستوري الذي أعلنه السلطان. وبعد فترة، حين أصبحت كلمة الدستور تتردد كثيراً، لم يبدوا اهتماماً، حتى بالحدود الدنيا، بهذا الحديث الخطير، وكأنهم راضون بالوضع الحالي، وغير متأكدين من جدية الوعد.

«بالمقابل، فقد لمست بشكل واضح أن الناس شديدو الحرص على معرفة جميع التفاصيل التي رافقت عملية الإعدام، كانوا يتناقلونها بكثير من الاهتمام والدقة، ولا أبالغ إذا ذكرت هنا أن متعة من نوع ما كانت تظهر في عيونهم، أو على ملامحهم، وهم ينقلون أو وهم يستمعون، وكأنهم يلتذون بالأحزان، أو يجلدون أنفسهم بهذه الطريقة الفذة. هل أدمنوا الحزن إلى درجة أصبح متعة لهم؟ ألا يعرفون الفرح، أو لا يعتبرونه ممكناً وحقيقياً؟ أن في الأمر ما يستوجب التوقف، وقد تشكل الإجابة على مثل هذه التساؤلات مفتاحاً لفهم الشخصية».

أهل العوالي كانوا أكثر مكراً. إذ رغم أن انحباس المطر أنهكهم، ودفع بالكثيرين إلى الهجرة، فقد تطيروا كثيراً من الحرب، قالوا: الجوع ولا الموت الزؤام، لأنهم عرفوا معنى الحرب وذاقوها. لذلك لم يلتحق بمقاتلي السلطان إلا القليلون، نتيجة اليأس، أو لأنهم لم يجدوا شيئاً آخر يفعلونه.

أما بعد الأحداث التي جرت فلم يخفوا فرحهم. وإذا كان سنوات القهر قد أنستهم السخرية، فقد عادوا إليها من جديد، أصبحت النكات والكلمات اللاذعة، إضافة إلى تلك الأوصاف التي يخترعونها «من تحت أظافرهم» كما يقول رضا الجاوي، تملأ الأسواق، وتقال علناً في المقاهي. حتى أن المسنين نبهوا بقسوة وخشونة على الصغار لكي يكفوا.

لما هرب الطيارون قالوا: «الشباب حاجزين ذهاب وإياب، وعودتهم، بإذن الله، ما هي بعيدة» وقالوا: «الرائد لا يكذب أهله، وحين يرجع، حتى لو طوّل الغيبات، يرجع بالغنايم، وتشوفون». أما حين لجأ الأمير سند وأخوته إلى الدواحس، فقد قالوا: «إذا إخوانهم ما حملوهم شلون تريدونّا نحملهم؟» وقالوا: «دود الخل منه وفيه». وقالوا: «إذا أبرقت فلا بد ترعد، وبعدها المطر اما علينا أو حوالينا».

ولما جرت محاولة الاستيلاء على الإذاعة، وفشلت، حزنوا أشد الحزن، وقاطع الكثيرون منهم إذاعة موران!

الآن، بعد أن سمعوا أخبار تجدد القتال، رفعوا عيونهم إلى السماء

فوجدوها زرقاء شامخة، فقالوا: «موت الله ولا موت العبد».

أما في اليوم التالي، بعد أن سمعوا بتنفيذ حكم الإعدام، فقد سُمعت شتائم كثيرة، لكن أياً من المخبرين لم يجرؤ على أن يتطلع إلى الوجوه ليعرف الذين شتموا. ولم يكتب ولم يقل أحد منهم لرؤسائه شيئاً. كان المخبرون أكثر خوفاً من الذين يشتمون أو يسمعون. وقال واحد من هؤلاء لبعض أصدقائه: «جماعة قصر السعد ما يتأمنون، لأنهم إذا بلشوا ببعضهم، فشلون راح يكونون على غيرهم؟».

وخطاب السلطان الذي استمر خمسين دقيقة، وقد استمع إليه عدد قليل، بدافع حب الاستطلاع أو لرغبة مفاجأة الآخرين، لم يستطيعوا أن يلخصوه، حين سئلوا، إلا بكلمة واحدة: الدستور.

لم ينتظر أهل العوالي، قالوا: دقوا الحديد وهو حامي. ولذلك بدأت الدعوة إلى كتابة مضبطة ترفع إلى السلطان، لتأييد مشروع سن الدستور. بدأت من حي الرفيعي إلى السوق التجاري، فالقلعة، ثم الأحياء الأخرى، فالميناء، إلى أن وصلت إلى مراكب الصيادين. وهكذا جمعت آلاف التواقيع والأختام، وكلها تعلن تأييدها ومباركتها من أجل سن الدستور.

عمر زيدان الذي رفض التوقيع على المضبطة، قال أمام الكثيرين:

ـ الرفيعي مات وبقلبه حسرة: الدستور. وحنا بقلوبنا حسرات، لو جعل ماء البحر مداداً واديم الأرض قرطاساً لكتابتها لما نفذت، فاتركونا بحسراتنا يرحمكم الله.

ضحك بسخرية، تلمس خده، وقال بنغم:

ـ وأنا، يا جماعة، ما بنفسي أموت هالحين، لسّه براسي كم نغم، فاتركوني حتى أقسّم وأغني.

حين ألحوا عليه، لأن لاسمه أهمية وتأثيراً، رد بنزق:

ـ الدستور ما يجي بالهين، يا جماعة الخير؛ ما ينعطى فطرة ولا عيدية، ودونكم التاريخ أقروه!

وفي أوساط الأسرة، وبين الأخوة، ومع المستشارين، أصبح الحديث يتركز حول الوعد الذي أعطاه السلطان بسن الدستور. وقد نتج عن ذلك

الكثير من الاجتهادات والاختلافات، ومما أكدها أن السلطان لم يبحث الأمر مع الآخرين، ولم يتسن لمعظم الأخوة أن يلتقي به خلال تلك الفترة.

راكان لم يخف استياءه من وعد الدستور، خاصة وأن الإذاعة لم تجد ما تبثه سوى الخطاب، فقد أذاعته عدة مرات، وتوقفت طويلاً عند الوعد السلطاني، وما يحمله من سمات عصر جديد، كما قال يونس شاهين أيضاً في الافتتاحيات العديدة التي كرسها لهذا الموضوع. ومما زاد في استياء راكان، أن حكم الإعدام ينفذ لأول مرة في السجن المركزي بصمت وسرية، وكأن الدولة تخشى من ردود الفعل. لقد حصل ذلك بناء لتعليمات مشددة من السلطان، في الوقت الذي كان يريد أن يزرع الخوف في كل قلب، وإلى قيام الساعة، كما قال.

لم تقتصر تعليقات راكان على مجالسه الخاصة، فقد تكلم أكثر من مرة في أمكنة، ومع أشخاص، بحيث كان يريد أن يصل كلامه إلى السلطان. ولم يتأخر لكي يصل. ومن يعرف الأمور من الداخل، يؤكد أن ما قيل وصل، ومنذ اليوم الأول، لكن السلطان تظاهر أنه لم يسمع، بل أكثر من ذلك لم يشجع الذين نقلوا إليه على أن يضيفوا أو يعلقوا. نظر إليهم وقال:

ـ بس، اللي عليكم سويتوه، وما على الرسول إلا البلاغ.

أما بعد أن مرت أسابيع، وهدأت الأمور، وحين رُفعت عريضة العوالي، وعليها آلاف التواقيع، تؤيد خطاب السلطان، وتشير بشكل خاص إلى الدستور، وكاد راكان يتخذ إجراءات باعتقال الكثيرين، فقد بادر السلطان إلى عقد اجتماع مصغر لمجلس الحل والربط.

قيل ان السلطان كان في الاجتماع، خلافاً لعادته، مرحاً أقرب إلى التبسط. وهو، حين يكون هكذا، يريد أن يخلق جواً يساعد الآخرين على أن يقولوا كل ما عندهم، دون تحفظ، أو خشية. الذي يعرفون السلطان معرفة قريبة، يؤكدون أنه لم يلجأ إلى هذا الأسلوب إلا مرات قليلة: يتذكرون يوم قرر تنحية خزعل، ويوم حاول استرضاء سند.

في هذا الاجتماع، وكما اعترف يونس شاهين، بعد بضعة شهور، كان السلطان يريد معرفة كل شيء، وكان يريد من راكان، بشكل خاص، أن يقول قناعاته. ولم يتأخر راكان، كشف كل أوراقه:

ـ أنت اللي قلت لنا: دستورنا معروف، وما نقبل بغيره. وأنت، يا طويل العمر، تعرف لغاوي أهل موران وفسق أهل العوالي. وهذول وهذوليك ما يعرفون غير السوالف، ويمجالسهم يقولون: باكر أكبر راس تحت الدستور، ويدوسون، وهم يسولفون برجلينهم! ويقولون: وحسب الدستور، ما يبقى أحد إلا ونجّره مثل ما نجر التيس: تعال، يا فلان: نريدك تسولف لنا كل شي، فإذا رضينا عنك خليناك، وإذا لا والله، فترى وراك محاكمة، وسين جيم، ويصير وما يصير...

زفر ورفع يديه باحتجاج. سأله السلطان:

ـ وشنهو بعد يا راكان؟

ـ ويقولون، طال عمرك، وزير الداخلية ما طبق الدستور. وزير الداخلية خالف الدستور. وجيبوا وزير الداخلية: ها يا فلان، ليش سويت كذا وكذا؟ فإذا جاوبت ما خلصت، وإذا سكت ما خلصت.

تدخل مساعد:

ـ ويقولون، طال عمرك، أنه بحسب الدستور، إذا صار الدستور، أن السلطان ما يحكم حسب عقله وضميره واللي يشوفه بصالح الناس، يلزمه أن يسوي اللي يطلبونه منه، وإذا خالف يعزلونه!

سأل السلطان بسخرية:

ـ وبعد؟

ـ سوالف الناس وفتاويهم ولا أكثر منها، يا طويل العمر.

هكذا أجاب راكان. والتفت إلى أكثر من جهة، غريزياً، ثم تابع:

ـ ويقولون، طال عمرك، أن السلطان خايف من لغاوي سند، والكلام اللي يذيعه بالراديو ويكتبه بالجرايد.

قال صالح الذي ظل صامتاً:

ـ أنا بنفسي قريت بالجرايد، أن مسألة الدستور كلها من راس سند.

وقريت أنه قال بعد خطاب مجلس العلماء: هذا أول نصر نحققه، وحنا بعيدين، أما إذا تقرّبنا فإن الانتصارات سوف تتوالى.

ـ قال أكثر من كذا يا صالح. قال: ارغمنا موران، وارغمنا السلطان، على تنفيذ مطلب أساسي كان الشعب دوماً يطالب به: الدستور. وقال: ونريد السلطان يصير مثل ملكة بريطانيا، يسود وما يحكم، وهذه السالفة الأخيرة سألت عنها كثيرين، شنهو معناها، وكل واحد يقول غير اللي يقوله الثاني!

هكذا أجاب مساعد، بحدة، وبعد قليل:

ـ وتعرف، طال عمرك، حنا هالحين أيدينا بالنار، والحرب ما ترحم، فإذا ظلينا بين راديو سند وعرايض العوالي وسوالف أهل موران، ترى حسبتنا واقفة ومخوطرة، ويجوز باكر أو اللي عقبه ما نقدر نواصل الحرب.

ولم يترك السلطان أخاً إلا ودفعه أو طلب منه الكلام، أن يقول كل ما يريد، وبمنتهى الصراحة. ساد الجو في لحظات كثيرة شعور بالألفة، رغم وجود فروق، وإن تكن طفيفة، أو مؤقتة، بوجهات النظر، وبعد أن قيل معظم أو كل ما يراد أن يقال، تكلم السلطان:

ـ يجوز أن هذه المرة الأولى نفتح قلوبنا، وكل منا يقول قناعاته وما يفكر فيه. وإذا كان عليّ لوم، فهو أني قصّرت بعقد مثل هذه الاجتماعات، لكنكم تعرفون مشاغلنا والهموم اللي تطاردنا. ما نخلص من مشكلة إلا وتطلع الثانية. لكن إن شاء الله من هذا الشهر، ومهما كانت المشاغل، يلزم أن نلتقي، ولو ساعة، ونتباحث.

بعد هذه المقدمة تنحنح وابتسم، وهو ينظر إلى الوجوه، وتابع:

ـ ما أريد أقول لكم عن المتاعب والمخاطر التي تواجه السلطنة، كلكم تعرفونها زين، بس مع ذلك لا بد أن نفهم على بعضنا، إذا الواحد منا قال كلمة يلزم أن الثاني يفهمها بدون خطأ، يعرف ليش انقالت، وشنهو معناها، ومن هو المقصود بها. أما إذا الواحد منا يسمع كلام الناس، وكلمة تأخذه والثانية ترده، فالمسألة تنلاص علينا ويجوز تتعكر بينا. . . .

ضحك، وكأنه تذكر شيئاً، وإذ استغرب الأخوة، وتطلعت إليه العيون، أضاف بلهجة أبوية:

ـ قبل سنين قرأت في كتاب ـ ويلزم كل واحد منكم يقرأه ويحرص عليه، واسمه: كتاب الأمير، قرأت: «على الأمير الذي يجد نفسه مرغماً على تعلم طريقة عمل الحيوان، أي اللجوء إلى القوة، أن يقلد الثعلب والأسد معاً، إذ ان الأسد لا يستطيع حماية نفسه من الاشراك، والثعلب لا يتمكن من الدفاع عن نفسه أمام الذئاب، ولذا يتحتم عليه أن يكون ثعلباً ليميز الفخاخ، وأسداً ليرهب الذئاب».

تنفس بعمق، وتابع:

ـ وبهذا الكتاب، يقول صاحبه، وأخرج ورقة وأخذ يقرأ ـ «وعلى الحاكم الذكي المتبصر أن لا يحافظ على وعوده، عندما يرى أن هذه المحافظة تؤدي إلى الأضرار بمصالحه، وأن الأسباب التي دعته لإعطاء ذلك الوعد لم تعد قائمة» وبمكان ثاني يقول: «وعلى الأمير أن لا يخشى كثيراً من المؤامرات، إذا كان الشعب راضياً، أما إذا كان مكروهاً ويحس بعداء الشعب له، فإن عليه أن يخشى من كل إنسان، ومن كل شيء». ويقول صاحبنا، بنفس الكتاب: «ويغدو الأمراء دون شك عظاماً عندما يتغلبون على العقبات والمعارضة، ولذا فإن الحظ عندما يود أن يعلي من شأن أمير جديد، هو في حاجة إلى الحصول على الشهرة، يخلق له الأعداء ويرغمه على شن الحروب عليهم، ويمكنه بعد ذلك من التغلب عليهم، ليرتقي اثر ذلك عالياً، السلم الذي وضعه أعداؤه في طريقه. ويؤمن الكثيرون، تبعاً لذلك، أن على الأمير العاقل، إذا أتيحت له الفرصة، أن يخلق بمكر عداوات له، حتى إذا قهر أعداءه، ضاعف من عظمته».

طوى الورقة، ووضعها في جيبه بعناية، تطلع إلى راكان، وقال:

ـ وأنا، والشهادة لله، يا جماعة الخير، لا أريد أقرأ دروس على روسكم، ولا أعتبر نفسي أعرف منكم، بس لروحي دوم الدوم أقول: إنما تنفع الذكرى. وهذا اللي قريت عليكم منه، ما هو مقصود أن يطبق مثل ما هو مكتوب، ولا هو مخلوق لبلادنا وعصرنا، لكن البني آدم يستأنس،

يعرف شنهو اللي سواه غيره، وشنهو اللي يفيده، واللي يضره.

هز رأسه عدة مرات، وتابع:

ـ وهالحين إذا تركنا اللي مكتوب بالكتب، ورجعنا لسوالفنا، فشنهي المشاكل؟ الدستور اللي زعّل راكان ومساعد؟ الكلام اللي يسولفه الناس عن المحاكمات للوزراء والأمراء؟ عريضة أهلي العوالي؟

يلزم تعرف، يا راكان، وأنت يا مساعد، أن ما هو كل ما ينقال يصير. زعلتم من كلمة؟ وحتى هذه الكلمة قلناها من قبل، وتذكرون. أما ليش نقولها ونكررها نوبة ثانية هالحين، فيلزم تعرفون: الدنيا كلها، من يوم ما صارت الحرب، قايمة قاعدة: «تخلوا عن النظام في السلطنة لأنه لا يستحق الحماية، إذ لا يمتلك الحد الأدنى من الشروط الإنسانية، فهو إلى الآن لا يملك دستوراً، ولا يعترف بأية حقوق للمواطنين، إضافة إلى...». هذه سوالفهم في أميركا، في أوروبا، بكل مكان، وحنا يلزمنا ما نخاف: تريدون دستور؟ حلت البركة، بس هالحين نريد عونكم ومساعدتكم، وبعدما تخلص الحرب، بعدما تتغير الأمور، الله كريم!

ابتسم وهو يهز رأسه، وبعد قليل:

ـ وأنتم يا أهل موران، ويا أهل العوالي، نريدكم معنا، نريد عونكم بقلوبكم وزنودكم، وإذا لكم مطالب، أي بالله حنا معكم. تريدون فلان شي وفلان شي، ومنها الدستور؟ ما يخالف، يا جماعة الخير، تستاهلون، واللي تريدونه يصير.

يلزم نقول هذا الشي هنا وهناك، وما نخاف. نقول كل اللي يريدونه، بالإذاعة، بالجرايد، بالخطابات. وهم يريدون هذا الكلام، وشرطهم أن نقوله. قلناه يا أولاد الحلال، وبعد ما تخلص الحرب لكل حادث حديث!

التفت راكان إلى أكثر من اتجاه، للتعبير، بالعينين، عن إعجابه وتقديره. قال السلطان بثقة:

ـ وما أريد أذكّرك، يا أبو منصور، بالمثل اللي يقولونه جماعتنا: شيّم البدوي وخذ عباته. أنت تعرفه زين، والدنيا، وين ما تلفت، كلها بدو. يجوز يكون بدو غير ديرة يلبسون غير ملابس بدونا، لكن العقل واحد...

وتغيرت لهجة السلطان، أصبحت هامسة ومتآمرة:

ـ وما أريد أخفي عنكم سر: بعد اللي صار بالدواحس، قال الأميركان: وليش ما نجيب جماعة أفندية، ومعهم عسكر، يحكمون السلطنة، بدل هذول الشيوخ والأمراء؟ وكان بينهم كثيرين موافقين ومتحمسين، وقالوا: توكلوا على الله، ولولا أني طرّشت واحد وراء واحد، مع رسائل وتطمينات، واللي تريدونه يصير، وإلاّ السالفة اللي براس كما واحد منهم صارت، وحنا هالحين أثر بعد عين!

واحتد السلطان قليلاً، وهو يضيف:

ـ فهمت، هالحين، يا راكان، ليش نقول الدستور والدولة الحديثة وغيرها من السوالف الجايفة؟

ـ فهمت طال عمرك، وهالحين صارت القضايا واضحة!

ـ ومسألة الأحكام وتنفيذها بالسجن المركزي، ما تريد تسألني عنها يا راكان؟

هكذا سأل السلطان بسخرية، ولما هز راكان كتفيه بارتباك، تابع:

ـ هذه القضايا، يا راكان، إذا زادت عن حدها تنقلب إلى ضدها، مثل ما يقولون. وأنت تذكر، الجماعة اللي اعدمناهم قبل فترة، وبكل مكان، ربّوا الناس، علموهم أنه ما عندنا لحية مشّطة، واللي نريده يصير. بس يلزمك تعرف: بين المعدومين واحد منا، والناس كلهم يعرفون، فإذا أعدمناه مثل أي واحد عادي، لا بد يشمتون، خاصة بعد ما سند سوّد وجوهنا، وسوّى اللي ما يصير. يقولون وقعت بينهم، وإذا اعدموا اليوم برجس فعقبه يبلشون ببعضهم، فنريد الخوف قبل الشماتة، ونريد كل واحد يتصور نفسه أو أحد من قرايبه معدوم.

وابتسم السلطان بثقة، وقال:

ـ الإعدام هو الإعدام يا راكان. بسيف، بحبل، بطلقة. النتيجة واحدة. وإذا صار بساحة المسجد أو السجن فالنتيجة ذاتها. ما هو بس كذا، نريد الناس يلّمسون على رقابهم ويخافون، ومرات كثيرة الواحد يخاف اللي ما يعرفه، ويخاف أكثر من اللي يطاله وما يشوفه.

وتغيرت اللهجة تماماً:

ـ ومن التقارير اللي وصلتني، ولا بد وصلتك، يا راكان، أن الناس قلوبهم مقطوعة، وهذا من وهم الخوف. يقولون: أولاد خريبط ما هم مصلين على النبي، فإذا السلطان أعدم ابن خاله، ولا أحد قدر يشفع له، فيلزم أن كل واحد يحرص ويتوقى.

قال مساعد:

ـ حنا، طال عمرك، تهمنا هيبة الدولة، وأنا مثل ما سمعت من الجماعة اللي يساعدّونا: أن كل الجيوش في العالم تقيم محاكم ميدانية لمحاكمة الخونة والجبناء، وأن الأحكام التي تصدرها المحاكم تنفذ فوراً، وأمام عيون الجميع.

ـ يا مساعد، يا بعد عيني، أنت تعرف، وما أريد اعلمك: المدينة غير الجبهة. عندكم الموت سهل، كل يوم يموت الناس، ينقتلون، والناس تعودوا. فإذا سويت محكمة ميدان وقتلت وذبحت عندك حجة. هنا، في المدينة، بموران أو بالعوالي، أو بأي مكان، الناس يسألون: ليش انذبح فلان؟ شلون انذبح فلان، بينما عندك ما أحد يسأل، وأظنك تعرف الفرق!

قال السلطان الكلمات الأخيرة بسخرية، وبعد قليل:

ـ المسألة ما هي كم واحد مات، المسألة شلون مات أو ليش مات؟

وحين خيم الصمت، وكان ثقيلاً متجبراً، قال السلطان ينهي الاجتماع:

ـ على كل حال. . .

وابتسم وهو يضيف:

ـ حنا اليوم أقرب لبعضنا من أي يوم. صرنا نفهم شنهو المقصود، وإذا الواحد منا قال شي الثاني يفهمه زين. وما هو بس كذا، حنا، هالحين، يد واحدة وقلب واحد، وإذا الله سبحانه وتعالى خلصنا من هذي الحرب على خير، الأمور تصير زينة، وما يكون كل واحد إلا راضي.

وفي جو من الانفعال والإعجاب قام السلطان، وانتهى الاجتماع!

موران التي كانت تزخر بالآلاف ممن لا يمكن تصنيفهم بالميسورين أو الفقراء، وإنما هم رهط كبير من الناس استطاع أن يتكيف مع الحياة، بصعوبة مرة، خاصة في سنوات المحل، وبيسر حين يأتي المطر ويفيض الخير، فيجد هؤلاء وسيلةً للرزق، ويعتبرون أنفسهم محظوظين وراضين، ما داموا قادرين على تأمين الحاجات الضرورية دون عنت أو مذلة. هؤلاء الناس، ما كادت الحرب تطول حتى تحولوا إلى حالة من الضيق لم يتصوروها، ولم يعدوا أنفسهم لمواجهتها. إذ فجأة، ومثلما تركض المياه نحو المنحدرات، إذا جاءت قوية سريعة وجدوا أنفسهم وقد سُدّت أمامهم أبواب الرزق، وأصبحوا عاجزين عن تأمين الحاجات الأساسية، رغم أنهم ضاعفوا ركضهم، وفكروا طويلاً في مواجهة الصعوبات التي تزيد يوماً بعد آخر.

أصبحت موران، خلال بضعة شهور، تعج بالفقراء، كان هؤلاء يزدادون فقراً ويزدادون عدداً. ومع الفقر كان الجوع والموت والانتظار. فإذا ارتفعت أصواتهم بالشكوى، أو الاحتجاج، وسُمعت تلك الأصوات، كانوا يتلقون جواباً من اثنين: «ما يحلّ مشكلتكم إلا الجندية، لأن للجنود رواتب وأرزاق، واللي ينقتل يتعوض عليه» والجواب الثاني كان رد راكان حين زاره وفد من حي القلعة وشكا صعوبة الحال وضيق اليد، قال للوفد: «ما عندنا، هالحين، وقت للمشاكل الصغيّرة، فإذا انتهت الحرب الله كريم».

بمرور الوقت أخذ يزيد الفقر والفقراء، وأصبح مألوفاً وجودهم وعددهم، لكن ما فاجأ الناس في موران أن يكون بينهم هذا العدد من

الأغنياء أيضاً. صحيح أن الأمر عُرف بالصدفة، ولم يكن بقصد المباهاة أو تحدي الآخرين، ولكن لم يبق أحد إلا وعرف.

فأسبوع دعم المجهود الحربي، الذي افتتحه السلطان، وتبرع فيه، من ماله الخاص، بمبلغ كبير، وتبعه باقي الأخوة، ثم جاء بعدهم التجار، أدهش الكثيرين، لأن بعض المتبرعين لم يكن معروفاً، أو لم يكن يُتوقع أن يكون مالكاً لمثل هذه الثروة. لقد فعل التجار ذلك دون تردد وبسخاء أثار الإعجاب. حتى ابن العليان، الذي كان اسمه الثاني، بعد غزوان، في قائمة المتبرعين من التجار، لم يتوقع مثل هذا العدد، أو مثل هذا السخاء، خاصة وأنه تذكر حملة العوالي، ومدى الصعوبات التي واجهته آنذاك في إقناع التجار بتقديم قرض للدولة، أو كما قال «قرضة حسنة، وإلى أجل، ونسجّلها» لكن معظم التجار تظاهر بالفقر أو بعدم وجود المال السائل في اليد. ووصل الأمر ببعضهم لأن يهرب أو يسافر. الآن، رغم مظاهر التواضع، كانوا أكثر حضوراً وجرأة، لكن دون أن يتجاوزوا، بطبيعة الحال، ما دفعه الأمراء، لأن «العين ما تعلى على الحاجب» كما قالوا بنوع من الحزن أو التسليم، رغم أنه كانت لدى بعضهم الرغبة في أن يدفعوا أكثر مما دفعوا!

غزوان أعلن تبرعه بالمبلغ برقياً. كان في الجو، حين وصلته أخبار أسبوع المجهود الحربي، قيل إنه لم يحدد رقماً، إذ ترك الأمر مفتوحاً، فقط حرص على أن يكون تبرعه أعلى الأرقام بعد الأمراء. أما عندما سلّم صفاء الشلبي، الشيك، في اليوم التالي، فقد تعمد أن يفعل ذلك بعد أن تبرع عثمان العليان، لكي يسجل رقماً أعلى منه، وقد اعتبر ابن العليان نفسه مخدوعاً، لأن ما نقل إليه من سقف لتبرعات الأمراء لم يكن دقيقاً!

لم يكتف غزوان بذلك، ففي أول زيارة لاحقة قدم تبرعاً إضافياً، عبارة عن مواد عينية، لم يعلن عن قيمتها الفعلية، لكن عُدّدت الكميات والأنواع!

«إنها أيام كبيرة» هكذا وصف يونس شاهين، في إحدى الافتتاحيات، حملة التبرعات، ولكي يدلل على أنها كذلك، أشار إلى أن بعض

المتبرعين أصرّ على عدم ذكر اسمه، وأن متبرعين آخرين، خاصة في «المناطق الشعبية»، كما وصفهم، تبرعوا بعدد من رؤوس الغنم أو بالملابس، «وهذا يثبت مدى مشاركة المواطنين وحماسهم في دعم المجهود الحربي، والوقوف وراء أبنائنا المقاتلين».

وقيل أيضاً أن عدداً من الأميرات لم يتأخرن عن التبرع، لكن فضلن أن تذكر أسماء أمراء صغار السن بدل أسمائهن، وقد جاءت هذه التبرعات متأخرة بعض الشيء، لكنها لم تخل من دلالة!

ولأن الحرب مثل موج البحر، تتقدم وتتراجع، فقد ظن الكثيرون، في مراحل معينة، خاصة لما اشتدت وتيرة القتال، أن النصر أصبح وشيكاً، لكن ما كادت تنكسر هذه الهجمات، أو تلحق بقوات السلطنة بعض الهزائم، حتى بدا أن الأمر أصبح معكوساً.

السلطان الذي لم يهدأ ولم يتوقف عن حشد جميع الإمكانيات من أجل المعركة، كان باستمرار يردد على مسامع مساعد، وأخوة وآخرين، جملة بذاتها من كتاب الأمير: «الأمير لا يستهدف شيئاً غير الحرب وتنظيمها وطرقها، وعليه أن لا يفكر أو يدرس شيئاً سواها، إذ ان الحرب هي الفن الوحيد الذي يحتاج إليه كل من يتولى القيادة».

الرويشدي الذي كان مفوضاً بالصرف، نيابة عن وزير المالية، قال أمام عدد من الأمراء، وكان يشكو أكثر مما يفاخر:

ـ طويل العمر، رغم حرصه وتدقيقه، إلا أنه بمسائل الحرب ما يحسب حساب!

وقد فهمت هذه الشكوى مديحاً، إذ علق الأمير فارس، وهو من أمراء الجيل الأصغر، وكان مقرباً من السلطان:

ـ الحرب مسألة حياة أو موت. إذا ربحناها ربحنا كل شي، وإذا خسرناها خسرنا كل شيء.

ويبدو أنه قال هذه العبارة نقلاً عن السلطان.

وحين تهدأ وتيرة الحرب، ولكي تبقى أعصاب الناس مشدودة ومتحفزة، غالباً ما تحدث أمور غير عادية، إذ إضافة إلى زيارة الجبهة،

وتفقد القوات، أو الإعلان عن حركات تمرد في الطرف الآخر، وصعوبات الحياة والفقر، فإن شيئاً ما يجب أن يحدث في الداخل، وهذا ما حصل عدة مرات: ترفيعات استثنائية لبعض الضباط، منح عدد من الشيوخ رتباً عسكرية، ثم عمليات إعدام تتم «للخونة والمتخاذلين». صحيح أن هذه الإعدامات لم تعلن رسمياً، ولم تجر في مكان عام، لكن كان يراد أن تصل أخبارها، وهذا ما كان يحصل غالباً، إذ ما تكاد تنتشر الإشاعات حتى تؤكدها الوقائع: الاعتقالات لكل من يمت بصلة قرابة أو معرفة لمن أعدموا. مصادرة الأموال. سحب كل مظاهر الحماية، وتحريض الخصوم أيضاً.

كان السلطان يقول أمام الكثيرين:

- بوقت الحرب ما ينقال: يصير وما يصير، هذا أبد ما مسموح به، الشي الوحيد المسموح: شلون يصير، وكل واحد يقول: لا، دواه موجود!

قيل إن أياً من الضباط الذين شاركوا في بداية الحرب لم يصل إلى نهايتها. الذين لم يعدموا جرحوا، والذين لم ينقلوا إلى الخارج أحيلوا إلى وظائف مدنية. أما مشعل الحمود، الذي كان قائداً للجبهة، فقد أصبح مديراً لمعمل الإسمنت، الذي أنشئ مؤخراً، وقبل أن تنتهي الحرب ببضعة شهور!

وقتلى الحرب وجرحاها يزيدون.

ولا يعرف كيف وصل إلى موران بيلي ادلر. نمساوي المولد، يحمل جواز سفر أرجنتيني، يحب المغامرة والبدو والموسيقى، كما قال! كان في الحرب الثانية مهتماً بالتجهيزات الطبية، خاصة مستشفيات الميدان. أما كيف وصل إلى الأمير راكان ومن أوصله، فإن الروايات تتعدد وتتناقض كثيراً. قيل إنه التقى بصفاء في سويسرا، أثناء رحلة من رحلات صفاء لإيداع أموال، وشراء قصر للأمير راكان؛ وقيل إن راتب الفتال هو الذي أوصله، نتيجة توصية من قريب له في ألمانيا، وغير هؤلاء من يؤكد أن بيلي وصل إلى موران وحده، دون معرفة ودون توصية، وأنه قضى

أسبوعين في فندق موران الكبير، قبل أن يصل إلى الأمير راكان، وأن الصدفة وحدها هي التي قادته وأوصلته، نتيجة علاقة نشأت أثناء إقامته في الفندق، إذ تعرف على اثنين من رجال الأعمال، كانا مكلفين بتأمين كميات من الإسمنت المقاوم من أجل إنجاز فرضة بحرية، قريباً من الطريفة، لتكون ميناء إضافياً، خاصة بالنسبة للمشتريات العسكرية، وقام الاثنان بتعريفه على الأمير.

ليس مهماً إذن معرفة كيف وصل بيلي ادلر، أو من أوصله، المهم أكثر من ذلك العرض الذي قدمه للأمير راكان من أجل تأمين خمس مستشفيات ميدان، وبناء ثلاث مستشفيات أخرى في المدن الرئيسية.

كانت السلطنة بحاجة إلى الخدمات الطبية، ولا يعرف لماذا أهمل هذا الأمر، أو أجلّ. أما حين جاء أدلر فقد كان إنقاذاً، خاصة وقد تزايدت الإصابات، وأصبحت الضرورة تقتضي الإسراع في إنجاز المشروع، مهما كانت تكاليفه.

صفاء كان مترجم الأمير راكان، حين عرض أدلر مشروعه. ولم تمض أيام حتى استدعي من جديد. استدعاه الأمير في الليل المتأخر. وإذا كان قد صدف أن استدعي صفاء مرتين في مثل هذه الساعة من الليل، مرة من قبل الأمير مساعد، ليسأل ثم يطلب الإسراع بمجيء المسعفات، وأخرى من قبل الأمير راكان، ليترجم بينه وبين صحفية هولندية، فإن هذه الدعوة المتأخرة، وما رافقها من حذر وسرية، أثارت خوف صفاء واهتمامه.

كان الأمير راكان يريد أن يعرف ما إذا كان صفاء أبلغ شركته بعرض أدلر، فإذا تأكد، لا بد أن يصل معه إلى النتيجة التي يعتبرها أهم من غيرها، أو وحدها التي تعنيه الآن.

بعد أن أكد صفاء، وأقسم، أنه لم يبلغ أحداً، وأنه نسي الموضوع، أشار إلى أنه حين يترجم بين اثنين يصبح مجرد آلة تستقبل وترسل، وبالتالي لا يتذكر معظم ما دار من حديث في تلك الليلة.

لما اطمأن راكان، وتأكد، قال لصفاء كلمة سوف يبقى يتذكرها لفترة طويلة:

ـ أدلر لا يريد أن يعلم أحد بعرضه. . .

ابتسم بمكر ثم تابع وهو ينظر إلى عيني صفاء:

ـ وهذا الكلام مني لك، خاصة بعدما عرفتك: وافقت على أن يورد المستشفيات الميدانية الخمس، وأن يبني المستشفيات الثلاث الباقية، والمربح. . .

وابتسم أكثر:

ـ ينقسم ثلاثة أكوام: كوم لك، لك وحدك، وما أريد ابد الشركة تعرف، والثاني لخوينا، والثالث تحطه لي بالحساب!

وقبل أن يتابع الأمير راكان نظر إلى عيني صفاء ليقرأ فيهما الجواب. دارت عينا صفاء، صمت قليلاً، ثم خرج صوته من أعماق صدره:

ـ اتفقنا يا طويل العمر.

ـ وحتى لا أحد يعتبر نفسه مغبون، لك خمس وعشرين، ولخوينا خمس وعشرين، بالماية، فشنهو قولك؟

ولم يطل الأمر، تم الاتفاق أن تودع حصة الأمير، وهي خمسون مليون دولار، في حساب مؤقت، لأن التحويل سيكون باسم صفاء، ثم يتم ترحيله إلى الحساب الرئيسي للأمير.

كان شرط صفاء الوحيد، لكي تتم العملية بهدوء وسرية، أن يحصل على إجازة طويلة، وقد تعهد الأمير أن يقنع غزوان بمنحه الإجازة.

تمت الأمور بسرعة ويسر. فقد كانت لدى إليانور الرغبة في قضاء فترة طويلة في موران لتطوير العمل واكتشاف آفاق جديدة، خاصة بعد أن تم «تحرير» كافة ممتلكات الحكيم خلال الشهور الأخيرة، مما دفع كمال للاتصال عدة مرات بغزوان وإليانور من أجل البدء بسلسلة من المخازن الكبرى، ولذلك جاءا معاً.

قالت وداد لإليانور وهي تحتضنها بشوق:

ـ على وجهك شفنا كل الخير. . .

وكمال الذي ترجم العبارة بتصرف، أضاف من عنده:

ـ أنا درست فكرة المخازن الكبرى، وتأكدت أنها وحدها التي يمكن

أن تنجح، خاصة إذا أسرعنا، لأني أخاف أن يسبقنا أحد إليها.

ووداد التي كان لديها الكثير لتقول، لتسأل عنه، ظلت تتابع بعيون حائرة الحديث الذي يدور، دون أن تفهم منه شيئاً، رغم أنها سألت عدة مرات حول ما قاله أو ما قالته إليانور، وحين ابتسم لها أكثر من مرة، في محاولة لأن يرشيها لكي تسكت، التفتت إلى غزوان:

ـ وأنت، يا غزوان، طالت غيباتك وما عدت سألت عنا.

وبدأ فصل من العتاب والمرح، إلى أن تغيّر الموضوع أيضاً، حين سألها غزوان عن أكلاته المفضلة، ومتى ستعدها، وكيف سيحاول عدم الالتزام بدعوات الأمراء، لأنه مشتاق إليها، وجاء من أجلها. ووداد التي تغيرت فجأة، قالت بحزن:

ـ بنفسي، يا غزوان، لو أبوك معنا، لكن الله كتب علينا التعب والشقا.

ـ بسيطة يا ماما، وإن شاء الله بيصير خير!

قيل إن صفاء، وهو يغادر موران، وقد فعل ذلك قبل وصول غزوان بثلاثة أيام، حمل معه مبالغ كبيرة لإيداعها في حساب الأمير راكان. لم يُعرف حجم هذه المبالغ أبداً، لأن أحداً لم يستطع أن يتأكد. وقيل أيضاً إنه استطاع أن يصل، وبطريقة غامضة، إلى مجموعة كبيرة من القطع الأثرية والنقود القديمة، إضافة إلى عدد من المخطوطات، كانت جميعها مودعة عند خادمة المستر هاملتون. وقيل إنه حصل على سمات دخول لعدة بلدان، ولعدة سفرات، أما السيارة الأميركية، الكاديلاك، فقد باعها، لأنه يريد أن يستبدلها بأخرى جديدة.

حمل صفاء الشلبي كل هذه الأشياء معه وسافر إلى سويسرا. قال للأمير راكان أنه سيغيب شهراً كاملاً، وخلال هذا الشهر سوف يتصل به حيثما كان. واتفق معه على بعض العبارات للإشارة إلى استلام المبلغ، الذي تم إيداعه في الحساب الرئيسي، كما سيبلغ الأمير بعنوانه ورقم الهاتف، حتى إذا احتاج إليه، أو أراد الاتصال به، لا يجد أية صعوبة. ولم ينس أن يشير أخيراً أنه قد يضطر للسفر إلى عدة أمكنة، للسياحة والراحة،

زيادة في التمويه على غزوان، ولذلك لن يُعرف مكانه أبداً بالنسبة للآخرين!

وسافر صفاء الشلبي، غاب تماماً.

انقضى الشهر، وخلال هذا الشهر لم يكف الأمير راكان عن انتظار تلفون صفاء، ولم يتوقف عن سؤال مكتبه ما إذا اتصل صفاء أم لا. ورغم المشاغل الكثيرة، وبعض الأسفار القصيرة، إضافة إلى الاجتماعات وأخبار الجبهة، فقد ظل قلقاً وظل ينتظر. أما بعد أن تبع الشهر الأول الشهرُ الثاني، دون خبر من أي نوع، فقد تيقن أن صفاء غاب إلى الأبد. حمل معه تلك المبالغ الهائلة وأفلت بها.

سأل غزوان، والذي كان قلقه يوازي أو يزيد، عن أية أخبار من صفاء، فوجده أكثر لهفة لمعرفة أي خبر.

سئل البنك في سويسرا ما إذا تم إيداع مبالغ جديدة باسم الأمير راكان، فكان الجواب بالنفي.

سأل عدداً من الأمراء ما إذا أحد منهم يعرف شيئاً أو سمع خبراً عن صفاء، فكانت التساؤلات أكثر إثارة من الإجابات!

بعث بمدير مكتبه، وعدد من حرسه الخاص، إلى سويسرا لتقصي أخبار صفاء، وإذا اقتضى الأمر لإحضاره بالقوة، فلم يظفروا بأي أثر له.

سئلت الحكومة السويسرية عن صفاء الشلبي، متى دخل إلى سويسرا، ومتى غادرها، فكان الجواب أنه لم يقض في جنيف سوى يوم واحد، غادر بعدها، لا يعرف إلى أين.

وحين سئل البنك الذي كان يتعامل معه حول إيداعات جديدة باسم صفاء ومقاديرها، لم يتلق جواباً أبداً.

لما سئل مساعد عن رأيه حول غياب صفاء، وما يحتمل أن يكون وراء هذا الغياب، وكان قد عرف عن مستشفيات الميدان بعد توقيع العقد، أجاب بسخرية:

ـ الغايب عذره معه، وإذا رجع، بالسلامة، نسأله ويجاوب!

قـال الذين يتابعون الأخبار ويعرفون الأسرار، أن أناساً كثيرين جفاهم النوم بعد أن تأكدوا من غياب صفاء الشلبي. وأن آخرين أصيبوا بأعراض مرضية، إذ عاودت بعضهم آلام القرحة، وارتفع عند آخرين السكر في الدم. وقال هؤلاء أن الأمير مساعد أنشأ جهازاً خاصاً سمّاه: الشعلة، وهو مؤلف من غرفة عمليات في موران، وثلاث فرق اقتحام وتنفيذ، وهذه الفرق اثنتان منهما في حالة سفر دائم، خاصة في أوروبا، والثالثة موضوعة بحالة الإنذار القصوى بموران، لكي تتحرك عندما يطلب منها ذلك.

راكان الذي لم يصدق أن صفاء يمكن أن يهرب، ظل، حتى بعد مرور بضعة شهور، ورغم فرق الاقتحام والتنفيذ، على ثقة أن أمراً ما طرأ وأخرّه، ولا بد أن يظهر من جديد. ورغم هذه القناعة، أصيب بحالة من النزق تحولت إلى غضب، ثم إلى إدمان. وأصبح يشك بأقرب الناس إليه، وكل ما تمثلت له صورة صفاء يبدأ بالشتيمة.

بعدما تيقن الجميع أن صفاء لن يعود، وبعدما عجزت المجموعة التي أرسلت لتعقبه عن معرفة أي شيء، أُبلغ السلطان. نقل إليه راكان الأمر بطريقة خالية من الانفعال أو الخوف، فقد اعتبره لصاً أكثر من شيء آخر. والسلطان الذي عرف بالأمر في وقت مبكر، وبعد توقيع العقد ببضعة أسابيع، ربما من خلال العناصر التي تعمل مع راكان نفسه، كان يخاف من أمر أكثر خطورة: أن يكون صفاء في الدواحس، وأنه حمل إلى هناك الأسرار الخاصة بالتسليح، أكثر مما حمل من الأموال.

بعد استفسارات كثيرة، لا تخلو من قسوة، قال السلطان لراكان:

ـ . . . والجماعات اللي يطرّشهم مساعد، ومسباتهم وتهديداتهم سابقتهم، راح تسمّع اللي ما يسمع، وبدل ما تجيبه راح ينهزم أكثر.

وابتسم بسخرية، وسأل بعد لحظات صمت:

ـ ظني، يا أبو منصور، أنه ما قرأ شي من الكتاب اللي ذريته له قبل شهور، ولا حتى صفحة واحدة، ما هو كذا؟

لما ارتبك راكان، ولم يستطع أن يرد بالإيجاب أو النفي، هز السلطان رأسه، وقال:

ـ خوينا يقول: «لقد ثبت أن أولئك الذين تمكنوا من تقليد الثعلب تقليداً طيباً نجحوا أكثر من غيرهم، فالضرورة تحتم على الأمير الذي يتصف بهذه الصفة، وأن يجيد إخفاءها عن الناس، وأنه يكون مداهناً كبيراً، ومرائياً عظيماً. ومن طبيعة الناس أن يكونوا من البساطة والسهولة بحيث يطيعون الاحتياجات الراهنة، ولذا فإن من يتقن الخداع يجد أولئك الذين هم على استعداد لأن تنطلي عليهم الخديعة».

وبعد قليل:

ـ ما هو كذا، يا أبو منصور؟

ولما ظل راكان صامتاً، تابع السلطان:

ـ الفلوس اللي أخذها، وما أريد أسأل إن كانت كثيرة أو قليلة، راحت، بس الخوف: أنه راح العصفور والخيط. فإذا وصل للدواحس وقال لهم فلاني وتركاني، ترى حسبتنا مخوطرة.

قال راكان بغيظ:

ـ اترك المسألة علي، يا طويل العمر، وأنا أدبر الأمر!

كان غياب صفاء قاسياً مستفزاً إلى أقصى حد، فمساعد الذي زرع المنطقة الحدودية بمجموعة من الألغام، وكان مقرراً أن يستدرج قوات الدواحس إلى حقول الألغام هذه، بعد أن يسحب قواته، أو يتظاهر بالتراجع، خشي أن تكون هذه المعلومات قد انتقلت إلى الطرف الآخر، ولذلك ارتبك، وغيّر الخطة تماماً. أما راكان فقد هدّه حجم المبلغ الذي

«سرق» منه، إضافة إلى شعور الخديعة، كما أنه خاف وتحسب كثيراً لأنه كُشف، لهذا لم يعد يعرف كيف يتصرف، خاصة وأن الأرباح التي تحققت من خلال التوظيفات المالية جعلته يعطي صفاء توكيلاً، لكي ينقل من حساب إلى آخر. صحيح أن المبلغ الذي سرقه كبير إلى درجة تولد المرارة، لكنه كان يخشى من النتائج اللاحقة أيضاً. الأمر الذي اضطره للسفر إلى جنيف، ولفترة يومين فقط، من أجل ترتيب الحسابات المصرفية، إذ ألغى جميع التوكيلات السابقة، ونقل كل ما له من أموال إلى حساب واحد، رغم الخسائر التي تترتب على مثل هذا الإجراء.

موران التي صمتت شهوراً، والتي انتظرت المطر والانتصارات، أو توقعت شيئاً يحدث بعد هرب الأمراء ومحاولة الاستيلاء على الإذاعة، عادت من جديد إلى الهذر والسخرية.

قال الكثيرون في حي القلعة، بعد أن سمعوا عن هرب صفاء بأموال لا تأكلها النيران: «رزق المهابيل على المجانين، فإذا كان راكان لصّ الدنيا كلها، فجاء من حمّل وشال، وحلال عليه». وقال أهل حي سبيع: «الزمرد، يا جماعة الخير، اللي أخذه ما يتقدر وما يتثمن: طيارة بحالها حمّلها. زمرد ريحاني، وسلقي، ومجزع. ويقولون إنه ملا صندوقين زمرد شفاف». أما ابن البخيت الذي كان يسمع ولا يصدق، فقد قال في السوق العتيق، حين سمع عن الزمرد: «والزمرد، يا أولاد الحلال، ما هو بس قيمة ومال، الأهم أنه يدفع العين، خاصة عين أم الصبيان، ويقاوم السم، ويفرح القلب، ويسر النفس ويبسطها، ويقوي البصر و. . .» ولم يوضح، لكن حين ضحك عُرف ما يريد أن يقول.

وأهل موران يسمعون، يرقبون، ثم يتلفتون، وكأنهم ينتظرون شيئاً.

غزوان الذي بقي شهرين كاملين في موران، ولم يتصور نفسه أن يبقى هذه الفترة كلها، لم يستسلم للعذاب النفسي والانتظار، إذ بعد أن قام بكثير من الأعمال التي كان يقوم بها صفاء، التفت إلى ما يجب أن يعمله، إلى الإجراءات والعناصر التي يجب أن يلجأ إليها، والتي قد تساعد في الوصول إلى حل مناسب.

قال للسلطان، بعد أن أشار إلى صفقة لسلاح الأخيرة، وما تضمنته من أهمية ومزايا، وبالتالي ما قد تحدثه من تغيير في موازين القوى:

ـ . . . ولا بد أنكم تأكدتم، يا طويل العمر، من حرصي على خدمة السلطنة، وخدمتكم بشكل خاص، وإذا جاز لي أن أتلقى من جلالتكم ما يفيد الرضا، فإن لي مطلباً أرجو أن يتسع صدركم لعرضه، وتقرير ما ترونه مناسباً.

وبكثير من الحزن والمهارة، إضافة إلى استغلال الجانب الإنساني، أشار غزوان إلى المصاعب الصحية التي يعاني منها «الوالد»، خاصة بعد الفاجعة التي ألمت به، بحيث أصبح يحتاج إلى الرعاية والإشراف المباشر من الوالدة والأسرة، ويجب أن يتم ذلك في جو إنساني، بعد الغربة الطويلة المدمرة التي عانى منها أثناء إقامته في سويسرا، وليس كموران مكان يعطف عليه ويتقبله، لكي تكون نهايته في هذا البلد المبارك والمضياف.

كان غزوان يفكر بطريقة عملية، يريد أن يعوّض عن «الغادر» الذي لا يعرف كيف تركه ولماذا، ويريد أيضاً أن يشغل الوالد، وينقذه من الغربة والهلوسات، وتلك الأفكار السوداء التي سيطرت عليه خلال الفترة الأخيرة، وقد تؤدي إلى دماره أو انتحاره.

السلطان الذي فوجئ بهذا الطلب، التفت إلى أكثر من جهة، وكأنه شعر بالخطر والحصار، ابتسم وقال:

ـ عطنا فرصة نفكر. . .

ـ ولكنه مريض، طال عمرك، وما عاد مثل قبل. . .

وكاد يقول أشياء أخرى، لكنه لم يجد الكلمات، وإن ارتسمت على وجهه علامات الحزن والحيرة. رد السلطان:

ـ اللي بيننا وبينه كثير، يا غزوان، وأنت تذكر، بس إذا كان مريض، ويريد يجي لموران حتى يموت ما يخالف.

ـ هذا هو الواقع، يا طويل العمر.

ـ إذن، ما يخالف، بس أنت الضامن.

إذا كانت العادة أن تتستر المدن على الفقراء، وأن توفر لهم ما يمنع عنهم الموت، فقد بدت موران، بنظر الكثرين، في ذلك الشتاء القاسي، وكأنها مدينة أخرى: نزقة، يابسة، عديمة الرحمة. لا تطيق أحداً، ولا أحد يطيقها. إذ ما كادت الأيام الشديدة البرودة تنقضي، ويبدأ فصل الدفء، وقد امتلأ من بقي من الفقراء بشعور الرضا لأنهم نجوا، وما زالوا أحياء، حتى تفشى مرض غامض. بدأ بصمت، وفي نطاق ضيق، لكن ما لبث أن توحّش وأخذ يفترس الناس. كان يقتل الكثيرين، يقتلهم بسرعة، وقبل أن يعرفوا أو يتحققوا من الإصابة.

خلال شهر واحد، ما بين بداية نيسان ونهايته، مات عدد كبير من الفقراء. كانوا يموتون في الشوارع، في الأبنية القديمة المهجورة، أو في الأبنية التي لم ينته تشييدها. وكان يجري دفنهم بسرعة، لأن الأخبار أخذت تتزايد عن انتشار التيفوس، وقيل، أن معه الوباء الأصفر.

ورغم أن أهل موران، خاصة من كان منهم أقرب إلى البداوة، يعتبرون الموت هو الوجه الآخر للحياة، فلا يخافونه، ولا يرتبكون في مواجهته، كما ويتعاملون معه بسرعة وحسم، إذ يدفنون موتاهم بعد وقت قصير من موتهم، أو على التحديد حالما ينتهون من حفر القبر، والعادة أن يشارك بحفره كل من يصادف وجوده، ويستطيع أن يعاون وأن يفعل شيئاً، فإنهم يعودون بسرعة إلى حياتهم الطبيعة، وكأن الموت لم يكن قريباً منهم إلى هذه الدرجة.

هذه النظرة إلى الموت التي تميز أهل موران، والبدو بشكل عام، تهتز وتتزعزع إذا حصل الموت بشكل غير طبيعي: إذا وقع نتيجة الوباء أو الحرب، أو إذا وقع بسبب القتل.

والوباء، بنظر البدو، غضب السماء، ولأن السماء لا تغضب إلا على أهل المدن، فالنجاة لا تكون إلا بتركها والهرب منها إلى الصحراء. كانوا يغادرون موران متخففين من كل شيء. حتى النظرة يخافون أن يلقوها على المدينة وهم يتركونها. كانوا يفعلون ذلك خلسة، في أواخر الليل وقبل طلوع ضوء النهار، وزيادة في السرية والحيطة يتركون المدينة أفراداً أو على شكل مجموعات صغيرة، لأنهم يعتبرون الجماعة إذا زادت عن حد معين تحمل معها المدينة!

ومثلما هجم الفقراء على موران مع بداية فصل الشتاء، وكانت مواكبهم المسكينة المتعبة تثير الشفقة والحزن، وبعض الأحيان تثير الخوف أو الغضب، فإن رحيلهم جرى بصمت، ولم يحس الكثيرون، بل وساور عدد كبير من أهل موران الشك أنهم ماتوا، ودفنوا بعضهم، غير راغبين أن يتركوا لأهل موران فرصة الشماتة، أو مساعدة الموتى، بعد أن لم يفعلوا شيئاً لمساعدتهم وهم أحياء!

عدد من أغنياء موران القدامى، الذين تعودوا إخراج الزكاة كل عام، وقد وُجّه لبعضهم اللوم لأنهم لم يتبرعوا إلا بالقليل للمجهود الحربي، وفضلوا ألا تذكر أسماؤهم، أخرجوا الزكاة هذه السنة أيضاً، وأضافوا إليها صدقات كثيرة، كانوا يحرصون على تقديمها بسرية يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع. لقد استمروا يفعلون ذلك مما ساعد في إنقاذ البدو وعدد من الفقراء، لأنهم يحسون أن لقمتهم تصبح مُرّة، ولا يمكن ابتلاعها، إذا نام أحد من مدينتهم جائعاً. وهذا ما جعل بين الناس علاقات يحار الغريب في فهمها أو تبريرها، رغم فرق الثروة والجاه.

أما الذين اغتنوا في السنوات الأخيرة، أو حتى في الشهور الأخيرة، فإنهم كانوا يكرهون الغرباء والفقراء دون تمييز، لأن هؤلاء بالإضافة إلى كسلهم، فهم شديدو الإلحاح ويمتلكون نظرات لا تعرف التردد أو الانكسار. أنهم، حين يطالبون، تكون أصواتهم قوية وكأنهم يطلبون حقاً. وصدف مرات كثيرة، في شارع الروض، وقد أصبح أحدث شوارع موران، تشغله المحلات الجديدة المضاءة، والمملوءة دائماً، أن طالب

الفقراء بالزكاة. فكان رد الكثيرين، وكأنهم اتفقوا على هذا الرد، أن «الزكاة أرسلت إلى المقاتلين في سبيل الله».

بعد أن ارتحل أكثر الغرباء الذين بقوا أحياء، شعر تجار شارع الروض بالراحة، تنفسوا ملء رئاتهم، وتطلعوا إلى وجوه بعضهم بمرح، قال تاجر لآخر:

ـ نظف شاعر الروض، خلصنا من الشحاذين والبدو الملاعين.

وضحك الآخر:

ـ الشحاذين أخذهم الله، والبدو بعدما تبضّعوا بقمل موران كله، شيلوا، كل واحد منهم لديرته وعشيرته، وعساهم يروحون وما يردون!

ابن البخيت الذي تزداد عزلته وكآبته يوماً بعد آخر، يجد نفسه مضطراً، لكي لا يختنق ويموت كالكلب، للخروج إلي السوق. كان في أحيان كثيرة لا يجلس في مكان، رغم الدعوات التي توجه إليه، إذ يدّعي أن وراءه أعمالاً لا بد أن ينجزها، فهو يعرف أنه لا يحتمل السكوت، فإذا تكلم، خاصة في هذه الظروف، «فإن الحرب تجبّ ما قبلها» كما كان يردد، محاولاً أن يتجنب الكلام.

رغم هذا الحذر، والذي لم يعهده في نفسه، ولا يعرف كيف يفسره أو يبرره، فكان يرجع، بعد هذه الزيارة، منقبض النفس حزيناً، فإذا سأله العجرمي، أو أحد الأصدقاء، كان يردد، وكأنه يكلّم نفسه:

ـ «رب يوم بكيت منه فلما … صرت في غيره بكيت عليه»

أو يقول:

ـ «عتبت على عمرو فلما هجرته … وجربت أقواماً بكيت على عمرو (وعمري)»

سوف ينقضي وقت طويل قبل أن يُعرف أين حملت الرياح هؤلاء الفقراء. قيل إن عدداً كبيراً منهم فتك بهم التيفوس. الذين لم يموتوا في موران، ماتوا عند أطرافها. أما الذين امتد بهم الطريق، فقد قدر لبعضهم أن يصل إلى الماء، وقدر لغيرهم أن يصل إلى أهله. وساقت الأقدار عدداً منهم إلى الزرنوق.

في الزرنوق، وحواليها، إلى مسافة أميال من كل ناحية، يحس

الإنسان أنه ولد من الرمل وأشجار الطرفا والغيوم. إنه جزء من الطبيعة البكر، من الصلب الأقدم للحياة، فالناس هنا نمط آخر مختلف عن أي مكان في الدنيا، يملكون كل شيء ولا يملكون شيئاً. يعيشون لهذا اليوم ولمائة سنة قادمة. يعرفون بعضهم، لكن ليس إلى درجة العصبية والالتحام، ودائماً ينتظرون وقتاً، نجماً، ريحاً، من نوع ما، لكي يتحركوا، لكي يفعلوا شيئاً قبل أن يطويهم التراب.

الذين وصلوا من أهل موران إلى الزرنوق، فرحوا إلى درجة أن سقطت من عيونهم الدموع دون إرادة، حين رأوا الخضرة والماء، وحين رأوا شمران العتيبي أيضاً. أحسوا أن الحياة ليست مجرد رحلة الجوع بين مكانين، وليست المرض، أو النظرات القاسية، أنها تعني أكثر من ذلك ما دام واحد مثل شمران لا يزال حياً وقوياً، وما زال يتطلع، كل صباح، نحو الشرق، ويتساءل، ما إذا حان الوقت لأن يفعل، مع الآخرين، شيئاً. لا ينام قبل أن يعمّر بندقيته، ولا يستيقظ إلا ويدفع يده إلى جبينه يستطلع الأفق والرياح.

كاد الذين وصلوا من أهل موران أن يقولوا له كل شيء، لكنهم قالوا لبعضهم، دون كلمات، أن يؤجلوا الحديث الصعب إلى ما بعد الأيام الثلاثة، أو إلى الوقت المناسب. وشمران نفسه لم يكن مستعجلاً. سأل عن أمطار الطريق، وعن الغدران، وسأل هل أن صعوبات سنوات المحل أبقت عدداً كافياً من البشر لكي تستمر الحياة.

كان يتكلم ويسأل ويتذكر في وقت واحد، وكأنه يهيّئ نفسه، أو يشغلها، لما قد يسمعه ويوجعه.

في اليوم التالي عند العصر ذكروا، عرضاً، أن بين الذين أعدموا في موران قبل شهور صالح الرشدان. قالوا ذلك وهم يفترضون أنه يعرف. أما حين قفز، وكأن عقرباً لدغته، فقد تأسفوا، ثم حزنوا، لأنهم أبلغوه. قال واحد من العوالي قضى وقتاً طويلاً مع شمران في الزرنوق: «لو كان واحد غير شمران سمع مثل هذا الخبر لمات من ساعته» وقال آخر من أقارب شمران: «لو سمع خبر أولاده أو أهله ما حزن حزنه على صالح».

انسحب شمران من حلقة الرجال. غاب فترة ثم عاد. لاحظ الذين نظروا إلى عينيه، بقايا حمرة في العينين ودموعاً. لم ينظر إلى أحد. ظل صامتاً. أما بعد أن ارتفع الأذان، وصلى الناس صلاة العصر، فقد دعا شمران إلى صلاة الغائب على روح صالح.

صلى عليه كما لو كان جثمانه مسجى أمامه. كان صوته يتهدج. ولكنه واضح وحاقد. أما في الليل، مع نسمات الربيع المبكرة الباردة، فقد تذكر أشياء كثيرة، ومعظمها، أوكلها، لها علاقة بصالح. كان صوته صلباً، وكأنه يتحدث عن زمن بعيد، وعن أناس لا يعرفون الخوف أو المداهنة. ولم ينس شتائم صالح ونكاته. رواها وضحك لها، وفي لحظات معينة، على ضوء النار، كان يضيء وجهه ويتوهج، وحين تقدم الليل، قال، وكأنه يضع نهاية لعصر كامل:

ـ كان صالح أشجع منا جميع وأصدق، وهذا اللي خوفهم...

ابتسم بحزن وهو يضيف:

ـ لما قصوا يده، قال: الثانية والمة وقوية. لما قطعوا رزقه، قال: الرزق من الله. لما حبسوه، قال: اللي ينحبس اليوم يطلع ثاني يوم، يطلع وكبده ورمان، وما يخلصون منه...

وصعّد آهة حزينة، وقال يخاطب نفسه:

ـ لو كنا نملك شي من شجاعة صالح، ولو كان صالح يعرف شي من خوفنا، لما كنا هنا، ولما كان هناك، لكن عقولنا قرمتّنا وذبحه جنونه، وإلى حين ما تفتّك العقول من عقالها، والشجاعة من جنانها، راح نظل نصيح عتابا ويردون علينا يا ليل، إلى أن يفرجها مجنون عاقل أو عاقل مجنون!

ولأن الذين جاءوا من موران قدروا أن لا شيء يمكن أن يحزن شمران فوق حزنه على صالح، فقد قال واحد منهم، في لحظة الصمت الذي أعقبت حديث شمران:

ـ ولا بد أنه وصلك، يا أبو نمر، شنهو اللي صار ببدر وصالح...

ظهر التحفز على وجه شمران، بدا أقرب إلى الغضب، ولكي لا يترك المتكلم للظنون أن تذهب بعيداً، أضاف بسرعة:

ـ وما هم وحدهم، ما خلوا أحد بموران إلا وكظّوه، يا أبو نمر. صارت موران من أولها لتاليها سجن.

قال آخر:

ـ سجن وجوع وقلة دين!

ضحك شمران، وقال بلهجة ساخرة:

ـ أقول لروحي، صار شهور ما طرّشوا لا خبر ولا مرسال!

عباس الوائلي من أهل البصرة حملته الرياح، لا يُعرف كيف، إلى الزرنوق. كان مرحاً يحب الغناء ويحترف الحزن، إلا في لحظات العذاب واليأس، فإنه يلجأ إلى السخرية، قال بنغم:

ـ لا خبر، لا خبر، لا تشفّيه، لا حامض حلو، لا شربت؛ لا خبر...

هز شمران رأسه، وقال وهو يقوم:

ـ وكّل الله يا رجّال...

وبعد قليل:

ـ ويأتيك بالأخبار من لم تزود!

البالغة التي رافقت وصول طائرة TWA القادمة من نيويورك عن طريق جنيف، بما في ذلك فتح قاعة كبار الزوار في مطار موران، جعلت الظنون تنصرف إلى احتمال وصول وفد من الوفود الرسمية التي أخذت تتردد بكثرة على موران خلال الشهور الأخيرة. وحين شوهد غزوان، برفقة رجل مسن يتوكأ على عصا، ويمسك باليد الأخرى حاجز سلّم الطائرة، وكان يضع نظارات قاتمة، ويلبس ملابس فضفاضة، كأنه اشتراها لتوه، أو استعارها لمناسبة إلزامية، لكن دون اتقان، فقد تزايد فضول الذين يستقبلون الطائرة، لأن عادة غزوان أن يهبط، ومن معه، السلم مباشرة إلى السيارة التي تكون في الانتظار، لتنطلق بسرعة، دون احتفالات أو استقبالات من أي نوع.

هكذا جرت العادة إذا وصل غزوان، أما المغادرة، فغالباً ما تجري بنفس الطريقة، وإن صدف، في عدة مرات، أن فتحت قاعة كبار الزوار، وجرى لبعض الوفود وداع رسمي، شارك فيه عدد من الأمراء وكبار الموظفين. بل وصدف مرتين أو ثلاث مرات أن ارجئ موعد الإقلاع لاستكمال المباحثات، وقد جرت في المطار.

الآن، في هذه المرة، تجري الأمور بشكل مختلف، إذ بالإضافة إلى وجود عدد من النساء في قاعة كبار الزوار، فقد بدا وكأن أغلب المستقبلين يصلون هذه القاعة لأول مرة، إذ ان باقات الزهر، التي أخذت تصل تباعاً، لم يعرف أين يجب أن توضع، أو كيف الوصول إلى ذلك المكان. والأسئلة التي وجهت إلى استعلامات المطار عن مكان قاعة الشرف، أو مكان قاعة كبار الزوار، أثارت الانتباه والتساؤل. وحين أصرّت وداد

الحايك على ضرورة وصول السيارة التي تقلها إلى قاعة الشرف، بدا طلبها غريباً ومستهجناً، رغم الكتاب الأزرق الغلاف والأوراق الذي كان يحمله السائق، والصادر عن مكتب وزير الداخلية. بل أكثر من ذلك كادت تقع مشادة كبيرة نتيجة إصرار كل طرف على «تنفيذ الأوامر»، إلى أن تدخل أمن المطار، وأرشد السائق إلى الباب الجانبي الذي تدخله سيارات تحمل كتاباً من هذا النوع!

وكل شيء في عصر ذلك اليوم من أيام الربيع المبكرة، بدا غريباً ومرتبكاً. فالطائرة تأخرت في الوصول خمسين دقيقة، ولم يعلن عن ذلك إلا قبل عشر دقائق من موعد وصولها. وكمال الذي أخذ يرتدي الملابس العربية قبل أسبوع واحد فقط من هذا اليوم، بدا غريباً، بل ولم يعرفه عدد من أقرب الناس إليه. أما مطيع الذي فكّر بإلقاء كلمة للمناسبة، وقد استغرق اعدادها يومين كاملين، فقد اضطر إلى صرف النظر حين لم يجد أياً من الأمراء في الاستقبال، علماً بأنه أبلغ عدداً من الأقرباء والأصدقاء بنيته هذه. وسعيد الأسطة، الذي عرف بالخبر قبل ساعات من وصول الطائرة، بدا متحمساً في أن يكون ضمن المستقبلين، بل أكثر من ذلك، اتصل بأم غزوان، وعرض عليها أن تُذبح عدة خراف عند سلّم الطائرة، وحين وجدها مترددة، ولم تقطع برأي، سحب اقتراحه بشرط: «أن يكون المضيف الأول للحكيم». حتى بدري المدلل، الذي قضى شهوراً إلى أن سمح له بالعودة، نتيجة وساطات قوية من زوجي بنتيه، لم يتخلف عن الاستقبال، لكنه ظل وراء الحاجز الزجاجي، لأنه لم يسمح له بالوصول إلى قاعة كبار الزوار.

هذه المراسيم لم تكن فقط احتفالاً بوصول الحكيم، أو تعبيراً عن المودة والأهمية فقط، وإنما كانت، وبالدرجة الأولى، شرطاً من شروط الحكيم. فبعد أن وافق السلطان على عودته، وبعد أن زفّ إليه غزوان البشرى بالهاتف، ثم قام بزيارته بعد خمسة أيام، لترتيب مسألة العودة، فقد كان الحكيم واضحاً وحازماً، وحاسماً أيضاً:

ـ استقبال رسمي لائق؛ معاقبة كافة المسؤولين الذين تسببوا بهذه

الإساءة؛ الاعتذار رسمياً، وبطريقة مناسبة؛ وأخيراً: لا أقبل أية قيود على حريتي وحركتي: أذهب أينما أشاء، واستقبل أي إنسان، وأعبر عن رأي بصراحة.

غزوان الذي وافق على كافة الشروط، أكد له أن الشروط التي قدمها كانت أكثر من ذلك وأقسى، لكن باعتبار أن السلطنة في حالة حرب، وظروف المسؤولين، بمن فيهم السلطان، قد تحول دون استقبالات أو احتفالات، خاصة وأن معظمهم على سفر دائم، وفي جبهات القتال بشكل خاص، فإن الكثير من الأمور سيجري دون إعلان مسبق، ودون ضجة. وهذا ما دعا الحكيم إلى الاقتناع ثم الموافقة!

أكد عدد من الذين يعرفون الحكيم معرفة جيدة، أنهم لم يتعرفوا عليه وهو ينزل سلم الطائرة: بدا لهم هرماً، متعباً، وربما مريضاً. النظارات السوداء، إضافة إلى العكاز، توحي أنه أعمى، أو على الأقل مصاب بضعف نظر شديد. الحركات العصبية، والانفعال، حتى أثناء التحية، توحي بالارتباك، إذ كان يسحب يده بسرعة، ويتلفت حواليه بخوف. حتى كمال الذي هجم عليه، وقبّله عنوة، تبيّن من خلال ردود فعله أنه لا يرحب بأية قبلة أخرى، وهذا ما دعا الذين كانت لديهم مثل هذه النية لأن يترددوا، وقد تأكدوا تماماً وهو يصلّب جسده، ويحاول أن يبقي مسافة بينه وبين أي من المستقبلين.

مطيع الذي قال بضع كلمات، ترحيباً، سمع، وسمع الآخرون، تعليق الحكيم، وهو يقول:

- موران أبداً ما تغيرت، وما أشبه الليلة بالبارحة.

وقد فهم هذا التعليق بأشكال مختلفة، لكنه غيّر الجو، مما دعا غزوان إلى اختصار الاحتفال، إذ غمز كمال طالباً منه ضرورة التحرك.

وداد كانت في منتهى الانفعال. كانت عصبية، متألقة، دائمة الحركة، ولا تعرف ماذا يجب أن تفعل. ورغم أن العيون تعلقت بها لترى كيف تستقبل الحكيم، فإن لحظات الانفعال والهرج منعت الكثيرين من رؤية دموعها وهي تسقط. أما حين انزوت بعيدة، بعض الشيء، فقد كانت

العواطف نحوها هي مزيج من التقدير والانكسار والشماتة والسخرية، وعدم الفهم، أو عدم الموافقة. وحين استقلّت سيارة غزوان، وقد جلس الحكيم في الوسط، فكانت أقرب إلى الخوف وعدم الراحة، لأن الصمت الذي بدر من الحكيم جعل الآخرين يحترمون صمته أو يخافونه.

رضائي الذي أبلغه سعيد الأسطة بوصول الحكيم رفض أن يصدق. اعتبر الخبر نكتة من النكات التي يطلقها سعيد في السوق، لكي يخلق تساؤلات واضطراباً، أو كما كان يطلق عليها رضائي، بعد أن راجت التعابير العسكرية خلال الفترة الأخيرة: قنابل دخان، ليتمكن من إجراء صفقة، أو لترتيب بعض العقود، بعيداً عن الأنظار.

الآن بعد أن تأكد من وصول الحكيم، وبعد أن سمع بالاستقبال الحافل الذي جرى له في المطار، فقد تحسب وخاف. قال في نفسه: «في التجارة الواحد لا يسأل عما يحب ويكره، وإنما يبحث عن المفيد، عن الربح. والحكيم، رغم كل اللي صار بيننا يبقى أخونا وصاحبنا».

لذلك لم يتأخر في الاتصال مجدداً بسعيد الأسطة من أجل ترتيب موعد لزيارة الحكيم، وحين تباطأ سعيد في ترتيب اللقاء، اتصل بمطيع شخاشيرو. لكن مطيع كان جافاً حين رد عليه، إذ أبلغه أنه ليس سكرتير الحكيم، ولا يعرف مواعيد الاستقبال. مما اضطر رضائي للاتصال ببيت الحكيم. ولم يتلق جواباً أيضاً. كانت الأجوبة المعهودة: الحكيم غير موجود، الحكيم نائم، الحكيم في الحمام. ورغم أنه ترك رقم هاتفه، وأكد على ضرورة أن يتصل به، فلم يتلق رداً.

ورغم المنافسة، وما يشبه الجفاء الذي كان بينه وبين غزوان، فقد اتصل به لترتيب موعد «من أجل السلام على الوالد» لكن غزوان اعتذر أنه سيسافر في ذلك المساء، وأنه «لا يعرف مواعيد الوالد وارتباطاته».

بعد هذه المحاولات غير الجدية، قرر رضائي أن يزور الحكيم، أن يذهب إلى البيت مباشرة، دون موعد.

قال رضائي لعدد من أصدقائه، وكان مرتبكاً وحزيناً: «... سمعت

الأصوات في الحديقة، لكن مع ذلك لا أحد يرد. وضعت يدي طويلاً على الجرس، لا جواب. دفعت الباب، قلت يا الله. انفتح الباب. الحديقة كبيرة، أشجار وأزهار. قلت لروحي: امش يا رجل. مشيت. ناديت: يا أهل الدار، لكن لا جواب. تلفت ناحية الصوت: الحكيم تحت شجرة كبيرة راكب على حصان خشبي ويهز. كان يهز ويصبح: عليهم، عليهم. ما صدقت. تنحنحت، وقلت: يا لله. لما شافني توقف. وقف الهز ووقف الحصان. نزل. أخذ عكازته واقترب. تطلع إليّ، وقال: الله يعطيك. قلت له: أنا صاحبك يا أبو غزوان. قال: نعم؟ ومطّها وكأنه يضحك عليّ. قلت له: أنا صاحبك يا أبو غزوان، أنا محمد علي رضائي. قال: محمد علي رضائي؟ نعم؟ وبعد قليل: كنت أعرف واحد اسمه رضائي، لكن هذا مات وشبع موت، وكشر. قت له: أنا، يا أبو غزوان، رضائي. قال: الله يعطيك. وبلّش يصيح: يا أبو عبدالله، يا أبو عبدالله، تعال، لأن الشحاذين كسروا الورد وداسوا الزرع.

«لما بلش يصيح تأكدت أن الرجال عرفني وما عرفني، ولكنه لا يريدني. قلت لازم مضيّع. سألته لآخر مرة: أنا محمد علي ضائي، يا أبو غزوان، ما عرفتني؟ تلفت وبلش: يا أبو عبدالله، زرعك راح، تلحق أو ما تلحق. حملت حالي ورجعت. لما وصلت الباب التفت، شفته خيّل على الحصان وصار يهز، وحتى بعد ما تركت قصر الحير، وابتعدت كنت أسمعه: عليهم عليهم. ولا أعرف: الرجال صاحي أو باع وخلّص».

وداد التي كانت إلى ما قبل وصول الحكيم بصحة جيدة وشديدة التفاؤل بمستقبل العمل، ما لبثت أن تغيرت: عاودتها آلام المعدة، وشعرت بانحطاط. والحكيم الذي كان يعرف كيف يعالج حالات من هذا النوع، لم يحس بمرضها. أما الأطباء الذين أحضرهم كمال لمعالجتها، فإن الأدوية التي وصفوها زادت آلامها، إذ أصبحت لا تعرف النوم، وشديدة القلق، إضافة إلى فقدان الشهية.

لم يمض شهران حتى بعثت وراء غزوان. طلبت مجيئه على جناح السرعة، لأن الأمر خطير ولا يحتمل التأجيل. قالت له من بين دموعها:

ـ أتمنى لربي أن يأخذني ويخلصني...

وحين انفتحت عيناه بدهشة واستغراب أضافت:

ـ نيّال اللي ماتوا، لأنهم استراحوا.

وبعد قليل، وبلهجة حزينة:

ـ ما بتنلام سلمى، لأنها حملت همومها وراحت!

ورغم أنها شرحت حالات الحكيم والصعوبات التي عانتها معه، فقد أصبحت تخاف منه وتخاف عليه.

قال أبو عبدالله لأحد أقاربه:

ـ ... وصاحبنا بايع ومخلّص...

وبعد قليل:

ـ نشّف ريقنا: إذا خلص من نحت سيوف الخشب، يخيّل على حصانه ويطارد. وما كفّاه، قبل يومين نادى النجارين، وقال لهم: أريد الحصان يركض. قالوا له: هذا خشب يا أبو غزوان، وما به لا حس ولا حركة. قال لهم: لازم يركض. وبعد ما يتصايح وياهم، قالوا: ما يخالف. نصبوا له عجلات، وهالحين تشوفه ينقله من مكان للثاني، والله يستر...

ضحك أبو عبدالله، وأضاف:

ـ ويجوز باكر أو اللي عقبه يزوّجه مثل ما زوّج خزعل قبله!

قال غزوان لأخيه كمال:

ـ يا حبيبي، صرت كبير ولازم تعرف كيف تتصرف. نحن كنا نريده بموران حتى تساعده، فخليه على حصانه إلى أن يتعب، لا تتدخل. اهتم بشغلك، وهو إذا ركب وتعب ينقلب وينام، وإذا عاش اليوم يموت ثاني يوم، فاتركه ولا تنشغل به.

عثمان العليان تشاءم كثيرا من عودة الحكيم، قال لابن البخيت:

ـ ... وابنه ما هو شي بالنسبة له. هذا لا يحلل ولا يحرّم. دينه ومعبوده الفلس، فالله يستر.

رد ابن البخيت، وكأنه يحدث نفسه:

ـ اللي قبلنا كانو يفهمون أحسن منا، قالوا: «تعايش الناس زماناً بالدين، حتى ذهب الدين. وتعايشوا بالمروءة حتى ذهبت المروءة. ثم تعايشوا بالحياء، حتى ذهب الحياء، ثم تعايشوا بالرغبة والرهبة، وسوف يتعايشون زماناً طويلاً» فابشر يا أبو عزيّز، فهذا زمان الرهبة والرغبة، سيف المعز وذهبه، وما يندري وين نصل!

ـ كذا رأيك يا أبو بادي؟

ـ واللي يجي أخراً، يا أبو عزيّز!

ـ فال الشيطان ولا فالك، يا رجال!

ـ اللي يعيش يشوف، يا أبو عزيّز!

وإذا كان الحكيم قد انشغل بالسيوف والخيول الخشبية خلال النهار، فإن لليل همومه ومشاغله. قيل إنه لا يكاد شعاع من الشمس يغيب حتى يصعد إلى الغرفة العليا، والتي أطلق عليها منذ وقت مبكر اسم المحراب، فيفرد أوراقه ودفاتره، ويبدأ.

قالت وداد في محاول أخيرة لإقناع غزوان أن يحجر عليه:

ـ . . . ويا ابني ما عنده إلا التسبيحة نفسها: المربع، دفاتره، كلها، من أولها لآخرها، ما فيها إلا هالكلمة، وإذا ما صدّقت غافله وشوف.

قال غزوان بيأس:

ـ خليه بهمّه، يا ماما، يمكن الله يفرج عليه، أو يرتاح، وهو ينقش هالكلمة!

ـ ونظل عبيد تحت رجليه؟

ـ ما في حدا عبد لحدا، يا ماما.

ـ لو تسمع أوامره، وتشوف تصرفاته.

ـ لا أمر لمن لا يطاع.

ـ لكنه داوشنا، يا ابني.

ـ اعتبريه غير موجود.

ـ لكنه بخلقتي بالليل والنهار.

ـ شو بدك نسوي فيه؟

ـ خذوه عن وجهي، ما عاد فيّ.

قال غزوان لأمه بحزن:

ـ أعصابك كثير تعبانة يا ماما، ولازم لك سفرة، حتى تغيري جو وترتاحي.

ـ لو الله ياخذني استرحت.

قال غزوان لكمال:

ـ الماما كثير تعبانة، يا كمال، ولازم نفكر بطريقة حتى نخلص من المشاكل...

ولما ظل كمال صامتاً ومنتظراً، تابع غزوان:

ـ لازم واحد من الاثنين: يترك القصر، وإلا تصير فضيحة...

وبعد قليل، وكأنه وصل إلى قرار:

ـ يمكن نبعثه للحريبة، أو لمرج بني نعيم، ونبعث معه واحد يهتم به، وهناك يخيّل بالنهار ويكتب بالليل، أو...

تردد قليلاً، ثم حسم أمره:

ـ وماما بتروح معي، بتقضي هناك كم شهر، إلى أن يفرجها الله، ويخلصنا!

وظلت الأمور معلقة، دون حل، لأن وداد قررت البقاء على أن تقضي أسبوعاً عند كمال، وآخر عند حامد، الذي وصل قبل شهور قليلة، حتى إذا استقر العمل وتأكدت، عند ذاك يمكن أن تفكر بالسفر!

عندما طالت الحرب وتشعبت أصبح لا بد أن تدخل في ذلك الدهليز الأعمى: المجهول. فهي تنشط حيناً، من خلال معركة، لأسباب طارئة، ثم تخمد وتنام شهوراً طويلة، وهكذا تحولت إلى نزيف وعلة؛ لا تشتد فتحسم، ولا تنتهي فتدفن.

الذين كانوا متحمسين في البداية، وتوقعوا نهاية سريعة ونصراً، فقدوا حماسهم وهم يرون الحرب تمتد وتطول دون جدوى. والذين كانوا خائفين من تطوراتها ونتائجها، وأبدوا تحفظهم أول الأمر، ضاقت صدورهم، وأصبحوا أكثر جرأة وحدة وهم يعلنون رأيهم، ثم وهم يشتمون.

السلطان الذي لم يكن يمل من حديث الحرب وتاريخ الحروب، اكتشف، بمرور الوقت، أن حربه تختلف عن كل ما قرأه أو سمعه، وأن رجاله يختلفون عن الرجال الآخرين، فالبدو الذين أظهروا حماساً خلال الشهور الأولى، لأن شيوخهم أكدوا لهم «كلها غارة والثانية ونجيب أجلهم، وبعدها بيكم حيل شيّلوا غنايم وامشوا» تبين لهم أن الأمر مختلف تماماً، ولذلك تراخوا ثم تراجعوا، ولم يجدوا في أنفسهم الرغبة لأن يلتحقوا بالجبهة في السنة التالية، إلا بشروطهم، ثم توقف معظمهم في السنوات اللاحقة.

والجيش النظامي، بحركته الثقيلة، وأسلحته التي تغرق في الرمال، لا يعرف من يحارب، أو كيف يحارب، ولذلك تحولت الخيام إلى أبنية ثابتة في معسكرات الحدود، ونمت الأعشاب والشجيرات الصغيرة في ظلال الأبنية وقريباً من مستودعات المياه. أما الأجانب الذين أبدوا نشاطاً كبيراً

في الأسابيع والشهور الأولى، فما لبثوا أن تغيروا، إذ بعد أن سافر الكثيرون بإجازات طويلة، ولم يعد بعضهم، فإن من عاد منهم انشغل مع أفراد الجيش النظامي في إقامة التحصينات، أو ملء أكياس الرمل، وخلال الوقت الطويل المتبقي كانوا يكتبون الرسائل والمذكرات، ويلعبون الورق، ويتعاركون.

أما الطيارون الذين كان يقع عليهم العبء الأكبر، فلم يعد يُسمع دوي طائراتهم، ولم تعد تشاهد، بعد أن سقطت عدة طائرات بظروف غامضة، كما قيل. وبعد أن توقف وصول المسعفات، بسبب مشادات ومعارك وقعت بين الطيارين أنفسهم، وأدت إلى إصابات وجروح، مما جعل الشركة العالمية تتوقف عن القيام بهذه المهمة، خاصة بعد غياب صفاء الشلبي، موكلة الأمر إلى شركة هولندية، بعثت بدفعة من «الممرضات» ثم توقفت أيضاً!

حتى الرجال الذين يحيطون بالسلطان، وكانوا يمتلئون حماسة للحرب، تغير موقفهم، وتغير الموقف منهم، أو على الأقل من أكثرهم، بعد التحقيقات التي جرت عدة مرات لمعرفة الطريقة التي تسربت بها تقارير عديدة من مكاتب السلطان، ووصلت إلى سند، ثم أذيعت من راديو الدواحس، وسبّبت الكثير من الارتباك والمخاوف، ولذلك أصبح التحفظ والشك، وحتى الخوف، ما يميز سلوك معظم هؤلاء.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فالسلطان الذي كان يجد التفهم والدعم من دول عديدة، وكان يتلقى منها السلاح، ما لبث أن أحس بتغير موقف هذه الدول، سواء بإمدادات السلاح، أو بملاحظاتها حول تطورات الحرب، أو بضرورة تقديم تنازلات من أجل الوصول إلى حل مناسب.

صحيح أن السلطان لم يتخل عن تهذيبه أثناء استقبال ممثلي الدول الأجنبية، وما عُرف عنه من الرغبة بسماع الملاحظات، وحتى وجهات النظر المختلفة، لكنه بدا خلال الفترات الأخيرة ضيق الصدر نزقاً، ولم يتردد مرات عديدة في الاعتذار عن استقبال هؤلاء إذا طلبوا لقاءه شخصياً.

كان يحيلهم إلى الوزراء أو المستشارين، كما أصبح ميالاً، إذا اضطر لاستقبال بعضهم، إلى اختصار مدة اجتماعه بهم، أو إلى اقتصار الحديث على الموضوعات التي جاءوا من أجلها فقط، دون التطرق إلى أحاديث عامة، عكس طريقته في التعامل معهم من قبل.

حتى أمراء مجلس الحل والربط، أو الربع، كما أصبح يطلق عليهم في الفترة الأخيرة، تيمناً بالتسمية التي كان يطلقها خريبط على رجاله المقربين، أصبحوا نمطاً مختلفاً في الشهور الأخيرة، أو هذا ما بدأ يحسه السلطان على الأقل. وقد دفعه ذلك إلى إهمال الدعوة إلى الاجتماع الشهري الذي اقترحه بنفسه بعد هرب سند والطيارين. أكثر من ذلك، بدأ يحس أن هؤلاء الأمراء يبدون اهتماماً بمصالحهم الخاصة اضعاف ما يولونه للحرب.

والناس في المدن والبلدات، وحتى في البوادي أو الواحات الصغيرة، إذ تعودوا الصمت، وتجاهل الحرب خلال الفترة الأولى، فإن المصاعب التي أخذت تتزايد، نتيجة سنوات المحل، ثم التيفوس الذي فتك بالكثيرين لم يعد أحد قادراً على احتمالها أو تجاهلها، خاصة وأن راكان زج الآلاف في سجون الصحراء البعيدة، واعتقد، كما قال لمساعد مرة، «أن أهل موران صاروا جيران مقبرة، فلا أحد يكلم أحد، ولا أحد يسأل عن أحد، لأن كل واحد منهم صار يلمّس على راسه، بعدما قصّينا كم راس» لكن راكان نفسه فوجئ بالدوي ثم بالشتائم. بل ووصلت معلومات، أخذت تتزايد يوماً بعد يوم، أن البدو يتسلحون، وأنهم ينتظرون الوقت المناسب، لكي يفعلوا شيئاً.

خشي السلطان من ردود الفعل، إذا زادت القسوة عن حدها، فطلب من راكان أن يفرج عن الكثيرين، بمناسبة يوم العرش، وقد أشاعت العناصر المرتبطة بالقصر هذه الأخبار، لكن فوجئ الجميع باعتقالات جديدة شملت معظم المناطق. أما الذين كانوا في السجون، فقد بدأت تتوالى الأخبار عن الإعدامات الكثيرة التي تجري بينهم، وحين سأل السلطان عن الأمر، كان جواب راكان مثيراً للشكوك:

ـ المؤامرات، يا طويل العمر، ما تنحصى وما تنعدّ: البدو والمساجين وتجار السوق، وما يندري من هو بعد.

ولما طلب السلطان معلومات أوفى وأدق، وعد راكان أن يقدم إليه تقريراً شاملاً. ومرت أسابيع دون أن يفعل، وفات يوم العرش دون أن يطلق سراح أحد من المعتقلين، فقال السلطان لمساعد بغضب، وقد تعمد ألا يلتقي براكان، لخشيته أن تأخذ الأمور بعداً أو حداً تصعب السيطرة عليه:

ـ . . . وتقول له: فنر السلطان، ما هو واحد غيره، وإذا كانت الماي سرحت تحت رجلين خزعل وما دري فيلزمه ما يغتّر.

وبعد قليل:

ـ يلزمه يعرف: تجيني علوم الصغيّرة والكبيرة، فإذا سكّتُ ما هو لأني ما أدري أو عاجز، وإنما لأن كل شيء بوقته زين، ويلزمه يتوقى غضبة الحليم، لأنها تخرّب الأول والتالي، وأعذر من أنذر.

ومثلما كان للسلطان رجاله وعيونه في كل الأماكن، تقريباً، فإن لمعظم الآخرين وسائلهم لمعرفة ما يدور هنا وهناك، خاصة لراكان، إذ نشر رجاله المعروفين وغير المعروفين، باعتباره وزيراً للداخلية، في القصور والأسواق، في المضافات والسجون. ومثلما كان له رجال في موران، كان له أيضاً في العوالي والحويزة، وكان يتشاور مع الخبراء الموجودين في الوزارة أو الذين يأتون بزيارات، ومن أجل مهمات محددة. ونتيجة كل ذلك أصبح أكثر حماسة لإنهاء الحرب، وأكثر خوفاً من نتائج استمرارها.

أما حين نقل إليه مساعد ما قاله السلطان، وإن بطريقة ملطفة، وبعد أحاديث عديدة، فقد رد بنزق:

ـ فنر تغيّر يا مساعد، تغير واجد. . .

وزفر، ثم تابع:

ـ ولا بد أنك تخبر كلامه قبل الحرب، أو بأيامها الأولى: «أسبوع

والثاني ونخليهم خبر بعد أثر. لاكسر عظامهم، واخرب ديارهم، واخليهم عبرة لمن يريد يعتبر» وغير هذا كثير، وأنت تذكره. أما بعد أن طالت الحرب، واختلف حساب القرايا عن حساب السرايا، فتراه داخ، وتاهت عليه. وأنت تعرف: غلطة الشاطر بألف. ولأنه ما يريد يعترف، بلش بأقرب الناس، وكأنه، هالحين، ناوي يجرب سلاحه براكان، لكن راكان لحمه يابس ومرّ، وحتى لو انطبخ ما ينوكل. . . يا مساعد.

وبعد قليل، وبحزن:

ـ وتقول له: لا تسمع كلام الناس ووشوشات الحريم، لأن هذي تخرب البيوت!

قالت فريزة خانم:

ـ . . . والهموم والأحزان، ما تحتاج من ينقلها، تنتقل وحدها، تعدي، والمهموم والحزين ما يرتاح إلا إذا حس أن الناس مثله، أو معه.

ردت ثروت بأسى:

ـ والله يا ماما لو افرّق أحزاني على ديرة أو عشيرة تزيد عليها!

ـ الله يساعده هو لأنه حامل فوق همومه هموم الناس كلهم.

ـ وأظن، يا ماما، أنه ما راح يهدأ له بال ويرتاح إلا إذا انتصر بهذه الحرب، فالله ينصره.

ـ من حلقك لباب السما، يا بنتي.

قال السلطان لغزوان:

ـ . . . والغريب، يا غزوان، أن الأميركان كل يوم برأي. قالوا لنا ابلشوا وحنا معاكم، ولما وقعت الحرب كانوا معنا، والشهادة لله. لكن ما مر كم شهر إلا وبدأوا يعنفصون: طوّلوا بالكم. خففوا هجومكم. يصير وما يصير. والسلاح. . .

ضحك بحزن، وأضاف:

ـ لو اعتمدنا عليهم وحدهم، كان صرنا كالأيتام على مأدبة اللئام، لأنهم إذا أعطوا أول يوم ما يعطون اليوم الثاني، وإذا أعطوا سلاح ما

يعطون ذخيرة. ونبوس أيدي ونترجى، ونقول لهم اللي تريدونه يصير، ويروح القنصل ويجي الملحق، ويروح الملحق ويجي الخبير: وهذا لازم وهذا ما هو بلازم، واليوم وباكر. . .

زفر وهز رأسه. ابتسم وهو يتطلع إلى عيني غزوان:

ـ لولا جهودكم ومعونتكم كان صرخنا المدد من زمان يا غزوان، وما ينعرف شنهو اللي صار بنا.

قال غزوان بلهجة رصينة:

ـ كان رأي شركتنا، منذ البداية، يا طويل العمر، الاعتماد على مصادر تسليح متعددة ومتنوعة، لأن مثل هذه السياسة وحدها تعطينا المرونة التي نريدها، وتجبر، حتى مصدري السلاح الأساسيين، على الاستجابة إلى مطالبنا بالكميات والمواعيد التي نريد، لأنهم يعرفون أنهم ليسوا المصدر الوحيد.

قال السلطان، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ الواحد ما يتعلم إلا من كيسه، يا غزوان، وهذول الأميركان، مع أنهم أصحابنا، إلا أنهم ما يتأمنون؛ برأسهم ألف سالفة، وجماعتهم من هنا لهناك، ومثل ما يسولفون ويّانا يسولفون وياهم، وما يندري!

قال غزوان، وقد بدا محرجاً ومبرراً:

ـ باكر يصحون لغلطتهم وتتبدل مواقفهم، بس يلزم نطوّل بالنا.

رد السلطان بنزق:

ـ باكرهم بعيد يا غزوان، واللي يده بالنار ما هو مثل اللي يناظر من بعيد، فإذا الواحد ما هزّ لهم عصا، وقرا على روسهم ليل نهار، يجوز ما يتفطنون بنا إلا بعد خراب البصرة.

كتب السفير الأميركي في أحد التقارير: «. . . من اللافت للنظر، خلال الفترة الأخيرة، أن السلطان أصبح إنساناً متعباً: تخلى عن المجاملة، والرغبة في أية أحاديث خارج موضوع الحرب. حتى الجانب السياسي من الحرب لا يوليه من الأهمية قدر اهتمامه بالقضايا العسكرية البحتة. ليس

ذلك فقط، انه لا يقبل وجهات نظر أخرى، لا أقول مختلفة، وإنما ترى الأمور بمنظار أوسع، أو من زوايا مغايرة.

«وحتى الود الذي يتبادله أي اثنين، وفي التعارف الأول، تحوّل إلى ابتسامة استقبال باردة، وإلى كلمات مليئة بالظلال والشك، أو لا تعني شيئاً. أما ملاحظاته حول سياسة الولايات المتحدة في المنطقة، فإنها تثير الانتباه والمخاوف. لا أريد أن أقول أنها عدائية، لكنها تفتقر إلى الود والتفهم. كما يعتبر أية صلة بالطرف الآخر وكأنها موجهة ضده. بل أكثر من ذلك أصبح يتخوف من بعض الأخوة نتيجة صلاتنا بهم. وإذا استطاع أن يكتم عواطفه، أو يموهها تجاه الأخوة، فإنه تجاه المستشارين، وعدد من كبار الموظفين، لا يتحفظ ولا يوارب، فقد جمّد بعض هؤلاء، أو استغنى عن خدماتهم، بحجة أو أخرى، وكأنه يريد أن يبلغنا أكثر من رسالة عبر هذه التصرفات وعبر هؤلاء.

«إن الملاحظة التي ذكرت لي، في وقت مبكر، حول صفات البدو، من حيث النزق، والتقلب، وعدم إمكانية وجود أو استمرار العلاقة، بسبب الاختلاف أو التفاوت بوجهات النظر... هذه الملاحظة كانت تبدو لي أقرب إلى المبالغة أو الكاريكاتير، لكن الآن اكتشف مدى صحتها، ومدى انطباقها أيضاً، خاصة بالنسبة للسلطان».

قال ابن البخيت للعجرمي:

ـ ... ورأي، يا أبو مشعل، أنك تسافر، لأن عين دامة تظل أرحم من موران. هناك لا عين تشوف ولا أذن تسمع. أما هنا، ومثل ما ينقال بالسوق: إذا ما تطربقت اليوم لا بد تتطربق ثاني يوم.

ـ عظامي تكسرت، يا عبدالله، وحيلي طاح. وفوق مرضي كل يوم والثاني يطرش جماعته: «يلزمك تجي تسلّم». «وطويل العمر يقول: «بطيت». وسوالف من هذا النوع، وهو يحفر من حدر، وما تعرفه راضي أو زعلان، معك أو مع غيرك.

زفر ابن البخيت وقال:

ـ وجاء في كتب التاريخ، يا أبو مشعل، أن أبا بكر الصديق قال:

«اشقى الناس في الدنيا الملوك. فتغامز الناس، فقال: أما علمتم أن الملك إذا ملك قصر أجله ووكّلت به الروعة والحزن، وكثر في عينه قليل ما في يد غيره، وقل في نفسه كثير ما عنده؟»(*).

وضحك بسخرية وهو يضيف:

ـ ظنينا أن خوينا عاقل ويفهم، وأحسن من خزعل، وراح يوم وجا الثاني، أثاري خوينا طلع اجن، لأنه أهلك البلاد والعباد، ومرد الأول والتالي. ذاك المسكين كان ملتهي بحريماته وبيضاته، وكان كافي الناس شرّه؛ لكن ما ينحزر على البني آدم إلا اذا تجرّب!

قال السلطان لنفسه: «أبوي كان يعرف الرجال: متى يتعاون معهم، ومتى يخلّيهم يشبّون على بعض. وهذه السالفة صحيحة من يوم نبي الله يعقوب. حتى موسى النبي ما قدر يتفاهم مع أخوه هارون. غاب عنه كم يوم، فلما رجع لقى بني إسرائيل يعبدون العجل. ورإكان من يوم ما رخيت له الحبل فلت. وإذا ما سوّى مثل سالفة سند يسوّي غيرها، فيلزم يتأدب ويعرف حدوده. وابن المحملجي هالحين سنده، يده ولسانه وفلوسه، وما لنا إلا نخلّيهم قوم. ونشوف».

غزوان الذي رجع إلى الولايات المتحدة بآمال كبيرة، لكن بقلق أكبر، قال لإليانور:

ـ أولهم وآخرتهم بدو. الفلوس عمتهم، والواحد منهم يحسب ما عنده من فلوس ويقارنها براتب رئيس الولايات المتحدة، فيظن أنه أقوى وأهم من الرئيس، وبالتالي يفترض أنه أصبح قادراً على أن يفعل ما يريد، حتى بالنسبة للولايات المتحدة...

ضحك بحزن، ثم أضاف:

ـ حتى السلطان الذي كان يبدو لي في منتهى التعقل والاتزان، الذي تعلّم السياسة على أيدي رجال أكفاء، بدا في الفترة الأخيرة أنه تغير تغيّراً

(*) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ص ٣٧٣.

كبيراً. أصبح نزقاً ويريد أن يملي شروطه. ولذلك أفكر أن نغيّر صيغة علاقتنا. . .

إليانور التي كانت تعلق آمالاً كبيرة على المشاريع الجديدة، وقد حصلت على وكالة لإنشاء سلسلة من مطاعم الغذاء السريع، فوجئت بكلام غزوان، سألت بقلق:

ـ المشاريع التي نقوم بها ليست لها علاقة بالسياسة، بأي شكل، فلماذا تحدثني عن راتب الرئيس وتغير السلطان، وكأنك تفكر بإعادة النظر؟

ـ الاقتصاد، يا إليانور، هو الأب الحقيقي للسياسة، هو الذي يوجهها، ويعطيها ملامحها، ويخلق رجالها، فإذا حصل خطأ لا بد أن ينعكس ويؤثر. . .

ابتسم بحزن، وبعد قليل وكأنه يتذكر:

ـ البابا، قبل سنوات، يا إليانور، انشغل بأمور صغيرة: انتخابات غرفة التجارة، أو غرفة الصناعة، لا أتذكر، ورغم أني نبهته عدة مرات أن السياسة ليست هذه الأمور الصغيرة، التي لا تعني في النهاية أي شيء، إلا أنه رفض أن يسمع. قلت له: الذي يسيطر على السلطة تكون له علاقة أقوى بمركز القرار، والقرار، منذ سنوات، في الخارج، وليس عند شيوخ البدو أو أعضاء غرفة التجارة، ولما رفض البابا أن يسمع مثل هذا الكلام، دفع الثمن من صحته ومستقبله. . .

هز رأسه عدة مرات، وبدا مهموماً:

ـ السلطان اليوم يكرر نفس الخطأ، وأنا لست مستعداً لأن أشاركه هذا الخطأ.

ردت إليانور بنزق:

ـ أنتم الرجال، يبدو أن الصفة البيولوجية تؤثر عليكم في كل خطوة: حين تريدون إقامة علاقة مع امرأة، تظهرون رغبة وودّاً غير محدودين، وعندما تشتعل تلك المرأة وتستجيب، وبعد أن تتم تلك العلاقة، تديرون

ظهوركم، وكأن كل شيء قد انتهى، في ذات اللحظة التي تبدأ فيها مشكلة المرأة. . .

ابتسمت بسخرية، لأنها تذكرت الفترة الأولى من حملها، وكيف كان يعتبر ذلك مادة للتندر، في الوقت الذي كانت فيه تعاني. الآن، وبعد أن شجّعها على البدء بالمشاريع التجارية، يتخذ هذا الموقف المتنكر، قال، وهو ينظر إلى البعيد:

ـ ليست المسألة، يا إليانور، مسألة بيولوجية، أنها مسألة عقلية بالدرجة الأولى: كيف نتخذ مواقف صحيحة في الوقت المناسب.

ـ دائماً تقول الكلمة ذاتها عندما تريد أن تبرر مواقفك.

ـ لا تغضبي يا عزيزتي، لأن هذه الكلمة وحدها الصحيحة. . .

وبعد قليل:

ـ لا تكون المواقف صحيحة أو خاطئة بذاتها، وإنما من يتخذها، ومتى يتخذها، ولماذا. هذا الذي يعطيها صحتها النسبية، والتي تصبح بمرور الوقت صحة مطلقة.

وظلت الأمور معلقة، بحماس إليانور، وعدم اهتمام غزوان!

ابن العليان، بعد الفتور، ثم القطيعة، بينه وبين السلطان، بدا مهماً وخطيراً حين اتفق مع الورداني لإقامة مشاريع مشتركة، خاصة في بناء الطرق وتنفيذ تعهدات الجيش. وحين بدأ التنافس بين راكان ومساعد. قال الأمير مساعد للورداني:

ـ . . . حنا ما لنا اعتراض على غزوان ومشاريعه، لكن غزوان بعيد، ولا يعرف حاجاتنا، فنريد واحد قرّيب، يتشاور معنا ونتشاور معه، لأن هذه حرب، والمعركة كل يوم بمكان، وكل يوم تحتاج شي جديد، فإذا كانت المسألة كتابنا وكتابكم، وخبراء ودراسات، وبعد شهر واثنين، فتراها راح تتلاص علينا، ونتعب.

بان عليه الغيظ. دق على الطاولة، وأضاف بحنق:

ـ ابن العليان عرض نفسه، وعرض آلياته، من الأيام الأولى للحرب،

والرجال عاوّنا، وله دين في رقابنا ما يوفيه لا مال ولا رجال، لكنه ما يقدر وحده، فقلت لروحي: ابن العليان والورداني واحد يكمل الثاني، فاريدكم تتفقون، ومني عهد أن كل المشاريع تنحال عليكم.

قال راكان يرد على غزوان تلفونياً:

ـ موافق، لكن يلزم تطرشون أحد لمساعد، لأنه ميبّس راسه، ويقول: يصير وما يصير.

وبعد قليل:

ـ لا... السلطان ما يدري.

ـ ...

ـ لا... وحتى هذا ما يدري.

ـ ...

ـ وافترض أنه يعرف، شنهو اللي يقدر يسويه؟

وقبل أن يستمع إلى كامل الجملة، أو كامل السؤال تابع:

ـ من رأي يلزم تتصلون به، لأنه آخذ على خاطره، ويقول إنّا أكلنا الأخضر واليابس، وإنّا ما تركنا له أو لغيره شيء.

ـ ...

اعرف... اعرف، لكن يلزم نداريهم، ونترك لهم فرصة.

قال عثمان العليان لابن البخيت:

ـ ظلمناهم يا أبو بادي، قلنا إنهم ما يعرفون إلا أرواحهم، لكن، والشهادة لله، بعضهم يفتهم وما ينسى...

وضحك وهو يضيف:

ـ وهالحين إذا نزلت للسوق يسولفون لك أن كل شيء تغير، السوق تحرك، والناس اشتغلوا، والدنيا صارت بخير.

رد ابن البخيت بسخرية:

ـ أي نعم، كل شي تغيّر، وما ظل ألا تهيلون التراب فوق العباد وتدفنونهم أحياء...

وتغيرت لهجته:

- مصائب قوم عند قوم فوائد.

قهقه عثمان العليان، وبعد أن هدأ:

- أنت، يا أبو بادي، ما يعجبك العجب، ولا الصيام برجب.

ضحك ابن البخيت، هز رأسه، وقال:

- تذكر شنهو اللي يقولونه بمصر؟ يقولون: اسمع كلامك يعجبني، أشوف أفعالك أتعجب!

- هذا اللي حفظته من مصر؟

- وسمعت، طال عمرك، غيره: قالوا للديب ح يسرحوك في الغنم قام عيط قالوا دا شيء تحبه، قال خايف يكون الخبر كذب!

وبعد قليل:

- السلاطين والأمراء ما يتأمنون، يا أبو عزيّز، وأنت اللي قايل لي هذا الشي، أشوفك اليوم رجلك على رجلهم، فخاف يصير بك مثل ما صار بالغراب والأرنب عندما قسم بينهم القرد.

- لا تخف، وأنا أخوك، يا أبو بادي، تقلعت ضروسي واعرف الناس زين.

قال سعيد الأسطة لرضائي، بعد أن اتفق الورداني وابن العليان، وبمشاركة الأمير مساعد:

- ... اللي ما عنده أمير لازم يشتري له أمير حتى تمشي أشغاله بموران، وإلا راحت عليه!

رد رضائي بحزن:

- اللي تقوله صحيح يا أبو شكيب، لكنه لا يدوم، وتذكر الحكيم، صاحب وناسب وبعدين وقع وانكسرت رقبته.

رد سعيد وكأنه يخاطب نفسه:

- قبل ما تنكسر رقابهم راح يخربون بيوتنا، ويطلعونا من السوق يد من ورا ويد من قدّام.

ـ أحسن شي، يا ابن الحلال، نلبد بهذي الأيام، نشتغل شغلة هنا وشغلة هنا إلى أن يفرجها رب رحيم.

قال سعيد بسخرية:

ـ إذا نحن نقول هذا الكلام فشلون راح تصير أحوال الناس؟

قال محمد الحنيطي، وهو مستخدم في كراج سفريات البادية، وقد سمع الناس يتحدثون عن الشركات والأعمال التي صارت للأمراء، بمشاركة كبار التجار:

ـ حنا الفقراء رايحة علينا إذا اتفقوا وإذا ختلفوا، لكن والشهادة لله، اختلافهم رحمة، لأنهم إذا اتفقوا يتفقون علينا، وحنا ما عاد بنا حيل مثل قبل حتى نتحمل!

قال أهل السوق:

ـ يا كبدها يا موران، تحمل وتصبر، لكن يلزم غيرها يحمل ويصبر!

واستمرت الحياة. استمر المحل، واستمرت الحرب تشتعل وتنطفىء، أما الصعوبات التي كان يشكو منها الناس فقد زادت، وزاد معها الظلم. فقال الكثيرون: وما من ظالم إلا وسيبلى بأظلم.

ومثلما بدأت الحرب مفاجئة، انتهت دون أن يحس بها أغلب الناس. ربما انتهت نتيجة التعب، أو اليأس، وربما جاء من قال للطرفين: انهوا الحرب أيها المجانين، لأنها لم تعد ضرورية، ولا تفيد أحداً. لكن الحرب، قبل أن تنتهي، قضت على الكثيرين، لأنها ترافقت مع الوباء والجوع، ثم جاء القحط أيضاً سنين متوالية، لتصبح موران مقبرة كبيرة.

قيل إن خلقاً كثيراً مات في تلك السنين. ماتوا جوعاً وقتلاً، ثم جاء الوباء فقضى على الصغار والمسنين. وقيل إن كثيرين ماتوا فجأة. كانوا يقلّبون عيونهم في صفحة السماء أو في وجوه الصغار والنساء، ثم فجأة التوت أعناقهم وصمتوا نهائياً، خاصة نتيجة الجو الذي خلقه راكان، فقد جعل كل إنسان أكثر زهداً بالحياة، وأكثر رغبة بالهجرة أو الموت. أما الكلمة التي قالها ذات يوم لأخيه مساعد سراً، فلم تعد كذلك في نهاية الحرب وبعد ذلك بسنين. حتى أفراد الجهاز، وعدد كبير من الحاشية، ثم بعض العاطلين عن العمل، وكانوا يتظاهرون بارتباطهم بالجهاز، كانوا يرددونها: «والله لنخلي أهل موران جيران مقبرة».

كتب أحد الدارسين لآثار الحرب على السلطنة: «. . . من اللافت للنظر أن من جملة نتائج الحرب: غياب جيل من الرجال أعمارهم بين العشرين والأربعين، فهم اما مجندون أو مهاجرون، أو أنهم في حالة تبعث على الأسى نتيجة الإصابات والعاهات، هذا عدا عن الجنون أو الخبل الذي يميز عدداً كبيراً. أما النسوة فقد غرقن في حالة من الحزن الشديد، وأصبحن أقرب إلى التصوف. والمسنون في حالة من الغياب

الكامل والذهول، رغم وجودهم الكثيف في كل مكان».

الذين قضوا فترة خارج موران، في تجارة أو لتأمين ما يمنع الجوع، ثم عادوا لم يصدقوا أن تصبح مدينتهم وناسها هكذا. صرخوا، شتموا، وفي محاولة أخيرة لمنع ما هو أسوأ رفعوا أيديهم مهددين، لكن أغلب هؤلاء انتهوا إلى سجون صحراوية بعيدة، وقد قضى قسم منهم في الطريق إليها، ماتوا قتلاً أو ماتوا غيظاً.

كان عبدالله البخيت إذا جاءه خبرُ واحدٍ من الذين يعرفهم، يرفع رأسه إلى السماء ويسأل:

ـ يا صاحب الخيمة الزرقا، طلبنا منك تلطف، ما طلبنا تسوي الواحد منا عجبة، وإلا نسيت؟

يتطلع إلى الوجوه حوله، يمسد على لحيته، ويتابع بحزن:

ـ وكأنه ما يكفينا عذاب الله، هالحين جاء عذاب العبد. والعبد يبيّن من اسمه...

وبعد قليل يصرخ:

ـ احشفاً وسوء كيلا؟

ولأنه ردد العبارة الأخيرة مرات كثيرة فقد أصبحت مألوفة ويرددها الآخرون.

جاء صحفي بلجيكي ليعدّ تحقيقاً عن موران بعد الحرب، فكتب في أوراقه الخاصة: «ومن أغرب ما يلفت النظر في هذه المدينة أنها تفتقر كلية إلى الشباب. أنها مدينة جديدة من وجوه عديدة، لكن يسكنها المسنون والأطفال فقط، وكأنها مصحّ، خاصة وأن عدد المجانين والمعتوهين كبير وتصطدم بهم أينما ذهبت».

أما بعثة الصحة العالمية التي جاءت من أجل مكافحة مرض الملاريا، وكان أعضاؤها خليطاً من جنسيات وأماكن مختلفة، فقد واجهت صعوبات جمة في جمع المعلومات، لأن السنوات الأخيرة كانت شديدة الجفاف، بحيث لا وجود لأية مستنقعات، أو تجمعات مياه. أما المسنون الذين سئلوا عن أماكن تجمع المياه ومواعيدها وكمياتها، فقد أجابوا إجابات

غريبة أثارت الضحك، مما دعا شفيق عوض أن يكتب في المذكرة التي رفعها إلى رئيسه: «إن أحد الأسباب الأساسية لوجود البعوض، كما هو معروف: وجود المياه الراكدة، وفي أوقات محددة من السنة، وهذا السبب لا يبدو قائماً، أو حتى ممكناً، في هذه البلاد؛ إذ لا تكاد تهطل الأمطار، حتى تمتصها الرمال، وما يبقى منها تبخّره الشمس المحرقة خلال فترة قصيرة، غير كافية لتوالد البعوض، وبالتالي لانتشار هذا المرض. وأعتقد أن بعثتنا وصلت إلى هنا نتيجة خطأ، أو لسبب لا يبدو لي واضحاً».

وهكذا بدت موران بنظر الكثيرين أشبه ما تكون بالمقبرة، فليس في هذه الأرض ذرة من فرح، خاصة حين انقطعت الأمطار وشحبت الأرض، وأصبحت لا تفتح جوفها إلا لتستقبل ضيوفاً جدد، وأصبح الناس لا يرون فيها سوى القبور، ولولا أن هذه القبور تعني لهم شيئاً لما بقوا.

يتذكر أهل موران كيف كانت مدينتهم تفتح عينيها كل صباح على أمل أو على خبر، وكيف كانت تستقبل القوافل والغرباء والرعايا، وكم امتلأت بالفرح والضحكات الصاخبة والأهازيج، ومنها كانت تنتقل إلى الأماكن الأخرى، ومعها القصص والنكات، وما حصل لفلان من الناس حين زار موران أول مرة. أين سكن وكيف رأى المدينة، وعلى من تعرّف هناك. الآن موران قبور وشحوب وغرباء. قال بعض المسنين في السوق العتيق: «من يوم ما جانا الغرباء، ونزّ من الأرض البول الأسود، خاست». وقال غيرهم في نهاية السوق، قريباً من حي القلعة: «القحط وحده يكفي، أما إذا ترافق مع حرب وسلطان غشوم فالدنيا بآخرتها، ولا بد أن تقوم القيامة أو يجي المهدي» لكن الساعة تأخرت والمهدي لم يأت، رغم أن النسوة أبلغن الصغار أن الخضر آت ومعه المهدي. قلن هذا الكلام لمواساة النفس وتقوية العزيمة، وكن مستعدات، ومعهم الصغار، للانتظار زمناً طويلاً.

مع هذا الأسى الذي يعم ويفيض، يزداد الأمراء عدداً وغنى يوماً بعد آخر.

فما كادت الحرب تنتهي حتى أصبح أكثر الأمراء في حالة من الغنى لم

يتوقعوها ولا تخطر ببال. أصبحوا، وحدهم، يملكون الأموال، في موران وفي الخارج، وكثيراً ما أخطأوا في تحديدها وتقديرها. وأصبحوا الذين يملكون شركات البناء وشركات الاستيراد. وإذا كانوا قد ترددوا في أن تظهر أسماؤهم، أو أن يعرف الناس في بداية الأمر، فلم يعبأوا بذلك، في وقت لاحق، تعبيراً عن القوة والتفوق. صحيح أنهم لا يقومون بالأعمال بأنفسهم، وإنما من خلال وكلائهم، أو عن طريق بعض التجار، بعد أن أخذوا ضمانات ثابتة، لئلا تتكرر قصة صفاء الشلبي، وقد ظلت هذه القصة مثاراً للتندر، الأمر الذي جعل راكان يشعر بالإهانة، وبغصة في قلبه لا يمكن أن تنتهي «إلا إذا شلّخت الشلبي وسوبيته ألف وصلة» كما كان يقول. لم يقتصر الأمر على الأمراء الرجال والكبار، فإن الأمراء الفتيان، وبعض الأطفال، أقيمت المشاريع والشركات بأسمائهم. وبدأت موجة من التنافس بين هؤلاء في بناء العمارات الكبيرة والأسواق، أو في استيراد السلع النادرة. لقد حصل ذلك لأنه لم يكن لائقاً لنساء القصور من الأميرات الأمهات والأخوات أن يفعلن ذلك مباشرة، مما اضطرهن للقيام بها من خلال الصغار!

والعادة أنه إذا جاء الخير يعم ويصل إلى الكثيرين، لكنه في موران، وخلال تلك الفترة، فقد اقتصر، بعد الأمراء، على رجال الحاشية والأقارب، وعلى عدد محدود من التجار فقط، إضافة إلى الوكلاء والذين يقومون بالأعمال مباشرة. كان هؤلاء يحصلون على العطايا، والهدايا الكثيرة، وكانوا ينفذون الأعمال والمشاريع التي يعفّ الأمراء عن التزامها، لصغرها أو لعدم أهميتها، وكانوا أيضاً ينهشون من هنا وهناك، حين تواتيهم الفرصة، وحين ينشغل الأمراء ويسهون، كانوا يفعلون ذلك بكثير من الحرص والمهارة، وبسرية كاملة، ودون أن تظهر آثار الغنى!

السلطان في قصر السعد، لا يراه الناس، إلا نادراً، لانشغاله بترتيب الأوضاع في فترة ما بعد الحرب، لأنه يعتبر أن حروب السلام، بعد أن توقف هدير المدافع، هي الأصعب، ومن خلالها سيصل ويحقق ما عجزت عنه القوة العسكرية.

قال السلطان لمجلس الربع، بعد أن مضت فترة طويلة دون أن يلتئم هذا المجلس:

ـ . . . وإذا سألتوني، يا جماعة الخير، شلون صارت الأمور، فبعد ما أكدنا لهم قوتنا، وأنهم لا يقدرون علينا، وبعد ما توسط أولاد الحلال، وقالوا يلزم تتصالحون، ولما تقابلنا وتلاقت العيون، واعتذروا، وقالوا عفا الله عما مضى، قلت لهم: ما يخالف، وإن شاء الله تكون هذه آخر الحروب بينا. وقلت لهم: الحرب صعبة، لكن الأصعب منها أن تصفي القلوب، وحنا، من ناحيتنا، صفت قلوبنا، وحنا أولاد اليوم. قالوا: حنا نريد نبني بلدنا، ونلتفت لأشغالنا، وعهد علينا أن نسالم من يسالمنا ونعادي من يعادينا. وابتداء من اليوم، إنشاء الله، ما تشوفون منا إلا كل خير. . .

ابتسم، هز رأسه، وهو يضيف:

ـ وتعرفون: الكلمة الطيبة تطلع الحية من جحرها، وتغسل السم من القلوب، وهذا ما صار، والرأي رأيكم.

قال راكان بنزق:

ـ أهل الدواحس ما يتأمنون، يا طويل العمر.

قال مساعد، وهو يعبث بأزرار ثوبه الذهبية:

ـ اعتبر أن ما قد يحصل بيننا وبين الدواحس، مجرد هدنة، قد تكون هدنة طويلة، لكن الحرب لا بد تنفجر مرة ثانية، بعد سنة، بعد عشر، الله أعلم.

قال راكان بعد أن سحب نفساً عميقاً:

ـ المصيبة وقعت، والنار اشتعلت، لأنه من يوم ما تغير الوضع هناك، جماعتنا فجموا، عين الواحد مثل البريزة، ولسانه شبر، وما عندهم شغل إلا يديرون الراديو من محطة للثانية، يسمعون ويسولفون، وبعدها يقسّمون: فلاني وتركاني، هذا أخذ، وهذا بلع، وهذا عنده هالكثر، وهذا ما خلى لغيره، وبك حيل وسكّت هالأوادم. . .

وزفر، نظر بطرف عينه إلى السلطان لكي يقرأ في وجهة رد الفعل، فلما وجده حزيناً، تابع:

ـ هذا كله من تأثير الدواحس، واللي صار بالدواحس.

قال مزيد:

ـ من رأي اللي صار بينا وبين الدواحس ما يروح بالهين، ولا بيوم أو اثنين، فخلنا مستعدين ونراقب. إذا صدقوا خير وبركة، وإذا لا والله، فسلاحنا جاهز والبادي أظلم.

رد راكان بحدة:

ـ المسألة، هالحين، يا مزيد، ما عادت دبابات وطيارات، وما هي على الحدود، وصلت النار لثيابنا، وصار الخطر من جماعتنا.

قال مساعد ساخراً:

ـ إذ ناظرت الكثيرين تقول: البّس ياكل عشاهم، لكن، والشهادة لله، صاروا اخبث من الحصينيات والعن عن لهايات الرعيان. إذ سألتهم، يقولون: «ما ندري، ما سمعنا»، وإذا غبت عنهم ساعة، أو سهيت، ما يخلون ستر مغطى، وهذا أبو منصور يعرف كل سوالفهم، وخله يسولفوكم.

قال راكان:

ـ الله أكبر إذا ولونا، لن يبقوا ولن يذروا، ويجوز ما يبقى منا مخبّر.

سأل السلطان بسخرية:

ـ هذول هم جماعتنا، يا أبو منصور، ردنا أو ما ردنا، فشنهو دواهم برأيك؟

فوجئ راكان بالسؤال، وكأنه لم يتوقعه، أو لا يملك له جواباً، وبعد لحظات صمت، والعيون تتابعه، أجاب:

ـ لما بدأنا الحرب، طال عمرك، جزرنا كم راس، فتأدب الناس. ومن رأي، هالحين، نجزّ كم راس ونجزها أو نجززها، حتى يفهم القريّب والبعيد أنه ما عندنا لحية مشّطة، وحنا حنا بالحرب وغير الحرب، لأن

أهل الدواحس ما وافقوا على انتهاء الحرب إلا لأنهم، ويجوز غيرهم، مراهنين على تحريك الناس هنا وهنا، واللي ما قدروا يصلونه بالحرب، يجوز بفكرهم أنهم يصلونه بطريقة ثانية.

قال متعب:

ـ يا جماعة الخير، ترى الناس ضاقت أرواحهم وشبعوا موت، فيلزمنا ما نزيد، وإلا تصير مثل القشة اللي قصمت ظهر البعير، باكر الناس تطلع بروسهم، ويسووا اللي ما يتسوى.

رد راكان، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ يخسون، نكسر روسهم ونلعن والديهم. . .

وبعد قليل، وموجهاً الكلام إلى السلطان:

ـ هذا رأي، يا طويل العمر، ويلزم باكر أو اللي عقبه، ما تعتبون ولا تسألون: ليش صار فلان شيء، وفلان شي.

رد السلطان، وخرج صوته عميقاً:

ـ من رأي: ضربة على الحافر، وضربة على النافر، خد وعين، مرة نتساهل والثانية عين حمرة، لأن القوة وحدها، يا أبو منصور، ما تفيد، وإلا. . .

ابتسم وهز رأسه، ثم أضاف بلهجة مختلفة:

ـ حتى صاحبنا، قال بكتابه، ولا بد قريتوه: «تتخذ التدابير اللازمة لارتكاب العنف والقسوة فوراً ومرة واحدة. ويجب أن لا يُعاد إليها من يوم لآخر، وهكذا يتمكن الأمير عن طريق عدم القيام بتبدلات جديدة من خلق الطمأنينة عند شعبه واكتسابه إلى جانبه عن طريق القيام بالمشاريع النافعة له» ورأي أن ما قاله صحيح وسهل، وهذا وحده يخلصنا من كلام الناس والعداوات. أما كل يوم والثاني إعدامات، فترى يجي يوم الناس ما يخافون من الموت، ولا يهابونه، وهذا أخطر شي.

بعد مناقشات طويلة أغلبها على شكل أسئلة واستفسارات، تم الاتفاق على أن تظهر الدولة اللين، وأن تبدأ مجموعة من المشاريع، للتدليل على غناها وقوتها.

عناد الرشيد، طالب الدراسات العليا، وكانت رسالته حول: الأسس المعيارية في بناء الشخصية، كتب في أوراقه الخاصة ما يلي: «. . . الصحراء هي البيئة، والبيئة ليست مجرد مكان، أنها عقل وسلوك. ورغم أن العقل ابن المكان، أي البيئة، إلا أن التأثيرات المتبادلة، وضمن نسق من المتغيرات المتحركة والمتبدلة، خاصة في العصر الذي نعيشه، تجعل المكان وحده، كبيئة منعزلة ومحصورة، ليس كافياً في تفسير الشخصية. أي أن الجغرافيا، والتي يصرّ عليها بعض العلماء، ويجعلها أساساً في بناء الشخصية، ومن ثم تفسير سلوكها وردود فعلها، لا تكفي في فهم شخصية الفرد، وبالتالي في فهم شخصية المجتمع. أما ما هي العوامل الأخرى المضافة، المتغيرة والثابتة، فإن هناك مجموعة من الفرضيات يمكن أن تساعد في إعادة تحليل وتجزيء، ثم تركيب جديد، وحسب انساق، لكي نصل إلى أوليات قد تساعد في فهم الشخصية».

قال فياض الفريح، مختار حي سبيع، حين اجتمع السلطان مع المخاتير:

ـ أنت، طال عمرك، أب للجميع، والأب صدره واسع، ويلزم يعرف كل شي.

رد السلطان، وهو يبتسم:

ـ هات اللي عندك يا فياض.

ـ خاف اللي عندي ما يرضي، يا طويل العمر.

ـ خلنا نشوف.

ـ موران، يا طويل العمر، ضاقت روحها، وناسها صاروا ناسين: أغنياء فوق الريح، وفقراء ينامون جوعانين، وهذا أبد ما صار. وإذا كان الرزق من الله فالعدل من العبد، وبعد ما الحرب انتهت يلزم الخير يصل الناس.

قال السلطان بطريقة فخمة:

ـ الناس، يا فياض، من يوم ما الله خلق الدنيا، ما أحد يرضيهم: آكلهم الحسد، ويحبون السوالف، وكل واحد يتلبد للثاني، والواحد بعقله

رضي برزقه ما رضي، وأنت تعرف: رضا الناس ما ينّال، يا فياض، وأنت مختار وتدري.

ـ اللي ادريه، يا طويل العمر، أن الناس يريدون: الإنصاف والستر والسلامة، وهذه الأمور ولا أسهل منها.

ـ كل واحد من اللي قلتهم، يا فياض، يجرّي دمايات قبل ما يصير.

ـ اللي تشوفونه يا طويل العمر، بس اللي عندنا قلناه.

ـ توكل على الله، وما يصير إلا الخير.

أما الخير فقد جاء على شكل لم تره موران من قبل: السجون فتحت أبوابها، وضاقت بمن فيها، فاستحدثت سجون جديدة. المخبرون في الشوارع والمضافات، وهم مكشوفون إلى درجة يدّلون على أنفسهم. لا أحد يجد عملاً أو يريد سفراً إلا إذا وافقت أجهزة لا يُعرف من هي وما أسماؤها. ولكثرتها أعطيت أرقاماً، أو أسماء غريبة. المال عند الدولة وحدها تعطيه لمن تشاء، بغير حساب. الناس يتراكضون ويتساقطون، وكل شيء لم يعد كما كان من قبل. التجار يشكون والموظفون يشكون. البدو يشكون والحضر يشكون. من لم يسجن، فلا بد أن يكون له قريب سجين. ومن وجد عملاً فلا بد أن يكون أحد من أقاربه أو معارفه يدق أبواب الأجهزة يوماً بعد يوم لكي يسمح له بالعمل أو بالسفر. وإذا قال أحد كلمة فهناك آذان تلتقطها بسرعة وتنقلها، وعندها يبدأ الحساب.

قال الذين عاشوا في تلك الفترة، ان الدنيا بدأت تصغر وتضيق حتى أصبحت كحبة الخردل.

وقالوا: الأغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقراً.

وقالوا: اختلطت الأمور، واختلت المقاييس، فلا أحد يعرف ما هو الصحيح وما هو الخطأ، ما يجب أن يفعله، وما يجب أن يجتنبه. وفي أواخر الليل، ما بين الفجر الكاذب والفجر الصادق، كانت تكسر أبواب البيوت، ويدخل رجال بسحنات القرود، وبأيديهم الأسلحة، ويأخذون الرجال والفتية، وما يمكن حمله ويذهبون.

قال المسنون: آخر الزمان.

وقالت النسوة: لا بد أن يأتي المهدي، ومعه الخضر.

ـ وقال المعتوهون: المطر والماء والسماء.

ـ وقال العقلاء: اصبروا، فالصبر مفتاح الفرج.

وقال الشجعان: ليس بعد الصبر إلا القبر.

ـ وقال الفتيان: كانت موران جنة ولا بد أن تعود.

قال راكان: اعتقلوا، واقتلوا، ثم حققوا.

قال السلطان: انتبهوا، يا جماعة الخير.

قال عبدالله البخيت: في نهايات العصور تكبر الآذان وتصغر العقول.

قال سائح: أغرب شيء في هذه المدينة أنك لا تفهمها، ولا يمكن أن تحزر عليها.

قال غزوان: موران لا تحكم إلا من بعيد، وكل ما اقترب منها الإنسان فقد قوته وقدرته على السيطرة.

قالت داود الحايك: لا بد أن نسافر، لأن الحسد ملأ القلوب.

قالت فضة: الأمل كله براكان.

قال فياض الفريح: قبل سنين كانت موران: حي القلعة وحي سبيع، الآن، تدور على حي القلعة وعلى حي سبيع بسراج وفتيل وما تلقى منهم أي أثر. والرجال كانوا من قبل، أما هالجين... فما أدري!

قال مساعد لزوجته الجديدة: وبعد فنر راكان، وبعد راكان كليّمك. فضحكت الزوجة وقالت: عساها ما تطول.

قال مزيد بن خريبط: الله يستر، فالناس غير الناس وموران غير موران.

قال رأفت شيخ الصاغة: «... ومن الأمور التي تبعث على التساؤل والتفكير، أن عدداً من الأمراء يتصرفون بطريقة خاطئة، سواء في جمع الثروة، أو تحدي مشاعر الناس، أو في التنافس فيما بينهم، ولا بد من بحث الأمر مع السلطان، ولفت نظره إلى هذه التجاوزات».

قال ليفي شاوات لغزوان:

ـ اسم شركتنا: الشركة العالمية للتصدير. وهذه مهمتنا، وهذه صفتنا، ولا بد أن نتمسك بذلك، فإذا كان الأمير راكان راغباً في أن يتسلم صادراتنا فعليه أن يقيم شركة أخرى لتتولى الأمر.

رد غزوان وهو يقهقه:

ـ موافق مائة بالمائة، وإليانور موافقة أيضاً، خاصة بعد أن تخلصنا من تجربة المطاعم السريعة، فالناس هناك لهم مزاج لا يمكن أن يتغير بالسهولة التي افترضناها، لا بد للزمن أن يلعب دوره. فلنترك لهم الأشياء التي يستطيعون القيام بها أحسن منا، ولنثبت لهم أيضاً أن القرار أصبح بأيدينا، رغم آلاف الكيلومترات التي تفصل بيننا.

سوف ينقضي وقت طويل قبل أن يُعرف، على وجه الدقة، ما حصل في ذلك اليوم من أيام الربيع المبكرة. فحراس قصر السعد كانوا يتدثرون بالفروات خلال ساعات الصباح الأولى، حين تراءى لهم السلطان بكامل ملابسه ينزل درجات القصر، ويتجه يميناً نحو حديقة الزهور، ويختفي. ظلوا في شك، لأن الوسن، كان يداعب أجفانهم، وكان مروره خفيفاً سريعاً، إضافة إلى أنهم لم يتعودوا مشاهدته في مثل هذه الساعة المبكرة.

فريزة خانم أفزعها حلم في الليل المتأخر وأيقظها، فلم تستطع أن تعاود النوم، لذلك انتبهت للحركة المحاذرة في الجناح المجاور، إلى أن سمعت نحنحة السلطان فتأكدت، ورغم أنها كتمت أنفاسها وانصتت، إلا أنها لم تسمع صوت ثروت أو ضحكتها، فقررت أن تفتح باب غرفتها بشكل موارب، لعلها ترى السلطان قبل أن يخرج لتصنع له القهوة ولتقرأ على وجهه إن نام نوماً عميقاً أم لا. لكن السلطان مر بسرعة متجاوزاً غرفة فريزة خانم دون أن تتمكن من تحيته أو رؤية وجهه.

أما نصار الذي تعود أن ينام في الغرفة الجانبية، عند الدرج المؤدي إلى الباب الخارجي، وكان الباب يفتح من داخل هذه الغرفة، فقد صدف أن غاب عن القصر هذه الليلة والليلة التي سبقتها، بسبب زواج ابنه تركي. كان يعلّل نفسه أن يحضر السلطان الزواج، إد وعده بذلك، لكن أمراً طارئاً أجهض هذا الأمل، فاكتفى السلطان بأن أعطاه ساعتين عليهما صورته هدية للعروسين، ووعد مجدداً أن يقوم بالزيارة في غضون أيام.

حتى ثروت، التي وصفها السلطان بالقطة، لخفة نومها وشدة

حساسيتها، لم تستيقظ هذا الصباح إلا في وقت متأخر، كما لم تنتبه حين نهض السلطان وغادر فراشه. ولا يعرف إن تعمد عدم إيقاظها، أم أنها كانت غارقة في نوم عميق لما غادر القصر. كما أنه لم يعد لتناول القهوة في الشرفة الداخلية، وكان يفعل ذلك كل صباح خلال فصلي الشتاء، والربيع، ويحتمل أن يكون قد توجه مباشرة من حديقة الزهور إلى مكتبه. ولذلك لم تستطع ثروت أن تقدر متى استيقظ، وهل تناول القهوة أم لا، وأي الملابس ارتدى، رغم أنها فتحت الخزائن وألقت نظرة لتحزر، وهي لا تفعل ذلك إلا نادراً.

برودة الطقس، ذلك الصباح من آذار، ورائحة الهواء، وتلك الغيوم الخفيفة المتفرقة، إضافة إلى الغترة الصوفية التي حرص السلطان على ارتدائها، وهو لا يفعل ذلك إلا في الأيام الباردة، ثم سؤاله لصالح الوطبان، أحد المسؤولين عن حديقة الزهور عن احتمال سقوط المطر، يفسّر سرعة مغادرته الحديقة، وتوجهه إلى المكتب في هذا الوقت المبكر، وقد أربك وصوله المفاجئ، وفي مثل هذه الساعة، حرس المكتب والمناوبين، إذ كان معظمهم في حالة من الحرية المفرطة، من حيث المظهر والملابس، الأمر الذي سبّب لهم الكثير من الحرج زاد في ارتباكهم، وحركتهم. كما أن عدداً منهم لم ير السلطان مباشرة أو عن قرب، لأن العادة أن يتركوا المكاتب قبل وصول موظفي النهار. ورغم كل شيء فقد لاحظ هؤلاء أن السلطان أقرب إلى الحزن والهم. ولم يسمعوا منه سوى الرد على تحياتهم، وكان صوته منخفضاً أقرب إلى الهمس.

الناس الذين غادروا بيوتهم مبكرين ذلك الصباح أحسوا بلسعة البرد، ولم يفت أي منهم أن يتشمم الهواء، ثم أن يرفع رأسه إلى السماء ليقرأ رائحة المطر. وصدف أن عاد بعضهم إلى بيته ليغير عباءته أو غطاء الرأس، تحسباً من الأمطار المتوقعة.

ومع أن المطر، أو رائحة المطر، يدخل الفرح إلى الصدور، فإن الحزن الذي ملأ القلوب وفاض حتى وصل إلى الروح، لم يترك مكاناً لابتسامة أو لظل ابتسامة. كانت عيون الناس تنظر إلى الأرض، وكأنها

تبحث عن شيء لم تجده في مكان آخر. وكانت النسوة أقرب إلى الهم والخوف، خاصة بعد أن أخذت أخبار المناطق تصل إلى موران: الإعدامات التي جرت؛ السجون الجديدة التي أقيمت في البادية الشمالية والغربية؛ ثم أفواج المعتقلين التي وصلت خلال الأسابيع الأخيرة. ورغم الحرص الذي تميزن به في قراءة أفكار الرجال أو حركاتهم، فلم يظهرن الخوف، ولم يبالغن في الحذر إلى درجة تلفت النظر، لأنهن يعرفن ردود الفعل الحانقة، والتي تصل إلى درجة الجنون، إذا عرف الرجال.

أما متى بدأ السلطان يوم العمل، ومتى وصل موظفو النهار، وكيف رتبت مواعيد ذلك اليوم، فإن التكتم ترافق مع تعدد الرواة واختلافهم. فالوفد الكبير الذي وصل من العوالي قبل ثلاثة أيام، وقد حدد له يوم الخميس موعداً لمقابلة السلطان، أبلغ الوفد أن الموعد أرجئ ليوم السبت أو الاثنين، لأشغال طارئة جدّت.

ومع أن الوفد أثار، منذ وصوله، صخباً في موران كلها، لكثرة عدده، ولأن عمر زيدان كان ضمن الوفد، فلم تتخذ أية إجراءات قاسية، بناء لأوامر مباشرة من السلطان، كل ما لجأ إليه راكان أن طوق الوفد بعددٍ من المخبرين، وطلب أن تنقل إليه أية كلمة من أي شخص كان، خاصة عمر زيدان، «لأن الناس جيران مقبرة ما هو بس بموران وحدها وإنما بالسلطنة كلها... ويشوفونْ».

عمر زيدان ذاته ما كان ليبلغ هذا الحد من الحنق والهياج لولا اعتقال ابنه الوحيد، فقد جاءوا إليه في الليل المتأخر وأخذوه. ولما حاول عمر أن يمنعهم، أن يقاوِم، دفعوه، أوقعوه أرضاً وأخذوا ناصر وغابوا، ومضت شهور لم يسمع عنه خبراً. وإذا كان قد احتمل الفترة الأولى بصبر، فأخبار الإعدامات، والموت في السجون الصحراوية أفزعته. ومع أنه راجع الكثيرين، وسأل في كل مكان، لكنه لم يتلق خبراً يطمئن إليه، لذلك قرر أن يشكل هذا الوفد ويأتي إلى موران. وقد سبقته تحدياته وشتائمه، حتى قيل إنها وصلت إلى السلطان.

كان يقف وسط شارع التجار في الطريفة ويصيح:

ـ على بالهم أنهم إذا أخذوا ناصر خلصت الدنيا؟ لا، غالطين وواهمين، أخذوا قبله آلاف، وأخذوا بعده آلاف، وبعدنا رجال ونحمل. وهذا التاريخ دونكم أقروه زين، ألف حاكم جا وراح، وكل واحد كأنه طيف أو منام، ويجي يوم ما تنفع الملامة والندم.

وحين يرى في العيون التأييد والصلابة، يهدر صوته:

ـ «أنا حتفهم
أي نعم
أنا حتفهم... الج البيوت عليهمو
أي نعم
الج البيوت عليهمو اغري الوليد بشتمهم والحاجبا
اي وربي وديني
الج البيوت عليهمو اغري الوليد بشتمهم والحاجبا
اي نعم: اغري الوليد بشتمهم والحاجبا، ولألعن والد والديهم»

ومع النغم الذي يجوّده، ينتقل فيه من مقام إلى مقام، من نبرة التحدي إلى ذروة السخرية، تتعالى كلمات الاستحسان وطلب الإعادة والتحدي، ويستجيب عمر زيدان لهذه الطلبات حتى إذا انتهى من الغناء، يخرج صوته متحدياً:

ـ حنا وياهم والزمان طويل، ويشوفون!

لقد وصلت أخبار العوالي إلى السلطان فخاف وتحسب، فهو يعرف الناس هناك أكثر من باقي الأخوة، ويعرف كيف يفكرون وما يمكن أن تكون ردود أفعالهم. وكان يفكر أن يستغل مناسبتين قادمتين ليصلح أخطاء راكان، يوم العرش وذكرى تأسيس السلطنة، لكي يطلق سراح عدد من السجناء والمحكومين، كما قرر أن يستقبل الوفد الذي جاء من الطريفة، ليطيب الخواطر ويهدئ النفوس.

في ذلك الصباح جرت محاولات عديدة للاتصال بالأمير راكان، لكن هذه الاتصالات لم تجد، إذ لم يستطع أحد أن يوقظه من النوم بعد سهرة

الليلة البارحة، كما لم يبلغ السلطان بالنتيجة، وقيل ربما كان موجوداً خارج موران، لأن معظم الإجابات التي تلقاها مكتب السلطان كان يحتمل تفسيرات عديدة.

أما الرويشدي الذي وصل في التاسعة لمقابلة السلطان، علماً بأن الموعد الذي كان مخططاً له في السابق هو في الحادية عشرة، فإنه لم ينم لحظة واحدة في الليلة الفائتة، لكي يطابق أرقام المصروفات مع أرقام الإيرادات. وقد لجأ إلى حذف بعض المشاريع، وإلى دمج أخرى، في محاولة للوصول إلى نوع من التوزان، لكنه لم يستطع. وكان خائفاً أيضاً من بحث اقتراح تخفيض مصاريف القصور من أجل التغلب على العجز.

لذلك حين وصل كان شديد الاضطراب، أصفر الوجه، وقد نسي أحد الملفات في منزله، ولم يكتشف الأمر إلا حين فرد أوراقه وبدأ، مما اضطره إلى إرسال أحد مرافقيه لإحضار الملف. ضحك السلطان لاضطرابه ونسيانه، ووافق على أن يستقبل بعض الزوار خلال الفترة التي يستغرقها إحضار الملف.

قيل إن السلطان وقف وتمشى في الغرفة قبل أن يبدأ باستقبال الزوار. وفي وقت لاحق قال الرويشدي لعدد من أخلص أصدقائه، ان السلطان وقف طويلاً عند النافذة المطلة على أشجار النخيل، وتساءل عن الطيور السوداء التي كانت تصل على شكل رفوف كبيرة، وحين لم يجبه الرويشدي، التفت إليه السلطان وقال:

ـ أنتم يا أولاد المدن ما تعرفون إلا اللي تقرونه بالكتب!

ويتذكر أهل الزرنوق أن شمران استخرج بندقيته في الليلة ذاتها، وقام بتنظيفها جيداً، وأكد اثنان من أقاربه، رافقاه في جولة الصباح، أنه على غير عادته أخذ معه البندقية وأطلق في الصباح المتأخر، والشمس ارتفاعها ثلاثة أو أربعة أرماح، مشطاً كاملاً، أطلقه وهو يهزج، وحين استغرب القريبان، قال:

ـ البارودة إذا فات وقت طويل وما لعلع صوتها تصدّي، والفشك إذا فات عليه الوقت يبرّد.

وأكد هذان الاثنان أنهم رأوا في الأفق عدداً من رفوف اليمام.

وفي الليلة الفائتة، أو ربما قبلها بليلة أو اثنتين، قيل إن ابن البخيت أبلغ أولاده، دون مناسبة واضحة، أنه إذا مات لا يريد للقصر أن يدري قبل الدفن، أما في العزاء، وقد شدّد على الكلمات، وكانت تخرج من بين أسنانه المتبقية على شكل صرير:

ـ فإذا وصل واحد منهم اكسروا رجله، وقولوا له: عبدالله ما مات!

بين التاسعة والعاشرة، حين استقبل السلطان عدداً من الزائرين، أُبلغوا قبل دخولهم: «تسلّمون، وتتقهون وتمشون، لأن طويل العمر وراه أشغال كثيرة»، قيلت هذه العبارة لجميع الذين زاروا جلالته.

قال الرويشدي بعد يومين، وبعد أن استعاد قدرته على الكلام «... ودخل الأمير ضاري بن عمير، ضعيف، صغير، ولما مد طويل العمر يده...

«لا... كان طويل العمر بصدر المجلس، وكنت على بعد خمس أو ست مقاعد... لا بالله كنت أقرب. ناس تفوت وناس تطلع. سلام وشلونكم وقهوة وفي أمان الله. وفات ضاري. مثله مثل غيره وفجأة اشتعلت الدنيا...

«لا... الصحيح أن الواحد ما يقدر يستعيد كل شي صار، لأن المسألة صارت بلمح البصر، مثل البرق، دخل بعباته، تلفت هنا، هنا، وابتسم. ابتسم له طويل العمر، وثارت الدنيا. اشتغل الرصاص من كل مكان واشتعلت، وما شفت إلا الدماء والصياح، وواحد يقع وواحد يركض، والأبواب انفتحت، والناس تجمعت، وكل واحد يصيح، وبعدها ما حسيت ولا دريت».

وفي وقت لاحق، وأمام المحقق، قال مدير مكتب السلطان:

ـ لما سألته عن طلبه، قال: أريد أسلّم على طويل العمر. قلت له: طلب ثاني؟ قال سلامتك. اسلم وامشي. قلت له: طويل العمر وقته ضيق وما أريد أوصيك: تسلم وتتقهوى وتمشي. قال: ما يخالف. وبعده ما

دخل إلا واسمع الرصاص والصياح. دخلت، لقيت طويل العمر منكفي والدماء تنزف. كان الروشيدي موجود لكنه اصفرّ وأغمي عليه وتكوم بأرضه. ظنيت أنه انصاب، لكن بعد ما نقلنا طويل العمر، ورجعنا للرويشدي ما لقينا به أي صواب، سالم، لكنه غايب عن الوعي. حملناه وشلناه للمستشفى.

قال شلّيل المشاط، أحد حرس السلطان:

ـ يا سبحان الله، هالولد ما عجبني من يوم ما طب القصر. يتلفت، عيونه عيون حرامية، لما سألت عنه. قالوا: الأمير ضاري. قلت: على خيرة الله، لكن قلبي ما ارتاح، وبعدها صار اللي صار.

أما شعلان المصلح، الذي يصب القهوة لضيوف السلطان، فقد قال:

ـ شفته يتخطر بغرفة مدير المكتب. قلت: واحد من آلاف. لما طب على طويل العمر طبيت وراه، هو يمشي خطوة وأنا أمشي خطوة، لما صار بينه وبين طويل العمر مسافة خطوة مد يده وبلّش. تراجعت. انقلبت وانقلبت الدّلة والفناجيل وانكسرتْ وانكسرتُ، ولولا ذلك كان كظيته مثل البّس!

وقال رواة آخرون روايات أخرى. لكن ما هو مؤكد أن السلطان لفظ أنفاسه قبل أن يصل إلى مستشفى القصر، رغم أن المسافة بين المكاتب والمستشفى لا تزيد على خمسمائة متر.

انتشر الخبر بسرعة البرق، رغم الصمت المدوي الذي أعقب الرصاصات الست التي أطلقت في ذلك اليوم الربيعي.

أما كيف ألقي القبض على ضاري بن عمير، هل سلّم نفسه، أم هجم عليه الحرس وأمسكوا به، ثم انتزعوا سلاحه، فإن الروايات حول ذلك من الكثرة والاختلاف إلى درجة تثير الابتسام والسخرية. ولا يتردد بعض حرس الأمراء، الذين كانوا في القصر، أو في أمكنة بعيدة، من الادعاء أنهم شاركوا في القبض على ضاري!

راكان الذي وصل إلى قصر السعد بعد ساعتين، ولا يعرف أين كان،

أو من أبلغه الخبر، وجد عدداً من الأخوة مجتمعين. كان الصمت، وهزات الرؤوس والعيون الزائغة والحيرة والانتظار.

قيل إن عدداً من الأخوة رشحوا راكان سلطاناً، لكن راكان رفض بحزم أقرب إلى العداء. ولم يُستطع تفسير هذا الرفض أبداً. وقيل إن راكان كان خائفاً ومضطرباً، وأكدت إحدى نساء قصر الروض أنها رأت شتيوي السرحان يخرج من قصر الأمير راكان قبل صلاة الظهر بقليل، وبعده خرج الأمير. وهذه المرأة عرفته، لأنه سبق لشتيوي أن قرأ لها كفها، وصحت الكثير من المعلومات التي ذكرها!

في اليوم التالي دفن السلطان فنر. وعند العصر تم اختيار الأمير مانع سلطاناً جديداً.

قال أحد موظفي مطار موران، أن الطائرة التي أقلّت غزوان للمشاركة في حفل التشييع من أكبر الطائرات التي هبطت في المطار، كان على متنها غزوان وحده، مع عدد من الحرس الخاص. وقد بقيت الطائرة بانتظاره ثلاثة أيام. أما حين أقلعت مغادرة موران، فقد سافر عليها أيضاً الحكيم وأم غزوان، إضافة إلى أعداد كبيرة من الصناديق والحقائب، وقد وضع قسم منها داخل مقصورة الركاب، في الجزء الخلفي. ولم يعرف أبداً محتويات الصناديق والحقائب، ولم يعرف أيضاً ما إذا كانت لعائلة المحملجي أم لغيرها!

ابن البخيت، حين بلغه خبر الطائرة، حجمها وانتظارها، ثم كيف نقلت الركاب الثلاثة، والصناديق والحقائب، فقد قال ساخراً:

ـ اي بالله، أخذوا الزكاة والفطرة، ومعها خُمس الجد... ومشوا.

وضحك وهو يضيف:

ـ إذا البلد ما هي بلدك، والناس ما هم ناسك، لا يهمك: شمّر واخرا.

وقبل أن ينقضي أسبوع أذاع السلطان برنامج السلطنة في المرحلة الجديدة، وكان من أبرز ما فيه: البدء بإعداد الدستور، وتنفيذ عدد كبير من المشاريع، ووعد بالعفو عن المساجين.

قال عمر زيدان لابنه، الذي كان في سجن عين دامة:

ـ الله راحمكم لأنكم ما تسمعون لغاوي الإذاعة والجرايد. . .

وزفر ثم أضاف:

ـ كانت الكلمة تسوي قنطار، وكان الإنسان لسانه، أما هالحين. . .

وضحك بحزن.

قالت هدلة الفرحان، جارة بيت عمير، لزوجها، بعد أن خمد تماماً صوت رأسي الماعز اللذين كانا في بيت عمير، وقد تركا وحدهما بعد أن أخذ الجميع، صغاراً وكباراً. قالت هدلة:

ـ شنهو اللي بلا الناس، ما يشوفون؟ ما يسمعون؟ ما يمشون بين القبور؟

رد حمد الدولعي:

ـ الناس شايفين كل شي يا هدلة، بس يلزم غيرهم يشوف ويسمع ويمشي بين القبور، حتى يتعلم.

وغرق الاثنان في الصمت والتأمل. .

وبدأت موران تتنصت وتتلفت وتترقب. . . من جديد.

انتهت

صيف ١٩٨٨

مُدُن المِلح
بادية الظلمات

* السرد الروائي في معظم صفحات الرواية ليس تعبيراً عن شخصية محددة أو أكثر، وليس وصفاً لحدث فردي بعينه، وإنما تعبير في أغلب الأحيان عن أحاسيس جماعية، عن مشاعر جماعية، عن مواقف وأحداث جماعية.

محمود أمين العالم

* كيف أمكن لمنيف أن يفرد كل هذه الخيوط، أن يتركها تنفلت متحررة باتجاه عوالمها الصغيرة، ليبقى قادراً، في الوقت نفسه، على فتح قنوات التواصل بينها، فإذا هي، وفيما تبدو متجهة نحو هذه العوالم، تكتفي ضمن عالم مجتمعها المتسع المفتوح على مزيد من التحول والاتساع.

يمنى العيد

* عمل يذكّرنا بمائة عام من العزلة فيما يغزله من غموض صوفي، وفيما يرتكز عليه من ميثولوجيا وخرافة شعبية، وفيما توحي به رمزيته من إيحاءات مثيرة.

شيكاغو تريبيون

* العرب بالنسبة للأميركيين هم مجرد مخلوقات متوحشة غريبة لا تستحق أكثر من التقاط الصور لها وهي على ظهور الجمال، دون أن يستحقوا أي جهد لفهمهم كبشر

ديفيد جيلمور

ISBN 978-9933-407-05-6

9789933407056

المؤسسة العربية للدراسات والنشر - المركز الثقافي العربي